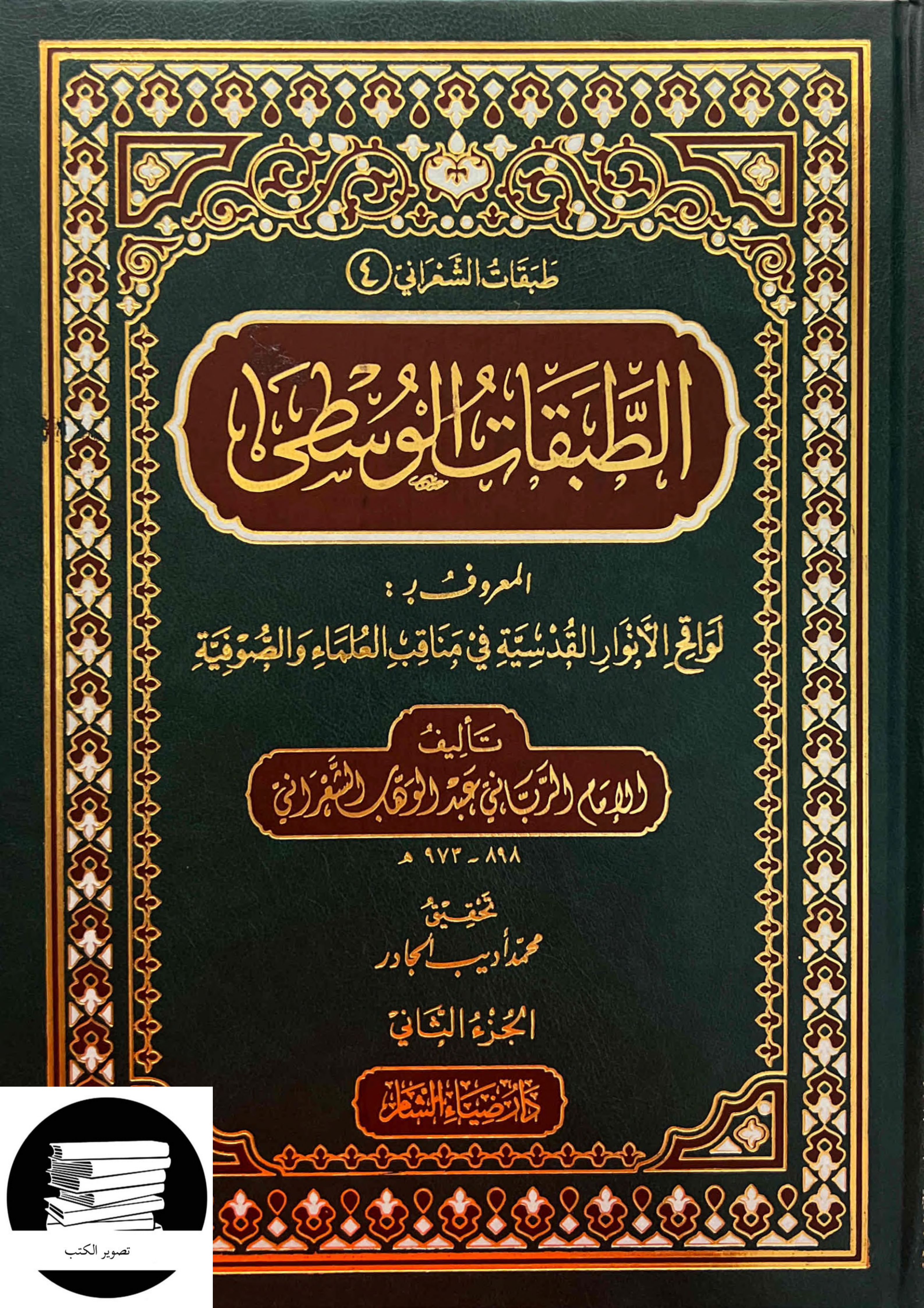
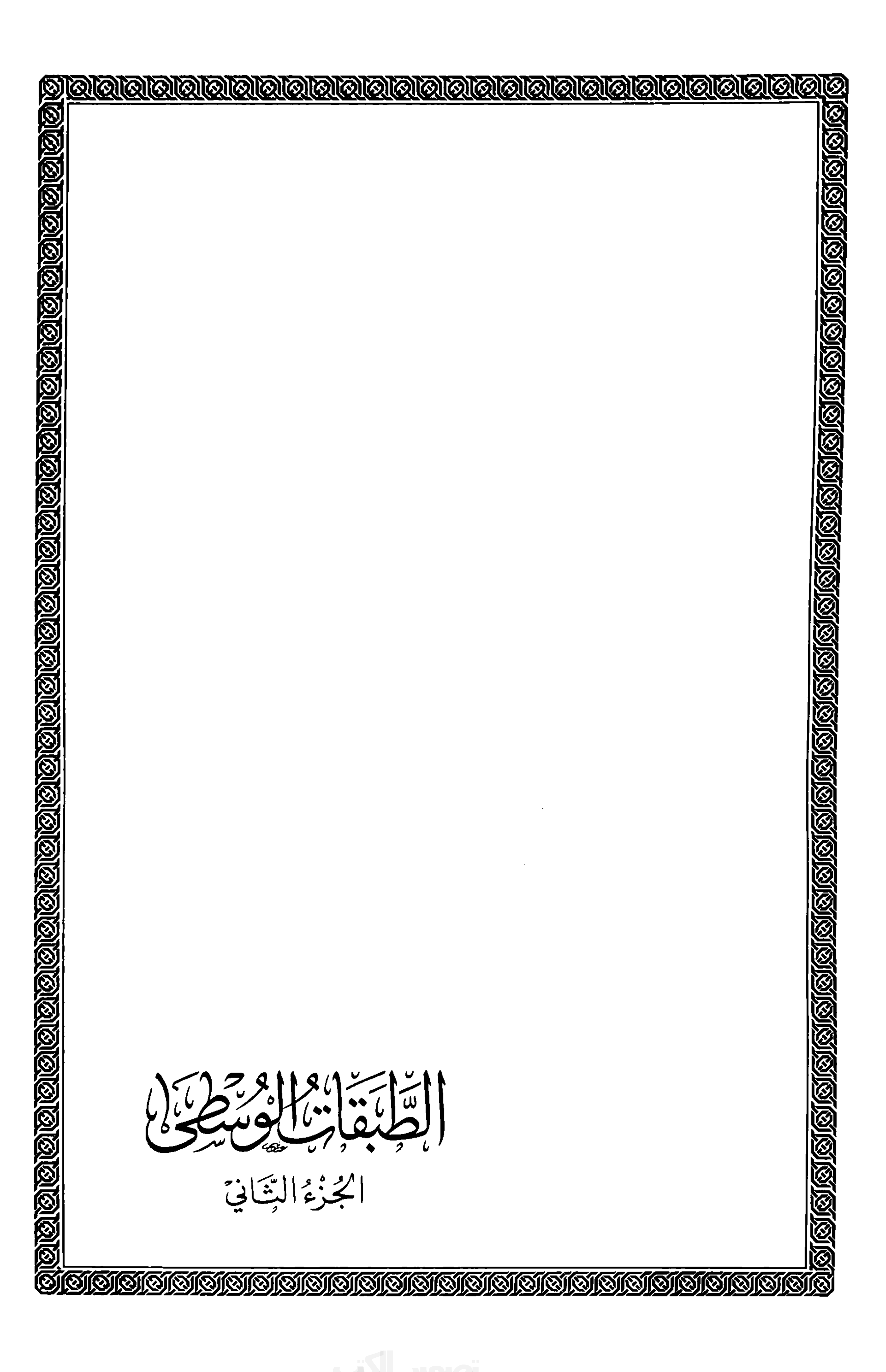


طبقات الشعراني ٤
الطبقات الوسطى
المعروف بـ:
لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية
تأليف
الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ
تحقيق
محمد أديب الجادر
الجزء الثاني
دار ضياء الشام
تصوير الكتب


الطبقات الوسطى
الجزء الثاني



الكتـــاب : الطبقات الوسطى - الجزء الثاني

(لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية)

المـؤلـــف : الإمام الرباني عبد الوهاب الشعراني

تحقيـــق : محمد أديب الجادر

الناشـــر : دار ضياء الشام

التنفيذ الطباعي: مطبعة ضياء الشام

عدد الصفحات : ٥٤٤

سنة الطباعة : ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بلد الطباعة : سوريا

الطبعـــة : الأولى

ISBN: 978-9933-9326-1-9





سورية - دمشق - حلبوني

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٢٤ ٦٨ ٤٢

جوال: ٠٠٩٦٣ ٩٣٣٨٧٨٠٧٥/٠٠٩٦٣ ٩٥٨٨١١٧٠٠

البريد الإلكتروني: deaa.nsr@gmail.com

الطبقات الوسطى

المعروف بـ:

لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية

تأليف

الإمام الربّاني عبد الوهّاب الشّعراني

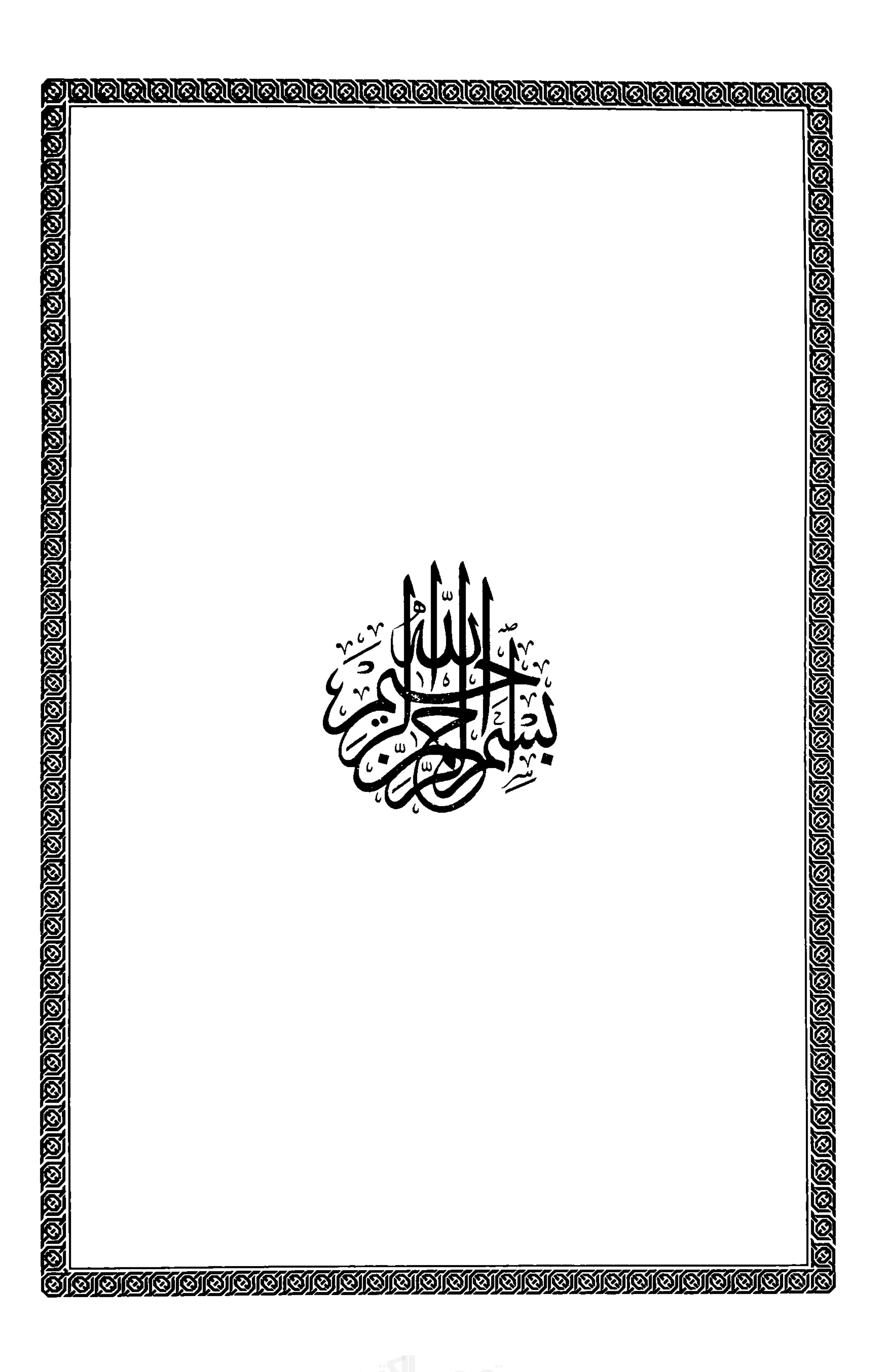
٨٩٨ - ٩٧٣ هـ

تحقيق

محمّد أديب الجادر

الجزء الثّاني

دار ضياء الشّام


بسم الله الرحمن الرحيم

قالوا في الإمام الشعراني رحمه الله تعالى :

• قال الإمام الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير :

شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراني . (٢/٩٠)

وقال في موضع آخر :

وحضر عندي سيدي الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله ببركته . (٢/٥٣٦)

• وقال الإمام الغزي في الكواكب السائرة :

الشيخ الإمام العارف الشعراني ... له طبقات الأولياء ثلاث ، والعهود ، والسنن وغير ذلك ، وكتبه كلها نافعة . (٢/١٥٧)

• وقال الإمام الشرقاوي في التحفة البهية في طبقات الشافعية :

الإمام العالم العامل المعتقد العارف بالله والدال عليه . (٧٠١)

نُبذةٌ صالحة

في ذكر أصحاب السطح المتفرقين في أقاليم مصر وغيرها رضي الله تعالى عنهم، آمين(١)

ومنهم :

(٣١٩) الشيخ الصالح الشيخ عبدُ المجيد رضي الله عنه(٢)

أخو سيدي عبدِ العال الخليفةِ الأعظم لسيدي أحمد البدوي .

نشأ هو وأخوه في ناحية فيشا المنارة ، ووقع له ولأخيه وقائعُ كثيرةٌ مع سيدي أحمد البدوي أوَّلَ قدومه إلىٰ ناحية طندتا ، وأحبَّهما وقرَّبهما ، وأخبر والدتهما : أن الشيخ عبد العال هو الخليفة بعده في مقامه ، وأما الشيخ عبد المجيد فكان يتردَّدُ علىٰ سيدي أحمد أيامَ وقوفه على السطح ، ثم انقطعَ إلى الله تعالىٰ ، وصحب سيدي أحمد البدوي مدَّةً طويلةً ، وتأدَّبَ بآدابه ، وعرف إشاراته .

وكان لا ينام الليلَ تبعاً لسيدي أحمد ، فاشتاق يوماً إلىٰ رؤية وجه سيدي أحمد ، وكان سيدي أحمدُ بلثامين ، لا يرى الناسُ منه إلا عينيه ، فقال : يا عبد المجيد ؛ كلُّ نظرةٍ برجل ، فقال : يا سيدي رضيت ، فكشفَ سيدي أحمد له اللثام ، فرآه ، فخرَّ ميتاً ، هـٰكذا أخبرني شيخُنا الشيخ محمدٌ الشِّناويُّ رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٠) الشيخ عبد الوهاب الجوهري رضي الله عنه(٣)

المدفون بناحية الجوهرية قريباً من محلَّة المرحوم .

كان رضي الله عنه من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي .

---

(١) أثبتت هـٰذه العنونة من النسخة (ي) .

(٢) انظر طرفاً من أخباره في « طبقات المناوي » (٢/ ٣٧٨ـ٣٨٨)، (٣/ ٤٧ـ ٥٢) ، (٤/ ٤٣٦).

(٣) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٥٢) ، (٤/ ٤٣٦) .

وكان يأخذُ العهد على المريدين ، وله نسكٌ وعفَّةٌ ، وزهد وورع .

وكان كلُّ من أراد أن يأخذَ عليه العهد يقول له : خذْ هٰذا الوتدَ دقَّهُ في حائطِ هٰذه الخلوة ، فإن ثبتَ في الحائط أخذَ عليه العهد ، وإن خارَ ولم يثبت يقول له : اذهبْ إلىٰ حالِ سبيلك .

وكراماتُه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة في بلاده ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٢١) الشيخ قمر الدولة رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي ، ولم يجالسه سوىٰ ساعة فقط ؛ وذلك أنه كان من جند السُّلطان محمد بن قلاوون ، وكان مسافراً في وقتِ الحرِّ ، فطلع طندتا يستريح في ظلِّ شجرةٍ ، فسمع أن سيدي أحمد البدوي علىٰ موت ، فطلعَ يزوره ، فقال لسيدي قمر : يا أخي ؛ شقَّ لي هٰذه البِطيخة لأشربَ منها ؛ فإن بي حرارةً ، فشقَّها سيدي قمر ، وأسقىٰ سيدي أحمد منها ، فغلبتِ المرَّةُ الصفراء علىٰ سيدي أحمد ، فتقايأها ثانياً في البطيخة ، فشربَ قيئَهُ سيدي قمر الدولة بماء البطيخة كلِّها ، فقال له سيدي أحمد : أنت قمرُ هٰؤلاء ، وأشار إلىٰ أصحابه ، ولٰكن اذهبْ إلىٰ ناحية نفيا ، فأقم بها حتىٰ تموت ، ولا ترجعْ إلىٰ طندتا لا مُهنِّي ولا معزِّي ؛ خوفاً عليه من سيدي عبد العال وأصحابه .

فخرج سيدي قمرُ الدولة ، فجاء سيدي عبد العال بعده ، فأخبروه الخبر ، وأنه شربَ قيء سيدي أحمد ، فذهب ليُدركَهُ يأخذ الشربةَ منه غيرةً علىٰ أثر سيدي أحمد أن يأخذه غيرُهُ ، فلحق قمرَ الدولة تحت الكوم الذي فيه التربة النفاضة عند البئر ، فدكس سيدي قمرُ فرسه في البئر ، فغطس بها فيها ، ورمحها تحت الأرض حتىٰ طلعَ من بئر ناحية نفيا ، فأرسل سيدي أحمدُ خلفَ سيدي عبد العال وقال : لا أحد يتعرَّضُ له ، فرجعوا عنه .

وله رضي الله عنه كرامات كثيرة حيّاً وميتاً .

وعمامته ومضرَّبتُهُ وقوسُهُ وجعبته معلَّقة في قبَّته فوق ضريحه ، وله مقام عظيم ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٢/ ٥٥٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٠) .

ومنهم :

(٣٢٢) الشيخ وهيب بناحية برشوب الكبيرة رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب سيدي أحمد البدوي .

وكان من أصحاب السطح ، أرسله سيدي عبد العال إلىٰ ناحية برشوب بالقليوبية ، وقال : إن بها قبرَك ، فلم يزل بها إلىٰ أن مات .

وله كرامات كثيرة ؛ وإذا وقع أنَّ أحداً من الظلمة أو الأعداء أرادَ أن يكبس البلدَ وينهبها . . يأتي الناسُ بأمتعتهم وحليِّ النساء والأموال فيضعونها في قبته ، فلا يقدرُ أحدٌ يدخلها من الظلمة ، وإن أرادَ أن يدخلَ يبستْ أعضاؤه .

وطلع الذئب داره مرةً والثعلب ليأخذا الدجاج ، فسمَّرهما على الحائط حتىٰ طلع النهار ، وأمسكَهما الناسُ .

وسرق شخصٌ مرَّةً ثورَ واحدٍ من أولاده من داره وأخرجه ، ومشىٰ به من بعد العشاء إلى الصبح ، فنظر فإذا هو دائرٌ حول البلد لم يتعدَّاها ، فمسكه الناس .

وكراماته كثيرة مشهورة ، ينذره الناس بالنذور في الشدائد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٣) الشيخ يوسف أبو سيدي إسماعيل الأنبابي رضي الله عنه[٢]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي أيام السطح .

أرسله سيدي عبدُ العال إلىٰ ناحية أنبابة تجاه بولاق[٣] ، فأقام بها واشتهر ، وزارته

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٤/ ٦٢٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٨٢) ، **وبرشوب** : هو الاسم الأصلي لقرية (برشوم) في مركز طوخ ، ضبطها صاحب « تاج العروس » (ب ر ج م) بضم أوله ، قال : والعامة تفتح أوله . انظر « قاموس رمزي » (١/ ١/ ٤٤) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٢١) (ضمن ترجمة ابنه) ، وذكره الزبيدي في « تاج العروس » (ن ب ب) قال : (**أنبابة** : ظاهر إطلاقه الفتح) .

(٣) في (ب ، ح ، د ، هـ ، و ، ط ، ي ، ك): (منبوبة) بدل (أنبابة) ، وفي (ز) : (أنبوبة) .

الأمراء والملوك فمن دونهم ، وعملوا له الموائدَ العظام ، وأنفقوا عليه الأموال ، وصار سِماطُهُ مثلَ سماط الملوك ، فلما شاع ذلك قال الشيخُ أحمدُ أبو طرطور لبعض الإخوان : امضوا بنا إلىٰ أخينا يوسف ننظر حالَهُ اليوم ، فلما دخلوا عليه قدَّم إليهم طعاماً فاخراً من حلوٍ وغيره ، وقال : كُلْ يا أبا طرطور هٰذه الماوردية ، واغسل بها غشَّ البسلة[1] والعدس الذي كنت تأكله في مقام سيدي أحمد ، فغضب الشيخ أبو طرطور ، وامتنع من الأكل ، وقال : ما هو إلا كذا ، تقول غش البسلة ، مع أنه لولا البسلة المذكورة ما وصلتَ إلىٰ ما وصلتَ ، فصالحه ، فلم يصطلح عليه ، وسافر الشيخ أبو طرطور إلىٰ سيدي عبد العال ، فاشتكاه له ، فقال : لا يكنْ خاطرك إلا طيب ، نحن نأخذُ الوديعة التي لنا عنده ، فنعطيها لولده إسماعيل ، فمن ذلك اليوم اختفىٰ يوسف .

[ومنهم :

(٣٢٤) إسماعيل بن يوسف][2]

واشتهر سيدي إسماعيل ولدُهُ ، وكلَّمته البهائم ، وظهرتْ له الكرامات .

وكان يقول : رأيتُ في اللوح المحفوظ كذا وكذا ، فيأتي الأمرُ كما قال ، فأفتىٰ بعضُ علماء المالكية بتعزيره ، فقال : ومما رأيتُ في اللوح المحفوظ : أنَّ هٰذا المالكيَّ يموتُ غريقاً ، فخاف القاضي المالكيُّ ، وردمَ الفسقية الماء التي كانت في قاعته ، فقالوا للقاضي : إذا كنتَ تُكذِّبه بأنه لا ينظر في اللوح المحفوظ فكيف ردمتَ الفسقية ؟! فقال : ردمتها احتياطاً ، فأرسل ملكُ الفرنج يطلبُ من سلطان مصر عالماً يُجادل قساقستهم ، ووعدوا بالإسلام إن قطعهم بالحجج ، فقالوا للسلطان : ما في مصر مثلُ فلان المالكي ، فأرسلوه ، فغرقَ في بحر الفرات .

وكرامات سيدي إسماعيل كثيرة مشهورة ، رضي الله عنه .

---

(١) البسلة : البازلاء .

(٢) انظر « تاريخ ابن الفرات » (٩/ ٤٢) ، و« تاريخ ابن قاضي شهبة » (١/ ٢٥٣) ، و« إنباء الغمر » (٢/ ٢٩٧) ، و« الدرر الكامنة » (١/ ٣٨٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٢١) .

ومنهم :

(٣٢٥) الشيخ أحمد المعلوف رضي الله عنه[١]

هو جد المعاليف ببلاد القليوبية .

وكان سيدي أحمدُ يُباسطه ، حتىٰ لم يكنْ يدخلُ دارَ سيدي أحمد راكباً غيره .

وكراماته كثيرة مشهورة في بلاد القليوبية .

وله أولادٌ علىٰ غير نعت الاستقامة ، وكلُّ من تعرَّضَ لهم بأذىً جاءته الدواهي ، وله نذور ، وكلُّ من قطعها خربتْ دياره في تلك السنة من الكشاف ومشايخ العرب ، وغيرهم .

[وكان إذا ناداه أحد من القبر أجابه][٢] ، فيقول أحدُهم : يا سيدي أحمد ؛ فيجيبُهُ في الحال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٦) الشيخ علي البريدي رضي الله عنه

كان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد البدوي .

وهو الذي أرسله السلطان محمد بن قلاوون بريدي إلىٰ سيدي أحمد بالسلام والهدية[٣] .

وله كرامات كثيرة ، ودفن مقابل مقام سيدي أحمد رضي الله عنه .

ينذره الناس بالنذورات .

وكان يقول : (لما اجتمعتُ بسيدي أحمد رأيتُهُ في عيني أعظمَ حرمةً من السلطان محمد بن قلاوون) .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٤/ ٢١٤) .

(٢) ما بين معقوفين مستدرك من « طبقات المناوي » (٤/ ٢١٤) .

(٣) وفاة سيدي أحمد البدوي سنة (٦٧٥هـ) ، وولادة السلطان محمد بن قلاوون سنة (٦٨٤هـ) فلعل هنا وهماً ، أو الإرسال كان لقبره ، والله أعلم .

ولما نزلَ السُّلطان محمد لسيدي أحمد يزوره وجدني أخدمه ، فقال لي : هنيئاً لك ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٧) الشيخ عبد العظيم الراعي رضي الله عنه[1]

كان يَرعىٰ بهائمَ سيدي أحمد وغنمَهُ .

وكان إذا غاب يُوصي الذئبَ على الغنم ، فيحرسُها الذئبُ له حتىٰ يحضرَ .

وكان يشارطُ الذئاب : علىٰ أنَّ لهم منها ما يموت فقط .

وكان كثيراً ما يُرسلُ البهائمَ والغنم إلى البرسيم من غير راعٍ ، فتأكل من مارس سيدي أحمد ، ولا تتعدَّىٰ للجارِ ، بل تخلي للجار من البرسيم نحو خط محراث .

وكانت تعرف مارس سيدي أحمد بالإلهام .

وله أولادٌ يقضون للناس حوائجهم عند الحكام ، ويطلعون كلَّ سنةٍ بإشارةٍ عظيمة إلىٰ مولد سيدي أحمد رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٢٨) الشيخ رمضان الأشعث رضي الله عنه[2]

شيخ الفقراء المنايفة المدفون بمدينة منف .

كان من أصحاب السطح .

وله كرامات ظاهرة ، وتأثيراتٌ غريبة في الكشَّافِ[3] ، ومشايخ العرب .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤١٩) .

(٢) انظر « الكواكب السيارة » (٢٨٤) ، و« تحفة الأحباب » (ص ٣٧٥) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٩٥) .

(٣) **الكشف** : التفتيش علىٰ مستغلات الأراضي ، ومن يقوم بهـٰذا العمل يُسمَّىٰ كاشفاً . وأصبح الكاشف يقوم بإدارة الإقليم ، وهو بمنزلة النائب .

وكان يُرسل عكَّازَهُ إلى الكاشفِ مع المظلوم ، فيقضي حاجتَهُ ، فردَّ شفاعتَهُ مرةً كاشفُ منف ، فطلعت له غدَّةٌ في رقبته ، فصارت كالبِطيخة ، فمات في الحال .

ومنهم :

(٣٢٩) الشيخ محمد الفرَّان رضي الله عنه(١)

الذي كان يخبزُ لسيدي أحمد رضي الله عنه .

كان يحرِّكُ نارَ الفرن بيده ، ويُخرجُ الخبزَ من الفرن بيده ، وكان يخبزُ الإردبَّ بنحو قدحينِ من الوقيد .

وكان يطبخ أيضاً ، فإذا لم يجدْ أدماً للطعام يملأ الإبريقَ من البئر شيرجاً أو دهناً ، فيجد الفقراءُ له لذةً عظيمة .

وكان يقرصُ جميعَ الخبز مع صغرِهِ بيده ، لا يُساعدُهُ فيه أحدٌ ، وهي كرامةٌ ظاهرة ؛ فإن الرغيفَ أصغر من بيضة الدجاجة .

وكان إذا شفع عند كبيرٍ لا يستطيعُ أحدٌ أن يردَّ شفاعته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٠) الشيخ عمرُ الشناوي الأشعث رضي الله عنه(٢)

وهو جدُّ شيخنا العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الشناوي .

وله كراماتٌ ظاهرة في ناحية شنو .

ومولده عظيمٌ يُعمل له كلَّ سنةٍ قبل سيدي أحمد بيومين ، ويحصل فيه مددٌ عظيم .

من كراماته : أنه يخرجُ من قبره راكباً فرساً ، ويُخلِّص من قطع العربُ عليه الطريق ، ويطرد العربَ عنه ، ثم يرجع إلىٰ قبره رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٢) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٩٦) .

ومنهم :

(٣٣١) الشيخ خلف[١]

المدفون بقنطرةِ سُنْقر بمصر المحروسة .

كان سيدي أحمد يقول له : (يا خلف ؛ أنت خليفتنا في مصر) .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ ليلاً ولا نهاراً .

وكان إذا استمعَ مَلَخَ الشجرةَ الكبيرةَ بيده رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٢) سيدي محمد الكناس رضي الله عنه[٢]

شيخ الكناسية الذين يكنسون المقامَ كلَّ سنةٍ في المولد .

وكان سيدي أحمد يحبُّهُ محبَّةً شديدةً .

وكان يكنُسُ كلَّ يومٍ مقام سيدي أحمد ، ومقام سيدي عبد القادر الجيلي ، ومقام سيدي أحمد بن الرفاعي ، وعدَّة مقامات في بلاد المغرب وغيره ، ويرجع إلىٰ طندتا في ساعةٍ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٣) الشيخ يُوسف البُرُلُّسي رضي الله عنه[٣]

المدفون ببلاد البُرُلُّس[٤] .

وله كراماتٌ عظيمة مشهورة ببلاد البُرُلُّس وغيرها ، وذرِّيَّةٌ صالحةٌ يُقرون

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٧٩) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٦٣٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٩٤) .

(٤) البرلس : بليدة علىٰ شاطئ النيل ، قرب البحر من جهة الإسكندرية . « معجم البلدان » (ب ر ل س) .

الضيف ، ويقضون حوائج الناس عند الحكّام .

ورأوه مراراً عديدة وهو يطلعُ من القبر ويُخلِّصُ مَنْ تعرَّض له قطاعُ الطريق .

ونذر له بدويٌّ مرة مُهراً ، ثم رجع فيه ، فبينما هو مارٌّ علىٰ ضريحه وإذا بالمُهرِ قد رمحَ حتىٰ دخل قبرَ الشيخ[1] ، فلم يعرفْ أحدٌ أين ذهب .

ومن كراماته : أنه كفىٰ أربعين نفساً بكسرة رغيف ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٤) الشيخ جمال الدين البُرُلُّسي رضي الله عنه[2]

له كراماتٌ عظيمة ، وكان يركب الأسدَ ، ويدعو الطيرَ من جوِّ السماء ، فينزل إليه ، ويدعو سمكَ البحر المالح فيطلع له ، رضي الله عنه .

وكان صائمَ الدهر ، قائمَ الليل ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٣٥) الشيخ عليٌّ أبو جبينة رضي الله عنه

المدفون بالقرب من جنينة الحشيش ببركة القرع بمصر المحروسة .

كان من أصحاب السطح ، وله كراماتٌ عظيمة حيّاً وميتاً .

وسمعت مرَّةً قائلاً يقول لي : صلِّ غداً العصر في جامع أبي جبينة ترى العجب ، فصلَّيتُ فيه ، فرأيت في قلبي انفساحاً وانشراحاً وأُنساً لم أجدْهُ إلا في مقامات الأئمة الكبار ؛ كالإمام الشافعي ، وذي النون المصري ، وأضرابهما ، رضي الله عنه .

---

(١) رمح : أي : ركض .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٤٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٨٣) .

ومنهم :

(٣٣٦) الشيخ عليٌّ البعلبكي رضي الله عنه

هو مدفون ببعلبك ، وكان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة في بلاد بعلبك والشام وغيرهما ، وكان يركبُ الأسود ، ويدخلُ بها بلدَهُ جهاراً .

وله كراماتٌ كثيرة مشهورة في بلاده ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٧) سيدي مبارك المنوفي رضي الله عنه[(١)]

كان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة ؛ منها : أنه راح بالملوخية إلىٰ سيِّده بعرفات .

ومنها : أنه كان يُخبرُ الناس بما يخطرُ في نفوسهم .

وكان إذا ضاعَ لأحدٍ شيءٌ يقول لصاحبه : امض إلى المكان الفلاني تجدْ متاعَك ، فيذهبُ فيجدُه كما قال .

وكان سيِّدُهُ من أكابر منوف ، فكان يقولُ لأولاده ، والعبدُ المذكور أعجميٌّ : ما يُطفئ اسمَنا إلا هـٰذا العبد ؛ يعني : بالشهرة بالصلاح ، فكانَ الأمرُ كما قال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٣٨) الشيخ محمد الخرقاني رضي الله عنه[(٢)]

لما حضرته الوفاة قال : ائتوني بقوسٍ ، فأخذَهُ ورمىٰ نشَّابة ، وقال : ادفنوني في موضع النشابة[(٣)] ، فوقعتْ في الخرقانية ، بساحل البحر بقرب قليوب ، فنقلوهُ إليها ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٢٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٤٠) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٣) في غير (أ ، ج ، ز) : (ادفنوني في موضع تقع) .

ومنهم :

(٣٣٩) الشيخ محمد الششيني رضي الله عنه[١]

صاحبُ الإشارة التي تطلع المولد كل سنة ، وهو من أصحاب السطح .

وكان ورعاً زاهداً ، وكان يُكمِّمُ بهائمه إذا سرحتْ إلى المرعىٰ بالكمائم ؛ خوفاً أن تأكلَ من زرعِ أحدٍ ؛ من برسيمٍ أو قمح أو فول .

وكان عطَّاباً ، كلُّ من تعرَّضَ له بسوءٍ عُطِبَ ، وكانت عليه تلك السنة أيشمَ السنين[٢] .

مكث سنين لا يضعُ جنبَهُ الأرض .

وله ذريةٌ صالحةٌ يُقرون الضيف ، ويَشفعون عند الحكام ، رضي الله عنه .

وشفع مرَّةً عند الكاشف في إنسانٍ ، فأبى الكاشفُ ، وقال له : إن كنتَ شيخاً انفخني ، فقال : باسم الله ، ونفخَ في وجه الكاشف ، فانتفخَ ، وتطرطرتْ يديه ورجليه ، وصار يصيحُ ، فاعتذروا إليه ، واستغفروا ، فمسحَ بيده علىٰ بطنه ، فانفشَّ ، ولم يزلْ مُريداً للشيخ إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٠) الشيخ سعدون بناحية بِلْبِيس رضي الله عنه[٣]

كان من أصحاب السَّطح ، وله كراماتٌ مشهورة في بِلْبِيس وغيرِها .

وسمَّرَ الذئبَ كذا كذا مرةً لمَّا أراد أن يأكلَ دجاج خادمه .

وكان مقيماً في خرابةٍ بناحية بلبيس إلىٰ أن مات بها ، ولم يرَهُ أحدٌ قطُّ يضحك .

وكان كاشفُ بِلْبِيس إذا جلس عنده يرتعدُ من هيبته ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨٣) .

(٢) أيشم بمعنىٰ : أشأم ضد اليُمن .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٢٥) .

ومنهم :

(٣٤١) الشيخ خليل الشامي رضي الله عنه

هو من أصحاب السطح .

أقام بالشام بإذنِ سيدي أحمد إلىٰ أن مات ، ودُفن بجنب دار السعادة .

ووقع له كرامات كثيرة مع نائب الشام ، فانجذبَ ، وتبعه وتركَ الإمرةَ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٢) الشيخ علي الزنكلوني رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب السطح كما قيل ، وله مكاشفاتٌ عجيبة .

كان إذا ضاع للإنسان بقرةٌ أو حمارة يقول له : اذهب إلى السوق الفلاني تجدْها مع شخصٍ صفتُهُ كذا يُريد بيعَها ، أو اذهب إلى الجزَّار الفلاني تجده ذبحها ، وهو يُريدُ بيعها ، فيمضون إلىٰ ما قال ، فيجدون الأمرَ كما قال ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٣) الشيخ خلف الحبيشي رضي الله عنه

المدفون بمُنية حِبيش[٢] ، بالقرب من ناحية نِفْيا[٣] .

كان من أصحاب السطح ، وله كرامات كثيرة في حياته وبعد مماته .

وكان سيدي محمد الشِّناوي يُسافرُ لزيارته ، ويقرأ عنده ختماً ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٦١) ، وزنكلون : قرية من مديرية الشرقية بقسم العزيزية . « الخطط التوفيقية » (١١/ ٢٥٥) .

(٢) منية حِبيش : من أعمال السمنودية ، تابعة لمركز طنطا ، حُرِّف اسمها إلىٰ ميت .

(٣) نِفْيا : من القرى القديمة ، من كورة السمنودية قريبة من مدينة طنطا .

ومنهم :

(٣٤٤) الشيخ علي الكبنيراوي رضي الله عنه[١]

هو من أصحاب السطح ، وله كرامات كثيرة في بلاد اليمن وغيرها .

وكان يركبُ الوحوش ، وإذا قال لها : لا تأكلي الحيوانَ الفلاني ، فيبيتُ ذلك الحيوان عندها فلا تكسره ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٥) الشيخ محمد الصناديدي رضي الله عنه[٢]

شيخُ سيدي عماد الدين رضي الله عنه .

كان له كرامات كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٦) الشيخ عماد الدين رضي الله عنه[٣]

المدفون بالقرب من بركة الناصرية من مصر .

كان جمَّالاً تُكلِّمُه الجمالُ وغيرها من الحيوانات .

وله كراماتٌ كثيرة في حياته وبعد مماته .

دخل اللصوصُ في الدرب الذي هو فيه ، فسرقوا وأرادوا الخروج ، فلم يجدوا باباً يخرجون منه حتىٰ طلعَ عليهم النهارُ ، فمسكهم الوالي أجمعين بعملتهم ، رضي الله عنه .

---

(١) في (أ) : (الكبراوي) ، وفي (هـ ، ي) : (الكيزواني) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (الصنافيري) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٤٨٣) ، و« جامع كرامات الأولياء » (ص ٢١٧) .

ومنهم :

(٣٤٧) الشيخ سعد التكروري المدفون بحوران رضي الله عنه[١]

كان له مكاشفات غريبة ، وهو من أصحاب السَّطح .

وكان صائم الدهر متورِّعاً ، لا يأكلُ من طعام أحدٍ من الولاة وحاشيتهم شيئاً .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ في صيفٍ ولا شتاء .

وكانت الحيواناتُ المتعاديةُ تجتمعُ عنده ، فلا يبغي بعضُها علىٰ بعضٍ ؛ كالقطِّ والفأر ، والثعلب والدجاج ، والذئب والغنم .

وكان مكانُهُ كلُّهُ حيَّاتٍ وعقاربَ ، لا يستطيع أحدٌ أن يجلسَ عنده ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٨) الشيخ محمد الزعفراني رضي الله عنه

بناحية طُرَا[٢] .

كان وليّاً عظيماً ، وله كرامات كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٤٩) الشيخ نعمة رضي الله عنه[٣]

خفيرُ صفد .

كان من أصحاب السطح ، وكان اللصوصُ لا يقدرون يسرقون شيئاً من صفد ؛

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٢٢) ، ذكره ابن فضل الله العمري في المزارات في الجزء الأول من « مسالك الأبصار » ، وأنه مدفون بنوى بحوران .

(٢) طُرَا بضم أوله : قرية في شرقي النيل ، قريبة من الفسطاط من ناحية الصعيد . « معجم البلدان » .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ٣١١) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٦١٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٧٧) .

خوفاً من الشيخ ؛ فإما يُسمِّرَهم في الأرض حتىٰ يأتي الوالي فيمسكهم ، وإما يخرجُ من قبره ، فيطردُ اللصوص ، ويخلِّصُ متاع الناس منهم .

وكراماتُهُ مشهورةٌ بصفد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٠) الشيخ عبد الله اليوناني المدفون ببعلبك رضي الله عنه[١]

كان من أصحاب السطح ، وله كراماتٌ وخوارق في بعلبك ونواحيها .

وكان يحرسُ البساتين وغيرها ، ويأكلُ من كسبه ، ولا يذوقُ من فاكهة البساتين شيئاً ، ويقول لبطنِهِ : يا بطنُ ؛ أمامك في الجنة ما هو أحسنُ من هـٰذا ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥١) الشيخ عز الدين الموصلي رضي الله عنه

كان أصلُهُ نائباً في طرابلس ، فهاجر إلىٰ سيدي أحمد لما كان بالعراق فصحبه ، وخرجَ عن الدنيا .

وكان من أوائل أصحاب سيدي أحمد ، مات بالموصل ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٢) الشيخ أحمد بن علوان اليمني بناحية تعز رضي الله عنه[٢]

له كراماتٌ كثيرة .

وتنذرهُ المراكبُ إذا أشرفت على الغرق[٣] ، فيُخلِّصُها من الغرق إلى الآن .

---

(١) في (ج ، ي) : (النوناني) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٥) .

(٣) في (أ ، ز) : (وكانت المراكب إذا أشرفت . . .) بدل (وتنذره المراكب . . .) ، وفي (هـ ، و ، ي ، ك) : (تندهه المراكب) ، وتندهه : أي : تناديه .

وجاؤوا إليه بالفيل في الزاوية ، وطلبوا علفه ، فما وجدوا إلا قوتَ الفقراء من الأرز ، فأرادوا أخذه ، فمنعهم الشيخُ ، فأبوا ، فأشار إلى الفيل فغاصتْ قوائمُهُ في الجبل خارج الزاوية ، فعَظْمُهُ غائصٌ في الصخر إلى الآن ، يراه كلُّ من يمرُّ عليه .

وهو من أصحاب سيدي أحمد البدوي بمكَّة أوائل جذبه قبل خروجه إلىٰ بلاد العراق ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٣) الشيخ خوسج المصري رضي الله عنه[١]

المدفون بزَبيد من بلاد اليمن ، رضي الله عنه ، هو من أصحاب السطح .

وكان وَرَدَ علىٰ مصر ، فزار سيدي أحمد بطندتا وهو على السُّطوح ، فأشار عليه بالرجوع إلىٰ زَبيد ، وقال : أقمْ هناك تُذكِّرْ بنا من يزور ليلىٰ[٢] ، وما بقي بيننا اجتماع .

وكان له كراماتٌ ؛ منها : أنه كان يُطعمُ المئةَ من إناءٍ صغير .

ومنها : أنه كان يحملُ معه الركوةَ في البراري ، فيُخرجُ منها ما شاء من الماء ، أو العسل ، أو اللبن ، أو السمن ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٤) الشيخ محمد بطَّالة رضي الله عنه[٣]

بناحية فيشا المنارة[٤] ، كان من أصحاب السَّطح .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، هـ ، ز ، ط ، ك) : (خوسح) ، والمثبت من (أ ، و ، ي) ، وانظر ترجمته في « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٨٢)، و« جامع كرامات الأولياء » (٦/٢) (خولج) .

(٢) في « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢٨٢) (تذكر بنا من يريد زيارتنا) .

(٣) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٥٨١) .

(٤) **فيشا المنارة** : من القرى القديمة ، من أعمال المنوفية ، تميَّزت بمنارة مسجدها المرتفعة ، فسميت بها . « قاموس رمزي » (١٠٣/٢/٢) .

وسُمِّي بطَّالة ؛ لأنه كان يقولُ : (جميعُ عبادات هـٰذه الخلائق بطالةٌ بالنسبة إلى التحقيق) .

وكان رضي الله عنه من أشدِّ الناس ورعاً ، وكان يُكمِّمُ بهائمَهُ إذا سرحت الغيط .

وكانت شفاعاته مقبولةً عند الكشَّافِ ومشايخ العرب ، وغيرهم .

وكان كثيرَ العطب لمن يردُّ شفاعتَهُ ؛ إما أن يأتيه بحربةٍ من نار ، ويضيِّقُ عليه حتىٰ يمنعَهُ النومَ ، وإمَّا ببليَّةٍ تنزلُ علىٰ بهائمه وأولاده وبدنه من برصٍ أو جذام ، حتىٰ لا يتهنَّأ بعد ذلك بعافيةٍ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٥) الشيخ شعيب رضي الله عنه[١]

المدفون قريباً من باب البحر ، خارج السور ، كان من أصحاب السطح .

وله كراماتٌ كثيرة ؛ منها : أنَّ الظلمةَ بيَّتوا علىٰ قطعِ النخلةِ التي في زاويته ، فأتوها ليقطعوها ، فوجدوها ملتويةً كالثعبان ، فرجعوا عنها ، وهي إلى الآن مكوَّعة .

وله نذور كثيرة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٦) الشيخ أحمد أبو طَرْطُور رضي الله عنه[٢]

هو من أصحاب السطح .

وهو الذي كان سُلِبَ سيدي يوسف أبو إسماعيل الأنبابي بسببه .

وخدَّامُهُ يقال : إنَّهم لا بدَّ أن يَلُوا خلافةَ سيدي أحمد ، واسمهم : الطراطرة ، وهـٰذا شيخُهم .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٤٤) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٤١) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٣) .

وكان يملأ على البئر التي هي قريب من مقامه بنواحي أَوْسِيم بالجيزة[١] .

وله كرامات كثيرة مع الحكام .

وكان يقول : (كلُّ فقيرٍ لا يقتلُ عددَ شعر رأسه من الظلمة فليس هو بفقير) .

وكان له طُرطورٌ من جلد[٢] .

وأقام بالبرية إلىٰ أن مات في مقامه الذي هو فيه الآن ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٥٧) الشيخ أحمد الأباريقي رضي الله عنه[٣]

المدفون بروضة المقياس .

له كرامات عظيمة مشهورة في الروضة وغيرها .

وكان يُكلِّم الملائكةَ الكرام الكاتبين ، ويتحدَّثُ معهم في أحوال الملأ الأعلىٰ وطبقات مراتبهم .

وبتُّ أنا عنده ليلةً[٤] ، فأتاني مَلَكٌ من قبره ، قال لي : اسمعْ مني هٰذا الكلامَ الجامع لكلِّ كلام ، فقلتُ له : نعم ، فقال : ليس لعبدٍ أن يشغلَ قلبَه بالاختيار لفعلِ شيءٍ أو تركه في المستقبل ، وإنما عليه أن يُعطي ما أبرزَهُ الحقُّ تعالىٰ علىٰ يديه من الأعمال حقه ، فإنْ كان طاعةً حمدنا عليها ، واستغفرنا من تقصيره فيها ، وإن كان معصيةً حمدنا علىٰ تقديرها عليه ؛ فإنه حكيمٌ عليم ، واستغفرنا من حيث ارتكابه ما يخالف أمرنا ، وإن كان غفلةً وسهواً فعل ما هو اللائق بمقامه ، وقد قرَّبنا لك طريقَ الأدب معنا في كلِّ ما نجريه علىٰ يديك ، والسلام .

---

(١) **أوسيم** : من المدن القديمة ، في الضفة الغربية من النيل ، دون الجيزة بثلاثة فراسخ . « قاموس رمزي » (٢/٣/٥٧) .

(٢) **الطُّرطور** : بضم الطاء : قلنسوة للأعراب طويلة الرأس .

(٣) انظر « العهود الصغرىٰ للشعراني » (العهد ١٤٠) ، و« تحفة الأحباب » (ص ١٥٥) ، و« طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٣) .

(٤) في غير (هـ ، ي ، ك) : (نمت) بدل (بتُّ) .

فما سررتُ عمري كلَّهُ مثلَ سروري بهـٰذا الخطاب ، ولم أرَ لذَّةً تُعادل سماعَ كلام ذلك الملك ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

ومنهم :

(٣٥٨) الشيخ بشير رضي الله عنه

المدفون بباب المعلىٰ بمكة المشرفة .

أرسله سيدي أحمد البدوي من طندتا إلىٰ باب المعلىٰ عند زاوية والده وعمِّه ، فأقام بها إلىٰ أن مات .

وقبره في باب المعلىٰ في الزاوية ظاهر يُزار .

ومنهم :

(٣٥٩) الشيخ بشير رضي الله عنه[١]

المدفون بدرب النيدي بمصر رضي الله عنه[٢] .

كان حبشيّاً ، وله مكاشفاتٌ وأحوال غريبة ، وشطحات وزعقات .

وامتحنته أهلُ حارته مرةً ، وذبحوا له حماراً في كشكٍ ، فلما رأى الطعامَ قال : الفقراء لا يأكلوا حميراً ، ثم قال : تَرْ تَرْ تَرْ ، فطارَ لحمُ الحمار من الزبادي ، ووقع على الأرض ، رضي الله عنه .

وقريباً منه سيدي بشير الشامي ، هو أحمديٌّ أيضاً .

فهـٰؤلاء الذين بلغنا أنهم من أصحاب السطح ، ما عدا الشيخَ عماد الدين المتقدِّم[٣] .

* * *

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ للمناوي » (ص ٢٣٧) .

(٢) في (أ) : (الشبري) بدل (النيدي) ، وفي (ط) : (السيدي) .

(٣) تقدم (٤/ ١٩) (٣٤٦) .

أصحاب سيّدي أحمد البدوي من غير السطوحيّة

وأما غيرُ أصحاب السطح من الأحمدية فكثير :

كالفرغل بن أحمد[1] ، والبقلي .

وسيدي إبراهيم المتبولي ، والشيخ نور الدين الشوني ، والشيخ محمد المنير بناحية أبو تيج بالصعيد ، والصامت .

وسيدي علي المجذوب بناحية أسيوط ، وسيدي علي رعية ، وسيدي شعيب الوراق بالمحلة الكبرىٰ .

وبجامع الواسطي ببولاق جماعة ؛ وهم سيدي علي الوراق ، وسيدي علي العريان ، وسيدي علي المجذوب .

وكان صاحب الجامع الذي هو الواسطي يُنكر علىٰ سيدي أحمد أشدَّ الإنكار ، وكان من أكابر أهل العلم ، فسلبه سيدي أحمد ، فتاب وصار من جماعة سيدي أحمد .

وكالشيخ عنتر المدفون بالقربيين خارج باب زُويلة ، وسيدي علي الجيزي بباب القرافة .

وسيدي علي أبو الظهور في طريق أمام الليث ، وسيدي سيف بالميدان .

وكذلك سيدي علي باب الله ، الذي دُفن عنده الشيخ شهاب الدين الرَّمْلي رحمه الله .

وسيدي محمد التمَّار قريباً منه ، وسيدي محمد المغربل بغيط الحمزاوي بالأزبكية ، وسيدي سيف بناحية بيسوس علىٰ شاطئ النيل ، وسيدي غوشتي ببني عدي بالصعيد .

---

(١) في (هـ ، و ، ي) : (كالفرغل بن أحمد بناحية أبو تيج بالصعيد) .

وبالشام منهم : الدليواتي والحبيلاتي والغرابيلي[١] .

فهٰذا ما حضر الآن من جماعة سيدي أحمد المفرقين في البلاد .

وإنما استقصيتُ ذكر أصحاب سيدي أحمد دون غيره ؛ سعياً في مرضاة شيخي الشيخ محمد الشناوي ؛ فإنه عينُ أعيان أتباع سيدي أحمد البدوي ، حتىٰ سمعتُ سيدي أحمد وهو يُكلِّمه من ضريحه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٠) الشيخُ الكبير داودُ الأعزب رضي الله عنه[٢]

هو من أجلِّ أصحاب سيدي الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر المدفون بقَرَافة مصر ، رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه كثير الكرامات والخوارق .

وذبحوا له مرةً كبشاً يُضيفونه به ، فأتاه شخصٌ وقال له : هٰذا الكبشُ الذي ذبحوه لك كبشي ، سرقوه من غنمي ، فقال الشيخُ للكبش : قم لصاحبك بإذن الله تعالىٰ ، فقام الكبشُ من الطعام كاملَ الأعضاء ، وسلمه لصاحبه ، وقال : سامحِ الفقراءَ من أكلِ المرق ، فسامحهم ، رضي الله عنه .

وكان في بعض الأوقات ينزلُ البحر بثيابه ، فيمشي تحت الماء حتىٰ يصلَ إلىٰ ذلك البرِّ ، يزورُ بعضَ إخوانه فلا تبتل له ثياب .

وبيَّتوا علىٰ قطعِ السِّدرةِ التي تجاهه في ذلك البرِّ في مقام الشيخ أبي قصيبة ، فاستجارتْ بسيدي داود حين لم يُجرْها الشيخُ أبو قصيبة ، فمالت يميناً وشمالاً ،

---

(١) في (و) : (الجبيلاتي) بدل (الحبيلاتي) ، وفي (ط) : (الجيلاني) ، والمثبت من باقي النسخ .

(٢) انظر « السلوك لمعرفة دول الملوك » (وفيات سنة ٦٦٨) ، و« الكواكب السيارة » (ص ١٨٦) ، و« تحفة الأحباب » (ص ٣٢) ، و« طبقات المناوي » (٢/٤٠٨) ، و« الخطط التوفيقية » (١/٨٥) (داود العزب) .

ومشتْ على البحر حتىٰ عدَّتْ ، فلما جاءتْ إلىٰ مقام سيدي داود طارتْ في الهواء ، حتىٰ نزلتْ في صحن المقام ، فهي فيه إلى الآن علىٰ وجه الأرض بلا عروق في الأرض ، وتحتها عمودٌ من رخام حاملاً لبعضها ، وورقُها أخضرُ لم ييبس .

وأخبرني الشيخ إبراهيم السندبصطي : أنه رأىٰ هلالَهُ يدورُ كما يدور حَجَرُ الطاحون إذا نزل ببلده نازلةٌ .

قال : (ورأيتُ الماءَ خرجَ من ضريحه مرةً حتىٰ عامتْ حصرُ الزاوية ، وخرج الناسُ منها) .

ووقع لي أنا مرةً : أنني كنتُ في دمياط ، فرَسَتِ المركبُ بنا تجاه سيدي داود والريحُ خامدٌ ، فقلتُ له : يا سيدي داود ، ما أعرفُ دخولي مصر أذانَ المغرب في هـٰذا اليوم إلا منك ، فأقلعنا ، فبينما نحن داخلون بولاق وإذا بالمؤذِّنِ يؤذِّنُ المغرب ؛ وذلك مع خمود الريح ، مع أنَّ المركبَ لا تصلُ من بلده إلىٰ بولاق إلا في يومٍ وليلة مع قوة الريح .

وأما كون أولاد فتيان النصرانيِّ وذريتهم يدخلون إلىٰ سيدي داود ، فلا يُمنعون ، فهو أنَّ فتيان النصرانيَّ كانتِ المعديّة مشتركةً بينه وبين المسلمين ، لكلِّ واحدٍ يومٌ يأخذ غلَّته ، فجاء سيدي داود في يوم المسلمين ومعه نحو أربعين نفساً ، فقال النصرانيُّ للمسلمين : لا تأخذوا من الشيخ شيئاً . فلم يرضوا ، فقال للمسلمين : احسبوا عليَّ أجرةَ بكرة النهار إلىٰ آخره . فعدّوا بالشيخ ، فما وصلَ إلى البرِّ إلاّ وأميرٌ جاء من مصر إلىٰ زيارة الشيخ ، ومعه مئة دينار ، فقال : أعطها للنصراني . فأعطاها له ، فهـٰذا كان سببَ اعتقاد النصارى المذكورين للشيخ إلى الآن .

ولما حضرتْ سيدي داود الوفاةُ طلب النقباء أن يحملوه إلى القَرَافة ليدفنوه عند شيخه أبي السعود ، فأبىٰ ودعا عليهم ، فشتَّتَ الله شملَهم من بلدِ الشيخ إلىٰ وقتنا هـٰذا ، وقال : هـٰؤلاء يُريدون أن يجعلوني كالقردِ يجبون عليَّ الدنيا ، رضي الله عنهم[1] .

---

(١) في هامش (ي) : (ودفن ببلده تَفِهْنا علىٰ شاطئ بحر النيل ببلاد الغربية تجاه أبو قصيبة =

ومنهم :

(٣٦١) شيخُ سلسلة القوم بمصر
سيدي يوسفُ العجمي الكوراني[1]

المدفون بالقَرَافة رضي الله عنه .

هو أولُ من أدخل سلسلةَ الصوفية بمصر ، وكان قبلَهُ لا يَسكنُ مصرَ إلا أربابُ الأحوال ، فهو أولُ السالكين بمصر رضي الله عنه بعد اندراس طريقِ القوم بها ، وكان طريقه الانقطاعَ .

وله التلامذةُ الكثيرة ، والكلامُ الدقيقُ في علم التوحيد .

كان رضي الله عنه من المتجرِّدين من أمر الدنيا ، لا يبيت علىٰ معلومٍ ، وعرضوا عليه الرزقَ والإقطاعات ، وإيقاف العقارات فأبىٰ .

وكان كلَّ يومٍ علىٰ فقير ، فيخرجُ ذلك الفقيرُ يطوفُ علىٰ أبواب البيوت والحوانيت ، فكلُّ شيءٍ أعطوه له من لقمةٍ أو بصلةٍ أو زبيبة يضعُهُ في الخرج الذي معه ، فكان يرجعُ كلَّ يوم بالحمارةِ محمَّلةً ، فيضعونه بينهم ، ويأكلون هم والشيخ ، قالوا : وكان يومُ الشيخ أقلَّ طعاماً من يوم الفقراء ، فسألوه عن ذلك ، فقال : أنتم بشريَّتُكم باقيةٌ ، فبينكم وبين الخلقِ مشاكلةٌ ، فيعطونكم ، وأنا ذهبتْ بشريَّتي ، فنفروا مني ، فلم يعطوني إلا القليل .

وكان صورةُ سؤال الشيخ وجماعته : أن يقفَ أحدُهم علىٰ باب الدار أو على الدكان ، ويقول : الله ، ويمدُّها حتىٰ يكادَ يسقطُ ، فيقول بعض الناس : هـٰذا العجميُّ نام من بلع الزية[2] .

= رضي الله عنهم ، آمين) وتَفَهْنا : هي إحدى القرى التابعة لمركز ميت غمر في محافظة الدقهلية في مصر .

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٠) (٣٢٠) ، وكُوران : من قرىٰ أسفرايين ، من نواحي نيسابور . « معجم البلدان » (٤/ ٤٨٩) .

(٢) كذا في النسخ ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٢) : (راح في الزية) .

وكان في بعض الأوقات يُغلقُ باب الزاوية ، ويطوي هو والفقراء ذلك اليوم .

وكان الشيخُ يأمرُ البوَّابَ ألا يفتحَ لأحدٍ من الزائرين إلا إن كان معه شيءٌ للفقراء من طعامٍ أو فلوس ، فإن لم يجدْ معه شيئاً لا يفتحُ له ، فقالوا له : الشيخ بحمد الله ماله رغبةٌ في الدنيا ، فما هـٰذا الحال ؟! فقال : أعزُّ ما عند أهلِ الدنيا دنياهم ، وأعزُّ ما عند الفقراء أوقاتُهم ؛ فإن بذلوا لنا أعزَّ ما عندهم بذلنا لهم أعزَّ ما عندنا ، وإلا فهي زياراتٌ فشارات .

قالوا : ولما وردَ عليه واردُ الحقِّ يأمرُهُ بالسفر من أرض العجم إلىٰ مصر لم يلتفتْ إليه ، فجاءَهُ الواردُ ثانياً ، فلم يلتفتْ إليه ، فجاءه ثالثاً ، فقال : لعله واردُ حقٍّ إن شاء الله تعالىٰ ، ثم قال : اللهم ، إنْ كان هو وارد حقٍّ ؛ فاقلب لي عين هـٰذا النهر لبناً حتىٰ أشربَ منه بقصعتي هـٰذه ، فانقلبَ النهر لبناً ، وشرب منه .

ثم شرعَ في السفر إلىٰ مصر ، فلما دخلها وجد سيدي حسن التُّستريَّ قد سبقه وجلس فيها ، وكان أقدمَ منه هجرةً في الطريق ، وكان يخرجُ من مصر يتلقَّىٰ كلَّ قافلةٍ وردتْ ؛ لينظرَ هل فيها سيدي يوسفُ أم لا ؛ عملاً بالوفاء بحقِّ الأخوة ، وكان يعلمُ أنه لا بدَّ من قدوم سيدي يوسف إلىٰ مصر ، فلم يفتحْ بابَ أخذِ العهد علىٰ مُريدٍ حتىٰ يقدمَ سيدي يوسف ويشاوره في ذلك ، فما زال يتلقَّى القوافل إلىٰ أن وردَ سيدي يوسفُ ، فأكرمه الشيخُ حسن إكراماً زائداً ، وقال : يا أخي ؛ الطريقُ إنما هي لواحد ، والباقي مساعد ؛ فإمَّا أن تبرزَ أنتَ وأنا خادم ، وإما أن أبرزَ أنا وتكونَ خادمي مساعدةً من كلٍّ منَّا لصاحبه ، فاستقرَّ الأمرُ علىٰ أن يكون سيدي يوسفُ هو الشيخ ، فشدَّ الشيخُ حسن وسطَهُ ، ووقف في خدمة سيدي يوسف إلىٰ أن **تُوفي سيدي يوسف ، وذلك في يوم الأحد النصف من جُمادى الأولىٰ سنة ثمانٍ وستين وسبع مئة** ، ودفن بزاويته بالقَرَافة الصغرىٰ ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

وله رسالةٌ عظيمة في آداب الطريق(١) .

---

(١) واسمها : « ريحان القلوب في التوصل إلى المحبوب » ، وقد ذكر فيها شرائط التوبة ، ولبس الخرقة ، وتلقين الذكر . « كشف الظنون » (٢/ ٩٤٠) ، وفي دار الكتب المصرية نسختان منها .

وكان إذا خرجَ من الخلوة يخرجُ وعيناه كأنهما قطعةُ دم أو جمر متوقِّدٍ ، فكلُّ من وقعتْ عينُه عليه انقلبَ ذهباً خالصاً في الطريق ، فخرجَ يوماً فتلفَّتَ علىٰ أحدٍ ينظرُ إليه من الناس ، فلم يجد إلا كلباً ، فنظر إلى الكلب ، فانقادتْ جميعُ كلابِ مصر له ، وصاروا إنْ وقفَ وقفوا ، وإن سار ساروا ، فاشتَهر أمرُ هـٰؤلاء الكلاب حتىٰ صار العوام ينذرون لهم ذبحَ البقر والغنم ، فبلغ ذلك سيدي يوسف ، فأرسلَ خلفَ الكلبِ ، فأتىٰ والكلابُ حوله يميناً وشمالاً ، فلما وقع بصرُ الشيخ عليه قال له : اخسأْ ، فأكله الكلاب من وقته ، فكان الشيخُ يتأسَّفُ ويقول : لو وقعتْ تلك النظرةُ علىٰ إنسانٍ لصارَ قدوةً للناس في طريق الله عزَّ وجل .

وكان كلُّ من هربَ من مماليك السُّلطان حسن صاحب المدرسة بالرميلة يقيم عند الشيخ ، فلا يقدرُ السلطانُ أن يأخذَهُ إلا بإذن الشيخ ، فوشى الناس بينه وبين السلطان بالكلام ، حتىٰ أرسلَ السلطانُ يقول للشيخ : أنت تُتلفُ مماليك السلطان ، فقال : أنا ما أُتلفُ إن شاء الله ، وإنَّما أُصلح ، فنزل إليه السلطانُ يزوره في القَرَافة ، فأخرج ذلك المملوكَ من الخلوة ، وقال : تعالَ سلِّمْ علىٰ سيِّدك ، فخرج ، فرآه السلطان ، فكاد أن يخرجَ من المُلك لما رأىٰ علىٰ وجه ذلك المملوك من النور والأنس ، فقال الشيخ للمملوك : قلْ لهـٰذا الحَجَرِ يكون ذهباً ، فقال للحجر : كنْ ذهباً ، فكان ذهباً بإذن الله ، فقال : هـٰذا فساد وإلا صلاح ؟! فاستغفر السلطانُ ، وقبَّل يدَ الشيخ ، فأعطاه الشيخُ الحجرَ الذهب وقال : هـٰذا غداؤك . فوزنوه ، فجاءَ قنطاراً ونصفاً من الذهب .

فعرض السُّلطانُ على الشيخ أماكنَ يُوقفُها على الفقراء ، فقال له الشيخ : ما لك لا تفهم الأمر ؟! إذا كان تلامذتُنا يقولون للحَجَرِ : كن ذهباً فيصيرُ ذهباً ، فكيف نحتاجُ إلىٰ مثل ذلك ؟!

ومع ذلك كان طريقةُ التجريدَ والسؤالَ كما مرَّ مع قدرته على التكوين المذكور .

ولما دخل مصرَ كان الشيخ يحيى الصنافيري صاحبُ مصر قبله ، فأرسل له سيدي يحيىٰ يقول له : أقمْ في مصر ، وليس لأحدٍ قدرةٌ علىٰ معارضتك ، ثم أنشده :

ألـمْ تعلـمْ بـأنِّـي صَيـرفـيٌّ ... أَحـكُّ الأوليـاءَ علـىٰ مِحكِّـي

فمنهـم بهـرجٌ لا خيـرَ فيـهِ ومنهـمْ مَـنْ أجـوِّزُهُ بشـكٍّ[١]
وأنتَ الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّىٰ بتـزكيتـي ومثلـي مَـنْ يُـزكِّـي

رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٢) الشيخ حسنُ الششتري رضي الله عنه[٢]

المدفون بقنطرة الموسكي بمصر المحروسة ، هو خليفةُ سيدي يوسف العجمي في مصر وقراها ، قصدته الناسُ من سائر الآفاق .

وكان ذا سمتٍ بهيٍّ ، وكمالٍ في العلم والعمل ، وانتهتْ إليه الرئاسة في الطريق بمصر .

وكان السلطان شعبان بن السلطان حسن ينزلُ إلىٰ زيارته ، فلم تزلِ الحسدةُ من أرباب الدولة وغيرهم يرمون بينه وبين السلطان حتىٰ غيَّروا اعتقادَهُ في الشيخ ، وهمَّ بحبسه أو نفيه من مصر ، فأرسل الوزيرُ إلىٰ زاوية الشيخ ليسدَّ بابَها على الفقراء والشيخ ، فوجدوا الشيخَ هو والفقراء في المطرية أيام المشمش[٣] ، فسدَّه ، فرجع الفقراءُ ، فوجدوا بابَ الزاوية مسدوداً ، فقال الشيخ : من سدَّ هـٰذا الباب ؟ فقالوا : سدَّهُ الوزير فلان بأمر السلطان ، فقال : ونحن نسدُّ طيقان بدنه ، فعمي الوزيرُ ، وطرشَ وخرس ، وانسدَّ أنفُهُ وقُبُلُه ودُبُرُه عن البول والغائط ، فمات الوزيرُ في الحال ، فبلغ ذلك السلطان ، وقالوا له : كانت هـٰذه المسألة لك ، فحملَها عنك الوزيرُ ، فنزل للشيخ واستغفر ، وتاب إلى الله تعالىٰ ، وفتح البابَ .

وكان عسكرُ السلطان كلُّهُ قد انقاد لسيدي حسن ، وخرجوا من طاعة السلطان إلىٰ طاعة الشيخ ، فهرب للسلطان مملوكٌ كان عزيزاً عنده ، فأرسل يقول للشيخ : أرسلِ

---

(١) في « طبقات المناوي » (٣/١٠٩) ، (أجوِّده) بدل (أجوزه) .

(٢) كذا في (أ) : (الششتري) ، وفي باقي النسخ : (التستري) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٢١٣) (٣٢١) .

(٣) **المطرية** : من القرى القديمة ، تابعة لمديرية القليوبية . « قاموس رمزي » (٢/١/١١) .

المملوكَ إلىٰ طاعة أستاذه ، فقال له الشيخ : المملوكُ في طاعة ربِّ أستاذه ، فقال السلطان : هٰذا يُفسدُ عسكر السلطان ، فأرسل الشيخُ يقولُ للسلطان : تعالَ انظر ما أفسدناه ، فنزل السلطانُ إليه ، فأخرج له المملوكَ ، وقال له : دستور يبول بحضرتنا علىٰ هٰذه الحجارة الرصاص ، فبال المملوكُ عليها ، فانقلبتْ كلُّها ذهباً خالصاً ، فقال الشيخ للسلطان : هٰذا إفسادُنا ، فاستغفر السلطانُ وتاب إلى الله تعالىٰ ، وخرج للشيخ عن المملوك ، وأعطى الشيخُ للسلطان ذلك الذهب ، فقدَّروه بنحو خمس قناطير ، وقال : خذْ هٰذا حقَّ طريقك ، فلم يزلِ السلطانُ متأدِّباً مع الشيخ حتىٰ مات[1] .

وأعطى السلطانُ مرةً فَصّاً يساوي عشرة آلاف دينار إلىٰ صائغ نصرانيٍّ يجعله له في خاتمه ، فطرقه ، فانكسرَ نصفين ، فخاف النصرانيُّ ، فهرب عند الشيخ ، وأخبره الخبرَ ، فقال : إن نجوتَ من عقوبة السلطان تُسلم ؟ فقال : نعم ، فتنازع سريَّتان من سراري السلطان في ذلك الفصِّ ، وقالت كلُّ واحدةٍ منهما : هو لي ، فأصلحَ السُّلطانُ بينهما بأن يجعلَهُ نصفين بينهما ، فأرسل السُّلطان يقول للنصراني : اجعله في خاتمين ، فأسلمَ النصراني ، ومكث يخدمُ الشيخ إلىٰ أن ماتَ ، ودُفن تحت رجليه .

ومما وقعَ له من الكرامات بعد موته : أنَّ ابن أبي الفرج صاحبَ المدرسة بالقرب من قنطرة الأمير حسين أرادَ أن يأخذَ زاوية الشيخ ، يجعلها جنينةً يُوسِّع بها جنينته ، وقال للخادم : ننقلُ الشيخَ إلىٰ مكانٍ أحسنَ مما هو فيه ، فجاء الشيخُ إلى الخادم في نومه ، وقال له : قل لابن أبي الفرج : لا تَنقلنا ننقلك ، فأخبر الخادمُ بذلك ابنَ أبي الفرج ، فقال : هٰذا أضغاثُ أحلام ، وأرسل غلمانَهُ يَحفروا قبرَ الشيخ ، فحصل له في جنبه طاعون ، فصار يصيحُ حتىٰ طلعتْ روحُهُ ، وتأمَّلْ مدرستَهُ تجدْها ناقصةَ القمريات[2] ، وكذلك الربعُ الذي رواشنُهُ خارجة ، مات ولم يكمله .

مات الشيخ حسن رضي الله عنه سنة سبعٍ وتسعين وسبع مئة ، ودفن بزاويته بقنطرة الموسكي ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدم شبيه هٰذه القصة في ترجمة يوسف العجمي الكوراني السابقة لهٰذه الترجمة (٤/ ٣٢) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (العمران) بدل (القمريات) ، **والقمريات** : الشبابيك .

ومنهم :

(٣٦٣) الشيخ حسين الأَدمي رضي الله عنه[1]

تلميذُ الشيخ حسن التُّستري ، وأحدُ مشايخ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه .

كان مغربياً ، فأقام بمصر بناحية الحسينية يخيط النعال .

وكان يقول للمطر : انزلْ بإذن الله ينزل ، وارتفعْ بإذن الله يرتفع .

قال سيدي أحمد الزاهد : (وكان للشيخ حسن غنمٌ في مصر يرعاها كلَّ يومٍ في رزقته بمُرَّاكش بأرض المغرب ـ سفر ستةَ أشهرٍ إلىٰ مصر ـ ثم يروحها إلىٰ مصر) .

قال : وكنتُ جالساً عند الشيخ يوماً ، فجاءه نصرانيٌّ ، فقال له : اقطع لي هـٰذه الجلدةَ الذي تشوِّش عليَّ في النعل ، ومدَّ رجله في وجه الشيخ ، فزجرتُ النصرانيَّ عن مدِّ رجله ، فقال لي الشيخ : مهلاً يا ولدي ، انظرْ ما يحصلُ له ، ثم أخذ الشفرة وكشطَها ، فصاح النصرانيُّ بأعلىٰ صوته : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله ، ثم قال لي : يا أحمد ؛ إذا صرتَ شيخاً افعلْ كذا .

وكان يقول : (إن لم يكن الفقيرُ علىٰ مراسم الشريعة فلا تُقيموا له وزناً ، وارفضوه ولو أتاكم بكلِّ كرامةٍ ؛ فإن ذلك من باب الاستدراج ، كما يقعُ مثلُ ذلك علىٰ يد الدجال ، فقيِّدوا حركاتكم وسكناتكم كلَّها بالشريعة تفلحوا) .

مات سنة إحدىٰ عشرة وثمان مئة .

ومنهم :

(٣٦٤) الشيخ أحمد الزاهد رضي الله عنه[2]

المدفون في جامعه في المقسم رضي الله عنه[3] .

كان رضي الله عنه عالماً زاهداً ، طريقةُ التقشُّفُ والخمول ، لا يكاد أحد يعرفُ له

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٦) (٣٢٣) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٧) (٣٢٤) .

(٣) في (ب ، ج ، د ، هـ) : (المقس) بدل (المقسم) .

مقاماً ، ثم إنه اشتَهر لما أخذ عنه سيدي محمد الغَمْري ، وسيدي مَدْين .

وانتهت إليه الرئاسةُ في تربية المريدين بمصرَ بعد سيدي حسن التُّستري .

وكانوا يقولون : إنه جُنيدُ عصره ؛ لتحرير طريقه بالكتاب والسنة ، لا يكادُ ينطقُ بكلمةٍ واحدة فيها رائحةُ شطحٍ .

وكان يقول : (مكثتُ نحو ثلاثين سنة أرىٰ نفسي في ألواحِ السماء من الأشقياء ، فلم أتغيَّرْ لذلك ، حتىٰ منَّ اللهُ عليَّ بمحو اسمي من ديوان الأشقياء) .

وكان رضي الله عنه يعظُ النساءَ في المساجد ، ويعلمُهنَّ أمورَ دينهن ، ويقول : (إن غالبَ العلماء قد غفلوا عن تعليمهنَّ ، وإنما يُعلِّمون الذكور فقط) .

وعندي نحو خمسين كرَّاساً بخطِّه رضي الله عنه ، غالبُها فيما يتعلَّقُ بأمور الصلاة ، والطهارة ، والصيام ، والصدقة ، وحقوق الزوجين ، وغير ذلك من الفضائل الشرعية .

وقيل له مرَّةً : ما كان بدوُّ أمرك ؟ فقال : بينما أنا ذاهبٌ إلى الفقيه في المكتب ، وإذا برجلٍ من أولياء الله تعالىٰ تعرَّض لي في الطريق ، أشعث أغبر ، فطلب مني غدائي ، فأعطيتُه له ، وعزمتُ على الجوع ذلك النهار ، فقال لي : يا أحمد ؛ سوف تصيرُ قدوةً في مصر ، وتَبني لك جامعاً بخطِّ المقسم ، وتُلقَّبُ بالزاهد ، ويُعارضُك في عمارته جماعةٌ ، ويخذلهم الله تعالىٰ ، وتصيرُ المُشارَ إليه في مصر ، وتُربِّي بها المريدين ، ثم فارقني ، فلم أره إلىٰ وقتي هٰذا ، ووقع بحمد الله جميعُ ما قاله .

ومن جملةٍ من عارضه في بنائه الحافظُ ابنُ حَجَر ؛ لقصَّةٍ يطول شرحها .

وأما جمال الدين صاحبُ المدرسة الجمالية قريباً من الركن المخلق فأرسلَ أخذ الفعلاء والترَّابين لمدرسته ، وقال : كما أنه يُعمِّرُ مسجداً كذلك نحن نُعمِّرُ مسجداً ، فأرسلَ له النقيبُ ، وقال : الناسُ عليك كثيرٌ لكثرةِ مالك ، بخلاف الفقراء ، فلم يرضَ ، فقال سيدي أحمد : اللهم ؛ عوِّقْهُ حتىٰ نفرغَ نعمر الجامع ، فأرسل السلطانُ خلفه ذلك اليوم ، ونقمَ عليه ، وأدخله الحبسَ مدَّةَ تسع شهور ، حتىٰ فرغ سيدي أحمد من عمارة الجامع ، فأطلقه السلطانُ في ذلك اليوم .

وأنكر شيخُ الإسلام سراجُ الدين البُلقيني عليه مرَّةً ، وقال : إنه يلحنُ في الحديث ، ومنعه من الجلوس علىٰ كرسي الوعظ ، فبلغه ، فدخل سيدي أحمد جامعَ الأزهر ، وجلس علىٰ كرسيٍّ في صحن الجامع ، وعيناه كالجمر الأحمر ، وقال : من يسألني عن كلِّ علمٍ نزلَ من السماء أجبه ، فاجتمع عليه خلائقُ ، ثم إنه راقَ ، فقال : من أجلسني ها هنا ؟ فقالوا له القصة ، فقال : لمَّا قلتُ : (من يسألني) هل سألني أحدٌ ؟ فقالوا له : لا ، فقال : الحمدُ لله الذي لم يخرجْ أحدٌ ، لو خرج لنا أحدٌ لاختُطف ، ثم خرجَ من الجامع ، فبلغ ذلك البُلقيني ، فجاءه واستغفرَ .

وقالوا له مرةً : لمَ اشتهرت بالزاهد مع أنَّ جميعَ الأولياء زهَّادٌ بلا شكٍّ ، ولم يشتهروا بذلك ! فقال : دخل عليَّ مغربيٌّ يعرف الكيمياء ، فقال لي : يا أحمد ؛ حولك هٰؤلاء الفقراء ، وما معك شيءٌ ، وأخافُ عليك أن تنظر لما في أيدي الخلائق ، فقلتُ له : فما العمل ؟ فقال : أعلِّمُكَ صنعةَ الكيمياء ؟ فقلت له : علِّمني ، فاشتريتُ بعضَ حوائج ، وأوقدتُ عليها النار ، فطلعتْ ذهباً خالصاً ، وذلك في الليل ، فأمرتُ النقيبَ أن يَرميها في [سرداب] الخلاء[1] ، وأمرتُهُ ألا يتكلَّمَ بذلك ، فأصبحَ الناسُ يقولون لي : الزاهد ، فعلمتُ أن ذلك أمرٌ من الله تعالىٰ .

وأخبرني الشيخ محمد الحريفيش الدنوشري : أنه سمعَ هٰذه الحكاية أيضاً من سيدي محمد الغمريِّ .

وكان يقول : (ما دخلَ أحدٌ إلىٰ هٰذا المسجد الذي عمرتُهُ ، وصلَّىٰ فيه ركعتين ، إلا أخذتُ بيده يومَ القيامة) .

وكان إذا سأله أحدٌ حاجةً عند من لا يعرفه من الأمراء وأركان الدولة يقول له : إنْ أردتَ قضاءَ حاجتك يا ولدي فخذْ لك أحداً من وجوه الناس ، واسبقني إلىٰ بيت الأمير ، فقل : سيدي؛ الشيخُ جاءكم، فإذا قالوا : مَنْ هو الشيخ ؟ فقل : سيدي أحمد الزاهد ، هٰذا رجلٌ عظيمٌ من أهل الصلاح والعلم والدين ، فإذا رأيتني قد جئتُ ، فقم وامش إليَّ ، وقبِّلْ يدي ، والناسُ ينظرون ، فإذا رأى الأميرُ وجماعتُه ذلك عظَّموني ،

---

(١) في النسخ : (سراب) بدل (سرداب) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥١) .

وقضوا حاجتك ، بخلافِ ما إذا دخلتُ للأمير وأنا مجهولُ الحال ، فإذا قال لي : من أنت ؟ فلا يسعني أن أزكِّي نفسي ، ولو أنَّني زكَّيتُ نفسي لسخروا بي ، والأعمالُ بالنيات .

وكان رضي الله عنه إذا أراد أن يتكلَّمَ بشيءٍ من علوم الكشف الذي كُشف له يقول : كُشف لبعضهم كذا ، ولا يضيفُهُ لنفسه ستراً لنفسه .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين الإمامُ بجامع الغمري : أنَّ سيدي أحمد كان كلَّ قليلٍ يخلِّي ولده سيدي أحمد ، فلا يُفتح عليه بشيءٍ من أحوال القوم ، فيقول : يا ولدي ؛ الأمرُ بالقسمة الأزلية ، ولو كان الأمرُ بيدي ما قدَّمتُ أحداً عليك يا ولدي ، فمات الشيخُ وولده يسوق الثور في ساقية ميضأة الجامع ، ويضفر الخوص وهو والد سيدي أبي العباس الموجود الآن في سنة سبع وعشرين وتسع مئة .

وأخلى الشيخُ مرَّةً مُريداً ، فرأىٰ نفسه من أهل النار ، فتكَدَّرَ ، وخرج من الخلوة ، فقال له الشيخ : يا ولدي ؛ العبدُ عبدٌ ، ولقد وقع لي : أنني رأيتُ نفسي من أهل النار كذا كذا سنة ، فما تغيَّرْتُ ، ولا سألتُ الله في التغيير ، فتقلق أنت من رؤيتك ذلك ساعةً واحدة ؟!

وكان إذا طلبَ أحدٌ منه أن يأخذَ عليه العهد لا يُجيبُهُ إلا بعد سنةٍ وأكثر ، ويقول : (الطريق عزيزةٌ ، وأخاف أن أُدخلَهُ في العهد من غير صدقٍ فيمقته اللهُ عز وجل إذا خان العهد) .

ولما جاءه سيدي محمد الغَمْري يطلبُ الطريقَ وجدَ بابَ الجامع مُغلقاً بعد العشاء ، فقال : افتحوا لنا باب الجامع ، فقال له الشيخ : لا نفتح لأحدٍ ، فقال : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] ، فقال الشيخ : هٰذا نَفَسُ فقيه ، افتحوا له ، ففُتح ، فقال له : ما تطلب ؟ قال : أَطلبُ الطريق إلى الله تعالىٰ ، فقال : ما أنت أهلاً لها ، فقال : ببركتكم أكونُ أهلاً لها ، فلقَّنَهُ الشيخُ الذكرَ ، وجعله خادماً للميضأة ، ثم نقلَهُ إلى البوَّابة ، ثم نقله إلى النقابة ، ثم نقله إلى الوقادة ، فمكث في الوقادة عشر سنين ، فنام يوماً عن إيقادِ القناديل الفجرَ ، فخرج الشيخُ ، فقال : أيقظوا محمداً ، فأيقظوه وهو مذعور ، فحوَّق بيده علىٰ قناديل الجامع كلِّها ، فاشتعلت .

فقال له الشيخ : اذهبْ إلىٰ ناحية بِلْبِيس ، فأقم بها ، وما بقي لك عندنا إقامةٌ ، فسافر إلىٰ بِلْبِيس ، فلم يستقم له فيها أمرٌ ، فقال له : امضِ إلى المحلَّة الكبرىٰ ، فذهب إليها ، فلم يستقرَّ له فيها قدمٌ ، فخرج إلىٰ محلَّةِ أبي الهيثم ، فأقام بها تسعَ شهور ، فأرسل الشيخ له سيدي مَدْين ، وقال له : وَطِّن أخاك في المحلة الكبرىٰ ، ولا ترجعْ حتىٰ تأمنَ عليه .

فدخل به المحلة ، فمنعه أولادُ الشيخ الطريني أن يقيمَ داخل المحلة ، فسكن في مدرسة اسمها الشمسية قريباً من المشاهد ، وهي المُسمَّاة الآن بجامع السدِّ ، فصارتِ اللصوص تضربُ أسواق المحلَّة ، فكلَّما دخلوا وجدوا سيدي محمد وجماعته يعارضونهم ، فاجتمع رأيُ اللصوص ليلةً علىٰ أنَّهم يقتلوا الشيخَ وجماعته ، فلما وصلوا إلى الزاوية أرادوا كسرَ باب الزاوية ، فقال الشيخ : لا أحد يخرجُ لهم غيري ، فخرجَ لهم الشيخ ، فأوَّلُ ما وقع بصرُهم عليه تابوا كلُّهم ، وأرموا سلاحهم ، وأقاموا عنده ، وصاروا يكسرون جرارَ الخمر إذا مرَّت عليهم .

وقوي شأن الشيخ بالمحلَّةِ ، فاجتمع به أولادُ الشيخ الطريني ، وطابوا هم وإياه ، وعملوا له مولداً ، واصرفوا عليه من مالهم .

ثم رجع سيدي مَدْين إلى الشيخ بمصر ، وأخبره الخبر ، ففرح بذلك ، ودعا لسيدي مَدْين بأن يكونَ طريقهُ كلُّها تتفرَّع منه في مصر وقُراها ، وقد استجابَ الله تعالىٰ دعاءه ، فجميعُ أشياخ مصر الآن من فرع سيدي مَدْين ، ومن كان من غيرِ طريقه إنَّما هو كالضيفِ الراحل .

وكان من شأن سيدي أحمد ألا يدخلَ بيته إلا يوم الجمعة بعد الصلاة ، وبقيةُ الجمعة إنَّما هو في خلوته في الجامع ، فكان يُصلِّي الجمعةَ ، ويدخل البيتَ ، فيمكث عندهم إلى العصر ، فدخل يوماً بعد صلاة الجمعة ، فوجد الأولادَ في فرحٍ وسرور ، وبين يديهم لحمٌ كثير وملوخية ، فقال لهم : من أين لكم هـٰذا ؟! فقالوا له : أرسله لنا شخصٌ اسمه عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر ، فقال الشيخ : اللهم ؛ اجعلْه من إخواننا ، فجاءه بعد المغرب ، وتلقن عليه الذكرَ ، وأخلاه الشيخُ ، وحصلَ له كرامات عظيمة بعد المجاهدات ، فمكث سنةً في خلوته لا يضع جنبه إلى الأرض ، وكان له حبلٌ في

السقف ، يضعُهُ في عنقه إذا دخل الليل حتىٰ لا ينام علىٰ جنبه بالأرض ، ورأيت أنا الحبل الذي كان في سقف خلوته بعيني .

وآخىٰ سيدي أحمد بينه وبين سيدي مَدْين وسيدي محمد الغَمْري ، وكان هٰؤلاء الثلاثة أجلَّ جماعته بمصر .

فأما سيدي مدين وسيدي عبد الرحمٰن : فعمَّر كلٌّ واحد منهما له زاويةً بالقرب من جامع سيدي أحمد .

وأما سيدي محمد الغمري : فعمَّر جامعَهُ بخطِّ سوق أمير الجيوش بعيداً عنه ، وكان ذلك قبل أن ينتقلَ إلى المحلَّة الكبرىٰ بالكلية ، ولمَّا أراد أن يعمر جامعَهُ بعد موت شيخه استأذنَ في ذلك شخصاً من أولياء الله تعالىٰ كان يبيع لبن المعزىٰ ، وقال له : شاورْ لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمارة هٰذا الجامع ، فقال له : قف انتظرني بكرة النهار عند عتبة باب النصر . فانتظره في الوقت المذكور ، فقال له : يقول لك : عمِّرْ وتوكَّل على الله .

قلت : ولعل سيدي محمد إنما شاور النبيَّ بالواسطة حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان إذ ذاك لم يبلغ إلىٰ مقام الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، والله أعلم .

ومرض سيدي أحمد مرةً حتىٰ أشرفَ على الموت ، فقال الناس : يا ترىٰ مَنْ هو الخليفة بعد الشيخ من أصحابه ؟ فبلغ ذلك سيدي أحمد ، فأرسل خلفَ سيدي محمد الغَمْري ، وخلف سيدي مدين ، وخلف سيدي عبد الرحمٰن ، وقال : أريدُ أن أُبيِّنَ لكم ما يؤول إليه أمرُكم : أما أنت يا محمد فخيرُكَ لذرِّيتِكَ ليس لأصحابك منه شيءٌ ؛ يعني به الطريق إلى الله تعالىٰ ، وقال لسيِّدي مدين : خيرُك لأصحابك ليس لذرِّيتِكَ منه شيءٌ ، وقال لسيدي عبد الرحمٰن : خيرُك لنفسك ، ليس لأصحابك ولا لذريتك منه شيء ، فكان الأمرُ كما قال ، فلم يزلْ في ذرِّية سيدي محمد الخيرُ والصلاحُ ، وطلبُ العلم والقرآنُ وتعليمُهما .

وتفرَّعتْ الطريقُ كلُّها من سيدي مَدْين لابن أخته سيدي محمد شيخ السروي والمرصفي والحسني ، وغيرهم ، وليس من أولاده أحدٌ تصدَّرَ للطريق ، وإن كان فيهم البركةُ .

وأما أولاد سيدي عبد الرحمـٰن فطلعوا كلُّهم صنايعية .

وكان يقول : (كلُّ الناس جاؤونا ونورُهم مطفي إلا مدين ، فإنه جاءنا ومصباحُهُ موقودٌ ، فقوَّيناه له) .

وكان قد اشتغلَ بالعلم زماناً ، وجاهد نفسَهُ في العمل ، فكان فتحه من ثلاثة أيام كما أخبرني بذلك صاحبُهُ الشيخُ عبد الرحمـٰن المغربي رضي الله عنه .

وأخبرني أيضاً : أنَّ سيدي محمد الغمري سافرَ مرَّةً إلىٰ دمياط ، واشترىٰ لسيدي أحمد علبةَ حلاوة شامية ، فلما أقلعتِ المركبُ إلىٰ مصر ضربها الهواءُ ، فألقاها في البحر ، فغرقتْ ، فلما وصل إلىٰ سيدي أحمد قال له . أين هديتُك ؟ فقال : وقعت في البحر ، وأخبره الخبر ، فقال الشيخُ للنقيب : ادخل به الخلوةَ غدِّيه ، فدخل به ، فإذا بالعلبة الحلاوة على الرفِّ ، وهي تقطرُ ماءً ، فعرفها ، فقال له الشيخ : يا محمد ؛ ما كان على اسمنا لا يضيعُ في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد وصلت هديتُكَ .

وكان يخلي كلَّ قليلٍ ولده أحمد ، فلا يُفتح له بشيءٍ ، فيقول : يا مَنْ يُربِّي لنا ولدنا ، ونربِّي له ولده ، ثم يقول لولده : يا أحمد ؛ الطريقُ إنما هي مواهب حقيقة ، ولو كانت بيدي ما قدَّمنا عليك أحداً ، ثم يقول : تمنىٰ بعضُ الأقطاب أن تكونَ القطبية لولده ، فقيل له : ذاك في الإرث الظاهر .

وكان سيدي أحمد يخرجُ كلَّ يومٍ علىٰ باب جامعه في الأسحار يطلب الدعاءَ ممن دخل من نواحي قليوب الذين يحملون اللبن والجبن ، ويقول : إن هـٰؤلاء مرَّ عليهم نسيمُ الأسحار .

وجاءه مرة تاجرٌ بولده ليدعو له ، فقال : اللهم ؛ لا تجعلْ لهـٰذا الولد في هـٰذه الدار كلمة ولا حرمة ، فقال التاجر : لأيِّ شيءٍ يا سيدي ؟! فقال : ليستريحَ من نكد الدنيا ؛ فإن النكدَ تابعٌ للاسم والشهرة .

وكان إذا هجر فقيراً تأديباً يأمرُهُ بالإقامة في ميضأة الجامع ، فيمكث السنةَ وأكثر حتىٰ يطيبَ عليه الشيخ .

وكان يقولُ للفقيه إذا أراد الطريقَ : (لا تجيء حتىٰ تتضلَّعَ من علوم الشريعة ؛ فإن

النفسَ لا تحتمل الاشتغال بطريقين معاً ، فمن دخلَ الطريقَ من غيرِ تضلُّعٍ من الشريعة جذبه التعليمُ عن العمل ، بخلاف ما إذا كمل في العلم وما بقي عليه إلا العمل ؛ فإنه يفلحُ في الطريق) .

قال : (وقد عجز الأشياخ الذين مضوا أن يُسلِّكوا الطريقَ بطالب علمٍ وهو مشتغلٌ به ، فلم يقدروا) .

ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة في حياته وبعد مماته .

مات رضي الله عنه في سنة عشرين وثمان مئة ، ودفن بجامعه بخطِّ باب المقسم ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، وعليه الجلالة والمهابة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٥) سيدي محمد الحنفي الشاذلي رضي الله عنه[١]

كان من صدور المقرَّبين ، أصحاب الكرامات الظاهرة ، والمقامات الفاخرة ، والسرائر الطاهرة ، والأحوال الباهرة ، والعلوم الزاهرة ، والأنفاس الصادقة ، والهمم العالية ، والرُّتب السنية ، والمناظر البهية ، والإشارات النورانية ، والنفحات القدسية ، والنفحات الروحانية والعلوم اللدنية ، والأسرار الملكوتية ، والمحاضرات الربانية .

انتهت إليه الرئاسةُ في تربية المريدين في مصر وسائر أقطار الأرض ، وخضع له الملوكُ فمن دونهم ، وما سمعنا بوليٍّ قطُّ خضعت له الملوك ، وحصل له من طاعتهم مثل ما حصل لسيدي محمد الحنفي رضي الله عنه .

وقد طالعت مناقبَهُ كلَّها ، فانبهر عقلي منها ، وهي في مجلَّدين[٢] ، ولم أطَّلعُ قطُّ علىٰ أحدٍ من الأولياء مناقبُهُ في مجلدين غيره ؛ ولذلك قال شيخ الإسلام العيني في

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٦) (٣٢٩) .

(٢) وهي للشيخ نور الدين علي بن عمر البتنوني كما في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٧) ، واسم كتابه « السرُّ الصفي في مناقب السلطان الحنفي » .

« تاريخه » : (لم نجدْ أحداً من الأولياء أكثرَ كراماتٍ من سيدي محمد الحنفي رضي الله عنه) .

توفي رضي الله عنه سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة ، ودفن بزاويته بسويقة السباعين ، وعلىٰ قبره من الجلالةِ والمهابة ما هو أهلُهُ .

وكان ظريفاً جميلاً في بدنه وثيابه ، وكان جمالي المقام .

وكان الشيخ أبو العباس السِّرْسِي يقول : (إذا جئتُ سيدي محمد الحنفي أستأذنُهُ من عتبة الخلوة ، فإنْ قال ادخلْ ، وإلا رجعتُ ، فدخلتُ يوماً بلا استئذان سهواً ، فوجدتُ في خلوته أسداً عظيماً ، فغُشي عليَّ ، فلما أفقتُ خرجت واستغفرت الله تعالىٰ من دخولي عليه بلا إذنٍ) .

قال الشيخ أبو العباس السِّرْسِي : وكان بدوُّ أمرِ الشيخ محمد الحنفي : أنَّه حفظَ القرآن في المكتب ، وكان رفيقُهُ في الكُتَّاب الحافظَ ابنَ حَجَر ، ثم جلس يبيعُ الكتب في سوق الكتبيين ، فمرَّ عليه بعضُ رجال أهل الله عز وجل ، فقال : يا محمد ؛ ما للدنيا خُلقتَ ، فنزلَ من الدكان ، وتركَ جميعَ ما فيه للناس ، فلم يأخذْ شيئاً منه .

ثم حُبِّبت إليه الخلوةَ ، فاختلىٰ سبع سنين لم يخرج إلا للجمعة والجماعة ، وكانت خلوتُهُ تحت الأرض ، وهي التي دُفِنَ فيها ، وكان دخولُهُ لها وهو ابن أربع عشرة سنة .

فلما خرجَ وجدَ الناس بعمائم بيضاء وزرقاء وصفراء علىٰ صورة ما في قلوبهم ، ورأىٰ مَنْ صورتُهُ صورةُ قردٍ ، ومَنْ صورته صورة خنزير ، وكلب ، وثعلب ، وغير ذلك ، فقال في نفسه : إنَّك قد أطلعَكَ اللهُ عز وجل علىٰ عواقبِ الأمور ؛ وذلك من صفاته تعالىٰ ، لا ينبغي لي أن أقيمَ فيها ، فسأل الله تعالىٰ ، فحُجب ذلك عنه .

قال : ولم يخرجِ الشيخُ من الخلوة حتىٰ سمعَ قائلاً يقول له ثلاث مرات : يا محمد ؛ اخرجْ وانفعِ الناسَ ، وإن لم تخرجْ سلبناكَ المقام ، فقال : ما بعد سلبِ المقام إلا القطيعة .

وكان في خلوته توتةٌ ، فقال لها يوماً : يا توتة ؛ حدِّثيني حدوثة ، فنطقتْ بصوتٍ جهوري وقالت : نعم ، إنهم لمَّا زرعوني سقوني ، فلمَّا سقوني أسست ، فلما أسست

فرَّعت ، فلما فرَّعتُ أورقت ، فلما أورقتُ أثمرت ، فلما أثمرتُ أطعمت ، قال الشيخ : فكان في كلامِ التوتة سلوكي .

قال الشيخ حسن الخباز الشاذلي : (وقد بلغنا : أنَّ سيدي الشيخ أبا الحسن الشاذلي نوَّه بذكر سيدي محمد الحنفي ، وقال : سيظهرُ بمصر رجلٌ يقال له : محمد الحنفي ، يكون فاتحاً لبيتنا ، ويكون له شهرةٌ عظيمة ، حتىٰ يقول الناسُ في الأمر الذي يخالفون فيه : لا بدَّ لنا من فعله ، ولو اغتاظ الحنفي) .

قال : (ومن علامته : أن يكونَ علىٰ خدِّه الأيمن خالٌ ، ووجهه أبيضُ مشربٌ بحمرة ، وفي عينيه حَوَرٌ ، ويُربَّىٰ يتيماً فقيراً) .

وكان يقول : (الحنفي خامسُ خليفةٍ لنا) .

وصدق الشيخُ أبو الحسن ؛ فإن سيدي [محمداً][1] أخذَ الطريق عن الشيخ ناصر الدين ابن المَيْلق ، عن جدِّه الشيخ شهاب الدين بن المَيْلق ، عن الشيخ ياقوت العرشي ، عن الشيخ أبي العباس المرسي ، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي .

وكان سيدي محمد إذا رأىٰ من أحدٍ من أصحابه رئاسةً وشهامة يأمرُهُ أن يخرجَ يسأل الناس في الأسواق والحوانيت وغير ذلك ، حتىٰ تنكسرَ نفسُه ، ويقول : (رحمَ اللهُ من ساعدَ شيخَهُ علىٰ نفسه) .

وكان يقول : (ظفرتُ في عمري بصاحبَيْنِ ونصفِ صاحب ؛ فأما الصاحبان فهما الشيخ أبو العباس السِّرْسي ، والشيخ شمس الدين بن كتيلة المحلي ، أما الأول : فإنه أنفق جميع ماله عليَّ ، وكان نحو ثلاثين ألف دينار ، وأما الثاني : فإنه تمسك بطريقتي واتبع سنتي ، وأما نصفُ الصاحب فهو صهري سيدي عمر) .

وفي رواية : (ظفرت بصاحب ونصف صاحب وربع صاحب ؛ فالأول أبو العباس السرسي ، والثاني ابن كتيلة ، والثالث سيدي عمر) .

قال الشيخ أبو العباس : قال لي سيدي محمد يوماً : أما ترضىٰ يا أبا العباس أن تكونَ بدايتي نهايَتَكَ ؟ فقلت له : رضيتُ .

---

(١) في النسخ : (محمد) .

وكان يقول : (من أدبِ الفقير إذا دُعيَ إلىٰ وليمةٍ ـ وكان هناك وليٌّ كبير ـ ألا يدخلَ بيتَ الوليمة إلا بعد استئذانه ، فإن أذنَ له دخل ، وإلا رجعَ مُنشرحاً) .

فدُعي يوماً إلىٰ وليمةٍ ، وكان هناك سيدي علي بنُ وفا وجماعتُهُ ، فاستأذن ، فأذن له سيدي علي ، فدخل ، فقام له سيدي علي ، وأجلسَهُ إلىٰ جانبه ، فدار الكلام بينهما ، فقال سيدي علي : ما تقولُ في رجلٍ رحاةُ الكون بيده ، يدوِّرها كيف شاء ؟ فقال له سيدي محمد : فما تقولون فيمن يضع يده عليها فيمنعها أن تدور ، فقال سيدي علي : كنا نتركها لك ونذهب ، فقال سيدي محمد لأصحابه سرّاً : ودِّعوا سيدي [عليّاً][1] ؛ فإنَّه ينتقلُ قريباً ، فكان الأمر كذلك كما قال ، فما مضتْ ليال حتىٰ سمعَ سيدي محمد هاتفاً يقول له في الليل : يا محمد ؛ قد ولَّيناك ما كان بيد علي بن وفا زيادةً علىٰ ما بيدك .

قال سيدي محمد : فعلمتُ أنه انتقلَ إلى الله تعالىٰ ؛ لأن ذلك لا يكون إلا بعد موته ، ثم أرسلَ فقيراً إلىٰ حارة عبد الباسط يسألُ عن سيدي علي ، فذهبَ فوجد الصياحَ ، والناسُ يقولون مات سيدي علي ، رحمه الله .

ودخل في زمنه شخصٌ من العجم يدَّعي الولاية ، فأشكل حالُهُ علىٰ أهل مصر ، وكان يمدُّ يدَهُ في الهواء ، فيأتي بالذهب والفضة ، فقال له سيدي محمد : أكرمنا بشيءٍ ، فمدَّ يده ، فأتاه بثمانين ديناراً ، فطلب سيدي محمد منه حتىٰ أعجزه ، فقبضَ فلم يأت بشيءٍ ، فقال له سيدي محمد : خزائن الله لا تنفد ، وأراك متفعلاً ، ثم صفعَهُ وسلبه ، وأخرجه من مصر ، فلم يعدْ إليها بعدُ .

وكان الشريف النعمانيُّ يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم كثيراً ، فرآه مرةً وسيدي محمد الحنفي بين يديه ، وهو مقبلٌ علىٰ أبي بكر وعمر ، ويقول صلى الله عليه وسلم لهما : إني أحبُّ هـٰذا الرجل ، إلا أنَّ عِمامتَهُ صماء ، وفي رواية : زعراء ، وأشار إلىٰ سيدي محمد ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أتأذن لي يا رسول الله أن أُعمِّمَه ؟ فقال : نعم ، فأخذ أبو بكر عِمامة نفسه ، وجعلها علىٰ رأس سيدي محمد ، ثم أرْخَىٰ

---

(١) في النسخ : (علي) .

لها عَذبَةً عن يسار سيدي محمد ، فلما قصَّ الشريف على سيدي محمد ذلك أرخىَ العَذَبة لعمامته من ذلك اليوم ، وأمرَ أصحابه بذلك ، وترك الطيلسان الذي كان يركبُ به ، وصار يركبُ بالعَذَبة إلىٰ أن مات ؛ مسارعةً لمرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وطلب سيدي محمد من الشريف أمارةً يُرسلها له النبيُّ صلى الله عليه وسلم تصدِّق تلك الرؤيا ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : قل له : بأمارة ما تصلِّي عليَّ قبل غروب الشمس في الخلوة كلَّ يومٍ ؛ وهي : اللهم ؛ صلِّ علىٰ محمدٍ النبيِّ الأمي ، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم عددَ ما علمتَ ، وزِنَةَ ما علمت ، وملءَ ما علمت ، فقال سيدي محمد : صحيحٌ ذلك ، وصدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ رضي الله عنه عِمامتَهُ ونزعها ، وأخرجَ لها عَذبَةً ، ونزع كلُّ مَنْ في المجلس عِمامتَهُ ، وأرخىٰ لها عذبةً .

قال الشيخ أبو العباس السِّرْسي : وأولُ شهرةٍ اشتهر بها الشيخُ محمد الحنفي : أن السلطان فرج بن برقوق كان يرمي الرمايا على الناس ، وكان الشيخُ يُعارضه ، فأرسل وراءَ الشيخ ، وأغلظَ عليه القول ، وقال : المملكةُ لي وإلا لك ؟! فقال له الشيخ : ليستْ لي ولا لك ، إنما هي لله الواحد القهار .

ثم قام الشيخُ مُتغيِّرَ الخاطر ، فحصل للسلطان عقب خروجه ورمٌ في محاشمه[1] ، فكاد يهلكُ منه ، فأرسل خلف الأطباء ، فعالجوه ، وعجزوا عن مداواته ، فقال له بعضُ الناصحين : يا مولانا السلطان ؛ هٰذا من تغيُّرِ خاطر سيدي محمد الحنفي ، فقال : أرسلوا خلفه لأُطيِّبَ خاطرَه ، فنزل إليه الأمراء ، فوجدوه في المطرية خارج مصر ، فأخبروه بطلب السلطان له ، فلم يُجبْهُ إلى الاجتماع به ، فلم يزالوا يترفَّقون بالشيخ حتىٰ حنَّ عليه ، وأرسل له رغيفاً مبسوساً بزيت ، وقال لهم : قولوا له يأكل هٰذا يبرأ ، ولا يعدْ إلىٰ قلَّةِ الأدب مع الفقراء يملخوا أذانه .

فمن ذلك اليوم اشتهرَ أمرُ الشيخ للخاصِّ والعام ، وصار الناسُ إذا لامَ بعضُهم

---

(١) محاشمه : أي : مذاكيره .

بعضاً علىٰ أمرٍ لم يفعله يقولون له : يعني ينغاض الحنفي[١] ، وشاعتْ هـٰذه الكلمة بين الناس إلى الآن .

قالوا : ولما جاءَ الإستدارُ إلى الشيخ يدعوه إلى السلطان أغلظ على الشيخ القولَ ، فدعا عليه الشيخ ، فبلغ ذلك السلطانَ ، فأمر بضرب عنق الإستدار ، ثم أرسلَها إلى الشيخ في طبقٍ ، فولَّى الشيخ بوجهه عنها ، وقال : هـٰذه من سطوات الحق تعالىٰ عليه ، وليس لي فيه خيرة ، ثم أمروا بدفنها مع جثته .

قالوا : وقد أقام سيدي محمد الحنفي في القطبانية الكبرىٰ ستاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وبعض أيامٍ ، فلم يكن في هـٰذه المدة قطبٌ غيره ، وكان يقول : منهم من يكون رضاعُهُ من رجلٍ وفطامُهُ علىٰ رجلٍ آخر ؛ لموت الأول قبل فطمه ، أو غير ذلك .

وسمع شخصاً يقول : كان سيدي شهاب الدين بن المَيْلق يكتبُ الكرَّاسَ بمَدَّةٍ واحدةٍ من الدواة[٢] ، فأمر سيدي محمد بعضَ مريديه أن يكتبَ بمَدَّةٍ واحدة كرَّاسين ، ففعلَ والناسُ ينظرون .

وكان يقول : وجدتُ مقامَ سيدي الشيخ أبي الحسن الشاذلي أعلا من مقام الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه ، ثم قال : وسببُ ذلك : أن سيدي عبد القادر سُئل يوماً عن شيخه ، فقال : أمَّا فيما مضىٰ فكان شيخي الشيخ حمَّاد الدبَّاس ، وأما الآن فإني أستقي من بحرين : بحرِ النبوة ، وبحرِ الفتوة ، يعني ببحر الفتوة : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأما سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي فقالوا له : من شيخُك ؟ فقال : أما فيما مضىٰ فكان شيخي عبدَ السلام بن مَشيش ، وأما الآن فإني أستقي من عشرةِ أبحرٍ : خمسة سماوية ، وخمسة أرضية ، وقد ذكرناها في « الطبقات الكبرىٰ »[٣] .

وكان يقولُ في وعظه للزناة : (أما يخشى الذي يشبكُ الكلبَ في الكلبة أن يشبكَ

---

(١) ينغاض : أي : ينغاظ .

(٢) شهاب الدين بن الميلق : هو شيخ الشيخ محمد بن الحنفي كما في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٧٢) .

(٣) « الطبقات الكبرىٰ » : (٢/ ٢٧٣) .

ذَكَرَهُ في فرجِ الزانية حالَ زناه ؟! ثم يقول : هاه هاه ، فيصرخُ الناسُ ، ويكثرُ ضجيجهم) .

وكان رضي الله عنه يتكلَّمُ علىٰ خواطر القوم ، ويخاطبُ كلَّ واحدٍ بشرح حاله .

وقال له رجلٌ مرةً : إن سيدي عبد القادر الجيلي كان يعملُ في بعض الأوقات مِيعاداً سكوتياً ، ونريدُ منكم أن تعملوا لنا ميعاداً كذلك ، فقال : نفعل ذلك غداً إن شاء الله ، فجلس على الكرسيِّ ، وتكلَّم بغيرِ صوتٍ ولا حرف سرّاً ، فأخذ كلُّ واحد من الحاضرين مشروبَهُ ، وصار كلُّ واحدٍ يقول : ألقى الشيخُ في قلبي كذا وكذا ، فيقول له الشيخُ : صدقت، فحصل الاتِّعاظ لكلِّ الحاضرين ، وكان ذلك من الكرامات .

وكان إذا حضر أحدٌ من المنكرين مجلسَهُ يصيرُ يرتعدُ وينتفضُ ، ويتقلب في الأرض ، ويقول : واللهِ ؛ ما هـٰذا سدىً ، ثم يعتقده ، ويسأله في الصحبة .

وجاءه رجلٌ ، فقال : يا سيدي ؛ ادع الله لي أن يَرزقني محبَّتَهُ ، فقال له الشيخ : لا أقولُ لك كما قال غيري : عبِّي كفنك ؛ ولـٰكن أقولُ لك : احضرِ الميعاد يومَ الأحد في زاويتنا ، فحضرَ الرجل ، فألقى الشيخ عليه بعضَ كلامٍ في المحبة ، فغُشي على الرجل ، فحُمل مغشيّاً عليه ، فمكث ثمانية أيام ثم ماتَ ، وصلَّى الشيخُ عليه ، وقال للحاضرين : صلُّوا علىٰ قتيلِ المحبَّة . ثم دفنه في القَرَافة .

وكان يلبس الملابسَ الفاخرة التي لا يلبسُها إلا الملوك ، فامتحنَهُ مرَّةً شخصٌ من المنكرين ، وقال : أعطني هـٰذا السلاري[1] ، فأعطاه الشيخُ له ، فباعه في السوق ، فظفر به بعضُ المحبين ، فقال : هـٰذا لا يصلحُ إلا لسيدي الشيخ محمد الحنفي ، فاشتراه ، وأهداه للشيخ ، فلبسه ، فجاء المنكرُ في الميعاد الثاني ، فوجد السلاري على الشيخ ، فتابَ واستغفر .

وكان رضي الله عنه لا تُردُّ له شفاعةٌ عند السلطان فمن دونه ، وكان يشفع عند من يعرفه وعند مَنْ لا يعرفه .

---

(١) السلَّاري : قباء بلا أكمام ، أو بأكمام قصيرة جداً ، استحدثه الأمير سلار في عصر محمد بن قلاوون . « المعجم العربي لأسماء الملابس » (ص ٢٣٨) .

وكان شيخ الإسلام العيني شارح « البخاري » يقول : (طالعنا طبقات الصوفية والعلماء من عهد الصحابة إلىٰ عصرنا هـٰذا ، فلم نر أحداً أُعطي من العزِّ والجاه والرفعة عند الملوك والأمراء مثلَ ما أُعطي الشيخ شمس الدين الحنفي رضي الله عنه) .

ثم قال : (وأبلغُ من ذلك : أنه لو طلبَ السلطانَ أن ينزلَ إليه خاضعاً ، فيجلس بين يديه ، ويقبِّل يديه . . لكان ذلك عنده أسرَّ الأيام) .

قال : ورأيتُ في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي : (أنه كان إذا بلغه أنَّ الخليفة عزمَ علىٰ زيارته يدخلُ الخلوةَ ، فإذا جاء الخليفةُ خرجَ ؛ حتىٰ لا يقومَ له) .

وكان سيدي محمد الحنفي إذا دخلَ عليه سلطانُ مصر لا يقومُ له ولا لغيره من قضاة الأربع وغيرهم ، ولم يُغيِّرْ قطُّ قعدته لدخول أحدٍ منهم .

وكان الأكابر إذا دخلوا عليه لا يتجرَّؤون أن يجلسوا بجانبه ، وإنما يجلسون بين يديه متأدِّبين خاضعين ، لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً .

وكان الملكُ الظاهر جقمق سيِّئَ الاعتقاد في طائفة الفقراء ، وكان يحطُّ علىٰ سيدي محمد ، ومع ذلك كان يُرسلُ له في الشفاعة ، فيقبلها ، ويقول لمن حوله : كلَّما أقولُ : إني لا أقبلُ لهـٰذا الرجل شفاعةً أقبلُ شفاعته قهراً عليَّ ، ولا أستطيع ردَّها ، وأتعجب من نفسي .

ونزل الملكُ المؤيَّدُ إليه مرةً ، فجاء إلى الزاوية ، فوجد الشيخ فوقَ السطح ، فطلع إليه سيدي أبو العباس السِّرسي ، وأخبره ، فقال : قل له : إني ما أجتمعُ بأحدٍ في هـٰذا الوقت ، فوضع السلطان يده علىٰ رأسه ، ورجع إلى القلعة ، ولم يتغيَّرْ من الشيخ ؛ إجلالاً له رضي الله عنه .

وأرسل الأمير بيسق[١] إلى الشيخ بشكارة فضة[٢] ، فوجدوه على الكرسيِّ ، فصار يقبض منها ، ويرمي للناس حتىٰ أفناها كلَّها بحضرةِ قاصده ، كأنه يُريه أنَّ الفقراء في غنيةٍ عن أموال الولاة ، فلما رجَعَ القاصدُ إلى الأمير ، وأخبره جاء إلى الشيخ زائراً ،

---

(١) في (ز) وحدها : (يشبك) بدل (بيسق) ، وتقدم الكلام على الأمير بيسق (٢/ ٢٧٦) .
(٢) الشكارة : كيس نقود ، صرة . « تكملة المعاجم العربية » (٦/ ٣٣٩) .

فقبَّلَ يديه ، فقال له الشيخ : قم إلى البئر ، فاملأ لي منها هـٰذه الحنفية للوضوء ، ويصيرُ ثواب ذلك في صحيفتك ، فخفَّفَ الأميرُ ثيابه ، وملأَ دلواً ، فوجده ثقيلاً ، فعالجه حتىٰ أطلعه ، فوجده ذهباً ، فأخبر الشيخَ بذلك ، فقال : صُبَّهُ في البئر ، واملأه ماءً ، ففعل ثانياً وثالثاً وهو يجده ذهباً ، وهو يقول له : صبَّهُ ، ثم قال له : قلْ للبئر : إنما نحتاجُ ماءً ، فاستحقرَ الأميرُ ما كان أرسله للشيخ من شكارة الفضة .

وطلب الفقراء بالوعةً للميضاة ، فغرز الشيخُ عكَّازَهُ في الأرض وقال : هـٰذه بالوعة ، فهي إلى الآن ينزل فيها ماءُ الوضوء ، ولا يعرفُ أحدٌ أين يذهب .

وكان أمير كبير ططر أيام الملك المؤيد كلَّما يجيءُ يزورُ الشيخ يخلعُ ثيابه ، ويملأُ الفسقيةَ للوضوء بنفسه ، ويعودُ فيلبس ثيابه ، فتسلطنَ الأميرُ ططر بعد السلطان أحمد بن المؤيد ، فكان ينزلُ إلىٰ زيارة الشيخ كلَّ يومين أو ثلاثة ، لا يستطيع أن يتخلَّفَ عنه ، فيقول له الشيخ : إنك صرتَ سلطانَ المسلمين ، فالزمِ القلعة ، فيقول : لا أستطيعُ أن أتركَ زيارتك .

وكان يقبِّلُ يدَ الشيخ ، ويقول له : لا تقطعْ شفاعتك عندنا ولو ألف مرَّة في كلِّ يوم .

ولمَّا عُزلَ شيخُ الإسلام ابنُ حجر أرسل الشيخ جاريته بركة إلى السلطان ططر ، وقال لها : قولي له : رُدَّ الشيخ شهاب الدين إلىٰ ولايته ، فطلعتْ إليه بركةُ ، فكتبَ لها في الحال مرسوماً بولايته ، وأرسل له الخلعةَ ، فكان شيخُ الإسلام لا ينسىٰ ذلك للشيخ .

ومرض السلطانُ ططر مرةً ، فطلع الشيخ يعوده ، وتسامعَ الناسُ بذلك ، فازدحم الناسُ أصحابُ الحوائج في القلعة ، فأمر السلطانُ ألا تُردَّ ذلك اليوم قصة ، وسأل الشيخ أن يعلمَ للناس علىٰ قصصهم بدل السلطان ، فعلَّمَ علىٰ خمسة وثلاثين قصة ، فلما أراد الشيخُ النزولَ أخرجَ السلطان له فرساً مسرجاً ، بسرجٍ مُغَرَّقٍ[1] وكنبوشاً ،

---

(١) **المُغَرَّق** : المحلَّىٰ بنحو الفضة ، والكنبوش : ما يستر به ظهر الفرس وكفله ؛ يكون فيه الزركش للملوك والأمراء ، ومن الصوف المرقوم للقضاة وأهل العلم .

وأمر بالقبَّة والطير أن يجعلا علىٰ رأس الشيخ ، وأمر الأمراءَ كلهم أن يركبوا معه إلى الزاوية ، ففعلوا ، وكان القبة والطير مع أمير كبير برسباي الدقماقي ، ثم تولَّىٰ بعد ذلك السلطنة ، فكان هو الملك الأشرف برسباي صاحب المدرسة بقرب الورَّاقين .

وجاءه مرةً شخصٌ من علماء المالكية يُريد امتحان الشيخ ، فأعلموا الشيخ بذلك ، فقال : إنِ استطاع أن يسألني ما عدتُ أجلسُ علىٰ سجادة الفقراء ، فلما جاء العالم يسأل قال له : ما تقول فيَّ ، ولم يجدْ شيئاً يقوله ، فقال له ثانياً : ما تقولُ فيَّ وسكتَ ، حتىٰ فعلَ ذلك مراراً ، فقال للعالم : ما تسأل ؟ فقال نسيتُ ما كنتُ أريدُ أن أسألَكم عنه ، فتبسَّم الشيخُ ، فكشفَ العالمُ رأسَهُ ، واستغفر ، وتاب من امتحان الفقراء .

وتكلم الشيخُ مرةً في جامع الطريني بالمحلة الكبرىٰ ، فكان المجلسُ كلُّهُ في معنىٰ قولهم :

يا فقيه فقْ فاقهْ ... يا صريمَ الناقهْ
قلتُ له[1] قم صلِّ ... قامَ جَرَىٰ في الطاقهْ

فأبكى الناسَ كلَّهم ، وزعق بعضُهم ، وتخبَّط عقلُ بعضهم .

وكان من جملة ما قال : (يا فقيه فق) : أي : علىٰ أبناءِ جنسك ، (فاقه) : أي ولو مرة في عمرك ، وقولهم : (يا صريم الناقة) : أي : يا زمام الناقة التي هي مطيَّتُكَ ، وبها تبلغ الخير ، وبهما تنجو من الشرِّ ، وقولهم : (قلتُ له قم صل . . .) إلىٰ آخره : معناه أنه أمرٌ بالصلاة فقط ، فزاد علىٰ ذلك طاقة من الأذكار والصيام والقيام ، وأكثرَ من الجدِّ والاجتهاد والطاعة ، ومعنىٰ (جرىٰ في الطاقه) : أي : أسرعَ وبادر إلىٰ فعل ما أُمر به ، وزاد في الطاعة جهد طاقته ، وليس المراد بها الكوةُ التي في الحائط .

وكان سيدي أبو بكر الطريني إذا دخل مصر يبدأ بزيارة سيدي محمد الحنفي قبل جميع الناس .

---

(١) في النسخ ما عدا (أ) : (لو) بدل (له) .

وقدَّم سيدي أبو بكر الطريني إلىٰ سيدي محمد الحنفي طعام خُبَيِّزة لمَّا قدم المحلة ، فقال له : يا أبا بكر ؛ هل أذن لك صاحبُ الأرض أن تأخذَ من خُبَيِّزتهم ؟ فقال : لم أستأذنهم ، فلم يأكل منها سيدي محمد ، وكذلك سيدي أبو بكر حتىٰ مات .

وكان رضي الله عنه إذا نادىٰ مُريداً من مصر ، والمريدُ في أقصىٰ بلاد الريف يُجيبه ، فإن قال له : تعالَ إلينا فَعَلَ ، أو : افعلْ كذا فَعَلَ .

ونادىٰ يوماً القاضي بناحية قطور بالغربية ، فسمع نداء الشيخ ، وجاء إلى القاهرة .

وكان سببُ تسمية هـٰذا القاضي أبا طاقية : أن سيدي محمد كان يخمِّرُ طيناً ، فقال له : يا قاضي ؛ اخلعْ عِمامتك ، وساعدْنا في تخمير هـٰذا الطين ، ففعل ، فقيل له لما فرغ : لِمَ لا تلبسُ عِمامتك ؟! فقال : إن الشيخَ لم يقلْ لي : إذا خمَّرتَ الطين البسْ عمامتك ، فلا ألبسها إلا إنْ قال لي ، فلم يتَّفق أنَّ الشيخَ قال له : البس عمامتك ، فمكث بقيةَ عمره بطاقيته حتىٰ مات .

ومرَّ يوماً بياع الحمص الأخضر ، فقال : يا ملآنة بفُلَيس ، فقال الشيخ : انظروا ما أَرخصَ هـٰذه مع كونها ملآنة ! فكيف لو كانت فارغةً ، فقال بعد ذلك : يا ملآنة بقلبين ، فقال الشيخ : هـٰذا سببُ رخصها .

وركب سيدي محمد مرةً حماراً إلى الروضة ، فأعطاه إنسان عشرين ديناراً في الطريق ، فأعطاها للمكاري .

وكان رضي الله عنه إذا دخل الحمام وحلقَ رأسه يتقاتلُ الناسُ علىٰ شعره ، يتبرَّكون به ، ويدَّخرونه عندهم .

وكان إذا دخل الحمام يدخل بجماعة من الفقراءِ معه جبراً لخاطرهم ، وإشارة لتنظيفهم علىٰ يديه .

وكان الحلاقُ إذا مرَّ بشوارع مصر يصيرُ الناسُ يقبِّلون يده ، ويقولون : إنَّها مسَّتْ بدن سيدي محمد الحنفي ، حتىٰ بلغ ذلك السلطان أبا فارس سلطان تونس ، فأرسل وراء الحلاق من مصر إلى المغرب ، فأكرمه غاية الإكرام ، وتبرَّكَ بيده ، وردَّهُ بهدايا وتحف .

ثم إنَّ السلطانَ أرسل وكيلَهُ إلىٰ مصر ليأخذ له العهدَ بطريق الوكالة ، فأخذ عليه العهد ، وأمره أن يأخذَ العهد على السلطان إذا رجع .

وكان أهلُ المغرب يرسلون قصَّادَهم إلىٰ مصر ؛ ليأخذوا لهم تراباً من تراب زاويته ، ويجعلونه في ورق المصاحف ، وكذا كان أهلُ الروم يكتبون اسمَهُ علىٰ أبواب دورهم يتبرَّكون بذلك .

وكان رجالُ الطيران في الهواء يأتون إليه ، فيعلِّمُهم الأدبَ ، ثم يطيرون في الهواء والناسُ ينظرون إليهم حتىٰ يغيبوا .

وكان رضي الله عنه ينزل البحر بثيابه ، فيزور سكَّانه ، فيمكث ساعةً طويلة في قعر البحر ، ثم يخرجُ ولم تبتلَّ ثيابه .

وقد وقعَ لإمامِ زاويته : أنه خرج للصلاة من بيته ، فنظر في الطريق إلى امرأةٍ جميلة ، فلمَّا دخلَ الزاوية أمرَ الشيخُ غيرَهُ أن يتقدَّم ويُصلي بالناس ، فلما جاء الوقت الثاني فعلَ معه كذلك إلىٰ خمسة أوقات ، فعلم الإمام أنَّ الشيخَ شعرَ بنظره إلى المرأة ، فاستغفر وتاب ، فقال له الشيخ : ما كلُّ مرة تسلم الجرَّة .

وكان كلُّ وليٍّ دخل مصر من غير استئذان من سيدي محمد سُلب ، فإنِ استغفرَ ردَّ إليه حالَهُ ، وإلا دام سلبُهُ .

ودخل مرةً مصرَ رجلٌ أعجمي كان معه قفَّةٌ يضع يده فيها ، فيُخرجُ منها كلَّ ما أراد ، فأرسل الشيخُ خلفه ، فجاء بقفَّتِهِ ، فقال له الشيخ : أكرمْنا من قفَّتك ، فوضع يده فلم يجد شيئاً .

وكان يقول : (واللهِ ؛ لقد عُرضتْ علينا القطبيةُ ونحن شباب ، فلم نلتفتْ إليها دون الله) .

وكان يقول : (من مرتبة القطبِ أن يتحمَّلَ همومَ أهلِ الأرض كلِّهم ؛ كالسلطان الأعظم ، بل أعظم) .

وكان يتطوَّرُ في بعض الأوقات ، فيملأ الخلوةَ بجميع أركانها ، ثم يصغر قليلاً قليلاً حتىٰ يعودَ إلىٰ حالته المعهودة ، ولما عُلم بذلك سدَّ الطاق التي تُشرف علىٰ خلوته .

وكان إذا تشوَّشَ من شخصٍ يمزِّقه اللهُ كلَّ ممزَّقٍ ولو كانَ مستنداً لأكبرِ الأولياء ، لا يقدرُ يدفعُ عنه شيئاً من البلاء النازل عليه .

وقد وقع لابنِ التمَّار أنه أغلظَ على الشيخ مرَّةً لما شفعَ عنده ، فقال الشيخ : قد مزَّقنا ابنَ التمَّار كلَّ ممزقٍ ، فقيل : إنه مستند للشيخ البِسطامي ، فقال : قد مزَّقناه ولو معه ألفُ بسطامي ، فأرسل السلطان من الصباح إلى ابنِ التمَّار فهدمَ داره ، وأزال نعمتَهُ ، فداره خرابٌ إلى الآن .

وعزم بعضُ الأمراء علىٰ سيدي محمد وصنع له طعاماً ، ودسَّ فيه إناءً مسموماً ، وقدَّمه للشيخ ، وكان لا يتجرَّأ أحدٌ أن يأكلَ مع الشيخ في إنائه ، فأكلَ الشيخُ منه شيئاً ، ثم علم بأنه مسموم ، فقام ، وركب إلىٰ زاويته ، واختلطتِ الأواني[1] ، فجاء أولاد الأمير الاثنان، فلعقوا من الإناء الذي أكل منه الشيخ فماتا ، ولم يضرَّ الشيخَ ذلك السمُّ.

وتوضَّأ الشيخُ مرةً في الخلوة ، فأخذ فردَةً من قبقابه ورمىٰ بها في الهواء ، فذهبت ، وليس في الخلوة طاقٌ ، وقال للنقيب : احفظْ هـٰذه الفردة الثانية حتىٰ تأتي أختُها ، فبعد مدَّةٍ جاء شخصٌ من أصحاب الشيخ من تجار الشام ومعه فردةُ القبقاب ، وقال : إن اللصَّ لمَّا جلسَ علىٰ صدري ليذبحني قلت : يا سيدي محمد يا حنفي ؛ فجاءته الفردةُ ، فوقعتْ في نحره ، فانقلب عني وتخلَّصتُ منه .

وشفع مرةً عند أميرٍ كان اسمه المناطح[2] ؛ كلُّ مَنْ نطحه كسر رأسه ، وكان ينطحُ المماليك بين يدي السلطان الملك الأشرف برسباي ، فقال لنقيب الشيخ : قل للشيخ : اقعدْ في زاويتك ولا تعارضه ، وإلا جاءَ لك ينطحك فيكسر رأسك ، فبلَّغَ النقيبُ ذلك للشيخ ، فسكتَ ، فلما دخل الليل كشفَ ذلك الأميرُ رأسَه ، وصار ينطحُ الحيطان إلىٰ أن ماتَ ، وبلغ ذلك الخبرُ للسلطان ، فقال : قتله الحنفي بلا شكٍّ .

وكان عنده جاريةٌ مباركةٌ اسمها بركة ، أعتقها الشيخُ وتزوَّجها ، وقال : لا تُخبري بذلك أحداً ، فلما طلَّقها أخبرتْ أهلَ البيت ، فقال لها : اقعدي في المكان الفلاني ،

---

(١) المثبت من (و) ، وفي (هـ) : (واختلفت) ، وفي باقي النسخ : (واختطفت) .
(٢) في (أ ، ز ، ي) : (الناطح) .

فتكسَّحتْ ، فلم تُطقِ القيام ، فاستغفرتْ ، وسألت أن يأذنَ لها في المشي ، فقال : قد خرجَ السهمُ من القوس ، فلم تزلْ تقوم فقط من غيرِ مشيٍ إلىٰ أن ماتت .

وكان رضي الله عنه يقرئ الجانَّ في الفقه علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة ، وكان إذا غاب يرسلُ صهرَهُ سيدي عمر فيقرئُهم في بيت الشيخ مكانه .

قال سيدي عمر : وطلبتْ مني مرة جنيَّةٌ أن أتزوَّجَها ، فشاورت سيدي محمد ، فقال : هـٰذا لا يجوز في مذهبنا ، فعرضتْ ذلك علىٰ ملكِهم لمَّا نزلتُ معها تحت الأرض ، فقال ملكُهم : لا اعتراض علىٰ سيدي محمد فيما قال ، ثم قال الملك لوزيره : صافحْ صهرَ الشيخ باليد التي صافحتَ بها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصافحْ بها سيدي محمد ، فيكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم في المصافحة رجلان ، فصافحه ، وأخبر أنَّ بينه وبين وقتِ مصافحة النبي صلى الله عليه وسلم ثمان مئة سنة ، ثم قال للجنية : ردِّيه إلى الموضع الذي جئتي به منه .

ورآه مرةً كاتب السرِّ ابن البارزي وهو راكبٌ ، ومعه جماعةٌ من الأمراء ، فأنكر عليه ، وقال : ما هـٰذه طريقةُ الأولياء ! فقال له ناظرُ الخواص : لا تعترض ؛ فإن للأولياء أحوالاً ، فقال : لا بدَّ أن أرسل أقول له ذلك ، فلما دخل القاصدُ وأخبر بذلك سيدي محمد ، فقال له : قل لأستاذك : أنت معزولٌ عزلاً مؤبَّداً ، فأرسل له السلطان المؤيد ، وقال له : الزمْ بيتك ، فما زال معزولاً حتىٰ قتله الملك المؤيد ، نعوذ بالله من النكران .

وكان سيدي محمد يقول : (عليكم بوضعِ الأُترجِّ في بيوتكم ؛ فإني وضعتُ عندي أترجةً في طبقٍ ، فامتنع الجانُّ الذين كانوا يقرؤون عليَّ من الدخول ، وقالوا : لا نقدرُ ندخل لك حتىٰ تذهبَ رائحةُ الأُترج) .

ودخلتْ عليه مرَّةً امرأةُ أميرٍ ، فرأته نائماً علىٰ سريرٍ ، وامرأةٌ أجنبية جميلةٌ من نساء الأمراء تروِّحُ عليه ، فأنكرتْ عليه ، وقالت : كيف يُمكِّن امرأةً أجنبية من الترويح عليه ، فلحظها الشيخ بعينه ، وقال لها : انظري إلىٰ وجهها ، فنظرتْ ، فإذا وجهُها عظامٌ بالية ، والصديدُ يخرج من فمها ومنخرها ، كأنها خرجت من القبر ، وقال للمرأة : واللهِ ؛ ما أنظرُ للأجانب دائماً إلا بهـٰذه العين ، ثم قال لها : إنَّ فيك ثلاثَ

علامات : علامةً تحت إبطك ، وعلامةً في فخذك ، وعلامةً في صدرك ، فقالت : صدقت يا سيدي ، واللهِ ؛ إنَّ زوجي لم يطَّلعْ علىٰ هٰذه العلامات إلى الآن ، ثم استغفرتْ وتابت إلى الله تعالىٰ .

وشفع ابنُ كتيلة مرةً عندَ كبيرِ المحلة ، فردَّ شفاعته ، وقال له : إن لم يسكتْ قطعتُ مصارينه قِطعاً قِطعاً ، فأرسلَ أعلمَ بذلك سيدي [محمداً][1] ، فقال : هو الذي تتقطَّعُ مصارينُهُ في بطنه ، فأرسل له سيدي محمد جماعةً من الفقراء ، وأمرهم إذا طلعوا المحلَّة أن يمرُّوا علىٰ بيت ذلك الظالم ، ويرفعوا أصواتهم بالذكر ، ففعلوا ، فصار يتقيأ قيحاً ودماً ، ومصارينُهُ تَخرج قطعاً قطعاً إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه ربما يأخذُ القطعةَ من البِطِّيخ ويشقُّ منها حتىٰ يملأ كذا كذا طبقاً ، كلُّ طبقٍ له لبٌّ خلافُ الآخر ، حتىٰ إنه شقَّ من البطيخ الأخضر بطيخاً أصفر وعكسه ، حتىٰ يُبهر عقولَ الحاضرين .

ومدحوا مرة عنده سيدي عمر بن الفارض ، فقال : (لو كان عمرُ حيّاً ما وسعه إلا الوقوف ببابنا) .

ومرضتْ زوجةُ الشيخ مرة ، فصارت تقول : يا سيدي أحمد يا بدوي ؛ خاطرك معي ، فجاءها سيدي أحمد وهو ضاربٌ لثامين ، وعليه جبَّةٌ واسعة الأكمام ، وقال لها : كم تُناديني وتستغيثي بي ، وأنت لا تعلمي أنك في حماية رجلٍ من المتمكِّنين ! ونحن لا نُجيب من دعانا وهو في موضعِ أحدٍ من رجال الله ، قولي : يا سيدي محمد يا حنفي يُعافيك الله ، فقالت ذلك ، فأصبحتْ كأن لم يكنْ بها مرض .

وكان الشيخ طلحةُ المدفون بالمنشية الكبرىٰ يقول : (قال لي سيدي محمد الحنفي : خرجَ من زاويتي هٰذه أربع مئة وليٍّ ، ثلاث مئة وستون علىٰ قدمي ، كلُّهم داعون إلى الله عز وجل ، وأصحابُنا بأرض المغرب كثير ، وبالشام أكثرُ ، وبالروم واليمن والبراري والكهوف والمغارات أكثر وأكثر ، قال : وكان ذلك آخر اجتماعي بالشيخ رحمه الله) .

---

(١) في النسخ : (محمد) .

وكان سيدي محمد يقول في مرض موته : (منْ كانت له حاجةٌ فليأت إلىٰ قبري ، ويطلبْ حاجته أقضها له ؛ فإن ما بيني وبين الناس إلا نحو ذراع من تراب ، ومن حجبه ذراعُ تراب عن أصحابه فليس هو برجل) .

وكان رضي الله عنه يلقِّنُ الخائفَ من ظالمٍ ، ويقول له : (إذا دخلتَ عليه فقل : باسم الله الخالقِ الأكبر ، حرزٌ لكلِّ خائفٍ ، لا طاقةَ لمخلوقٍ مع الله عز وجل) ، فيرجع إليه المظلومُ وعليه الخلعةُ والوصول بالتغليق .

ودخلتْ عليه مرَّةً امرأةٌ ، فرأت قلَّة طعامه في يوم الميعاد ، فقالت : قلة هٰذا الطعام ولا هو ، ثم ذهبت وعملتْ له طعاماً واسعاً ، ودَعَتْ الفقراء ، فقال الشيخ لسيدي يوسف القطوري : تعال كُلْ وحدك ، فأكل طعامَها كلَّهُ ، وشكا من الجوع ، فأخذته إلىٰ بيتها ، وقدمت إليه أكثر من ذلك الطعام الذي حملته إلى الزاوية ، فأكله وهو يشكو الجوع ، فجاءت مستغفرةً إلى الشيخ ، فقال لها : البركةُ في طعام الفقراء ، لا في أوانيهم الصغار .

وكان الشيخ إذا تذكَّر أحداً من أصحابه غابَ عن السِّماطِ يأكلُ الشيخُ نيابةً عنه لقمةً أو لُقماً ، فيأتي ذلك الشخصُ ، ويخبرُ أنَّ الشيخَ لقَّمه ذلك في وقت كذا وكذا .

وكان إذا سأله منكرٌ عن سؤالٍ يجيبه ، فلا يزال يُجيبه حتىٰ يسكت المنكر ، فيقول له الشيخ : اسأل ، وما لم يكن عندي أجبتك عنه من اللوح المحفوظ .

وحضر الشيخ جلال الدين البُلقيني ، وشيخُ الإسلام العَيني ، وشيخ الإسلام المالكي البِسطامي يوماً مجلسَ سيدي محمد في الميعاد ، فتكلَّمَ على الفاتحة ، فقال الشيخ جلالُ الدين : قد طالعتُ نحو أربعين تفسيراً للقرآن ، فما رأيتُ فيها شيئاً مما ذكره سيدي الشيخ من الفوائد .

وكان إذا استغرقَ في الكلام يقول : (وها هنا كلامٌ ، لو أبديناه لكم لخرجتم مجانين ، فطويناه عنكم رحمةً بكم) .

وكان للشيخ صاحبٌ في مكَّةَ ، فلما ماتَ الشيخ سافرَ من مكة إلىٰ مصر لزيارة قبر الشيخ ، ولم يكن له في مصر حاجةٌ غير ذلك .

وجاءه مرَّةً رجلٌ ، فقال : يا سيدي ؛ أنا رجلٌ ذو عائلةٍ ، وأنا فقيرٌ ، فعلِّمني الكيمياء ، فقال الشيخ : امكثْ عندنا سنةً بشرط أنك كلما أحدثتَ توضَّأتَ وصلَّيتَ ركعتين ، فأقام عنده علىٰ ذلك الشرط ، فلما بقي من المدة يومٌ جاء إلى الشيخ ، فقال له : غداً تقضىٰ حاجتُك ، فلما جاءه قال له : قم فاملأ لنا دلواً من هـٰذه البئر ، فملأه ، فإذا هو ذهبٌ ، فقال : يا سيدي ؛ ما بقي فيَّ الآن شعرةٌ تحبُّ الدنيا ، فقال له الشيخ : صبَّهُ مكانه ، واذهب إلىٰ بلادك ؛ فإنك قد صرتَ كلك كيمياء ، فرجع إلىٰ بلاده ، ودعى الناسَ إلى الله عز وجل ، وحصل به نفعٌ كثير ، رضي الله عنه .

وكان الشيخ شمس الدين بنُ كتيلة المحلي يقول : (ما صلَّىٰ سيدي محمد يوماً إلا وعلىٰ يمينه أربعةٌ روحانيون ، وأربعة جسمانيون ، لا يراهم إلا سيدي محمد ، أو خواصُّ أصحابه) .

ووقعتْ له مرةً ابنةٌ صغيرة من سطوحٍ عال ، فرأوا يداً تناولتها من الهواء ، حتىٰ وضعتها على الأرض برفق ، فقلنا لصاحب اليد : من تكون ؟! فقال : من أصحاب الشيخ من الجنِّ ، وقد أخذ علينا العهد ألا نضرَّ أحداً من أولاده إلىٰ سابع بطن .

وكان سكانُ بحر النيل يطلعون من البحر إلىٰ زيارته في بيته بالروضة والناسُ ينظرون ، قالت ابنتُهُ أمُّ المحاسن : ورأيتُهم مرةً طلعوا من البحر ، وعليهم الثياب النظيفة والطيالسة ، فصلوا معه صلاةَ المغرب ، ثم نزلوا البحرَ بثيابهم ، فقلت لسيدي : ما يمنع ثيابهم من البلل ؟ فقال : إن البحرَ قد سُخِّرَ لهم .

وكان إذا وقع بصرُه علىٰ حَرَامي أو زاني تاب لوقته ، وجلس عنده يتعبَّدُ إلىٰ أن يموت .

وأرسل الشيخُ مرةً ، فنادىٰ في شوارع مصر[1] : يا معشر المسلمين ؛ يقول لكم سيدي محمد الحنفي : واظبوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ[2] ، فاعترضَ علىٰ

---

(١) في (أ) وحدها : (منادي) بدل (فنادىٰ) .

(٢) قال تعالىٰ في سورة البقرة ، الآية (٢٣٨) : ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ .

ذلك بعضُ الشهود ، وقالوا : هـٰذا ما هو للحنفي ، هـٰذا لله ، ثم إنه نادىٰ ثالثَ يومٍ كذلك ، فأنكر على المنادي شخصٌ من أولـٰئك الشهود ، فحصل له شيءٌ ، فمات ، فجاء بقيةُ الشهود ، واستغفروا من إنكارهم الأول .

وكان إذا تظاهر أحدٌ بالصلاح بغيرِ حقٍّ يُرسل وراءه ، فيسأله عن الطريق ، وينهره ، فيتفرق الناس عنه(١) ، ويقول : هـٰذه مائدةٌ لا يجلسُ عليها طُفيلي .

وكان إذا طلبه أحدٌ إلىٰ طعامه من المنكرين يُرسلُ يقول له : (حرِّرِ النية في حضورنا ونحن نحضر ؛ فإن غالبَ الناس لا يقصدون بحضور الناس إلا الفخرَ والخيلاء حتىٰ يُقال : حضر في وليمته فلان وفلان) .

ووقعَ له ذلك مع كاتب السرِّ ابنِ البارزي ، فوقع في حقِّ الشيخ ، فمقتَهُ السلطان المؤيد كما مرَّ(٢) ، فلم يزلْ ممقوتاً عنده حتىٰ قتله .

وكان يقول : (أولُ ما تنزلُ الرحمة علىٰ حلقة الذِّكر ، ثم تنتشرُ من الحلقة إلىٰ من هو خارجُها) ، فكان الخارجون عن الحلقة يتزاحمون بأيديهم على الحلقة ، ليصيبَهم من الرحمة .

وكان رضي الله عنه يأمرُ أصحابه في الأسواق بالذِّكر ، وكذا في الخرابات والمساجد المهجورة ، ويقول : إن هـٰذه الأماكنَ تصيرُ تشهدُ لكم .

وكان أصحابُهُ إذا سألوه أن يخرجَ بهم إلىٰ مواضع الفرج والمتنزهات يقول : اصبروا حتىٰ تحضرَ لنا نيةٌ صالحة .

وكان إذا طلبَ كوزَ الماء قام كلُّ مَنْ في المجلس ؛ من أميرٍ أو كبيرٍ أو قاض ، فيصيرون واقفين حتىٰ يفرغَ ويأذن لهم في الجلوس .

وكانت ملوكُ الأرض تُرسلُ له الهدايا ، فيقبلها ويكافئ عليها بالدعاء لهم .

فأهدىٰ له ملك الروم دابةً تمشي علىٰ ثلاث قوائم ، مؤخَّرُها علىٰ رجلين ، وصدرُها علىٰ واحدة ، وكانتْ قدرَ الجدي الصغير ، فأقامتْ عنده ستةَ أشهرٍ وماتت .

---

(١) في (ز) : (ويفرق) ، وفي (ي) : (فينصرف) .
(٢) انظر (٤/ ٥٤) .

وأهدىٰ له سلطان تونس الخضراء مشطاً لتسريح اللحية ؛ إذا أفردوه صار كرسيّاً للمصحف ، فأهداه الشيخُ إلى الملك الأشرف برسباي ، ففرح به وأعجبه .

وأهدىٰ له ملكُ الهند ثوباً [بعلبكياً] في قصبةٍ[1] ، وشاشاً في جوزة من جوز الهند .

ودخل عليه مرةً فقيرٌ ، فرأىٰ ملابس الشيخ كملابس الملوك ، فقال للشيخ : أيشٍ هـٰذه الملابس وطريقُ الفقراء إنَّما هو لبس الخشن ؟! ولـٰكن أريدُ منك أن تخلعَ لي هـٰذه الثياب ألبسها ، وتلبس أنت جبَّتي ، فأجابه الشيخ ، فخرجا يتماشيان ، وإذا بأميرٍ قد عرف الشيخَ ، فنزل من علىٰ ظهر فرسه ، وخلع على الشيخِ السلاريَّ الذي عليه ، وصار كلُّ أميرٍ رآه ينزلُ ويمشي ، فتعجَّب الفقير من ذلك ، واستغفرَ في حقِّ الشيخ ، وعلم أن الفقراءَ ليس عندهم شيءٌ من الحظوظ النفسانية ، فقال له الشيخ : لا تعدْ إلىٰ مثل ذلك مع أحدٍ غيري ، ولولا أنكَ تحبُّ الفقراء ما حصلَ لك اليوم خيرٌ .

وكان إذا ركبَ قسم جماعته قسمين : قسمٌ يمشي أمامه ، وقسمٌ يمشي خلفه ، ويأمرهم برفعِ الصوتِ بالذكر ، ويقول : هو شعارُنا في الدنيا وحين نقومُ من قبورنا ، فكان الناسُ إذا سمعوا الذكرَ عرفوا أن الشيخَ راكبٌ ، فيصيرون ينزلون من بيوتهم ، ويخرجون من حوانيتهم ، ومن لم يصل إلىٰ يدِهِ رمىٰ رداءَهُ على الشيخ ، ثم يمسحُ به وجهَهُ .

وكان يقول لأصحابه : (أطلعوني علىٰ عدد أموالكم ؛ لأدعو لكم فيها بالبركة) ، وكان كلُّ من كتمَهُ شيئاً ذهب ، وربَّما يصيرُ بعد ذلك يسألُ الناس .

ودخل مرةً الحمامَ هو وأصحابه ، فأخذ ماءً من الحوض ، وقال : (إنَّ النارَ التي يُعذِّبُ الله تعالىٰ بها عصاة أمَّةِ محمدٍ مثلُ هـٰذا الماء في السُّخونةِ) ، ففرح الفقراء بذلك أشدَّ الفرح .

وكان رضي الله عنه إذا زار القَرَافة وسلَّمَ علىٰ أحدٍ في القبر يردُّ عليه السلام بصوتٍ يسمعه الحاضرون .

---

(١) في النسخ : (بعلبكي) .

وكان له التصريفُ التام في مصر وقراها ، وكان كلُّ من دخلَ مصر من غير أن يستأذنه لا ينجحُ له أمر .

ودخل الفرغل بنُ أحمد وغالبُ فقراء الصعيد يشفعون في ابن عمر أمير الصعيد ، فقال الشيخ : لا تُقضىٰ لهـٰؤلاء حاجةٌ لعدم استئذانهم صاحب البلد ، فكان الأمر كما قال ، ولم تُقضَ لهم حاجة .

وكان رضي الله عنه يكنسُ الزاوية وحده وهو يتلو القرآن إذا رأىٰ فيها تراباً .

وكان من مرتبته : أنه لا يَمدُّ سماطَ مولده الكبير إلا الأمراء مقدمو الألوف[1] .

ودخل مرةً فرأى الأمراءَ يبنون الكوانين ، فقال : (لا إلـٰه إلا الله ، لو أمرنا الملوكَ أن يبنوا الكوانين لفعلوا ؛ فضلاً من الله علينا) .

وكان من شأنه إذا شتمه إنسانٌ أن يحتملَه ، ويدعو له بالإصلاح .

وكان بعضُ تجار مصر يُنكر على الشيخ ، وربما جاء إلىٰ باب الزاوية ، ويصيرُ يسبُّ الشيخ ويشتمه ، فدار عليه الزمان ، ونفد مالُهُ كلُّهُ ، فأتى الشيخَ بعد ذلك ، فرحبَّ به وأكرمه ، وجمع له من أصحابه مالاً جزيلاً ، ولم يزل في خدمة الشيخ إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه ينهىٰ أصحابَهُ عن حضور الموالد التي فيها آلاتُ اللهو .

ودخل مرةً يزور سيدي عمر بن الفارض ، فرأى المازوني ينشد ، وآلاتُ اللهو تُضرب ، فقال : اصبروا حتىٰ نزور ، فسكتوا حتىٰ زار ، ولم يتعرَّضْ لكسر آلاتهم .

ودخل مرة جامعَ الأزهر ، فسمع بعضَ المدرِّسين من الحنفية يقول : الحكمُ في هـٰذه المسألة كذا خلافاً للشافعي ، فزجره ، وقال : قل : للشافعي رضي الله عنه ، ولا تعد تذكرْ أحداً من الأئمة إلا بالترضي عنه ، فتاب المدرس واستغفر .

---

(١) في النسخ : (مقدمون الألوف) ، ومقدمو **الألوف** (أمراء المئين) : مرتبة يكون في خدمة حاملها مئة مملوك ، ويقع تحت قيادته في الحرب ألف أو ألوف من الجند ، وربما زاد العدد علىٰ ذلك ، وهي أعلىٰ مراتب الأمراء من عهد السلاجقة إلى المماليك بمصر . « دور السلاجقة » (١/ ٢٢٦) .

وكان إذا رأىٰ في جبهة فقيرٍ أثرَ السجود يقول : أخاف عليك يا ولدي أن يكونَ هـٰذا من جملةِ الرياء .

ومدحوا يوماً عنده سيدي عبد القادر الجيلي ، فقال : واللهِ ؛ لو حضر عندنا لتأدَّبَ معنا ؛ فإننا أسرارُ الوجود .

وكان إذا وضع يده على الفرسِ الحرون لم يعدْ إلىٰ حرونته .

وكان يكره للشاب أن يختلي بأمرد في خلوة ، ويقول : (من شرط المريد : أن يخاف علىٰ نفسه من الريب ، وقد دخل الشبلي مرة خرابة ، فرأىٰ فيها حمارة سوداء ، فصاح بأعلىٰ صوته : الحقوني ؛ فإني أخاف أن أقرب الحمارة)[1] ، وإذا كان هذا خوف الأكابر ، فكيف بأمثالنا ؟!

وكان يكره مشايخ العرب والقرىٰ ، ويقول : أنا لا أقول بإسلامِهم .

وكان إذا سمع فقيراً يقول : أنا شيخي سيدي أحمد البدوي ، أو سيدي إبراهيم الدسوقي يقول : (يا ولدي ؛ ليس لك بشيخٍ ، وإنَّما شيخُك الذي تأخذُ عنه الأدب وتقتدي به ، ولـٰكن أنت يا ولدي محبٌّ إن شاء الله تعالىٰ) .

وكان يكره للفقراء لبسَ الطليحية الحمراء ، ويقول : (الفقر في الباطن لا في الظاهر) .

وكان يتكدَّرُ من الفقراء المقيمين عنده في الزاوية إذا عملوا شيئاً ولم يشاوروه ، ويقول : (واللهِ ؛ ما عرف الكيلانيُّ وابنُ الرفاعي وغيرُهما الطريق إلى الله تعالىٰ إلا بالتربية علىٰ يد شيخٍ ، وكم لعبَ الشيطانُ بعابدٍ ! وقطعه عن الله عز وجل !) .

وكان إذا تغيَّرَ علىٰ فقيرٍ ظهرت عليه أمارات المقت .

وكان يقول : (ليس عند الفقراء عصاً يَضربون بها الفقير ، إنما هو تغير قلوبهم)[2] .

ودخل مرةً إلىٰ بستانٍ وساقيةٌ دائرة ، فقالوا له : ما تقول الساقية في نعيرها ؟

---

(١) أثبتت المقولة الأخيرة من (ب ، ج ، ط ، ك) .

(٢) وفي « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٢) : (الفقراء ما عندهم عصاً يضربون بها من أساء الأدب في حقهم ، وما عندهم إلا تغير خواطرهم) .

فقال : (تقول : لا ترىٰ ملآن إلا طالع ، ولا فارغ إلا نازل) .

وكانتِ الفضة لا تنقطعُ من جيبه لأجل الفقراء ، فكان لا يقدمُ عليه فقيرٌ إلا وضع يده في جيبه ، حتىٰ كان الذي يلاحظُهُ طولَ النهار يقول : (واللهِ ؛ إن عطايا الشيخ كلَّ يوم أكثرُ من عطايا السلطان) .

وكان من هيبته : أنه إذا ركبَ في شوارع مصر لا يلقاه أميرٌ كبير أو كاتبُ سرٍّ أو ناظرُ الخاص إلا ورجع يُشيِّعُهُ إلىٰ أي مكانٍ أراد .

وكان يقول : (لا يكملُ الفقير في حاله إلا إذا كان يسمعُ ردَّ السلامَ عليه من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا قال في الصلاة أو غيرها : السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته ، فمن لم يسمعْ صوتَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالردِّ عليه فهو ناقص المقام) .

وكان الخضرُ عليه السلام يحضر مجلسَ سيدي محمد ، وزاره مراراً عديدة ، وكان يجلسُ عن يمين الشيخ ، فإذا قامَ الشيخُ قام ، وإذا أرادَ دخولَ الخلوة شيَّعَهُ إلىٰ باب الخلوة ورجع .

وسُئل مرة رضي الله عنه عن الصالح : من هو ؟ فقال : (هو من صلحَ لحضرة الله تعالىٰ ، ولا يصلحُ لها إلا إن تخلىٰ عن الكونين) .

وسئل عن الولي أيضاً ، فقال : من قال لا إلـٰه إلا الله وقامَ بشروطِها ، فقيل : وما شروطُها ؟ فقال : أن يُوالي اللهَ ورسولَهُ ؛ بمعنىٰ : يوادد اللهَ بشهادته لهُ بالوحدانية ، ويوادد رسولَهُ بشهادته له بالرسالة .

وكان يقول : (إذا مات الوليُّ انقطعَ تصرُّفه في الكون ، وعدمُ الإمداد للزائرين ، فإن حصلَ مددٌ للزائر ، أو قضاءُ حاجةٍ فإنما ذلك من الله عزَّ وجل علىٰ يدِ القطب صاحبِ الوقت ، فيُعطي الزائرَ من المددِ علىٰ قدرِ مقامِ ذلك المزور) .

وكان الشيخُ يخرج في بعض الأوقات إلىٰ قبرِ رجلٍ يقال له : (الأبَّار) يزوره ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هـٰذا القبرَ ممَّا لا يؤبه له ، فقال : بلغني : أنَّه كان يُخبر عن رأس ماله في كلِّ إبرةٍ ثم يبيعها ، فلما علمتُ عناية الله به اعتنيتُ به وبزيارته .

وكان يقول : (قوموا لأهل العلوم الربانية ؛ لكراهتهم القيامَ لهم ، ولا تقوموا لمنْ علمتم أنه يُحبُّ القيام له) .

قالوا : وكان بالشيخ عدَّةُ أمراض ؛ كلُّ مرضٍ منها يهدُّ الجبل ، وهو مع ذلك راض منشرحٌ ؛ منها البلغمُ الحار ، والبلغمُ الباردُ ، فلما اجتمعَ عنده الأطباءُ قالوا : إنَّ النصفَ الأعلىٰ قد يحكمُ فيه البلغمُ الحار ، والأسفلَ قد يحكمُ فيه البلغمُ البارد ، فإذا داوينا الأعلىٰ غلب عليه الأسفل ، وعكسه ، فقال : لهم خلُّوا بيني وبين الله يفعلُ في عبده ما يريد ، وأقام بذلك المرض مدَّة سبع سنين ملازماً لفراشِهِ ، فما سمعَهُ أحدٌ يقول آه إلىٰ أن توفَّاه الله إلىٰ رضوانه وجنته .

وكان مع وجود هـٰذا البلاء الشديد يتوضَّأُ لكلِّ صلاةٍ قبل وقتها بخمس درج والأذكارُ والأحزابُ تُتلىٰ حوله في كلِّ صلاةٍ ، ولا يُصلِّي إلا مع الجماعة .

قالوا : ولما دنتْ وفاتُهُ بأيامٍ كان لا يغفُلُ عن البكاء ليلاً ولا نهاراً ، وغلبتْ عليه محبَّةُ الذلَّة والخضوع لله عزَّ وجل ، حتىٰ سألَ اللهَ عزَّ وجل قبل موته أن يبتليه بالقمل والنوم قريباً من الكلاب ، والموت علىٰ قارعة الطريق ، فحصل له جميع ذلك قبيل موته ، فتزايد عليه القملُ حتىٰ صارَ يمشي علىٰ فراشه ، ودخل له كلبٌ فنام معه علىٰ فراشه ليلتين وشيئاً ، وقضىٰ نحبَهُ علىٰ طرف حوشه ، والناسُ يمرُّون عليه في الشارع .

قالوا : وإنما تمنى الشيخُ ما ذكر ؛ ليكونَ له أسوةٌ بالأنبياء الذين ماتوا بالجوع والقمل ، ويحصلُ له نصيبٌ من إرثهم ، فقد كان السيد عيسىٰ عليه السلام يقول للحواريين : بحقٍّ أقولُ لكم : إنَّ النومَ مع الكلاب على المزابل لكثيرٌ علىٰ من يموت .

ولما دنتْ وفاتُهُ قال لزوجته : (لا تتزوجي أحداً بعد موتي ؛ فمن تزوَّجَ بك خربَ اللهُ دياره ، ولا أحبُّ أن تكوني سببَ خرابِ دارٍ لأحد) .

مات رضي الله عنه سنة سبعٍ وأربعين وثمان مئة ، ودُفِنَ بزاويته في سويقة السباعين ، وعلىٰ قبره من الجلالةِ والأُنس ما يعرفُهُ أرباب القلوب العامرة ، رضي الله عنه ، آمين .

ومنهم :

(٣٦٦) الشيخ محمد التونسي
الشهير بأبي المواهب الشاذلي رضي الله عنه[١]

كان من العلماء الراسخين ، وكان ظريفاً ، جميلَ الملبس والصورة ، كثيرَ التطيُّب والعطر في ثيابه ، حتىٰ لو لم يكنْ معه إلا نصفٌ واحد اشترىٰ به طيباً .

وكان في أغلب أوقاته مُستغرقاً مع الله عزَّ وجل ، حتىٰ ربما قامَ يمشي في جامعِ الأزهر ، فيقع في صحن الجامع ، فيقول من لا يعرفُ حاله : لا ينبغي أن يُمكَّن هـٰذا المغربي من عقد مجلسٍ في علمٍ ؛ لأنه يشرب الخمر ، فكان الشيخُ إذا أفاق يخبرونه بذلك ، فيتبسَّمُ ، ولا يتكدَّرُ من القائل .

وكان العلماءُ يقولون : (إنه أُعطي ناطقة سيدي علي بن وفا رحمه الله) .

وعمل الموشحات الربانية التي تُنشد في مصر علىٰ رؤوس العلماء ، فيطربون منها ، ويصيرون يتمايلون كالسكارىٰ .

وكان ساكناً في درب الأتراك ، بالقرب من جامع الأزهر .

وكان له خلوةٌ فوق سطح الجامع ، وقد عمل الغوريُّ مكانَها المنارةَ التي لها رأسان .

وله كتابٌ في علم الطريق سمَّاه : « قانون الإشراق »[٢] لم يُصنَّفْ في الطريق مثله .

وله مؤلَّفٌ في حلِّ سماع العود ، ذكر فيه جملةَ من قال بإباحته من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من المقلدين ، ثم قال : (وآخرُ الأمر : أنَّ ظاهرَ أقوال أهلِ المذاهب الأربع التحريم ، فلا ينبغي سماعُهُ) .

وكان يقول : سمعت شيخنا أبا عثمان المغربي رضي الله عنه يقول : إذا زار شخصٌ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢١٤) (٣٢٢) .

(٢) قوانين حكم الإشراق إلىٰ كافة الصوفية في جميع الآفاق ؛ وهو نثر ممزوج بقليل من الشعر .

قبرَ أحدٍ من الأولياء فليعلمْ أن ذلك الوليَّ يعرفُ زيارته ، ويردُّ عليه سلامه ، وإنْ ذَكَرَ اللهَ علىٰ قبره جلس متربِّعاً ، وصار يذكرُ الله معه ، ثم قال الشيخ أبو المواهب : وحاشا قلوب العارفين أن تُخبرَ عن شيءٍ بغير علمٍ ، ويؤيده قول العارفين : العارفُ لا يموت ، وإنما يُنقَل من دار إلىٰ دار ، فحرمتُهُ ميتاً كحرمته حياً .

قال : (وإذا ماتَ وليُّ الله تعالىٰ صلَّتْ عليه جميعُ أرواح الأنبياء ، لا سيما إنْ كان يُصلِّي عليهم كلَّما صلَّىٰ علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم) .

ثم قال : وعلىٰ ما قرَّرَهُ شيخُنا ينزَّلُ قولُ صاحب « الحقائق والرقائق » : حاشا الولي أن يموت ، وقوله : من الأولياء من يَنتفعُ به مريدُهُ بعد موته أكثر مما ينفعُهُ حالَ حياته ، ومن المريدين : من تولَّى اللهُ تعالىٰ تربيتَهُ من غير واسطة من الأمة حتىٰ لا يكونَ لواسطةٍ عليه منهم منَّةٌ ، ومنهم : من تولاه بواسطة بعضِ الأولياء ولو ميتاً في قبره ، فيربِّي مريدَه وهو في قبره ، ويسمعُ مريدُهُ صوتَهُ من القبر ، ولله عبادٌ يتولَّىٰ تربيتهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه من غير واسطةٍ ؛ لكثرة صلاتهم وتسليمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

وكان يقول : (سمعتُ شيخَنا أبا عثمان يقول علىٰ رؤوس الأشهاد في درسه : لعن الله من أنكرَ علىٰ أهل الطريق ، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقلْ : لعنةُ الله عليه) .

وكان يقول : (ما اعترضَ أحدٌ علىٰ أهل الطريق وأفلح أبداً) .

قال : وسمعتُه أيضاً يقول : (إنما نزلتْ سورةُ (ألم نشرح) عقب قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] إشارةً إلىٰ أن من حدَّثَ بنعمة الله تعالىٰ فقد شرحَ اللهُ تعالىٰ له صدره ، كأنه تعالىٰ يقول : إذا حدَّثتَ بنعمتي ونشرتَها بين عبادي فقد شرحتُ لك صدرَك ، ثم قال : اعقلوا عني هـٰذا الكلام ؛ فإنه لا يُسمع إلا من الربانيين) .

وكان يقول : كنتُ كثيرَ الرُّؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام في بداية أمري ، فقلت له يوماً : يا رسول الله ؛ إنَّ الناس لا يصدِّقوني في رؤيتك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعزَّةِ اللهِ وعظمتِهِ ؛ من لم يؤمنْ بها ، أو كذَّبَكَ في

رؤيتي لا يموتُ إلا يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً . انتهىٰ .

ورأيته أيضاً منقولاً بخطِّ الشيخ أبي المواهب رضي الله عنه ، وكان يقول : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فوق سطح جامع الأزهر عام خمسة وخمسين وثمان مئة ، فوضع صلى الله عليه وسلم يدَهُ علىٰ قلبي ، وقال : يا ولدي ؛ الغيبةُ حرام ، ألم تسمع قول الله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات : ١٢] وكان قد جلس عندي جماعةٌ ، فاستغابوا بعض الناس ، ثم قال لي صلى الله عليه وسلم : وإن كنتَ لا تقدرُ علىٰ منع من يستغيب الناسَ عندك فاقرأ سورةَ (الإخلاص) و(المعوذتين) ، واهدِ ثوابَها للمغتاب ؛ فإن الغيبةَ والثوابَ يتثاوران ويتعالجان بين السماء والأرض حتىٰ يقضي اللهُ بينهما بما يشاء .

وكان يقول : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : هاتِ يدَك أبايعك ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ لا قدرةَ لي ، أخافُ أن تقعَ مني معصيةٌ بعد المبايعة ، فقال : هاتِ يدَك وبايعْني ، ولا تضرُّك الفلتةُ والزلَّةُ إن وقعتْ وتبت منها ، قال : وكأنه صلى الله عليه وسلم يُشيرُ إلىٰ أن العبدَ قد يصلحُ الله حالَهُ بالوقوع في المعصية ؛ ليسدَّ عنه بها ثلمة تحدث في دينه ؛ من عُجْب أو كِبْر أو نحوهما ، وهٰذا منقولٌ من خطِّه أيضاً ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (جاءني مرةً جماعةٌ يأخذون عني الطريق ، فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : هٰؤلاء الجماعةُ غيرُ مؤمنين بك إلا واحداً ؛ فإن معه بعضَ إيمانٍ ، فهو يراك بالعين العوراء ، وسيختم له بالموت على الإسلام) .

وكان يقول : (لبستُ خرقةَ التصوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

قال : ورأيتُه صلى الله عليه وسلم مرة في المنام ، فقال لي : قل عند النوم : أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيم (خمساً) ، بسم الله الرحمـٰن الرحيم (خمساً) ، ثم قل : اللهم بحقِّ محمدٍ ؛ أرني وجه محمد حالاً ومآلاً ، فإذا قلتها عند النومِ فإني آتي إليك في المنام من كلِّ بدٍّ ، ولا أتخلَّفُ عنك أصلاً . انتهىٰ ، وهٰذا منقول من خطِّه رضي الله عنه أيضاً .

وكان يقول : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : يا رسول الله ؛

لا تدعني ، فقال : لا أدعُكَ حتىٰ تَرِدَ عليَّ الكوثرَ وتشربَ منه ؛ لأنك تقرأُ سورةَ (الكوثر) ، وتصلِّي علي ، أما ثوابُ الصلاة فقد وهبته لك ، وأما ثوابُ سورة (الكوثر) فأُبقيه لك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ولا تَدَعْ أن تقولَ : أستغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، وأسأله التوبةَ والمغفرة ؛ إنه هو التوّاب الرحيم ؛ مهما رأيت عملك وأعجبت به ، أو وقع خلل في كلامك . هـٰذا منقول من لفظه رضي الله عنه .

وكان يقول : قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة : أنت تشفعُ في مئة ألف ، فقلت له : بمَ استوجبتُ ذلك يا رسول الله ؟ فقال : بإعطائك لي ثوابَ صلاتك عليَّ .

وكان يقول : استعجلتُ مرةً في صلاتي عليه صلى الله عليه وسلم لأُكملَ وردي وكان ألفاً ، فقال لي صلى الله عليه وسلم : أما علمتَ أنَّ العجلةَ من الشيطان ؟! ثم قال لي : قل : اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد ، بتأمُّلٍ وتمهُّلٍ وترتيل إلا إذا ضاق الوقت ، فما عليك إذا عجلت ، ثم قال لي : وهـٰذا الذي ذكرتُهُ لك علىٰ جهة الأفضلية ، وإلا فكيف ما صلَّيت فهي صلاةٌ ، قال صلى الله عليه وسلم : والأحسنُ أن تبدأ بالصلاةِ التامَّةِ أوّل صلاتك ، ولو مرةً واحدةً ، وكذلك في آخرها تقيمُ بها صلاتك .

قال صلى الله عليه وسلم : والصلاةُ التامَّةُ : هي اللهم ؛ صلِّ علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد كما صلَّيتَ علىٰ سيدنا إبراهيم ، وعلىٰ آل سيدنا إبراهيم ، وباركْ علىٰ سيِّدنا محمد ، وعلىٰ آل سيدنا محمد كما باركت علىٰ سيدنا إبراهيم ، وعلىٰ آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، السلامُ عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته . هـٰذا منقول من لفظ الشيخ أبي المواهب رضي الله عنه .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : إنَّ شيخك الصفروي يُصلِّي عليَّ الصلاة التامة ، ويكثرُ منها ، فقل له إذا ختمَ الصلاة عليَّ أن يحمدَ الله عز وجل) .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إذا كان لك حاجةٌ ،

وأردتَ قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فَلْساً ؛ فإنَّ حاجتك تقضىٰ) .

وكان يقول لأصحابه : (خذوا من أموالِ السُّلطان دون مال حاشيته ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : اطلعْ إلى السلطان جقمق ، واسألْه من الدنيا شيئاً ، فطلعتُ له ، فأعطاني مئة دينار ، واعتذر إليَّ بأنه ليس عنده حاضرٌ غيرها) .

وكان رضي الله عنه قريب الحزن والخشية والبكاء ، لا يسمعُ أحداً يبكي إلا وتَهمُلُ عيناه بالدموع .

وكان يقول : (رأيتُ مرَّةً بمصر امرأةً تدور على الأبواب ، وهي تغني في مدحِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عنها ، فقال : هي وليَّةٌ كبيرة ، ولـٰكنها تتستَّرُ بذكر محبوبها ، ألا تراها لا تذكر في كلامها إلا جدّاً) .

وكان يقول : وقع بيني وبين شخصٍ من جامع الأزهر مجادلةٌ في قول صاحب البردة : [من البسيط]

فمبلـغُ العلـمِ فيـهِ أنـهُ بشـرٌ وأنـهُ خيـرُ خلـقِ اللهِ كلِّهـمِ

وقال لي هـٰذا الشخص : ليس لصاحبِ البردة دليلٌ علىٰ ذلك ، فقلت له : قدِ انعقدَ الإجماعُ علىٰ ذلك ، فلم يرجع لقولي ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وهو جالسٌ عند منبر جامع الأزهر ، وقال لي : مرحباً بحبيبنا ، ثم قال لأصحابه : أتدرون ما حدثَ اليوم ؟! قالوا : لا يا رسول الله ؛ قال : إن فلاناً التعيس يعتقدُ أن الملائكةَ أفضلُ مني ! فقالوا بأجمعهم : لا يا رسول الله ؛ ليس علىٰ وجه الأرض أحدٌ أفضلُ منك ، فقال لهم : فما بالُ فلان التعيس الذي لا يعيش ؟! وإن عاشَ عاشَ ذليلاً خمولاً مضيَّقاً عليه ، خامل الذكر في الدنيا والآخرة ؛ لاعتقاده أنَّ الإجماع لم يقعْ علىٰ تفضيلي ، أما علمَ أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع ؟! انتهىٰ .

قال الشيخ : ورأيتُهُ مرَّةً أخرىٰ بعد ذلك فقلت : يا رسول الله ؛ قولُ صاحب البردة :

(فمبلغ العلم فيه أنه بشر) معناه عندي : منتهى العلم فيك عندَ مَنْ لا معرفةَ له

بحقيقتك أنك بشر ، وإلا فأنت وراءَ ذلك كلِّه بالروح القدسي والقالب النبوي ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : صدقتَ ، وفهمتُ مرادك .

وكان يقول : (قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن مجلسك ! قد غفرَ اللهُ تعالىٰ لكلٍّ من حضره ؛ بذكركم لله تعالىٰ عقبَ فراغِ القارئ) .

وكان يقول : (رأيتُ مرَّةً أنَّ ثعباناً دخل بين ثيابي ، فرأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألته عن ذلك ، فقال : الثعبان هو صاحبُكَ فلان ، قد بدا له فيك ، ورجع يؤذيك ، ولولا خوفه منك لعمل جهده في إيذائك ، فكان الأمرُ كما قال صلى الله عليه وسلم) .

وكان يقول : كنَّاني سيدي يحيى بن أبي الوفا بـ (أبي عابد) ، فرأيتُ سيدي علي بن سيدي محمد وفا وقال : هـٰذه الكنية لا تصلحُ لك ؛ إنما تصلح لأرباب الأثقال ، وإنما كنيتُكَ : (أبو حامد) ، قال : ثم رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال لي : كنيتُك عندنا : أبو حامد ، وكذلك في السماء ، وقد دخلتَ في دائرة بني الوفا ، ومقامُك كبيرٌ ، وأنت وليُّ الله .

وكان يقول : كنتُ أطلبُ من شيخي أبي سعيد الصفروي أن أُقبِّلَ قدميه ، فكان يوعدني بذلك ويقول لي : حتىٰ يجيءَ الوقتُ ، فلما ماتَ سنة إحدىٰ وخمسين وثمان مئة رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : اطلبْ من شيخك ما وعدَكَ به ، فأخذتُ قدميه بعد وفاته وقبَّلتُهما ، وقلت : يا سيدي ؛ هـٰذا إنجازُ وعدك ، وحرمتُكَ عندي ميتاً كحرمتِك عندي حيّاً .

وكان يقول : قلت لشيخي أبي سعيد الصفروي : هل أتركُ أصحابي وأعتزلُ عنهم وخصوصاً الذين يُؤذونني ؟ فقال : لا تتركهم ، وخالطهم بحسب الظاهر ، وجاملهم ، ودمْ علىٰ ما أنتَ عليه ، ثم رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتُهُ عن قول شيخي ، فقال : هو صحيح ، وامشِ علىٰ طريق شيخك .

وكان يقول : (انقطعتْ عني رؤيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة ، فحصل لي غمٌّ بذلك ، فتوجَّهتُ بقلبي إلىٰ شيخي ليشفعَ لي عند رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ،

فحضر عنده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـأنا ، فنظرتُ فلم أرَهُ ، فقلتُ : ما رأيته ، فقال عليه الصلاة والسلام : سبحان الله ! غلبتْ عليه الظلمةُ ، وكنت قد اشتغلتُ بإقراء جماعةٍ في الفقه ، ووقع بيني وبينهم جدالٌ في إدحاض حجج بعض العلماء ، فتركتُ الاشتغال بذلك ، ثم رأيته ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ إنَّ الفقه من شريعتك ؟ فقال : بلىٰ ، ولـٰكن يحتاجُ إلىٰ زيادةِ أدبٍ مع العلماء) .

وكان يقول : (تَفَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في فمي ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما ثمرةُ هـٰذا التفل ؟ فقال : لا تتفلُ بعدها علىٰ مريضٍ إلا ويبرأ من مرضه إلا أن يكونَ أجلُهُ قد حضر) .

وكان يقول أيضاً : (امتنعتْ عني رؤيةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني رأيته ، فقلت له : يا رسول الله ، ما ذنبي ؟ فقال : لأنك لستَ الآن بأهلٍ لرؤيتنا ؛ لأنك تُطلعُ الناسَ علىٰ أسرارنا ، وقد كنتُ أخبرتُ شخصاً من إخواني بشيءٍ من الرؤيا ، فتبتُ إلى الله عزَّ وجل ، فرأيتُهُ بعد ذلك) .

وكان يقول : (قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أنا لا أجتمعُ بمن يجلسُ مجالسَ الغيبة مع الناس ولا يقومُ منها) .

وكان يقول : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : يا محمد ؛ ما هـٰذه الغفلةُ ؟! ما هـٰذه الرقدةُ ؟! ما هـٰذا الإعراض ؟! تركتَ تلاوةَ القرآن ، وما وريداتك في جانب تلاوة القرآن ؟! لا تفعل ذلك أصلاً ؛ بل اتلُ القرآن كلَّ يومٍ ولو حزبين ، لا أقلَّ من ذلك كل يوم) ، قال أصحابُ الشيخ : فما تركَ سيدي أبو المواهب بعد ذلك تلاوةَ القرآن يوماً واحداً ، وكان يردِّدُ بعضَ الآيات مراراً ويبكي ، وتنحدرُ دموعه علىٰ خدَّيه ولحيته ، ويتأوه حتىٰ لا يقدر أحدٌ يتكلَّمُ بحضرته ؛ لما يرىٰ من وَجْدِهِ وكثرةِ بكائه .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يسجدُ بعد السلام من النافلة سجودَ الشكر بعد ما يدعو .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ له : يا رسول الله ، قد وهبتُ لك ثوابَ صلاتي عليك ، وثوابَ كذا وكذا من أعمالي ، فهل ذلك مرادُك بقولك لمن قال لكَ : إذاً أجعلُ لك صلاتي كلَّها ، فقلتَ له : « إذاً تُكفىٰ همَّكَ ،

ويغفرُ ذنبُكَ » ؟[١] فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ، هو مرادي ، ولـٰكن أبقِ لنفسِك ثوابَ كذا وكذا ، فإني غنيٌّ عنه) .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقبَّل فمي ، وقال : أُقبِّلُ هـٰذا الفم الذي يُصلِّي عليَّ ألفاً بالنهار وألفاً بالليل ، ثم قال : وما أحسن قراءة « إنا أعطيناك الكوثر » لو كانت وردَكَ من الليل) .

ثم قال لي : (ليكن من دعائك : اللهم ؛ فرِّج كرباتنا ، اللهم ؛ أقلَّ عثراتنا ، اللهم ؛ اغفرْ زلاتنا ، ثم صلِّ عليَّ ، وتقول : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١ـ١٨٢]) .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يا رسول الله ؛ ما تقولُ في صلاة الله عشراً علىٰ من صلَّىٰ عليك مرَّةً واحدة : هل يُشترطُ فيه حضور القلب ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هو لكلِّ مَنْ صلَّىٰ عليَّ ولو غافلاً ، ويعطيه الله تعالىٰ أمثالَ الجبال من الملائكة بعدد حروف تلك الصلاة ؛ كل ملك يصلي عليه ويستغفر له[٢] ، وأما إذا كان حاضرَ القلب فلا يعلمُ ذلك إلا الله) .

وكان يقول : (قلتُ مرَّةً في مجلسٍ : محمدٌ بشرٌ لا كالبشر ، بل هو كالياقوتِ بين الحجر ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : قد غفر اللهُ لك ، ولكلِّ من قالها معك) ، فكان رضي الله عنه لم يزل يقولها بعد ذلك في كلِّ مجلسٍ إلىٰ أن مات .

وكان يقول : (رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : كَنِّ أصحابك ، وأبدِ لهمُ الكُنىٰ[٣] ، وكنِّ فلاناً : أبا الظهور ؛ لأنه يتبع ظهورَ النساء ببصره ، ولا عليك منه) .

وكان يقول : (قلتُ مرَّةً : يا رسول الله ؛ إني مُتطفِّلٌ في علم التصوف ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : اقرأ كلامَ القوم ؛ فإن المُتطفِّلَ علىٰ هـٰذا العلم هو الوليُّ ، وأما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧) عن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢) في (هـ ، و ، ز ، ي) : (ويُعطيه اللهُ تعالىٰ أمثالَ الجبال من الثواب بعددِ حروف تلك الصلاة ، وتُصلِّي عليه الملائكة ، وتستغفرُ له) .

(٣) في (أ ، ب ، د ، ك) : (وابتدِ) بدل (وأبد) ، وفي (ز) : (وانبذ) .

العالمُ به فإنه النجمُ الذي لا يُدرك) هـٰذا منقولٌ من لفظه رضي الله عنه .

وكان يقول : (رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال لي : يا محمد ؛ ما أنا ميت ، وإنما موتي عبارة عن تسترتي عمن لا يفقه عن الله ، وأما من يفقه عن الله فهو يراني وأراه) .

وكان يقول : (سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن حديث : « أكثرُوا منْ ذكرِ اللهِ حتىٰ يقولوا مجنونٌ »[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : صدق ابنُ حِبان في روايته ، وصدق راوي « اذكرُوا اللهَ »[2] وإنني قلتُهما معاً ، فمرَّةً قلتُ هـٰذا ، ومرَّةً قلتُ هـٰذا) .

وكان يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا تخفْ من الحساد ؛ فإنهم إنْ كادوك فإن الله يكيدُهم ، ألم تسمع قولَ الله عزَّ وجل : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٥-١٧] ؟!) .

وكان يقول : (من أراد أن يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فليكثر من ذكره ليلاً ونهاراً ، مع اعتقادِهِ في الأولياء ، وإلا فبابُ الرؤية عنه مسدود ؛ لأنهم ساداتُ الناس ، وربَّما يغَضبُ لغضبهم ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وأخبرني حفيدُ الشيخ أبي المواهب الشيخُ علي الشاذلي المدفون خارج باب الشعرية من مصر ، قال : رأىٰ بعضُ الفقراء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ ، وإذا بسيدي الشيخ أبي المواهب قد دخل ، فقام له صلى الله عليه وسلم ، فقصَّ هـٰذه الرؤيا علىٰ سيدي أبي المواهب ، فقال : يا فلان ؛ اكتمْ هـٰذا مدَّةَ حياتي ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قامَ لأحدٍ قامَ له الوجود كلُّهُ ، هـٰذا ما رأيتُه في كتاب « مرائيه » رضي الله عنه .

وكان يقول : (لا يأتي النصر لأحدٍ قطُّ إلا بعد الذلِّ لله تعالىٰ ، قال تعالىٰ :

---

(١) صحيح ابن حبان (٨١٧) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/٤٩٩) ، وأحمد في « مسنده » (٣/٦٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/٢٣٣) .

(٢) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (١٣٧٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وتقدم تخريجه (٢/٢٣٣) .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥ـ٢٦]) .

وكان يقول : (قد يَطَّلعُ الأولياءُ علىٰ علوم لم يطَّلعْ عليها العلماء ، فلا يسعُ من خاف علىٰ دينه إلا الأدب والتسليم لهم) .

وكان رضي الله عنه يقول : (إذا أرادَ أحدُكم أن يهجر إخوان السوء ، فليهجرْ قبل ذلك أخلاقَهُ السوء ؛ فإن النفسَ أقربُ الأقربين إلى العبد ، والأقربون أولىٰ بالمعروف) .

وكان يقول : (من علامة عَمَىٰ أهل الدنيا عن رؤية الآخرة كونُهم يُقبلون على الدنيا ، مع أنهم يَرحلون عنها في كل نَفَس) .

وكان يقول : (تَفَاخرَ الغنىٰ والفقرُ ، فقال الغنىٰ : أنا وصفُ الربِّ الكريم[1] ، فمن أنت يا حقير ؟! فقال له الفقر : لولا وصفي ما تميَّزَ وصفُك ، ولولا تواضعي ما رُفعَ قدرك ، وأيضاً فإن وصفي وُسِمَ بِذُلِّ العبودية ، وإنَّ وصفَك نازع أوصاف الربوبية) .

وكان يقول : (لا يكونُ الفقيهُ فقيهاً حقّاً حتىٰ يرتضعَ من لبنِ حيِّ الصدور ، دون قديد ميتِ السطور) .

وكان يقول : (من علامة المُرائي : إجابتُهُ عن نفسه إذا أُضيف إليه نقصٌ ، وينقصُ الصالحين من أهل زمانه إذا ذكروا) .

وكان يقول : (مراءاةُ الفقير تكون بالأحوال ، ومراءاةُ الفقيه تكون بالأقوال) .

وكان يقول : (مِن لازم مَنْ طلبَ الشهرة بين الناس أن يُرضيهم بما يُسخط الله عز وجل ، وأن يصحبَهم للهوىٰ لا لله) .

وكان يقول : (العارفُ ينمو حالُهُ حالَ حياته ، ولـٰكن لا يشتهر إلا بعد مماته) .

---

(١) من أسماء الله الحسنى : (الغني) .

وكان يقول : (العارفُ كلما علا في المقام صَغُرَ في أعين العوام ؛ كالنجم يُرىٰ صغيراً ، وإنما العيبُ من العين) .

وكان يقول : (لو أن الحلاجَ كَمَّل حقيقة الفناء لتخلَّص مما وقع فيه من الغلط بقوله : « أنا هو » ومن قوله : « أدنيتني منك حتىٰ قلت : إني أنت »[١]) .

وكان يقول : (ثَمَّ مَنْ يدخلُ مقامَ البقاء قبل الفناء بحكم الإرث للأنبياء ؛ ولٰكن قليلٌ ما هم ؛ ولذلك أنكرَهُ غالبُ القوم) .

وكان يقول : (إذا أردتَ أن تفتحَ كنزاً فإياك أن تلهو عن صرفِ العائق ، أو تغفل عن العزيمة قبل حضور صاحب الكنز ، وإياك أن تشتغلَ بشيءٍ من الأمتعة إذا فتحتَ الكنز عن الملك ؛ بل اجعل قصدَكَ الملكَ لا غير ، حتىٰ يهبَكَ خاتمَ الاستخدام ، فإن لم يعطك الملكُ سرَّ الخاتم فإنما ذلك لكونه يريدُ اتخاذك جليساً له ، وذلك أعظمُ من سرِّ الخاتم ؛ فإن جليس الملك لا يحتاج قطُّ إلى استخدام ولا تعب) .

وكان يقول في معنىٰ قول سهل بن عبد الله : (إن للربوبية سرّاً لو ظهر لبطلت أحكامها) : يعني : (لو أُعطي العبدُ سرَّ التكوين لبطل القول بالكسب ، واختلَّ نظام الشريعة) .

وكان يقول في معنىٰ قولهم : (يصلُ الوليُّ إلىٰ حدٍّ يسقطُ عنه التكليف) : (يعني : يسقطُ عنه كلفةُ الأعمال ومشقَّتُها من باب : « أرحْنا بها يا بلالُ »[٢]) .

وكان يقول : في معنىٰ قول ابن الفارض رضي الله عنه[٣] : [من الطويل]

. . . . وكـلُّ بَـلا أيـوب بعـضُ بليَّتـي

(أي : لأن بلاء أيوب كان في الجسد دون الروح ، وبلاءُ العارف فيهما معاً) .

وقال في معنىٰ قول بعضهم :

مقـامُ الـرسـالـةِ فـي بـرزخٍ فـويـقَ النَّبـيِّ ودون الـولـي

---

(١) كذا في النسخ ، ورواية البيت في « ديوان الحلاج » (ص٦٨) :

أَدْنَيْتَنـي منـكَ حتـىٰ ظننـتُ أَنَّـكَ أَنِّـي

(٢) رواه أبو داود (٤٩٨٥) ، عن سالم بن أبي الجعد ، وتقدم (١/٣٤٩) ، و(٢/٢١٦) ، و(٣/٢٣٦) .

(٣) ديوان ابن الفارض (ص ٤٧) ، وهو عجز بيت ، وصدره : وحزنيَ ما يعقوب بثَّ أقلَّهُ .

(يعني : أن النبوة تعطي الأخذ عن الله بواسطة وحي الله ، ومقام الرسالة يعطي تبليغ ما أمره الله به للعباد ، ومقامُ الولاية الخاصة أخذٌ عن الله بالله من الوجه الخاص ، قال : وهٰذه الحقائق الثلاث كلُّها موجودةٌ فيمن كان رسولاً ، فافهم ، ولا تظنَّ أنَّ أحداً من أهل الله يعتقد تفضيلَ الولاية على النبوة والرسالة) .

وقال في معنىٰ قول الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه : [من الطويل]

توضَّأْ بماءِ الغيبِ إنْ كنتَ ذا سرٍّ ... وإلا تيممْ بالصَّعيدِ وبالصَّخرِ
وقدِّمْ إماماً كنتَ أنتَ إمامَهُ ... وصلِّ صلاةَ الفجرِ في أوَّلِ العصرِ
فهٰذي صلاةُ العارفينَ بربِّهمْ ... فإنْ كنتَ منهمْ فانضحِ البرَّ بالبحرِ

المراد بـ (الوضوء) : طهارةُ أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية ، و(ماءُ الغيب) : هو خلوصُ التوحيد ؛ فإن لم يخلصْ لك بالعيان فتطهَّرْ بصعيد البرهان ، و(قدِّم إماماً) كان في يوم الخطاب ، ثم صرتَ أنتَ إمامَهُ بعد سدل الحجاب ، و(صلِّ صلاة الفجر) التي هي صلاة نهار كشف الشهود بعد حجابِ ظُلمة الوجود (في أول العصر) الذي هو زمانُ انفجار فجرك ، ولا تتأخَّرْ لآخر دورك ؛ لأنَّ الحكمَ للوقت والتفويت له مقت ، (فهٰذي صلاةُ العارفين بربِّهم) ، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعةِ الأحكام الشرعية في جميع مشاهد الربوبية ، (فإن كنتَ منهم فانضح) يعني : فاغسل بماء بحرِ الحقيقة ما تدنَّسَ بالغفلة من برِّ الشريعة .

وقال في قول بعضهم : (النبيُّ مشرِّع للعموم ، والوليُّ مشرع للخصوص) : (مرادُهُ أن النبيَّ مبيِّنٌ للعوام برسالته والولي مبيِّنٌ للخواصِّ بولايته ، لا أنَّ الوليَّ مشرعُ الأحكام الشرعية ؛ فإنه ليس لوليٍّ ذلك ، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريق الوراثة النبوية) .

وقال في إنكارِ بعضهم علىٰ من قال : (الخضر مقامٌ لا إنسان) : (مرادُهُ أن الوليَّ المخصوص بالمحبة يُعطىٰ من الكرامات كما كان للخضرِ من المعجزات ، وذلك عند الوراثة الخضرية قبل الوراثة الموسوية ، والوراثة بلا شك مقامٌ ، فافهم يا غلام) .

وقال في قول بعضهم : (حدَّثني قلبي عن ربي) : (لا إنكار ؛ لأن المرادَ أخبرني

قلبي عن ربِّي من طريق الإلهام الذي هو وحيُ الأولياء ، وهو دون وحي الأنبياء ، ولا إنكار إلا علىٰ من قال : « كلَّمني الله تعالىٰ كما كلَّمَ موسىٰ » ففرقٌ بين « أخبر » و« كلم » يا من أنكر وتوهَّم) .

وكان يقول : (أقسم الحيُّ القدُّوس أن لا يدخلُ حضرتَهُ أحدٌ من أهل النفوس) .

وكان يقول : (احذرْ أن تخرقَ سور الشرع ، يا من لم يخرجْ عن عادة الطبع ، وإياكَ أن تقول : أنا مطلوقٌ من الحدود ؛ لأني دخلتُ حضرةَ الشهود ؛ فإن الذي دعاك هو الذي نهاك) .

وكان يقول : (أهلُ الخصوصية مزهودٌ فيهم أيامَ حياتهم ، يتأسَّفُ الناسُ عليهم بعد مماتهم ، حين لا يجدون عند غيرهم من المعارف والآداب ما كانوا يرونَهُ عندهم) .

وكان يقول لأصحابه : (عليكم بالتسليمِ للفقراء فيما يدَّعونَه من المقامات والأحوال) .

وكان يقول : (الاعتمادُ على العمل أوَّلُ عائقٍ يعرضُ لأصحاب السلوك في بدايتهم ؛ وذلك من غلبةِ الوهم علىٰ وجوههم ، وتراكم الخيال في مرايا عقولهم ، فلا يخرجون عن ذلك إلا بنور الكشف بالله تعالى الخالقِ لأعمالهم) .

وكان يقول : (قد ادَّعىٰ قومٌ محوَ آثار البشرية ، فأخطؤوا الطريق ؛ فإن الأكابرَ من الصحابة والتابعين وصلوا إلىٰ محو الصفات البشرية ، وما تركوا قطُّ شيئاً من الواجبات الدينية ؛ علماً منهم أن ذلك من اختيارِ الربِّ لهم ، ودعوته لهم ، ومن كان في أمرِ سيِّدِهِ كان بغير أمرِ نفسه ، فافهم معنى الفنا ، يا من وقع في العنا ، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣]) .

وكان يقول : (من صدقَ في الزُّهد في الدنيا تعسَّرَ عليه تحصيلُها) .

وكان يقول : (لا تطلبْ شيئاً من الكونين ؛ فإنه ما خُلِقَ بالأصالة إلا لك ، وأنت إنما خُلقت لربك ، فإذا طلبتَ ما خُلق لك ، وتركتَ من خُلقتَ له انعكس بك السيرُ ، وإن أقبلتَ علىٰ ربك طلبتْكَ الأكوانُ بنفسها ، وخدمك كلُّ شيءٍ ، فافهم) .

وقد رأىٰ سيدي أحمد بن الرفاعي ربَّهُ عز وجل في المنام ، فقال له : ماذا تريدُ يا أحمد ؟ فقال : أريدُ ما تريدُ يا رب ، فقال تعالىٰ : لك المرادُ ، ولك مني كلَّ يومٍ مئةُ حاجةٍ مقضية .

وكان يقول : (إذا فتحَ اللهُ تعالىٰ على السالك فتحَ التعرُّف لا يُبالي قلَّ العملُ أو كثر) .

وكان يقول : (لما علم أهل الله عز وجل أن كلَّ نبات لا ينبتُ ويُثمر إلا بجعله تحت الأرض ، تعلوه الأرجل ، جعلوا نفوسهم أرضاً للخلق ؛ ليعطيهم اللهُ ما أعطىٰ أولياءَهُ حين تواضعوا للعباد) .

وكان يقول : بلغني عن الغزالي أنه كان يقول : تعاطي بعضِهم بعضَ المحرَّمات في ظاهر الشرع ليستترَ بها عن أهل الزمان . . يُقاس[1] علىٰ من لم يجدْ ما يسيغُ به اللُّقمةَ إلا الخمر ، بجامع طلب الحياة ؛ فإنه إذا جازَ ذلك خوفاً من فوات حياةٍ دنيوية ، فأولىٰ أن يَجوزَ لمن خافَ حياةً أخروية ، قال الشيخ أبو المواهب : وهو كلامٌ غورُهُ بعيد ، وقواعدُ الشريعة تُحرِّمُ تَعاطي ما يسيء الناس به ظنَّهم ، ولو صفح المتعاطي وعفا ، فافهم .

وكان يقول : (قال علماؤنا : لا تصلحُ العزلةُ إلا لمن تفقَّهَ في دينه ، وكان السَّلفُ يتفقَّهون إلىٰ سنِّ الأربعين) .

وكان يقول : (دليلُنا في الخلوة عن الناس ما صحَّ أنه صلى الله عليه وسلم كان يختلي في غارِ حِراء حتىٰ فجأه الوحي[2] ، فدلَّ علىٰ أنَّ الخلوةَ حكمٌ مرتَّبٌ عليه الوحي ، ووسيلةٌ لمجيء الحقِّ ، وظهور نور الله) .

قال : (وإنما اختار القومُ الخلوةَ بشرط الجوعِ واقتداءً به صلى الله عليه وسلم ، وإنما جعلوا أقلَّ كمالِها أربعين يوماً ؛ لأن في الأربعين يكون نتاجُ النُّطفة علقةً ، ثم مضغةً ، ثم صورةً ، وهي مدَّةُ الدُّرِّ في صدفه أيضاً ، وعددُ أيام توبة داود عليه السلام) .

---

(١) في (هـ ، و ، ز) : (قياساً) .

(٢) أخرجه البخاري (٣) ، ومسلم (١٦٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك واردُ الوقت فاقبله ولا تتعشَّق به ، فإنْ تعشَّقْتَ به حُجبتَ عن الترقي) .

وكان يقول : (إذا وردَ عليك واردٌ فاحفظه ؛ فإنك تحتاجُ إليه في تربية المريدين ، فإن أكثرَ الشيوخ إنما جهلوا طريق التربية للمريدين بتفريطهم فيما ذكرناه ، وزهدِهم فيه) .

وكان يقول : (من المحالِ أن ينفتحَ لقلبٍ بابُ الملك والملكوت وفي القلبِ شهوةٌ ، كما أنَّه من المحال أن يشهدَ القلبُ ربَّهُ وفيه لمحةٌ للعالم الملكي والملكوتي ، فلا بدَّ من غيبته عن العالم بأسره حتىٰ يشهدَ الحقَّ تعالىٰ) .

وكان يقول : (ليس في الوجودِ إلا ما سبقَ به العلم ، وأوجدته القدرةُ ، وخصَّصته الإرادةُ ، ورتَّبته الحكمةُ ، فذرات الوجود ما خرجتْ عن هـٰذا الشهود ، فكيف يكونُ الغيرُ حجاباً عن الحقِّ والغيرُ منفيٌّ بهـٰذا الاعتبار ؟! اللهُ أكبر ، طلعَ النهار ، وأضاءتِ الأنوار ، علىٰ رغم أنفِ الكفار) .

وكان يقول : (كلُّ ما سوى الله فهو لهوٌ ولعب ، ولو أعطاكَ من الشهود ما أعطاك ، ولكل مقام رجالٌ ؛ ولذلك لمَّا سمعتْ رابعةُ العدوية قارئاً يقرأ : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢٠ـ٢١] قالت : فنحن إذاً صغارٌ حتىٰ نفرحَ بالفاكهة والطير ، فانظر رحمك اللهُ كيف لم تفرحْ بغير الله ، وعلمتَ أن كلَّ ما سواه كالشخشاخة التي يُسكَّتُ بها الأطفال) .

وكان يقول لأصحابه : (احذروا زخارف أقوال[1] أهل الرضا عن نفوسهم من المجادلين الذين اتخذوا العلمَ حرفةً وشبكةً يصطادون بها أمور معاشهم ، مع تكبُّرهم على الناس ؛ فإن هـٰؤلاء قد فاتهم خيرُ الدنيا والآخرة ، اتخذوا حسنَ الزِّيِّ شعاراً ، وتكبَّروا بذلك استكباراً ، وفي كلام الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : « لأنْ تصحبَ جاهلاً لا يرضىٰ عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحبَ عالماً يرضىٰ عن نفسه » .

وكان يقول : (مما جرَّبناه فصحَّ : أنَّ من أراد قضاءَ حوائجه ودفعَ مضاره فليرفعِ

---

(١) في (و ، ي) : (احذروا أحوال. . .) ، وفي (ط) : (احذروا ردفة أحوال. . .) .

الأمرَ إلى الله تعالىٰ قبل أن يُعلِمَ به أحداً من المخلوقين ، هٰكذا عادةُ الله مع مَنْ يتعلَّق به أولَ أمره ، فاعمل علىٰ ذلك ؛ فإنه كالكبريتِ الأحمر ، والمعينُ علىٰ ذلك الصبر) .

وكان يقول : (عليك أيُّها المريد بصحبة صاحب الحال ، فإن لم تجدْهُ فعليك بصاحبِ القال ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة : ٢٦٥]) .

وكان يقول : (إذا رقي العارفُ المراقي العالية قلَّت أشكاله وأتباعه ؛ لدقَّة مداركه علىٰ غالب الأفهام ، فلا تكاد تجد له تلميذاً) .

وكان يقول : (لا ينبغي لفقيرٍ أن يقولَ عن أحدٍ من الفقراء : فلانٌ من إخواننا إلا إن كان دونه ، فإنْ كان فوقَه فليقل : أنا من خدَّامه) .

وكان يقول : (لا تكتمْ عن شيخك شيئاً من أمرك ، فإنه ربما شفع في زلاتك التي قدَّرها الله عليك في اليقظة أن يجعلَها اللهُ تعالىٰ في النوم ، كما وقع لسيدي عبد القادر الجيلي : أنه كُشفَ له عن حال مريد أنه يزني بامرأةٍ سبعين مرة ، فقال : إلـٰهي ؛ اجعلْها في النوم ، فزنىٰ بها في المنام سبعين مرة) .

قلت : وهـٰذا من باب ترتب الأسباب علىٰ مُسبباتها في الدائرة السفلية ، وإلا فما سبق به العلمُ الإلـٰهي أنه يقعُ يقظةً لا يُمكن تغيُّره ، والله أعلم .

وكان يقول : (إذا جالستَ العلماء فاذكرْ لهم الرواياتِ الصحيحةَ ، والأقوالَ المشهورة في مذاهبهم دون الغريبة ، ولا تذكر لهم شيئاً من علوم الكشف إلا إنْ وافقت نقولهم ، وإذا جالستَ الصوفية فكنْ كيف شئتَ بشرطِ الأدب ، وعدم رؤيتك نفسك عليهم) .

وكان يقول : (عليك بتكثير سواد القوم ؛ فإن : « منْ كثَّرَ سوادَ قومٍ فهوَ منهمْ »[1]) .

وكان يقول : (عليك بصحبة الفقراء ، لو لم يكن إلا أخذهم بيدك في الدنيا والآخرة إذا عثرتَ لكان فيه كفايةٌ) .

---

(١) أورده الديلمي كما في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥٦٢١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (١١٧٠) ، وتقدم تخريجه (٢/٢٢٦) .

وكان يقول : (ينبغي للفقراء أن يتعاهدوا علىٰ أن كلَّ من سبقَ منهم إلىٰ حضرةِ الله تعالىٰ يكون وسيلةً لصاحبه عند الله عزَّ وجل) .

وكان يقول : (إنما كانتِ النارُ تقول للمؤمن يوم القيامة : « جزْ يا مؤمنُ ، فقدْ أطفأَ نورُكَ لهبِي »[1] ؛ لأنه تخلَّق باسمه « المؤمن » وأمَّنه الناسُ علىٰ أنفسهم وأموالهم) .

وكان يقول : (بلغنا : أنه يُؤتىٰ بمن اسمُه محمد يوم القيامة ، فيقول الله عزَّ وجل له : أما استحييتَ حين عصيتني وأنتَ سميُّ حبيبي ؛ لـٰكنِ اذهبْ فادخلِ الجنةَ ؛ فإني أستحي أن أعذِّبَ بالنار من اسمُه محمد) .

وكان يقول : (صحبةُ المبتدئ للمنتهي الذي لم يتنزل للمريد غيرُ نافعةٍ ، لا سيما إن كان المنتهي خضريَّ المقام المباين لحكم عالم الملك والشهادة ، وفي قصة موسىٰ مع الخضر كفايةٌ لكلِّ مُعتبر) .

وكان يقول : (التسليمُ للقوم أسلمُ ، لـٰكنَّ الاعتقاد فيهم أغنمُ ، فكم استغنىٰ بصحبتهم فقير ! وكم جُبِرَ بها كسير ! وكم سُترَ بهم شنيع ! وكم ارتفع بهم وضيع ! وكم هلَكَ بهم ظالم ! وكم رَفَعَتْ بهم مظالم !) .

وكان يقول : (قد غلطَ أكثرُ الناس في وصف أهلِ الصلاح بالنحول والتقشُّف فقط ، وليس الأمرُ كما ظنوا ، بل فيهم السمينُ والهزيل ، والمترفه والمتقشفُ ، ودليل السمين : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] وكان صلى الله عليه وسلم له عُكَنٌ من السِّمَن ، وكان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بديناً عظيمَ البطن ، قال : وكذا ذكرَ الحافظُ ابنُ حجر في صفة الأستاذ الكبير سيدي أحمد البدوي : أنه كان غليظَ الساقين ، عظيمَ البطن ، وأمَّا دليلُ المتقشف فكثيرٌ في السُّنة المحمدية) .

وكان يقول : (إذا صحبتَ القومَ فاحفظْ أسرارهم ، واحذرْ أن تُفشيها لمن ليس

---

(١) حديث رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/٢٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٩) عن يعلىٰ رحمه الله تعالىٰ ، وتقدم تخريجه (١/٤٦٩) ، و(٢/٢٣٤) .

منهم ؛ فإن الله تعالىٰ ربما مقتَكَ علىٰ ذلك فخسرتَ الدنيا والآخرة ، قال : ولا يخفىٰ أن إظهار السر مثل كشفِ عورات الناس سواء ، وقد حرَّمَ الشرعُ كشفَها ، والتحدُّثَ بها ، وورد : « مَنْ سترَ عورةَ أخيهِ سترَهُ اللهُ في الدنيا والآخرةِ ، ومَنْ كشفَ عورةَ أخيهِ كشفَ اللهُ عورتَهُ حتىٰ يفضحَهُ »[1] وهـٰذا الأمرُ يقعُ كثيراً ممن يدخل طريق الفقراء بغير صدقٍ ويفارقهم بغير جميلٍ) .

وكان يقول : (إذا نقلَ إليك أحدٌ كلاماً عن صاحبك الذي تثقُ به فقل له : يا هـٰذا ؛ أنا من محبَّة أخي ووده علىٰ يقينٍ ، ومن كلامك علىٰ ظنٍّ ، ولا أترك يقيناً لظنٍّ) .

وكان يقول : (إياك وعثراتِ اللسان عند بعض الأصدقاء ، فقد أصيبَ من هـٰذا الباب خلقٌ كثير ؛ لثقتهم بأصدقائهم ، وما علموا أنَّهم جعلوا ذلك سلاحاً لوقت العداوة ، فإياك ثم إياك) .

وكان يقول : (من صحبَ ظالماً فهو ظالم ؛ لأن مشاهدةَ الظالم تُورثُ الغفلةَ عن الله عزَّ وجل والرضا عن النفس) .

وكان يقول : (إياكم وصحبةَ الأحداث والنساء والأمراء والسلطان والأغنياء ؛ فإن ذلك كله أهويةٌ للنفوس) .

وكان يقول : (إذا كثرتِ النياتُ كثرَ معنى العمل وإن كان مفردَ الصورة ؛ وذلك كمن صلىٰ صلاةً واحدةً ناوياً بها أداء الفرض ، وإحياءَ سُنَّة الجماعة ، والاقتداء به في ذلك ، وإظهار أبهة الإسلام[2] ، وتكثير سواد المصلِّين ، مع زيارة الزهدِ في الثناء عليه بذلك ، وعدم الالتفات إليه ، ونحو ذلك ، فهـٰذه حسناتٌ كثيرة خصت عملاً واحداً) .

وكان يقول : (العبادةُ مع محبة الدنيا شغلُ قلبٍ وتعبُ جوارحٍ ، فهي وإن كثرتْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وتقدم تخريجه (٢/ ٢٣٦) .

(٢) في (هـ ، ي) : (رِبقة) بدل (أبهة) ، والرِّبق في الأصل : حبل فيه عدة عُرىً ، وربقة الإسلام : عقد الإسلام .

قليلةٌ ، وإنما هي كثيرةٌ في وهم صاحبها ، وهي صورٌ بلا أرواح ، ولهٰذا ترىٰ كثيراً من أرباب الدنيا يصومون كثيراً ، ويُصلون كثيراً ، ويحجون كثيراً ، وليس لهم نورُ الزهاد ، ولا حلاوةُ العبادة) .

وكان يقول : (إنما ضربَ اللهُ تعالىٰ مَثَلَ الحياة الدنيا بالماء ؛ لأن الماء إذا أمسكته تغيَّرَ ونتن ، وكذلك الدنيا إذا أمسكتها تصيرُ كذلك ، وتكونُ بليَّةً) .

وكان يقول : (أعلا الزهدِ زهدُ الرجل في المقامات العليَّةِ والأحوال السنية ، إلا ما استُثني شرعاً) .

وكان يقول : (إنما كانت الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ؛ يعني : من حين يحرمُ بها إلىٰ أن يُسلِّم منها ، لا يصحُّ أن يدخلَها معصيةٌ ؛ لأنها لا تقبلُ غيرَها ، وإنما كان ذكر الله أكبرَ ما فيها ؛ لأن الصلاةَ وإن كانتْ أشرفَ العبادات فقد لا تجوز في بعضَ الأوقات ، بخلافِ الذكر ؛ فإنه لا يمنعُ منه في أعزِّ الحالات التي تُمنع هي فيها) .

وكان يقول : (لا يجدُ أُنسَ الذكر إلا من وجدَ وحشةَ الغفلة) .

وكان يقول : (الذِّكرُ جهراً أفضلُ لمن غلبت عليه التفرقةُ ، والذِّكرُ سرّاً أنفعُ لمن غلبت عليه الجمعية) .

وكان يقول : (إنما اختارَ أهلُ التفريد الذكرَ بلفظِ الجلالة فقط دون « لا إلٰه إلا الله » لوحشتهم من وجود النفي ، فمن لا يشهدُ إلا الله فلا نفيَ عنده ، وهٰذا يختلف باختلافِ الأحوال ، فقد تغلبُ الأهواءُ علىٰ قلبٍ في بعض الأوقات ، وقد يغلبُ التوحيدُ ، وقد أوضحنا لك الميزانَ) .

وكان يقول : (كلُّ عمل شهدَ العبدُ له شركةً فيه فهو غيرُ متقبَّل ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] ومن شهد له عملاً فعملُه عند نفسه لم يبرح ، لا عند ربِّه ، ويؤيده قوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] يعني : ولا نفسه ، فافهم) .

وكان يقول : (الطامعُ كلبُ المطموع فيه ، فإذا لم يكنْ عنده طمعٌ سلم من ذُلِّ الكلاب) .

وكان يقول : (مِنْ لطفِ الله بعبده إذا شردَ عن حضرته أن يردَّهُ إليها بالتعنيف ؛ شفقةً عليه لا نقصاً فيه) .

وكان يقول : (سألتُ ربي ليلةً أن يُلهمني حمداً أحمده به ، فأملىٰ علىٰ لساني الوارد في الحال : الحمد لله ، ولله الحمد بكل المحامد علىٰ كل المحامد ، بجميع المدائح المحمودة ، في جميع الحمد والمدح بما يجب للحمد لك ، حمداً أزليّاً لا أولَ لبدايةِ حمده غير حمده ، بحمده نحمده في جميع المحامد الأزلية والأبدية ، بلسانِ جميعِ الحمد وفوقه في جميع خيرات المحمود بذاته لذاته ، وبصفاته لصفاته ، وبفعله علىٰ فعله) ، وأطال في ذلك في « شرح الحكم » عند قوله : (من لم يشكر النعم فقد تعرَّضَ لزوالها) انتهىٰ .

ومن تأمل من أهل العلم وجد ذلك كله داخل في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] ، وعلم أنه صلى الله عليه وسلم أُعطي جوامع الكلم .

وكان يقول : احذرْ أن تشكرَ الحق لك ، وذلك بقصد أن يزيدَكَ من نعمه ، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى ﴾ [لقمان : ١٤] يعني : قياماً بمجدي ، وامتثالاً لأمري لا غير ، فافهم ، وإن لم تفهم فتفهَّمْ .

وكان يقول : (من خاف علىٰ ذهاب إيمانه ، أو شيءٍ من أعماله الدينية ، أو شيءٍ من أمتعته الدنيوية ، فليقل : « باسم الله ، ما شاءَ الله ، لا قوة إلا بالله ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] ؛ أي : لو قالها الرجلُ لسلمتْ جنَّتُهُ من الآفات .

وكانت هـٰذه الآية هِجِّيرَ الإمام مالك(١) ، كان لا يقومُ ولا يقعدُ إلا قالها ، حتىٰ إنه كتبَها علىٰ باب داره ، وقال : جنةُ أحدنا داره .

وكان يقول في قوله تعالىٰ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢] : (أي : بحقيقة الاستدراج ، وذلك أن يغطِّي عليهم حقائقَ الحقِّ ، ويُلقي في أوهامهم

---

(١) **الهِجِّير والهِجِّيرى** : الدأب والعادة والدَّيدن .

أنهم علىٰ صوابٍ وحقٍّ ، وأنهم لا يُؤاخذون علىٰ ذلك) .

وكان يقول : (من الذنوب التي لا يشعرُ بها غالبُ المريدين : قولهم لشيخهم : « لِمَ » فإنها تمنعُ المريدَ من المزيد) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أدب وتأديب ، ومن دام أدبُهُ دام سترُ عورته ، والعكس بالعكس) .

وكان يقول : (لا تجالسوا العارفَ إلا بالأدب ، فربما مُقتَ من ساء أدبُهُ معه ، ومُحي اسمه من ديوان القرب) .

وكان يقول : (من لم تؤدِّبْهُ الصوفيةُ فليس هو بأديب) .

وكان يقول : (التعبُّدُ مفتاحُ باب الخير ، فمن فاتته الأورادُ في بدايته فقد حُرِمَ الواردات في نهايته ، فعليك أيها السالكُ بالمداومة على الأوراد ، ولو بلغت المراد) .

وسئل مرة عن قولهم : (فلان عنده استعداد) ما حقيقة هاذا الاستعداد ؟ فقال : المرادُ به صقلُ القلب بأنواع المجاهدات حتىٰ تصيرَ مرآةً للوجود الذي يقابله .

وكان يقول : (لا تطالبْ شيخَك بالجواب في كلِّ ما سألته عنه ؛ فإنه ثَمَّ من العلوم اللدنية ما لا يُمكنُ الجوابُ عنه حقيقةً ولا شريعةً ، وثَمَّ من الأمور المشهودة ما هو أوسعُ أن يدخل في ضيق العبارة ، وألطف من أن تكتشفه الإشارة) ، وأطال في ذلك بما يُبهر العقول .

وكان يقول : (الدرجاتُ في الدنيا دليلٌ على الدرجات في الآخرة ، والكراماتُ هنا دليلٌ على الكرامات في الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] كما أن البعدَ هنا دليلٌ على البعد في الآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [الإسراء : ٧٢] والمراد بالعمىٰ في الدنيا عَمَى البصيرة بالضلال عن طريق الله عز وجل) .

وكان يقول : (من كان علمُهُ متعلِّقاً بالظواهر فله في الجنة منزلةٌ تناسب الظواهر ، ومن كان علمُهُ متعلِّقاً بالبواطن فله منزلةٌ تُناسب البواطن ، ومن كان علمه بدنيّاً أو قلبياً

أو روحياً أو سرّياً فله في الآخرة منزلٌ يُناسبُ ذلك) .

وكان يقول : (علىٰ قدر سلوكِ الطريق يكونُ التحقيق) .

وكان يقول : (احذروا من قولكم : « ذهب الأكابر والصادقون من الفقراء » فإنهم ما ذهبوا حقيقةً ، وإنما هم ككنز صاحب الجدار ، وقد يُعطي اللهُ تعالى المتأخِّرَ ما لم يعطِ المتقدِّم ، كما أعطىٰ محمداً صلى الله عليه وسلم ما لم يُعطِ الأنبياء قبله ، ثم إنه قدَّمه في المدح عليهم ، ويا لله العجب من كثيرٍ من الفقهاء ! يُنكرون ما أجمع عليه الأولياء ، ويصدِّقون بما وصلَ إليهم علىٰ لسان فقيه واحد ، وربما يكون استنادُهُ في ذلك القول إلىٰ دليلٍ ضعيف ، ما ذاك والله إلا لغلبة الحرمان ، ثم إنهم مع إنكارهم إذا حصل لأحدهم مصيبةٌ أو تهمةٌ بباطلٍ يأتي إليهم وإلىٰ قبورهم ، يحمِّلُهم الحملةَ ، ولا يأتي إلىٰ ذلك الفقيه الذي قَبِلَ قولَهُ وقدَّمه عليهم ، وإنما كان اللائق به العكسَ ، فإياك أن تُنكرَ علىٰ أصحابِ الوقت ، فتستوجب المقت ، ومن أنكر علىٰ أهل زمانه حُرِمَ بركةَ أوانه) .

وكان يقول : (إياك والبحثَ مع الجاهل المركَّب الذي لا يدري ، ويعتقدُ أنه يدري ، فإنْ بحثتَ معه اتَّسع المجال ولم يرجع إليك ، فأرحْ نفسَك منه) .

وكان يقول : (إياك أن تقرأ العلمَ علىٰ من يحبُّ الدنيا ؛ فإنك تسرقُ منه تلك الصفات شئتَ أم أبيت) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ نفسَك غيرَ موادِدة لأهل الله فاعلم أنك مطرودٌ عن باب الله) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ مَن رُزق العلوم ، وفُتح له خزائن الفهوم ، فلا تحاججْهُ بنقل الطروس ، ولا تُجادلْهُ بعزة النفوس وتقلْ : هٰذا لم نجده في الأسفار عن أحدٍ من الأخيار ؛ فإن المواهبَ تفوقُ المكاسب) .

وكان يقول : (من أنكر ما لم يجد ، حُرِمَ بركةَ ما وجد ، ومَنْ كان كثيرَ النَّكير ، فهو فاقدٌ للتنوير) .

وكان يقول : (تأوَّلُوا الجميلَ للرجل الجليل) .

وكان يقول : (من علامة من يدَّعي أنه بر أنه لا يؤذي الذر)[١] .

وكان يقول : (من علامةِ من أُذن له في الكلام تلذُّذُ السامعين بكلامه) .

وسئل عن قول بعضهم : (ما فعلت كذا إلا بإذنٍ من الله) : (مرادهُ بالإذن : نورٌ يقع في القلب ، فيثلج له الصدر ، وليس ذلك بحجَّةٍ لفقد العصمة ، فافهم) .

وكان يقول : (كلُّ ما تقوله وتفعله في هـٰذا الكون هو كَنَغمَةِ الصَّدىٰ ، ما برز منك رُدَّ عليك مثله) .

وكان يقول : (العابدون في وهمٍ وتقييد ، والعارفون بالله في فرح وتأييد) .

وكان يقول : (لا تكن ممن يعبدُ ليُعبد ، ولا ممن يُسوِّدُ الجباه للجاه ، بل اعبد ربك لا لغرضٍ ولا لعرض) .

وكان يقول : (كلُّ واردٍ لا يوافقُ ميزانَ الشرع فهو ظلمة) .

وكان يقول : (الواردُ لا يُستجلبُ ولا يُدفع ، فإنْ دُفعَ كان عناءٌ وتعب وعلل)[٢] .

وكان يقول : (اتِّباعُ شهوات النفوس هو الذي نكَّس الرؤوس) .

وكان يقول : (ظهورُ الأخيار من غير اختيار) .

وكان يقول : (من علامة المعتنىٰ به في الأزل : ألا يُسلب ما مُنح ، ومن رام مزاحمةَ أهلِ العناية وقع في شِرْكِ العناء والتعب ، ولا يُقضىٰ له أرب) .

وكان يقول : (إذا رأيت نفسَك قليلَ العمل فاستمسك بأهلِ الحسب يُلحقوك بأهل الأعمال ؛ لحديث : الرجل يحبُّ القومَ ولما يلحق بهم ، قال : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ »)[٣] .

وكان يقول : (من كان له بالتعظيم بين العوامِ صورة ، لم يكن له بالتخصيص عند

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٤٢) . (من ادَّعىٰ أنه بر ، فلا يؤذي الذَّر) .

(٢) كذا في النسخ بالرفع ، و (كان) هنا تامة .

(٣) روى الحديث البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتقدم (٢/ ٢٧ ، ٧٠ ، ١٩٨) ، و(٣/ ٣٤٢) .

أهل التحقيق صورة ؛ وذلك لأن محبَّ الله مشهور ، ومحبوبَ الله مستور ، وقد يجمعهما اللهُ تعالىٰ لواحدٍ ، فقد كان صلى الله عليه وسلم مشهوراً مستوراً) .

وكان يقول : (إساءةُ الأدب علىٰ أهلِ الرُّتب تُوجب العطب) .

وكان يقول : (من العجبِ ذكرُ الله وهو حاضرٌ قريب ، فما بقي للذِّكر سُلطانٌ إلا علىٰ وجه التعليم ، أو حال غيبة الذاكر عن المذكور) .

وسئل مرة عن المراد بقول القوم : (قيل لنا كذا في الليل) فقال : (مرادُهم بذلك : إما هاتفُ الحقيقة ، أو سماع صوت المَلَكِ من غير رؤية شخصه ، أو رؤيته علىٰ غير صورته الأصلية ، أو مرادهم ما يسمعونه من نطق قلوبهم ، أو ما يُفهم من حال الشيء ، وهـٰذا الأخير خاصٌّ بالمريدين) .

وكان يقول : (من كان للناس أرضاً فهو لربِّه أرضىٰ ، ومن على الناس تعالىٰ لا يُقال له تعال) .

وكان يقول : (إذا رأيتَ لنفسِك في المنام مبشرةً حسنة . . فلا ترضَ عن نفسك حتىٰ تعرفَ رضا الله عنها) .

وكان يقول : (رُبَّ شخصٍ مُزار حمَّلَ الزائرَ الأوزار ، وبالعكس ، فتفقَّدوا نفوسَكم عند قدوم الزائر عليكم) .

وكان يقول : (من حمَّلَ الفقيرَ ما وردَ عليه من النكد ، فكأنه بال عليه إذا ورد) .

وكان يقول : (لا تستقلَّ بالعالِمِ الفقير ، ولا تنظرْ إليه بالتحقير ، فربما تقدَّم علىٰ علماء الزمان ، إذا جاء الأوان) .

وكان يقول : (شيخُ الأمير طبلٌ كبير ، وشيخُ الفقير عبدٌ حقير ، وشيخ السلطان أخو الشيطان) .

وكان يقول : (الأستاذُ : هو من كمل الدوائر ، وانطوىٰ فيه علمُ الأوائل والأواخر ، ويُسمَّىٰ بالعالم المطلق ، فكلُّ أستاذٍ شيخٌ ولا عكس) .

وكان يتمثَّلُ كثيراً بقولِ الشيخ محيي الدين إذا استغربَ أحدٌ قولاً للفقراء : [من الطويل]

تـركنَـا البحـارَ الـزاخـراتِ وراءَنـا   فمنْ أينَ يدري الناسُ أينَ توجَّهنا

وكان رضي الله عنه يقول : (كان سجودُ الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام إشارةً لتواضع الصغير للكبير ، وإظهاراً للكرامةِ بظهورِ صورته بسِمَة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أن رأسَ آدم عليه السلام ميم ، ويديه حاء ، وسرَّتَه ميم ، ورجليه دال ، وكذا كان يُكتب في الخطِّ القديم محمد ، وإنما لم تظهرِ اليدُ الأخرىٰ حتىٰ يكون يميناً وشمالاً هـٰكذا محمد ؛ لأن الأولَ أعظمُ في المدح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظرُ من خلفه كما ينظرُ من أمامه ، فيصيرُ يسارُ الخلق يميناً لذلك الوجه المختصِّ به صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا قال بعض العارفين : لا يُقال ليدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يسار ، وإنما يُقال : اليمينُ الأول ، اليمين الثاني ، أو يمين وجهِهِ ، ويمين خلفه .

وللشيخ كلامٌ كثير في كتابه « القانون » وفي « شرح الحكم » .

وفي هـٰذا القدر كفاية ، والله تعالىٰ أعلم .

ودفن رضي الله عنه في تربة السَّادة الشاذلية بالقَرَافة مع جملةِ أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٦٧) الشيخ الصالح سيدي عمرُ الكردي رضي الله عنه[١]

كان مُقيماً بزاويته علىٰ ساحل بركة الخازندار[٢] ، خارج جامع الملك الظاهر بيبرس .

وكان زاهداً ورعاً ، وكان يغتسلُ لكل فريضةٍ صيفاً وشتاءً .

وكان أكابرُ مصر يأتون إلىٰ زيارته ، ويصنعون له الأطعمةَ الفاخرة ، والحلاوات ، وكان لا يأكلُ لأحدٍ منهم شيئاً ، وإنما يفرِّقُهُ علىٰ أصحاب الكتب من الحشاشين ، فكان يضعُ قطعةَ الحلاوة في فمِ الحشاش ، ويقول : يا أخي ؛ ما لي أرىٰ عيونَكَ حمراء ، وهو متبسم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥١) (٣٢٥) .

(٢) في مصادر ترجمته : كان يقيم بجامع قيدان ، على الجانب الشرقي للخليج ، علىٰ باب الفتوح .

وكان عنده جماعةٌ من النقباء لقضاء حوائج الناس عند الأمراء وغيرهم ، وكان لا يمكِّنُهم من الأكل من أطعمة الناس ، ويقول لهم : كلوا من طعامي ، فكانوا يُنكرون عليه ذلك ، فجاءه يوماً مطابقُ حلوىٰ من خوند الخاص بكية ، فقال للنقباء : املؤوا لكم طبقاً من هـٰذا وغطُّوه ، ففعلوا ، ثم قال لهم : احملوه واتبعوني ، فخرجوا معه إلى الجزيرة التي في وسط البركة ، فجلس بهم ، وقال : اكشفوا الطبق وكلوا ، فكشفوه ، فوجدوه كلَّهُ خنفساً يسبح ، فقال لهم : كلوا ، فقالوا : هـٰذا خنفس ، فقال : هـٰكذا يصير في بطونكم ، فكيف تتكدَّرون مني إذا منعتكم من أكله ؟! فاستغفروا وتابوا ، وقبَّلوا رجله ، هـٰكذا أخبرني بذلك شيخُنا الإمام المحدِّث الشيخ أمين الدين إمامُ جامع الغمري ، وكان من أصحابه .

قال : ولمَّا دفناه في تربة السلطان خُشْقَدَم كان حاضراً سيدي إبراهيم المتبولي ، فقال : وعزَّة ربي ؛ ما رأيتُ أصبرَ منه علىٰ دفنه في هـٰذه البقعة التي هي قطعةٌ من جهنم ؛ يعني من جهة كونها عمارةَ السلطان .

مات رضي الله عنه سنة نيف وثمانين وثمان مئة .

ومنهم :

(٣٦٨) السيد الكبير سيدي إبراهيمُ المتبولي رضي الله عنه[١]

كان من أهل دائرة الولاية الكبرىٰ ، كثير التصريف في مصر وقراها .

وأخذ طريقَ القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهو شيخُ شيخنا سيدي عليٍّ الخواص رضي الله عنه .

وكان في بداية أمره يبيع الحمص المصلوق علىٰ باب زاويته بظاهر الحسينية عند جامع شرف الدين الكردي بن قيران[٢] .

وكان يرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في منامه كثيراً ، فيُعلم بذلك أمَّهُ رضي الله

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٥٢) (٣٢٦) .

(٢) في (هـ) وحدها : (قيروان) .

عنه ، فتقول له : يا إبراهيم ؛ كل الناس يشاركونك في رؤية النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المنام ، وإنما الرجلُ من يراه في اليقظة ، فبعد ذلك كان يراه في اليقظة ، ويحادثُهُ ، ويشاوره في أمورهِ كما يشاورُ المريدُ شيخَهُ ، واشتهر بذلك بين الأولياء .

وهو صلى الله عليه وسلم هو الذي أشار علىٰ سيدي إبراهيم بحفر بئر الغيط الذي في بركة الحاج ، حين كان سيدي إبراهيم كلما حفرَ بئراً انهالت ، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : غداً أُرسل لك علياً ابنَ عمي يخطُّ لك علىٰ بئرِ شعيب نبي الله الذي كان يسقي منها غنمَهُ ، فخطَّ له الإمامُ عليٌّ علىٰ جدارها المردوم ، فحفر سيدي إبراهيم ، فوجد الجدار .

وهو الذي أمرَ سيدي إبراهيم بعمارة الزاوية التي ببركة الحاج ، وقال : يا إبراهيم ؛ عمِّرْ هناك زاويةً يأوي إليها المنقطعون والأيتام والمساكين ، واجعل فيها سماطاً ، وقل له : ما دام فيها اللقمةُ فبلاء الشرق مدفوع عن مصر[١] ، ويا ويل مصر إنْ رُفعت اللقمةُ منها ، وما دامت عامرةً فمصرُ عامرةٌ .

وأخبرني الشيخ جمال الدين الكردي : أن الغلاءَ وقعَ في عصر سيدي إبراهيم ، فاجتمع خلقٌ كثيرٌ عنده في الزاوية ، فكان يعجنُ لهم كلَّ يوم خمسة أرادب ، فيفرِّقها على الناس من غير إدام ، فاشتكوا من ذلك ، فقال للنقيب : امض إلى الخصِّ الذي في الغيط ، وارفع البرشَ[٢] ، وخذ للناس أدمَ يومهم ، فمضىٰ ، ورفع البرشَ ، فوجد قناةَ ذهبٍ تجري ، فأخذ منها كفايةَ يومهم ، ثم شاور الشيخ في الزيادة ، فقال له : يا ولدي ؛ الأمرُ إنما هو بميزان ، فخالف النقيبُ ومضىٰ ، ورفع البرش ، فلم يجد شيئاً .

وأخبرني أيضاً : أن شخصاً من الخوارج ببلاد الشرق كان اسمه الجعجاع ، وكان قد أفسدَ في البلاد ، وعجز السلطانُ عنه ، فأخذ سيدي إبراهيم عسيباً من النخل ، وجعله قوساً ، وجعل له وتراً ، وأخذ عوداً من القرطم[٣] ، ووضع فيه سلاية من

---

(١) في (ز ، ي) : (مرفوع) بدل (مدفوع) .

(٢) **البُرْش** : حصير من سعف النخل .

(٣) **القرطم** : حب العصفر .

النخل ، وقال لبعض الفقراء : اسحبْ هٰذا القوس وسمِّ الله ، وانشبْه ، وقلْ : اللهم ؛ اجعله في نحر الجعجاع ، ففعل ، فأرَّخوا ذلك ، فأتى الخبرُ بأن الجعجاع أتاه سهمٌ فيه سلاية ، فوقع في نحره في الوقت الفلاني ، فمات .

قال الشيخ جمال الدين : وزرتُ السيدة مريم عليها السلام مع سيدي إبراهيم المتبولي ، وقرأ عندها ختماً ، فرأيتُ تلك الليلة السيدَ عيسىٰ عليه السلام وقال لي : سلِّم على الشيخ إبراهيم ، وقل له : جزاك اللهُ عن الوالدة خيراً .

قال الشيخ جمال الدين : واشتقتُ مرةً إلىٰ والدتي ببلاد الأكراد ، وأنا مقيمٌ عند سيدي إبراهيم في زاويته ببركة الحاج ، فشاورت الشيخ ، فقال لي : اصبر ، فدخلتُ الخلوة ، فأخذتُ الحصى الذي أعدُّ به وردي ، وذلك بعد العصر ، فرأيت أني سافرتُ إلىٰ بلاد الأكراد ، واستقبلني أهلي بالأعلام ، وأقاموا الذِّكرَ حتىٰ دخلتُ دار الوالدة ، فسلَّمت عليها ، وأقمت عندها أياماً ، فضعف خطيبُ البلد ، فسألوني أن أخطبَ لهم مكانه ، وأُقرئ الأولاد ، فأقمتُ عندهم تسعة أشهر .

ثم اشتقتُ إلىٰ سيدي إبراهيم ، فقلت لهم : لا بد من سفري ، فقالوا : لا بد من هدية ، وما هنا الآن شيءٌ ، فاصبر حتىٰ يحصلَ لك هديةٌ ، فلم أطعهم ، وخرجتُ من البلد ، ونزلتُ من كومها ، فوجدتُ نفسي في الخلوة في بركة الحاج ، فخرجتُ أُسلِّمُ على الناس ، فقالوا لي : ما لك يا يوسف ؟! فقلت لهم : إني كنتُ مسافراً عند الوالدة ، ولي عنكم غائبٌ تسعة أشهر ، فسخروا مني ، وصاروا يتضاحكون ويقولون : يوسف خفَّ عقلُهُ ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فأمرني بالكتمان ، ثم إن الوالدة جاءتْ بعد سنتين ، وأخبرتْ أني مكثتُ عندها تسعة أشهر ، وقالت : ما قدرتُ عليه أن يقعدَ حتىٰ يغلق السنة ، فعلمَ الفقراءُ أنَّ تلك كانت كرامةً لسيدي إبراهيم .

وكان رضي الله عنه كثيرَ العطب لمن يُؤذيه ، أو يؤذي جماعته ، أو يُنكر عليه .

وصلَّىٰ وراءه القاضي ابنُ مظفر مرةً وهو لا يعلم ، فلما سلَّم قالوا له : كان إمامُك سيدي إبراهيمَ ، فأعاد الصلاةَ ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فقال : قولوا له : اللقمةُ الكبيرة ما تنزل من الزور ، وقولوا له : يقول لك إبراهيم : إن هٰذه البوصة التي في يدك تكتبُ

بها أمرٌ من عتلةِ حرامي[١] ، فوقَّع القاضي في تلك الجمعة في كتابة مسطور زورٍ ، أخذ عليه مئة دينار ، فبلغ ذلك السلطان قايتباي ، فعزله عزلاً مؤبداً ونكَّل به ، فلم يزل في بيته حتىٰ مات .

وردَّ الكاشفُ مرةً شفاعته ، وقال : إن كان إبراهيمُ شيخاً ينفخني ، فبلغ الشيخَ ، فقال : ينفخُهُ اللهُ ، فانتفخ تلك الليلة حتىٰ تمزَّقتْ بطنه ومات .

وجاءه مرةً شيخُ المطرية ونازعه في رزقةٍ كان سيدي إبراهيم يزرعُها فولاً للفقراء ، فقال له سيدي إبراهيم : رح في حالك وإلا جاءتك دويدة تقتلك ، فسخرَ بقول الشيخ : (دويدة) ، ثم رقدَ تحت الجُمَّيزة والفقراء ينظرونه[٢] ، فدبَّتْ عليه عقربٌ ولدغته في بيضه ، فمات في الوقت .

وتعرَّضَ له الوزير قانم التاجر[٣] مرةً في فاكهة الغيط ، وأراد أن يجعل عليها مالاً للمكَّاسين ، فأرسل الشيخ له في ذلك ، فقال : هـٰذا مال السلطان ولم يرجعْ ، فوقع في تلك الليلة في الخلاء ، فاندقَّتْ عنقُهُ ، فوجدوه ميتاً ولحيته في حلق السنداس[٤] .

وكان يقول : (كل فقير لا يقتلُ من الظلمة بعدد شعر رأسه ما هو فقير) .

وقال له مرةً فقراءُ عصره : الفقراءُ من شأنهم احتمالُ الأذىٰ ، فقال : صحيح ، ولـٰكن الحق تعالىٰ هو الذي ينتصرُ لهم ؛ لاستنادهم إليه ؛ فإنهم كالطفل في حِجْر وليِّه ، أو كولد اللبوة في حِجْرها ، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يأخذه منها .

ومكثَ رضي الله عنه عمرَهُ كلَّهُ لم يغتسلْ من جنابةٍ ؛ لأنه لم يُجنبْ قطُّ .

وكانوا إذا قالوا له : يا سيدي ؛ لمَ لا تتزوَّج ؟! يقول : يا أولادي ؛ ما في ظهري ذريةٌ ، ونفسي مشغولةٌ عن الشهوات بما بين يديها من أهوال يوم القيامة .

---

(١) **العتلة** : هِراوة غليظة من حديد أو خشب يُهدم بها .

(٢) **الجُمَّيز** : ضرب من الشجر يشبه حمله التين ، ويعظم عِظَم الفرصاد .

(٣) قانم التاجر الجركسي المؤيدي : مملوك ، أصبح أميراً وعظم جدّاً ، وعمّر الأملاك . الضوء اللامع ٦/ ٢٠٠ .

(٤) **السنداس** : بيت الخلاء .

وكان رضي الله عنه إذا جاءه الشابُ وقال له : يا سيدي ؛ خاطرك عليَّ يحفظني اللهُ عن الوقوع في الفواحش. . يقول له : في همَّتِكَ أنك تتزوج إذا قدرتَ علىٰ مؤونة التزويج وإلا تكون مثلي ؟ فإن قال له : أريدُ أن أتزوَّجَ يُعطيه حبلاً ، ويقول له : شدَّ بهٰذا وسطَكَ ، فما دام في وسطِك لا تتحرَّكُ لك جارحةٌ ، وإن قال له : أكون مثلَكَ يمسحُ علىٰ ظهره بيده ، فلا تنتشرُ له جارحةٌ ما دام حيّاً ، هٰكذا أخبرني الشيخ بدرُ الدين النشَّار من أصحابه .

وكان إذا بلغَهُ عن أحدٍ أنه أنكرَ عليه شيئاً من أحواله يقول : يا أولادي ؛ أنا سمٌّ ، فما للناس بي ؟!

وكان رضي الله عنه يكره للفقير الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة ، ويقول : (يا أولادي ؛ ما خُلقَ العبدُ في هٰذه الدار إلا للحرث ، وعمل الصنائع ، والأكل من عمل يده ، ولا يغرنَّكم رواجُ أمر هٰؤلاء الذين يجلسون في الزوايا يتعبَّدون ؛ فإنهم عَيْلةٌ على الناس ، وأجر طاعاتِهم يومَ القيامة للذي أطعمهم اللقمة ، بخلاف من أكَلَ من كسب يده ، فإن عمله له) .

ودخل له مرةً فقيرٌ ، وكان محترفاً ، فترك الحرفة ، وجلس يتعبَّدُ بين الفقراء ، فقال له الشيخ : لِمَ تركتَ حرفتَكَ ؟! فقال : يا سيدي ؛ لمَّا دخلتُ الزاويةَ رأيتُ بومةً عمياء في طاقةٍ ، فنظرتُ من أين تأكلُ ، وإذا بصقرٍ يأتيها كلَّ يوم آخر النهار بلحمٍ تأكله ، فقلتُ في نفسي : أعملُ مثل هٰذه البومة العمياء ، فقال له الشيخ : ولأيِّ شيءٍ يا ولدي لا تعملُ مثل الصقر تأكلُ وتُطعم غيرَك ، فتاب الفقير ، ورجعَ إلى الحرفة .

وكان يقول : (جميعُ الفقراء الذين لا حرفةَ لهم ، ويأكلون من صدقات الناس نساءٌ ، وإن كان لهم لحىً ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣٤]) .

وكان رضي الله عنه يتفقَّدُ كلَّ من جاور عنده ، ويقول : (لا أحد يُقيم عندي إلا إن كان والداه راضيين عنه ؛ وذلك لأن اللهَ تعالىٰ يغضبُ لغضب الوالدين ، ومَنْ غضبَ اللهُ عليه كيف يقدرُ إبراهيمُ يجلب له خيراً ؟!) .

ورأىٰ مرة شخصاً كثيرَ العبادة ليلاً ونهاراً ، لا يفترُ ، وليس له ترقٍّ بأعماله ، فقال

له : يا ولدي ؛ ما لي أراكَ كثيرَ العملِ ناقصَ المقام ؟! فقال : يا سيدي ؛ والدي ماتَ وهو ساخطٌ عليَّ ، فقال له : تعرفُ قبرَهُ ؟ فقال : نعم ، فقال : اذهبْ بنا إليه نترضىٰ خاطرَهُ عليك ، فذهبا إلىٰ قبره ، فناداه الشيخُ : يا أبا محمد ؛ فقال : نعم ، فقال : اخرجْ أكلِّمْك كلمةً وترجعُ ، فقامَ من القبر ينفضُ الترابَ عن رأسه ، فقال : ولدك هٰذا أخبرَ أنك متَّ وأنت ساخطٌ عليه ، فقال : صدق ، فقال : اصفحْ عنه ، فصفح وقال : قد رضي خاطري عليه ، فقال : ارجع إلىٰ مكانك ، فرجع ، فمن ذلك اليوم حصلَ لولده الخير ، هٰكذا أخبرني سيدي الشيخ جمال الدين الكردي ، وقال : كنتُ رفيقَ الشيخ لما أحيا الميت .

وأخبرني أيضاً قال : اعترضتِ امرأةٌ حمارةَ الشيخ وهو راكبٌ إلىٰ بركة الحاج ، وقالت : يا سيدي ؛ ابني أسير في بلاد الفرنج ، وما أعرفُ مجيئه إلا منك ، فقال : هٰذه لسيدي أحمدَ البدويِّ ما هي لي ، فعانقتِ الحمارةَ ، فوقف الشيخ ، ونادى ابنَها في بلاد الفرنج ، فأجاب ، فقال لها : ها هو ابنك ، فرأته بعينها ، فتلاقت هي وإياه بحضرة الشيخ ، وذهبت به .

وأخبرني أيضاً قال : كان الشيخُ في وليمةٍ على الخليج أيامَ النيل ، فوقع ولدُ صاحب الوليمة في الخليج ، فغرق ، فتكدَّروا لذلك ، وقالوا للشيخ : ما نعرفه إلا منك ، فقال : اصبروا عليَّ إلىٰ غدٍ ، فصبروا ، فأرسلهم إلى الخليج خارج القاهرة ، فوجدوه جالساً حيّاً ، فأخذوه .

وكان به مرضُ الحصىٰ وأسرُ البول ، فكان يجعرُ كالثور ، ويقول : يا ربِّ ؛ لا أسألُكَ تحويلَ ما قدَّرتَ عليَّ ، وإنما أسألك اللطفَ بي .

وكان إذا أخبرَ بشيءٍ يقعُ ، ولا يُمكن مخالفته .

ووقع فزعٌ كبير بين بني حرام وبني وائل في ناحية قها بالقليوبية ، فأرسل الشيخُ وراءهم ، وأمرهم بالصلح ، فأبىٰ بنو وائل ، فقال : وعزَّةِ ربي ؛ ما بقوا يفلحوا إلىٰ يوم القيامة ، فنفذ الأمر فيهم ، فحركاتُهم دائماً معكوسة ، وبنو حرام لم يزالوا ظافرين عليهم .

وكان يقول : (أنا أمانٌ لمصرَ ما دمتُ فيها ، فإذا مت فيا ويل مصر بعدي) .

وكان يقول : واللهِ ؛ ليوزعن مقامي على سبعين رجلاً ويعجزوا عن القيام به ، فقال له الشيخ جمال الدين الكردي : فوظيفةُ خدمة الحُجْرة النبوية تكون لمن بعدكم ؟ فقال : لشابٍّ يقال له : محمد بن عنان سوف يظهرُ من بلاد الشرقية .

وأخذ ابنُ البقري المباشرُ بقرةَ رجل من مُحبِّي الشيخ ، فركب الشيخ إليه شافعاً ، فوجده عند شيخه ابن الرفاعي بالقرب من الرميلة ، فكلَّم ابنُ البقري الشيخَ بكلامٍ فيه قلةُ حياء بحضرة ابن الرفاعي ، فقال سيدي إبراهيم : إن شيخَك هٰذا الذي تتعزز علينا به كان أبوه قرَّاداً في بلاده[1] ، فما فرغ الشيخُ من كلامه إلا وحَوْشُ ابن الرفاعي فيه قرودٌ ، ودباب ، وحمار ، وكلب حتىٰ رآهم جميعُ الحاضرين ، ثم غابوا عن أعين الناس ، فاستغفر ابنُ البقري وشيخُهُ ، وقبَّلوا يدَ سيدي إبراهيم ، وردُّوا للفقير البقرة .

وأخبرني الشيخ أحمد الغزاوي أحدُ أصحابه قال : دخل علىٰ سيدي إبراهيم رجلٌ ومعه ولدٌ صغيرٌ ، فبكىٰ ، فقال لوالده : هزَّ له هٰذه النبقةَ ، فهزَّها ، فنزل منها ثلاثٌ وثمانون حبة نبق ، فقال : إن ولدَك يتزوَّجُ من النساء بعدد هٰذا النبق ، فعاش الولدُ حتىٰ تزوجَ ثلاثاً وثمانين امرأة كما قال الشيخ .

وأخبرني الشيخ محمد النامولي أحدُ أصحابه قال : كان الشيخُ كثيرَ التورع ، لا يأكلُ إلا من طعامِ قليلٍ من الناس ، وكنا إذا سافرنا إلىٰ عمارةِ الجامع الذي بناحية طندتا يقول لنا ونحن في بركة الحاج : العشاءُ الليلة عند الشيخ علي بن الصعيدي بساقية أبي شعرة ـ يعني : جدي الأدنىٰ ـ وكان مدققاً في الورع ، وكان سيدي إبراهيمُ يحبُّ الأكل من طعامه .

قال : واعترضنا أهل برشوم التين يُطعموا الفقراء تيناً ، فقال الشيخ : التينُ عند الشيخ عليٍّ في ذلك البر ، فقلنا في أنفسنا : كيف نتركُ بلدَ التين ونطلبه في غيرها ؟! قال : فأول ما لقينا جدَّك أخرجَ لنا قفةً كبيرةً ملآنةً تيناً .

وكان إذا عزمَ عليه أحدٌ من الأمراء ، وتبعه أحدٌ من الفقراء يقول لهم : ارجعوا ؛ فإني عازمٌ علىٰ أكل السُّمِّ .

---

(١) في (ط ، ي) : (تتصرف) بدل (تتعزز) .

وكان يقول : إذا كان طعامُ الأمراء معجوناً بالسُّمِّ فكيف بطعام الملوك ؟! يعني : فإنه كلما عظمتْ سطوةُ صاحب الطعام الدنيوية كلما كثر الحرامُ فيه غالباً .

وكان يقول : ما بيني وبين أهل الجدال عامرٌ ، فسألت الشيخَ جمال الدين عن سببِ ذلك ، فقال : لكثرة إنكارهم عليه بغيرِ حقٍّ .

ونام عنده مرةً منهم اثنان في بركة الحاج ، فرأوا عنده مملوكَيْنِ أمردين هربوا من أستاذهم خوفَ القتل ، ينامُ معهما ، فأنكر الفقيهان عليه ، فقال : إنما أحفظُ هـٰؤلاء من مثلِكما ممن لا يخافُ الله تعالىٰ ، فقالا : تقذف عرضَنا ؟! فقال الشيخ : ما أخبرتُ إلا بما يقعُ لكما ، فكبسَهُما الوالي بعد ليلة بأمرد في جامع الأزهر ، فأرسلا من بيت الوالي يسألانه الشفاعة ، وقالا : تبنا إلى الله عز وجل ، فصفح عنهما .

ثم بعد ذلك ، استفتيا عليه في ذلك ، فأفتى العلماءُ بتعزير الشيخ ، فطلباه برسولين من بركة الحاج إلى الصالحية ، وادَّعيا عليه بين يدي القاضي ، فقبض الشيخ علىٰ لحيته وقال : أما تبتما في بيت الوالي ؟! فقالا : كيف نتوبُ عن الأمرِ بالمعروف ؟! فزعق الشيخُ في وجههما ، فخرجا من الصالحية يجريان ، فاختطفتهما الرجال ، فوضعوهما في بلاد الفرنج ، فأرسلا يستغفران ويقولان : أحدنا يرعى الخنزير ، والآخرُ تنصَّر فتزوَّجَ بصبيةٍ أحبَّها ، ثم انقطع خبرُهما .

وكان سيدي إبراهيم يقول : (حكم أولاد الفلاحين الذين يقرؤون في جامع الأزهر حكمُ من سافر ليتعلَّمَ آلةَ الجهاد في سبيل الله ؛ من الدقاف ، والمصارعة ، ورمي النشاب ، واللعب بالرمح ، فلما صارَ أستاذاً في ذلك سافر للجهاد ، فوجدَ تاجراً معه مالُهُ وحريمه ، فاعترضه إبليسُ وقال : اقطعِ الطريقَ علىٰ هـٰذا ، وخذْ حريمَهُ وماله ؛ لأنك تعرفُ آلات المحاربة وهو لا يعرفها ، فسمع من إبليس ، وأبطلَ الجهاد في سبيل الله ، فكان ثمرةُ اشتغاله بالتعليم للجهاد كله حينئذ معصيةً ، وكذلك هـٰؤلاء المجادلون يتخذون علمَهم آلةً لحرب من يخاصمهم ، وينسون ما شُرع لأجله العلم ؛ من العمل والخشية والورع والزهد وغير ذلك) .

ورماه أهلُ بلدة متبول بولدٍ كان يخدمه ، فقال : هتك اللهُ ذراري من ذكرني بسوء ،

قال الشيخ شمس الدين المتبولي أحدُ أصحابه : فذريةُ هٰؤلاء الذين دعا عليهم الشيخ [مهتوكون] إلى الآن[١] ؛ ذكورُهم مخنَّثون ، وإناثهم بنات خطا .

ورماه واحدٌ من أهل بلده أيضاً بفاحشة ، فقال : أسألُ الله إن كنتَ كاذباً أن يسوِّدَ نصف وجهك ، فصار له خدٌّ أسود كالزفت ، وكذلك ذريتُهُ إلىٰ وقتنا هٰذا .

وكان يقول : (آخىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سيدي أحمد البدوي وقال : يا إبراهيم ؛ قد آخيت بينك وبين رجلٍ ما في الأولياء أكبرُ فتوةً منه ، ولو علمتُ أن في الأولياء من هو أكبر منه فتوةً لآخيت بينك وبينه) .

ومن هنا كان سيدي إبراهيمُ يقول : لا تكبِّروا خبز زاويتي علىٰ خبز سيدي أحمد البدوي .

وشفع مرةً عند الوزير ، فلم يقبلْ شفاعته ، وقال : إن كان شيخاً ينفخني ، فقال الشيخ : ما أنا رايح حتىٰ أنفخك ، وإنما أُفوِّقُ سهمي[٢] ، فلا يُردُّ ، فلحقه تلك الليلة وجعٌ في قلبه ، فأصبحت جنازتُهُ على الباب ، فتأدَّبت الظلمةُ مع سيدي إبراهيم من ذلك اليوم ، فكانوا لا يردُّونَ له شفاعةً .

وكان يقول لأصحابه : (الفقيرُ لا يكون عملُهُ إلا بقلبه ، وليس له يدٌ ولا لسان ، فمن لم يكن له قلبٌ فلا ينبغي له أن يتصدَّرَ للشفاعات عند الظلمة ، فيضحكون عليه ويزدرونه) .

قال الشيخ جمال الدين الكردي : ونزلنا مرةً تحت الجُمَّيزة التي في المطرية ، فجاء جماعةٌ من الجند ، وجلسوا يشربون الخمرَ ، فأراد الفقراءُ أن يكسروا أواني الخمر ، فقال لهم الشيخ : من كان له قلبٌ فليكسرْها به ، فتوجَّه بعضُ الفقراء إلى الله تعالىٰ ، ووضع رأسَه في طوقه ، فانفلقتْ جرارُ الخمر ، وظنَّ كل أحدٍ أن صاحبه هو الذي كسرَ جرَّته ، فتضاربوا بالدبابيس حتىٰ سالَ دمُهم[٣] ، وركبوا ، فقال الشيخ : هٰكذا غيِّروا

---

(١) في النسخ : (مهتوكين) بدل (مهتوكون) .
(٢) **فوق السهم** : إذا وضع السهم في الوتر ليرمي به .
(٣) **الدبابيس** : جمع دبوس : المقامع من حديد وغيره .

منكراتِ هـٰذا الزمان ؛ فإن من يفعلُ بقلبه لا يُنسب إليه فعلٌ عند الناس .

قال الشيخ جمال الدين : وجاء جماعةٌ من رعيان غنم الأمراء ، فأطلقوا الغنم في برسيم الشيخ ، فقال لهم الشيخ : يا أولادي ؛ هـٰذا برسيمُ الفقراء ، فأغلظوا على الشيخ وعلىٰ جماعته الكلام ، ثم إنهم أطلقوا على الشيخ وعلىٰ جماعته الكلابَ التي معهم في أعناقها أطواقُ الحديد ليعقروا الشيخ ، فجاء الكلابُ حتىٰ وقفوا بين يدي الشيخ [منكسي] الرؤوس[١] ، فصاح بهم الشيخُ ، فرجعوا فعقروا الرعاة ، ثم رجعوا مصاحبين للشيخ إلىٰ بركة الحاج ، فكانوا عنده في الغيط يحرسونه مدَّةَ حياة الشيخ ، وكانوا كلَّ قليل يمسكون له الذئاب .

وكان رضي الله عنه إذا رأىٰ عند المجاورين تقصيراً في الأعمال يخرجُ إلى المطبخ ، ويضرب الدستَ بالعصا ، ويقول : أنت الذي جمعتَ عندي هـٰؤلاء المخاميل[٢] ، فلا يطلع النهار حتىٰ يتفرَّقَ ذلك اليوم كلُّ من كان عنده كسلٌ ، ويخرج من الزاوية من غير أنَّ أحداً يخرجه .

قال الشيخ جمال الدين : ودخل على الشيخ مرةً رجلٌ من أرباب الأحوال ، فتحادثَ معه طويلاً ، فقال الرجل لسيدي إبراهيم : إن الله أعطاني نفوذ البصر ، فأنظرُ مسيرة سنة ، ولا تنزلُ قطرةٌ من السماء ولا يطلعُ نباتٌ من الأرض حتىٰ أعلم به ، وذكر أشياءَ كثيرة ، فقال سيدي إبراهيم : وعزةِ ربِّي ؛ هـٰذا أمرٌ أُعطيته وأنا طفل ، فلم أرضَ به ، ثم توَّب الرجلَ عن الوقوف مع مثل ذلك ، فولَّىٰ وهو يقول : جزاك الله خيراً يا مكمِّلَ الرجال .

وكان سيدي إبراهيم يُصلِّي الظهر دائماً في الجامع الأبيض برملة لُد ، وكان بعضُ الناس يُنكر عليه ذلك ، فكان إذا دخل وقتُ الظهر دخل الخلوة أو الغيط ، فيغيبُ ساعةً ثم يخرج .

قال الشيخ يوسف الكردي : وحضرتُ معه مرةً ، فقال لي : سلِّمْ على الإمام

---

(١) في النسخ : (منكسين) بدل (منكسي) .
(٢) في (ز) : (المخابيل) .

واسأله الدُّعاء ، فسلَّمتُ عليه ، ودعا لي ، ورأيته شاباً أمردَ نحيفاً ، لونه كلون الزعفران ، وكان [جمعٌ كبير] من الأولياء هناك(١) ، انتهىٰ .

وتبع سيدي إبراهيمَ علىٰ ذلك سيدي عليٌّ الخوَّاص ، فكان بعضُ الفقهاء الذين في حارته يقولون : كأنَّ اللهَ لم يفرضْ علىٰ هـٰذا البُرُلُّسي الظهرَ أبداً .

وكان سيدي إبراهيم يقولُ لمن رآه من أصحابه كثير الدعوىٰ : (يا ولدي ؛ لا تكبر فتفطم) .

وأخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاص قال : أمرني سيدي إبراهيمُ أن أنحِّي الحشيش الذي يقطعه من مجاري الماء في الغيط ، فصرتُ أنظِّفَ القناة وراءه ، فالتفتَ إليَّ وقال : يقولون في المثل : (نظِّفِ القناة يجري الماء) ، وهـٰكذا الفقير إذا نظَّفَ قلبه من مكروهات الحق تعالىٰ جرىٰ ماءُ الإيمان في قلبه جداول جداول .

وكان ينهىٰ أصحابَهُ عن الأخذ عن المتصوِّفة من أهل زمانه المتفعلين في أحوال القوم ، ويقول : إن هـٰؤلاء يُريدون أن يجعلوا شجرَ الشوك تفاحاً أو رطباً .

وكان يقول : (عليكم بمن يُسلِّككم وأنتم في حرفكم ، فإن الكاملَ من يُسلِّكُ الناسَ وهم في حرفهم كما كان صلى الله عليه وسلم) .

ولما وقع الشيخُ برهان الدين البقاعي في جانب سيدي عمر بن الفارض ، وانتصرَ العلماءُ لسيدي عمر ، وقالوا : إنه سلطان العشاق قال سيدي إبراهيم : وعزَّةِ ربي ؛ إنَّ عمرَ هـٰذا لم يُعطَ من علوم الأسرار ما يُغطي شارب ناموسةٍ ، ولو أنه ذاقَ شيئاً من أسرار الله لكتمَهُ عن غير أهله كما كتمَهُ أولياءُ الله تعالىٰ .

وكان يكره من يشتغلُ بأسماء البوني والسُّهْرَوردي ، ويتريض لها لأجل حصول ولايةٍ ، أو اتساع الدنيا عليه ، ويقول : (وعزةِ ربي ؛ عُبَّادُ الأوثان أكبرُ همَّةً من هـٰؤلاء ؛ فإنهم قالوا عن الأصنام : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] وهـٰؤلاء اشتغلوا بأسماء الله لتُقرِّبهم من الدنيا زلفىٰ ، مع أن أسماءَ الله تعالىٰ في غاية

---

(١) في النسخ : (جمعاً كبيراً) بدل (جمع كبير) .

العظمة ، فكيف يجعلون تلاوتها لحصولِ شيءٍ خسيس ؟! لو أُعطي للعبد بلا سؤال كان من عقله ردُّهُ والزهدُ فيه) .

وكان رضي الله عنه يتعمَّمُ بعِمامة الصوف الأبيض ، وربما يتطيلسُ في بعض الأوقات بالشملة الحمراء ، ويقول : (أنا أحمديُّ المقام) .

وكان إذا رأىٰ أنفَ إنسانٍ يُطلعه اللهُ تعالىٰ علىٰ جميع ما هو مُرتكبه من الفواحش .

وجاءته مرةً امرأةٌ بولدها تطلب أن تُقرئه القرآن ، فقال لها : ابنُك هـٰذا حرامي ، لا يجيء منه شيء ، فقالت : سلامةُ ابني من ذلك ، فخرجتْ به ، فبات في الخانقاه ، فسرق ، فقطعوا يده ثاني يوم .

وخلع عليه مرةً أميرٌ سلارياً[١] قيمتُهُ غاليةٌ ، فتحزَّم عليه بحبلٍ ، وعزق به في الغيط[٢] ، فصار كلُّه طيناً ، فقيل له في ذلك ، فقال : هـٰذا لا يُناسب الصلاة ، وإنما يُناسب الحرف .

وأخبرني الشيخ شمس الدين العباسي : أنه خرجَ مرةً إلىٰ سيدي الشيخ مَدْين من غير مشاورة سيدي إبراهيم ، فأخلاه ، وصار يذكرُ في الخلوة عنده ، فقال سيدي إبراهيم : أنا أُريدُ أجعلَهُ رجلاً وهو يريد أن يعملَ كالمرأة العجوز يشتغلُ بالسبحة وغيرُهُ يعولُه ، قال : فخرجتُ من عند سيدي مدين ، ورجعتُ إلىٰ سيدي إبراهيم ، فلم أفارقه حتىٰ مات .

ولما دنتْ وفاتُه خرج إلىٰ نواحي القدس ، وقال : إن متُّ في الطريق فادفنوني أيَّ موضعٍ وقفتْ فيه حمارتي ، فوقفتْ عند سيدي سلمان الفارسي[٣] ، **فدفنوه عنده** ، وعَمَّروا عليه مسجداً وطاحوناً للفقراء ، وعملوا له سماطاً هناك ، **وذلك في سنة نيف وثمانين وثمان مئة** .

---

(١) تقدم شرحها (٤/ ٤٧) .

(٢) **عزق الأرض** : شقَّها وكربها .

(٣) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٠) : (فوقفت بإسدود تجاه قبر سلمان الفارسي رضي الله عنه) وإسدود : تقع إلى الشمال الشرقي لغزة ، والمعروف أن سيدنا سلمان دفن بالمدائن .

قال الشيخ أحمد الغزاوي : واشتهينا علىٰ سيدي إبراهيم في طريق القدس طعاماً ماوردية ودجاج في أوانٍ صيني ، وكنَّا نزلنا في منزلٍ ، فقال : تفرقوا تطهَّروا وتعالوا ، ففارقناه فتطهَّرنا ورجعنا ، فوجدنا سماطاً عظيماً فيه كلُّ ما اشتهينا ، فأكلنا منه ، ثم قال لنا : لا ترفعوا شيئاً من الأواني ، فتركنا السماط في البرية كما هو .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة في بلاد مصر رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٦٩) سيدي حسين أبو علي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

المدفون بساحل بولاق .

كان من أكابر الأولياء أرباب التصريف ، وكان كثير التطورات ، يدخل عليه الإنسانُ فيجده سَبُعاً ، ثم يدخل عليه إنسانٌ فيجده جنديّاً أو فلاحاً أو فيلاً ، وهـٰكذا .

ومكث رضي الله عنه في خلوةٍ في غيط خارج باب البحر أربعين سنة لا يأكلُ ولا يشرب ، وبابُ الخلوة مسدود ، وليس له إلا طاقٌ يدخل له منها الهواء ، ثم إنه خرج بعد الأربعين سنة وأظهرَ الكرامات والخوارق .

وكان إذا سأله أحدٌ ذهباً أو فضة قبض من الهواء وأعطاه ما طلب .

وكان من لا يعرفُ حاله يقول : هـٰذا سيماوي[٢] ، وإنَّما كان معه حرف (كن) الذي يُعطيه الله لأوليائه .

ولما صحبه ابن الفنيش عمَّرَ له الزاوية ، وأصرف عليها ثلاثين ألف دينار ، قال الناس : إنما هـٰذا من عمل الكيمياء ؛ فإن ابن الفنيش كان يبيعُ السمك القديد علىٰ رأسه في شوارع مصر ، والحالُ : أن المصروف إنما كان من عند الشيخ .

ولما اتَّسعتِ الدنيا على ابن الفنيش ، وصارت مراكبُهُ تسافر إلى الهند برطلَ أعداؤه الخفراء بألف دينار ليقتلوا لهم الشيخ حسين ، فدخلوا عليه ، فقتلوه ، وحملوه في

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦١) (٣٢٧) .

(٢) نسبة إلى السيماء ، والسيماء مثل الكيمياء .

تليس إلى الكوم[(١)] ، وحفروا له في الليل ، ودفنوه ، ثم أصبحوا فوجدوه جالساً في الزاوية ، فتحيَّرَ الخفراء فيمَنْ قتلوه ، فحفروا الكوم ، فلم يجدوا فيه أحداً ، ولعله تطورَ لهم ، فقتلوا الصورةَ المتطوِّرة .

ولما مكثَ في الغيط أربعين سنة كما مرَّ كانت أصحابُهُ عنده في الغيط ، فكانوا يأخذون أولاد النُّموس والثعالب ، وهي صغيرةٌ فيربُّونها ، فتصير تتبعهم حيثما مشوا ، فسُمُّوا نموسية .

وضربَ السُّلطان قايتباي رقابَ بعضهم لمَّا خرجوا عن ظاهر الشريعة .

ومنهم :

(٣٧٠) عبيد[(٢)]

وكان الشيخ عُبيد أحدُ أصحابه مخروقَ اللسان .

وكان يأمرُ السحابَ أن يُمطرَ فيمطرُ في الوقت .

وكان كلُّ من تعرَّضَ له بسوءٍ قتله بسرِّه في الحال .

وكان يتكلَّمُ في حقِّ الملأ الأعلىٰ بالكلمات التي تؤذن بأنهم تحتَ حكمه وتصريفه .

وطلع مرةً ناحيةَ الجعفرية ، فتبعه صغارُها يضحكون عليه ويستهزؤون به ، فقال : يا عزرائيل ، وعزَّةِ الله ؛ إن لم تقبض أرواح هـٰؤلاء بكرةَ النهار لأعزلنَّكَ من ديوان الملائكة ، فأصبحوا كلُّهم ميتين ، وكانوا سبعاً وخمسين صغيراً .

وقال له مرةً قاض : اسكتْ يا كلب ، فقال : اسكت أنت ، فخرسَ القاضي ، وبطل نصفه ، وعمي ، وصَمَّ إلىٰ أن مات .

مات سنة تسعين وثمان مئة ، وكانت أحواله غريبة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **التليس** : وعاء يسوىٰ من الخوص شبه القفة .

(٢) تقدمت ترجمته ضمن ترجمة حسين أبي علي في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٢) (٣٢٧) ، وأفرده بالترجمة : المناوي في « طبقاته » (٣/ ١٩٧) ، والنبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٤١) .

ومنهم :

(٣٧١) سيدي أبو بكر الدقدوسي
شيخُ سيدي عثمان الحطَّاب رضي الله عنه[١]

كان من أكابر الأولياء ، وكان يُنفق نفقةَ الملوك من غيرِ أن يكون له معلومٌ ظاهر ، وكان يقول للنقيب : اذهبْ إلىٰ فلان فقلْ له يُقرضني ألفَ دينار ، فيفعل ، فينفقُها على الفقراء والمساكين والأرامل ، ثم يجعلُ في الكيس ألفَ حصاة ، ويقول للنقيب : اذهبْ بها إلىٰ فلان وعدَّها له ، فيعدُّها ، فيجدها ذهباً .

ولما أقام بمكة كان له كلَّ يومٍ إردبُّ قمحٍ يطحنه للفقراء ، وألفُ رغيف .

وكان يأمر سيدي عثمان أن يُعطي كلَّ فقيرٍ صحنَ طعامٍ ورغيفاً ، قال سيدي عثمان : فكثرَ الناسُ عليَّ ، فصرتُ أكسر الرغيف نصفين ، فنهاني الشيخ عن ذلك ، وقال : لو كانوا مئة ألف لكفيناهم بحمد الله تعالىٰ .

قال سيدي عثمان : وكان للشيخ صاحبٌ يصحنُ الحشيش في باب اللوق ، فقال لي يوماً : اخرجْ معي حتىٰ أزوِّرَكَ شخصاً من أولياء الله تعالىٰ ، ففرحت ، فلما وصلنا إلىٰ مكانه وجدناه في خربةٍ يصحنُ الحشيش ، فتشوَّشْتُ في الباطن ، فاطَّلعَ عليَّ الشيخُ ، وقال : لا تتشوش يا عثمان ، فوعزَّةِ ربي ؛ ما أخذها شخصٌ من يدي وعادَ إليها أبداً ، فاستغفرتُ الله من إنكاري عليه ، فقال لي : يا عثمان ، سيصير لك شأنٌ عظيم عند السلطان قايتباي ، فلا يردُّ لك شفاعةً ، فكان الأمر كما قال الشيخ .

قال الشيخ عثمان : ولما حججتُ معه طلبتُ الاجتماع بالقطب ، فقال لي : يا عثمان ؛ لا تستطيعُ رؤيتَهُ ، فقلت : لا بد ، فقال لي : اجلسْ ، وغاب ساعةً ، فصرتُ أَرعدُ من الهيبة ، ورأسي تثقل حتىٰ كادت لحيتي تلتقي علىٰ عانتي ، فجاء هو والقطب ، فجلسا يتحدَّثان ساعةً ، ثم قال القطب لشيخي : يا أبا بكر ؛ استوصِ بعثمان خيراً ؛ فإنه سيصيرُ رجلاً ، ثم لما أراد الانصراف قرأ هو والشيخ الفاتحة ،

---

(١) في (ي) وحدها : (أبو علي) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٣٠٦/٢) (٣٣٤) .

وسورة (لإيلاف قريش) ، ثم انصرفَ الشيخُ يشيِّعُ القطبَ ، ورجعَ إليَّ ، فصار يمرن في رقبتي ويمرخُها[١] ويقول : يا عثمان ؛ هـٰذا حالُكَ وأنت لم تره ، فكيف لو رأيتَهُ ؟!

والإيوان السفلي الذي في زاوية سيدي عثمان الحطاب هو زاوية شيخه الشيخ أبي بكر ، وأما الإيوان العالي فهو عمارةُ سيدي عثمان رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٢) الشيخ محمد الغَمْري الواسطي رضي الله عنه[٢]

المدفون بالمحلَّة الكبرىٰ في جامعه بالسدِّ ، أحدُ أصحاب سيدي أحمد الزاهد .

كان رضي الله عنه عالماً زاهداً ناسكاً عابداً ، يُضربُ به المثل في اتِّباع السُّنة المحمدية هو وأصحابه .

أقام عند سيدي أحمد الزاهد خمس عشرة سنة حتىٰ فتحَ اللهُ عليه بالطريق .

وعمله وقَّاداً في الجامع ، فنامَ عن إيقاد المصابيح صلاةَ الصبح يوماً ، فناداه الشيخُ : يا محمد ؛ أوقدِ المصابيح ، فحلَّقَ بيده علىٰ قناديل الجامع ، فاشتعلتْ كلُّها ، فقال : يا محمد ؛ ما بقي لك عندنا إقامةٌ ، اذهب إلىٰ بِلْبِيس ، فذهب ، فلم ينقدْ له أحدٌ من أهلها ، فرجع إلى الشيخ ، فقال له : اذهبْ إلى المحلَّة الكبرىٰ ، فذهب ، فصدَّهُ عن دخولها أولاد الطريني بالحال ، فرجع إلىٰ محلة أبي الهيثم ، فأقام في جامعها عشرةَ أشهرٍ ، ثم أرسلَ له سيدي أحمدُ أخاهُ سيدي مدين ، وقال : وطِّنْ أخاك في المحلة ، فسافر إليه ، ودخل به المحلة ، ولم يرجع حتىٰ طيَّبَ خاطر أولاد الطريني ، وعملوا له المولد من عندهم ، وصرفوا عليه مالاً جزيلاً ، فلم يزلْ في المحلة إلىٰ أن مات ، ودفن بجامعه ، وقبرُهُ عليه جلالةٌ ومهابة .

---

(١) مَرَخَ جسدَهُ : دهنه بالمَروخ ؛ وهو ما يُمرخ به البدن من دهن وغيره . « تاج العروس » (م ر خ) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٢) (٣٢٨) .

وكان رضي الله عنه قد قسَّمَ الفقراءَ المجاورين عنده إلىٰ ثلاثةِ أقسام[١] ، وعيَّن لكلِّ قسمٍ مكاناً يجلسُ فيه، فكان البالغون في الجامع ومَنْ دون البلوغ في المقصورة ، والكهولُ في رباط وحدهم ، لا يُجالسُ أهلُ قسمِ الآخرَ إلا لضرورة ، ولم يكن يدخلُ للأطفال غير مؤدبهم، وكان الواحد يأتيه أهله ، فلا يتجرأ يُسلِّمُ عليهم حتىٰ يستأذنَ النقيب .

وكان لهم يوم يتناقشون فيه ، فكان الشيخُ يدخلُ بهم في مكان واسع ، ويُغلقُ البابَ ، ويتحاكمون عنده ؛ فمنهم من يأخذُ له حقَّهُ ، ومنهم من يعفو عن أخيه ، ويخرجون علىٰ قلبِ رجلٍ واحد .

وكان أحدُهم لا يُجيب قطُّ من شتمه ؛ بل يصبرُ إلىٰ يوم المناقشة ، وكان كلُّ من أساء الأدب ينادي النقيب عليه : فلانٌ مهجور ، فلا يجالسه أحد حتىٰ يتأدبَ .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وأرسلني النقيبُ مرةً أحمل الرُّطبَ من الجنينة ، فغلبتني النفسُ ، فأكلتُ ثلاثَ رطبات ، ومسحت فمي ، فلما رجعتُ قال لي النقيب : يا خائن ، ثم شاور الشيخ عليَّ ، فهجروني ثلاثة أيام عن كل رطبة يوماً .

وصنف عدَّةَ كتبٍ ؛ منها : « منح المنة في التلبس بالسنة » ست مجلدات[٢] ، ومنها : « القول المضبوط في الشروط »[٣] جمع فيها شروط أبواب الفقه كلها ، ومنها : كتاب « العنوان في تحريم معاشرة الشباب والنسوان » ، ومنها « قواعد الصوفية » ؛ وهو كتاب نفيسٌ ، قرأه عليه شيخنا شيخُ الإسلام زكريا ، وقرأته أنا علىٰ شيخ الإسلام .

وكان يقضي الحوائجَ بالقلب تارةً ، وتارةً يمشي إلىٰ بيت المشفوع عنده ، ويقول : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (« مَنْ مشىٰ معَ أخيهِ حتىٰ يقضي حاجتَهُ »[٤]

---

(١) في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٣) : (ثلاثة أقسام : كهول ، وشباب ، وأطفال) .

(٢) في (د ، ز) : (مجلدان) بدل (ست مجلدات) .

(٣) في (ز) : (المنوط) بدل (المضبوط) ، وفي (و ، ي) : (القول في الشروط) .

(٤) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٥٣) ، ولفظه فيه : أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أي الناس أحبُّ إلى الله ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الناس إلى الله تعالىٰ أنفعُهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله تعالىٰ سرورٌ يدخلُهُ علىٰ مسلم ، أو يكشف عنه كربةً ، أو يقضي عنه ديناً ، أو يطرد عنه=

فربما لا يكون ذلك الأجر لمن يقضي الحوائج من غير مشي) .

وأخبرني الشيخ أحمد بن النحال قال[١] : دخلتُ علىٰ سيدي محمد يوماً الخلوة ، فرأيتُ له سَبْعَ عيون ، فغُشي عليَّ ، فلما أفقتُ قال : (يا أحمد ؛ إن الرجلَ إذا كمل صارَ له سبعُ عيون علىٰ عددِ أقاليم الدنيا) .

قال : ودخلتُ عليه مرةً الخلوة ، فلم أره ، فنظرتُ إلىٰ فوق ، فوجدته متربِّعاً في الهواء تحت السقف .

ونادته مرةً ابنة مريدٍ له ببلاد العجم ، وكان يطبخ خبزاً للفقراء ، فدخل الشيخ من الحائط وخلَّصها ممن يريد بها الفاحشة ، وجاء الخبرُ أن سَبُعاً خرج عليه ويدُهُ مغمَّسةٌ دماً[٢] ، فأرَّخوا الحكاية ، فلم تخط شيئاً .

وكراماته رضي الله عنه كثيرة مشهورة في بلاده .

قالوا : وكان عقيماً في الرجال ، لم يكمل علىٰ يده أحدٌ بعد شيخه ، وإنما تفرعت طريقُ القوم بعد الزاهد عن سيدي مَدْين ، ومقامُ العقم كمالٌ في بعض الرجال ، فافهم .

ومنهم :

(٣٧٣) سيدي الشيخ مدين خليفةُ سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه[٣]

هو أجلُّ من أخذ عن سيدي أحمد الزاهد ، وفُتح عليه في ثلاثة أيام .

فكان سيدي أحمد يقول : (كلُّ الناسِ جاؤونا ومصابيحُهم مطفية ، إلا مدين

= جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هـٰذا المسجد شهراً ، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة ، ومن مشىٰ مع أخيه في حاجة حتىٰ تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام » .

(١) الخبر في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٤) عن محمد بن شعيب .

(٢) في (أ ، ب ، ج ، د ، و ، ز ، ي) : (حبراً) بدل (دماً) ، وفي (هـ) : (خبزاً) ، والمثبت من (ط) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٥) (٣٣٠) .

فجاءنا ومصباحُهُ يضيء ، فقوَّينا له نورَهُ) .

عاش رضي الله عنه حتىٰ ماتتْ أقرانُهُ ، وانتهت إليه تربيةُ المريدين في مصر وقُراها ، ومنه تفرَّعتْ سلسلةُ أبي القاسم الجنيد في مصر ، فكانت الوراثة بعده لولد أخته الشيخ محمد ، فأخذ عنه شيخُ شيخنا الشيخ محمد السروي ، والشيخ علي المرصفي ، والشيخ نور الدين الحسني ، وخلائق .

قالوا : وكان رضاعُ سيدي مَدْيَن علىٰ سيدي أحمد الزاهد ، وفطامه علىٰ يد سيدي محمد الحنفي ، كما ذكروه في مناقبه ؛ فإنه لما تُوفي سيدي أحمد الزاهد جاء إلىٰ سيدي محمد هو وأصحابه ، وأقام عنده مدةً في زاويته مختلياً في خلوة ، ثم إنه طلبَ من سيدي محمد إذناً بالسفر إلىٰ زيارة الصالحين بالشام وغيره ، فأعطاه الشيخ إذناً بذلك ، فأقام مدةً طويلةً سائحاً في الأرض ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فأقام بها واشتهر ، وشاع أمرُهُ وانتشر ، وقصده الناس ، وأخذوا عنه العهود ، وكثرت أصحابه في أقاليم مصر وغيرها .

ولما بلغ أمرُهُ للشيخ أبي العباس السرسي قال : لا إلـٰه إلا الله ظهر مَدْيَنُ بعد هـٰذه المدة الطويلة ، واللهِ ؛ لقد أقامَ عند سيدي محمد الحنفي في زاويته مُختلياً أربعين يوماً حتىٰ كمل ، هـٰكذا هو مشهور بين جماعة سيدي محمد الحنفي .

وهو من ذرية سيدي أبي مَدْين التلمساني ، وجدُّه الأدنىٰ سيدي علي مدفون في طبلية بالمنوفية ، ووالده مدفون بأشمون جريسان ، وكلُّهم أولياء صالحون .

وأول من جاء من بلاد المغرب جدُّهُ الذي في طبلية ، فدخلها ، وهو مغربيٌّ فقير لا يملك شيئاً ، فجاع جوعاً شديداً ، فمرَّ به إنسانٌ يقود بقرةً حلابة ، فقال : احلبْ لي شيئاً من اللبن أشربْهُ ، فقال : إن هـٰذا ثورٌ ، مستهزئاً به ، فصار في الحال ثوراً ، ولم يزل ثوراً إلىٰ أن مات .

ووقع له كراماتٌ كثيرةٌ في طبلية ، فلم يمكنوه أن يخرجَ منها حتىٰ مات فيها .

وأما والد سيدي مَدْيَن فانتقل إلىٰ أشمون ، فولد له سيدي مدين ، فاشتغل بالعلم حتىٰ صار يُفتي الناسَ ، وأسلمَ علىٰ يديه عدَّةُ نصارىٰ من أشمون ؛ منهم أولاد

إسحاق ، وأولاد الصديرية وأولاد المقامقة ، والسماعنة ، كما هو مشهور في أشمون ثم تحرَّك في خاطره طلبُ الطريق إلى الله عز وجل ، واقتفاءُ آثار القوم ، فقالوا له : لا بد لك من شيخٍ ، فخرج يطلب الشيخَ في مصر ، فوافق سيدي محمد الغمري وقد جاء الآخر يطلب الطريق ، فبينما هما يتماشيان بين القصرين إذ لقيهما شخصٌ من أرباب الأحوال ، فقال : اسألا عن الزاهد ؛ فإن فَتْحَكما علىٰ يديه ، ولا تطلبا الأبواب الكبار ـ يعني : سيدي محمد الحنفي ـ فإن الفتح علىٰ غير يديه ، فرجعا من بين القصرين إلىٰ خطِّ المقسم يسألان عن الزاهد ، فلما دخلا عليه الجامع تنكر عليهما زماناً ، ثم لقَّنهما وأخلاهما ، ففتح علىٰ سيدي مدين في ثلاثة أيام ، وعلىٰ سيدي محمد الغمري في [خمسَ عشرة] سنة[١] .

ومما وقع من كرامات سيدي مدين : أن منارةَ زاويته الموجودة الآن مالتْ حين انتهىٰ بناؤها ، وخاف أهلُ الحارة منها ، فأجمع المهندسون علىٰ هدمها إلى الأرض ، فخرج الشيخُ يمشي علىٰ قبقابه ، وقال : اصبروا ، لا تهدموا شيئاً ، ثم أسند ظهرَهُ إليها وهزَّها ، والناس ينظرون إلىٰ أن قعدتْ على الاستقامة إلىٰ وقتنا هـٰذا .

ومن كراماته أيضاً : أن يوسفَ ناظرَ الخاص بمصر ظلمَ شخصاً من تجار الحجاز كان مُستنداً للشيخ عبد الكبير الحضرمي رضي الله عنه[٢] ، فسأل الشيخ في التوجه إلى الله تعالىٰ فيه ، فتوجَّه ، فرأىٰ تلك الليلة يوسف في مقصورةٍ من حديد ، مكتوباً عليها من خارج : مدين مدين مدين ، فأصبح وأخبر التاجر بذلك ، وقال : من هو مدين هـٰذا ؟ فقال : شيخٌ من مشايخ مصر يعتقدُهُ ناظرُ الخاص ، فقال : ارجع إلىٰ شيخه ؛ لا طاقة لي به .

ومن كراماته : أن الشيخ محمد الحريفيش الدنوشري سافر إلىٰ بلاده في الريف ليقطع علائقه ويجيء بالكلية إلى الشيخ ، فأذن له ، فباع بقرته وبعضَ أمتعته ، وجعل ثمنَها في صُرَّةٍ ، ووضعها في رأسه ، وسافر في مركب ، فنفض الراجع عمامته بالصرة

---

(١) في النسخ : (خمسة عشر) ، وفي (أ) : (خمسة عشر يوماً) .

(٢) في (أ ، هـ ، و ، ي ، ك) : (الكريم) بدل (الكبير) .

في البحر أيام النيل ، فجاء ورأسُهُ مكشوفٌ ، فأدخله الشيخُ الخلوة ليغذِّيه النقيب وإذا بسيدي مدين بيده العِمامةٌ تقطرُ ماءً ، فوجد الصُّرَةَ فيها .

وكان رضي الله عنه يأمرُ جميعَ الفقراء بالزاوية أمراً جزماً : ألا يتخلفَ منهم أحدٌ عن مجلس الذكر ، ومن أبىٰ أخرجه ، فدخل عليه يوماً فقيرٌ ، فلم يحضر ، فقال له سيدي مدين : ما منعك عن الحضور ؟! فقال : الحضورُ إنما هو لضعيف القلب ليتقوَّىٰ بالناس ، وأنا بحمد الله قلبي حيٌّ ، فقال له : اخرج من الزاوية لئلا تتلف حال الفقراء ، ويصير كلُّ واحدٍ يدَّعي حياة قلبه فلا يحضر ، ويبطل شعارُ الزاوية .

وخرج فقيرٌ يوماً من الزاوية ، فرأىٰ جرَّةَ خمرٍ مع إنسان ، فكسرها ، فبلغ الشيخَ ذلك ، فأمر بإخراجه من الزاوية ، فقالوا للشيخ : إنه أزالَ مُنكراً ، فقال : لم آمر بإخراجه لإزالته المنكر ؛ وإنما هو لإطلاق بصره حتىٰ رأى المنكر ، ولو كان بصرُهُ لا يجاوز موضعَ قدميه ما رأىٰ منكراً .

ومما وقع لسيدي مدين : أن ثورَ الساقية انطلقَ يوماً ، فأكل من طحين الفقراء ، فذبحه الشيخ ، وأطعمه لهم ، وقال : قد صار الماءُ الذي يملأه لوضوء الناس فيه شبهةٌ .

وجاءته امرأةٌ مرةً ، فقالت : هـٰذه ثلاثون ديناراً ، تقبلها مني وتضمنُ لي على الله الجنة ، فقال الشيخ مباسطاً لها : لا يكفي ، فقالت : لا أملك غيرها ، فضمنَ لها على الله دخولَ الجنة ، ثم ماتت ، فبلغ ورثتَها ذلك ، فاستفتوا على الشيخ ، فقال العلماء : إن الضمان في مثل ذلك لا يستحقُّ به شيئاً ، فجاء الورثة يطلبون الثلاثين من الشيخ ، فردَّها لهم ، وقال : لا أرجع في ضماني ، فجاءتْ ورثتَها في المنام وقالت لهم : اشكروا لي فضلَ الشيخ ؛ فإني دخلتُ الجنة ، وأعطوه الثلاثين ، فجاؤوا بها إليه ، فردَّها عليهم .

وتوضأ سيدي مدين يوماً في البالوعة التي في رباط الزاوية خلف المحراب ، فأخذ فردَةَ قبقابه ، وضرب بها نحو بلاد المشرق ، فأرَّخوا الحكاية ، فجاء صاحبُ الواقعة من تلك البلاد بعد سنةٍ ، ومعه هديةٌ فيها فردة قبقاب ، وأخبر أن شخصاً من العياق عبث بابنته في البرية ، فقالت : يا شيخَ أبي ؛ لاحظْني ، ولم تعرفْ اسمَهُ ، وإذا بفردة

قبقاب وقعت في نحره ، فغُشيَ عليه منها ، وتخلَّصتِ البنت ، ورأيتُ فردةَ القبقاب عند ذريته إلى الآن حين تزوجتُ بابنة ابنه سيدي أبي السعود رضي الله عنه .

وكان الشيخ عبادة المالكي يُنكر علىٰ سيدي مدين كثيراً ، فدعاه سيدي مدين ليحضرَ عنده في مولده الكبير ، وقال للفقراء : إذا جاء الشيخ عبادة فلا أحد يتحرَّكُ له ، ولا يفسح له ، ففعلوا ، فتميَّزَ الشيخُ عبادة غيظاً ، وجلس في طرف الناس ، وسيدي مدين يُوهمه أنه لم يره ، ثم رفعَ رأسَهُ ، ونهض قائماً ، وأجلسه بجنبه ، وباسطه في الكلام إلىٰ أن غابت نفسُهُ ، فقال له سيدي مدين : الله عليك ، ما تكدَّرتَ لعدم قيامنا لك حين جئت ؟! فقال : نعم ، فقال : أما علمتَ : أن ذلك حرام ؟! فقال : نعم ، فقال : كيف تأمرنا أن نساعدك على الحرام ؟! وكأنَّ لسان حالك يقول : (عظِّموني ، وقوموا لي كما تقوموا لله ربِّ العالمين ، وذلك كفرٌ ، فنهض الشيخُ عبادة قائماً ، وقال : اشهدوا عليَّ أني أسلمتُ إسلاماً جديداً علىٰ يد سيدي مدين ، وطلب منه أخذَ العهد ، فأخذ عليه العهدَ ، وترك الإفتاء والتدريس ، ولم يزل يخدمُهُ إلىٰ أن مات ، وأوصىٰ أن يُدفن تحت عتبة تربته ، ليطأه الفقراءُ بنعالهم ، فهو إلى الآن تحت العتبة بتربة الشيخ في سوق الدريس .

وحكىٰ لي الشيخ محمد الحُريفيش الدنوشري سنة ثلاثة عشر وتسع مئة قال : لما مات شيخُنا سيدي محمد الغمري لم يعجبنا أحدٌ بعده نجتمع عليه ، فأرشدني شخصٌ إلى الاجتماع بسيدي مدين ، فسافرت إليه من المحلة الكبرىٰ ، فوجدته يتوضأ في الرباط ، فدخلت عليه ، فسألته عن نفسه ؛ لكوني لم أجد عليه شيئاً من ملابس الفقراء ، إنما لباسُهُ لباس الأكابر ، فقال لي : أنا مدين ، فقلت في نفسي من غير لفظ[1] : [من البسيط]

. . . . لا ذا بذاك ولا عَتَبٌ على الزمن

بفتح التاء المثناة من فوق ، فخاطبني بما في سرِّي ، وقال : (ولا عتْب) بسكون

---

(١) عجز بيت للشافعي في «ديوانه» (ص ١٨٨) ، والبيت بتمامه هو :

فأصبحُوا ولسانُ الحالِ ينشدهمْ هـٰذا بـذاكَ ولا عتْبٌ على الزَّمنِ

التاء ، فقلتُ : الله أكبر ، فقال : علىٰ نفسك الخبيثة ، تسافر من بلادك إلىٰ هنا تزنُ على الفقراء أحوالَهم بميزانك الجائرة ، قال الشيخ محمد : فقلتُ : تبتُ إلى الله ، ثم أخذَ عليَّ العهدَ ، وعلمتُ أن في الأولياء مَنْ هو جماليٌّ ، ومَنْ هو جلاليٌّ ، والمراد قلوبهم لا لباسهم .

ولما ضاقتِ النفقةُ على السلطان جتمق أرسل يأخذ خاطر سيدي مدين : أن الله تعالىٰ يوسعُ عليه ، فأرسل له نصفَ عمود مع العتَّالين[1] ، فوجده معدناً يثاقل به الفضة ، فباعه وجعلَ ثمنَهُ في بيت المال ، واتسع الحالُ بذلك على السلطان ، فقال السلطان : هـٰؤلاء هم الملوك حقيقة .

وجاءه مرةً شخصٌ قد طعن في السنِّ ، فقال له : أريد أحفظُ القرآن ، فقال له : ادخل هـٰذه الخلوة ، واشتغل بذكرِ الله عزَّ وجل تحفظْه ، فدخلَ تلك الليلة ، فأصبح يحفظُ القرآن كلَّهُ عن ظهر قلب ، فتعجَّبَ الناسُ من ذلك .

وكان في زاويته ضريرٌ اسمه عيسىٰ ، فكان كلُّ مسألة سئل عنها يقول : خذوا جوابها من عيسى الضرير ، فيفكُّ لهم المشكلات ، فجاء جماعةٌ من جامع الأزهر متعنِّتون ، فقال لهم : اسألوا عيسىٰ ، فقالوا : ما نسمعُ الجواب إلا من سيدي الشيخ ، فقال لهم : الجواب عندكم في الكتاب الفلاني الذي عندكم فوق الرفِّ ، فعُدُّوا سابعَ سطرٍ من عاشرِ ورقةٍ من أوله تجدوا الجوابَ ، فوجدوا الأمر كما قال الشيخ ، فاستغفروا الله وتابوا عن امتحان الفقراء .

وكان سيدي مدين لا يخرج من بيته إلا لصلاة الجمعة وعصر كلِّ يومٍ ، وما عدا هـٰذين الوقتين فهو جالسٌ في بيته ، لا يخرج لأحد مطلقاً ، وكذلك أدركتُ سيدي علي المرصفي علىٰ هـٰذه الطريقة ، وللفقراء أعذارٌ .

وقد أدركت من أصحابه جماعةً ؛ منهم : الشيخ محمد الدنوشري ، والشيخ أبو الحمائل ، والشيخ عبد الرحمـٰن المغربي ، وأما الحلفاوي ، والشويمي المدفونان بزاويته تجاه قبره فلم أدركهما ، وكانا وليين عظيمين .

---

(١) **العتال** : كشداد : الحمَّالُ بالأجرة . « تاج العروس » (ع ت ل) .

[ومنهم :

(٣٧٤) محمد الشويمي][1]

أما سيدي محمد الشويمي : فكان من أرباب الأحوال ، وكان يعملُ هلالات القباب والموادن[2] ، وينجّر الضبب .

وكان يجلس بعيداً من سيدي مدين ، فكل من مرَّ علىٰ خاطره أمرٌ قبيح بين يدي سيدي مدين يقومُ فيضربه ضرباً شديداً بعصاً غليظة ، لا يستطيعُ أحدٌ أن يُخلِّصَ ذلك الشخصَ منه ، إلا إن تركَ ضربَهُ بخاطره ، فكان غالبُ الناس لا يستطيع أن يجلس عند سيدي مَدْين ما دام الشويمي في الزاوية .

وضرب مرةً أميراً كبيراً خطرَ في باله أنه يشرب الخمر ، فكان لا يراعي في الضرب أحداً .

ومرض سيدي مَدْين مرةً حتىٰ أشرفَ على الموت ، فأعطاه عشر حبات ، وقال : تعيش بعددها ، فمرض مَرَضَ الموت بعد العشر سنين ، فمات .

وكان الشويمي غائباً ، فحضر وهم يغسِّلون سيدي مدين ، فشرب ماءَ غسله كلَّهُ ، وكان نحو راويتين[3] ، وقال : وعزَّةِ ربي ؛ لو أدركتُهُ لشفعت فيه عند الله عشرَ سنين أخرىٰ .

وكان يقول : (من طلبَ أن الله يقضي له جميع حوائجه بلا سؤالٍ فليلازمْ ذكر الله ليلاً ونهاراً) .

وجاءه مرةً رجلٌ يحبُّ امرأةً ، وطلب تزويجها ، فأبت ، فقال له : ادخل هٰذه الخلوةَ واجعلها نصبَ عينيك ، واشتغلْ بذكر اسمها تأتك بنفسها ، فدخل الخلوةَ ، واشتغل باسمها يوماً وليلةً ، فجاءته المرأةُ حتىٰ وقفتْ علىٰ باب الخلوة ، فلما علمَ بها

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٠١) (٣٣١) .

(٢) **الموادن** : جمع مئذنة ، وأتت هنا على اللغة العامية بقلب الذال دالاً .

(٣) **الراوية** : المزادة فيها الماء .

قال في نفسه : إذا كان هٰذا الأمرُ هٰكذا فالاشتغالُ بالله أولىٰ ، فاشتغلَ بالله ثلاثةَ أيام ، ففُتحَ عليه ، وتحوَّلَ باطنه عن الدنيا وزينتها ، فصارتِ المرأة تسوقُ عليه السياقات ليأخذها ، فلم يرضَ .

وكان الشويمي إذا دخلَ بيت سيدي مدين يجسُّ أدبارَ النساء بيده ، فيتكدَّرْنَ لذلك ، فيقول لهنَّ سيدي مدين : لا تتكدرن ؛ فإنه ما وضع يدَهُ على امرأةٍ إلا وحفظتْ من الفواحش .

وكان يخدم سيدي مدين ، ويشتري له حوائجَ الطعام ، فطلبوا منه قُلْقاساً في غيرِ أوانه[١] ، فأخذ حماراً وخرجاً ، وذهب إلى الحلفاء التي في مقبرة أشمون جريسان ، فحمَّلَ لهم الحمار قُلْقاساً من الحلفاء ، فاعتقدوه النساء من ذلك اليوم .

وهو الذي أجلس ابنَ سيدي مدين المسمىٰ بأبي السعود على السجادة بعد أبيه ، وأخرج سيدي محمد ابنَ أختِ سيدي مدين من الزاوية ، وقال : إن جلستَ هنا استلفتُكَ من ربك ، وقرع له العصا على الحائط ، وقال : ابنُ الشيخ أولىٰ بالجلوس .

وكان الشويمي جمَّالاً بناحية أشمون ، وكان يحملُ القمحَ من الغيط أيامَ الحصادِ ، وكان لا يُحمِّلُ جملَهُ سوىٰ قتةً واحدة ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن قتَّتي خمسةُ أرادب ، فإن شككتم في ذلك فدقوا قتَّتي وحِمْلَ غيري ، فوجدوها أكثر من قمح جمل حمل غيره ، فتأدَّبوا معه ، وصار الناس يتقاتلون عليه أن يكون جمَّالاً عندهم .

وأخبرني أصحابه أنه هو الذي زرع الشجرة الخرنوب التي اشتهر بها وادي الخروبة قريباً من تيه بني إسرائيل ، وصبَّ عليها من ماء وضوء سيدي مدين لمَّا سافر معه إلى الحجاز .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

---

(١) **القلقاس** : جذر نبات يؤكل مطبوخاً ، وهو البطاطا الحلوة .

[ومنهم :

(٣٧٥) أحمد الحلفاوي][1]

وأما الحلفاوي الشيخ أحمد فكان صالحاً ، سليمَ الباطن .

وكان يمشي بحلفايته بحضرة الشيخ في الزاوية[2] ، ويُسلِّم له الشيخ حاله .

وكان الشُّويمي يتكدَّرُ منه لأجل ذلك ، فغضب الشويمي منه يوماً وهجره ، فلما كان آخر اليوم الثالث جاء له الشويمي وصالحه ، وقال : رأيتُ الحقَّ تعالىٰ يغضبُ لغضبك ، ولم يُفتحْ عليَّ بشيءٍ من موارد الحق تعالىٰ من حين هجرتك .

وكان سيدي مدين يقول : (أنا رأيتُهُ يمشي بحلفايته هـٰذه في الجنة) .

توفي سيدي مَدين رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وخمسين وثمان مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٧٦) الشيخ شهابُ الدين المرحومي رضي الله عنه[3]

أحدُ أصحاب سيدي مدين رضي الله عنه .

وكان من أكابر الورعين .

مكث رضي الله عنه عند سيدي مدين إلىٰ أن تُوفي سيدي مدين لم يذقْ لزاويته طعاماً ، ولا شربَ منها ماءً .

وكان يقول : (لا أشركُ في محبَّة شيخي أمراً آخر ، فأقيم عنده لعلةٍ من العلل) .

وكان يأكل ويشرب من السوق .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٠١) (٣٣٢) .

(٢) قال النبهاني في « جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣١٩) : (والظاهر : أن الحلفايةَ التاسومة التي تُلبس في الرجل) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٢) (٣٣٨) .

وكان رضي الله عنه كثير المجاهدة متقشِّفاً في ملبسه ومأكله ، ولم يكن له شيءٌ يجلس عليه .

وكان يلبس الفروةَ صيفاً وشتاء ، فيلبسُها في الشتاء من جهة الوبر ، وفي الصيف من جهة الجلد .

وكان من شأنه الإطراقُ على الدوام ، لا تكادُ تراه رافعاً رأسه إلىٰ ناحية السماء أبداً .

ولما مات سيدي مَدْين جلسَ يقرئ الأطفالَ في مصر العتيق في مسجدٍ بالقرب من سيدي ساعي البحر .

وكان رضي الله عنه يقول : (ذهب أهلُ الطريق ، وذهب عشَّاقُها ، وما بقي عند أهلها سوىٰ كلام من غير تخلُّق ، وصار أحدُهم يعجز عن حمايتها لو اعترضَ عليه معترضٌ ؛ لعدم الذوق ، بل صار بعض الفقهاء يعدُّ طريقَ القوم من البدع في الإسلام ؛ لعدمِ من يكشفُ له عنها ، ولو أنهم قالوا للمعترضِ : إن طريقَ القوم محرَّرةٌ على الكتاب والسنة تحريرَ الجوهر ، وعدَّدوا لهم أفعالَ أهلها الصادقين . . لحموها من المعترضين ، ولـٰكن كيف يجيبون عن أهل الطريق الذين يزعمون أنهم علىٰ طريقهم ، وأفعالُهم تُكذِّبهم من قلَّة زهدهم وورعهم ، وعدم اشتغالهم بالله عز وجل ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني شيخُ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه دخل يوماً على الشيخ شهاب الدين يطلبُ الطريقَ إلى الله تعالىٰ ، فبكىٰ ، وقال : واللهِ يا ولدي ؛ إني إلى الآن لم يصحَّ لي كمالُ مقام الإسلام ، فكيف تطلبُ مني أن أُدخلك مقامَ الإحسان ؟! فإن بدايةَ الطريق من دخول حضرة الإحسان ، قال الشيخ نور الدين : فلما رأيتُهُ يبكي ، ويفحصُ في الأرض كففتُ عنه ، وخرجتُ من غير أَخذِ عهدٍ عليه .

قال : ودخلتُ عليه مرةً ، فقلت له : يا سيدي ؛ ادعُ لي ، فقال لنفسه : عشتي يا شقية إلىٰ زمان يُطلبُ من مثلِكِ فيه الدعاء ، وصارَ يوبِّخُ نفسه ، فخرجتُ ولم يدعُ لي شيئاً .

وأخبرني الشيخ سليمان الخُضَيْري فسحَ الله في أجله : أن الشيخ كان لا يأكلُ من خبز الأطفال الذين يقرؤون عنده شيئاً ، ولا يأخذ منهم خميساً[١] ، وإنما كان كلُّ من فضلَ منه شيءٌ من الخبز يضعُهُ في ركن الزاوية للضيوف والمحاويج ، وكان كلُّ مَنْ دخل عليه يقدِّمُ له كسيراتٍ منه بصعتر ، وتارةً يبلُّها بالماء ويُقدِّمها لذلك الضيف ، وكان النملُ يدخل فيها .

فدخل عليه أبو البقاء بن الجيعان ، وناظرُ الخواص ، فعزمَ عليهم أن يأكلوا من تلك الكسيرات ، فقالوا : نحن علىٰ كفاية ، ثم ركبوا ، فلحقَهم القولنجُ ، فنزلوا من علىٰ ظهور الخيل ، واضطجعوا على الأرض ، وصاروا يصيحون من الوجع ، فأرسلوا يطلبون خاطرَ الشيخ ، فقال : خذوا لهم الكِسَرَ التي تكبَّروا عليها ، وقل لهم : كلوا منها تشفوا ، فكان الأمرُ كذلك ، فمن ذلك اليوم كان كلُّ شيء قدَّمه الشيخُ لهم أكلوه .

ومن أَجلِّ من أخذ عنه : الشيخ أبو السعود الجارحي ، والشيخ سليمان الخُضَيْري ، والشيخ شرف الدين البوشي المدفون قريباً من جامع ابن طولون رضي الله عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٣٧٧) الشيخ محمد ابن أخت سيدي مدين رضي الله عنه[٢]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي مدين ، وهو الذي أحيا الطريقَ بعد سيدي مدين في مصر وقراها .

وكان كثيرَ المجاهدة ، وظهر صدقُهُ في تلامذته ، واشتَهر بابن عبد الدائم المديني ، وأخذ عنه خلائقُ من الغرب والشرق .

وكان ذا سمتٍ حسن ، ونظافة وترافة ، أقبل عليه أكابرُ مصر إقبالاً زائداً .

ولما اشتَهر وأخذ عنه الجماعةُ ، وفتحَ اللهُ عليهم علىٰ يديه طردَ الناس عنه

---

(١) **الخميس** : مبلغ يدفع إلى الشيخ كل يوم خميس لقاء تعليمه .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٣) (٣٣٩) .

بالقلب : مَنْ فُتح عليه ومَنْ لم يُفتح عليه ، حتىٰ صارَ كأنه لم يَعرفْ قطُّ أحداً منهم ، وترك اللباسَ الحسن ، والمآكلَ الفاخرة ، ورضي بالجبة والفروة الكباشي ، وصار يخدمُ نفسَه ، ويحمل طبقَ الخبز علىٰ رأسه ، ويشتري حوائجَهُ من السوق إلىٰ أن مات ودفن علىٰ باب تربة سيدي مدين بسوق الدريس خارج باب النصر ؛ عملاً بوصيته ؛ فإنه قال فيها : إن منعني جماعةُ سيدي مدين أني أدفن داخل التربة فادفنوني خارجَها على الباب .

وسببُ ذلك : أن الفقراء تعصَّبوا عليه لما مات سيدي مدين ، وأخرجوه من الزاوية لما أخذ الناس عنه الطريق ، وقالوا : ولدُ الشيخ أَوْلىٰ بالمشيخة ، فلم يمكِّنوه بعد ذلك أن يدخلَ الزاوية إلا زائراً كلَّ شهر مرةً ، وهـٰذا الأمرُ لم يزلْ في أولاد المشايخ وجماعته حميةً جاهلية .

ولما أخرجوه من زاوية سيدي مدين أقام في مدرسة أم خوند بخط بين السورين ، وكانت واقفتُها حيَّةً ، فركب جماعةُ ابن الشيخ مدين ، وراحوا إليها ، فقالوا لها : إنك ما بنيت هـٰذه المدرسة إلا طلباً للأجر ، وقد صارَ الناسُ كلُّهم يقولون : زاويةُ ابنِ أخت مدين ، وما بقي لك اسمٌ ولا أجر ، فركبت بخدمها ، وجاءت إليه ، وأخرجتْهُ من المدرسة ، وقالت : أنا ما عمرتها إلا طلباً للأجر ، فتريدُ أنت تأخذ أجري وتضيِّع تعبي ؟! فقال لها الشيخ : أنا إن شاء الله أُكثِّرُ لك الأجرَ ، فلم يرسخ عندها إلا كلامُ المتعصِّبين ، فأخرجته .

فنزل في المدرسة البقرية بباب النصر ، وبها مات ، وبها حصل الفتحُ لسيدي علي المرصفي ، والشيخ نور الدين الحسني ، والشيخ ابن أبي الحمائل ، والشيخ ياسين البلبيسي(١) ، وأبي علي ناظر الخواص ، وخليل ابن الشيخ بركات بسوق أمير الجيوش وغيرهم .

وأخبرني الشيخ شمس الدين الصعيدي المؤذن بمدرسة أم خوند : أن شخصاً جاء إلى الشيخ محمد ، وقال له : أنت رجلٌ فقير ، وعندك هـٰؤلاء الفقراء ، ولا بد لك من

---

(١) في (أ ، ز) : (يونس) بدل (ياسين) .

شيءٍ يقوم بهم ، وأنا أعرفُ صنعة الكيمياء ، وأريدُ أن أعلِّمَك ، فقال له : ادخل هـٰذه الخلوة ، واعمل لنا شيئاً ، ثم أطلعني عليه وبعد ذلك نتعلمه إن شاء الله تعالىٰ ، فلما دخلَ الخلوة وأطلقَ النارَ صعدَ الكبريتُ ، فأحرقَ لحيته وحواجبه ووجهه ، فخرجَ صارخاً ، وكأن الشيخُ ألقىٰ عليه شيئاً من الحال ، فقال له الشيخ : اذهبْ إلىٰ حال سبيلك ، فلا حاجةَ لنا في شيءٍ يحرقْ الحواجب واللحىٰ .

قال الشيخ شمس الدين الصعيدي : ولما دخلَ المغربيُّ الخلوةَ ، قال لنا الشيخُ : في هـٰذه الساعة يخرجُ لكم المغربيُّ محروقَ اللحية والوجه ، قال : وإنما لم يردُّهُ أولاً وصبر عليه ؛ إقامةً للحجة وإعلاماً له : بأن الفقراءَ كيمياؤهم الالتجاء إلى الله تعالىٰ في جميع أمورهم ، وكيف يرزقُ الخنازير والكفار ولا يرزق الموحدين ؟! والله أعلم .

ومنهم :

(٣٧٨) سيدي عليٌّ المحلي المقيم بثغر رشيد رضي الله عنه[1]

كان من عباد الله الصالحين ، سافر إلىٰ زيارته الفقراء من أقطار الأرض ؛ منهم : الشيخ حسين أبو علي ، والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ علي المحلاَّوي ، وابن داود ، وغيرهم .

وكان صاحبَ حالٍ غريب .

وأخبرني الشيخ أحمد الكعكي : أن الشيخ كان ربعةً في الرجال ، وله عِمامةُ صوفٍ كبيرة ، أكثرُها علىٰ أكتافه ، وهو مشدودُ الوسط علىٰ ثيابه ، ويرفعها إلى الركبتين .

وطلب منه شخصٌ أنه يسافر إلىٰ دمياط ، وقال : إن أهل دمياط كلَّهم يحبُّونك ، فقال : إن شاء الله نحضر إليهم هـٰذه الساعة ، فاستبعدَ السائل له ذهابَهُ من رشيد إلىٰ دمياط في ساعةٍ ، فقال له الشيخ : انزل بنا هـٰذه المركب ، فنزل هو وإياه ، فقال له : غمِّض عينيك ، فغمَّضهما ، ثم قال له : افتحْ عينيك ، ففتحهما ، فإذا هما بساحلِ دمياط ، فطلع الشيخ يمشي في شوارع دمياط ، فازدحم الخلائقُ عليه يقبِّلون يديه ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣١٦) (٣٤٠) .

فأنكر عليه ذلك قاضي المحكمة ، وقال : هـٰذا رجل عاميٌّ لا يُعرف له مذهب ، ثم نادىٰ : يا شيخ ؛ ما مذهبُك ؟ فقال له : حنشي ، فقال : انظروا صدقَ قولي ؛ فإنه لا يعرف اسم المذهب ، فقال له : قل : حنفي ، فقال : إنما أنا حنشي ، قال له : كيف ؟! قال : أنفخُ عليك تموت ، ثم نفخ على القاضي ، فنزعَ لحمَهُ من علىٰ عظمه ، فمات كالذي شرب رطلاً من السُّمِّ ، فزاد اعتقادُ أهل دمياط فيه .

ثم نزل في مركب بساحل دمياط ، وقال لمن معه : غمِّضْ عينيك ، ففعل ، ثم قال له : افتح عينيك فإذا هو برشيد ، فحكىٰ لأهلِ رشيد الخبر ، فمنهم المصدِّقُ ، ومنهم المكذِّب ، حتىٰ جاءَ الخبرُ بعد ذلك من أهل دمياط بصحة الواقعة .

وكان يخلطُ السمك القديد مع التمر والياسمين والورد والقثَّاء كوماً واحداً ، ويبيعه ، فلا يختلطُ طعمٌ بطعم ، ولا رائحة برائحة .

وكان إذا أتاه فقيرٌ أو تاجرٌ انكسرَ يسألُهُ في شيءٍ من الدنيا يقول له : اذهب فائتني بما تقدرُ عليه من الرصاص ، فإذا جاءَهُ به يأمره أن يذوِّبَهُ على النار في إناء ، ثم يُخرجُ شيئاً من تراب معه في عمامته ، ويقول : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، ويقول له : حرِّكْهُ بعود ، فيحرِّكُهُ ، فيصير ذهباً لوقته ، فيقول له : اذهب فأنفِق علىٰ نفسك ، وأوفِ دينَك ، ولا تسرف .

وكان إذا دخلَ على العلماء يقول[1] : [من الرجز]

يا معشرَ العُلماءِ يا مِلْحَ البلدْ ما يُصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسَدْ

وأرسل إليه مرةً سيدي حسين أبو علي السلامَ ، فقال القاصد : من يعطيني حقَّ طريقي ؟ قال : هو يُعطيكَ ، فلما بلَّغَهُ سلامَ سيدي حسين برشيد قال له : يا سيدي ؛ حقَّ طريقي ، فغرف له من البحرَ جواهرَ حتىٰ ملأَ قفَّتَهُ ، فقال القاصدُ : ليس لي ولا لشيخي حاجةٌ بهـٰذه الجواهر ، فقال له : صبَّها في البحر ، فصبَّها ، ثم قبضَ من الهواء شيئاً وأعطاه له ، فرضي الفقيرُ بذلك وقال : هـٰذا بركةٌ في رزقك ، فلما عرضَ القاصدُ أمرَ الجواهر علىٰ سيدي حسين ، قال له : أصبتَ في ردِّها زهداً فيها .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ وتسع مئة .

---

(١) تقدم تخريجه (٢/٣١٦) .

ومنهم :

(٣٧٩) الشيخ عثمان الحطَّاب رضي الله عنه[١]

أجلُّ أصحاب سيدي أبي بكر الدقدوسي رضي الله عنه .

كان رضي الله عنه من الزهاد المتقشفين .

وكان له فروةٌ يلبسها صيفاً وشتاءً ، وهو مشدودُ الوسط بمنطقة جلدٍ ، وكان لا يرفعُ بصرَهُ عن الأرض .

وكان أصلُه من الشطَّار ، وكان يلعب اللبخة ، فيغطسوا له عصىً من الشوم في الزيت الطيب سنةً كاملة ، ثم يأخذها ، ويخرجُ له عشرةٌ من عَوالِ المداقفين ، فيصير ماسكاً للعصا من وسطها ، والعشرةُ يضربونه ، وهو يلقىٰ ضربَهم بعصاه ، فلا يُصيبُه واحد منهم ، هٰكذا أخبرني شيخنا الشيخ محمدُ الطنيخي أحدُ أصحابه ، وكذلك أخبرني بهٰذه الحكاية أيضاً الشيخ نورُ الدين الشوني لما جاور عنده .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وكان رحيماً بالأيتام والأرامل والمساكين وأصحاب العاهات ، يأكلُ مع الأبرص والمجذوم اللبن وغيره .

قال : وقلتُ له يوماً : ما رأيتُ أرحمَ منك بالأيتام ! فقال : يا محمد ؛ لأني رُبِّيتُ يتيماً ، وذقتُ ذلَّ اليتم ومرارةَ كسر خاطره .

قال : وكنتَ لا تراه قطُّ فارغاً من العمل في مصالح نفسه ، ومصالحِ الفقراء المقيمين في زاويته ؛ إما يغربلُ لهم القمح ، وإما يُنقِّيه ، وإما يعجنه ويخبزه ، وإما يجمع لهم حوائجَ الطعام ، وإما يطبخ لهم ، لا يفتر عن ذلك يوماً واحداً ، ويقول : أحبُّ العباد إلى الله أنفعُهم لعباده .

وكان يسألُ للفقراء من الأغنياء الثيابَ والجببَ والقلانس والنعال ، ويعطيها لهم .

وكان عنده الآلاتُ التي يستعيرها الناس في خلوة ، فكلُّ من احتاج إلىٰ حاجة أخذها ، ثم يردُّها إذا قضىٰ حاجته منها .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٠٧) (٣٣٥) .

وكان عنده الملحُ ، والفلفل ، والبصل ، والثوم ، والبسلة ، والعدس ، والأرز ، والنعناع ، والحمص ، وغيرُها كلُّهُ للحسنة .

وكان إذا فرغ حطبُ الفقراء يخرج إلى البساتين ، فيحتطبُ لهم .

وكان يَخيط للفقراء ثيابَهم ونعالهم ، ويَعمُرُ لهم قباقيبهم ، ويَحمِي تحت الدست ، ويغسل ماعون الطعام والأواني ، ويحمل القفَّةَ إلى الطاحون .

وكان كلُّ من بارَ عنده شيءٌ من الخضر ؛ من اللفت أو الجزر أو الكرنب أو الرِّجلة[1] أو الملوخية يحفظُهُ للشيخ عثمان ليطبخَهُ للفقراء .

قال الشيخ محمد الطنيخي : وبلغ الفقراء والعميان والأرامل عنده نحو مئة نفس ، ولم يكن له وقفٌ ولا معلومٌ ظاهر ، وإنما كان على ما يفتح به الله عليه كلَّ يوم .

وكان إذا ضاقَ الحالُ عليه يطلع إلى السلطان قايتباي ، يسألُهُ للفقراء ، فيرسم له بالقمح والأرز والعدس وغير ذلك ، فقال له السلطان يوماً : أطلقْ هـٰؤلاء الفقراء الذين عندك إلى حالِ سبيلهم تسترح منهم ، فقال له : وأنت الآخر أطلق هـٰؤلاء الجند إلى حال سبيلهم تسترح من جوامكهم[2] ، فقال : هـٰؤلاء عسكرُ الإسلام ! فقال : وهـٰؤلاء عسكرُ القرآن الذي هو أصل أحكام الإسلام ! فقال السلطان : غلبتني يا شيخ عثمان .

قال الشيخ محمد الطنيخي : ولما أراد الشيخُ أن يوسِّع زاوية شيخه الشيخِ أبي بكر ، عارضه هناك ربعٌ فيه بنات الخطا ، وهو موضعُ الإيوان القبلي الآن ، فطلع الشيخ عثمان للسلطان قايتباي ، وقال : أعطنا الربع الذي بجوارنا فيه المعاصي نجعله مسجداً ، فرسم له بهدمه ، فشرع الفقراءُ في الهدم ، فكبَّرَ الناس الذين كان الربع في يدهم ، وأرشوا بعض القضاة ، فطلع للسلطان ، وقال : يا مولانا السلطان ، إن الربع لجماعة فقراء ، ولم يرضوا بعوض ، فرجع الشيخ عن الهدم ، فأتاهم شيخٌ من مدينة قليوب قد طعن في السنِّ ، وقال : قد أدركتُ مكان هـٰذا الربع ، وهو مسجدٌ ،

---

(١) **الرِّجلة** : بقلة ، وتسمى البقلة الحمقاء ؛ لأنها لا تنبت إلا في مسيلٍ .

(٢) **الجامكية** : رواتب شهرية لأصحاب الوظائف من الأوقاف .

وصلَّيت فيه الجمعة ، فأخذه الشيخ عثمان ، وطلعَ به إلى السلطان ، فقال : اهدموه علىٰ ذمتي ، فهدموه ، فوجدوا فيه محراب الجامع والعمودين الرخام بجانبه ، فنزل السلطان ، ورأى المحرابَ بعينيه ، وقال : الحمد لله الذي خلَّصَ ذمَّتَنا .

وطلب أنه يعمر للشيخ عثمان الزاوية من ماله ، فأبىٰ ، فقال : أكبُّ لك التراب ، فقال : لا ، نحن نسطحُهُ في الجامع ، فهـٰذا كان سببُ علوِّ الإيوان القبلي هـٰذا العلو العظيم ، وأما الزاوية السفلىٰ فهي زاوية شيخه أبي بكر رضي الله عنه .

وأخبرني الشيخ محمدُ الطنيخي : أن سيدي الشيخ أبا العباس الغمري لم يكن يقوم[1] في مصر لأحد من المشايخ غير الشيخ عثمان الحطاب ، كان إذا رآه داخلاً من باب جامعه يقوم له ، ويتلقاه ، ويُجلسه بجنبه .

قال : وكذلك كان سيدي إبراهيمُ المتبولي يفعلُ مع الشيخ عثمان ، وكان بينهما اتحادٌ عظيم ، وكانت أصحابُ هـٰذا كأنهم أصحابُ هـٰذا ، وكان كلٌّ من الشيخين يزور الآخر كلَّ قليل .

وسمع مرة شخصاً يقول وهو مارٌّ في البندقانيين قريباً من حارته : شي لله ، المدد يا شيخ عثمان ، فقال له : وما يُدريك أن عثمان هـٰذا حطبٌ من حطب جهنم ، قل : شي لله ، المدد يا أولياء الله .

وأخبرني الشيخ نور الدين الشوني قال : لما كنتُ مُجاوراً عند الشيخ عثمان خرجتُ إلى الميضأة في ليلة باردة أتوضأُ ، فإذا بشخص ملفوف في نخِّ حلفاء[2] ، قريباً من الميضأة ، فحرَّكتُهُ برجلي وقلت له : قم ؛ هـٰذا ما هو موضع رقاد ، قال لي : يا ولدي ؛ إن أمَّ أحمد أخرجتني ومنعتني النوم في البيت ، وقالت : ما أذنتُ لك أنك تنام علىٰ فرشي ، وخفت أن أنام في إيوان الزاوية فيخرج مني ريحٌ وأنا نائم ، قال الشيخ نور الدين : فاستغفرتُ الله من تحريكه برجلي .

---

(١) في النسخ غير (و) : (يقم) بدل (يقوم) ، والمثبت من (و) .

(٢) **النخُّ** : فارسي معرب ؛ وهو بساط طويل ، طوله أكثر من عرضه « تاج العروس » (ن خ خ) ، **والحلفاء** : نبت وقلما تنبت إلا قريباً من ماء أو بطن واد .

قال : وكانتْ والدته ترفع صوتها عليه وتضربُهُ علىٰ رأسه وأكتافه ، ويصبرُ عليها ، وكذلك كانت امرأةُ صاحبه الشيخ الحافظ عثمان الديمي ، كانت مُسلَّطةً عليه ، وكانتا صالحتين .

وكان كلٌّ من الشيخين يذهبُ إلىٰ بيت الآخر في غيبته ، ويجلسُ مع عياله ، فلا يسيءُ أحدُهما ظنه بالآخر ؛ لأن قلوبهما كانت مطهَّرةً من الدخائل ، فما مع أحدهما رذيلة يقيس صاحبه عليها[١] .

وقد جُرِّبَ إجابةُ الدعاء بين زاوية الشيخ عثمان الحطَّاب والشيخ عثمان الديمي التي هي المسجد المعلَّق تجاه الدرب المجاور لزاوية الشيخ عثمان الحطاب ، فيقرأ صاحبُ الحاجة الفاتحة سبع مرات ، ويُصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم عشر مرات ، ثم يقول : اللهم ؛ إني أسألُك بحقِّ هـٰذين الشيخين أن تقضي حاجتي .

وأخبرني شيخ الإسلام الطرابلسي ، وكذلك الشيخُ شرف الدين الشريف المالكي : أن كلاًّ من هـٰذين الشيخين كان يُنادي الآخر بيا عثمان فقط ، من غير لفظ سيادة أو شياخة .

وتقدَّم في ترجمة شيخه الشيخ أبي بكر الدقدوسي اجتماعَ سيدي عثمان بالقطب في مكة[٢] ، وأنه وصى الشيخ أبا بكر عليه ، والله تعالىٰ أعلم .

توفي رضي الله عنه بالقدس الشريف ، حين خرج يزور القدس ، وودَّعَ الفقراء بمصر ، وقال : (ما بقي لنا اجتماعٌ إلىٰ يوم القيامة) ، فبكىٰ جميعُ أصحابه .

وكان يفرشُ جلدَ بهائم الضحايا ؛ من بقرٍ وغنمٍ وجاموس في صحن الزاوية ، ويجلس عليه ، فدخل عليه مرةً أبو البقاء بن الجيعان ، فصار يقفزُ برجله ؛ خوفاً من التراب الذي على الجلد ، فرفع الشيخُ رأسه ، وكان ينقِّي في الطحين ، فقال : يا مبارك الحال ؛ تخافُ أن تتلوَّثَ رجلُك من تراب بيت الله عز وجل ، إن ترابَ المسجد شفاءٌ ، ثم قال له : تعالَ نقِّ مع الفقراء ، فجلس ينقِّي البخر والطين كآحاد الفقراء .

---

(١) في (أ ، ز) : (يفتش عليها) بدل (يقيس صاحبه عليها) ، وفي (ك) : (يفتش صاحبه عليها) .

(٢) انظر (٤/١٠٣) .

ولما وقع فصل قايتباي طلع للسلطان يطلبُ منه شيئاً من مضربات المماليك الذين ماتوا ، فأمر له بحاصل كامل ، فنقله الشيخُ علىٰ حمير ، وصار يُلبسُ منه العميان والأرامل والمساكين ، وألبسَ الفقراء طواقي الكندس[١] التي كان يلبسها المماليك ، فكانوا يكبُّون عليها الرماد والتراب رضي الله تعالىٰ عنه[٢] .

ومنهم :

(٣٨٠) سيدي عيسى بنُ نجم البُرُلُّسيُّ رضي الله عنه[٣]

خفيرُ بحر البُرُلُّس .

كان رضي الله عنه من أكابر الأولياء .

وسمعت سيدي علياً المرصفيَّ رحمه الله يقول : مكث سيدي عيسى بن نجم بوضوء واحدٍ [سبع عشرة] سنة[٤] ؛ وذلك أنه وضع جنبَهُ علىٰ سريره حين أذَّن بالعصر ، وقال للنقيب : لا تمكِّنْ أحداً يوقظني حتىٰ أستيقظَ بنفسي ، فمكث [سبع عشرة] سنة[٥] ، والناسُ ينظرون النفَسَ خارجاً وداخلاً كالنائم ، ثم إنه قام في ذلك الوقت الذي نام فيه ، فصلى العصر بذلك الوضوء الذي اضطجع به .

قال سيدي عليٌّ : ولما استيقظ رأوا عينيه كالدم الأحمر ، وكان في وسطه حين اضطجعَ منطقةٌ ، ولما استيقظَ وحلَّها تناثر من تحتها الدود ، فقلتُ لسيدي عليٍّ : ما هـٰذه الحالة ؟! فقال : حالةُ شهود حصل للشيخ ، وحالةُ الشهود تمضي على المشاهد ألفَ عام كلحظة . وإليه الإشارةُ بقول سيدي عمر[٦] : [من البسيط]

فعـامُ إقبـالِـهِ كـاليـومِ مـنْ قِصَـرٍ ويومُ إدبارِهِ في الطُّولِ كالحججِ

---

(١) الكندس : طائر يشبه العقعق .

(٢) وكذلك وقع في ترجمة (إبراهيم الرحبي) (٤/ ٢٧٠) ، حيث وقع الفصل في المماليك زمن السلطان قايتباي ، فرسم له بثيابهم ، فحملها علىٰ حمير ، وصار يلبسها للفقراء .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١١) (٣٣٧) .

(٤) في النسخ : (سبعة عشر) .

(٥) في النسخ : (سبعة عشر) .

(٦) ديوان ابن الفارض (ص ١٤٥)، وفيه : (أعوام) بدل (فعام) ، والحجج مفرد حجة : السنة .

وأخبرني سيدي عليٌّ الخوَّاص البُرُلُّسي رضي الله عنه : أن شخصاً من العرب نذرَ له أنه إن ولدتْ فرسُهُ حصاناً فهو لسيدي عيسىٰ ، فولدت حصاناً ، فلما كبر أعجبَهُ ، وقال : أيش لسيدي عيسىٰ حاجة بالحصان ؟! فبينما هو راكبٌ إذ مرَّ علىٰ زاوية سيدي عيسىٰ ، فرمح الحصانُ ، ودخل الضريحَ ، وصاحبُهُ ينظُر ، فلم يره بعد ذلك .

ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاد البُرُلُّس إلىٰ وقتنا هـٰذا رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨١) الشيخ محمد الخضري رضي الله عنه(١)

المدفون بكوم ناحية نسهنا بالغربية رضي الله عنه .

كان من الأبدال ، صلىٰ يوماً وخطب الجمعة في ثلاثين بلداً .

وكان من أصحاب جدي الشيخ عليٍّ الآتي ذكره آخر الباب(٢) .

وكان يتكلم بغرائب العلوم والمعارف إذا كان صاحياً ، فإذا استغرق يتكلم في حقِّ الأكابر من أهل السماوات وأهل الأرض بما لا يستطيع أحدٌ أن يسمعه .

وكان يُرىٰ في الليلة الواحدة نائماً في عدَّة بلاد ، وكلُّ بلد يقولون : إن الشيخ [محمداً] كان نائماً عندنا الليلة الماضية(٣) .

وكان ملبسُهُ كملابس القضاة ، ويمشي دائماً في قبقاب عال ، فربما تعرَّضَ له قطاع الطريق يريدون أن يَسلُبوه ثيابَهُ ، فيسمِّرُ أيديَهم في جنوبهم ، ويرجع إليهم ، فيصيرُ يضرب أحدَهم بالعصا حتىٰ يستغيثوا ، وبعضهم يقولُ : إنه عفريت .

وكان إذا غلبَ عليه الحال يضرب كلَّ من رآه علىٰ وجهه .

وكان السُّلطان قايتباي إذا رآه ذاهباً نحوه يقوم فيدخل المخدع ؛ خوفاً أن يلطمه علىٰ وجهه بحضرة الناس ، ولا يستطيع أحدٌ أن يمدَّ يده إليه ، بل تُسمَّرُ يداه .

وأخبرني الشيخ أبو الفضل فقيهُ سرس بالمنوفية قال : دخل الشيخ محمد الخضري

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٠) (٣٣٦) .

(٢) انظر (٤/ ١٣٥) .

(٣) في النسخ : (محمد) بدل (محمداً) .

لنا الجامع يومَ الجمعة وهو صاحٍ ، فقال الناسُ : ما يخطبُ لنا اليوم إلا الشيخ ، فطلع المنبر ، وأتىٰ بتحميد وتمجيد لله عز وجل حتىٰ كاد الخلقُ يندهشون ، فغلب عليه الحال عند الشهادتين ، فقال : أشهدُ أن لا إلـٰه لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ، فصاح الناسُ عليه : كفرتَ ، فنزلَ لهم بالسيف ، فهربوا كلُّهم ، فأغلق باب الجامع ، وجلسَ عند المنبر ، ونحن ننظره من شقوق باب الجامع إلى العصر[1] ، ثم جاء الخبر أنه خطب ذلك اليوم بنحو ثلاثين بلداً ، وصلىٰ بهم الجمعة ، فتعجَّب الناس من ذلك .

ونام مرة بعد الظهر حتىٰ سمع الناس كلهم غطيطه ، ثم قام يصلي بالناس ، فبعضهم سلَّم له الحال وصلىٰ ، وبعضهم أحرم ، ثم تردَّدَ : هل يخرجُ أم لا ؟ فترك المحراب ومشىٰ إلىٰ ذلك الذي تردَّدَ وصار يضربه علىٰ وجهه ، ويبصق عليه ويقول : أنت جَعَلوك بوَّابَ طيزي ؟! ثم أقام الصلاة ، وصلىٰ بنا أجمعين .

قال : وكان في بعض الأوقات يصلي بنا ركعة أو ركعتين ، ثم يخرج من الصلاة ويقول لهم : هاتوا لكم واحداً يكملُ لكم .

وكان يقول : (لا يكملُ الرجلُ عندنا حتىٰ يكونَ مقامُهُ تحت قوائم العرش على الدوام ، وتكونَ الأرضُ كلُّها بين يديه كالإناء الذي يأكلُ منه ، وأجسادُ الخلائق كالبلور يرىٰ ما في بواطنها) .

قال الشيخ أبو الفضل السرسي : وأخرجتُ له مرةً عسلاً في صحن ، فأراني الحوت الذي حامل الأرضين في العسل ، فرأيته بعيني ، ثم قال : احرس العسل حتىٰ أرجع ، فخرج من عندي وهو يجري ، فغاب نحو خمس عشرَ درجة[2] ، ثم جاء وقال : صلَّينا على المتبولي في أسدود ودفناه ، ثم أكل من العسل وخرجَ إلى الجامع .

وكراماته كثيرةٌ مشهورة في بلاده .

توفي سنة سبع وتسع مئة[3] ، وضريحه في كوم [نهيا] يُرىٰ من بُعدٍ[4] ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٢) في النسخ : (خمسة) بدل (خمس) ، والدرجة : تعادل ما يساوي أربع دقائق .

(٣) في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٣١١) : (توفي سنة « ٨٩٧ ») .

(٤) في النسخ : (نسهنا) بدل (نهيا) ، وانظر (٢/ ٣١٠) الحاشية (٣) .

ومنهم :

(٣٨٢) الشيخ الفرغل بن أحمد رضي الله تعالىٰ عنه[١]

المدفون بناحية أبي تيج بالصعيد .

كان رضي الله عنه من أكابر الرجال المتمكنين من أصحاب التصريف ، وكان يشفع عند الملك الأشرف بَرْسْباي ، فلا يردُّ شفاعتَهُ .

وكان إذا طلع للسلطان يقول له : أنت مشد هٰذا البلد ؟[٢] فيقول له السلطان : نعم .

وقال له أولَ طلوعه : كنتُ أحسبُكَ أنك ذَهَبٌ ، وما كنتُ أعرفُ أنك مثلُنا ، فتبسم السلطان .

وأخبرني ولدُ نقيبه مخيمر ـ وكان اسمه الشيخ علي ـ : أن والده أخبر أن امرأة جاءت إلى الشيخ وهي حُبلىٰ ، وقالت : اشتهتْ نفسي جوزة من جوز الهند ، وما وجدنا عند أحد شيئاً ، فقال للنقيب : ادخل هٰذه الخلوة واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التي في الخلوة ، فدخل فقطع لها خمس جوزات ، ثم نظر فلم يرَ هناك شجرةً .

ودخل مرةً مصرَ في شفاعة لأولاد ابن عمر حين عصوا أمر السلطان ، فقال للسلطان : يا مولانا السلطان ؛ أطلق ابن عمر ، وأرسله إلىٰ بلاد الكرك ، وكان السلطان لا يُرسل لها إلا من نفاه ، فقال السلطان : باسم الله يا سيدي الشيخ ، فتشوش جماعةُ ابن عمر وقالوا للشيخ : إنما جئنا بك لتشفع فيه يردُّه بلادَهُ ، فقال : وقد أرسلتُه بلادَهُ التي فيها ترابُهُ ، فسافروا به إلى الكرك ، فمات يومَ الدخول ، فدُفن بالكرك .

ومرَّ عليه شيخ الإسلام ابنُ حجر تحت الرميلة والخلق يُقبِّلون يديه ورجليه ، فأنكر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٠٣) (٣٣٣) .

(٢) **المشدُّ** : مسؤول مكلف بأداء مهمة كبيرة في الإدارة ، أو العمارة ، أو نحوهما . « النجوم الزاهرة » (٩/ ١٢٠) .

ذلك عليهم ، وقال : « مَا اتخذَ اللهُ من وليٍّ جاهلٍ ، ولوِ اتَّخذَهُ لعلَّمَهُ »[1] ، وهٰذا رجلٌ جاهل بالشريعة ، فقال له : قف يا قاضي ، فتسمَّرتْ به البغلةُ ، فصار يضربُهُ علىٰ وجهه ويقول : بلِ اتَّخذني ، وعلَّمني ، ثم أطلقه ، فعزله السلطان في ذلك اليوم بإنكاره على الشيخ ، فجاء إلى الشيخِ حافياً ، فقال : ولَّيتُكَ ، فذهب إلىٰ بيته ، فوجد السلطانَ قد أرسل له الخلعةَ بالقضاء ، فرجع يشكر فضلَ الشيخ ، فقال له الشيخ : لولا حصل فيك شفاعةٌ من سيدي محمد الحنفي لدفعتُكَ خلف جبل قاف ، ونفيتُكَ من هٰذه الأرض ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٨] وأنا مما لا تعلمُ أنت ولا أمثالك .

وأخبرني الشيخ عليٌّ ولدُ النقيب : أن والده أخبره أن بعض الرهبان دخل على الشيخ وقال له : إنَّ نفسي قد اشتهت بِطِّيخاً أصفر ، ولم يكنْ يومئذ بأرض مصر بِطِّيخ ، فدخل الشيخ الخلوة ، وأخرج له بِطِّيخةً ، وقال : وعزَّةِ ربي ؛ ما وجدتُها إلا خلف جبل قاف .

وأخبرني أيضاً : أن التمساح خطف عمَّتَهُ وهي تملأ من البحر ، فجاء إليه والدي وقال : إن التمساح قد خطف أختي ، فقال : امشِ بالعجل نادِ في الموردة : معاشرَ التماسيح ، حسب ما رسم الفرغلُ بن أحمد : أن كلَّ من خطف أختي يأتي بها ، قال : فطلع تمساحٌ أبرص كالمركب الصغير ، ومشىٰ ، والرجالُ والنساء والبنات ينظرون ، حتىٰ وقف علىٰ باب زاوية الشيخ ، فأرسل الشيخ خلف الحداد وقال : اقلع لي أنيابَهُ ، فقلعها والتمساحُ واقفٌ يبكي ويجعر كالثور ، ثم ألقاها حيَّةً علىٰ باب الزاوية ، لم ينصدعْ منها شيءٌ ، ثم ذبح له الشيخُ شاةً وأطعمها له وقال : استوص بالمحبِّين من اليوم ، فرجع التمساحُ[2] والناسُ حوله حتىٰ نزل البحر .

وكان إذا جاءه تاجرٌ مكسور يطلبُ شيئاً من الدنيا يقول له : اذهب إلى الساقية

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفا » (٢١٨٥) : (قال في المقاصد : لم أقف عليه مرفوعاً ، وقال الحافظ ابن حجر : ليست بثابت ، ولـٰكن معناه صحيح) ، وتقدم تخريجه (٢/٣٠٣) .

(٢) ترددت النسخ بين (فرجع) وبين (فرد) .

الفلانية ، فنادِ في البئر : يقولُ لك الفرغل املئي قادُوساً ذهباً[١] ، فيطلع له القادوسُ ملآناً ذهباً .

وكان كلَّ قليل يقول : طلعتُ إلى العرش ، ووقفت بين يدي الله تعالىٰ ، وقال لي : كذا وكذا في اليقظة ، فقال له شخصٌ من القضاة : اخرس يا كلب ، فقال : اخرس أنت ، فخرس القاضي وعمي وأُقعد حتىٰ مات .

وكان الشيخُ زَمِناً ، وكانوا يغيِّرون له كلَّ يوم والثاني نعلاً جديداً ، ويجدون فيه حصىَ بلاد بعيدة ، وكان يتكلم علىٰ ما يقع في سائر أقاليم الأرض .

وسمعتُ سيدي محمد بنَ عنان يقول : خرجتُ لزيارته من بلاد الشرقية ، فأَعلمَ أصحابَهُ بي حين خرجت ، وصار يقول : فلانٌ وصل إلىٰ بلد كذا ، حتىٰ قال : قد وصل إلىٰ باب الزاوية .

وكانت له نصرانيةٌ تعتقده في بلاد الروم ، فنذرت : إنْ شفى الله ولدها أن تعمل للفرغل بساطاً كبيراً ، فكان يقول : ها هم غزلوا صوف البساط ، ها هم دوَّروه على المواسير ، ها هم شرعوا في نسجه ، ها هم أرسلوه ، ها هم نزلوا المراكب ، هاهم وصلوا إلى المحل الفلاني ، إلىٰ أن قال : ها هم علىٰ باب الزاوية ، قم يا مُخيمر خذِ البساطَ من الرجل ، وأدخله أطعمْه ، وأعطه حقَّ طريقه ، وأمرْه أن يرجع إلى النصرانية في هٰذه الساعة ، فقال له النقيب : غمِّض عينيك ، ومشىٰ به خطوات وقال له : افتح عينيك ، فإذا هو ببلاد الروم ، فأخبر النصرانية الخبرَ ، فزادت في اعتقاده .

وكان في بداية أمره يحرسُ الجرون في بني صميع[٢] ، فأخذ يوماً فريكاً أخضر ، وطلع به فوق جرن القمح يحرقه ، فصاح به الناس ، فقال : إن النار لا تحرق إلا فريكي ، فحرقه فوق الجُرْن ولم تحرقِ النارُ غيرَ فريكه .

وقال مرةً لرجلٍ : زوِّجني ابنتك ، فقال له : ليس معك مهرُها ، فقال له : كم

---

(١) **القادوسُ** : وعاء خزفي كالجرة ، تنتظم منه ومن أمثاله سلسلةٌ تديرها الناعورة ، فتغرف الماء من البئر إلى المزرعة . « المعجم الوسيط » (ق د س) .

(٢) **الجرن** : الموضع الذي يداس فيه البُرُّ ونحوه ، وتجفف فيه الثمار .

مهرُها ؟ فقال : أربع مئة دينار ، فقال له : اذهب إلى الساقية الفلانية وقل لها : املئي للفرغل قادُوسين ذهباً وفضة ، فملأت له قادوسين ؛ أحدُهما [ذهب][1] والآخر فضة ، فقال له : توسَّعْ بهما ، ولم يزلِ الرجل وذريَّتُهُ مستورين إلىٰ وقتنا هـٰذا .

وجاءه شخصٌ اسمه ابن الزرازيري ، فقال : يا سيدي ؛ أنا رجلٌ فقير ، فقال له : قد ولَّيتك من الخلصة للملصة ، فولاه السلطانُ كاشفاً في أربع أقاليم الصعيد .

قال النقيب مخيمر : وأرسلني الشيخ مرةً يشفعُ عند أمير في شخص ، فقال الأمير : قل للشيخ أنت زوكاري[2] ، ما لَكَ بالأمراء شغل ، فنقر الشيخُ بإصبعه في الأرض كهيئة الذي يحفر ، فجاء الخبرُ : أن السلطان غضب علىٰ ذلك الأمير ، وأمر بهدم داره ، فهي خرابٌ إلى الآن في نواحي جامع ابن طولون ، ثم إنه ضرب عنقَهُ بعد ذلك ، فقالوا للسلطان : ما سببُ هـٰذا الأمر ؟! فقال : لا أعلم له سبباً ، إلا أن الله حرَّكني لما وقع ، فجاء الخبرُ إلى السلطان بما فعل مع الفرغل ، فقال السلطان : شي لله يا فرغل .

وقرأ مرةً عنده فقيهٌ ، فأسقط بعضَ آيات ، فقال له الشيخ : إنك نطَّيتَ بعضَ آيات ، فقال له يا سيدي ؛ من أعلمَكَ بهـٰذا وأنت لا تحفظُ القرآن ؟! فقال : كنتُ أرىٰ نوراً مُتَّصلاً وأنت تقرأُ ، فانقطع النورُ ، فعلمتُ أنك نطَّيت .

وكان يقول : (إن الله تعالىٰ جعلني من المتصرِّفين في قبورهم ، فمن كان له حاجةٌ فليأتِ إلىٰ قبالة وجهي ، ويذكرها لي أقضِها له) .

ووقائعه رضي الله عنه كثيرةٌ مشهورة ؛ من رؤيته في بلاد الفرنج ، وذهابه إلى الهند والسند والعراق ، وجبل قاف ، وغير ذلك .

توفي سنة ستين وثمان مئة ، ودفن ببلده أبو تيج رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في النسخ : (ذهباً) .

(٢) **الزوكرة** : لفظ يستعمله المغاربة ؛ ومعناه عندهم : المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة ويبطن الفسق والفساد . « نفح الطيب » (٦/ ١٢) .

ومنهم :

(٣٨٣) الشيخ إبراهيم بن عبد ربه رضي الله عنه[١]

المدفون علىٰ باب جامع سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه ، كان من أرباب الأحوال .

دخل مرةً بيت سيدي مَدْين في مولده الكبير ، فأكل طعام المولد كلَّه ، وما عَشوا الناسَ إلا من السوق .

وكان يأكل في بعض السنين لحمَ بقرة كاملة ، ويطوي بعدها عن الأكل سنةً .

وكان الشيخ أمينُ الدين شيخُنا من المتردِّدين إليه ، فقال له يوماً : يا سيدي ؛ إن عشنا بعدَك فمن نسأله في حوائجنا ومهماتنا ؟ فقال : يا أخي ؛ مَنْ كان بينه وبين أخيه ذراع من تراب فهو يسمعُ كلامه ، فاسألني عن جميع حوائجك .

قال الشيخ أمين الدين : فمرضَتْ ابنتي رحمةُ حتىٰ أشرفَتْ على الموت ، فوصفوا لها البِطِّيخ الصيفي ، وكان عزيزاً تلك السنة ، قال : فمضيتُ إليه بين المغرب والعشاء ، وقلت له : يا سيدي ؛ محتاجين إلىٰ بِطيخة صيفي ، وذكرتُ له الوعد الذي كان وَعَدَنا به ورجعت ، فوجدتُ في سلَّم البيت بعد صلاة العشاء بطيخةً عظيمة ، لم نعرف أحداً أتىٰ بها ، فعلمتُ أنه ما أتىٰ بها إلا الشيخ إبراهيم . انتهىٰ .

ورأيت في المنام مرةً نعشاً علىٰ باب جامع الزاهد ، أرادوا أن يجعلوا عليه ميتاً ، فقال الناس : هـٰذا الميتُ لا يحمله إلا مركبٌ ، فجاؤوا بمركب يسحبونها حتىٰ وصلتْ إلىٰ باب الجامع ، فوضعوا الميتَ فيها ، فاستيقظت ، فأخبرت بذلك الشيخ أمين الدين ، وكان أستاذاً في تعبير المنامات ، فقال لي : منامُك صحيحٌ ؛ فإن زينَ الدين الإستادار طلب أن يأخذ سيدي إبراهيم يدفنه في تربته ، فعجز الناس أن يحرِّكوا

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١/ ١٨٧) (إبراهيم الرملي نسبة لرملة أتريب من الشرقية) ، و« شذرات الذهب » (٩/ ٤٨٣) (وفيات ٨٧٨هـ) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٣٧) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٤٣) .

النعش ، فلم يقدروا ، فصلُّوا عليه قبالةَ الجامع ، ودفنوه في خد الجامع في المكان الذي هو فيه الآن ، وكان يقول : هـٰذا قبري قبل ذلك .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

ومنهم :

(٣٨٤) سيدي محمد بنُ صالح رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان من أجلِّ أصحاب سيدي محمد الغَمْري ، وكان مجذوباً[٢] .

أخبرني الشيخ محمد الطنيخي رضي الله عنه : بأنه كان من شأنه أن كل من رأىٰ وجهَهُ وحواجبه ضحكَ قهراً عليه حتىٰ ولو كان مات له ميت .

وكان يحمل حملات الناس ، ويقوم بها .

وشاورته عن سفرِ الحج ، فقال لي : إنْ سافرتَ غرقتَ ، فقلت له : يا سيدي ؛ كيف تُغرقني وأنا محبُّك ؟! فقال : تطلع علىٰ حمل دقيق للبر ، وتكونُ سنتُكَ أبرَكَ السنين ، فكان الأمر كما قال ، فغرقت ، وحنَّنَ الله تعالىٰ عليَّ تجارَ مكة ، فكسوني ، وقاموا بي سنة ، وأعطوني هدية أكثر مما غرق مني في البحر .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغَمْري : أن سيدي أبا العباس لمَّا عمَّرَ جامعَهُ بسوق أمير الجيوش حكمتْ تربيعةُ الجامع من الجانب الشرقي علىٰ بيت امرأة عجوز ، فبذل لها سيدي أبو العباس مالاً جزيلاً أضعاف ثمنه ، ولم ترضَ ، فجاء سيدي محمد بن صالح ، فغمزَ سيدي أبو العباس النقيبَ أن يدخلَ سيدي محمد الخلوةَ ، ولا يفتح له ليلةً كاملة ، فأغلق الباب عليه من المغرب ، فبينما الشيخ يصلي الصبح ، وإذا بالمرأة أتت بمكاتيب بيتها للشيخ ، وقالت : اشهدوا عليَّ أني خرجتُ عنه لله تعالىٰ يعمل في المسجد ، فأمر الشيخ بإخراج سيدي محمد ، وأعطاه نصفَ فضة .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٧/٢٦٩) ، و« وجيز الكلام » (٢/٨٣٦) ، و« طبقات المناوي » (٣/٢٥٧ ، ٤/٥٣٣) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات.

وجاء ابنُ عُلَيْبَة مرةً إلىٰ سيدي أبي العباس الغمري يُحمِّله حملةَ مراكبه في بحر الهند ، فقال : هـٰذه ما هي لي ؛ وإنما هي لمحمد بن صالح ، فجاء سيدي محمد ، فقال له : احملْ حملةَ مراكب الخواجا ، فقال : بشرط أن يأتيني في هـٰذا الوقت بثلاثة أنطاع جدد ، فقال : يا شيخ محمد ؛ ما عندي سوىٰ نِطعين ، فقال : اشترِ لي نطعاً ، فقال له : يا شيخ محمد ؛ أنت طماع ، فجاء الخبرُ أنّ الثلاثَ مراكب غرقتْ ، وأن طيراً أتاهم بنطعين ، فسدَّ الماء من مركبين ، وغرقت الثالثة أصلاً ، فندم ابنُ عُلَيْبَة الذي لم يكن اشترىٰ له نِطعاً ثالثاً .

ووقائعه كثيرة مشهورة .

مات في سنة نيّف وثمانين وثمان مئة ، ودفن بتربة حمص أخضر[١] بجوار تربة جامع الأزهر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٥) الشيخ عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر رضي الله عنه[٢]

من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد الزاهد رضي الله عنه ، كانت مجاهداته فوق الحدِّ .

ورأيت بعيني الحبل الذي كان في سقف خلوته ، يضعُهُ في عنقه في الليل والنهار حتىٰ لا يضع جنبه إلى الأرض ، وكانت خلوته فوق بيوت الخلاء بميضأة جامع الزاهد .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمامُ بجامع الغمري : أن سبب اجتماعه بسيدي أحمد الزاهد أنه كان من جيرانه الأبعدين ، فخطر له يوماً أنه يرسل إلىٰ بيت سيدي أحمد

---

(١) **حمص أخضر** : هو الأمير : سيف الدين طشتمر حمص أخضر الساقي الناصري ، نائب حلب وصفد ومصر ، قتل سنة (٧٤٣هـ) ، سمي حمص أخضر ؛ لأنه لما كان بالسجن كان يأكله كثيراً .

(٢) انظر « الضوء اللامع » (٤/٦١) ، و« طبقات المناوي » (٣/١٩٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٦١) .

الزاهد خروفاً وملوخياً أول طلوعها ، فأرسل ذلك ، وكان سيدي أحمد الزاهد لا يدخل البيت لعياله إلا بعد صلاة الجمعة ، فيمكثُ عندهم إلىٰ صلاة العصر ، وما عدا يومَ الجمعة فهو مقيمٌ بالمسجد ، فدخل الشيخ ، فرأى الأولاد يضحكون ، وهم فرحانين ، فقال : ما هـٰذا ؟ فقالوا : شخص اسمه عبد الرحمـٰن بن بَكْتَمُر أرسل لنا خروفاً وملوخية ، فدعا له أن يكون من جملة أصحابه ، فما مضىٰ يومُ الجمعة حتىٰ جاءه بهمَّةٍ كأمثال الجبال ، يطلبُ الطريقَ ، فلقَّنه الذِّكْر ، وأشغله بالتوحيد ، ففتح الله تعالىٰ عليه ، وصار ينظر في الألواح السماوية .

ومن جملة ما رأى : اسمَ سيدي أحمد الزاهد في الأشقياء ، فتكدَّر لذلك ، وبكىٰ علىٰ شيخه ، فقال له سيدي أحمد : يا ولدي ؛ أنا لي ثلاثين سنة وأنا أنظر ذلك ما تغيَّرتُ ، ثم قال لسيدي عبد الرحمـٰن : انظر اسمي الآن ، فنظره ، فرآه في السعداء ، فشكر الله علىٰ ذلك .

قال : ولما حضرتْ سيدي أحمدَ الوفاةُ جمعني أنا وسيدي مدين ، وسيدي محمد الغَمْري وقال : أريدُ أَقسمُ بينكم ميراثي قبل موتي ؛ خوفاً عليكم من تنازع الإخوان بعدي فيكم ، فقلنا : نِعْمَ ما تفعل يا سيدي ، فقال : يا مَدْين أنت مددُكَ لأصحابك ، ما لذريتك منه شيء ، ويا محمد يا واسطي ؛ مددُكَ لذريتك ، ما لأصحابك منه شيء ، ويا عبد الرحمـٰن ؛ مددُكَ لنفسك ما لذرِّيتك ولا لأصحابك منه شيء . انتهىٰ .

وصدق الشيخُ في كل ما قال ؛ فإني رأيتُ أولاد سيدي عبد الرحمـٰن صنايعية يعملون المكاكيك والمواسير للحياكين في حارة الميدان ، لم يشتهر عنهم شيء من أحوال الفقراء ، وأما ذريةُ الغَمْري : ففيهم البركةُ والمددُ والصلاحُ ، وأما ذريةُ سيدي مدين فكذلك .

وأقام سيدي عبد الرحمـٰن بعد سيدي أحمد في الجامع يتعبَّدُ إلىٰ أن مات ، ودُفِنَ عليه تجاه ميضأة الجامع ، وبنوا عليه زاوية وضريحاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٨٦) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي شهاب الدين رضي الله عنه جدُّ والدي الأدنىٰ[١]

كان أمياً ، لا يكتبُ ولا يقرأ ، وكان يستدلُّ بالآيات والأحاديث في الوقائع ، فيتعجبُ الناسُ منه .

وكان إذا خرج لحصاد زرعه يأخذُ معه إبريقاً للوضوء ، فتغافله جماعةٌ من العيَّاق ، وشربوا الإبريق كلَّهُ ، وكفؤه على الأرض[٢] ، وصاروا يراقبونه إذا جاء يتوضأ ، وإذا به قد طلب الإبريق ، فوجده ملآناً ، فتوضأ ، فجاؤوا واستغفروا ، وصار يقول لهم : لو شربتموه كلَّهُ لم نجد فيه ماءً ، فكانوا يحلفون له أنهم لم يتركوا فيه شيئاً ، فمن ذلك اليوم تأدَّبوا معه .

ولما حضرته الوفاةُ كان ولدُهُ عليٌّ ـ الآتي ذكره عقبه ـ حملاً ، فقال لمن حضره : قد جعلتُ اللهَ وليَّ ولدي ، فكان الناس يقولون : جميع ما كان فيه الشيخ عليٌّ من بركةِ وصية والده ربَّهُ عليه ، وكفىٰ بالله وليّاً .

توفي سنة ثمانٍ وعشرين وثمان مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٨٧) الشيخ علي الشعراني جدي الأدنىٰ رضي الله عنه[٣]

كان من رفقة شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شارح « البهجة » في الاشتغال بالعلم في الجامع الأزهر حال الشباب .

وكان من المدقِّقين في الورع ، حفظ القرآن العظيم و« المنهاج » و« الشاطبية »

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (٤/ ٣٤٥) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٤٣) .

(٢) كفأ الإناء : قلبه .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣١٧) (٣٤١) .

و« جمع الجوامع » و« الألفية » و« الملحة » و« الآجرُّومية »[1] و« أبي شجاع »[2] وهو دون البلوغ ، وشرحها علىٰ أشياخ جامع الأزهر ، وأجازوه بالفُتيا وهو ابن عشرين سنة .

وكان لا يأكل لجامع الأزهر خبزاً ، ولا يشرب له ماءً ، إنما كانت والدتُهُ تُرسل له بعضَ كعك تعمله له في الريف ، وترسله له ، وكان يملأ جرَّتَهُ كلَّ يوم والثاني من ساحل بولاق .

وكان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، ويقومُ كلَّ ليلة يتهجَّدُ بنصف القرآن صيفاً وشتاءً ، حتىٰ بعد موته ، فسمعه بعضُ أهل الكشف وجيرانُ قبره يقرأ من سورة مريم إلىٰ آخر القرآن بصوت حزين بخشوع ، ولا يرون شخصَهُ .

وكان يقول : (مبنىٰ طريق أهل الله عز وجل على الجوع ، والأكل من الحلال) .

وكان إذا طحن في طاحون يقلب الحجر ، ويُخرج من تحته دقيقَ الناس يضعه في إناء في الطاحون ، ثم يطحنُ قمحَه ، ويُبقي للناس من طحينه بقيةً .

ولم يأكل من فراخ الحمام الذي في أبراج الريف إلىٰ أن مات ، ويقول : (إنهم يأكلوا من حَبِّ الناس أيامَ البذر ، وإذا بدا صلاحُهُ في الغيط ، وإذا وضعوه في الجُرْن ، ولو كان الناسُ يسمحون بأكله ما عملوا له أشياء تجفله ، ولا أكروا له ناطوراً) .

وكان والدي رضي الله عنه يأتيه بفتوى الشيخ جلال الدين المَحلِّي ، والشيخ يحيى المناوي وأضرابهما بإباحة ذلك ، فيقول : يا ولدي ؛ هٰؤلاء يفتون بالرُّخص توسعةً علىٰ أهل الضرورات ، وأما نحن فليس لنا ضرورة إلىٰ أكل مثل ذلك .

ثم تورَّع بعد ذلك عن أكل عسل النحل حين سمع بعضَ أهل برشوم التين يقولون :

---

(١) الآجرُّومية : لمحمد بن محمد الصنهاجي ، المعروف بابن آجرُّوم ، ومعناه بلغة البربر : الفقير الصوفي (٦٨٢ـ٧٢٣هـ) ، وهي مقدمة في النحو ، نافعة للمبتدئين . لها عدة شروح . « كشف الظنون » (٢/ ١٧٩٧) .

(٢) مختصر أبي شجاع في فروع الشافعية ، مشهور ألفه أحمد بن الحسن بن أحمد الأصبهاني العباداني المتوفىٰ سنة (٥٠٠هـ) .

إن نحلَ ساقية أبي شعرة يُعدِّي البحر ، ويأكلُ زهر فواكهنا ، وأتاه والدي بفتوى الشيخ يحيى المُناوي بإباحة ذلك ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل : ٦٩] وهو المالكُ الحقيقي ، فلما رآها جدي رحمه الله قال : إن الحق تعالىٰ قد حرَّم علينا أن نأكل مالَ غيرنا بغير حقٍّ ، فالآيةُ كالإطلاق في محلِّ التفصيل ؛ لأنه يحتمل أن يكون المرادُ : (كلي من كلِّ الثمرات المباحة دون المملوكة) فسكت والدي .

ثم إن والدي رأىٰ عبدَ العزيز الدِّيريني في المنام ، وقال له : سلِّمْ لوالدك ؛ فإنه في وادٍ والناسُ في واد ، فمن ذلك اليوم سلَّمَ له والدي ، وعلم أن كلَّ لبنٍ أو عسل تولَّدَ من غذاءٍ حرامٍ ، فهو حرام .

وكان رضي الله عنه يُقرئ الأطفال احتساباً لوجه الله تعالىٰ ، لا يذوق لهم ولا لأهلهم طعاماً ، ولا يقبلُ لهم هديةً ، وكان عنده نحو مئةُ طفل يقرؤون .

وكان يجتمع عنده كلَّ يوم من خبزهم نحو إردبِّ خبزٍ ، فكان يُرسله إلى المساكين والأرامل الذين في البلد ، وتارةً يُرسله إلى المراكب التي يمرُسُ عليها الريح علىٰ ساحل البلد .

ووقع مرةً غلاءٌ ، فباع قمحَهُ للناس ، وصار يجوع مثل الناس ، وصار بعضُ الأطفال يعطيه خبزه ، فلا يقبله ، ويقول : تمامُ الورع إنما هو عند الضرورة دون أيام الرخاء .

وكان لا يأكل قط طعامَ فلاح ، ولا شيخ بلد ، ولا مُباشر بلد ، ولا أحد من أعوان الظلمة من منذ وعىٰ علىٰ نفسه .

وعزم عليه مرةً قبانيٌّ في ساحل بولاق[1] ، فلم يأكل له طعاماً ، فقال له : يا سيدي ؛ هـٰذا من كسبي الحلال ؛ فإني لا أَزنُ إلا حقّاً إن شاء الله تعالىٰ ، فقال : لا آكل لأحد يمسكُ الميزان طعاماً ؛ لعدم تحريرها في الغالب ، وعدمِ تفقُّدها بالمسح من الغبار .

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا مرةً : أنه كان له صاحبٌ من بلدنا اسمه الشيخ علي بن

---

(١) **القباني** : من يزن بالقبان .

شهاب ، فقلتُ له : هو جدي ، ففرح بي ذلك اليوم فرحاً شديداً .

وسألني في المطالعة له لمَّا كُفَّ بصره ، فطالعتُ له عشر سنين ، وكنتُ أتغدَّىٰ معه كلَّ يوم ويقول : أنت من أولاد أخي الصالح .

قال : وكنا نتغافلُهُ بالليل ، ونشربُ من جرَّته التي يملؤها علىٰ كتفه من بولاق ، نبغي بذلك البركة ، فيجيء إليها فيجدها فارغةً ، فيتبسم .

قال : وكان أهل الجامع يضربون به المثلَ في شدَّة الاجتهاد ، وإذا رأوا شاباً عنده اجتهاد قالوا : هـٰذا يريد يعمل مثل علي الشعراوي ؛ وذلك أنهم كانوا لا يجدونَهُ قطُّ في ليل أو نهار فارغاً .

وكان نومه خفقاتٍ يخفِقُها وهو جالس مدَّة إقامته في الجامع الخمس سنين .

وفرغ كعكه الذي كانت والدتُهُ ترسله له ، فلم يأكل في مصرَ خبزاً ، وسافر إلىٰ والدته ، فتغدَّىٰ عندها بعد أن طوىٰ يومين .

وكان يقول : (طعامُ مصرَ سمٌّ في الأبدان ، ما أكله أحدٌ وأفلح في طريق الله عز وجل) .

وأخبرني سيدي خضر الذي كفلني يتيماً قال : كان جدُّكَ إذا جاء مصر في حاجة بعد أن أقام بزاويته في الريف يأتي بجِرابه فيه الخبزُ ومعه إبريقٌ يملؤه من بحر أبي المنجا ، فيشرب منه مدةَ إقامته في مصر .

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا رحمه الله : أن سببَ خروجه من مصر إلى الريف أن والدته جاءَتْهُ بزاده من الكعك ، فنزلتْ عند جماعة من بلاده ، فأخذتْ قميصَهُ تغسله له ، فرأت فيه شيئاً يُشبه المنيَّ ، فقالتْ له : يا علي ؛ إنْ كنتَ في طاعتي سافرْ معي في هـٰذه المرة أزوِّجْك ؛ فإني أخافُ عليك من النظر ، قال : وكان بارّاً بوالدته ، فسافر معها ، وتزوج ، وكان يقول : قطعتني والدتي وأنا أخضر قبل أن أدرك مبلغَ الرجال .

وكان خلقٌ كثير يقرؤون عليه في القراءات السبع ، والأصول ، والفقه ، وغير ذلك ، فسألوا والدته أن تُقيم عندهم حتىٰ يفرغوا من قراءة هـٰذه العلوم عليه ، فأبت .

وأخبرني الشيخ زكريا رحمه الله : أن والد جدي هـٰذا توفي وجدي صغير[١] ، فما رباه إلا والدته ، قال : وكانت امرأةً طويلة ، لها قوةُ الرجال ، تحمل الإردبَّ القمح وحدها ، فتضعه علىٰ ظهر الحمارة .

وأخبرني أيضاً : أن جدي لمَّا توفي والده كانت والدته تغزل وتكسيه وتطعمه ، فقال : يا أمي ؛ أكريني أرعى البهائم ، فأكرته ، فصار يرعىٰ بالكراء ، ويكتبُ لوحَهُ في البلد ، ويأخذه معه الغيط ، فيحفظه ، ويكتب غيره حتىٰ حفظ القرآن كلَّهُ ، و« أبا شجاع » و« الآجرُّومية » ، فمرَّ عليه شخصٌ من أرباب الأحوال ، فقال له : يا ولدي ؛ شاور والدتك ، وسافر لجامع الأزهر ، فاشتغل بالعلم علىٰ أهل العلم ، فأجابَتْه لذلك .

وكان صائمَ الدهر من منذ وعىٰ علىٰ نفسه ، وكان يأخذ غداءه وهو يرعى البهائم ، فيُطعمه للصغار في الغيط ويطوي .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله قال : كان والدي لا يُمكِّنُ أحداً من البلد يمسك شيئاً مما يقذفُهُ البحرُ من المراكب التي تغرق ؛ من رمان أو قصب أو بطيخ ، ويقول : يا إخواننا ؛ تشغلون ذمَّتكم بشيء غرقَ علىٰ رغم أنف صاحبه ، ولو أخذتموه لا تعرفون له صاحباً حتىٰ تستأذنوه في أكله .

ودعا ربَّهُ ألا يصبح في بيت أحد من ذريته برجُ حمام ، فبنوه بعده كذا كذا مرةً ، فلم يدخلْهُ طيرٌ من الحمام ، وأبراجُ جيرانه معمرةٌ بكثرة ، وعمل والدي له جلباً ولم يصح .

وأخبرني والدي : أن والده رآه يوماً ومعه فولٌ أخضر ، وهو داخلٌ به الدار ، فقال : من أيِّ مكان جئت به ؟ فقال : من الغيط الفلاني ، فأخذه ومضىٰ به إلى الغيط ، فأرسلَ خلفَ صاحبه ، وأعطاه الفول ، فقال : يا سيدي ؛ واللهِ ؛ خاطري طيبٌ بذلك ، فلم يسمع له ، ثم قال له : يا أحمد ؛ مرَّ بعضُ الفقراء بمارس قمح ، ففرك سنبلة ، وعض في قمحة منها ، فتذكر الحساب ، فردها ، فنام ، فرأىٰ صاحبها وهو يطالبه بأرش كسرها .

---

(١) في (ج ، د ، ك) : (حمل) بدل (صغير) .

قال : ووقع لي أنني[1] مررتُ مرةً علىٰ مارسِ قمحٍ ، فأعجبتني سنبلةٌ منه ، وهي فريكٌ ، فأخذتها وفركتُها ، ثم تذكرت الحساب يوم القيامة ، فرميتها في مارس صاحبها ، فرأيتُ تلك الليلة كأن القيامة قامت ، ونادى المنادي : ليقم أربابُ الحقوق ، فجاء صاحبُ السنبلة وادَّعىٰ عليَّ بين يدي الله عزَّ وجل وأنا أرعدُ كالقصبة من الخوف ، فقلتُ : يا رب ؛ إني تذكَّرتُ هـٰذا الموقف ، فرميتُها في مارسه ، فقال : يا رب ؛ صَدَقَ ، وصل إليَّ القمح والجريدة الجامعة للبروج ، ولـٰكن يأتيني بتبن البروج الذي طار في الهواء ، قال فعرضْتُ عليه أعمالي الصالحة فلم يرضَ ، وقال : لا آخذ إلا تبني ، فما استيقظت حتىٰ كدتُ أهلك ، فمن ذلك اليوم ما أكلتُ فريكاً ، ولا فولاً أخضر إلا إن أعطاه لي شريكي بيده ، أو يكون ذلك لي وحدي .

وكان إذا زرع مارسَ قمح يجعل بينه وبين مارسِ غيره خطّاً من فول ، أو زرعَ فولاً يجعل بينه وبين جاره خطَّ قمح ، أو غيره ؛ خوفاً من أن يجيء شيءٌ من مارس جاره في زرعه أيام الحصاد ، أو حال رعيه البهائم .

وكان يجعلُ لبهائمه كلِّها كمائمَ ؛ خوفاً أن ترعىٰ في مارس الغير .

ولم يأكل لبنَ الجاموس قطُّ ؛ لعدم ضبطه علىٰ مارس صاحبه .

وأخبرني جماعةٌ ممن قرؤوا عليه القرآن وكتاب « المنهاج » وعدة كتب ، فما نظن أن كاتب الشمال كتب عليه شيئاً في ساعة من ليل أو نهار ، وكان يهجرُ الواحدَ منا الأيامَ إذا سمعه يغتاب أحداً .

قالوا : وما رأينا له ساعةَ فراغ قطُّ ؛ لأنه إما يقرأُ القرآن ، أو يضفرُ الخُوصَ يعملُه قففاً للناس ، وإما يعلِّمُ أولاده رسمَ الخطِّ ، وإما [يجوِّدون][2] عليه القرآن ، وإما يخيطُ ، وإما ينسخُ مصاحف للحسنة ، وإما يملأُ الأسبلة ، وإما يبيع في دكانه علىٰ باب الزاوية آلات الطعام بعد صلاته العصر .

قالوا : وكانت طريقتُهُ : أنه يقومُ كلَّ ليلة بعد رقدة من الليل ، فيتوضأ ويصلي

---

(١) من قوله : (مرَّ بعض الفقراء. . .) إلىٰ قوله : (ووقع لي أنني) زيادة من (ب ، ج ، د ، ك) .
(٢) في النسخ : (يجودوا) .

ما شاء الله أنْ يصلي ، ثم يثني ذيله في وسطه ، ويشدُّ وسطه بحزام ، ويأخذ جرَّتين كباراً ، ويبتدئ في القراءة ، فلا يزالُ يملأُ من البحر إلىٰ قريب الفجر ، وربما قرأ نصفَ القرآن في ليال الشتاء الطوال ، فكان يملأ السَّبيلَ الذي في زاويته ، والسَّبيل الذي في الجامع ، والسبيل الذي في البرية .

ثم لمَّا زوَّجَ أولاده الثلاثة ؛ والدي وأخويه صار يملأ لكل واحد جراره ، حتىٰ يملأ مسقاةَ الدجاج والكلاب ، ولا يُمكِّن أحداً من أولاده ولا عيالهم يملأ ، ولا يخرج من الدار إلا لحاجة ، ثم يرجعُ إلىٰ ميضأة الزاوية ، فيملأ الفسقية وبيوتَ الخلاء ، ثم يصعد منارةَ الزاوية ينزِّه الله تعالىٰ ساعةً ، ثم يُسلِّم ويؤذِّن ، فيكون الأولادُ الذين يقرؤون عنده قد حضروا ، فيقرأ بهم سبعاً ثلاثة أحزاب .

ثم يصلي بالناس الصبح ، ثم يجلس يقرأُ القرآن إلىٰ أن تطلع الشمس ، فيشتغل الأولاد بحفظ ألواحهم في القرآن والعلم ، ثم لا يزالُ في سماعِ ألواحهم وماضيهم وتعليمهم الكتابة والخط ورسم الكتب وتجويد القرآن إلىٰ أذان العصر ، فيصلي بالناس العصرَ ، ويفتح باب حانوته ، ويصيرُ يبيع الناسَ حوائج الطعام إلىٰ نصف عصر ، ثم يغلق حانوته ، ويملأُ الميضأةَ والبيوت ، ثم يجلس يستغفرُ الله بالناس إلىٰ غروب الشمس ، فيُصلي بالناس المغرب ، ويجلسُ يقرأ القرآن هو والأولاد إلى العشاء ، ثم يصلي العشاء ، ويتخلَّفُ بعد انصراف الناس لصلاة الوتر إلىٰ ساعة من الليل ، فتارةً يرجع إلى الدار ، وتارةً يهجع في الزاوية هجعةً ، ثم يقوم للتهجُّد وملءِ الأسبلة والجرار التي تقدَّم ذكرها ، هـٰذا شأنه صيفاً وشتاءً .

وكان كلُّ طفل قرأ عليه يسهِّلُ اللهُ عليه القراءة وإن كان أبله ، فيحفظ القرآن في مدَّة يسيرة .

وأخبرني والدي : أنه حفظَ القرآنَ وهو ابنُ سبع سنين ، وصلىٰ به إماماً للناس في ركعتين ، ثم صار يخطبُ بالناس ، ويؤمُّ بهم من حينَ كان عمره سبع سنين .

قال : ولما خطبتُ وأنا ابنُ سبع سنين طلع والدي ، فحملني من فوق المنبر حتىٰ أقامني في المحراب وهو يبكي سروراً بي .

وكانت زوجتُهُ تقول : أشتهي من الله أني أراك ليلةً واحدةً نائماً عندنا طول الليل كما تفعلُ الناسُ ، فيقول لها : نحن ما دخلنا هـٰذه الدار للنوم ، وإنما دخلناها للكدِّ والتعب ، وسوف ننامُ في القبور إن شاء الله تعالىٰ إذا متنا إلىٰ قيام الساعة .

وكان رضي الله عنه إذا وقفَ عليه أحدٌ من شيوخ البلاد أو غيرهم ممن في ماله شبهةٌ يشتري أرزاً أو عسلاً أو زيتاً أو فلفلاً أو غير ذلك لا يردُّه ، بل يُعطيه حاجته ، ويقول : احفظْ لي الثمنَ عندك حتىٰ أحتاج إليه ، ولا ترسله لي حتىٰ أطلبَهُ منك .

وأخبرني الشيخ محمد النامولي : أنه سمع سيدي إبراهيم المتبولي يقول : (ما رأتْ عيني أحداً في هـٰذا الزمان أكثرَ نفعاً للناس من الشيخ عليِّ بن شهاب) .

ثم قال لي الشيخ محمد : وما قاله سيدي إبراهيم صحيحٌ ، ومن شك في قولنا فليعرضْ صفاته المتقدِّمة علىٰ مشايخ زوايا مصر الآن ، فإنَّ أحدَهم لا يقدرُ على المواظبة علىٰ أعماله جمعةً واحدة .

وكان إذا اقترضَ منه أحدٌ شيئاً لا يطالبه قطُّ إلا إنْ جاء به بنفسه .

وكان يكفِّنُ الفقراء والأرامل احتساباً لله عز وجل .

وكان رضي الله عنه يُؤاكلُ أصحابَ العاهات من المجذومين ، ومن بهم برصٌ ، أو حبٌّ إفرنجي ، ويفتُّ لهم في اللبن ، ويشربُ فضلتَهم توكُّلاً على الله تعالىٰ .

ودخل مرة شخص تقطر أطرافُهُ صديداً ، فجلس يأكل معه ، فهرب الأولاد منه ومن الأكل معه تطيُّراً ، فغسل يديه بالطين لأجلهم مداواةً لخاطرهم .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن رحمه الله : أن سبب عمارة بيوت الخلاء في زاويته أن شخصاً يقال له : الشيخ سراج الدين التلواني مرَّ عليه ضيفاً ، وكانت عمامته كبيرةٌ ، فاحتاج إلى البول ، فجلس وأطفال البلد ينظرون إليه ، فقال : والله ؛ إني أودُّ أن الأرض تبتلعني ولا رأيتُ الأطفال يتفرَّجون على الشيخ ، فحفر تلك الليلةَ خمس بيوت خلاء من شدَّة مروءته ، فما مضىٰ عليه جمعةٌ حتىٰ بناها .

وكان إذا سرح للحصاد يأخذُ معه الإبريق للوضوء في بعض الأوقات يملأ جراراً من الماء ، ويدور على الحصادين وقتَ الصبح يوضِّئهم ، ويُصلي بهم الصبحَ في الغيط ،

ويقول : (كلُّ طعام اكتُسب بالمعصية فلا ينبغي أكله ، ومن ضيَّعَ الصلاة لأجل الحصاد فلا ينبغي لمتورعٍ أكله) .

وكان يقول : (بلغني : أن الأرض لا تأكل جسماً نبتَ من حلال ، وإنما تأكل ما نبت من حرام وشبهات) ، وكان بعضُ فقهاء بلادنا ينكر عليه قوله : (إن الأرض لا تأكل جسداً نبت من حلال) ، فحضر ذلك الفقيهُ دَفْنَ جدي ، ثم حضرَ دفن والدي ، فلما أرادوا وضعَ والدي علىٰ جدِّي وجدوا جدي طريّاً ، فقالوا للمنكر : تعالَ انظرْ بعينك ، صدق قولُه رحمه الله (إن الأرض لا تأكل جسداً نبت من حلال) ، فاستغفرَ الله في حقِّ جدِّي ، وكان بين دفْنِ والدي ودفن جدي إحدىٰ وعشرون سنة .

ورأيتُ أنا الشيخ نورَ الدين الشوني شيخَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، فقال لي : جاءني جدُّك الليلةَ ، وقال لي : يا علي ؛ إذا كان لك إلى الله حاجةٌ فنادني أجبْك وأقضْها .

واطَّلع والدي علىٰ نسبتنا ، فرآها تنتهي إلى السيد محمد بن الحنفية ، فصار يكتبُ في كتبه فلان القرشي المطلبي ، فنهاه جدي عن ذلك وقال : لا يا ولدي ؛ لا تُظهرْ شرفَ النسب حتىٰ تجاوز الصراط يوم القيامة .

وكانت أمُّ والدي أنصاريةٌ ، فكتبَ الأنصاري ، فمنعه كذلك .

وكتبوا له مرة مُستنداً ، ولقَّبوه بالشيخ نور الدين ، فضرب علىٰ ذلك وقال : اكتبْ علي بنَ أحمد فقط ؛ فإني لستُ بنور للدين .

وكان يقول : كم من ضريحٍ يزار ، وصاحبه في النار .

وأخبرني عمي الشيخ عبدُ الرحمـٰن قال : لما حضرتْ والدي الوفاةُ دعا بكتاب « طهارة القلوب » للشيخ عبد العزيز الديريني ، وقال لأخي أحمد : إقرأ لي أحوالَ القوم عند طلوع روحهم ، فصار يقرأ وهو يتنهَّدُ ويقول : سبقونا علىٰ خيل دُهم ، ونحن وراءهم علىٰ حمير دبرة[1] .

---

(١) **الدُّهمة** : السواد يكون في الإبل والخيل وغيرهما ، والعرب تقول : ملوك الخيل دهمها ، **والحمر الدبرة** : التي جرح ظهرها وتقرَّح .

وطلعتْ له في لسانه ذلك الوقت نفاطات ، حتىٰ تهرَّىٰ لسانُهُ ، فصارتْ زوجته تبكي وتقول : واللهِ ؛ ما يستحقُّ هـٰذا اللسانُ الطاهرُ ذلك بعد قراءته ذلك القرآن كلَّ ليلة ، فكان جدي يشير لها : اسكتي ، قد تكلَّمَ لساني بكل كلمة يهوي بها في النار سبعين خريفاً .

وأخبرني سيدي خضرُ الذي رباني يتيماً : أن سيدي محمد بنُ عبد الرحمـٰن نائب جدِّه ، وسيدي أبا البقاء بن الجيعان نزلا إلىٰ ناحية ساقية أبي شعرة ، فأعجبتهم ؛ لكونها على البحر ، فجعلوا فيها تقادم قصب سكر ، وبطيخ ، وسمسم ، وقُلْقَاس ، وطلبوا من يضبط لهم مصروفَ ذلك ، فقال أهل البلد : ما عندنا أدين من الشيخ علي ، فأتوا به إليهم ، فقال : أنا لا أتفرَّغُ لمثل ذلك ، فشدَّدوا عليه ، فأجابهم ، وسافرا ، ثم جاؤوا آخرَ السنة فطلبوا منه الحساب ، فأعطاه لهم ، فرأوا فيه أموراً لا يكادُ يمشي عليها أحدٌ من مشايخ العصر ، فنزلوا من فوق المصطبة التي كانوا عليها ، وقبَّلوا رجلَهُ ، وقالوا له : يا شيخ علي ؛ اجعلنا في حلٍّ ، ما كنا نعرفُ مقامَك ، ومثلُك لا يحلُّ أن يكون يخدم مثلَنا في الدنيا[1] .

وكان من جملة ما رأوا في الحساب : أن الثورَ الفلاني ضعفَ في الوقت الفلاني ، ففضلَ من علفه سدسُ قدح ، فأضفناه له علىٰ علفه في الوقت الفلاني لمَّا طاب .

ومن جملة ذلك : أن اليومَ الفلاني طلع بِطِّيخة أو بِطِّيختين معطوبتين لنسياني التقليب لهما في الحاصل ، فناديت عليهما حتى انتهت الرغبات ، فبعتهما بقدحين وسدس قدح[2] ، وكانا قبل العطب يساويا ثلاثة أقداح وسدس قدح ، فعلي لكم قدح في البطيختين .

ومن جملة ذلك : أن الثور الفلاني مات ، وقد امتنع من علفه يومين وبعض يوم ، ففضل من علفه كذا كذا قدح .

ومن جملة ذلك : أن السوَّاقَ سافر وتركَ مكانه شخصاً يسوق ، فغاب نحو عشرة

---

(١) في (أ) وحدها : (لا يجعل) بدل (لا يحل) .
(٢) في النسخ غير (و) : (بقدحين قمح وسدس قدح) .

أيام ، واستنابه بنصف المعلوم ، فإن شئتم تعطونه الأجرة كاملة ، وإن شئتم تعطوه ما أعطاه لنائبه فقط .

ومن جملة ذلك : إن القواديس[1] حملتهم من عند الفيخراني ، فعثرت حمارتي ، فكسرت ثلاثة قواديس ، فعلي ثمنُهم ؛ لأن الحمارة لو كانت لا تعثر ما انكسر شيء ، فأنا المفرِّط الذي حملتُ القواديس لحمارة تعثر .

ثم إنهم عرضوا علىٰ جدي معلومه في الكتابة ، فأبىٰ أن يقبلَه وقال : ما فعلتُ لكم ذلك إلا لله عز وجل .

ثم صار سيدي أبو البقاء ومحمد بن عبد الرحمـٰن يسبوا الفلاحين الذين لم يعلموهم بمقام الجدِّ رحمه الله ، حتىٰ كانوا لا يستعملونه في مثل ذلك ، ثم فارقهم الجدُّ ، فأرسلوا له ثلاثة أطباق علىٰ رؤوس ثلاثة من العبيد ؛ في واحد أثواب صوف وشاشات وثياب بعلبكي ، وفي الآخر حلوىً ومكسَّرات ، وفي الآخر أنواعٌ من الطيب ، فردَّ القماش ، وقبل الحلوىٰ والطيب ، ففرَّقَ الطيبَ علىٰ صبايا البلد ، والحلوىٰ علىٰ أيتام البلد ، ولم يذق هو ولا أهلُ بيته من ذلك شيئاً .

وأراد عمي عبدُ الرحمـٰن أن يأخذَ له إصبعاً من البانيد ، فمنعه ، وقال : يا ولدي ؛ هـٰذا سمٌّ في الجسد ؛ فإن نائبَ جده يقبضُ العشورَ .

وأخبرني سيدي خضر قال : باشرتُ في الساقية ثلاثين سنة ، فما رأيتُ جدَّك أخذَ عوضاً في كتابته خراج الفلاحين ، ولا وضع يده قطُّ في طعام الوجبة الذي يُعمل لأستاذ البلد .

وكان إذا فضلَ للفلاح درهمٌ من خراج سنة يكتبُهُ له فاضلاً للسنة الجديدة ؛ ليحاسبَ به ، ويقول للفلاح : لو أمكنني تخليصُ الدرهمَ لك من أستاذك لأخذته لك .

وكان مُهاباً ؛ إذا خرجَ للصلاة ولقيه مَنْ ليس عادتُهُ الصلاة يذهبُ معه فيُصلي ، ولا يُمكنه تركُ الصلاة ذلك الوقت .

وأخبرني الجماعةُ الذين كانوا يقرؤون عليه القرآن والعلم : أنهم صحبوه مدة

---

(١) تقدم شرحها (٤/ ١٢٩) .

أربعين سنة ما ضبطوا عليه كلمةً يكتبُها صاحبُ الشمال .

وكان إذا بلغه : أن أحداً اغتابه يقول : اللهم ؛ تُبْ عليه مِنْ قَرْض أعراض الناس إن كان ذلك صحيحاً عنه ، ثم يُرسلُ له هديةً ، وفي أوقات يرسل وراءه فيُطعمه الطعام الفاخر ، فيخجل منه ، ويتوبُ إلى الله تعالىٰ مما كان وقع فيه ، ويقول له : قد سامحتك يا أخي فيما بلغني عنك إن كان صحيحاً ، ولـٰكن أسألُ من فضلك ألا تقعَ في عرض غيري ، فإن جميع ما معك من الأعمال الخالصة التي تبقىٰ ليوم القيامة ربما لا يرضىٰ بها إنسانٌ في غيبة واحدة اغتبتَهُ بها ، ويحكي له أهوالَ يوم القيامة حتىٰ ينصرفَ من عنده تائباً .

وكان يخيطُ العراقي ، وكان يتلو القرآن ، فيُعطيه الناسُ في ثمنها فوق القيمة ويقولون : إن كل طعنة مرقيةٌ بآية من القرآن ، فكان يردُّ عليهم الزائدَ ، ومَنْ حلفَ بالطلاق مثلاً أنه لا يأخذُ الزائد جعله عنده على اسم الصدقة للفقراء والمساكين .

وكان يكتب كتبَ العلم والقرآن وهو يسمعُ القرآن لجماعة ، فلا يغلط في الكتابة ، ويردُّ عليهم كلَّهم اللحنةَ والغلطة .

وما رئي رحمه الله قطُّ نائماً في النهار لا صيفاً ولا شتاءً ، ولا ترك قيامَ الليل أبداً نصف الليل أو أكثر ، وكان لا ينقصُ قطُّ عن قيام ثلث الليل الأخير .

ولما رجع من الحجِّ تلقَّاه الناسُ خارج البلد ، فدخل وقتَ الظهر ، فصار ينادي : الصلاةَ الصلاةَ ، لا تلتهوا بالسلام عليَّ عن صلاتكم ، ثم أذَّنَ وصلَّىٰ بالناس قبل أن يدخل الدار ، ونوخ الجمال تحت الزاوية ، فلما سلَّم من الصلاة وجدَ الميضأةَ ناقصةً ، فملأها من البئر ، وملأ بيوت الخلاء قبل أن يدخل الدار ، وصار الناس يقولون له : أنت تعبان ، فيقول لهم : ما خُلقنا في هـٰذه الدار إلا للتعب والنَّصَب .

قالوا : ولما رجعَ من الحجِّ لم يزل باكياً ، وما رأوه ضاحكاً حتىٰ مات .

وكان إذا لبس قميصاً أو عمامةً لا ينزعها إذا اتَّسختْ ، ولو مكثت عليه سنة حتىٰ ينزعَها عنه عيالُهُ ؛ شغلاً بما هو فيه من العبادة .

وكان نورُ وجهه يستر الناسَ عن رؤية وسخ ثيابه ، رضي الله عنه .

وكان يقول : (لا يعجبني من إنسان كثرةُ عمله ، وإنما يعجبني منه كثرةُ ورعه وتفتيشِه في اللُّقمة التي يأكلها ، فربما كانت أعمال العبد كالجبال ولا يتحصَّلُ منها يوم القيامة مثقال ذرة) .

وكان يأمرُ بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، وإن عاد ذلك عليه بالضرر .

ولعب الفقراءُ البرهانيةُ مرةً في بلده بالنار ، فقال لهم : هـٰذا خروج عن طريق شيخكم رضي الله عنه ؛ فإن من كلام سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه : لا يصحُّ لأحد أن يُنسبَ إلينا إلا إن حبسَ نفسَهُ في قمقمِ الشريعة ، وختم عليها بخاتم الحقيقة ، واتَّبعَ ما جاء به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فتابوا كلُّهم عن مخالفة الشريعة ، وصلح حالهم .

وكذلك تابَ علىٰ يديه جماعةٌ من الفقراء الأحمدية ؛ منهم الشيخ عبدُ الرحمـٰن بن الشيخ وُهيب من برشوب الكبيرة بالقليوبية ، حين رآهم يشتغلون بالهيمان وقت صلاة العشاء ، فقال شيخ السيارة : يا فقراء ؛ الغريب لأهله ، وقد تبت علىٰ يد الشيخ عليٍّ هـٰذا ، ثم إنه عملَ خصّاً في جزيرة وسط البحر تجاه بحر الفيض ، ولم يزل يتعبَّدُ فيها إلىٰ أن مات .

ومناقبه رضي الله عنه في بلادنا كثيرة مشهورة .

توفي رضي الله عنه سنة إحدىٰ وتسعين وثمان مئة ، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة ، ودفن بفناء زاويته بناحية ساقية أبي شعرة بالمنوفية ، رضي الله عنه .

* * *

وليكن ذلك آخرَ من أراد الله تعالىٰ ذكرَهُ من أهل القسم الأول ، ولنشرعْ في القسم الثاني فنقول :

القسم الثاني

في ذكر مناقب من أدركناهم
من مشايخ القوم بمصر المحروسة



الباب الأوّل
في ذكر مناقب الصحاة من المسلكين

وهم لا يحصرون[1] ، ولـٰكن نذكر لك يا أخي منهم طرفاً صالحاً ممنِ اجتمعنا بهم علىٰ وجه التبرُّك دون مَنْ سمعنا بهم ، ولم نجتمع بهم .

وقد أجمع أهلُ الطريق رضي الله عنهم : علىٰ أن من لم يجتمع بالأشياخ ويأخذْ عنهم طريقَ القوم لا يُقتدىٰ به في طريقهم .

وقالوا : من لم يكن له أبٌ في الطريق فهو دعيٌّ غيرُ نسيب ، بخلاف من له أبٌ في الطريق ؛ فإن مددَهُ يكون متصلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا طرقَهُ أمرٌ مزعج في الدنيا والآخرة توجَّه إلىٰ شيخه ، فيتحرَّكُ للأخذِ بيده ، فيتحرك مَنْ بعده من الأشياخ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كسلسلة الحديد إذا تحرَّكتْ منها حلقة تحرَّكَ سائرها .

وقد سبقني إلىٰ ذكر مشايخه في التصوف وذكرِ مناقبهم ومفاخرهم الشيخُ الإمام العالمُ الرباني ، المُجمعُ علىٰ جلالته : الشيخُ عبدُ العزيز الديريني رضي الله تعالىٰ عنه ، فذكر مشايخَهُ في التصوف ، ومشايخه في العلوم الظاهرة في أرجوزة ، وهـٰأنا ملخِّصٌ لك ما يتعلق بمشايخه في التصوف هنا ، وما يتعلق بمشايخه في العلوم الظاهرة في الباب بعده .

فأقول وبالله التوفيق : قال سيدي عبد العزيز وهو نحو لسانِ حالي أيضاً : [من الرجز]

اللهَ أرجـــو لـيـــسَ غيـــرَ اللهِ ... واللهُ حَســـبُ الطـــالـــبِ الأوّاهِ

ثـــمَّ الصـــلاةُ والســـلامُ النـــامـــي ... علـــى النبـــيِّ ســيـــدِ الأنـــامِ

---

(١) في (هـ ، و ، ي) : (لا يحصون) .

وآلـــهِ وصحبِـــهِ وعتـــرتِـــهْ وكـــلِّ مَـــنْ تـــابعَـــهُ مـــنْ أمتِـــهْ

وهٰـــذهِ أرجـــوزةٌ وجيـــزهْ ضمَّنتُهـــا مقـــاصـــداً عـــزيـــزهْ

فـي ذكـرِ مَـنْ بـالعلمِ والصلاحِ بـــدا عليـــه علـــمُ الفـــلاحِ

ممـنْ صحبـتُ لـرجـاءِ النفـعِ ولاجتمـاعِ الشَّمـلِ يـومَ الجمـعِ

أرجـو بـذكـراهـمْ بقـاءَ الـذِّكـرِ لهـمْ وفـوزي بجـزيـلِ الأجـرِ

وكـــلُّ عبـــدٍ مـــع مَـــنْ أحبَّـــهْ بصـــادقِ الصحبـــةِ والمحبـــهْ

وحـرمـةُ السَّـاداتِ فـي الإفـادهْ كحـرمـةِ الآبـاءِ فـي الـولادهْ

والحـرُّ مَـنْ يَـرعـىٰ ودادَ لحظـهِ وينتمـــي لمـــنْ أفـــادَ لفظـــه

وآنَ أَنْ أذكـرَ أهـلَ المعـرفـهْ والصـدقِ والحقـائـقِ المشـرَّفـهْ

لأنهـمْ عـاشـوا بـأُنـسِ الـرَّبِّ سـرّاً وذاقـوا مِـنْ شـرابِ الحـبِّ

فهمُ جلوسٌ في نعيمِ الحضـرهْ وجـوهُهـمْ فـي نضـرةٍ مِـنْ نظـرهْ

وكـــلُّ مَـــنْ والاهُ ربُّ العـــزَّهْ فهـــوَ الـــذي بعـــزِّهِ أعـــزَّهْ

وقـدْ تعلَّقنـا بقطـبِ العصـرِ منهـمْ فنحـنُ فـي سَنـاهُ نسـري

شيـخِ الأنـامِ أحمـدَ الـرِّفـاعـي حيـنَ أتـانـا مـنْ حِمَـاهُ داعـي

فنحـــنُ بيـــنَ أحمـــدٍ وأحمـــدِ نسيـرُ فـي نـورِ هُـدىً ونهتـدي

رســـولُنـــا نبيُّنـــا محمـــدُ وشيخُنا القطبُ الشريفُ أحمدُ

وشيخُنا الشيخُ أبو الفتحِ الأَسدْ لنـا بـهِ إلـى الـرِّفـاعـي مستنَـدْ

صحبتُـهُ نحـوُ ثـلاثَ عَشَـرَهْ مـنَ السِّنيـنَ إذْ أخـذتُ أمـرَهْ

ثـمَّ صحبـتُ السـادةَ الكبـارا أصحـابَـهُ المشـايـخَ الأخيـارا

الشيـخَ تـاجَ الـدِّيـن والسـراجـا واثنيـن أيضـاً شـرَّفـا بلتـاجـا

الشيـــخَ عبـــدَ اللهِ ذا الأحـــوالِ والصِّـدقِ حقّـاً والمقـامِ العـالـي

قـدْ كـانَ فـي رؤيتِـهِ ولحظِـهِ مـا يمـلأُ القلـوبَ قَبْـلَ لفظـه

فـإنْ بـدتْ ألفـاظُـهُ الخفيـهْ فيـا لهـا مـنْ حـالـةٍ سنيـهْ

وإنْ بـدا بـالنُّطـقِ فـي الحقـائـقْ دقَّـقَ حتـىٰ يعجـم الـدَّقـائـقْ

وإنْ سمعـتَ نطقَـهُ فـي العلـمِ جـاءَ بفتـحٍ فـاقَ أهـلَ الفهـمِ

صحبتُـهُ نحـوَ ثـلاثيـنَ سَنَـهْ كـأنَّهـا مـنْ طيبِهـا كـانـتْ سِنَـهْ
ثـم أخـاه فـي السلـوكِ والسكـنْ ذا الهمةِ العلياء هوْ أبو الحسنْ[1]
ثـمَّ القُليبـيَّ أبـا المعـالـي عبـدَ السـلامِ الصَّـادق الأحـوالِ
ذا النَّفَـسِ الطَّـاهـرِ والفضـائـلِ في الخيرِ كمْ أحيا بها منْ غافلِ
ثـمَّ أخـاهُ البَـرَّ إبـراهيمـا كـانَ محبّـاً صـادقـاً كـريمـا
لـهُ مقـامٌ راسـخٌ فـي الصـدقِ فـي كـلِّ حـالٍ صـادعٍ بـالحـقِّ
والشيخُ ضرغامُ المسيريُّ الرِّضا قدْ كانَ ضِرغاماً وسيفاً منتضى
والصـادقُ الـدَّقـاقُ ذا الـوفـاءِ والخُلـقِ الـرَّضـي والحيـاءِ
وقـدْ صحبتُ حسنَ الأبياري[2] ذا الصِّـدقِ والأحـوالِ والأنـوارِ
والفهـمِ والعبـارةِ الفصيحـهْ والكشـفِ والفِـراسـةِ الصحيحـهْ
والـزهـدِ والفتـوَّةِ المعتبـرهْ وصحَّـةِ التـربيـةِ المطهَّـرهْ
والنطـقِ بـالحكمـةِ والبيـانِ نطـقَ الحكيـمِ العـالـمِ الربَّـانـي
قـدْ نلـتُ فـي صحبتـهِ مَـرامـا فـي الخيـرِ نحـوَ أربعيـنَ عـامـا
كـذا ابـنُ عمِّـه أبـو علـيِّ ذو همَّـةٍ ومقصـدٍ علـيِّ
عبيـدُ فـي ديسـط ذو الفتـوهْ والصِّـدقِ والإحسـانِ والمـروَّهْ
وقـد صحبتُ شيخَنـا الـدكـالـي يعقوبَ في [عمري][3] التقي العالي
عشـرينَ عاماً كانَ لي في رؤيتِهْ معنىً كلُقيا البحرِ عندَ صدمتِهْ
قبـضٌ وبسـطٌ معـه اطِّـراح وكـانَ فـي بِلتـاج [الارتيـاحُ][4]
والشيـخُ قـاسـمُ الـذي اجتهـادُهْ مشتهـرٌ وقـدْ بـدا جهـادهْ

---

(١) وقع البيت في « طبقات الأولياء » (ص ٥٢٩) :

ثـم أخـاه فـي السلـوك والسكـن ذا الهمة العليا الرضي أبا الحسن

(٢) في (هـ ، و ، ي ، ك) : (الأنباري) .

(٣) ترددت النسخ بين (نمري) و(غزي) ، والمثبت من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .

(٤) في جميع النسخ : (في ارتياح) والتصحيح من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .

تلميذُ يعقوبَ العظيمِ القدرِ ... وكان في [عمري][(١)] لجبر الكسرِ
وقد صحبتُ العارفَ السبتيا ... والشيخَ مرزوقَ البُرُلُّسيا
ثم كثيراً وأبا ماضي معا ... خادمَي الرملي اللذَينِ انتفعَا
ثمَّ الرَّضي مرزوقَ والسُّبكيا ... ثم المصلِّي قاسمَ المرضيا[(٢)]
ثمَّ المليجيَّ عليَّ الصادقا ... ونجلَهُ التاجَ الأخَ الموفَّقا
والعارفَ المحققَ الدَّقاقا ... بشيخِهِ على الرِّجالِ فاقا
هوَ الزكيُّ المرتضى أبو الحسنْ ... أخلاقُهُ تجلو عنِ القلبِ الحَزَنْ
وقدْ صحبتُ العارفَ المغراوي ... وكان فوقَ ما يقولُ الراوي
وقدْ صحبتُ الأقطعَ المجاهدا ... محمَّداً وكانَ فرداً واحدا
صحبتُهُ بالحرمِ الشريفِ ... ووصفُهُ يجلُّ عن تصنيفي
والشيخ نصرٌ جاءنا بالقاهرةْ ... وقد بدانا بكشوفٍ ظاهرةْ
وبعدَ ذا رأيتُهُ على الصفا ... حتى إذا أضمرتُ لقياه اختفى
فهؤلاء أنجمٌ ذراري ... أنوارُهم مضيئةٌ للسَّاري
لم يبقَ في السِّتين والست مئةْ ... في الناسِ منْ أصحابهم إلا فئةْ
وإنني لغفلتي أقلُّهمْ ... وقدْ تقضَّى منهمُ أجلُّهم
وكلُّ شيخٍ زرتُهُ للبركةْ ... فقدْ وجدتُ ربحَ تلك الحركةْ
وكلُّ شيخٍ نلتُ منه علما ... أو أدباً فهوَ إمامي حتما
وقدْ عددتُ منهمُ جماعةْ ... اشتهروا بالعلمِ والبراعةْ
وما سكتُّ عنْ سواهمْ صدّا ... ولمْ أطقْ حصرَ الجميعِ عدّا
وإنما ذكرتُ قوماً درجوا ... ومنْ مَضيقِ سجنِهم قدْ خَرَجوا
قدْ كانَ لي بأُنسِهم سلوانُ ... وما نسيتُ ذكرَهم إذْ بانوا
وقدْ بقيتُ بعدَهمْ فريدا ... مخلَّفاً عنْ رِفقتي وحيدا

---

(١) ترددت النسخ بين (نمري) و(غزي) ، والمثبت من « طبقات الأولياء » (ص ٥٣١) .
(٢) في (أ ، ط) : (الصلي) ، وفي (ج) : (العقيلي) ، وفي (ب ، د ، ك) : (العقلي) .

أقطِّعُ الأوقاتَ بالرَّجاءِ	لتحضرَ الوفاةُ بالوفاءِ
فأسألُ اللهَ لهمْ رضاه	فإنهُ منْ يُرضهِ يرضاه
وأن يحققَ الذي ذكرتُهُ	في ذكرِهمْ بنيلِ ما أمَّلْتُهُ
وأن يُميتني على الإيمانِ	فذاكَ رأسُ المالِ والأماني
وفي الزَّمانِ منهمُ بقيَّهْ	قليلةٌ صالحةٌ مرضيَّهْ
فقلْ لهمْ إذا أقاموا بعدَنا	يَدعوا لنا فقدْ دَعونا جهدَنا
والحمدُ للهِ العظيمِ القادرِ	المُنعمِ البرِّ الرحيمِ الغافرِ
ثمَّ الصلاةُ والسلامُ السرمدي	على النبيِّ المصطفىٰ محمَّدِ
وآلهِ وصحبهِ الأبرارِ	السَّادةِ الأئمةِ الأخيارِ
ونسألُ اللهَ قبولَ المعذرهْ	والعفوَ عنَّا وجميلَ المغفرهْ

انتهىٰ ما لخصناه من أرجوزة الشيخ عبد العزيز .

وسيأتي في الباب الذي يليه ما لخَّصناه منها بالنسبة لمشايخنا في الفقه ، فالحمدُ لله رب العالمين .

* * *

واعلم يا أخي : أن شيخنا الحقيقيَّ هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه هو الشيخُ لجميع أمته على اختلاف طبقاتهم ، بواسطةٍ وبغير واسطة ؛ لاستمداد جميع الأولياء من حضرته صلى الله عليه وسلم ؛ فكلُّ الأمة تلامذتُهُ صلى الله عليه وسلم ، وهو شيخ الكلِّ محسنِهم ومسيئهم .

فإذا خاطبك شيخُك بأمر أو نهي فهو لسانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحقيقة ، بحكم النيابة عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن عقل هـٰذا الأمر تأدَّبَ مع شيخه كما يتأدَّبُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان أدركه ، وإنِ اختلفَ المقامان .

وقد حُبِّبَ لي أن أقدِّمَ علىٰ ذكر أشياخي ذكرَ سندي بواسطتهم في لبسِ الخرقة ، وتلقينِ الذكر ، **فأقول وبالله التوفيق** :

[سند لبس الخرقة]

لبستُ الخرقة وهي عرقية وجبَّةٌ ورداء من يد الشيخ جلال الدين السُّيوطي حين اجتمعتُ به مع والدي في الروضة في ثاني عشر ربيع الأول سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة .

وهو لبسها من يد الشيخ كمال الدين إمامِ الكاملية ، وهو لبسها من يد الشيخ شمس الدِّين ابن الجزري ، وهو لبسها من يد الشيخ زين الدِّين المراغي ، وهو لبسها من يد الشيخ عزِّ الدين الفاروتي[1] ، وهو لبسها من يد والده ، وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الرفاعي .

وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الواسطي ، وهو لبسها من يد أبي الفضل كامخ بن غلام ، وهو لبسها من يد عليِّ بن بارباي ، وهو لبسها من يد علي العجمي ، وهو لبسها من يد أبي بكر الشِّبلي ، وهو لبسها من يد أبي القاسم الجُنيد .

وهو لبسها من يد السَّري السَّقَطي ، وهو لبسها من يد معروف الكرخي ، وهو لبسها من يد داود الطائي ، وهو لبسها من يد الحسن البصري ، وهو لبسها من يد الإمام

---

(١) في (أ ، ط) : (الفاردني) ، وفي (هـ ، و) : (الفاروقي) .

علي بن أبي طالب ، كما صحَّحه الحافظُ الجلال السيوطي .

وهو لبسها من يد سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد الأولين والآخرين .

وهو لبسها من يد جبريل عليه الصلاة والسلام ، كما قال به الشيخ عبد الغفار القوصي .

[سند تلقين الذكر]

وأما سندُنا بتلقين الذكر : فهو أني تلقَّنتُ كلمة (لا إلـه إلا الله) على جماعة ؛ أعلاهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، عن سيدي محمد الغَمْري الواسطي ، عن سيدي أحمد الزاهد ، عن سيدي حسن التُّستري ، عن سيدي يوسف العجمي الكوراني ، عن الشيخ محمود الأصفهاني ، عن الشيخ نجم الدين الكُبرى الشهيد[1] ، عن الشيخ حسن الشمشيري ، عن الشيخ عبد الصمد الطبري[2] ، عن الشيخ نجيب الدين بن مرعوش الشيرازي ، عن الشيخ شهاب الدين السُّهْروردي ، عن الشيخ أبي النَّجيب السُّهْروردي ، عن القاضي وجيه الدين ، عن الشيخ فرج الزنجاني ، عن الشيخ أبي العباس النهاوندي ، عن محمد بن خفيف الشيرازي ، عن القاضي رُويم ، عن أبي القاسم الجُنيد ، عن سَري السَّقطي ، عن معروف الكرخي ، عن داود الطائي ، عن حبيب العجمي ، عن الحسن البصري ، عن رابعِ الخلفاء ؛ الإمام علي بن أبي طالب ، عن سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عليه السلام ، عن إذنِ ربِّ العالمين عز وجل .

* * *

إذا علمت ذلك فلنشرع في ذكر مشايخنا في التصوف ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) نجم الدين الكُبرىٰ ، قبره في الجرجانية بتركمانستان ، مشهور يزار إلىٰ يومنا هـٰذا .

(٢) في (ج ، د) : (النطتري) . وتقرأ (النطنزي) .

ومنهم :

(٣٨٨) الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي تلميذ سيدي أبي العباس السَّرْسِي تلميذ الشيخ شمس الدين الحنفي رضي الله عنهم[(١)]

اجتمعتُ به مرةً واحدة .

ذكروا أنه أقام في القطبية الكبرىٰ ثلاث سنين .

وكان قليلَ الكلام في الطريق ؛ لعدمِ أهلية غالب الناس لسماع كلام أهلها .

وسأله جماعةٌ أن يضعَ لهم رسالةً في طريق القوم ، فقال : أَصفُ الطريق لمن ؟! هاتوا لي صادقاً في طلب الطريق إذا قلتُ له : اخرجْ عن مالك وزوجك في مرضاة الله يجبني بسرعة ، وأنا أصف له الطريق ، فسكتوا ، فقال لهم : واللهِ ؛ لو كانتِ الدنيا بأسرها في يدِ شخص واحد ، فقال له شيخه : أعطني جميع ما بيدك لأُعلِّمك أدباً واحداً من آداب أهل الطريق ودفعه له لكان قليلاً ؛ لأن الدنيا كلها لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضة .

وكان يقول : (يجمعُ آدابَ الطريق كلَّها لفظتان : سكتة ولفته ، وقد وصل السالك إلىٰ مقصوده) .

وجاءه الشيخُ إبراهيم المواهبي يطلبُ منه التربيةَ ، فقال : تريد تربيةً بيتيةً وإلا سوقية ؟ فقال له : ما معنىٰ ذلك ؟ فقال : التربية السوقية : أن أُعلِّمَكَ كلماتٍ في الفناء والبقاء ونحوِهما ، وأُجلسَك علىٰ سجادة ، وأقولَ لك : خذْ كلاماً ، وأعط كلاماً من غير ذوق ولا انتفاع ، كما عليه مشايخُ هـٰذا الزمان الذين برزوا بغير إذن .

وأما التربية البيتية : فأن تجلسَ عندي ، وتُفني اختيارك في اختياري حتىٰ لا يبقىٰ لك شهوةٌ من شهوات الدنيا والآخرة إلا وقد وضعتها تحت رجلِكَ ، وتشاركَ أهلَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٣٢) (٣٤٢) .

البلاء في سائر أقطار الأرض ، وتسمعَ في حقِّك سائرَ ما يقال في القوم الفاسقين فلا تتغيَّر منك شعرةٌ ؛ اكتفاءً بعلم الله تعالىٰ فيك .

فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا مقام كبير ، فقال : هو من مقامات إبليس ؛ فإن الوجودَ العلوي والسفلي يلعنُهُ ويسبُّهُ ولا يتغيَّرُ منه شعرةٌ ؛ لعلمه أنه ليس بيد الخلق حلٌّ ولا ربط مع الله تعالىٰ ، فكيف تستبعد مقاماً أُعطيه إبليس ؟! انتهىٰ ، فقال سيدي إبراهيم : يا سيدي ؛ أطلبُ التربيةَ البيتية ، فقال : نعم ، لـٰكنْ لا يكون فطامك بعدي إلا علىٰ يد الشيخ أبي المواهب ، فكان الأمرُ علىٰ ذلك ، ولم يشتهر إلا بالمواهبي .

وكان سيدي محمدٌ كريمَ النفس ، يُعطي السائل الألف دينار كأنه أعطاه بعرةً .

وكان يُنفق النفقةَ الواسعةَ من الغيب ، ولا يأخذُ من أحد شيئاً .

وكثيراً ما يأتيه المديون فيقول : يا سيدي ؛ ساعدني في وفاء ديني ، فيقول له : ارفع طرفَ ذلك الحصير ، وخذ ما تحته ؛ فتارةً يرىٰ تحتها أكثرَ من دينه ، فيقول له : أوفِ دينَك ، وتوسَّعْ بالباقي .

وكان علماءُ مصر قاطبةً يذعنون له في العلوم العقلية والوهبية ، ويستفيدون منه العلمَ الذي لم يطرق سمعهم قطُّ .

وكان رضي الله عنه يقول : (كما أن الكلامَ في أهل الله سمٌّ قاتل ، كذلك هو في علماء الإسلام سمٌّ قاتل ، كلٌّ في دائرته علىٰ حقٍّ وهدىً من الله ، والناسُ في العمل والعملُ علىٰ طبقات ، ومن أكثر علىٰ أهل الله الردَّ فهو من أهلِ الطرد) .

وكان يقول : (السالكون علىٰ ثلاثة أصناف : جلالي ؛ وهو إلى الشريعة أميل ، وجمالي ؛ وهو إلى الحقيقة أميل ، وكمالي جامعٌ للمقامين ، وهو منهما أفضلُ وأكمل) .

وكان يقول : (إنما خلق الله تعالىٰ أجساماً وجواهر وأعراضاً نقيض ما هو تعالىٰ موصوف به ؛ ليعلمنا بالفرقان بيننا وبينه) .

وكان يقول في معنىٰ قول حجة الإسلام : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) : (أي : لأن الله تعالى امتنَّ علينا بنحو قوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ـ٤٨] ، ومعلوم : أن الامتداحَ لا يقع إلا فيما هو غاية

ونهاية ، وإلا فكيف يمتن الحق تعالىٰ بمفضولٍ ؟! ولا يصدرُ عن الكامل إلا كامل من حيث الحكمة الإلـٰهية) .

وكان يقول : (اطلبْ طريقَ السادات وإن قلُّوا ، وإياك وطريقَ غيرهم وإن جلُّوا ، وكفىٰ شرفاً لعلم القومِ قولُ موسىٰ عليه السلام للخضر : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] قال : وهـٰذا من أعظم دليل علىٰ وجوبِ طلب علم الحقيقة كما يجبُ طلبُ علم الشريعة ؛ لتلازمهما ، وإن لم يشعرْ بذلك حاملها) .

وكان مع وسع عطائه للناس يفتُّ الرغيفَ اليابسَ في الماء ويأكله ، وينشد :

اقنع بلقمة وشرب الماء ولبس الخيش
وقلْ لعقلك ملوك الأرض راحوا بأيش

ولما دخل له السلطانُ الملكُ الأشرف قايتباي يزوره رسمَ له بألف دينار ، فردَّها ، وأنشدَهُ هـٰذا البيت ، فبكى السلطان حتىٰ بلَّ منديله ، فقال له : فرِّقها على المحبين ، فقال : من تَعِبَ في تحصيلها فهو أولىٰ بتفرقتها ، ثم قال : من كانتِ الحقيقةُ تتصرَّفُ فيه فلا اختيارَ له مع الله تعالىٰ ، فلا يُقال : إنَّ أخذَنا لها وتفرقتها أنفعُ لجهة الفقراء .

مات رضي الله عنه في سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة ، ودفن قريباً من باب القَرافة ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار .

وقد بسطنا الكلامَ علىٰ حاله في « الطبقات الكبرىٰ » ، والله أعلم .

ومنهم :

(٣٨٩) الشيخ العارف بالله تعالىٰ
سيدي أبو العباس الغمري رضي الله عنه[١]

كان ذا هيبة ، ينظرُهُ الإنسانُ فيرعدُ من هيبته .

رأيته مرةً واحدةً في بلاد الريف في سنة أربع وتسع مئة ، فجمعني والدي عليه ، فدعا لي ، ثم إني لما جئتُ إلىٰ مصر لم يُقسم لي الإقامةُ إلا في جامعه ، فأقمت فيه

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٤٥) (٣٤٤) .

سبع عشرة سنة ، وحفظتُ فيه العلمَ ، وشرحت فيه الكتب ، ورتَّبتُ فيه مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ثمان عشرة وتسع مئة .

وكنتُ إذا راق الليلُ ، وقلَّتِ الجماعةُ أجدُ الشيخ جالساً عن يميني ، فيمكث حتىٰ يستيقظَ الجماعة الذين ناموا ، فإذا قوي الجماعةُ وكثروا اختفىٰ عني .

وحصل لي في جامعه الخير الكثير ببركته .

وكان رضي الله عنه كثيرَ العمارة للمساجد في قرى الريف ، يقال : إنه عمر خمسين جامعاً ، وكان مُعاناً في نقل العُمُد الرخام وغيرها من الكيمان والبلاد الكفرية ، فعُمُدُ جوامعه في مصر والمحلَّة يعجزُ عن نقلها سلطان .

وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي أحدُ أصحابه قال : سافرنا مع الشيخ إلىٰ كومٍ عالٍ ، فصار يقيس في الأرض ، ويُعلِّم علامةً ، وقال لنا : احفروا تحت العلامات ، فلم يُخطئ في حفرة واحدة ، وطلع جميعُ الحفر علىٰ رؤوس العمد وهي واقفة .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامعه : أن الشيخ أقامَ صفَّ العُمُدِ التي تلي محراب جامعه بمصر كلها في ليلةٍ واحدة ، والناسُ نائمون ، فبيَّت البناء على الفعلاء وغيرهم ليقيموها بكرةَ النهار ، فأصبحوا فوجدوا الصفَّ الأول كلَّهُ قائم ، فقال له شخص ممن يدلُّ على الشيخ : وعزَّةِ ربِّي ؛ لو أنك قلتَ لجميع هٰذه العمد : قومي بإذن الله لم يتخلَّف منها عمود .

وكان رضي الله عنه جبلاً راسياً في العلوم والأعمال وحمل الأثقال .

وله كرامات كثيرة مشهورة بين أصحابه .

وأخبرني ولده الشيخ أبو الحسن نفعنا الله ببركاته ، قال : وقع منا صرَّةُ فضة أيام النيل في بحر سمانود ، فما تذكَّرناها إلا ونحن في المحلة ، فأرسل الشيخ فقيراً بصنارة ، وقال له : قف على الجرف الفلاني ، وارمِ الصنارة تطلع بها ، فذهب وفعل ما أمره الشيخ ، فطلع بها .

مات رضي الله عنه في رابع عشر صفر سنة خمسٍ وتسع مئة ، ودفن بجامعه بمصر ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٠) شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ
سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه[١]

كان من الزهَّاد العباد ، وما كنتُ أمثله وأنا صغير إلا بطاوس اليماني ، وما رأينا في عصره مثله .

وكان مشايخ العصر إذا حضروا عنده صاروا كالأطفال بين يدي مربِّيهم .

وكان مواظباً علىٰ قيام الليل صيفاً وشتاءً من حين كان صغيراً .

وكان الفقراء يضربون به المثلَ في قيام الليل ، وفي العفة ، وحفظ الأوقات عن التضييع ، حتىٰ بلغ خبرُهُ الشيخَ كمال الدين إمامَ الكاملية ، رضي الله عنه ، فسافر الشيخ إليه إلىٰ بلاد الشرقية بقصد رؤيته فقط ، فأخذ عليه العهدَ ، وسافر به إلى المحلة ، فآخىٰ بينه وبين سيدي الشيخ أبي العباس الغمري رضي الله عنه ، وأعجبَ به عجباً شديداً .

وأخبرني الشيخ يوسف الحريثي رحمه الله : أن طائفةَ الفقراء وردوا علىٰ سيدي محمد بن عنان علىٰ غفلة وهو شابٌّ ، وكانوا نحو خمس مئة فقير ، فأشبعهم كلَّهم من عجين أمِّهِ ، وكان نصف ويبة[٢] ؛ وذلك أنه غطَّىٰ إناءَ العجين بردائه ، وقال لأمه قرِّصي منه ولا تكشفيه ، فملأتِ الحجيرةَ ونصفَ الدار خبزاً ، فقال لها : اكشفي الإناء ، فكشفته ، فلم تجدْ فيه شيئاً من العجين .

وأخبرني الشيخ علي الإثميدي أجلُّ جماعته قال : كان شخصٌ مزمناً في جامع إسكندرية ، وكان من شأنه : أن كلَّ من غضب عليه قال : يا قمل ؛ رح إليه ، فيمتلئ ذلك الرجل قملاً ، حتىٰ لا يكادُ ينام منه ، ويعجزُ عن تنقيته ، فمضىٰ إليه سيدي محمد وقال : أنت ما رأيتَ تعمل إلا شيخ القمل ؟! فأخذه بيده ورماه في الهواء ، فلم يعرفْ أحدٌ من أهل الإسكندرية خبره إلى الآن .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٣٧) (٣٤٣) .

(٢) **الوَيْبَة** : اثنان وعشرون ، أو أربع وعشرون مُدّاً بمدِّ النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخبرني الشيخ علي أيضاً : أنه كان يُرسلُ قاصدَهُ إلىٰ سيدي أبي العباس من الشرقية إلى المحلة في الحاجة ، فيقول له الشيخ : من أيِّ المعادي عدَّيت ؟ فيقول : ما رأيتُ في طريقي أبداً معديةً ، فيقول الشيخ : طوى البحر بهمَّتِهِ .

وأخبرني شيخنا الشيخُ أمين الدين الإمام بجامع الغمري قال : كنا في سفر مع سيدي أبي العباس الغمري ، وسيدي محمد بن عنان ، فاشتدَّ الحرُّ علينا ، فنزل الشيخان ، وطرحا علىٰ حمارتيهما بردةً ، وجلسا في ظلِّها ، فعطش سيدي أبو العباس الغمري ، فلم يجد معنا ماءً يشربه ، فأخذ سيدي محمد طاسةً ، وغرف بها ماءً بارداً من الأرض الناشفة ، وقدَّمه لسيدي أبي العباس ، فلم يشرب منه ، وقال : يا شيخ محمد ؛ الظهورُ في هـٰذه الأيام يقطعُ الظهور ، فقال سيدي محمد : وعزَّةِ الله ؛ لولا خوفُ الظهور لسألتُ الله تعالىٰ أن يجعلَها بركةً يشربُ منها البهائمُ إلىٰ يوم القيامة .

وحكىٰ لي الشيخ الصالحُ العالم العامل بدر الدين المتبولي[1] قال : سمعتُ سيدي الشيخ عبدَ القادر الدشطوطي يقول : إنَّ الشيخ محمد بنَ عنان يعرفُ طبقات السماوات وأزقَّتَها وملائكتها ، هـٰكذا قال .

وأخبرني الشيخ محمد الزاهد[2] عن طباخ الشيخ محمد بن عنان : أن شخصاً من أركان الدولة بمصر أرسل للشيخ ثمان جرار عسل لمطبخ الوقت ، فانصبَّت كلُّها على الأرض ، وضاق الوقتُ عن شراء العسل من السوق ، فخرج الشيخُ إلى الخليج ، وقال : اتبعوني بالجرار ، فملأها كلَّها من الخليج ، فوجدوها قطراً ، فطبخوا بها ، وقال الشيخ : الحمدُ لله الذي حمانا من عسل الولاة ، انتهىٰ .

وأخبرني الشيخ الصالح شمس الدين الطنيخي صهر الشيخ محمد قال : نزلنا مرةً مركباً من بلاد المنزلة ، وكان في المركب [شخصٌ أكولٌ أكل موهيتي فسيخ ، وموهيتي تمر][3] ، وخلَّىٰ عظمهم ونواهم في المركب ، وذلك في الليل والناسُ نائمون ،

---

(١) في (هـ ، و) : (نور الدين المشتولي) ، وفي (ب ، ج ، د ، ي ، ك) : (المشتولي) بدل (المتبولي) .

(٢) في (ج ، د ، هـ ، و ، ك) : (محمد الزهار) .

(٣) في النسخ : (شخصاً أكولاً أكل موهيتين فسيخ وموهيتين تمر) .

فأخبروا سيدي محمد بن عنان بذلك ، فقال : ائتوني به ، فأتوه به ، فأطعمه رغيفاً صغيراً لقَّمَهُ له في فمه ، فلم تزل تلك أكلتُهُ حتىٰ مات ، لا يتعدَّىٰ كلَّ يوم أكثر من رغيف .

وأخبرني : أن شخصاً كان في مقبرة برهمتوش يصيحُ كلَّ ليلة في قبره ، فأعلموا الشيخ محمد بذلك ، فمشىٰ إلىٰ قبره ، وقرأ عليه سورةَ (تبارك الذي بيده الملك) ، ودعا الله تعالىٰ ساعةً ، فمن تلك الليلة ما سمعوا له صياحاً .

وكان رضي الله عنه وقتُهُ مضبوطاً ، لا يُضيِّعُ له وقتاً في غير طاعة .

وكان لا يُصغي قطُّ لشيء من كلام اللغو ، ولا لشيء من أخبار الناس ، ولا يسأل قطُّ عمن تولَّىٰ ، ولا عمن عُزل .

وكان يقول : (كلُّ نَفَسٍ مقوَّمٌ عليَّ بسنة) .

وكان يتهيَّأُ للاستعداد لقيام الليل من صلاة العصر ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُكلِّمه حتىٰ يُصلي الوترَ بعد العشاء ، فإذا قام للتهجد من الليل لا يتجرَّأُ أحدٌ أن يكلِّمه حتىٰ يُصلي الضحىٰ ، وكان هـٰذا دأبَهُ ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً .

وغضب مرةً من أهل بلاده حين لم يسمعوا منه ما يأمرهم به من المعروف ، فجاء إلىٰ مصر ، وسكن فوقَ سطوح جامع الغمري بمصر ، فكنا نراه ونحن شباب يقومُ يتهجد في ليالي الشتاء الباردة فوق السطوح إلىٰ أن يُصلي الصبح ، وكان أحدُنا لا يستطيعُ أن يُخرجَ يده من شدَّة البرد ، وكنا نحفظ ألواحنا في العلم ، ونقرأ ماضينا ، ونكتبُ وننام ، ثم نقومُ فنجدُهُ قائماً يصلي .

وكان سيدي الشيخ محمد بن أبي الحمائل شيخُ الشناوي يقول : (ما رأتْ عيني أعبدَ من ابن عنان) .

وكان رضي الله عنه يحبُّ الإقامة في أسطحة المساجد ، كلُّ مسجد أقام فيه لا يجلسُ إلا علىٰ سطوحه في بلاد الريف وفي مصر ، وكان تارةً يعملُ له خصّاً ، وتارةً خيمةً .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه أقام في بدء أمره فوق سطوح جامع عَمْرو ثلاث

سنين ، وفي سطح جامع طولون سنةً ، قال : (وكنتُ لا أنزل من السطح إلا لصلاة الجماعة ، أو سماع درس الشيخ يحيى المناوي رضي الله عنه) .

وكان جامعاً بين طريقي الفقهاء والصوفية .

قال : (وسخَّرَ الله تعالىٰ لي الدنيا مدَّةَ إقامتي علىٰ سطح جامع عمرو في صورة امرأة عجوز ، فكانت تأتيني كلَّ ليلة بإناء فيه طعامٌ ورغيفين ، قال : وما خاطبتها قطُّ ، ولا خاطبتني ، ولـٰكني كنتُ أعرفُ أنها الدنيا) .

وقال لي مرةً : (حفظتُ القرآن وأنا رجل كبير ، فقرأتُ النصفَ الأول أولاً على الشيخ ناصر الدين الأخطابي ، والنصفَ الثاني علىٰ أخي الشيخ عبد القادر) .

وكان رضي الله عنه إذا نزل في مكان كأنَّ الشمسَ حلَّتْ في ذلك المكان ، لا أكادُ أشهدُ غير ذلك ، وذلك وأنا صغير لا أكاد أفرِّق بين مقامات الرجال ، ووالله ؛ إنه ليقعُ لي في الليلة الباردة أو الليلة القصيرة في الصيف : أني أكسلُ عن قيام الليل ، فأنظرُ بعيني في أهل عصري كلهم ، فلا أجدُ حالَ أحد منهم يُنشِّطني إلا حال الشيخ محمد رضي الله عنه ؛ فإني أُقدِّر في نفسي أن لو كان الشيخ محمدٌ في الليل في مثل هـٰذا الوقت : هل كان يعود للنوم من غير وضوء ولا صلاة ؟! فلا أجدُهُ يرجع إلى النوم ، فأنشطُ لوقتي ، ويزولُ عني مرض الكسل .

وسمعتُه مرة يقول : (من منذ دخلتُ طريق الفقراء لا أقدر أجلس علىٰ حَدَثٍ قطُّ ، بل وضوئي دائم ليلاً ونهاراً) .

قال : (ولقد أصابتني مرةً جنابةٌ في ليلة باردة ، وكان علىٰ باب دارنا بركةٌ جَمَدَ ظاهرُها من البرد ، فنزلتُ فيها ، واغتسلتُ ، فوجدتُها من شدَّة الهمَّةِ كأنها مسخَّنةٌ بالنار) .

وكان رضي الله عنه إذا استنجىٰ في الخلاء وأبطأ عليه ماءُ الوضوء يرىٰ أن يضرب بيده الحائطَ ويتيمَّمُ حتىٰ يجدَ الماء ، ولا يجلس علىٰ غير طهارة لحظة .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ مجالسةَ الله وهو يمكث علىٰ حَدَثٍ لحظةً واحدة فهو قليلُ الأدب) .

وكان يستدلُّ في صحة هٰذا التيمم : بأنه صلى الله عليه وسلم سلَّمَ عليه شخصٌ ، فضرب بيده على الأرض ، ثم قال : « وعليكم السلام » ، فقيل له في ذلك ، فقال : « السلامُ اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ ، فكرهتُ أنْ أذكرَهُ وأنا مُحدثٌ »[(١)] .

ومما وقع لي مع سيدي محمد بن عنان رحمه الله : أنني طلبتُ ليلةً من الليالي مدَّ رجلي للنوم ، فكلُّ ناحية أمدُّها نحوها أجدُ قبرَ وليٍّ من أولياء الله تعالىٰ ، فمددتُها نحو باب البحر ، فرأيت قبر سيدي محمد ، فضممتُ رجلي ، ونمتُ جالساً ، فمدَّ يدَهُ وسحب رجلي نحوه ، فاستيقظتُ ونعومة يده في رجلي .

وكان رضي الله عنه يتكدَّر ممن يُصبِّحُه بشيء من الدنيا ولو من زرعه وماله ، أو ليفرِّقه على الفقراء ، وأتاه ولدُ أخيه عبد الدائم يوماً بصرَّة فيها نحو أربعين ديناراً بعد صلاة الصبح ، فزجره وقال : لا صبَّحَكَ الله بخير ، تُصبِّحُنا بالدنيا ، رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه إذا دعاه أحدٌ إلىٰ طعامه ، وعرف أن في طعامه شبهةً يجيبه ، ولٰكنْ يأخذُ في كمِّه رغيفاً يأكلُ منه على السماط حافاً ، ولا يدعُ أحداً يلحق به إلا من كان فطناً .

وكان رضي الله عنه إذا سأله أحدٌ في حملة يثورُ بها ، وجاءه مرةً الشريفُ بركات سلطان الحجاز وهو فوق سطوح جامع الغمري ، فقال : يا سيدي ؛ أنا شريفٌ ، وأنا في جوارك تجرني من الغوري ؛ فإني عازمٌ على الهروب ، والنوق تنتظرني في تربة العادل ، وأخاف أن يلحقني جماعةُ الغوري ، فقال الشيخ : إن شاء الله يا شريف ما أحدٌ منهم يلحقك ، ثم دخلَ الشيخُ الخلوة والشريف ينتظرُ خروجه ، وكان الوقتُ نصفَ عصر ، فلما أطال عليه قال : انظروا لي الشيخ ، ففتحنا الخلوة ، فلم نجدِ الشيخ ، مع أنها خلوةٌ ضيقة ، فما كان إلا يسيراً وفتح الشيخ ، وخرج وعيناه كالدم الأحمر ، فقال : سافرْ يا شريف ، فما علم به الغوريُّ إلا بعد ثلاثة أيام ، فأرسل خلفَهُ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٧) عن المهاجر بن قُنفُذ ، أنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلَّم عليه ، فلم يردَّ عليه حتىٰ توضأ ، ثم اعتذر إليه فقال : « إني كرهت أن أذكر الله عز وجل إلا علىٰ طهرٍ ، أو قال : علىٰ طهارةٍ » ، ورواه مسلم (٣٧٠) مختصراً عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رجلاً مرَّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول ، فلم يردَّ عليه .

فلم يدركه ، وكان علىٰ نوق عشاريات .

وأخبرني ولدُ بنت شيخنا الشيخُ أبو اللطف السنباطي : أنه دخل وهو صغيرٌ علىٰ سيدي محمد الخلوة بغير إذن ، فوجدَ الشيخ جالساً ورأسُهُ في طوقه ، فحرَّكه ، فلم يجد في ثيابه أحداً ، وأخبر بذلك جدَّهُ الشيخ أمين الدين ، فقال : يا ولدي ؛ لا تعد إلىٰ مثل ذلك .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخواص يقول : أنا ما عرفتُ مقام سيدي محمد بن عنان إلا من سيدي إبراهيم المتبولي ، كان يقول : وعزَّةِ ربي ؛ ليتحمَّلنَّ حملتي من بعدي سبعون رجلاً ويعجزون عنها ، فقال له شخص : فلمن تكون خدامة الحُجرة النبوية من بعدك ؟ فقال : هي لمحمد بن عنان ، فقيل : في أي البلاد ؟ فقال : شابٌّ يظهر من بلاد الشرقية ، قال سيدي علي : فلم أزل أسألُ عنه بعد موت سيدي إبراهيم حتىٰ عرفته .

وسمعت سيدي محمد بن عنان مرةً يقول : ليس للفقيرِ في هـٰذه الدار رأسُ مال إلا قلبه ، فكلُّ مَنْ أدخل علىٰ قلبه شيئاً يكدِّرُهُ من الدنيا فما عليه من دينه ، فقلت له : ما هو الذي يكدِّرُ الفقير ؟ فقال : يكون في زاوية مثلاً فيأتي شخصٌ ينازعه فيها ، فمن الأدب تركُها له ، وكذلك البيت ، والرزقة ، وأخذ تلامذته ، وغير ذلك . انتهىٰ .

وأخبرني الشيخ العاملُ الصالح شمسُ الدين اللقاني قال : كان عندي وسواسٌ عظيم ، فشكوتُ ذلك لسيدي محمد بن عنان ، فقال : يقولون : إن المالكية ليس عندهم وسواس ، فبمجرَّدِ قوله : (ليس عندهم وسواس) لم يبقَ عندي شيءٌ من الوسواس .

وكان رضي الله عنه إذا سأله أحدٌ عن شيءٍ من أحكام الطريق يزجرُهُ ويقول : تلمذْ للأشياخ واقتدِ بهم يُطلعوك على الطريق ذوقاً ؛ فإن الطريق ما هي كلام .

وكان لا يلقِّنُ أحداً الذكر ، ويقول : (هـٰؤلاء الذين يلقِّنون من لا يصلحُ للطريق كالمستهزئين بها) .

ودخل عليه مرةً الشيخُ أحمد النجدي علىٰ غفلة وقال : سألتُك بالله تعالىٰ تُلقِّني

الذكر ، فتغيَّرَ وجهُهُ وقال : ما حملك علىٰ ذلك ؟! لا تعد إلىٰ مثله ، ولقَّنه ، وبلغنا : أنه لقَّن شخصين آخرين .

وجاءه مرةً شخصٌ من الفقراء ، فقال : يا سيدي ؛ كم عدد الخواطر ؟ فزجره وقال : واللهِ ؛ ما كنا نظنُّ أننا نعيش إلىٰ زمان تصيرُ طريقُ الله فيه كلاماً من غير عمل .

وكان رضي الله عنه إذا أقام بمصر لا يكاد يصلي الجمعة مرتين في جامع واحد ؛ بل كلُّ جمعة في جامع ، وكثيراً ما كان يصلي الجمعة في جامع عمرو ، وفي جامع محمود ، وفي جامع القراء بالقَرافة .

وكان لا يغفلُ عن زيارة القَرافة كلَّ جمعة ، ويختم زيارتَهُ بالإمام الشافعي رضي الله عنه ، ويقول : (إن الأدبَ مع الإمام ألا نزور أحداً بعده) .

وأخبرني الشيخ موسى الدماصي : أنه لم يعرف سيدي محمد بن عنان إلا من ساحل رودس ، فقيل : كيف ذلك ؟ فقال : كنت أذهب مع الفقراء في الغزوات بالليل ، فكنت أجده دائماً أمامَ الناس ، فأعجبني حالُهُ ، فسألتُ عنه ، فقالوا لي : هـٰذا من بلادك ، واسمُهُ محمد بن عنان ، فتعرَّفتُ به من هناك .

قال : (وللفقراء في كلِّ ليلة غزوة لا يكادون يتركون الغزو في بلاد الفرنج ليلة واحدة في السنة) .

وكان رضي الله عنه يزور الفقراء الصادقين ، ويكره الفقراء المتسلِّقين على الطريق بالشعرة والعذبة ولبس الصوف ، مع نومهم الليل ، ويقول : ما بيني وبين هـٰؤلاء ودٌّ ولا إخاءٌ ؛ لكذبهم في الطريق .

وكان إذا زار أحداً عكف الناسُ عليه من حينِ زيارته ، ويقولون : لولا أن فيه رائحةً ما زاره الشيخ .

وكان إذا مرَّ وهو راكبٌ علىٰ سيدي عليٍّ الخواص وهو في حانوته يقف بالحمارة ، ويقرأ (الفاتحة) ، وكذلك إذا مرَّ على الشيخ أحمد البهلول بباب الخرق ، وهو أحدُ مشايخي ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ[1] .

---

(١) انظر (٤/ ٢١٢) .

وزرتُ معه مرةً شخصاً خارج باب القَرافة اسمه الشيخ محمد الدلجي ، فقبَّل سيدي محمد رجلَهُ ، وصار يقول : آنستَ بلادنا يا شيخ محمد[١] ، والشيخ محمدٌ بين يديه كالطفل ، وكان شيخُنا لابساً قلنسوةً بلا عمامة ، وهو جالسٌ علىٰ تخت ، فكنتُ أقول : لولا عظمةُ ذلك الشيخ ما قبَّلَ سيدي محمد رجلَهُ ؛ فإنه ما كان يُعجبُهُ كلَّ أحد ؛ لعلوِّ همَّته .

وكان يُدوِّرُ السبحةَ كثيراً في يده وهو يقرأ القرآن ، فيعتقدُ الناسُ أنه يُسبِّح .

وكان يكره للفقير أن يغتسلَ عُرياناً ولو في خلوة ، ويقول : ما بُنيتِ الطريقُ إلا على الأدب مع الله تعالىٰ .

وأخبرني أخي العبدُ الصالح أبو العباس الحريثي قال : رآني سيدي محمد مرةً وأنا أغتسلُ ، وفي وسطي مئزرٌ ، فأمرني بالغسل في ثوب خَلَق ، وقال : بدنُ الفقير كلُّه عورةٌ ، كبَدَن المخدَّرات .

وكان رضي الله عنه إذا دخلَ علىٰ مريض من إخوانه النافعين للناس يتحمَّلُ عنه المرضَ ، ويضطجع ، فيقوم ذلك المريضُ في الحال كأنه لم يكن به مرضٌ ، أخبرني بذلك الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغمري ، قال : وفعل ذلك مع سيدي أبي العباس الغمري ، فقام في الحال بعد أن كان أشرفَ على الموت ، ومرض سيدي محمد نحو أربعين يوماً ، ولعلها المدَّةُ التي كانت بقيت من مرض سيدي أبي العباس . انتهىٰ .

وحضرته أنا مرةً دخل على الشيخ علي البليلي المغربي في باب جامع الأزهر ، فوجدهم يشيلون من تحته عند الشيخ إبراهيم الرحبي[٢] ، فتحمَّلَ عنه ، وقام البليلي في الحال .

وحمل مرةً حملة مريض ، فقام المريضُ ، وحملَ الشيخَ علىٰ حمارته إلىٰ جامع الغمري ، فمكث مدةً وهو مريض .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقير حبَّ الشُّهرة أو تعاطي أسبابها .

---

(١) في (أ ، ط) : (آنستنا يا محمد) .
(٢) في (أ ، ط) : (الرضي) بدل (الرحبي) .

وحضرتْ صلاةُ العصر ونحن مارُّون علىٰ باب جامع الأزهر ، فقالوا له : نصلي في الجامع ، فقال : هـٰذا مكانُ مجمع الناس ، فلم يدخل ، وصلىٰ في مسجدٍ خارجَهُ .

وكان رضي الله عنه يحفظُ ودَّ أخيه حيّاً وميتاً .

ودُعي مرةً إلىٰ وليمة ، فلما جاء باب الدار قال : مَنْ حضر ها هنا من الفقراء ؟ فقالوا له : سيدي علي المرصفي ، فرجع ، فقيل له : هل بينكم وبينه وقفةٌ ؟ فقال : لا ، وإنما كان بينه وبين أخي الشيخ نور الدين الحسني وقفةٌ ، وصحبته متقدِّمة عليه ، فأحببت الوفاءَ بحقِّ أخي في عدم موادّدة مَنْ بينه وبينه وقفة ، وإلا فأنا بحمدِ الله لا أكرهُ أحداً إلا لغرض شرعي .

وكان رضي الله عنه يكرهُ أن يتبعَهُ جماعةٌ إذا ركب مكاناً ، ويقول : ارجعوا من خلفي .

وكان إذا ركب لحاجة أخذ معه بعضَ خبزٍ ، وصعتر ، وإبريق ، ويقول : (من شرط الفقير خفَّةُ مؤنته) .

وكان يقول على الخبز : (نعم الرفيق) .

وقيل له مرةً : إن المكان الذي قصدتموه قريبٌ ، فما يحتاجُ أن تحملوا معكم خبزاً ، فقال : قد يطولُ الزمن ، وإنَّ النفسَ إذا جاعت استشرفت للأكل ، فإذا وجدتْهُ أكلتْهُ باستشراف نفس ، وقد أخبر الشارعُ بأن ذلك مذموم .

وكان رضي الله عنه لا ينام قط علىٰ طرَّاحة ، ويقول : كلُّ فقير نام علىٰ طرَّاحة فلا يجيء منه شيءٌ في الطريق ، فقيل له : فما دليلُكم في ذلك ؟ فقال : ما رواه الترمذي عن أنس قال : حدَّثني بعضُ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان له عباءة كان ينامُ عليها [فثنتها][1] أربع ثنيات وقالت : هو أوطأُ لك يا رسول الله ، فنام صلى الله عليه وسلم تلك الليلة عن غالب ورده ، فقال : « ردُّوها إلىٰ حالِها الأول ؛ فإن لينَها منعني عنْ قيامِ ليلتِي »[2] .

---

(١) ما بين معقوفين زيادة لازمة لتمام المعنىٰ .

(٢) رواه الترمذي في « الشمائل » (٣١٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، ورواه مختصراً المروزي في « قيام الليل » برقم (٣٦) ، وتقدم تخريجه (٢/ ٣٤٤) .

وكان يقول : (تهيؤ الفقير لقيام الليل متعيِّن عليه ، فلا ينامُ علىٰ طراحة إلا من هو عازم على النوم عن تلك المواهب الإلـٰهية) .

وأخبرني الشيخ أمين الدين إمامُ جامع الغمري رحمه الله قال : كان في ناحية شان شلمون بالشرقية شخصٌ أسودُ بدويٌّ اسمه الشيخ فرج ، وكان جالساً في حوَّاقة حوَّقها عليه بشوك في البرية ، وعنده الحيواناتُ التي بينها وبين بعضها عداوةٌ كالقط والحمام ، والقط والفأر ، والحيَّات والعقارب ، والدجاج والثعالب ، وغير ذلك ، وكان عنده جِرارٌ كثيرةٌ فيها الشعير والقمح ، وعنده رحاة ، فإذا جاءه ضيفٌ يقول : مرحباً بضيف الله ، ثم يقوم يأخذ ملء يديه قمحاً أو شعيراً ، فيطحنه على الرحاة ، ثم يضعُهُ في ماء على النار ، ويحرِّكه ، فإذا استوىٰ وضعه بين يدي الضيف ؛ فمنهم من يأكل ، ومنهم من تنفرُ نفسه من ذلك ، فيقول : رح ما حصلَ لك شيء .

وكان لا يستطيع أحد أن يجلسَ قريباً منه ؛ خوفاً من الحيات والثعابين .

وكان إذا سأله أحدٌ في حاجة يُخاطب الثعابين ويقول : يا ملوك الله ؛ اقضوا حاجته ، فتُقضىٰ .

وكان يلتقطُ القمح والشعير الذي يصيف منه في الطرق أيام الحصاد ، فلما زاره الشيخ محمد بن عنان أولَ مرةٍ قال : مرحباً بالجُنيدي ، وثاني مرةٍ قال له : مرحباً بالأمير ، وثالث مرةٍ قال له : مرحباً بالسلطان ، ورابع مرة قال له : مرحباً براعي الصهب ، فكانت هـٰذه آخرَ تحيَّتِهِ له .

ونزل السلطان قايتباي لزيارة الشيخ فرج هـٰذا ، فقال له : ادع لي ، فقال له : رح قلعتك ، أيشٍ تطلب بعد السلطنة ؟! فقال : عفو الله ، فقال : قد عفا عنك . انتهىٰ .

ومناقب سيدي محمد كثيرة ، وفي هـٰذا القدر كفايةٌ .

ولما حضرته الوفاةُ فوق سطوح جامع باب البحر بخط المقسم ماتَ نصفُهُ الأسفل ، وصلىٰ وهو جالسٌ بالإيماء ، فلما فرغَ من الصلاة أشار : أن أضجعوني ، فأضجعناه ، فما زال يُهمهمُ بشفتيه والسُّبحةُ في يده حتىٰ كانت آخر حركة يده وشفتيه طلوع روحه ،

رضي الله عنه ، وكان ذلك بحضرة الشيخ حسن الحديدي ، والشيخ أمين الدين ، والشيخ أبي الحسن الغمري ، وجماعة كثيرة .

ودخل علينا السلطان طومان باي الذي تولى السلطنة بعد الغوري ، فصار يُقبِّلُ بطون أقدام الشيخ ، ويمرِّغُ وجهه علىٰ بطون أقدامه ، ويقول : طالما وقفتم بين يدي الله في الظلام .

وجرَّدته من ثيابه أنا والشيخ حسن الحديدي ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة [اثنتين][1] وعشرين وتسع مئة ، وعمره مئة وعشرون سنة ، ودفن خلف محراب جامع المقسم ، وبنىٰ عليه ولدُهُ الشيخ أبو الصفا قبةً عظيمة وزاويةً ، وفيها فقراء ومجاورون رضي الله تعالىٰ عنه ، آمين .

ومنهم :

(٣٩١) الشيخُ الصالح الورع الزاهدُ
الشيخُ نور الدين الحسني رضي الله عنه[2]

كان مُقيماً في مدرسة السلطان حسن ، وهو رفيقُ سيدي علي بن خليل المرصفي في الطريق ، أخذ عنه خلائقُ لا يُحصون .

وكان جميلَ الأخلاق ، إذا جلس عنده أحدٌ لا يكادُ يحبُّ مفارقتَهُ .

وما زال يلقِّنُ الناسَ ويربِّيهم حتىٰ سمع شخصاً معه خشبُ الشيوخ التي يُسرَّحُ بها الكتان يقول : يا قفة شيوخ بعثماني[3] ، فترك التلقين من ذلك اليوم وقال : قد وعظت يا علي ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) في (هـ ، و ، ي) : (بدر) بدل (نور) ، وتقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٤٧) (٣٤٥) .

(٣) العثماني : قطعة نقدية .

ومنهم :

(٣٩٢) الشيخ الصالح سيدي عليُّ بنُ الجمال النَّبْتِيتي رضي الله عنه[١]

رأيتُهُ وأنا صغير وكان رجلاً مُهاباً[٢] ، دعا لي دعوات وجدتُ بركتها .

وكان سيدي أبو العباس الغَمْري يُجلُّه ويعظمه ، ويصفه بالرجولية .

وأودع عنده مرةً سيدي أبو العباس الغمري قفصاً من الدجاج ، فحمله علىٰ رأسه من نبتيت إلىٰ مصر ، ولم يمكن أحداً يحمله علىٰ حمار ، وقال : ليس من الاعتناء بأمر الشيخ أن أحمل وديعتَهُ علىٰ حمار إلا إذا عجزتُ عن حملها .

وكان رضي الله عنه يسافرُ مكة كلَّ سنة بالقمح والحبوب والصدقات والخيرات ، فينفقُ علىٰ نفسه القليلَ من التجارة ، والباقي يُفرِّقه على المحتاجين بطريق خفية لا يكادُ أحدٌ يشعر بها ؛ وذلك أنه يصبُّ القمحَ في المسعىٰ ، ويجلس يبيع ويسوم بالغالي فوق الناس بزيادة ، فكلُّ من ركنَ إلى الشراء بالزيادة يعطيه ما طلب من غير ثمن ، ويقول : لولا شدَّةُ حاجته ما ركنَ للشراء بالزيادة ، فإذا بلغه أنه تكلم بذلك للناس أرسل طالبه بالثمن ، وقال : القمح ليس هو لي ، وإنما أنا وكيلٌ في بيعه ، فلا يعودُ يُخبر بعد ذلك أحداً .

وكذلك كان يفعل في الثياب ، والسكر ، والصابون الذي كان يأخذه معه للفقراء ، كلُّ مَنْ أخبر الناسَ بما أعطاه له يُرسل يسترجعُهُ منه ويقول : أنا غلطتُ فيك .

وحج مرةً مع سيدي أبي العباس الغمري هو وجماعة من أشياخ العصر ، وكانوا نحوَ أربعة عشر شيخاً ؛ منهم : سيدي محمد بنُ عنان ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد السروي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد الشناوي ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، فجلسوا يأكلون تمراً في ليلة مظلمة ، فلما فرغوا قال : عدُّوا نواكم ، فعدُّوه ، فلم يزدْ واحدٌ علىٰ واحدٍ نواةً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٥) (٣٤٨) .

(٢) ترددت النسخ بين (مهاباً) و(مهيباً) .

وطلبوا من سيدي محمد الغمري أن يأذنَ لهم في المجاورة ، فقال : من كان يستطيع منكم الأدب مع الله ورسوله فليجاور ، فما استطاع منهم أحدٌ أن يقوم بذلك الأدب ، ورجعوا كلُّهم تلك السنة .

وكان الشيخ أبو بكر الحديدي هو الذي يضحكهم ويشرحهم إذا انقبضوا .

وأخبرني الشيخ أمين الدين الإمام قال : بينما الشيخ أبو بكر الحديدي جالسٌ إذ جاءته امرأةٌ من بغايا مكة ، فقالت له : تبغي ؟ فقال : لا ، ولـٰكن روحي لذلك الرجل الذي في الخيمة ، وأشار إلىٰ سيدي محمد بن عنان وهو يُصلي الضحىٰ ، فلما فرغ قالت له : تبغي ؟ فقال : ما مرادُك ؟ فقالت : تفعلُ ما يفعله الرجل بامرأته ، فأخذ الشيخُ العصا ، وهرول وراءها ، فهربت ، فضحك الجماعة ، فقال الشيخ : مَنْ أرسلها لي ؟ فقالوا له : الشيخ أبو بكر ، فقال له : ما حملك علىٰ هـٰذا ؟ فقال : قصدت أنك تنظرُ إليها نظرةً ؛ لعلَّها تتوب مما هي فيه .

وكان سيدي علي النبتيتي رضي الله عنه إذا فرَّقَ شيئاً على الفقراء للناس لا بدَّ أن يخلط عليه شيئاً من ماله ويفرِّقُهُ في حجة مال الناس ، حتىٰ لا يكادُ أحدٌ ينسب إليه شيئاً ، وكان الناس يصفونه بالبخل .

توفي سنة نيفٍ وتسع مئة ، ودفن ببلده نبتيت ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٣) الشيخ الصالح الورع الزاهد ، المواظبُ علىٰ تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً ، الشيخ عبد القادر بن عنان أخو الشيخ محمد رضي الله عنهما[١]

صحبته سبع سنين .

وكان رضي الله عنه إذا حرث أو حصد ، أو مشىٰ أو جلس لا يدع قراءةَ القرآن ، وكان هو وردَهُ على الدوام ؛ لأنه وردُ الأكابر العارفين بالله تعالىٰ ؛ ولذلك حثَّ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٧) (٣٤٩) .

الأشياخ علىٰ أن تكون أورادهم من القرآن ؛ ليجمعوا بين تلاوة القرآن والذكر ، فيثابوا من جهتين .

وكان الغالبُ عليه الاستغراقَ عن أحوال الناس ، لا تكاد تحدثهُ شيئاً من اللغو إلا وتجده مشغولاً عنك ، لا يُصغي لك أبداً .

وكان كثيرَ الشفاعات عند الكشاف ومشايخ العرب .

وطريقه ماشية ، وكلُّ من خالفَهُ عُطب .

وكان الشيخ محمد أخوه يقول : (إن أخي عبدَ القادر عمارةُ هـٰذه البلاد) .

وكان يقول : كلُّ فقير لا يقتل الله علىٰ يديه بعدد شعر رأسه من الظلمة فما هو فقير ، فقيل له : الصفحُ من أخلاق الرجال ، فقال : الصفح عمن يُرجىٰ خيره ، وهـٰؤلاء سَدَاهم ولُحْمَتُهم أذىً للناس .

مات علىٰ رأس العشرين وتسع مئة ، ودفن ببلاده ، وقبره بناحية برهمتوش ظاهرٌ يُزار رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٤) الشيخُ الصالح ، ذو السمت البهي ، والخُلُق الرَّضي ، والنفع التامِّ للخاصِّ والعام ، الشيخ محمد العدل رضي الله عنه[١]

بناحية طناح بالشرقية .

كان كثير النفع للناس ، وله بيتٌ فيه النعناعُ ، والكزبرة ، والملح ، والصعتر ، والفلفل ، والتوتيا ، والأرز ، والعدس ، والزيت ، والشيرج وغير ذلك مما يحتاجُ إليه الفقراء ، فكان كلُّ من احتاج شيئاً أتىٰ إليه ، فقال له : ادخلْ تجد حاجتَك .

وأخبرني أنه تلمذَ في بداية أمره لشخص من أرباب الأحوال ، فقال له : صلِّ في بيتك ، ولا تخرج لجمعةٍ ولا لجماعةٍ ، فمكث نحو عشر شهور كذلك ، فبلغ سيدي محمد بن عنان ذلك ، فجمع له فقراءَ العصر ، وكتبوا له كتاباً وقالوا : نحن ما نعرفُ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٧) (٣٥٠) .

طريقاً إلى الله إلا طريقَ أهل السُّنة والجماعة ، فإن لم تخرجْ وإلا فأنت مهجور ، فخرجَ ، وصحب سيدي محمد بن عنان وغيرَه من أهل الطريق ، وشاع أمرُهُ بين الناس .

وأخبرني الشيخ شمسُ الدين الدواخلي : أن شخصاً رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : قلْ لمحمد العدل بناحية طناح يتبعْ سُنَّتي ، ويطيع محمد بن عنان ، ويقضي حوائج الناس . فقال : سمعاً وطاعة ، فاشتَهر من تلك الليلة باسم العدل .

مات رضي الله عنه ببلده ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٥) الشيخ الصالحُ ، المحمديُّ السني
الشيخ محمد بنُ داود المنزلاوي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه على السُّنة المحمدية في أقواله وأفعاله .

اجتمعتُ به مرات عديدة في مصر ، ودعا لي بدعواتٍ وجدتُ بركتها مع جملة من دعا لي من الأشياخ الحاضرين عنده ؛ وذلك أن والدي في التربية دخل بي على الشيخ محمد بن عنان وعنده الشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد الشناوي ، وكانوا قد اجتمعوا في مصر للشفاعة في ابن الصندلي عند الغوري لما اتُّهم بالزغل[٢] ، فقال والدي بعد أنْ أوقفني بين أيديهم : أسألُ من كلِّ واحد منكم دعوةً لهٰذا الولد ، فدعا لي كلٌّ واحد دعوةً ، وأمروا والدي أن يُلبسني الجُببَ الصوف الحمر والسود ، فمن ذلك الوقت لم تزلِ الجُبَبُ عندي .

وكان سيدي محمد بن داود ليس له شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنف رسالةً سمَّاها : « طريقة الفقر المحمدي » ضبط فيها أقوالَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله التي ظهرت للأمة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٥٨) (٣٥١) .

(٢) **الزغل** : الغش .

وكان يُضرب به المثلُ في اتِّباع السنة هو والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ أبو بكر الحديدي .

وكان رضي الله عنه يخدمُ الفقراءَ والمنقطعين عنده ، وينظِّفُ ما تحتهم من البول والغائط ، ويشتمُهُ الضيفُ ، ويحكم فيه ، وهو راض متبسِّم .

وكان لا يتخصَّصُ عن الفقراء المجاورين عنده أو الضيوف بشيء ، وربما عملت له زوجتُهُ دجاجةً ولا تُعلمُه بها إلا بعد أن ينام الفقراء طلباً لأن يأكلَها وحده ، ويبرَّ بها نفسه ، فيأخذها ويخرج ينبِّه الفقراءَ من النوم ، ويفرِّقُها عليهم نُسيرةً نُسيرةً[١] .

وبلغني : أن سيدي إبراهيم المتبولي أرسلَ له نحو عشرة أرادب قمحاً في الغلاء ، ففرَّقها كلَّها على باب الدار ، ففضلَ له منها نحو خمسة أقداح .

ومناقبه في بلاد المنزلة كثيرةٌ مشهورة .

وخلَّف من أولاده على طريقته الشيخ شهاب الدين ولده ، فأحيا السنة بعد والده في البلاد ، وكان سيدي محمد بن عنان يحبُّه محبَّةً شديدة .

وما رأيت بعد الأشياخ في عصرنا هـٰذا أكثرَ اتِّباعاً للسُّنة منه ومن الشيخ يوسف الحُريثي ، كانت أفعالُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأقوالُه نصبَ أعينهما ، وسيأتي إفراده بترجمةٍ إن شاء الله تعالىٰ[٢] .

مات الشيخ محمد المذكور في بلده النسيمية ، ودفن بجوار الزاوية ، وقبره بها ظاهرٌ يزار .

ورأيتُ ولدَهُ يدعو له باسمه على المنبر فلا يُنكَر عليه .

وأخبرني الحاج محمد المنزلاوي : أن الشيخ محمد كان إذا جاءه الضيف بعد العشاء ولم يجد ما يطبخه علَّقَ الدستَ بالماء ، وأوقد عليه ؛ فتارةً يجدونه أرزاً حلواً ، وتارةً أرزاً بلبن طيب ، وتارة شوربة دجاج أو لحم ، هـٰكذا قال لي .

---

(١) النسيرة : القطعة الصغيرة من اللحم المطبوخ . « المعجم الوسيط » (٢/ ٩١٧) .
(٢) انظر (٤/ ٢٢٦) .

واحتاجَ مرةً إلىٰ شيرج للطعام ، وزاويتُهُ علىٰ ساحل البحر الملح ، فكان يُرسل النقيبَ يملأ له الإبريق من البحر ، ويصبُّ منه على الطعام ، فيجدونه شيرجاً ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٦) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى ، الشيخ محمدُ السَّروي الشهير بابن أبي الحمائل رضي الله عنه[١]

وهو شيخُ شيخنا أيضاً : الشيخ محمد الشناوي رضي الله عنه ، وشيخ الشيخ أبي بكر الحديدي ، والشيخ علي الحديدي ، وشيخ الشيخ محمد العدل والشيخ عبد الحليم ، وغيرهم .

كان رضي الله عنه عالي الهمة ، كثيرَ الطيران من بلد إلىٰ بلد ، وربما طارَ من بعد العشاء فلا يأتي إلى الفجر ، كما أخبرتني بذلك زوجتُه أمُّ شهاب الدين قالت : وكان يغلبُ عليه الحال في الليل ، فيتكلَّمُ بالألسنة الغريبة ؛ من عجمٍ ، وهندٍ ، وسندٍ ، ونوبةٍ ، وحبشةٍ ، وتارةً يقول : قاق قاق طولَ الليل ، وتارة يُزَغرطُ ، ويُخاطبُ ناساً لا يراهم جليسُهُ .

وأخبرني الشيخ محمد الدِّمياطي قال : بينما سيدي محمد السروي جالسٌ في البرج بدمياط ، وإذا هو بالأمير بيغوت دخل[٢] ، فحصل للشيخ حالٌ ، فركب فرسَ الأمير ، ورمحها علىٰ ظهر البحر حتىٰ غاب ، ثم رجعَ وثيابُهُ مخرَّقة ملطَّخة بالدم ، وفيه كذا كذا طعنة ، فقالوا له : ما هـٰذا الحال ؟! فقال : شخصٌ من التجار من إخواننا خرج عليه سبعُ مراكب من الفرنج ، فأخذوا مركبه ، فذهبت فخلَّصتُهُ منهم ، وضربتُ بحافر الفرس في مقادم المراكب ، فغرقت كلُّها .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٩) (٣٥٢) .

(٢) **الأمير بيغوت** : هو سيف الدين بيغوت بن عبد الله المؤيدي الأعرج نائب صفد ، كان رجلاً ديِّناً ، مشهوراً بالشجاعة والإقدام ، وقوراً في الدولة ، توفي سنة (٨٥٧هـ) . انظر « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٧٠) .

وكان له وصلةٌ بسيدي أحمد البدوي .

وكان يُخبر : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يحضر مولد سيدي أحمد كلَّ سنة .

وكان إذا فاته المولدُ لمرضٍ ونحوه يقول : احملوني إلىٰ طريق الذين حضروا في المولد لأتبرَّكَ بثيابهم ، فكان يلمس ثيابَهم ويمسح بها علىٰ وجهه ويقول[1] : [من الطويل]

. . . . لعلي أراهمْ أو أرىٰ منْ يراهمُ

ونزل مرةً من مصر لمولد سيدي أحمد في المركب ، فوقع خاتمُهُ في البحر ، فقال : يا سيدي أحمد ؛ ما أعرفُ خاتمي إلا منك ، فلما وصلَ طندتا نفضَ كُمَّه ، فوقع الخاتمُ منه ، رضي الله عنه .

وأخبرتني زوجته أمُّ شهاب الدين قالت : خرج الشيخُ بعد العشاء من الدار في ناحية فارس كورة ، وترك ثيابه وعمامته في دركة الباب ، فطار هو وجماعة ، ثم رجع بعد الفجر فلبس ثيابه ، فقلت له : أين كنت ؟ فقال : رأيتُ جماعةً خرجوا على المسلمين في البحر ، فاستغاثوا بنا ، فأغثناهم .

وكان إذا قال قولاً في غلبة حال يُنفذُهُ اللهُ تعالىٰ .

وجاءه مرةً ناسٌ من شرق أطفيح[2] ، فقالوا له : قد أكل الفأرُ القطنَ والسِّمسمَ والعصفر ببلدنا ، فقال لصاحبنا الحاج محمد القاصد : رح يا فلان معهم ، فنادِ في الغيط : معاشرَ الفئران ؛ حسب ما رسم محمد بنُ أبي الحمائل : أنكم ترحلوا من هـٰذا الغيط ، وكلُّ من قعدَ بعد الليلة شُنقَ بلا معاودة ، فخرجتِ الفئرانُ كلُّهم إلا سبعَ فئران ، فوجدوهم مشنوقين في عيدان العصفر .

ثم إن تلك البلد التي انتقل الفئرانُ لها جاؤوا وشكوا للشيخ ، وقالوا له : أرسل معنا أحداً ينادي لنا مثل تلك البلد ، فقال : يا أولادي ؛ ذهب ذلك الحال ، فقالوا : لا بد ، فأرسل معهم شخصاً ، فنادىٰ ، فلم يرحل شيءٌ من الفئران .

---

(١) عجز بيت ، وصدره : أمرُّ على الأبوابِ من غيرِ حاجةٍ ، وتقدم مع تخريجه (٢/ ١٢١) .

(٢) **أطفيح** : إحدىٰ مراكز محافظة الجيزة ، وكانت إحدى الأقسام الإدارية الهامة والقديمة في مصر منذ عهد قدماء المصريين .

وكان رضي الله عنه مبتلىً بالأذىٰ مع زوجته أمِّ شهاب الدين مع قدرته علىٰ هلاكها بعون الله ، ولـٰكنه كان يصبرُ عليها ، وربما أدخلَ الفقير الخلوة ، فتجيء فتخرجُهُ قبل تمام المدة ، فلم يتكلَّم ، وتقول له : قال لك فلان : أنا ما أعمل شيخاً .

وكان رضي الله عنه لا يقرِّب أحداً إلا بعد طول امتحانه .

وأخبرني شيخُنا الشيخ محمدُ الشناوي : أنه لما قدم عليه في بلاد فارس كورة لم يردَّ عليه السلام سوىٰ أول دخوله ، ثم تنكَّر عليه ، فلم يَرَ له وجهاً مدة خمسة شهور ، فلما رأىٰ شدَّةَ إقباله وعدمَ أخذه علىٰ نفسه لقَّنه الذكرَ ، وصحبه مدةً طويلة ، ثم إنه أذن له أن يلقِّنَ الذكرَ ، ولم يعرف شيخنا أنَّ ذلك مكرٌ به ، فنزل بلاد الغربية ، وفتح باب التلقين ، فانقلب أصحابُ شيخه أبي الحمائل كلُّهم وتلقَّنوا عليه إلا واحداً ، فسافر ذلك الواحدُ إلى الشيخ ، فقال له الشيخ : كيف حالُكم في البلاد ؟ فقال : ما بقي لنا حالٌ ، انقلبَ الناسُ كلُّهم عنك ، وتلقَّنوا على ابن الشناوي ، فقال : لا تتشوشوا ، نحن نأخذُ الوداعة التي عنده ، ومدَّ يده ، فأعرضَ أهلُ الغربية من ذلك الوقت عن الشيخ محمد الشناوي ، فلحق بالمسألة .

فأتىٰ إلى الشيخ في الزاوية الحمراء حافياً مكشوفَ الرأس ، فمكث في زاويةٍ منها نحوَ أربعين يوماً ، فشفعتْ فيه زوجةُ الشيخ أمُّ شهاب الدين ، فأرسل خلفه ، وقال : يا محمد ؛ إنما امتحنتُكَ بالإذن لأنظرَ أدبَكَ معي ، ثم قال له : إذا أخذت جماعتي فجعلتهم لك مريدين في حياتي ، فأَصير أنا شيخٌ علىٰ مَنْ ؟! فقال : يا سيدي ؛ العفو ، فعفا عنه ، ثم رجع تاركاً للتلقين إلىٰ أن مات شيخه ، ولم يفلح أحدٌ من الناس الذين كانوا تلقَّنوا عليه ، بل سُلبوا كلُّهم ، فلما مات شيخُه برز في الغربية ، وأخذ الناسُ عنه على القاعدة الصحيحة ، وانتفعَ به الناس كثيراً كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالىٰ[1] .

وأخبرني الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشناوي أخي شيخنا : أن سيدي أبا الحمائل لم يزلْ يمتحن عمِّي الشيخَ محمد إلىٰ أن مات .

قال : ورأيتُهُ مرةً سلك الطريقَ الوعرة وترك الطريقَ الهيِّنةَ ، فتبعه عمِّي زماناً ، ثم

---

(١) انظر (٤/١٩٩) .

التفت إليه وقال : أحسنتَ يا محمد الذي تبعتني في الطريق الوعرة ، ولم تفارقني كما فعلَ غيرك ، ثم قال : يا محمد ؛ ما تهتُ شيئاً ؛ فإن العارفَ لا يتوه في طريق ، وإنما أردتُ اختبارك . انتهىٰ .

وأخبرني الشيخ علي الحديدي قال : كان الشيخ محمد السروي جالساً في الدور الأول من منارة جامع فارس كورة ، وإذا بجماعة طيَّارةٍ مرُّوا عليه ، فطار معهم ، فأعجبتْهُ نفسُهُ ، فسقط في البحر المالح قريباً من البر ، فلولا لطفُ الله تعالىٰ به لغرق ؛ فلذلك كان رضي الله عنه يقول : (احذروا غوائل النفوس ؛ فإن الفقير يُؤخذُ عن مقامه إذا أُعجبَ بنفسه) .

وأخبرني الشيخ يوسف الحُريثي قال : (دخلتُ مرَّةً جامع فارس كورة ، فوجدتُ الشيخَ في مجلس الذكر ، فكان يقومُ فيأخذ الرجلين بيد واحدة ، ويصيرُ يجري بهما يميناً وشمالاً ، ثم إنه حمل التيغار الماء الكبير على اليد الأخرىٰ[1] ، وصار يتواجد ويجري ، ولم يكبَّ شيئاً من الماء) .

وقد صحبته رضي الله عنه نحوَ خمسِ سنين لمَّا دخل مصر وسكن الزاوية الحمراء ، ثم زاوية الشيخ المواهبي ، وبها توفي .

وأخبرني الشيخ شهاب الدين الطندتائي خادمُهُ قال : عزمَ أميرٌ على الشيخ ، وأجلسَهُ في مقعده ، فنظر الشيخُ إلىٰ سقف المقعد وقال : هـٰذا يصلحُ لزاويتنا ، وكان إذ ذاك لم يشرع في عمارتها ، قال الشيخ شهاب الدين : فلما تمَّتْ عمارةُ الزاوية أرسلنا الشيخُ رحمه الله نشتري لها سقفاً ، فوجدنا سقفَ ذلك المقعد بعينه ، فاشتريناه ، فهو سقفُ زاويته إلى الآن ، فصحَّ كشفُ الشيخ رحمه الله .

وسمعته يقول : (لقنت نحو ثلاثين ألفاً ، فما عرفني منهم أحدٌ غير ابن الشناوي) .

وكان يكرهُ للمريدين قراءةَ أحزاب الشاذلية ويقول : (ما ثَمَّ جلاءٌ للقلوب مثل قول : « لا إلـٰه إلا الله ») .

قال : ومثالُ أحزاب الشاذلية مثالُ زبَّال خطبَ ابنة السلطان وهو علىٰ دناءته ،

---

(١) التِّيغار : كقِيفالٍ : الإجانة « تاج العروس » (ت غ ر) ، وفي « معجم متن اللغة » (ت غ ر) : (مكيال للحبوب ، وفي المصابغ يشبه الخابية المقطوعة من نصفها) .

وصار يقول للسلطان : أعطني ابنتك ، واجعلني جليسك ، وهو لا يعرفُ شيئاً من آداب حضرة الملك) .

وكان يقول : (ما رأينا قطُّ مريداً وصلَ إلىٰ مقامات الرجال بقراءة الأحزاب) .

ودخل مرةً علىٰ جماعة الشيخ إبراهيم الشاذلي وهم يقرؤون الحزب ، ويقولون : اللهم ؛ اجعلنا كذا ، وافعل بنا كذا ، ولم يتفرَّسْ في أحدٍ منهم القبولَ لِمَا طلب ، فزجرهم ، وأقامهم ، وصار يقول لأحدهم علىٰ وجه التوبيخ : اجعلْ لي ، واعملْ لي ، واصطفيني ، واجعلني من خواصِّ حضرتك ، ثم يقول : واللهِ ؛ أنتم لم تصلحوا لخدمة الخلق ، فكيف تصلحون لخدمة الحق ؟!

وسمع مرةً أُخرىٰ شخصاً منهم يقول : اللهم ؛ اجعلني من خيار أهل حضرتك ، فصفعه في قفاه ، وقال : خيارُ أهل الحضرة الأنبياء والملائكة .

وكان يقول : (كيف تلبسون على الله تعالىٰ بلبس الصوف والشعرة ، وتنامون طول الليل ؟! أنتم واللهِ من المنافقين) .

وسمعته مرةً يحكي قال : كنتُ جالساً عند الشيخ يحيى المناوي رضي الله عنه في خلوته بجامع عمرو أقرأُ عليه في الأصول ، وإذا بشخص أسودَ كبيرِ البطن جدّاً عليه خيشة ، وهو متحزِّمٌ بحبل واقف علىٰ رأس الشيخ ، فنظر إلى الكتب التي عند الشيخ ، فقال : يا رسول الله ، ما أكثر هـٰذه الكتب ! هل تحفظُها ؟ فقال : لا ، فقال : أنا أحفظُها كلَّها ، فقال له الشيخ : كيف ذلك ؟! فقال : أنا أعرفُ أن كل حرف منها يقول لي : كنْ رجلاً جيداً ، ثم اختفىٰ فلم نجده ، فسألنا الشيخَ عن كِبَرِ بطنه ، فقال : يا ولدي ؛ هـٰذا إشارةٌ إلىٰ أن السيئة تضيعُ فيها لوسعها ، فلا يؤاخذُ أحداً ، بخلافنا يا ولدي ، بطوننا ضيِّقةٌ أدنىٰ شيء يظهر فيها .

وكان رضي الله عنه يقول : (لا ينبغي لفقير أن يجتمعَ بشيخ وعنده التفاتٌ إلىٰ فقير أو عالم آخر)[1] .

---

(١) وقع في هامش (ز) : (قوله : « أن يجتمع . . . إلخ » أي : اجتماعاً يؤدي لنقص اعتقاده في شيخه ، وإلا فلا محذور فيه ، بل فائدة الزيارة فيه ثابتة لا ينكرها أحد . انتهىٰ كاتبه) .

ويقول : (إذا لم يكنِ الفقيرُ يرىٰ أن شيخَهُ يكفيه فلِمَ يتَّلمذُ له ؟!) .

وكان يقول : (كلُّ فقير اجتمع بغير شيخه لا يفلح ؛ لأن الذي يبنيه شيخه يهدمُهُ غيره) .

وأخبرني خادمه قال : لمَّا حججنا صار المصريون يجتمعون عليه حلقاً حِلقاً يتكلَّمون بالكلام اللغو ، فزجرهم ، فلم ينزجروا ، فأرسل الخادمَ يقول لكلٍّ واحد منهم : الشيخُ يطلبُ منك كذا وكذا من مئة دينار إلىٰ ألف دينار تأتي له بها بكرةَ النهار ، فانقطعوا كلُّهم عنه من تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ربِّ العالمين[1] .

لقَّنني الذكرَ وأنا صغير في سنة اثنتي عشرة وتسع مئة وهو بالزاوية الحمراء .

ووقائعه مشهورة بين أصحاب شيخنا الشناوي ، وبين أهل دمياط ، وفارس كورة ، وطندتا ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه بمصر ، وصُلي عليه في الجامع الأزهر ، ودفن بزاويته بخطٍّ بين السورين في سنة [اثنتين] وثلاثين وتسع مئة[2] ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٣٩٧) الشيخ الكامل الراسخُ ، مربِّي المريدين ، قدوة السالكين سيدي علي المرصفي رضي الله عنه[3]

كان جبلاً راسياً في مصر ، دانت له أشياخ عصره ، وتخرَّجَ به التلامذة الصالحون .

واختصر « رسالة القشيري »[4] وتكلَّمَ علىٰ مشكلاتها ، وقرأت غالبها عليه أنا وأخي الشيخ أبو العباس الحُريثي ، ثم مات الشيخ ، فلم نتمَّها .

وتلقَّنت عليه الذكر ثلاث مرات في أوقات متفرقة ، بين الأولىٰ والثانية [سبع عشرة]

---

(١) وسيمر شبيه هـٰذه القصة في ترجمة سيدي إبراهيم الشاذلي (٤/ ٢٢٤) .

(٢) في النسخ : (اثنين) بدل (اثنتين) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٢) (٣٥٣) .

(٤) واسم المختصر : (الورد العذب) . انظر « هدية العارفين » (١/ ٧٤٢) .

سنة[١] ، وذلك أنني دخلتُ عليه وأنا أمردُ ، وكنت أطالع في رسائل الفقراء كثيراً حتىٰ حفظتُ غالبَ كلامهم ، وما رأيت حصلَ عندي شيءٌ من أحوالهم ، وكنتُ أحسب أن طريقَ القوم طريقُ نقل كلام كغيرها ، فلما جلستُ بين يديه بعد صلاة العصر قلتُ له : يا سيدي ؛ لقِّني بحال ، وما كنتُ أعرفُ ما في ذلك من سوء الأدب ؛ فإن مقامَ الشيخ فوق مقام أصحاب الأحوال ، فقال : باسم الله يا ولدي ؛ اجلس متربِّعاً ، وغمِّض عينيك واسمع مني : (لا إلـٰه إلا الله) ثلاثَ مرات ، ثم اذكرْ أنت ثلاث مرات ، ففعلتُ ، فما سمعتُ من الشيخ سوى المرة الأولىٰ منه وغبتُ ، فما استقيظتُ إلا بعد صلاة المغرب ، ولم أجد أحداً حولي ، فخرجتُ ومكثت [سبع عشرة] سنة[٢] ، لا أقدر علىٰ مقابلته لقوَّة الحال الذي وقعَ منه إلا بتكلُّف ، إذِ الكامل لا حال له .

والمرةُ الثانية : لقَّنني ، فسمعتُ منه كلمةَ التوحيد ثلاثَ مرات ، ثم حصل لي غيبة ، فرأيت مع الشيخ ثلاثَ مخارز ، فغرزها في خدي الأيمن إلى النِّصاب[٣] ، فلما أفقتُ ذكرتُ ذلك له ، فقال : الحمد لله ، هـٰذا دليلٌ علىٰ تأثير التلقين فيك .

الثالثةُ : أنني تلقَّنْتُ عليه مع سيدي أبي العباس الحُريثي لمَّا قدم من بلاد الشرقية ، وما عرَّفني مقدارَ الشيخ إلا هو ؛ لكونه كان أكبرَ منِّي سنّاً ، وأنورَ قلباً ، ثم لا زلنا نحضرُ عنده كلَّ يوم من العصر إلى المغرب نقرأ عليه في « مختصره لرسالة القشيري » إلىٰ أن مات رضي الله عنه .

وكان إذا دخل أحدٌ من الفقهاء وهو يتكلم في التوحيد يُعرضُ عن ذلك إلى المسائل الفقهية ، ويقول : (ذكرُ الكلام لغير أهله عورةٌ ، فإذا خرج عاد إلى الكلام الأول) .

وقالوا له مرةً : لِمَ لا تجعلون لكم درساً في الطريق في جامع الأزهر ؟ فقال : ليس ذلك من أخلاق القوم ، إنما كان الجنيد ومن بعده يُدرِّسون علم القوم في قعر بيوتهم ؛

---

(١) في النسخ : (سبعة عشر) ، وفي « الطبقات الكبرىٰ » (خمسة عشر يوماً) .
(٢) في النسخ : (سبعة عشر) .
(٣) **النصاب** من كل شيء : الأصل والمرجع الذي نصب فيه وركب ، وهو المنبت والمحتد .

خوفاً أن يسمع أحدٌ عن القوم كلاماً لا يفهمه فيقعُ فيهم ، فيهلك ؛ وذلك لدقَّة مداركهم ، ومن لا إلمام له بطريقهم ولا بالتردُّد إلىٰ مجالسهم لا يعرف لهم اصطلاحاً أبداً .

ودخل عليَّ سيدي أبو العباس الحُريثي يوماً بعد المغرب ، فجلسَ عندي إلىٰ أن دخل وقتُ العشاء ، فقرأ خمسَ ختمات وأنا أسمع ، فذكرتُ ذلك له ، فقال : يا ولدي ؛ أنا قرأتُ مرةً حالَ سلوكي ثلاث مئة وستين ألف ختماً في يومٍ وليلةٍ ؛ كلُّ درجة ألف ختمة .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (إذا فعلَ المريدُ فعلاً ، فقال شيخُه : هو مذموم ، وقال غيرُ شيخه : هو محمود ، فالواجب : الرجوع لكلام شيخه ؛ لأنه أمينٌ عليه ، بخلاف الغير) .

وكان يقول : (إذا خرج مريدٌ عن حكم شيخه ، وصار يقدحُ فيه وفي أصحابه فلا يجوز لأحد تصديقه ؛ لأنه في حال ردَّةٍ عن طريق الله ، وتهمةٍ في حاله) ، قال : (وهـٰذا الأمرُ قلَّ أن يسلمَ مريدٌ خرج عن مرسوم شيخه منه ؛ وذلك لأن القلوبَ تصيرُ تمقتُهُ ، فلا يجدُ له فرجاً إلا الحطَّ في الشيخ وفي أصحابه تصريحاً وتعريضاً) ، قال : (وذلك علامة استحكام المقت فيه ، ولـٰكنْ إذا أراد الله بذلك المريد خيراً جمعه بعد مفارقة شيخه بمن يُحبُّ شيخه ويُجيب عنه ، فهناك تتحرَّكُ همَّةُ المريد إلىٰ شيخه ، ويطلبُ الرجوع إليه) .

وسمعته يقول : (إذا خرج المريد عن حكم شيخه ، وانقطع عن مجلسِهِ ، فإن كان سببُ ذلك الحياءَ من الشيخ ومن أصحابه لزلَّةٍ وقع فيها ، أو فترةٍ حصلتْ له . . فهو كالطلاق الرَّجعي ، فللشيخ أن يقبلَهُ إذا رجع ؛ لأن حرمةَ الشيخ في نفس هـٰذا المريد لم تذهب ، لا سيما وأحوجُ ما يكون المريد إلى الشيخ إذا تعوَّج ، فينبغي للشيخ وأصحابه التلطُّفُ بهـٰذا المريد ، وعدمُ الغلظة عليه ، والهجر له ، إلا إن وثقوا به لقوة الرابطة التي بينه وبين الشيخ) .

وسمعته يقول : (ليس للشيخ أن يُبالغَ في التنكر على المريد ؛ لأن ذلك ينفِّرُهُ ، وكذلك لا ينبغي للمريد أن يسأل الشيخ عن سبب غضبه عليه ، وهجرِه له ، بل عدُّوا

ذلك من سوء الأدب ؛ لأنه ربما أقام المريدُ الحجَّةَ علىٰ شيخه بذلك ، فيترقَّىٰ في سوء الأدب إلىٰ أن يقيم الحجَّة علىٰ ربِّه ، فيهلك) .

وسمعته مرةً يقول : (لا يجوزُ للمريد إذا وصفَهُ شيخُهُ بأنه قليلُ الأدب في عبادة أو غيرها أن يجيب عن نفسه ؛ لأن الشيخ يعرف من المريد ما لا يعرفُهُ المريد من نفسه ؛ كبيطار الدواب ؛ فإنه يعرف من أمراض الدابة ما لا يعرف صاحبُها) .

وكلامه رضي الله عنه في الطريقِ كثيرٌ شائعٌ .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه كان قبل دخوله في الطريق أُمِّيّاً يخيطُ النعال[1] ، وأنه اجتمع بسيدي مَدْين مع والده وهو ابنُ ثمان سنين ، ولقَّنه الذكر ، ثم إنه لما كبر أخذ بعده عن ابن أخت سيدي مَدْين الشيخ محمد بعد أن أخذ عن سيدي مدين ، وربما يكون الرضاعُ من شخصٍ والفطامُ علىٰ شخصٍ آخر .

وعاش رضي الله عنه إلىٰ أن انقرض جميعُ أقرانه في مصر ، وما بقي فيها أحدٌ يشار إليه في الطريق غيره .

ومن وصيتِهِ لي : (إياك أن تجعل محلَّ إقامتك زاويةً لها وقفٌ ، فيتعب خاطرُك ، وتتلف جماعتُك ، كما وقع لي ذلك في الخانقاه ؛ وذلك لأن أصحاب الوظائف في الغالب من أهل الدنيا ، يشاححون على القيراط ، فيكدِّرون علىٰ شيخ الزاوية وقته بطلبهم منه الالتفات إلى الدنيا وجمعها من الخراج وغيره ، بخلاف ما إذا كان الفقراء في الزاوية علىٰ ما يفتحُ اللهُ تعالىٰ) ، وكذلك أوصاني سيدي علي الخواص .

وقد جرىٰ علي المقدر ، وقاسيتُ في ذلك غايةَ المشقة ، ولولا أن الموتَ قرب لخرجتُ من الزاوية ، فاللهُ يختمُ الأمر بخير .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بقنطرة أمير حسين بمصر ، وقبره بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في النسخ : (أدمياً) ، والمثبت من « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٤) .

ومنهم :

(٣٩٨) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالى ، الشيخُ العارف بالله تعالىٰ والدَّاعي إليه ، الشيخ تاجُ الدين الذَّاكر المديني[1]

أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته .

كان وجهُهُ رضي الله عنه كأنه قطعةُ شمس ، أو قمرٌ من النور الذي يسطعُ من قلبه علىٰ وجهه ؛ وذلك من نور الأعمال المرضية ، والأخلاق الحسنة .

وكان ذا سمتٍ حسنٍ ، وشيمٍ محمدية ، تكادُ كلُّ جارحةٍ منه تنطق وتقول : صاحبي وليُّ الله عز وجل .

وكانت تلامذتُهُ في غاية الجمال والكمال ، والسمتِ الحسن .

وكانت زاويتُهُ مفروشةً باللبابيد السود ؛ لئلا يسمعَ الفقراءُ الذين في الخلوة وقعَ أقدام الفقراء إذا مشوا ، ويقول : (حضرةُ الفقراء هي حضرةُ الحقِّ ؛ لعكوف قلوبهم علىٰ حضرته ، ولا ينبغي أن يكونَ في حضرة الحق علوُّ صوتٍ ، ولا حركة قوية لها حسٌّ) .

وكانت تلامذته رضي الله عنه كثير من الأمراء وغيرهم ، وكان كثير الشفاعات عند السلطان فمن دونه .

وكان دائمَ الطهارة ، لا يتوضأ عن حدثٍ إلا كلَّ سبعة أيام ، وسائرُ طهاراته تجديد . وأخبرني خادمُهُ الشيخُ عبدُ الباسط الطلحاوي ، وكان أحدَ العشرة الذين أذن لهم : أنه انتهىٰ أمره في الوضوء آخر عمره إلىٰ أنه يتوضأ كلَّ اثني عشر يوماً ، وهٰذا أمرٌ ما ظهر عن أحد من أشياخنا غيره ، إلا أن يكون الشيخ أبو السعود الجارحي ؛ فإنه بلغنا : أنه كان يمكث رمضانَ كاملاً بوضوء واحد .

وتنازع في ذلك ـ أي في الحال الذي ذكرناه عن الشيخ تاج الدين ـ جماعةٌ من حارة جامع ابن طولون ، فعزموا عليه في الجيزة أيامَ الربيع ، وصاروا يقدِّمون له الدجاج ، واللحم الضاني ، والأرزَّ باللبن ، والقشطة ، وغير ذلك ، ويأكل مع كل طائفة ، فبعد

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٥) (٣٥٤) .

سبعة أيام قالوا له : إنك في امتحانة في ترك الوضوء ، وهم يستهزئون[١] عليك مدَّةَ السبعة أيام ، فقام الشيخ راجعاً إلىٰ مصر ، ودعا على الممتحِنين ، فانقلبتْ بهم المركبُ ، فقالوا له في ذلك ، فقال : ما ثَمَّ غرقٌ ، وإنما هو تأديبٌ فقط ، فكان الأمر كذلك ، انطربوا وبلَّتْ ثيابهم فقط ، ثم إن الشيخَ تداركَ نفسَهُ في دعائه عليهم ، وقال : ما وقعتْ لي مع أحد قبل ذلك ، ولـٰكن لا بد لي من المؤاخذة ، فمرضَ بسبب تلك الدعوة نحو سبعة وأربعين يوماً .

وأخبرني الشيخُ شمسُ الدين المرصفي الواعظُ أحدُ تلامذته رحمه الله قال : دخلتُ علىٰ سيدي تاج الدين في مرض موته ، فقال : أخبرُكم بشيء من أحوالي علىٰ سبيل التحدث بالنعمة ، ولعلَّ أحداً منكم يقتدي بي في ذلك ؟ فقالوا له : نعم ، فقال : للعبد أربعون سنة يُصلي الصبحَ بوضوء العشاء ، وقد طويتُ سجادتي من بعدي ، ولـٰكنَّ ابن أختي يحيىٰ ، والشيخ أحمد الوفائي ، وإبراهيم ، وعبد القادر ، وفلان ، وفلان وعيَّنَ عشرةَ أنفس إذا حضر واحدٌ منهم مجلس ذكر فلهم أن يستفتحوا الذكر ، وإن اجتمع هـٰؤلاء كلُّهم كان ابنُ أختي مقدَّماً عليهم ، بشرط أن يغيِّرَ عمامتَهُ ، وكانت كعمامة جند الأتراك ، فقلتُ له : هل أذنَ لأحد من هـٰؤلاء العشرة أن يُربِّي المريدين ؟ قال : لا ، هـٰكذا قال .

وأخبرني أيضاً : أن الشيخ أخبره أنَّ له خمساً وعشرين سنة لم يضع جنبَهُ الأرضَ علىٰ طراحة ، إنما ينامُ جالساً علىٰ حصير .

وكان يقول : (ليس القناعةُ أن يرضى الإنسان بما وجد من الأكل واللبس ؛ إنما القناعة أن يجد الأكل ولا يأكل إلا كل ثلاثة أيام أُكيلة ، وأكثرها تسع لقيمات) .

وكان يقول إذا قالوا له : مَنْ بعدكم في الطريق ؟ : (يا أولادي ؛ الطريقُ تعرفُ أهلها ، ولو هربوا منها تبعتهم ، وغيرُ أهلِها إذا تبعوها فرَّتْ منهم) .

وكان يقول : (لا يصح لأحد الاتحاد بشيخه إلا إن جرىٰ في جسم شيخه كجريان الدم في العروق) .

---

(١) ترددت النسخ بين (يستهزئون) و(يسهرون) .

ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة .

صحبته رضي الله عنه نحوَ خمس سنين .

ومات في سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من حمام الدود حين سافر الغوري لقتال ابن عثمان ، وكان قد طلب الشيخَ يسافرُ معه وجميعَ أشياخ البلد ، فأبوا أن يخرجوا معه ، فتوعَّدَهم بالقتل ، فقال الشيخ تاج الدين : ما بقي بيننا وبينه اجتماعٌ ، هو لا يرجعُ ونحن نموت ، فكان الأمرُ كما قال رضي الله عنه .

ومنهم :

(٣٩٩) الشيخ العارف بالله تعالىٰ والداعي إليه ، والمشمر في طاعته ليلاً ونهاراً ، سيدي أبو السعود الجارحي رضي الله عنه[١]

كان من أصحاب الهمم العالية ، وهو أجلُّ من أخذ عن سيدي أحمد المرحومي عن سيدي مدين عن الزاهد .

وكانت له في مصر التلامذةُ الكثيرون ، والكرامات والخوارق ، والقبولُ التام عند السلطان والأمراء وغيرهم .

وكان الأمراء يقفون بين يديه ، فلا يأذن لهم بالجلوس ، وحملوا في عمارة زاويته الطوب وكبوا التراب ، وشنق السلطان طومان باي في باب زويلة وعليه جبَّةٌ حمراء من جبب الشيخ .

وكان رضي الله عنه كثير المجاهدات ، ولم يبلغنا عن أحد من مشايخ عصره ما بلغنا من مجاهداته .

ومكث عشرين سنة صائماً ولا يدري بذلك أهلُهُ ، ومع ذلك كان يُصلي بالقرآن في ركعة أو ركعتين مدة العشرين سنة .

وانتهىٰ أكلُه إلىٰ لوزةٍ ، ثم ترك اللوزة ، وذلك قبل اجتماعه بشيخه المرحومي كما

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٦٧) (٣٥٥) .

أخبر بذلك عن نفسه ، فلما اجتمع به لقَّنه الذكر ، وأمره بالخلوة في بيته سنةً ، فاختلىٰ في غرفة في كوم الجارح ، ثم خرجَ وأبدى العجائب والغرائب .

وكان مدَّةَ العشرين سنة المتقدِّمة يبيت وحده في المدرسة الرسلانية بالقرب من قصر نائب جده ، فكان يأخذُ عشاءه من البيت كلَّ ليلة ، فيعطيه للفقراء ، ثم يدخلُ الرسلانية يصلي إلى الصباح ، ثم يخرج للدكان يبيع فيه العطر إلى العصر ، هٰكذا كان شأنه في بدايته ، ومع ذلك كان يحلفُ ويقول : والله ؛ ما بلغتُ الآن مقام مريد .

وكان ينزل سرداباً تحت الأرض من أول ليلة من رمضان ، فلا يخرجُ إلا للجمعة وصلاة العيد ، وربما كان ذلك بوضوء واحد من غير أكل ، وكان يشربُ كلَّ ليلةٍ عند الغروب مقدار أوقية ماء .

وكان إذا سمع كلاماً يأخذ منه ما شاء الله من الاعتبار .

وسمع مرة شخصاً يقول : يا سيدي ؛ فسدتِ المعاملة ، ونودي على الفلوس أنها بطالة ، فصاح وسقط علىٰ وجهه ، ونتف لحيته ، ومكث يصيحُ يوماً كاملاً ، وكان ذلك في بداية أمره .

وجاءه مريدٌ مرة من موضع مسيرة يومين يطلب الاجتماع به ، فلم يأذن له الشيخ ، فقال في نفسه : أجيءُ من موضع بعيد ولا يخرج لي ، فأرسلَ الشيخُ يقول له : تمنُّ عليَّ بسفرك إلىٰ يومين ، كان المريدُ في الزمن الماضي يُسافرُ ثلاثةَ شهور في مسألة واحدة في الطريق ، ثم قال له : اذهب لا أراك ثلاث سنين ، فمكث ثلاثَ سنين ، ثم جاءه ، فأكرمَهُ وانتفعَ به .

وكان لا يقربُ أحداً إلا بعد امتحانِ سنين .

وأخبرني القاضي شمس الدين بن سودي المالكي بناحية المحلة الكبرىٰ : أن شخصاً من تلامذة سيدي أبي السعود قال له : يا سيدي ؛ رأيت صبية من البرابرة فراحت نفسي لها ، فقال له الشيخ : صُم تنفك عنك الشهوة ، فلم يصم وراح إلى الصبية ، فأدخلته خُصَّها ، فأخذ رجليها في وسطه فتأمل ، فوجدها الشيخ ، فخجل وتركها ، فلما رجع قال له الشيخ على الواقعة كلها قبل أن يسأله .

قال : ووقع مثل ذلك لفقير كان يُظهر للشيخ العبادة والعفة ، لٰكن كان في صورة أمرد ، فخجل كذلك من الشيخ .

وكان كثيراً ما ينظرُ إلى المريد بالحال فيتمزَّقُ لوقته .

وسأله مرةً أجلُّ أصحابه الشيخ شمس الدين البُوصيري رحمه الله وقال : يا سيدي ؛ مقصودُنا أن نسمعَ منك شيئاً من علومِ الأسرار ، فقال : يا محمد ؛ واللهِ ، لا أئتمنُكَ علىٰ ريح أُخرجه وأنت حاضر فكيف أذكرُ لك أسرارَ الله ؟! ولم يُطلعْه علىٰ شيء ، هٰكذا أخبرني الشيخ شمس الدين .

وقال سيدي أبو السعود يوماً : (لي منذ عملتُ شيخاً في مصر سبع وثلاثون سنة ما رأيتُ في المشيخة خيراً قطُّ ، وكنتُ قبل ظهوري في غاية الراحة ورياقة الخاطر بيني وبين الله ، فلما ظهرتُ تكدَّرتْ أحوالي كلُّها ، وكان الأشياخ المتقدِّمون يظهرون لأحد شيئين : إما ليأخذَ الناسُ عنهم الطريق ، وإما لقبول الشفاعات في المظلومين ، ولم يجئني قطُّ مدةَ ظهوري إنسانٌ يطلب الطريق إلى الله تعالىٰ بصدق ، وأما الشفاعات فقد مات من يعتقد في الفقراء ، وما بقي إلا النَّصبُ والزوكرة ، وغالبُ من يلوذ بالفقراء الآن إنما هو لعلل : إما يقول : أستاذي غضبان عليَّ فطيِّبوا لي خاطره ، أو امرأتي تؤذيني ، أو جاري ، ونحو ذلك) .

وكانت مكاشفاتُهُ كثيرةً ، وكان يتكلَّمُ على الخاطر من غير أن يعلمه به صاحبُهُ .

ورأيته في المنام قبل اجتماعي عليه وهو يتوضأُ ، وفي يده شعرٌ نحو شبر ، فأوَّلُ ما اجتمعتُ به بدأني وقال : طولُ الشعر للفقير يدلُّ علىٰ زيادة الدين ، وطوله للأغنياء يدلُّ علىٰ همٍّ وغمٍّ .

وكان يقول للنقيب : إذا طلبني أحدٌ لغير حاجة ضرورية فقلْ له : الشيخُ ما هو هون ، فقال النقيب : كيف أكذب ؟! فقال : لستُ بهون يدقُّ فيَّ الفلفل والثوم للطعام ونحو ذلك .

وكان إذا صحبَهُ شخصٌ وتفرَّس فيه محبَّةَ المشيخة وكثرةَ اعتقاد الناس فيه يُخرجه من ذلك بحيلة يفعلها معه ، فينفرُ منه المعتقدون رحمةً بذلك الشخص .

وأخبرني أحدُ أصحابه الشيخ نورُ الدين الماوردي قال : كان لي شعرةٌ وسمتٌ حسن ، وكنتُ أحبُّ المشيخةَ ، وربما أقول : أيُّ فرقٍ بيني وبين الشيخ ؛ فإني كنتُ أصومُ النهار ، وأقومُ الليل ، ولا آكلُ من يد أحد شيئاً إلا إنْ تحقَّقتُ حلَّه ؟! فمكر بي يوماً ، وقال لي : يا شيخ نور الدين ؛ مقصودي أعتكفُ هـٰذه الأيام كلَّها ، وتقوم عني بكلفة مُلاقاة الناس من الأمراء وغيرهم ، وقال لجميع أصحابه : مَنْ لم يجدني فليكتفِ بالشيخ نور الدين ، ويسأله الدعاءَ ؛ فإنه أعظمُ مني ، قال : فأقبل عليَّ الأميرُ تمراز ، وصار يتردَّدُ إليَّ ، ونسي الشيخ أصلاً ، فجاءني مرةً وأنا واقفٌ أُكلِّمُ الشيخَ وهو في الخلوة ، فقلت له : الأميرُ تمراز جاءَ لكم ، فقال له : قلْ له ما هو هون ، فقلت له : الشيخُ ما هو هون ، فما فرغتُ من كلامي إلا والشيخُ واقفٌ علىٰ كتفي ويقول لي : تكذبُ على الأمير في سبيل الله هـٰذه الشعرة وهـٰذا الطيلسان يا كذاب ، فمن ذلك اليوم ما رآني ذلك الأمير إلا وبصقَ عليَّ ، وقال : آهٍ يا كذاب يا زوكاري يا نصَّاب ؛ ثم قال لي الشيخ : أيشٍ قلتَ يا فلان ، شبكتك وخلصتك .

قال : وقال لي الشيخ مرةً أخرىٰ : إن أميراً كبيراً عازم علىٰ زيارتنا ، ومقصودي تعملُ أنت الشيخ وأنا النقيب ، فما قدرتُ أخالفه ، فأجلسني علىٰ سجادة ، وطرحني بشملة صوف ، وقال : طاطي في الأرض ، وإذا سألك الدعاءَ فقل : الله ورسوله ، واحترص لا تنفكش معه ، فتحزَّم الشيخ أبو السعود بفوطة حمَّامي ، ووقف علىٰ باب الزاوية ، وقال للأمير : هـٰذا الوقت كان سيدي الشيخ في حديثك ، ثم دخلَ معه حتىٰ أوقفه عليَّ ، وقال : قبِّلْ يده تحصل لك البركة ، فقبَّل الأمير يدي ، فكدتُ أذوبُ من الحياء ، ثم قال : يا سيدي ؛ إن ترقَّيتم إن شاء الله إلى السلطنة تعطوا سيدي الشيخ ثلاثين إردباً شعيراً لحمارته ، فقال الأمير : نعم ، قال : وتطبخون له حلواً ، فقال : نعم ، هـٰذا والأميرُ لا يعرفُ من هو الشيخ .

فلما خرج الأمير وشيَّعه الشيخُ رجع وقال لي : أيشٍ رأيتَ نفسَك في المشيخة ؟ فشكوتُ له ما وقع لي ، فقال : فكيف تحسدني علىٰ شيءٍ أُحاسبُ عليه يوم القيامة ؟! فإنَّ الواحد من هـٰؤلاء يلبس هو وغلمانه الحريرَ والذهب ، ويظلم ، ويحبس الناس ظلماً ، ولا قطُّ يُمكننا نصحُهُ بكلمة واحدة ، بل يدخل رأس الواحد منا الجراب ،

ويخرسُ لسانه ، قال الشيخ نور الدين : وقول الشيخ : إني أحسده صحيح ، فتبتُ من ذلك اليوم ، واستغفرتُ الله تعالىٰ .

وكان إذا أخبرَ أصحابه بشيء يقعُ لهم في المستقبل . . فلا بد أن يقع .

وقال لي مرَّةً : (يا ولدي ؛ إيَّاك أن تخبرَ بشيء يقعُ لأصحابك من السوء بالظن ، فيمشِّيه الله لك استدراجاً) .

وأخبرني الشيخ نور الدين الماوردي قال : أنكرتُ علىٰ أصحابه حلقَهم لحاهم ، وقلتُ : هـٰذا أمرٌ لا عن الله ولا عن رسوله ، فقال لي : يا نور الدين ؛ لا بد من حلق لحيتك وتكون أنت السائلَ في ذلك ، قال : فحلقتُ لحيتي بعد قول الشيخ بعشر سنين ، وأبى الحالقُ أن يحلقَ لحيتي ، فأكرهتُهُ علىٰ ذلك ؛ تصديقاً لكلام الشيخ .

وسمعته مرةً يقول : إذا ذكرتُم اسمَ ربِّكم فلا تنطقوا به إلا مع التعظيم والخشية ، فقد كان شخصٌ يطيرُ في الهواء ، ويمشي على الماء ، فدخل علىٰ فقير يعودُهُ وهو مريضٌ ، فقال للمريض : قل : يا لطيف ، فسُلب تلك الكرامة ، فلم يُعرف من أين أُتي عليه ، فدلُّوه علىٰ شخص من أهل الكشف ، فسافر إليه ، فقال له : إنك لقَّنتَ مريضاً اسمَهُ تعالى (اللطيف) وأنت غافلٌ عن التعظيم ، فسلبَكَ الكرامةَ ، فتاب واستغفرَ ، فلم تعد إليه الكرامة حتىٰ مات . انتهىٰ .

وسمعتُهُ مرَّةً يقول لفقير : (اسمع يا أخي ؛ لا تجعلْ لك قطُّ مريداً ، ولا رسالة ، ولا زاوية ، وفرَّ من الناس ؛ فإن هـٰذا زمانُ الفرار) .

وسمعته مرة يقول لفقيه : (متىٰ تصيرُ هاؤك راءً) ؛ أي : فقيراً .

وطلب شخصٌ من علماء الأزهر الاجتماعَ بالشيخ ، فأرسل يستأذن ، فأذن له الشيخُ ، وقال للحاضرين : هـٰذا ليس له عقيدةٌ في شيخ ، فنصبةٌ تودِّيه ، ونصبةٌ تجيبه ، فلما جلس قال الشيخ : [من الطويل]

يظـنُّ النـاسَ بـي خيـراً وإنِّـي ... أشـرُّ النـاسِ إنْ لـم تعـفُ عنـي

بنصب (الناس) ، فقام الفقيه وقال : هـٰذا عاميٌّ ، ولم يلتفت للشيخ ، فلقيه الشيخُ بعد شهر وقال : (يظنُّ الناسُ بي خيراً) بضم السِّين من (الناس) فقبَّل العالمُ يدَ

الشيخ وقال : أنا أقولُ : أستغفرُ الله ، فقال الشيخ : من أبعدَتْهُ نصبة ، وردَّته رفعة لا يصلحُ لصحبة الفقراء .

وأخبرني الشيخ شمس الدين البوصيري قال : لما حضرتِ الشيخَ الوفاةُ أرسل إلىٰ شيخ الإسلام الحنفي وجماعة ، وقال : اشهدوا عليَّ : أنني لم آذنْ لأحد بعدي أن يجلس للسلوك ، وما منهم أحد ذاقَ مذاقَ القوم ، وتبرَّأ منهم ، فبرز بعده شخص يُسمَّى الشيخ عليَّ المسلميَّ ، وقال : من جاءني باعتقاد أوصلته إلى الله تعالىٰ في ثلاثة أيام ، فأخبرتُ بذلك الشيخ شمسَ الدين المذكور ، فأتاه إلىٰ جامع الأزهر وقال : أنت الذي تقول إنك تُوصلُ الناسَ إلىٰ حضرة الله في ثلاثة أيام ؟ فقال : نعم ، فقال : اللهم ؛ إن كان كاذباً فاقصمْه عاجلاً ، فمات بعد يومٍ ، هـٰذا أمر وقع بحضرتي .

مات الشيخ أبو السعود رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بكوم الجارح خارج مصر العتيق ، في السرداب الذي كان ينزله يتعبَّدُ فيه ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٠٠) شيخنا الإمام الكامل ، العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المنير رضي الله عنه[١]

أحدُ أصحاب سيدي الشيخ إبراهيم المتبولي والشيخ كمال الدين بن إمام الكاملية بمصر المحروسة .

وبلغنا : أنه كان يأتي كلَّ يوم من المكان الذي هو فيه اليوم مدفونٌ إلى الكاملية ، فيحضر درسَ الشيخ ، ويرجع ينام في موضعه لأجل السقاية مدة ثلاث سنين ، وذلك قريباً من مرحلتين ذهاباً وإياباً .

وأخبرني ولدُهُ سيدي عليٌّ نفع الله به : أن سببَ إقامة الشيخ في الجبل في هـٰذا المكان أنه كان مُقيماً في بِلْبِيس ، فأخبروه أن امرأةً عطشت في هـٰذا المكان ومعها

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٠) (٣٥٦) .

ولدُها ، فمات من العطش ، فقال : أروني ذلك المكان ، فأروه له ، فحفر فيه بئراً ، وجلس يسقي عليها ، وبنىٰ له قريباً منها خُصّاً ، ونقل زوجتَهُ فيه ، وصار سنين بائتاً صابحاً هو وزوجته حتى اجتمع به بعضُ الفقراء ، فعمروا حوله بعضَ دويرات ، حتىٰ صارت قريةً .

وكان يحجُّ كلَّ سنة ويقدِّسُ بعد أن يصل إلىٰ مصر[1] ، ويقيم شهراً .

وسمعته يقول بجامع الأزهر : (لي سبعٌ وستون حجة متوالية) .

وكان يعتكف رمضان كلَّ سنة في جامع الأزهر ، يختمون حوله كلَّ يوم ختماً ، ويحصل علىٰ يديه برٌّ كثير للفقراء ، وصدقات وخيرات .

وبلغني : أنه مكث في بداية أمره ثلاثين سنة يقرأ في النهار ختماً ، وفي الليل ختماً .

وكان يكره الكلامَ في الطريق من غير سلوك ولا عمل ، ويقول : هـٰذا كلُّهُ بطالة .

وكانت عمامتُهُ صوفاً أبيض ، وله شعرةٌ بيضاء ، وكان يلبسُ البشتَ المخطَّط بالأحمر ، ويقول : أنا رجلٌ أحمدي .

اجتمعت به أكثرَ من ألف مرة ، وحججت معه الحجة الأولىٰ سنة خمس عشرة وتسع مئة . وكان إذا حجَّ يحجُّ على التجريد .

وكان لا يركب إلا نادراً ، وكان يحمل الإداوة علىٰ كتفه إذا مشىٰ يسقي منها العطشان .

وبلغني : أنه كان لا يأكل في مكة والمدينة إلا نحو تمرات ؛ خوفاً من أن يحتاج إلى البراز في تلك الأماكن .

وكان رضي الله عنه لا يحلقُ شعر رأسه إلا في نُسكٍ .

---

(١) يقدس : أي : يزور بيت المقدس ، وروى البزار في « مسنده » (٤١٤٢) في فضل زيادته ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل الصلاة في المسجد الحرام علىٰ غيره مئة ألف صلاة ، وفي مسجدي ألف صلاة ، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة » .

وكان عليه القبولُ التام من الخاصِّ والعام .

وكان يحمل لأهل مكة والمدينة كلَّ سنة غالبَ ما يحتاج إليه الفقراء ؛ من الزاد والثياب والسكر والصابون والخيط والإبر ، لكل فقير أو فقيرة عنده نصيب ، وكان فقراءُ مكة والمدينة يخرجون يتلقَّونه من نحو مرحلة .

وأخبرني الشيخ محمد بن قفيفيني أحدُ أصحاب سيدي محمد المغربي رحمه الله قال : هرب جمَّالي وأنا مسافر الحجاز في الأزلم[١] ، فمرَّ عليَّ الشيخُ وأنا لا أعرفُهُ ولا يعرفني ، فقال : ما لك ؟ قلت له : هربَ الجمَّال ، فأعطاني خمس مئة دينار ، فلما وصلتُ إلىٰ مكة ذهبتُ بها إليه ، فأبىٰ أن يقبلها وقال : ما أعطيتها إلا لله .

وكان يحمل الفقراءَ إذا انقطعوا علىٰ جماله ، ويمشي هو ، رضي الله عنه .

وأخبرني سيدي على الخوَّاص : أن الشيخ كان سريعَ العطب لمن ينكر عليه ، وما آذاه أحدٌ إلا قصمه الله من غير دعاء عليه .

قال : وهو الذي قتل الشيخ محمد بن عراق ، فقلت : وما ذاك ؟! فقال : كان سيدي محمد يُنكر عليه قبوله الصدقات للفقراء من الأمراء ويقول : هـٰذا يحملُ للفقراء الشبهات ، فبلغ ذلك الشيخ محمد ، فمضىٰ إليه ، وكشف رأسَهُ ، وأخذ عمامته ، وجعلها تحت إبطه ، ووقف علىٰ خلوة ابن عراق وقال قولوا : محمد المنير يريدُ الاجتماع ، فلم يخرج إليه ابنُ عراق ، فرجع الشيخُ محمد ، فاشتكاه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فمرض من ذلك الوقت ، فمات بعد عشرين يوماً .

قال سيدي عليٌّ : وكانت هـٰذه عادة الشيخ محمد ، ما كشفَ رأسَهُ لأحد إلا وقتلَهُ الله تعالىٰ بسببه .

وبلغنا : أنه كان يحفظ كتاب « الروضة »[٢] علىٰ ظهر قلب .

---

(١) الأزلم : أحد مناهل الحاج المصري ؛ سمي به لأنه لا ينبت به نبات . « تاج العروس » (ز ل م) .

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (أنه كان يحفظ كتاب الله) ، وكتاب « روضة الطالبين وعمدة المفتين » للإمام النووي رحمه الله تعالىٰ .

ولما حضرته الوفاة سافرتُ إليه من مصر في أيام الشتاء القصار على حمار أعرج ، فوصلتُ زاويته ضحوةَ النهار ، فأقمت عنده إلى الظهر ، ورجعتُ إلىٰ مصر قبل المغرب ، وكان ذلك من كرامته ، وسافر أخي أبو العباس من باب النصر ، فما وصل إلىٰ آخر النهار ، وما رجعَ إلا بعد يومين .

ولما دخلتُ عليه أخبروني : أن له ثلاثة أيام لم يتكلم ، فكلَّمني ، ودعا لي : بأن الله يسترني بين يديه ، وقال : كلَّفتَ خاطرك يا ولدي من مصر إلىٰ هنا .

ثم إنه توفي ليلة رجوعي إلىٰ مصر ، وذلك في سنة إحدىٰ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، وعلىٰ مكانه الواردون كثير ، وجعل الله في ذرِّيته البركةَ ، لا يخلو موضعهم من فقير يكون ضيفاً فيؤون كل من ورد[1] ، ويطعمونه ، ويدفئونه أيام الشتاء ، وهي من أكثر الزوايا نفعاً ؛ لأنها على الدَّربِ السلطاني ؛ كلُّ من سافر إلىٰ غزة ، أو القدس ، أو الشام ، أو رجع إلىٰ مصر . فلا بد أن يأكلَ في الغالب من سماط الشيخ ، ويشرب من زاويته من الأمراء فمَنْ دونهم .

وبلغني من بعض الأولياء : أن الشيخ وضع فيها اللقمةَ للفقراء ، وقال : ما دامتِ اللقمةُ في هـٰذه الزاوية ، فالبلاء الجائي من الشرق مدفوع عن أهل مصر ، فإذا فرغ الطعام جاء البلاء إلىٰ مصر ، وهـٰكذا كان يقول سيدي إبراهيم المتبولي عن زاويته في بركة الحاج كما ذكرناه في مناقبه[2] .

وبلغني أيضاً : أن سيدي محمد المنير لما وقفَ عليه ملكُ الأمراء خاير بك الرزقةَ المعدة للسماط ، رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ؛ لا يسعىٰ أحدٌ في إخراج هـٰذه الرزقة عن زاويتك إلا أهلكه الله تعالىٰ .

ومناقبه كثيرة رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في (أ ، ط) : (فيروون) بدل (فيؤون) .
(٢) تقدم (٤/٨٩) .

ومنهم :

(٤٠١) الشيخ الصالح العابد الزاهدُ الشيخ
أبو بكر الحديدي رضي الله تعالىٰ عنه[(١)]

كان رفيقَ الشيخ محمد المنير في الحج كلَّ سنة مدَّةَ أربعين سنة .

وكان من أكرم الناس وأحسنِهم خُلُقاً ، وأشدِّهم ملازمةً للسنة .

وكان في رأسه مقصّاً يحمله دائماً لمن يرىٰ شاربَهُ طويلاً فيقصُّه .

وكان إذا دعىٰ أحداً إلىٰ طعامه ولم يُجبه يصيرُ يتدخَّل عليه وهو مكشوفُ الرأس ، وعمامته في يده حتىٰ يجيبه .

وكان يفعلُ ذلك مع كل مركب مرَّتْ علىٰ زاويته في البحر الصغير ، فلا يزال مكشوفَ الرأس حتىٰ تجيء المركبُ إلى البر ، فيأتيهم بالخبز والأدم .

وكان من أجلِّ أصحاب سيدي أحمد بن مصلح المنزلاوي أبي الشيخ عبد الحليم .

وكان من طريقته سؤالُ الناس للفقراء سفراً وحضراً في طريق الحاجِّ وغيره .

وكان يحملُ لأهل مكة الثيابَ والقماش والسكر والصابون ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه .

وهو الذي أشارَ عليَّ بلبس الجُبب السُّود والحمر ، وقال : لا تقطعْ لبسَهما أبداً ، وذلك بحضرة سيدي محمد بن عنان ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ محمد العدل الطناحي .

وكان به أسر البول[(٢)] ، فكان يصيحُ كما تصيح النفساء لمَّا يبول .

وكان يَغِير على السُّنة المحمدية ، ولا يسامح أحداً في ترك شيء من آدابها ولو علتْ رتبتُهُ .

وقد رأىٰ مرةً الشيخَ محمد العدل يجسُّ بطنَ امرأةٍ أجنبية ليرقيها من المرض الذي

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٢) (٣٥٧) .

(٢) في (هـ ، و ، ز ، ي) : (حصر) بدل (أسر) ، وكلاهما بمعنىً .

بها ، فصاح عليه : وا ديناه ؛ وا محمداه ؛ الله أكبر عليك يا عدل ، فقال : يا شيخ أبا بكر ، واللهِ ؛ ما حصل عندي لذةٌ بذلك ، فقال له : هل أنت معصوم ؟! فقال : لا ، فقال : قفْ عند الحدود .

وكان رضي الله عنه إذا دخل سوقاً يصير يسأل من الحوانيت يميناً وشمالاً : مَنْ عنده شيءٌ لله ؟ فما كان يطلعُ من السوق إلا بدراهم لها جرم ، ثم يشتري بما تحصل الخبز والإدام ، ويحمِّله لشخص معه ، ويصيرُ يفرِّقُ علىٰ كل محتاج ويقول : أخذنا من الناس ما ينفعهم في آخرتهم ، ومنعناهم من البخل .

وكان رضي الله عنه الغالبُ عليه البسطَ والانشراحَ ، حتىٰ كان الشيخ محمد بن عنان إذا وردَ عليه قبضٌ لا يستطيع أحدٌ أن يُكلِّمَهُ ، فيأتي الشيخ أبو بكر ، فبمجرد ما يراه الشيخ محمد يتبسم وينشرح .

ومناقبه كثيرة مشهورة في البحر الصغير ، وفي مكة والمدينة ، وغيرها .

توفي رضي الله عنه بالمدينة النبوية سنة نيّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالبقيع ، وقبره ظاهرٌ مشهور ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٠٢) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالى
الشيخُ محمد الشناوي الأحمدي المحمدي رضي الله عنه[١]

كان من السُّنة المطهَّرة علىٰ جانب عظيم .

وكان من أهل الإنصاف والأدب مع الناس على اختلاف طبقاتهم ، لا سيما أولاد الفقراء ، وما رأتْ عيني أكثرَ تعظيماً لأولاد الفقراء منه .

وأخبرني شيخنا أمين الدين إمامُ جامع الغمري بالقاهرة ، قال : سمعتُ الشيخ أبا العباس الغمري يقول : (يموت الأدب في أولاد الفقراء بعد محمد الشناوي) .

وكان رضي الله عنه يعظِّمُ الشيخ محمد علىٰ شيخه السروي ، ومصداقُ ذلك : أنه

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٧٤) (٣٥٨) .

كان يتلقَّاه من باب الجامع إذا جاء ولا يتلقَّىٰ شيخه المذكور . انتهىٰ .

وسمعتُ شيخَنا رضي الله عنه يقول : (ما دخلتُ قطُّ علىٰ فقير إلا وأرىٰ نفسي دونه ، وما فتحتُ قط كلاماً في الطريق من غير سؤال ، وما دخلتُ علىٰ فقير قط أو عالم إلا وخرجتُ بفائدة ، ومن كان كذلك فلا تُحصىٰ أشياخه) .

وكان يقول : (ما ادَّعىٰ أحدٌ قطُّ مقاماً دون النبوة وكذَّبتُهُ ؛ لأن غايتَه أنه ادَّعىٰ مُمكناً) .

وسمعته رضي الله عنه يقول : (ينبغي للفقير : ألا يطلبَ الظهورَ في هٰذه الدار عند الأمراء أو الملوك ، إلا إن كان يقدرُ علىٰ إظهار كرامة تدلُّ علىٰ صدقه ، وإلا فالستر له أولىٰ) .

قال : ولما ظهر أمري في الغربية ، وكثرتْ شفاعاتي عند الأمير حسام الدين بن بغداد. . ردَّ شفاعتي مرةً وقال : هل أنت متميِّزٌ عنَّا ؟! بماذا ؟! إن كنتَ تُصلي في الليل وتذكر الله وتصومُ فنحن نفعلُ ذلك ! فلم أجد له جواباً ، فتوجَّهت إلىٰ سيدي أحمد البدوي ، فقال : بيِّن لك أثراً في ولده سلام أخي حجازي ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ في ذلك ، فلحقه شيءٌ في قلبه ، فخرجتُ من عنده ، فوقع الصياح عليه من النساء ، فأرسلوا خلفي خيلاً يترضَّونَ خاطري ، فرجعتُ ، فرقيتُهُ في ماء ، وصببته عليه ، فشفي في الحال ، فقبَّل الأميرُ حسام الدين يدي ، ثم لم يردَّ لي شفاعةً بعد ذلك اليوم . انتهىٰ .

وسمعته مرةً أخرىٰ يقول : (من علامة ذوق الفقير للطريق : ألا يزدري أحداً ممن انتسب إليها ، بل يجلُّه ويكرمه كما يجلُّ أكبرَ الأمراء) .

وكان يقول : (رأىٰ سيدي عبد الرحيم القِناوي مرةً خرقةَ صوفٍ في عنق كلب ، فقام للكلب ؛ إجلالاً للخرقة الصوف) .

وكان رضي الله عنه قد أقامه اللهُ تعالىٰ في قضاء حوائج الناس ليلاً ونهاراً ، وربما يمكث نحوَ الشهر وهو ينظر إلىٰ بلده ، لا يتمكَّنُ من الطلوع لها ؛ لكثرة الخلق المكبين عليه السائلين له أن يدخل دارهم ليتبرَّكوا به .

وكان أهل بلاد الغربية لا يزوِّجُ أحدٌ ولده إلا بحضوره ، ولا يختن إلا بحضوره .

وكان يلقِّنُ الرجالَ والنساء والأطفال كلمةَ : (لا إلـٰه إلا الله) في أي بلد طلعه .

وكان يرتِّبُ مجالس الذكر للرجال والنساء صباحاً ومساءً ، ويقول : يا فلان ؛ اذكرْ بإخوانك ، يا فلانة ؛ اذكري بجاراتك ، فجميعُ مجالس الذكر التي ببلاد الغربية الآن ترتيبه ، رضي الله عنه .

وسمعتُهُ يقول مرَّةً : (أشعلنا في هـٰذه البلاد نارَ التوحيد ، فلا تنطفئ إن شاء الله إلىٰ يوم القيامة) .

وهو الذي سعىٰ في إبطال سخرة الشعير التي كانت في بلاد ابن يوسف ، ونقشَ بذلك حجارةً ، ووضعها في كراسي البلاد ، وكان يموتُ في تلك السخرة خلقٌ كثيرٌ من الجوع والعطش ، وتنقطعُ الطرقات حتىٰ يفرغَ قلعُ الشعير ، وعزم على السفر إلىٰ إستنبول بسبب ذلك في ليلة من الليالي ، فجاءه سيدي أحمد البدوي ، فقال : يا محمد ؛ لا نحوجُكَ إلى السفر ؛ فإن جميعَ أولياء الغربية معك .

ولما توقف العرض من مصر إلى السلطان ابن عثمان بسبب ذلك قال الشيخ : إن شاء الله يرسل اللهُ للسلطان من يسأله في ذلك ، ففي تلك الليلة رأى السلطان الشيخ محمد الشناوي علىٰ حمارته في ديوان إستنبول وهو يقول : يا مولانا السلطان ؛ أرسلْ مرسوماً إلىٰ مصر بإبطال سخرة الشعير التي في بلاد السباخ ، فأرسل السلطان مرسوماً بذلك من ذات نفسه من غير أن يصلَ له عرضٌ من مصر بذلك ؛ ببركة همَّته ، رضي الله عنه .

وكانت أموالُه كلُّها من بهائم وحبوب وغيرها كلُّها على اسم المحاويج ، لا يتخصص منها بشيء .

وكان لا يقبلُ شيئاً من هدايا العمال والمباشرين وأرباب الدولة ، ويقول : (من شرط الداعي إلى الله أن يُطعمَ الناسَ ولا يُطعمونه) .

وأهدىٰ له نائبُ مصر قاسم كزل أصوافاً وشاشاتٍ وذهباً وفضة ، فردَّ ذلك ، وقال للقاصد : لسنا محتاجين إلىٰ مثل ذلك ، ثم التفتَ إلى الحاضرين وقال : وعزَّةِ ربي ؛

إنْ عندي من جلَّة بهائمي أكثر من هـٰذه الهدية لو بعته[1] .

وكان رضي الله عنه لم يزل في مقاعده جبائر القطن ملصوقة من كثرة ركوبه في حوائج الناس ليلاً ونهاراً .

وما رأت عيني في أشياخِ العصر أحداً أوسعَ خُلقاً منه ، ولا أكرم نفساً .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها أخلاق ، لا أقوال ودعاوىٰ) .

وكان إذا جلسَ إليه أبعدُ الناس عنه لا يقوم من مجلسه حتىٰ يعتقدَ أنه ليس عند الشيخ أحدٌ أعز منه ؛ لحسن لفظه ، وكثرة إقباله علىٰ جليسه .

ودخل مرةً القصر لبنت الخليفة زوجة ابن خاص بك ، فلقَّنها الذكرَ ، ولقَّنَ جوارها وخدمَها ، وفتح بهن مجلس الذكر ، فذكرن حتىٰ وقعتْ عصائبُهنَّ من كثرة الاضطراب في الذكر ، فلما نزل قال : الحمد لله الذي لم يحضرنا أحدٌ من المنكرين علىٰ هـٰذه الطائفة .

وكان أكثرُ تربيته بالنظر دون الكلام ، فينظرُ إلىٰ قاطع الطريق وهو مارٌّ عليه ، فيتبعه في الحال ، لا يستطيعُ أن يردَّ نفسَهُ عن الشيخ ، ورأيتُ منهم جماعةً صاروا من أعيان جماعته .

وكان رضي الله عنه وقتُهُ عامراً ليلاً ونهاراً بالذكر وتلاوة القرآن .

وكان إذا افتتحَ المجلس بالفقراء بُعيد العشاء لا يختمُهُ في الغالب إلا مع الفجر ، فإذا صلّى الفجرَ افتتحه إلىٰ ضحوة النهار ، ثم افتتحَ القرآن إلى العشاء ، هـٰكذا كان في أغلب أحواله .

وأخبرني الشيخ شمس الدين السنجيدي من خواصِّ أصحابه قال : كنَّا إذا زرنا الشيخَ محمداً في ابتداء أمره في بلده الحصَّة لا نرجعُ إلا مرضىٰ من السهر ؛ فإننا كنا نمكث عنده اليومين أو الثلاثة أو الأربعة ، لا يمكننا النوم بحضرته لا ليلاً ولا نهاراً ، فكان إذا ختمَ القرآن افتتح بالذكر ، وإذا فرغ من الذكر افتتحَ بالقرآن ، ولم يزل ذلك دأبه إلىٰ أن مات .

وكان رضي الله عنه له مقامٌ عظيم عند سيدي أحمد البدوي ، كأنه ولدُهُ لصلبه ،

---

(١) **الجلَّةُ** : بفتح الجيم وكسرها : البعر والروث .

وسمعتُهُ مرةً يشاور سيدي أحمد البدوي علىٰ حاجة في مصر ، فقال له الشيخ من داخل القبر : سافر وتوكَّلْ علىٰ الله .

وهو الذي أبطلَ الفواحشَ والبدع التي كانت بالغربية ، وهو الذي رتَّبَ طلوع إشارة بيتهم بالذكر من ملقة قحافة إلىٰ أن يدخلوا قبَّة سيدي أحمد البدوي ، وكانت إشارة الشناوية قبله إذا طلعوا المولدَ ينهبون أمتعة الناس ، ويحصل بذلك مفاسدُ كثيرةٌ ، فأعلمهم بأن ذلك حرام ، وكانوا يعتقدون أن كلَّ شيء أخذوه من الغربية حلالٌ ، ويقولون : هـٰذه بلاد سيدي أحمد ، ونحن فقراؤه .

وكانوا يطلعون المولد بالدُّفِّ والمزمار ، وحمل المحاريث وفروع النبق والسنط ، ويجتمع عليهم عياق كثيرون ، فما يطلعُ الآن من الأشائر إشارةٌ أكثر خشوعاً ولا ذكراً من إشارته ، رضي الله عنه ، وهي ختامُ الأشائر يحصل فيها بكاءٌ ورقَّة ، كل ذلك ببركته .

وكان رضي الله عنه إذا أَذِنَ لفقير في تلقين الذكر يأخذ يدَهُ ، ثم ينشد هـٰذا البيت : [من الطويل]

أهيمُ بليلىٰ ما حَييتُ فإنْ أَمتْ أُوَكِّلْ بليلىٰ منْ يهيمُ بها بعدي

ولما دنت وفاتُهُ أذن لجماعة بتلقين الذكر علىٰ سبيل التشبه بالقوم ؛ منهم : الشيخ عبد الرحمـٰن المناوي ، ومنهم : الشيخ شهاب الدين السُّبْكي ، ومنهم : الشيخ أبو العباس الحُريثي ، ومنهم : الشيخ تاج الدين السقطي ، ومنهم : الشيخ عبد القادر الشيرازي ، ومنهم : الفقير عبد الوهاب الشعراوي مؤلف هـٰذا الكتاب ، وقال لنا : الطريقُ في كلِّ قطر لواحد ، فإنِ اتسعتْ دائرةُ أحد منكم فليترك له أخوه بلاده ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة [اثنتين] وثلاثين وتسع مئة[1] ، وفيها مات رضي الله عنه ودفن بزاويته بمحلة روح ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، وزاويته معمورةٌ بالفقراء والمجاورين ، وسِماطه موضوعٌ صباحاً ومساءً للمجاورين والمتردِّدين .

ولما زار قبر شيخه أبي الحمائل بمصر ودَّعتُهُ وقبَّلتُ يده ، وكان ضعيفاً ، فقال لي : ليس هـٰذا آخر الاجتماع ، لا بد من الاجتماع مرةً أخرىٰ ، فلما حضرته الوفاة وأنا

(١) في النسخ : (اثنين) .

لا أشعرُ وردَ عليَّ واردٌ أن أذهبَ إلىٰ محلة روح ، ولم أستطع أردُّ نفسي عن ذلك الخاطر ، فسافرتُ إليه من غير حاجة أعرفها ، ونسيتُ قوله : (لا بد من الاجتماع) فلما دخلتُ عليه وجدتُهُ مُحتضراً ، ففتح عينيه وقال : الحمد لله ، صدَّقَ اللهُ القول ، ثم دعا لي بدعواتٍ ؛ منها : اللهم ؛ إني أسألك ألا تخلِّي ولدي هـٰذا من نظرك ولا من رعايتك طرفةَ عين ، وأن تسترَهُ بين يديك في الدنيا والآخرة ، ثم قال لي : ارجع إلىٰ مصر ، ففارقتُهُ ، وتوفي تلك الليلة ، ودفن في غفلة من الناس ؛ خوفاً أن يجتمع عليه أهلُ الغربية كاملاً ، فيعجز أهلُ بلده عن قِراهم ؛ فإنه لا يكادُ أحدٌ منهم يتخلَّفَ عن حضور دفنه .

وقد اقتتل الناسُ علىٰ نعشه من شدَّة الوجد الذي حصل لهم عليه ، وذهلت عقول بعض أصحابه ؛ لعظم المصيبة به ؛ لكونه كان معدّاً لتفريج كربهم ، وساعٍ في إرشادهم لمصالح دنياهم وآخرتهم .

وكان كالشمس في بلاد الغربية ، وما رأت عيني كثرةَ الإقبال علىٰ أحد من مشايخ العصر بالصدق والمحبة الخالصة مثله ، رضي الله عنه .

كان لا يتفعل قط في استجلاب أحد إلىٰ صحبته ، بل كان الناس يحضرون إليه قهراً علىٰ نفوسهم ، لا يستطيعون ردَّها عنه .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة في بلاده رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٠٣) الشيخ الصالحُ ، كهفُ الفقراء والمساكين ، والمرضىٰ والمنقطعين عبد الحليم بن مصلح المنزلاوي رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه علىٰ جانب عظيم من الأخلاق المحمدية ، وكان كثير التواضع والحطِّ علىٰ نفسه في كل فعل ناقص .

وجاءه مرةً شخصٌ يطلب الطريق إلى الله تعالىٰ ، فقال : يا سيدي ؛ خذ عليَّ العهدَ

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٧٨) (٣٥٩) .

بالتوبة ، فقال : يا أخي ؛ والله ؛ أنا إلى الآن ما تبتُ ، والنجاسةُ لا تُطهِّرُ غيرها .

وأتاه مرةً إنسانٌ بجبَّة صوف ، فقال : يا سيدي ؛ اقبلْ مني هـٰذه الجبة ؛ لأني رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها هـٰذه الليلة ، وقبَّلني علىٰ صدري فيها ، فأبىٰ أن يقبلها وقال : لا أقدرُ ألبسُ شيئاً مسَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ خوفاً أن يقعَ مني معصيةٌ وأنا لابسها ، فأُخطئ طريقَ الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكنْ نتبرك بها من غير لبس ، فمسح بيده عليها ، ومسح علىٰ وجهه ، رضي الله عنه .

وكان إذا رأىٰ عند أحد من الفقراء دعوىٰ يُسارقُه بالأدب من طريق خفية[1] ، وذلك أنه يقرأُ عليه شيئاً من آداب القوم التي يرىٰ ذلك المدعي عارياً عنها ، ثم يصير يسأله عنها ، ويعطف له بذكر معانيها ، فيعلِّمُ ذلك المُدَّعي ، ولا يلحق بذلك أحدٌ من الحاضرين ، ولا ذلك المدَّعي .

وكثيراً ما رأيتُهُ يتلقَّنُ الذكر علىٰ ذلك المدَّعي ، ويصير يسألُهُ عن تلك الأخلاق التي يرىٰ ذلك المدعي عارياً عنها ، ويقول : يا سيدي ؛ بي من الأمراض الباطنة كذا وكذا ، ومقصودي التوبة منها ومعرفة الطريق التي توصلني إلى التوبة ، فإذا تاب من تلك الرذائل ، وأراد مفارقتَهُ أحسنَ إليه بالأكل والكسوة والدراهم ، وغيرها .

وكان رضي الله عنه في بداية أمره فقيهاً ، يُقرئُ الأطفال ، ولا يأخذ لهم خميساً ، ولا يأكلُ لهم طعاماً ، ولا يقبلُ من أحد شيئاً ، فاشتَهر بالصلاح في بلاد المنزلة ، فلقيه شخصٌ من أرباب الأحوال اسمه العبيدي ، فقال : يا عبد الحليم ؛ لا تكونُ صالحاً إلا إن صرتَ تُنفقُ من الغيب ، ثم قال : اطلبْ مني شيئاً آتيك به ، فقال : ما أنا محتاجُ إلىٰ شيء ، فمدَّ العبيديُّ يدَهُ في الهواء ، فأتىٰ بدينار ، فأثَّرتْ تلك الكلمة في الشيخ عبد الحليم ، فأخذ في الاجتهاد ، فمكث سنةً كاملةً يصومُ النهار ويقرأُ ختماً في النهار وختماً في الليل ، فجاءه العبيدي وقال : الآن صحَّ لك اسمُ الصلاح ، فمُدَّ يدك هاتِ لي ديناراً ، فمدَّ يده في الهواء فأتاه بدينار ، ففارقه ، واشتهر الشيخ عبدُ الحليم بعد ذلك شهرةً عظيمة .

---

(١) يسارقه : أي : يؤدبه بطريقة غير مباشرة ، تلميحاً لا تصريحاً .

وعمَّرَ عدَّةَ جوامع في المنزلة وغيرها ، وأوقف على شعائرها الأوقاف ، وله في جامع المنزلة سماطٌ عظيم لكلِّ وارد ، وبنىٰ مارستان للضعفاء قريباً من الجامع .

وكان الإنسانُ إذا رآه لا يَمَلُّ منه ، ولا يكاد يقدر يفارقه ، بل يجذبُ قلبَهُ جذبَ المغناطيس للحديد .

وكانتْ نفقتُهُ واسعةً من غير أن يكون له معلومٌ ظاهر .

وأقمتُ عنده نحواً من سبعةٍ وخمسين يوماً ، فما رأيتُ أحداً سأله شيئاً من النفقة إلا ويُخرجُ له ما طلب من كيس صغير في رأسه نحو ثلاث عقد أصابع .

ولمَّا سافرتُ معه إلىٰ دمياط أنفق منه بحضرتي نحواً من خمسين ديناراً .

وأخبرني الشيخ يوسف البشلاوي : أن الشيخ عبد الحليم دخل ضيفاً عند شخص هو والشيخ أبو بكر الحديدي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، وكان في الدار امرأةٌ قد عميت من منذ سنة ، فأخذ الشيخُ شيئاً من الماء ، ورقاه هو والجماعة ، ثم نضحوه علىٰ وجهها ، فأبصرت في الحال ، ولم تزلْ بصيرة حتىٰ ماتت ، رضي الله عنهم .

وكان الشيخ عبد الحليم لا يسألُهُ فقيرٌ شيئاً قطُّ من ملبوسه إلا نزعه له في الحال ، فإذا قال له : إنما قصدتُ امتحانك ، وليس لي به حاجة ، يُلبسُهُ لمن يراه عنده ، ولا يعود يلبسه .

وسأله مرةً فقيرٌ وهو خارج لصلاة الجمعة جميعَ ثيابه التي عليه ، فخلعها له ، وصلى الجمعة بفوطة في وسطه ، ولم يرجع إلى البيت ليلبس غير ذلك .

وكان لا يُخصِّص نفسه بشيء من الهدايا الواصلة إليه ؛ بل يؤثر الفقراءَ بذلك ، أو يشاركُهم فيه أسوة واحد منهم .

واجتمع عنده في سنة الغلاء في الزاوية أكثرُ من مئة نفس ، فأقاموا عنده سنةً كاملة على اشتغالٍ كثير بالعلم والذكر والقرآن ، حتىٰ إن بعض الناس تراهنوا علىٰ أنهم يجدوا الزاويةَ ساكنةً في ليل أو نهار ، فلم يجدوا .

وكان لا يبخل على المجاورين بشيء يحتاجون إليه ، بل يُطعمهم ويَكسوهم ويعمِّرُ

لهم قباقيبهم ، ويخصفُ لهم نعالاتهم ، ويشيلُ القذرَ من تحت مرضاهم ، ويغسل لهم ثيابهم ، ويملأُ لهم ماءَ طهارتهم حتىٰ يحصلَ لهم الشفاء .

ولما جاء إلىٰ مصر قلتُ له : أيشٍ حالُكم اليومَ مع الفقراء ؟ فقال : تعسَّرتْ عليهم تلك الأمور ، وما بقوا يجدون لقمةً ، فقلت له : لماذا ؟ فقال : وقف علينا بعضُ الأكابر بعضَ رزق ، فمالوا بقلوبهم إلىٰ ذلك الوقف ، فنزع اللهُ البركةَ من رزقهم ، قال : وقد نصحتُهم ، وقلتُ لهم : ردُّوا ذلك الوقف علىٰ أصحابه ، ودوموا علىٰ توجُّهكم إلى الله تعالىٰ تدرَّ البركةَ عليكم ، فلم يسهل عليهم ذلك ، فهم الآن في أضيق العيش ، وكَثُرَ تنازعهم في الدنيا ، وقلَّ اشتغالهم بالله ، وصاروا ليلاً ونهاراً ما شغلهم إلا الخراج ، الأكل الجابي ، الفلاح الفلاني . قال : وقد انتقلتُ عنهم من زاوية الخرابة ، وسكنت في المنزلة .

وكانت الألف دينار عنده كالبعرة ، لا يُتبع نفسَهُ شيئاً قط يعطيه لفقير ولا غيره .

وجاءه مرةً شخصٌ نصَّاب ، وقال : يا سيدي ؛ أنا من نواحي قطية[1] ، وعندنا بريةٌ قفرة معطشة ، ومقصودي أنك تساعدني علىٰ بناء بئر وحوض هناك للواردين ، فأخذ له من شيخ العرب رميح أربع مئة دينار ، وأعطاها له ، فغاب النصَّابُ نحو سنة ، وأتاه بأباريق ماء حلو من بحر أبي المنجا ، وقال : هـٰذا ماءُ البئر ، ففرح الشيخُ بذلك ، وصار يسقي الناسَ منه .

ثم إن شخصاً جاء من بلاد قطية ، فسأله الشيخُ عن البئر ، فقال : لم يكن هناك بئر ، فقال : إن فلاناً جاءني بأباريقَ من مائها ، وشربنا منه ، فقال : إن فلاناً نصاب ، تزوَّجَ بها عدَّة نساء ، فأرسلوا خلفه ، فاعترف بأنه نصاب ، وقد ضيَّع الفلوس ، فأراد جماعةُ الشيخ أن يحبسوه في المنزلة ، فقال الشيخ : أنا أحبسه عندي في هـٰذه الخلوة ، فأدخله الشيخُ الخلوةَ ، فلما تفرَّقَ الناس أتاه الشيخ بعد العشاء بجبنٍ مقليٍّ ، وعسل وخبز ، فقال : كلْ ، فأكل ، ثم أخرجه من الخلوة وقال : طريقٌ مباركة ، واحذر أن يراك أحدٌ من جماعتنا فيحبسك عند الحكام ، فخرج ، فلم يره أحدٌ ، فقالوا

(١) قطية : في الطريق بين مصر والشام ، بين القنطرة والعريش . « قاموس رمزي » .

له في ذلك ، فقال : والله ؛ لو كانت الدنيا كلُّها في يدي وسرقها إنسانٌ ما حبسته ولا أرعبته .

وكان رضي الله عنه يُحبُّني محبَّةً شديدة ، حتىٰ يصرِّح بذلك في مجلسه ، وقال : لا أحبُّ في مصر أحداً مثل فلان .

ومناقبه كثيرة مشهورة في بلاد المنزلة ودمياط ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه سنة نيِّف وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بمقبرة بلده الخرابة ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٤) الشيخ الإمامُ القدوة ، العالم الرباني ، سيدي عمر البجائي المغربي[١]

قدم رضي الله عنه إلىٰ مصر في دولة السلطان الغوري رحمه الله .

وكان له القبول التام عند الأكابر وغيرهم .

ولما أقام بجامع محمود أنشد فيه الشيخُ شمس الدين الدِّمياطي أبياتاً من جملتها : [من البسيط]

سألتني أيُّها المولىٰ مديحَ أبي ... حفصٍ وما جمعتْ أَوصافُهُ الغررُ

مكمَّلٌ في معانيهِ وصورتهِ ... كمالَ مَنْ لا بهِ نقصٌ ولا قصرُ

مطهَّرُ القلبِ لا غلٌّ يُدنِّسُهُ ... ولا لهُ قطُّ في غيرِ التُّقىٰ وَطَرُ

فَهَنِّ جامعَ محمودٍ بساكنهِ ... فإنهُ الآنَ محمودٌ ومُفتخرُ

وقلْ له فيكَ بحرٌ ما لغايتِهِ ... حدٌّ فيا لَكَ بحرٌ كلُّهُ دُرَرُ

وللقَرافةِ عاداتٌ بمثلكَ إنْ ... تحلُّ فيها وأنتَ المنظرُ النضر

إلىٰ آخر ما قال .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٥) (٣٧٨) .

وكان كثيرَ الكشف ، يخبرُ بالوقائع الآتية في مستقبل الزمان للولاة وغيرهم ، فيقع كما أخبر .

وأخبر بزوال مملكة الجراكسة ، وقتالهم لابن عثمان ، وأن الدولةَ للسلطان سليم ، فكان كما قال .

ومرَّ على المعمار وهو يعمِّرُ القبة الزرقاء للغوري تجاه مدرسته ، فقال : ليس هـٰذا قبرَ الغوري ، فقالوا له : وأين قبره ؟ قال : يُقتل في المعركة ، فلا يُعرف له قبر ، وكان كما قال .

وكان وجهُهُ كأنه كوكبٌ دري من النور .

وكان شاباً طويلاً[1] ، جميلَ الصورة ، طيِّبَ الرائحة على الدوام ، حفظ « المدونة الكبرىٰ » للإمام مالك ، وسمع الحديث الكثير .

وكان صائمَ الدهر ، غالبُ قوته الزبيب .

ولم يكن علىٰ رأسه عمامة ، إنما كان له ملاءةٌ عريضة يطرحُها علىٰ رأسه وظهره ، وعليه جبَّةٌ سوداء واسعة الأكمام علىٰ جسده من تحت الثياب .

وكان الشيخ محمد بن عنان يعظِّمُهُ ويُجلُّه ، ويذهب إلىٰ زيارته .

أقام بجامع آل ملك بالحسينية مدة ، ثم أقام بجامع محمود بالقَرَافة قريباً من سيدي عمر بن الفارض ، فانقلبت الأمراء والأكابر علىٰ زيارته هناك ، فغار بعضُ فقراء القَرافة منه ، فبلغه ذلك ، فانتقل إلىٰ قبَّة الملك المنصور بين القصرين ، **فمكث بها إلىٰ أن مات ، وذلك في سنة تسع عشرة وتسع مئة** ، ودفن بالقَرافة في حوش عبد الله بن وهب بالقرب من قبر القاضي بكار ، وصلىٰ عليه جماهرُ العلماء والأكابر ، وكانت جنازتُهُ حافلةً .

صحبته نحو ثلاث سنين مدَّةَ إقامته بمصر ، ودعا لي دعوات وجدتُ بركتَها ، وأوصاني بألا أقبل ممن أشفع عنده هدية ، ولا آكل له طعاماً ، ولا أشفع عند الحكام إلا برسالة من غير المشي إلىٰ بيوتهم ، رضي الله عنه .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، ز ، ك) : (طوالاً) .

ومنهم :

(٤٠٥) الشيخُ الصالح ، العالم القدوة ، مربي المريدين بالنظر سيدي عليٌّ الشرنوبي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أحدُ أصحاب الشيخ شعبان البلقطري الشاذلي .

كان رضي الله عنه الغالب عليه الاستغراق ، لا تكاد تراه إلا ماشياً ، ويلبس الثياب الفاخرة ، إذا رآه من لا يعرفه يعتقد أنه من القضاة .

وكان ينظم الموشحات الغريبة في معالم الطريق .

صحبته نحو عشر سنين ، وقال لي : أنا كيلانيٌّ زماني .

وكان كثيراً ما يحدِّثُ الناس بكراماته ، فيظنُّ مَنْ لا معرفةَ له به أنه مدعٍ ، وإنما كان الشيخُ يرىٰ ذلك من جملة النِّعم عليه ؛ لأن من عرفَ الله لا يبقىٰ عنده رياءٌ لأحد من الخلق .

وأخبرتني زوجته قالت : بينما نحن يوماً في جوف الليل ، وإذا بشخص نازل من الهواء في دور القاعة ، فأشار عليه الشيخ بيده ، فالتصق في الحائط ، فقال : التوبة ، فقال : ارجع وأتِ غداً من الباب ، قالت : فسألتُ الشيخَ عن ذلك : من هو من الأولياء ؟ فقال : هـٰذا الدشطوطي الشيخ عبد القادر .

ومكاشفاته كثيرة مشهورة عند أكابر الدولة بمصر .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بالقَرافة قريباً من الشيخ محمد المغربي الشاذلي رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٩) (٣٨٢) .

ومنهم :

(٤٠٦) الشيخ الصالح ، العالم العابد الزاهدُ ، صاحب الكشوفات والمعارف ، والعبادة الدائمة ليلاً ونهاراً سيدي أحمد الزواوي[(١)]

المدفون بدَمَنْهور الوحش بالبحيرة[(٢)] .

صحبته مدَّةَ إقامته بمصر كلما جاء من بلده إليها ، وهو أخو الشيخ علي الشرنوبي في الطريق .

وكان وِردُهُ رضي الله عنه في اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة ، وأربعين ألف صلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخبرني عن ذلك هو بلفظه .

وسمعته يقول : (طريقُنا : أن تشتغل بالصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ تصيرَ تجالسه على الكشف والشهود ، وتسأله عن أحكام ديننا ، وما لم يبلغِ الشخصُ عندنا هٰذه الدرجة فليس هو معدودٌ من أهل طريقنا ، فليس لنا شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولما سافر الغوري إلىٰ قتال ابن عثمان جاء إلىٰ مصر ، فقال : جئتُ أردُّ السلطان ابن عثمان عن مصر ، فعارضه أولياء مصر ، فلحقته البطنُ ، فأشرف على الموت ، فقال : احملوني إلىٰ دمنهور ، **فمات في الطريق ، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة** .

وهو من جملة من أخذ عليَّ العهدَ بكثرة الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٠) (٣٨٣) .

(٢) **دمنهور الوحش** : قرية كبيرة بين الإسكندرية ومصر .

ومنهم :

(٤٠٧) الشيخُ الصالح ، العالمُ الرباني ، الشيخ أحمد البهلول[(١)]

من إخوة الزواوي في الطريق على الشيخ شعبان .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يزوره كثيراً ، ويجلُّه ويعظِّمه .

وكان رضي الله عنه جالساً في دكَّان في قنطرة باب الخرق بالقرب من جامع بطيخة ، فكان يجلس وعنده دواة وورقٌ ، فتأتي المرأةُ إليه فتقول : يا سيدي ؛ اشهدْ عليَّ أني غلَّقتُ نفقتي أو كسوتي من زوجي فلان ، فيكتبُ ذلك لها بجديد نقرة ، فإن أعطتْه المرأةُ أكثرَ من جديد لم يأخذه .

وكان له ابنتان جالستان عنده في الدكان طولَ النهار ببراقع ، أقرأهما القرآن العظيم ، وحفَّظَ كلَّ واحدة كتاباً في العلم ، واحدة مالكية وواحدة شافعية .

صحبته نحو سبعة أيام ومات ، فأولُ ما اجتمعت به قال لي : تشتغلُ في أي علم ؟ فقلت له : حفظتُ كتاب « الروض » مختصر « الروضة » إلىٰ باب القضاء على الغائب ، وحفظت قبله عدَّةَ كتب ؛ منها « المنهاج » للنووي ، فقال : ما معك دستور تحفظ شيئاً في « الروض » ، يكفيك كتاب « المنهاج » ؛ فإن صاحبَهُ من أولياء الله تعالىٰ ، فمن ذلك اليوم ما قدرتُ أحفظُ من « الروض » شيئاً ، فكابرتُهُ ، فحصل لي رمي دم من حصر نفسي في الحفظ ، فتركته .

وقال لي : وجهُك ما هو وجه قاضي حتىٰ تحفظ « الروض » .

ثم قال لي : هل تزوَّجتَ شيئاً ؟ فقلتُ : لا ، فقال : تزوَّجْ ، فقلت : ما معي شيء ، وأنا متجرِّدٌ ، فقال : تزوج ورزقُ الزوجة على الله تعالىٰ ، ثم دعا إنساناً مارّاً في الشارع ، فقال : تعال ، فجاء ، فقال : أتشهدُ أن الله تعالىٰ هو الرزاق وإلا العبد ؟ فقال : أشهد أن الله تعالىٰ هو الرزاق دون العبد ، فقال : اذهب ، ثم دعا آخر ثم آخر

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٠) (٣٨٤) .

ثم آخر وهم يشهدون أن الله تعالىٰ هو الرزاق ، فقال : قد شهدَ لك أربعُ شهود على الله تعالىٰ بأنه هو الرزاق ، وما بقي لك عذرٌ ، ثم سكتَ ساعةً ، وقال زوَّجتك زينبَ بنت الشيخ خليل القصبي ، وأعطيتك البيتَ ، وأقبضتُ عنك المهر ثلاثين ديناراً ، قل : قبلت ، فقلتُ له : قبلتُ ذلك ، فقال : الحمدُ لله ، ثم قرأ قوله تعالىٰ : ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٧٠] ثم قال : عجِّل بطبخ الحلو ، فلعلي آكل منه قبل موتي ؛ فإن أجلي قد قَرُبَ ، ففارقته .

فلما جلستُ في خلوتي في جامع الغمري إذا بشخص يدقُّ الباب ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : خليل القصبي ، فقلت له : وما حاجتك ؟ فقال : افتح لي ، ففتحتُ له ، فقال : عندي ابنةٌ اسمها زينب بلغت ، وعندنا بيتٌ لها وحدها ، ومقصودي تأخذها ، وتجعلُ مهرها ثلاثين ديناراً ، فقلت له : أنا رجلٌ متجرِّدٌ ، فقال : أنا أشهدُ علىٰ نفسي أنني قبضتُها ، فبينما نحن كذلك إذ جاء شخصٌ من أصحابي ومعه ثلاثون ديناراً ، فأقبضها له ، فكتبنا كتابَها تلك الليلة ، وشرعنا في الطعام ثاني يوم ، وكان طعاماً واسعاً بسهولة ، فأرسلتُ للشيخ سطلاً من الحلو ، فأرسلَ يقول لي : لا بد من الاجتماع قبل الموت ، فعجِّل بالحضور ، فذهبتُ إليه ، فوجدتُهُ ضعيفاً ، فعاش بعد دخولي البيتَ ستة أيام ، وتوفي إلىٰ رحمة الله تعالىٰ .

وكان أهلُ حارته قد طلبوا أن يدفنوه في جامع بطيخة ، فأبىٰ وقال : ادفنوني خارجَ باب القَرَافة من ناحية حارة عرب اليسار ، فعجز الناسُ أن يحرِّكوا تابوته إلىٰ جامع بطيخة ، فلم يقدروا ، فلما عزموا علىٰ بابِ القَرافة خفَّ عليهم ، فدفنوه في وسط الشارع علىٰ يسار الخارج من باب القرافة ، وأوصىٰ : ألا يُجعلَ علىٰ قبره بناءٌ ولا تابوت ، وقال : خلُّوا الدواب تمشي عليَّ ، وأريحوني من التعب ؛ فإني ما خرجتُ من دار التعب وفي عيني قطرة ، وإذا جعلتم عليَّ تابوتاً وشخاشيخ فكلُّ من دخل يخبط ذلك التابوت ، فلا يتركوني أستريح في قبري ، رضي الله عنه .

وقال لي لما رجعتُ إليه بعد أن زوَّجني ابنة الشيخ خليل : اعلم يا ولدي ؛ أن معي سند بتيسير الرزق ، أخذته عن الشيخ أبي الخير الكليباتي ، وقال لي : إذا ضاقَ عليك الرزق قمْ متوجِّهاً إلى الله تعالىٰ ، فكلُّ شيء طلبه العيال تجده عندك إذا استيقظت ،

فطالما أقوم من النوم فأجدُ السلة العنب ، أو البطيخ ، أو الخبز ، أو الثياب ، لا أدري من جاء بها من الخلق وقد خلعت عليك ذلك ، ولـٰكن أرجو من الله أن يتَّسعَ رزقك فوق ذلك ، ولا تحتاج إلىٰ توجُّهٍ .

ثم قال لي : أُوصيك إذا حدَّثك فقيرٌ بشيء فصدقه ؛ فإني رأيتك ذلك اليوم وأنا أقبض عنك ثلاثين ديناراً في الهواء ، تظنُّ أن ذلك بشارة لك لا حقيقة ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ؛ ما زوجتُكَها إلا بعد أن أطلعني الله تعالىٰ علىٰ جميع ما يتعلَّقُ بها ، وعلىٰ مدَّة إقامتها معك ، ولم يكن لي بها اجتماعٌ في الحسِّ ، ولا كنتُ أعرف أباها .

ثم قال : قد وقعَ لي نظيرُ ما قلته لك مع الشيخ أبي الخير الكليباتي ، وذلك أني قلتُ لشيخي بدمنهور : مرادي أعرف أحداً أزوره إذا قدمت مصر ، فنظرَ إليَّ نظرةَ غضب ، وما عرفتُ ما في ذلك من سوء الأدب ، فسكت عن جوابي نحو سنة ، ثم قال لي : إذا قدمتَ مصر فاسأل عن الشيخ أبي الخير الكليباتي ، واجتمع به ، ومهما أعطاك فاقبله .

وقال لي : إذا طلعتَ من المركب سوف تجدُ الشيخ خروف المجذوب قريباً من الجامع الأخضر والبولُ قد أخذ في أفخاذه طرقاً ، وأظفارُهُ وشواربُه طويلة[١] ، فإياك والاعتراضَ ، فطلعتُ من المركب ، فوجدت الشيخ خروف كما قال الشيخ ، وخطر لي الاعتراضُ ، فمدَّ يده إلىٰ قلبي وقال : هل لنا سبع بلا مخاليب ، ثم قال : لولا شيخك قطعت معاليق قلبك ، فحصل لي منه رعبٌ عظيم .

ثم دخلتُ إلىٰ مصر ، فسألتُ عن الشيخ أبي الخير ، فدلُّوني عليه في ميضأة جامع الحاكم ، فوجدتُهُ في بيت الخلاء واضعاً وجهَه داخل الملاقي مدة ثلاثة أيام ، فرفعَ رأسه وقال : أيشٍ حالُ من وراءك ؟ فقلت : يُسلِّم عليك ، فقال : تعال ورائي ، فأخذني وأتىٰ بي إلىٰ هـٰذا الدكان ، وقال : أعطيتُكه وخلعتُ عليك الرزق الذي قسمه الله لك ، فيأتيك بلا تعب ، تنامُ وتقومُ فتجد جميعَ ما تحتاج إليه ، فما أخذتُ بكلامه ذلك الوقت ولا أعطيتُ ، وقلت : هـٰذا مجذوبٌ ، فإياك يا ولدي أن

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

تكذِّبَ فقيراً قطُّ ؛ فإنهم لا يخبرون إلا بما يشهدون ، بخلاف غيرهم يتكلَّمُ على الظن .

قال : ثمَّ وقف علىٰ طباخٍ وقال : اغرف لي ماجوراً طعاماً[1] ، وحمِّله لهـٰذا الفقيه ، فحمَّلني الماجور وقال : تعال ورائي ، فما زال يمشي إلىٰ كيمان الأزبكية قبل أن يعمرها الأمير أزبك رحمه الله ، فقال ضعِ الماجور ، ونادِ يا جيعان ؛ فجاءتِ الكلابُ من كل جانب ، فقال : حلقة عسكرية ، فحلقت الكلاب ، وأجلسني بينهم ، وصار يغرف لكل واحد على الأرض ، وغرفَ لي كذلك ، فأكلتُ خوفاً من الشيخ إلىٰ أن فرغوا ، فقال : انصرفوا ، فانصرفوا ، فلما انصرفَ الشيخ نزلتُ بثيابي في بركة هناك ، وعكرت ماءها ، وصرت أغطسُ سبعاً ، فرجع الشيخُ وقال لي : يا ولدي ؛ هـٰؤلاء إخوانك من الجنِّ ، ما هم كلاب ، هـٰذه حكايته لي رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٠٨) الشيخُ الصالح ، الإمامُ القدوة
سيدي الشيخ أبو الفتح الغمري أخو الشيخ أبو الحسن[2]

كان رضي الله عنه علىٰ قدم عظيم ، صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم مات .

وكان له الكشفُ الأتمُّ ، والتصريف في عزل الولاة بالمحلة الكبرىٰ .

وكان الناس يقولون : إنه قُطِّب ثلاثة أيام .

مات رضي الله عنه في سنة أربع عشرة وتسع مئة ، ودُفن في جامع السدِّ بالمحلة ، رضي الله عنه .

---

(١) الماجور : إناء من خزف يطبخ فيه اللحم ، أو وعاء يستعمل في مصر استعمال السطل ، ويستخدم لغسل الملابس . « تكملة المعاجم » (١/ ٨٥) .

(٢) انظر ترجمته في « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (٤/ ١٦٥) .

ومنهم :

(٤٠٩) شيخي وقدوتي إلى الله تعالىٰ ، العالمُ العاملُ ، المحدِّثُ المقرئ ، المواظب على العبادة والخدمة للعميان والمساكين ليلاً ونهاراً الشيخ أمين الدين ابن النجار البدراني ثم المصري رضي الله عنه[1]

كان إذا قرأ في المحراب تخرُّ الناسُ إلى الأرض من الخشوع قهراً عليهم .

وانتهت إليه الرئاسةُ بمصر في علوِّ السند بالكتب الستة وغيرها .

وكان يقرأُ بالأربعة عشر رواية للقرآن .

وكان جيرانُ جامع الأزهر وأهلُ بولاق يأتون إليه في صلاة العشاء والصبح ليصلوا خلفه من حُسن صوته وتأديته ، وأجمع الناسُ كلُّهم أنه ليس في مصر أحدٌ يقرأ القرآن مثله .

ولما دخل ابن السلطان قرقط[2] أخو السلطان سليم أيام الغوري ، أقام ببولاق ، فطلب من الغوري إماماً ، فقال الغوري : انظروا لنا إماماً يُناسبه ، فقال الناس كلُّهم : ما في مصر أحدٌ مثل الشيخ أمين الدين ، فكان يصلي به الجمعة إلىٰ أن سافر .

ومكث إماماً بجامع الغمري سبعاً وخمسين سنة ، ما ضبطوا عليه قطُّ أن وقتاً دخل عليه وهو بلا وضوء .

وكان لا يتركُ قيام الليل لا صيفاً ولا شتاءً ، كان ينام بعد الوتر لحظةً ، ثم ينزل الجامع فيتوضأ ويتهجد ، والباقي نحو سبعين أو ثمانين درجة للفجر ، ثم يصعد الكرسي ، فيتلو القرآنَ بعد أذان الفجر ، فتكادُ القلوبُ تطيرُ من حلاوة تلاوته ، ويصير الناس يبكون .

وسمعه نصرانيٌّ من مباشري السلطان وهو طالع القلعة ، فترك دابَّتَهُ ، وصعد إلى

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١١) (٣٨٥) ، وسيأتي (٤/ ٤٢٢) (٥٣٦) وفي « ذيل الطبقات » (٥/ ٧١) (٢٦) .

(٢) في (أ ، ب) : (فرقط) بدل (قرقط) ، وفي (ز) : (فورقد) .

الجامع ، فصغا إلىٰ قراءة الشيخ ، ثم رمىٰ عمامته وأسلم ، وعلَّمه الشيخُ الصلاةَ ، وصلىٰ معه الصبح ، ولم يزل يُصلي خلفه إلىٰ أن مات .

وكان سيدي الشيخ أبو العباس الغمري يقول في حقه : الجامع جثة والشيخُ أمينُ الدين روحه .

ومصداقُ ذلك : أني كنتُ وأنا صغير أرىٰ أهلَ الجامع يخرجون لرؤية المحمل ، أو لكسر البحر ، فلا يبقىٰ في الجامع أحدٌ غير الشيخ أمين الدين ، فلما أجدُهُ جالساً علىٰ باب خلوته . . كأنَّ الجامعَ لم يخرج منه أحد ، وإذا سافر الشيخ يصيرُ كأنَّ ما فيه أحدٌ ، هـٰذا أمرٌ كنت أراه وأنا صغير .

وكان من الجامعين بين الطريقين ؛ فلذلك ذكرتُهُ مع الفقهاء ، ومع الصوفية .

وكان أولياءُ مصر وفقراؤها إذا دخلوا مصرَ يحبُّونه ويجلُّونه مثل الشيخ محمد بن عنان ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ أبي بكر الحديدي ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ عبد الحليم .

كان مع الفقراء كأمِّ النحل مع أولادها ، ويُقري ويضيف كلَّ واردٍ .

وكانت هيبتُهُ عظيمة ، يكاد من لا يعرفه أن يرعد من هيبته .

وكان يخدم نفسَهُ ، ويخبز الخبزَ علىٰ رأسه في الفرن ، ويحمل حوائج الطعام ، ولا يُمكِّن أحداً يحمل ذلك .

وكان لا يراه كبيرٌ من أركان الدولة إلا وينزلُ من علىٰ دابته يقبِّلُ يده .

وكان الله تعالىٰ قد سخَّرَ له تجارَ مصر في أخذ الزكاة ، فكان يصير عنده أواني كثيرة ملآنة فضة وذهباً ، فيجعلُها في صُريرات ، ويكتبُ اسمَ صاحب كل صرَّة عليها ، حتىٰ إنه كان يرسل لأهلي الصُّريرات في الريف من غير علمي ، وما علمت بذلك إلا بعد موته ، وقالوا : كان الشيخ يأمرنا بالكتمان .

وكان يكرهُ الفقيرَ إذا رآه يدخل الحمام كثيراً من غير حاجة ، ويكره من يصقل ثيابَهُ ، أو ينظر إلىٰ ظاهره ، أو يجلس علىٰ باب الجامع ، أو في شباكه المطلِّ على الشارع ويقول : حكم ذلك كالجالس في السوق .

وكان إذا مقت إنساناً لا يفلحُ بعده أبداً ، مقتَ نحواً من سبعة عشر إنساناً ، فهم إلى الآن في أسوأ حال لا دنيا ولا آخرة .

وكان يقول : (كلما عظمَ الخير كثرتْ عليه الموانع ، فإياك يا فلان أن يتحزَّبَ عليك أحدٌ في إبطال مجلس ذكر ، أو صلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتشغل نفسك بهم ، بل أقبلْ علىٰ عبادة ربك ؛ فإن بيده الحلَّ والربط ، وإنما يُسلِّطُ على العبد الأذىٰ ، لينفر من الناس ، ولا يركنَ إليهم ؛ وذلك ليصطفيه الله تعالىٰ ؛ فإنه لا يصطفي عبداً من عبيده حتىٰ يزهدَ في حمد الناس جملة ، ويصيرَ لا يركنُ إلىٰ أحد منهم ، فهناك يصطفيه) .

وكانت عِمامتُهُ رضي الله عنه قطناً غيرَ مقصور ، وكان يلبس الثياب الزرق والجبب السود .

ومما وقع من كراماته : أنني كنتُ أقابلُ معه في « شرح البخاري » للقسطلاني ، فمررنا علىٰ باب جزاء الصيد ، فقال : وفي التيتل عنزٌ[1] ، فقلت له : ما صفة التيتل ؟ فقال ستراه قريباً ، فلما قربَ انصرافُنا من المقابلة وإذا بالتيتل قد خرج من حائط المحراب ، وجاء حتىٰ وقفَ ، وجعل فمَه علىٰ كتفي ، فرأيتُهُ وتحقَّقتُه ، ثم ذهب ، فخرج من باب جامع الغمري إلى السوق ، فقلت للجماعة الحاضرين : رأيتم التيتل الذي خرج من حائط المحراب ؟ فقالوا : لا ، وصاروا يضحكون منِّي ، فعلمت أنها كرامةٌ من الشيخ .

ورأيتُهُ مرةً أقسمَ علىٰ خشبة أن تأتي إليه ، فزحفت حتىٰ وصلت إلىٰ ركبته .

مات رضي الله عنه سنة تسع وعشرين وتسع مئة ، ودفن بتربته خارج باب النصر ، بالقرب من زاوية سيدي إبراهيم الجعبري رضي الله عنه ، وسيأتي بسط ذلك في ترجمته مع العلماء .

ورأيته رضي الله عنه بعد موته ، فروىٰ لي حديثاً سنده بالسرياني ، ومتنُه بالعربي ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أدمنَ النومَ بعد صلاة الصبح

(١) التيتل : كحيدر ، لغة في الثيتل بالمثلثة : ذكر الأروىٰ . « تاج العروس » (ت س ل) .

ابتلاه الله تعالىٰ بالبعج ، فقلت له : وما هو البعج ؟ فقال وجعُ الجنب ، وكان جنبي لم يزل موجوعاً ؛ لكوني كنتُ أنام عقب صبح الجمعة ؛ لكونها ليلة سهر في مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتركتُ النوم ، فزال الوجعُ ، وصرتُ لا أنام إلا بعد طلوع الشمس عند الحاجة إليه ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤١٠) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ ، الحَييُّ المستحيي أن يجلسَ بين الناس من شدَّة الحياء سيدي أبو الحسن بن الشيخ أبي العباس الغَمْري رضي الله عنه[١]

جاورت عنده ثلاثين سنة ، ما رأيتُ أحداً من أهل العصر علىٰ طريقته في التواضع والزهد ، وخفض الجناح ، ولم يصرَّ قطُّ شيئاً من الدنيا .

وكان يقول : (إذا سمعتُ أحداً يعدُّ ذهباً يضيق صدري) .

وكان لا يبيتُ علىٰ دينار ولا درهم ، ويعطي السائل ما وجد حتىٰ قميصَهُ الذي عليه .

وكان يغرفُ لي زبديةَ الطعام ويحملها مع جلالة قدره ، ويأتيني بها إلى الخلوة بحضرة أكابر الناس .

وكان جميلَ المعاشرة لا سيما في الأسفار ، وكان لا يتخصص بشيء عن الفقراء أبداً .

ولما مات والدُه رأىٰ شيخُنا الشيخ محمد الشناوي كأن نخلةً في جامع الغمري قُطعتْ رأسُها ، فطلعتْ لها رأسٌ مكانها في الحال ، قال شيخُنا : فأوَّلتُ ذلك بسيدي الشيخ أبي الحسن .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يقول : (ما رأتْ عيني في أولاد الفقراء أكرمَ نفساً من الشيخ أبي الحسن الغمري ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤١٣) (٣٨٦) .

وكان من أخلاقه رضي الله تعالىٰ عنه : أنه ما دام في البيت يخدمُ مع الخدَّام ، فيقرِّصُ العجين ، ويغسل الأواني ، ويحمي تحت القدر ، ويغرفُ للفقراء بنفسه ، وكنا نتعشَّىٰ معه في البيت نحواً من سبعة عشر نفساً من أولاده وأولاد أخيه .

وكان يغرفُ لنا الطعام في صحن مشبه وسطاً ، فكنا نشبعُ كلُّنا منه ، وهي كرامةٌ ظاهرة .

وكان لا يخرج من البيت إلا وقتَ الصلوات وقراءة الحزب ، أو حاجة ضرورية ، وما عدا ذلك فهو جالسٌ في بيته ، لا تجدُهُ قطُّ في لغو ولا مزح خارج عن السُّنة لا وحده ولا مع الناس .

وكان يستحي أن يركب حماراً أو غيره في مصر إذا خرجَ لحاجة ضرورية ، ويقول : أستحي أن أمرَّ على الناس في حوانيتهم وأنا راكبٌ ، وإذا كانتِ الحاجةُ بعيدةً كبولاق ومصر العتيقة يركبُ ، ويطلبُ الأماكنَ القليلة الناس الذين لا يعرفونه .

ودعوه مرةً إلىٰ وليمة وأجاب ، فلما جلس بين الناس صار يعرقُ جبينُهُ ويمسحه ؛ كالعذراء في خِدرها .

وكان إذا سافر من مصر إلى المحلَّة ونحوها يتركُ الأكل والشرب ، حتىٰ لا يحتاجَ إلى البراز ، سواءً أكان علىٰ حماره أو في المركب ، ويقول : إنْ لم أجلسْ في بيت معدٍّ لقضاء الحاجة لا أستطيع أن يخرجَ مني بول ولا غائط ، وأقول في نفسي : ربما أحدٌ ينظر إليك وأنت جالس ولو علىٰ بُعْدٍ .

وكان لا ينام مع أحد قطُّ في فراش واحد ، ولا ينام بحضرة أحد أبداً ويقول : أخافُ أن يخرجَ مني ريحٌ وأنا نائم .

وكان كثيرَ التحمُّل للبلايا ، ولا يسمح بذكر ذلك البلاء لأحد ، فتربَّتْ في بطنه دبلة قدر البطيخة ، فانفجرتْ علىٰ لوح المغتسل .

وصحبته نحو الثلاثين سنة ما أتذكَّرُ أنه تغيَّرَ مني يوماً واحداً ، وكان ذلك من فضل الله عليَّ .

ولما تحوَّلتُ من الجامع إلىٰ مدرسة أمِّ خوند ؛ لرؤيةٍ رآها الشيخ أحمد الطهوائي الضرير صار يتردَّدُ إليَّ في الليل في مدرسة أم خوند التي انتقلت إليها ؛ وذلك : أن جماعةً من الجامع آذوني كثيراً بغير إذن الشيخ ، وحلفوا علىٰ مصحف : أنهم لا يحضرون معي مجلس الذكر والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاروا يضربون كلَّ مَنْ جلسَ عندي من المجاورين ، ولم يبقَ معي في السهر سوى الناس الغرباء ، رأى الشيخُ أحمد المذكور النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال : قل لفلان : ينتقلُ إلىٰ مدرسة أم خوند بخطٍّ بين السورين ؛ فإنها مباركة ، فعزمتُ على العمل بذلك ، فجاءني سيدي الشيخ أبو العباس الغمري في المنام وقال : لا ترحل وأنا أسهرُ معك ، فجلس معي ليلةَ الجمعة ، وأسندَ ظهرَهُ للعمود الذي يستقبل يمين الداخل للجامع من الباب الكبير ، فجلس معي نحو عشر درج ، وكان به صداعٌ ، فانصرفَ رضي الله عنه .

ثم إن جماعةً ممن آذوني اجتمعوا ودعوا ناساً ، وأوقدوا قناديل كثيرةً ، وجلسوا تجاهنا يرفعون أصواتَهم علينا بما نحن فيه ، فانتقلنا وجلسنا في مجلسهم ، وقلتُ لهم : كلُّنا في الخير سواء ، فمنعونا ، فقلت لهم : اخفضوا صوتكم ، فلم يرضوا ، فألقى اللهُ عليهم النوم ، حتىٰ لم يستطع أحدٌ منهم يسهر درجة ، وناموا كلُّهم بعد العشاء بعشرين درجة إلى الصباح حتىٰ صلى الناسُ الصبحَ ، فضحك الناسُ عليهم ، ثم إنهم راحوا إلىٰ عبد الدائم بن بقر وطلبوا منه أن يعملَ مولداً في الجامع ليلةَ الجمعة ؛ بقصد الغوش علينا[1] ، فأتى المقرئون والوعاظ ، فخفضنا أصواتنا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم نبطلِ المجلس ، فجاءَ واحدٌ منهم ، وغوَّشَ علينا لمَّا رآنا لم نُبطل المجلس ، مع أن أصواتنا لا تشوش علىٰ أحد من السامعين للواعظ ، فجاء ووقفَ علىٰ رأسي ، وقال : أنت يا عبد الجعَّاص ؛ ما تسكتُ ، فسمَّىٰ مَنْ أنا عبده بالجعاص ، فنزل الناسُ فيه بالصك والضرب ، فقالوا له : كفرتَ ، فاجتمعوا وضربوا الرأي ، وقالوا : بكرة النهار يضربون رقبةَ صاحبنا ، فأجمع رأيهم علىٰ أن يمضوا به

---

(١) الغوش : إثارة الضوضاء والضجة والصخب والضجيج . « تكملة المعاجم » (٧/ ٤٤١) .

للقاضي يحقن دمه ، فمضوا به في الليل إلى القاضي ابن جبيلات ، فحقن دمَه ، وبطل مولدُهم تلك الليلة ، وتفرَّق المقرئون والوعاظ ، وكان هـٰذا الذي وقعَ في الكفر هو الذي تولَّىٰ أمرَ المولد ، فأصبحتُ منتقلاً إلىٰ مدرسة أم خوند ، فحصل لي فيها راحةٌ عظيمة .

وكان الشيخ بعد أن خرجتُ يطلب مفارقةَ الجامع ويقول : انظرْ لي موضعاً ولو في ربع أسكنُ فيه ؛ من شدَّة الأذىٰ من الجماعةِ الذين كانوا تحزَّبوا عليَّ ، فالحمد لله رب العالمين .

مات رضي الله عنه في سنة تسع وثلاثين وتسع مئة ، ودفن عند والده في المقصورة آخر باب المسجد ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١١) الشيخ الكاملُ ، العارف بالله تعالىٰ ، صاحبُ الكشوفات الظاهرة ، والمجاهدات الكثيرة الشيخ عبيد الريحاوي ، ثم البلقسي رضي الله عنه[١]

هو من أجلِّ أصحاب الشيخ محمد الكواكبي .

دخل مصرَ من الشام في زمان السلطان قايتباي ، فكان يعتقدُه أشدَّ الاعتقاد .

ودخل مصر حال الجذب وهو عُريان ، ما عدا سراويلَ من جلد ، وطرطورَ جلد[٢] ، ومكث طاوياً عن الخبز سنين ، ولما جاءَه الإذنُ بالسفر إلى الصعيد أعطاه السلطان مرسوماً بالإذن له في عزل جميع كشَّاف الصعيد وقضاته ومشايخ العرب إذا شاء ، فأقام في الصعيد مدَّةً ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فسكن في بلقس ، وعمَّر بها زاويةً ، وأقبلت الناس عليه من سائر الآفاق ، ونزلَ السُّلطان إلىٰ زيارته .

---

(١) كذا في النسخ : (البلقسي) ما عدا (ل) ففيها : (النبتيني)، وفي مصادر ترجمته : (البلقيني)، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٥) (٣٨٧) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

فمكث مدةً هناك ، ثم جاءه الإذن بأن يسكنَ مصرَ ، فسكن في الزاوية الحلاوية ، فرآها خربةً ، فعمَّرها له السلطان الغوري .

وكان ينزل هو وولده إليه ، وعمل الأمراءُ فيها فعلاء كالدوادار الكبير ومن دونه ، ثم ترك لباسَ الجلد ، فصار يلبسُ الملابسَ الفاخرة كملابس الملوك ويقول لنفسه : انظري حلاوةَ المجاهدة ، فلولا جاهدتي ما حلاَّكِ اللهُ تعالىٰ بهـٰذه الملابس والأطعمة .

وأعطاه السلطان الغوري سريةً من سراريه .

وكان له سبعُ نقباء مرصدين لقضاء حوائج الناس عند السلطان والأمراء وغيرهم .

وكثير ما يرسمُ السُّلطان بشنق إنسانٍ ، فيرسل له فيخلِّصُه منه .

وكان مع نفاسة ملابسه من الجوخ والفراء السمور والوشق وغيرها له عمامةُ صوف أبيض .

وكان إذا سمع أحداً ينشدُ كلامَ سيدي عمر بن الفارض يصيرُ كالجمل الهائج ، لا يستطيع أحدٌ أن يُقعدَهُ حتىٰ يقعدَ باختياره .

وما منع سائلاً قط ، حتىٰ إن السائل يطلبُ منه النصفَ الواحد ، فيخلعُ له جوخةً تساوي الخمسين ديناراً .

وكان إذا أرسل له أحدٌ من الأكابر صرَّةَ ذهب أو فضة ولو خمس مئة دينار ، يُفرِّقها في المجلس على الحاضرين والنقباء ، ما عدا نفقةَ ذلك اليوم .

وكان فيه خُرَّاجٌ في قفاه لم يزلِ الدودُ يتساقطُ منه ، فربما أَكَلَهُ الدود ، فيضعُ يدَه ويحكُّ ، فتطلع الجلدةُ تغلي دوداً ، فينزع الدودَ ، ويحطه في طين رطب عنده .

وكان له أثرٌ في كاهله من كثرة ما خدم شيخه الكواكبي في حمل الماء علىٰ ظهره وكتفه .

ولم يكن يحضرُ مع أصحاب شيخه أورادَهم قطُّ ، إنما كان مشغولاً بالخدمة ، فلما حضرتْ شيخَهُ الوفاةُ ، وتطاول أصحاب الجندات والعذبات بالإذن لم يلتفتِ الشيخُ

إلىٰ أحد منهم ، وقال : هاتوا عبيد ، فأذن له بحضرتهم ، فغاروا منه حتىٰ كادوا يقتلونه ، فسافر إلىٰ مصرَ .

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة مشهورة بين أولاده وأصحابه .

وفَقَدَ ولده في حال حياته وهو والد أخينا الشيخ الصالح زين العابدين ، وكان شابّاً جميلاً ، كريماً ، عابداً ، زاهداً ، سمع شخصاً ينشدُ بيتاً في المحبة ، فخرج علىٰ وجهه هائماً ، فلم يدروا أين ذهب إلىٰ وقتنا هـٰذا ، فلم يتأثَّرْ عليه الشيخ عبيد ، وقال : نحن قومٌ كيلانية ، ما ولِدَ لنا مولودٌ قطُّ إلا وأخرجناه من قلبنا ، فسواءٌ علينا مكثَ عندنا أو فارقنا علىٰ حدٍّ سواء ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات في جُمادى الأولىٰ سنة خمسٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٢) الشيخُ العارف بالله تعالىٰ ، والداعي إليه سيدي الشيخُ إبراهيم الشاذلي[١]

أجلُّ جماعة سيدي محمد المغربي وسيدي أبي المواهب .

كان رضي الله عنه ينفق نفقةَ الملوك ، ويلبس لباسهم ، ولا يدري له أحدٌ جهةً معينةً يأتيه منها الدنيا ، فكان يُنفق من غيب الله عز وجل .

وسافر مكةَ المشرفة ، فعمل له كلَّ ليلة سِماطاً عظيماً ، فعكفتِ الناسُ عليه ، فما بقي له وقتٌ يتفرَّغُ فيه للطواف ، فقال لبعض أصحابه : مرادي نفرة هـٰؤلاء عني بطريقة أعرفُها ، فكتبَ قائمةً ، وأعطاها للنقيب : علىٰ فلان ألفُ دينار ، علىٰ فلان خمس مئة ، علىٰ فلان مئة ، وقال لهم : يقول لكم الشيخ : كلُّ من لا يأتي في صلاة الصبح

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١١٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٩٠) ، و« معجم المؤلفين » (١/ ٣٠) .

بدراهمه لا يُجالسُ الشيخ ، فلم يأت ثاني يوم أحدٌ منهم ، وفارقوه ، فقال : الحمد لله رب العالمين[١] .

وأخبرني ولده الشيخُ الصالح سيدي محمود : أن أباه ما أتى الطريقَ إلا بعد أن لحقَهُ الشيبُ ، فأتىٰ إلىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الشيخ جلال الدين السيوطي في الطريق رحمهما الله تعالىٰ فقال : يا إبراهيم ؛ تريدُ مشيخة بيتية وإلا سوقية ؟ فقال : بيتية ، فقال : قفْ غلاماً ، اخدمِ البيتَ والبغلة ، وحسِّ الفرسَ[٢] ، ومهِّدْ تحتها الزبل ، وكبَّ الترابَ ، فقال : سمعاً وطاعة ، فلم يزل يخدم الشيخَ إلىٰ أن مات ، فاجتمع علىٰ سيدي أبي المواهب ، فما عُرف إلا به .

وكان الشيخ محمد يقول له : (رضاعُك مني ، وفطامك علىٰ يدي أبي المواهب) ، فكان الأمرُ كذلك .

فلم يزل عند الشيخ أبي المواهب يخدمُ كذلك ، ولم يكن يجتمعُ مع الفقراء في قراءة حزب ولا غيره حتىٰ حضرتْ سيدي أبي المواهب الوفاةُ ، فتطاول الشيخ أحمدُ القسطنطيني وغيرُهُ للإذن ، فقال الشيخ : هاتوا إبراهيم ، فجاء ، فقال : افرشوا له السجَّادةَ ، فجلس عليها ، وقال : تكلَّمْ علىٰ إخوانك في الطريق ، فأبدى الغرائبَ والعجائب نظماً ونثراً ، وموشحات ، فأذعنوا له كلُّهم ، وأوصىٰ لي بالعيون التي كان ينظر بها ، فهي عندي إلى الآن ، ووصلَ إليَّ ديوانُه وموشحاتُه وشرحُهُ لـ « الحكم » بخطِّه[٣] ، ودعا لي بدعوات ، فوجدتُ بركتها .

صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم توفي رضي الله عنه في سنة أربعَ عشرة وتسع مئة .

ودخل عليه سيدي محمد المغربي وهو في النزع ، فقال : ما تشهد ؟ قال : وحدةً مُطلقةً ، فقال : هنيئا لك ، فطلعتْ روحه رضي الله عنه .

ودفن بزاويته بالقرب من قنطرةِ سُنْقر ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) مرَّ شبيه بهٰذه القصة مع الشيخ محمد السروي (٤/ ١٨٣) .

(٢) حسَّ الدابة : إذا نفض عنها التراب .

(٣) واسم كتابه : « إحكام الحِكم في شرح الحكم » .

ومنهم :

(٤١٣) الشيخ الصالح ، الفقيهُ العابد الزاهدُ ، السُّني المحمَّدي ، جامعُ أشتات الفضائل الشيخ يوسفُ الحُرَيْثي صاحبُ الشيخ محمد بن عنان رضي الله عنه[١]

كان علىٰ قدم عظيم في اتِّباع السُّنة وقيام الليل ، وتلاوة القرآن .

وكان يميل إلىٰ إخفاء العبادة ، ويقول : (لا ينبغي لضعيف مثلي أن يعتد بشيء من أعماله الخفية فضلاً عن الأعمال الظاهرة) .

وأخبرني رضي الله عنه : أنه لما تزوَّج أمَّ أبي العباس ولده مكث يقرأ كلَّ ليلة ختماً مدَّة عشرين سنة ، وقال : ما أظنُّ أنَّها شعرتْ بذلك في ليلة من الليالي .

وكان أكثرُ اشتغاله في تعليم الناس القرآن .

عاش حتىٰ صار الناسُ كذا كذا كذا دوراً من تلامذته في جامع الأزهر والريف ، وعُمِّر نحو التسعين سنة .

وكان الناس يقولون : الطريقُ في الحقيقة في بلاد الشرقية للشيخ محمد بن عنان وجماعته ، هٰكذا سمعتُهُ من الشيخ عبد الحليم بن مصلح رحمه الله .

وكان رضي الله عنه يُحبُّني محبَّةً كمحبَّة ولده أبي العباس ، ويقول لي : لمَّا أراكَ ينشرحُ صدري .

وكان يقول للناس : (أحبُّ من الدنيا ثلاثةَ أنفس : اثنان في مصر ؛ وهما عبد الرحمٰن الأجهوري المالكي ، وعبد الوهاب ، وواحد في الشرقية ؛ وهو يوسف البشلاوي) .

وكانت صُحبتي له بمصرَ حين انتقل من بلاد الشرقية هو والشيخ محمد بن عنان ، فأقام في جامع باب البحر حتىٰ مات الشيخ محمد بنُ عنان ، فعمَّرَ له ابنُ الجيعان جامعَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٦) (٣٨٨) .

البشيري ببركة الرطلي ، ونقله إليه ، فلم يزل فيه ، والناسُ تقصده للزيارة من سائر الآفاق إلىٰ أن مات ، فدُفن بالجامع .

وحضرتُه أنا وأخي الشيخ عبد الرحمـٰن الأجهوري ليلةَ الوفاة ، فقال لنا : في قلبي غمٌّ من عدم معرفتي بكيفية تخليل اللحية كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخلِّلُ بحديث صحيح[١] ، قال : وقد سألتُ عن ذلك الحافظين الشيخَ عثمان الديمي ، والشيخَ جلال الدين السيوطي ، فما أشفيا غليلي ، فقلنا له : يكفي في مثل ذلك العملُ بالحديث ولو ضعيفاً ، فقال : يا ولدي ؛ من قويَ دليلُهُ قويَ إيمانُه وبالعكس ، فقلنا له[٢] : أنت بخير ؟ فقال : وما خيرُ من خرج من الدنيا وهو جاهلٌ بكيفية الوضوء علىٰ وجه السُّنة . انتهىٰ .

فانظر يا أخي محافظتَهُ على السُّنة ، وإخبارَهُ بأنَّ في قلبه [غمّاً][٣] من مثل تخليل اللحية الذي هو مستحبٌّ لا واجب ، وهـٰذا التأثير ما رأيناه علىٰ مثل ذلك في أحد ممن صحبناهم .

ولما حصل الإذن لولده الشيخ أبي العباس من سيدي علي المرصفي : بأنه يُلقِّنُ الذكر ، ويربي المريدين تشوَّش غاية التشويش ، وقال له : يا ولدي ؛ ليس لنا حاجةٌ بهـٰذا الباب .

وكان يقول لي : حطَّ علىٰ أخيك حتىٰ يتركَ هـٰذا الباب ؛ فإني أستحي ، ولا تقل إنني قلت لك ؛ فإن فتحَ الطريق في هـٰذا الزمان قليلة النفع ، وهتيكة للفقير ، وما معه رأسُ مال يحمي نفسه لا من أهل الظاهر ولا من أهل الباطن ، فقلت ذلك لأخي أبي العباس ، فقال : أنا عبدٌ مأمور ، وخالَفَ ، ونزلَ بلاد الغربية ، فبينما هو في جامع ناحية إصْطَنْها[٤] وإذا به قد حصل له غمٌّ وضيق حتىٰ كادَ يهلك ، فقال : ائتوني

---

(١) رویٰ أبو داود (١٤٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفّاً من ماءٍ فأدخله تحت حنكه فخلَّل به لحيته وقال : « هكذا أمرني ربي عز وجل » .

(٢) في (أ ، ط ، ك) : (فقلت له) .

(٣) في النسخ : (غمٌّ) .

(٤) إصطنها : من البلاد القديمة ، بمركز قويسنا ، من أعمال المنوفية . « قاموس رمزي » (١٩٩/٢/٢) .

بوعاء ، فقاءَ قيحاً ودماً حتىٰ ملأه ، وما عُرف هـٰذا الأمر من أين أتاه ، وإذا بفقيرٍ نائم في الجامع مغطىً بملاءة مزعفرةٍ كشف عن وجهه وقال : واللهِ ؛ لولا أنك غريبٌ لقطعت معاليق قلبك ؛ تدخلُ بلادَ الناس من غير دستور ، فقبَّلَ يدَه واستغفرَ ، فجاءنا الخبر ، فقال الشيخ : ما قلتُ لك يا ولدي ما ثمَّ حالٌ يحمي مَنْ تظاهرَ بالطريق ، ثم قال لي : يا ولدي ؛ لا أحسدُ إلا مَنْ كان خاملاً في الناس وهو على سُنَّةٍ إلىٰ أن يأتيه أجلُهُ .

وأخبرني الشيخ عبدُ الباسط بن الشبيه أحدُ تلامذته : أنه أمرَهُ أن يُخرجَ للعيال قمحاً للطحين نحو ملء قفة ، فمكثَ يُخرج منه نحو ستين يوماً من ملء القفة .

وكان يهضم نفسَه على الدوام ، ويقول : (لو أقمنا الميزانَ علىٰ أنفسنا ما صحَّ لنا مقامُ الإسلام ، فضلاً عن الإيمان ، فضلاً عن الولاية الخاصة ؛ لأن في « البخاري » و« مسلم » مرفوعاً : « المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ »[١] ، واللهِ ؛ لا سلمَ المسلمون لا من لساني ولا من يدي) .

مات رضي الله عنه سنة أربع وعشرين وتسع مئة بجامع البشيري ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٤) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ عبدُ الرزاق التُّرابي[٢]

أحدُ تلامذة سيدي علي النبتيتي ، والشيخِ العارف بالله تعالى الشيخ أحمد الترابي المدفون بالقرب من جامع شرف الدين بالحسينية ، رضي الله عنه .

صحبته نحو ثلاث سنين .

وكان علىٰ قدم عظيم من الزهد والورع ، وأقبل عليه الناسُ بالاعتقاد بعد موت شيخه سيدي علي النبتيتي .

وألَّف رسالةً في الطريق ، وكان له النظمُ الشائع في طريق القوم .

---

(١) البخاري (١٠) ، مسلم (٤٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٧) (٣٨٩) .

ثم انتقل من الريف إلىٰ مصر ، فأقام في زاوية شيخه الشيخ أحمد الترابي ، ثم انتقل إلىٰ قريةٍ بالجيزة ، فأقام بها إلىٰ أن مات بها .

وطلع في شفاعةٍ إلى الأمير خايربك ملك الأمراء بمصر ، فأغلظ الأميرُ على الشيخ ، ورسم عليه ، فطلعتْ له جمرةٌ تلك الليلة ، فقال : أطلقوا الشيخَ ، وقولوا له يطلبُ منك الفتوة ، فقال : نفذ السهمُ ، فلم يزل خايربك بها إلىٰ أن مات بعد سبعة أيام .

مات الشيخ عبد الرزاق بساقية مكة بالجيزة ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار **في سنة نيفٍ وثلاثين وتسع مئة** .

وكانت رؤيةُ وجهه رضي الله عنه تنشط لعمل الآخرة ، رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه ، آمين .

ومنهم :

(٤١٥) الشيخُ الصالح ، العابد الزاهد مُحيي السُّنـة في بلاد الغربية بعد موت شيخه أبي الخير بن نصر بمحلَّة منوف الشيخُ مخلص رضي الله عنه[1]

كان مُقيماً بناحية أبشيه الملق .

صحبته نحو ثلاث سنين بعد موت شيخي الشيخ محمد الشناوي ، وكان شيخُنا يجلُّه ويكرمه .

وحضرتُ أنا وإياه وفاة سيدي محمد الشناوي ، وحصل لي منه دعواتٌ صالحة وجدتُ بركتها .

وأوصاني بإيثار الخمول على الظهور ، وبعدم التعرف بأركان الدولة إلىٰ أن يعرفوك من غير تعرُّف منك .

ولم يزل على المجاهدة وكثرة العبادة ، والتقشُّف علىٰ طريقة الفقراء الأُول إلىٰ أن مات **سنة أربعين وتسع مئة** ، ودفن بأبشيه الملق ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤١٨) (٣٩٠) .

ومنهم :

(٤١٦) الشيخُ الصالح ، العالم العاملُ ، الورع الزاهد الشيخ صدرُ الدين البكري رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صحبته نحو سبع سنين .

وكان من أجلِّ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي ، وسيدي أبي العباس الغمري .

وكان كثيرَ الصمت ، يجلس اليومين والثلاثة لا يتكلَّمُ إلا ردَّ جوابٍ لأحد وهو مطرقٌ في الأرض ، لا يكاد يرفعُ بصره إلى السماء في ليل أو نهار .

دعا لي بدعوات صالحة ، فوجدتُ بركتها ، وأوصاني بألا آكل طعاماً للشرع عليه اعتراضٌ ولو سففت الترابَ من الجوع .

ولما حجَّ وزار النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمع الناس صوتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بردِّ السلام عليه .

مات رضي الله عنه سنة ثمان عشرة وتسع مئة ، ودفن بالمدينة المشرفة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤١٧) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ ، صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والأكل من عمل يده الشيخُ دمرداش المحمدي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

أجلُّ أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي[٣] المدفون في حوش السلطان برقوق بصحراء مصر المحروسة .

فلما مات شيخُه المذكور ساحَ البلاد إلىٰ أن وصلَ إلىٰ توريز العجم ، فصحب

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٨) (٣٩١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١٩) (٣٩٢) .

(٣) في النسخ : (المغربي) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ فمولده : حضرموت ، وقدم مصر واستوطنها ، وسيذكره المؤلف (٤/ ٢٥٧) بنسبه : (اليمني) .

الشيخ العارفَ بالله تعالىٰ صاحبَ الكشوفات والمعارف سيدي عمر روشني ، فأقام عنده مدَّةً ، ثم رجع إلىٰ مصر .

فنزل بالبرية خارج الحسينية ، فسأل من السلطان قايتباي أن يأذنَ له في إحياء أرض زاويته ، وأرضِ الغيط النخل ، فأذن له ، فأقام يغرسُ ويسقي نحو خمس سنين ، وهو في خصٍّ هو وزوجته أم سيدي أحمد ومصطفىٰ ، فغرس ألف نخلة ، فلم يخبْ منها واحدةٌ ، وليس في مصرَ أحلىٰ ثمرةً منه في الحياني ، حتىٰ إن بعض السوقة يخلطُ منه علىٰ بلحه ، ويبيعُ علىٰ حسِّه من شدة حلاوته .

وقال لي : يا عبد الوهاب ؛ ما غرستُ نخلةً قطُّ إلا على اسم الفقراء والمساكين الذين أنا من جملتهم .

وذكر : أن سيدي إبراهيمَ المتبولي هو الذي أشار عليه بذلك ، وقال له : (يا دمرداش ؛ كلْ من عمل يدك ، وإياك والأكلَ من صدقات الناس ؛ فإنهم يتقاسمون حسناتك في الآخرة) .

وقد وقف رضي الله عنه ما مَلَكَهُ من الغيطان ، وقسمه ثلاثة أثلاث : ثلثٌ يُردُّ علىٰ مصالح الغيط ، وثلثٌ للذرية ، وثلث للفقراء والمساكين القاطنين والواردين .

وجعل على القاطنين كلَّ يوم ختماً يقرؤونه ويهدونه للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وللشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه ؛ كلُّ طائفة يقرؤون عشرين حزباً ، ثم يختمون قبيل المغرب .

صحبته نحو خمس سنين ، وبتُّ عنده ليالي كثيرة ، فكان رضي الله عنه لا ينامُ من الليل إلا قليلاً ، وغالبُ لياليه يمشي حولَ الزاوية والغيط وهو يتلو القرآن إلى الفجر ، إلىٰ أن عمل السورَ المحيط على الزاوية ، فكان يجلس طولَ الليل في الخلوة ، ولا ينام في بيته إلا في النادر ، وأراني مرة خشونة يده ، وقال : انظر موضعَ الفأس .

وكان رجلاً مهاباً ، وأمرُهُ كلُّهُ جدٌّ ، لا تكاد تجدُهُ في ليل أو نهار في غير عمل صالح ؛ إما ينجر السواقي بيده ، وإما ينجر النوارج[1] ، وإما يعزقُ حول النخل ، وإما

---

(١) ينجر : ينحت ، **والنوارج** : جمع النوْرَج : وهي ما تداس به أكداس الطعام حديداً كان أو خشباً ، وهو سكة الحراث . « متن اللغة » (٥/ ٤٣٥) .

يشدُّ القواديس[١] ، وإما يفتل الطونس[٢] ، وإما يدرس ، وإما يطحن ، وإما ينقِّي الطحين من البخر والطين ، وإما يبني ، وإما يضرب طوباً ، وإما يكب تراباً ، وإما يقلِّم النخل ، وإما يُقرِّصُ العجين .

أقام عنده الفقراء الصادقون ، وانتفعوا به ، واستخلف منهم جماعةً ، وأذن لهم بالتسليك في مصر ؛ منهم : الشيخ حسن الجركسي ، والشيخ محمد الحانوتي ، والشيخ كريم الدين بن الزيات .

وهو الذي أحيا طريقةَ شيخه بعده .

وزاوية الشيخ دمرداش عامرة بالسماط والفقراء ، وليس في مصر زاويةٌ يأكلُ فقراؤها حلالاً مثلها ؛ لأن وقفَها من عمل الشيخ بيده ، لا منَّةَ لأحد فيه على الفقراء ، ولا رياء فيه ولا سمعة ؛ بل عملُ وليٍّ عارف بالله تعالىٰ ، وهـٰذا قلَّ أن يقعَ لشيخ في عصر من الأعصار ، إنما يأكلُ فقراء زاوية ذلك الشيخ من أوقاف الناس من الولاة وغيرهم .

وكان رضي الله عنه إذا غلب عليه الحالُ يأكل نحوَ الإرْدَبِّ من الأرز المفلفل .

وعمل له مرةً الأميرُ أقبردي الدوادار سماطاً ، وأرسل للشيخ يقول له : ائت بجميع أصحابك ، فلم يأت الشيخُ معه بأحد ، فجلس على السِّماط ، ـ ذكروا أنه كان يكفي خمس مئة نفس ـ فقال الأمير : أما تنتظروا الجماعة ؟ فقال الشيخ : أنا أَسُدُّ عنهم ، فصار يأكلُ من الإناء ويلحسُهُ ، حتىٰ أكلَهُ كاملاً ، وقال : لم أشبع ، فأتوه بكسر يابسة وبقية الطعام الذي غرفوه على اسم الغز والعيال ، فأكله ، فاستغفرَ الأميرُ للشيخ ، فقيل للشيخ : كيف أكلتم ذلك كلَّهُ ؟! فقال : رأيتُهُ شبهاتٍ ، فحضرت بطائفة من الجنِّ فأكلوه ، وحميتُ الفقراءَ منه .

مات رضي الله عنه سنة نيفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته ، رضي الله تعالىٰ عنه[٣] .

---

(١) **القادوس** : إناء من خزف ، يخرج به الماء من السواقي . « متن اللغة » (٤/ ٥٠٩) .

(٢) **الطونس** : الحبل .

(٣) كذا في النسخ ، ولعله : (نيف وعشرين) ، فقد قال في « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٣) : (ذكر العلائي : أنه توفي عصر السبت حادي عشر ذي الحجة سنة تسع ـ بتقديم المثناة ـ=

ومنهم :

(٤١٨) الشيخُ الصالح ، صاحبُ المجاهدات والكشوفات الشيخ إبراهيم العجمي[(١)]

أخو الشيخ دمرداش في الطريق ، وأخو الشيخ شاهين في الطريق علىٰ سيدي عمر روشني بتوريز العجم .

دخل رضي الله عنه إلىٰ مصر في دولة بني عثمان ، وأقام بباب زويلة في المدرسة المؤيدية ، فأخذ عنه خلقٌ كثير من العجم ، ومن عسكر السلطان ، وحصل له الإقبالُ العظيم والخضوع العظيم من التلامذة وغيرهم .

وكان يفسِّرُ القرآن ، ويقرئ في رسائل القوم مدةً طويلة ، ثم بنىٰ له تكية مقابل المؤيدية ، وجعل له فيها مدفناً ، وبنىٰ حوله خلاوي للفقراء ، لكلِّ واحدٍ قبر في خلوته .

تردَّدتُ إليه مراراً كثيرة ، فقال لي : ليس في مشايخ مصر أحدٌ علىٰ قدم أهل الطريق ، إنما هم مشايخُ قالٍ أو عيشٍ ، وما ثَمَّ حالٌ يؤثِّرُ في مريدهم الخير .

وكان له اليدُ الطُّولىٰ في علم الكلام والمعقولات ، ونظم تائيةً طويلةً جمعَ فيها معالمَ مقامات الطريق .

ولما كثرَ إقبالُ عسكر السلطان عليه ، حتىٰ صاروا يقتتلون علىٰ شرب ماء غسله في الحمام خافتِ الدولةُ من أخذه مصر ، فكاتبوا عليه السلطان ، فنفاه إلىٰ بلاد الروم مدةً ، ثم رجعَ إلىٰ مصر ، فأقام بها حتىٰ مات في سنة أربعين وتسع مئة .

وطردَ غالبَ جند السلطان عنه ؛ امتثالاً لأمر السلطان .

وكان لا يُمكِّنُ أحداً من فقرائه يحج حتىٰ يعرفَ الله تعالى المعرفةَ الخاصة عند

= وعشرين وتسع مئة ، وذكر ابن طولون : أنه صلىٰ عليه غائبة بالجامع الأموي بدمشق يوم الجمعة (١٧) محرم سنة ثلاثين وتسع مئة) .

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٠) (٣٩٣) .

القوم ، ويقول لهم : حجُّوا إليَّ أولاً حتىٰ أُعرِّفكم بربِّ البيت قبل البيت ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤١٩) الشيخُ الصالح ، الورعُ الزاهد ، صاحبُ المجاهدات والهمة العالية سيدي إبراهيم ، المشهور بمرشد رضي الله عنه(١)

كان قادريَّ الخرقة .

وكان يطوي الأيام والليالي ، بلغني أنه مكثَ أربعين سنة صائماً ، لا يأكلُ عند الإفطار غير زبيبة واحدة ، أو لوزة ، أو تمرة حتىٰ لصقَ جلدُ بطنه علىٰ أمعائه .

وكان يتقوَّتُ من حبك الأردية بجامع ابن طولون .

اجتمعتُ به كثيراً ، وكان يُخبرُ كلَّ وارد بما يقع له من الكرامات ، ويرىٰ ذلك من باب التحدُّث بالنعم .

وحدثني مرةً من مبتدأ أمره إلىٰ منتهاه في ذلك الوقت وقال : كأنك الآن كنتَ مُصاحباً لي من صغري إلىٰ هـٰذا الوقت .

وأخبرني أنه أقام في خربة مدَّةَ عشر سنين لا يجتمعُ بأحد ، وسخَّرَ له اللهُ الدنيا تأتيه كلَّ ليلة برغيف وطعام ، قال : فكنتُ أعلمُ أنها الدنيا ، ولا أُكلِّمُها ولا تُكلمني .

وحصل لي منه دعواتٌ وجدت بركتها ، وقال لي : إن طلبتَ يا فلان طاعةَ الخلق لك فأطعِ اللهَ تعالىٰ بظهرِ الغيب ، ولا تجعل لك سريرةً قطُّ تخشىٰ من ظهورها لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فقلتُ : بمددِكُم ، فقال : إن شاء الله .

وكان له مجلسُ ذكر عظيم في جامع الأزهر بعد صلاة الجمعة ، يحضرُ فيه فقراء كثير من الأحمدية وغيرهم .

مات رضي الله عنه سنة نيف وأربعين وتسع مئة ، ودفن بباب الوزير بالقرب من قلعة الجبل بمصر ، وله من العمر ثلاث عشرة ومئة سنة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢١) (٣٩٤) .

ومنهم :

(٤٢٠) الشيخ الصالحُ ، العابد الزاهد الشيخُ ناصر الدين أبو العمائم[١]

كان مقيماً بالنحرارية[٢] ، وبنىٰ له فيها زاويةً ، وغرس له بها بستاناً .

وكان الناسُ يقصدونه من سائر الآفاق بالزيارة ، وكانت خرقتُهُ أحمدية .

وكان بينه وبين شيخنا الشيخ نور الدين الشوني ودٌّ وإخاء عظيم من صغره إلىٰ أن مات .

وكان يتعمَّمُ بنحو ثلاث برد صوف غليظة حمرة وسودة ، حتىٰ إنه من قلة افتقادها وُلِدَ فيها فأرٌ ولم يدرِ به حتىٰ دبَّ علىٰ آذانه ، فقال : انظروا ما هـٰذا ، فوجدوها فأرةً ولدت ثلاث فئران .

وكان لسانه لهجاً بذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن .

صحبته نحو عشر سنين ، وحصل لي منه نفحاتٌ وآداب ، ودعا لي بدعوات ؛ منها : اللهم ؛ اجعل هـٰذا الولدَ زاهداً في الدنيا ، لا يطلبُ في الدارين سواك .

مات رضي الله عنه ودفن بالنحرارية ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار **في سنة تسع عشرة وتسع** مئة رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٢١) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد ، الصائم الدهر الشيخُ شرفُ الدين الصعيدي[٣]

كان صاحب كشف عظيم بما يقع للولاة وغيرهم في مستقبل الزمان .

دخل مصر في أيام السُّلطان الغوري ، فأقام بها حتىٰ مات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢١) (٣٩٥) .

(٢) في (ط) : (النحارية) ، وهو اسمها الحالي ، وهو تحريف ، وهي الآن تابعة لمركز كفر الزيات بمحافظة الغربية . « الخطط المقريزية » (١/ ٦١٣) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٢) (٣٩٦) .

وكان يطوي الأربعين يوماً وأكثر ، وبلغ الغوريَّ أمرُهُ ، فحبسه في بيت ، وأغلق عليه البابَ ، ولم يجعل عنده طعاماً ولا ماء ، فمكث الأربعين يوماً ، ثم خرج فصلىٰ بالوضوء الذي دخل به ، فاعتقدَهُ السُّلطان اعتقاداً عظيماً .

صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم مات ، ودفن قريباً من الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه في تربة القاضي شرفِ الدين الصغير رضي الله تعالىٰ عنه[١] .

ومنهم :

(٤٢٢) الشيخ العارف بالله تعالى ، الورعُ الزاهد المُكاشَف الشيخُ قاسم المغربي القصري رضي الله عنه[٢]

قدم حاجّاً في زمان السلطان الغوري ، فأقام نحو ثلاثةَ أشهر حتىٰ خرج للسفر ، فلم أفارقْهُ إلا قليلاً .

وكان ذا سمتٍ حسن ، وخُلقٍ حسن ، وكرمٍ عظيم ، علىٰ خلافِ أخلاق المغاربة ، فقلت له : يا سيدي ؛ هٰذه أخلاقٌ غريبة في المغاربة ، فقال وهو متبسم : أخلاقُنا صوريةٌ لا حقيقةَ لها ؛ فإن الغالبَ علينا الماءُ والطين .

ثم لما سافر ورجع من الحج صحبته إلىٰ أن سافر بلده مدينة فاس ، وأرسل لي منها عدةَ كُتبٍ لما وصل ، **وأوصاني فيها بعدَّة وصايا** ، وحصل لي به نفعٌ عظيم :

منها : أنه قال لي : (إياكَ أن تأكلَ مالَ الولاة ، أو تقبلَ لهم هديةً) .

ومنها : (لا تشتغلْ قطُّ بمن يؤذيك واشتغلْ بالله يردُّهُ عنك ؛ فإنه هو الذي حرَّكَهُ عليك ؛ ليختبر دعواك في الصدق) ، قال : (وقد غلطَ في هٰذا الأمر خلقٌ كثير ، فاشتغلوا بمقابلة من آذاهم ، فدام الأذىٰ مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردَّ اللهُ عنهم وكفاهم أمرَهم) .

---

(١) ذكره النجم الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ٢١٤) في وفيات قبل العشرين وتسع مئة ، وذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » (١٠/ ١٣١) في وفيات سنة (٩١٩هـ) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٣) (٣٩٧) .

ومنها : (إياك أن تترك قيامَ الليل وإن عجزتَ عن القيام صلِّ قاعداً ، وإن عجزتَ عن القعود صلِّ مضطجعاً ، ولا تفوِّتْ موكباً من المواكب ؛ فإن لله تعالىٰ كلَّ ليلة صدقةً ومواهبَ يُفرِّقها علىٰ قلوب المستيقظين) .

ومنها : (مشاركةُ الناس في همومهم بقلبك) .

ولما ورد مصر ، دخل معه خمس مئة فقير ، فلم يسعهم جامعٌ ، فأقاموا في خرابة الأحمدي .

وأخبرني : أنَّ الجهادَ عندهم في الفرنج دائمٌ طول السنة ، لم يزالوا في غزوات ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات رضي الله عنه سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة[1] بمدينة فاس .

ومنهم :

(٤٢٣) الشيخُ الصالح ، الورعُ الزاهد سيدي علي البليلي المغربي[2]

من قبيلة من عرب الغرب يُقال لها : بُليلة .

كان علىٰ قدم عظيم من العبادة ، كثيرَ الصيام .

كان يقيم في جامع الأزهر تارةً ، وفي القدس تارةً ، وفي مكةَ أُخرىٰ .

دخل رضي الله عنه أيامَ الغوري مصرَ للحجِّ ، فقال : دخلتُ مصرَ وعلىٰ بطني سبعُ دنانير على اسم الحجِّ ، فكنتُ أسألُ الناسَ وآكل ، فدخلتُ يوماً سوق الجملون ، فقال لي أولُ دكان : يفتح الله ، وثاني دكان كذلك ، فوقفتُ علىٰ تاجر في ثالث دكان ، فقال لي : اصرفْ لك ديناراً من السبعة التي علىٰ بطنك ، ورزقُ الحجِّ على الله ، قال فنزعتُهم من علىٰ بطني ، ورميتُ بهم في الشارع ، فمن ذلك اليوم ما ربطتُ علىٰ دينار ، رضي الله عنه .

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (سنة نيف وتسع مئة) ، وفي (ل) : (سنة خمس وتسع مئة) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٣) (٣٩٨) .

وكان الشيخ محمد بنُ عنان ، والشيخ نور الدين الشُّوني ، وغيرُهما يجلُّونه ويعظِّمونه .

وكان ذا خُلُقٍ حسن ، وعلمٍ وافر .

ومرضَ مرةً في جامع الأزهر ، فأشرفَ على الموت ، فأرسل وراء الشيخ محمد بن عنان فحضرَ ، فحملَ الشيخُ محمدٌ عنه المرضَ ، فقام سيدي عليٌّ ، وحمل الشيخ إلىٰ بيته ، فمكث نحو عشرين يوماً وسيدي عليٌّ يخدمه .

ومن وصيَّتِهِ لي : (إياك وورعَ المتنطِّعين ؛ فتحكم بالتحريم والشُّبهةِ علىٰ طعام إنسان بسوء ظنِّك ، وترده ، بل اعملْ علىٰ جلاء باطنك حتىٰ تعرفَ الحرامَ في نفس الأمر ، فقد يكون ما في يد الصالح حراماً وما في يد الظالم حلالاً) .

وكان يقول : (إن لم تصلْ إلىٰ هـٰذا المقام فأمسك ميزانَ الشريعة ، وطابقْ بين الدارين ، وانظرْ كلَّ شيء عرفتَ بالشرع أن الله تعالىٰ يسألك عنه هناك فاتركْهُ هنا) .

مات رضي الله عنه في القدسِ سنة نيفٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٢٤) الشيخ الصالحُ ، العالم العامل ، بقيةُ السلف الصالحين سيدي عليٌّ البحيري رضي الله عنه[١]

أخذ العلم عن جماعة من العلماء العاملين ؛ منهم : الشيخ شهاب الدين بن الأُقيطع البُرُلُّسي ، وسيدي علي النبتيتي .

وكان رضي الله عنه علىٰ قدم السَّلفِ الصالح في العلم والزهد ، والورع والبكاء ، والخوف من مواقف القيامة ، لا يكاد يغيبُ شيءٌ من أحوال يوم القيامة عنه كأنه ينظرُهُ رأيَ عين من هـٰذه الدار ليلاً ونهاراً .

صحبته نحو عشرين سنة ، وكان جامعاً بين الحقيقة والشريعة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٣) (٤٠٥) .

وكنتَ إذا رأيتَ رثاثةَ ثيابه وسمتَهُ كأنَّك رأيتَ سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنه .

وكان أكثر إقامته في الريف ، يدورُ البلاد ، فيعلِّم الناسَ أحكام الدين ، ويرشدهم إلىٰ طريق التقوىٰ ، ولا تكادُ تراه فارغاً من إقراء العلم .

وكان يُفتي في الوقائع التي ليس فيها نقلٌ بالأجوبة الحسنة ، وتُعرضُ علىٰ علماء مصر فيتعجَّبون منها .

وكان الإنسانُ إذا جالسه لا يكادُ يحبُّ أن يفارقَهُ ؛ لما هو عليه من السَّمتِ الحسن ، والخُلق الرَّضي ، والزهد ، والإيثار ، والفتوة ، وهضم النفس ، وتذكُّر أحوال الآخرة .

وبلغ شخصاً من إخواننا من جامع الأزهر : أن بعضَ أصحاب سيدي علي يقول : إن سيدي [عليّاً] من الأربعين[1] ، فأنكرَ ذلك ، فنام تحت دكَّة الجامع الأزهر ، فرأى الأربعين في منامه ، ورأىٰ سيدي عليّاً يُصلِّي بهم ، فاستغفرَ وسافر إليه ، وذكر له القصةَ ، فانتحب سيدي عليٌّ بالبكاء ، وقال : يا ولدي ؛ ربما يكونُ الذين رأيتهم شياطين أرسلوك تفتن عليّاً في دينه .

وكان إذا مشىٰ له أحدٌ من الفقراء أو العلماء ليزوره يصيرُ شهوراً يوبِّخُ نفسَه بذلك ، ويقول : (يزورك مثلُ فلان وفلان ، يا فضيحتك بين يدي الله تعالىٰ يوم القيامة) .

وكان إذا سأله أحدٌ الدعاءَ يقول : كلُّنا يقول : أستغفرُ اللهَ من كلِّ ذنبٍ عملناه إلىٰ وقتنا هـٰذا ، ثم يدعو ويقول : (إن الله لا يستجيبُ دعاءَ مصرٍّ علىٰ معصيةٍ أبداً) .

وكان إذا لاموه علىٰ كثرة البكاء يقول : وهل خلقَ اللهُ النارَ إلا لمثلي ؟!

وكان يقول : واللهِ ؛ ما كنَّا نظنُّ بأنفسنا أننا نعيشُ إلىٰ زمان صار العلماء فيه في غمرة فضلاً عن غيرهم ، وما كان الخلق إلا جازوا الصراط ، ونسوا يوماً يقطرُ فيه الحصا دماً ، وتشيبُ فيه الأطفال ، وتُسيَّرُ فيه الجبال .

وكان إذا مرَّ على الأطفال يغبطهم ، ويُسلِّم عليهم ، ويسألُهم الدعاءَ له وللمسلمين .

---

(١) في النسخ : (عليّ) .

وكان يحكي عن شيخه سيدي علي النبتيتي : أنه كان يبكي في الليل حتىٰ يصيرَ كالطير المذبوح ، ويقول : (يا نفسُ ؛ توبي إلى الله تعالىٰ قبل أن تموتي) .

وكان يقول : (والله ؛ ما نزلَ ببلادنا هـٰذه قط بلاءٌ إلا وظننتُ أنه بسبب ذنوبي ، ولو أنهم أخرجوني من بلدهم لخفَّ عنهم نزولُ البلاء) .

مات رضي الله عنه في شوال سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاوية سيدي محمد المنير رحمه الله تعالىٰ خارج الخانقاه السرياقوسية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٢٥) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ ، صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والعبادة الغزيرة ، والسمتِ الحسن ، والكرم العظيم ، وطلاقة الوجه ، وحسن الثناء ، أخي أبو العباس الحُرَيْثي رضي الله عنه[(١)]

صحبته نحو ثلاثين سنة ، فما رأيتُهُ ساعةً واحدةً مدبراً عن الله تعالىٰ .

قرأ الفقهَ والحديث والقراءات علىٰ والده ، ثم على الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح « البخاري » وكتبَ من مؤلَّفاته كثيراً ، وقرأ كتاب « المواهب اللدنية في المنح المحمدية »[(٢)] هو والشيخ عبد الرحمـٰن الأجهوري المالكي رحمهما الله تعالىٰ .

وأخذ الطريق عن سيدي محمد بن عنان ، ثم عن سيدي علي المرصفي ، وكان فطامه علىٰ يديه ، وأذن له أن يلقِّنَ الذكرَ ويُربِّي المريدين ، فلقَّن في مصر وقراها نحواً من عشرة آلاف نفس ، وعمَّرَ عدة مساجد وجوامع ، وأقام الشعائرَ فيها .

ووقع لي معه كراماتٌ ووقائعُ غريبة :

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٥) (٤٠٦) .

(٢) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية ، في مجلد ، للشيخ أحمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفىٰ سنة (٩٢٣هـ) ، وهو كتاب جليل القدر ، كثير النفع ، ليس له نظير في بابه ، رتبه علىٰ عشرة مقاصد ، فرغ من تبيضه سنة (٨٩٩هـ) ، وعلى الكتاب حواشٍ وشروح ؛ منها : « شرح الزرقاني » ، وهو شرح حافل جمع فيه أكثر الأحاديث المروية في شمائل المصطفىٰ وسيره وصفاته الشريفة .

منها : أنه جلس عندي بعد المغرب في رمضان ، فقرأ قبل أذان العشاء خمس ختمات .

ومنها : أنه طلع لي بواسير ، وحصل لي منها ضررٌ شديد ، فشكوتُ ذلك إليه ، فقال : غداً تدخل في صلاة العصر فتسلم منها ، فلا تجدُ لها أثراً ، فكان الأمر كما قال .

وكان له القبولُ التام على الخاصِّ والعام ، حتىٰ كان الناسُ يتقاتلون علىٰ شرب غسالة يديه من زفر السمك وغيره .

وكان جميلَ المعاشرة ، وآثارُ الصلاح ظاهرةٌ علىٰ وجهه ، حتىٰ إنه إذا رآه من لم يَرَهُ قط يشهدُ بأنه وليُّ الله تعالىٰ .

وكان في الليل لا يكادُ يجتمع بأحد إلىٰ صلاة الصبح ، وطوى الأربعين يوماً في الخلوة .

ودعاني مرةً إلى النوم معه في منارة جامع البشيري ، فجلستُ معه بعد العشاء حتىٰ طلعَ الفجر ، فكان تلك الليلةُ من حلاوة منطقه كأنها ثلاثُ درج[1] .

وكان رضي الله عنه كثيرَ التحمُّل لهموم الناس ، حتىٰ صار جسمُهُ وجلدُهُ كالشنِّ البالي[2] .

وما رأيتُ عنده قطُّ دعوىٰ لشيء من مقامات الطريق ، وإذا ذكرتُ له شيئاً من مقاماتهم يقول : استراحتِ العرايا من شراء الصابون .

توفي رضي الله عنه في ثغر دمياط ، ودفن في زاوية الشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) **الدرجة** : أربع دقائق .

(٢) **الشَّنُّ** : القِربة الخَلَق .

ومنهم :

(٤٢٦) شيخُنا وقدوتنا إلىٰ طريق الله تعالى ، الشيخُ الصالح المجمعُ علىٰ جلالته وصلاحه ، الشيخ نورُ الدين الشوني[1]

شيخُ مجالس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جامع الأزهر ، وفي مكة ، والقدس ، والشام ، وقرىٰ مصر ، وغيرها ، رضي الله عنه .

خدمته خمساً وثلاثين سنة ، ما أظنُّ أنَّه بحمد الله تغيَّرَ عليَّ يوماً واحداً .

وإنما سُمي بالشُّوني ؛ لأنه ولد في قريةٍ من قرى الغربية اسمها شون .

نشأ رضي الله عنه في الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صغير ببلده ، فكان إذا سرحَ بالبهائم يُعطي غداءَهُ للصغار ، ويقول : تعالوا صلُّوا معي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ثم انتقلَ إلىٰ مقام سيدي أحمد البدوي ، فأقام فيه مجلسَ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الجمعة ويومها .

قال : (وكنَّا كثيراً ما نجلسُ من صلاة العشاء إلى الصبح ، ثم من الصبح حتىٰ نخرج لصلاة الجمعة ، فإذا صلَّينا الجمعة صلَّينا على النبي صلى الله عليه وسلم كذلك إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب) .

قال : (ومكثنا علىٰ ذلك عشرين سنة ، ثم إني خرجتُ أودِّعُ شخصاً من أصحابي في المركب أيامَ النيل كان مسافراً إلىٰ مصر ، فعامتِ المركبُ بنا ، فما رضي الريسُ يرجعُ بنا ، فدخلتُ مصر ، فأقمت في تربة البرقوقية بالصحراء ، وكنت آتي جامع الأزهر للصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعَ عليَّ خلقٌ كثير ، ومماليكُ من مماليك السلطان قايتباي ، فنازعني مجاورو الأزهر ، وكتبوا فيَّ فتاوىٰ بإبطال المجلس ، فلم ألتفتْ إليهم ، وقدَّموا فيَّ سؤالاً لشيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف الشافعي ، فقطعَهُ ، فاستفتوا عليَّ في كثرة الشموع والقناديل التي

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٧٧) (٤٠٧) .

تُوقد في المجلس وقالوا : هٰذا فعلُ المجوس ، فأفتى الشيخُ برهان الدين : أنه ما دامَ النورُ يزيد بزيادة الشمع والقناديل فهو جائزٌ ولا يحرم ، إلا إنْ وصلَ إلىٰ حدٍّ لا يزدادُ الناسُ به ضوءاً) .

قال : وأفتىٰ شخص من المالكية : بأن هٰذا السهر مكروه ؛ لأن الله تعالىٰ جعل الليل سكناً ، وأنا لم أجعله سكناً ، فقطعها الشيخُ برهان الدين ، ثم انتصر لي الشيخُ شهاب الدين القسطلاني ، وصنَّفَ كتاباً في الردِّ علىٰ من أنكر ، وحثَّ الناس علىٰ حضور المجلس ، وصار يحضرُ .

ولمَّا شرح « البخاري » كان يأتي بالشرح فيضعه وسطَ الحلقة إلى الصباح رجاءَ القبول ، فوقعتْ فتنةٌ بين الذين تحزَّبوا عليَّ ، فتفرَّقوا كِلهم ، لٰكن بعد نحو عشر سنين وأنا في نزاع وهم يريدون إبطال المجلس ، هٰذه حكايتُهُ لي رضي الله عنه .

قال : (وكان إنشاء المجلس في جامع الأزهر سنة سبع وتسعين وثمان مئة) ، فله من ابتدائه إلىٰ أن مات الشيخُ [إحدىٰ] وخمسون سنة[1] ، ولم يتزوج رضي الله عنه حتىٰ مضىٰ من عمره تسعون سنة .

وأخبرني رضي الله عنه : أن وردَهُ في الصَّلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم عشرةُ آلاف في الليل وعشرة آلاف في النهار .

وكان رضي الله عنه حسنَ المعاشرة ، جميل الخُلق ، كريمَ النفس ، كثيرَ التبسُّم ، لا يكاد يُسمعُ منه قطُّ كلمة فيها رائحة دعوىٰ لمعرفة شيء من الطريق .

وكان قلبُه من الصفاء علىٰ جانب عظيم ، لا يظنُّ أن أحداً يكذب أبداً ، وكان باطنُهُ كباطن الطفل ؛ لا غلَّ فيه ولا حقدَ ، ولا مكر ولا خديعة ، ولا رياء ، ولا عُجْب ولا كِبْر ، ولا حسد ، ولا غير ذلك ، بل جبلَهُ الله تعالىٰ على الأخلاق المحمدية ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزل بالمسلمين همٌّ لا يقرُّ له قرار ، ولا يضحكُ حتىٰ ينجلي عنهم .

وكان الناسُ يُثنون عليه بكثرة رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيسكت ،

---

(١) في النسخ : (أحد) بدل (إحدىٰ) .

وكان إذا ذكرَ رؤيا يقول : رأىٰ بعضُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال له : كذا وكذا ، ولا يضيفُ لنفسه شيئاً من ذلك .

ورأيته كثيراً مجالساً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فيقول لي : شبهت بي ، ولم يعترفْ بذلك .

وكان الناس يرونه في عرفات ، وفي الطواف ، ويرسلون يخبرون أهل مصر ، ويقولون : سلَّمنا عليه في الموضع الفلاني ، فيُنكر ذلك ويقول : شبَّهوا بي ، فحلف شخصٌ بالطلاق الثلاث : أنه رآه في عرفات ، فقال الشيخ : أنا ما فارقتُ مصر أبداً في هـٰذه السنة .

وغرقتْ مركبٌ في البحر المالح ، فرأىٰ بعضُهم الشيخَ نور الدين الشوني وهو يأخذ بيد الناس ويُوصلهم إلى البر يقظةً ، وحلفوا بالطلاق ، فصار الشيخُ يتعجَّبُ من حلفهم ويقول : أنا ما علمتُ بغرقهم إلا منهم ، فكيف هـٰذا الحال ؟! فقلتُ له : يا سيدي ؛ هـٰذا من شدَّة اعتقادهم فيك ، فينشئُ الله تعالىٰ من قوَّة توجُّههم إليك شخصاً علىٰ صورتك يقضي حوائجهم ، فقال : الآن زال ما عندي .

ومناقبه كثيرة مشهورة بين أصحابه .

ومما وقعَ لي معه : أنني لما دخلتُ من الريف إلىٰ مصر في سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة لقيني الشيخُ شهاب الطويل المجذوب المدفون في مصر العتيق ، فقال لي : أيشٍ حال أبوك ؟ فقلت له : إن أبي مات ، فقال : لا ، أبوك يعيشُ ، فقلتُ : من هو ؟ فقال : الشوني ، فما عرفتُ الشوني من هو ، ثم بعد سنتين حصلَ الاجتماعُ به في العادلية ، فقالوا لي : هـٰذا اسمُه الشيخ نور الدين الشوني ، فحكيتُ له ما قاله الشيخُ شهاب الطويل ، ففرح بي وأكرمني ، وقال : لا تقطعني ، ففارقته .

فرأيتُ تلك الليلة كأن الشيخ رضي الله عنه في أرض من بلور ، وعليها سورٌ من بلور شاهق نحو السماء ، وإذا بالشيخ يمشي في تلك الأرض ، وأنا وراءه ، ونعلُه يرنُّ ، فامتلأ قلبي أُنساً ، فبينما نحن كذلك إذ نزلتْ سلسلةٌ من ذهب ، وفيها قربةُ ماء صغيرة ، ووقفتْ بقدر ما يصل إليها الفم ، ففتحها الشيخ وشربَ منها ، ثم أسقاني الفضلةَ ، ثم تخلَّف الشيخ ، وفارقتُهُ إلىٰ قدَّام ، فلم أزلْ أمشي حتىٰ غابَ عني الشيخ ،

فنزل لي سلسلةٌ من فضة ، وفيها شيءٌ طولُهُ شبرٌ في شبر ، وفيه ثلاثُ عيون تتفجَّرُ ماءً ، مكتوبٌ على العين العليا : مُستمدُّ هـٰذه العين من الله ، وعلى الوسطىٰ : مستمدُّ هـٰذه العين من العرش ، وعلى السُّفلىٰ : مستمدُّ هـٰذه العين من الكرسي ، فألهمني اللهُ أن أشرب من عين العرش ، فشربتُ منها ماءً حلواً بارداً أحلىٰ من العسل ، وأبردَ من الثلج ، وأطيبَ رائحةً من المسك .

ثم استيقظتُ ، فمضيت إلى الشيخ ، وأخبرتُه بما رأيتُ ، وكان عنده الشيخ شهاب الدين مُعبِّرُ المنامات الهرامزي ، فقال : لا أعبِّرُ هـٰذا المنام إلا بدينار ، فأعطاه الشيخ ديناراً ، فقال لي : يحصل لك وصلةٌ عظيمة واستمدادٌ من الشيخ ، ثم تعيشُ بعده زماناً ، وأما شربُك من عين العرش فإنك تتخلَّقُ بالرحمة علىٰ جميع العالم ؛ لأن الله تعالىٰ ما ذكر الاستواءَ على العرش إلا باسمه الرحمـٰن . انتهىٰ .

ومما وقع لي معه أيضاً : أنني سمعتُ في المنام قائلاً يقول لي : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دخل مصر ، وهو جالسٌ عند الشيخ نور الدين الشوني في المدرسة السيوفية قريباً من الحريريين ، فخرجتُ قاصداً للزيارة ، فوجدتُ السيدَ أبا هريرة واقفاً علىٰ بابها الأول ، فسلَّمتُ عليه ، ثم دخلتُ فوجدتُ المقداد بنَ الأسود واقفاً على الباب الثاني ، فسلَّمت عليه ، ثم دخلتُ لباب صحن المدرسة ، فوجدت السيد عليَّ بنَ أبي طالب ، فسلَّمتُ عليه ، ثم وقفتُ علىٰ باب خلوة الشيخ وأنا ساكتٌ أتأمَّلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عند الشيخ ، فلم أجده ، فقال لي : ما لك ؟ فأمعنتُ النظر في وجه الشيخ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في جسم الشيخ كالماء الأبيض الشفاف يجري في بدن الشيخ من جبهته إلىٰ قدمه ، وصار جسمُ الشيخ يخفىٰ ويظهرُ جسمُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حتىٰ غابَ جسمُ الشيخ جملةً وظهر جسمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلَّمتُ عليه .

ثم استيقظتُ فمضيت إلى الشيخ ، وحكيتُ له الرؤيا ، ففرح بذلك ، ثم قال : والله ؛ ما سررتُ بشيء من أحوالي طول عمري مثلَ ما فرحتُ بهـٰذه الرؤيا ، وصار يبكي حتىٰ بلَّ لحيتَهُ بالدموع ، ثم قال : يا فلان ؛ هـٰذا يدلُّ على الاتحاد العظيم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

ورأيتُ مرةً الإمام الشافعيَّ رضي الله عنه ، فقال : أنا عاتبٌ عليك في قلَّة الزيارة ، وعلى الشيخ نور الدين الشوني ، وعلى الشيخ نور الدين الطرابلسي الحنفي ، وكنتُ نائماً تلك الليلة في الروضة عند سادات بني الوفا ، فقلتُ للإمام : إن شاء الله بكرة النهار نزوركم ، فقال : لا ، قمْ معي لأضيفك ، فذهبتُ معه إلىٰ قبته ، فصعد بي من ظهرها من ناحية جامع عمرو حتىٰ وصلنا إلى المركب النحاس التي في الهلال ، ففرشَ لي حصيرةً جديدة هناك ، وقدَّمَ لي بطيخة عبد اللاوي ، وخبزاً ليِّناً ، وجبنَ أزرار ، وقال لي : كلْ يا عبد الوهاب هـٰذه الغدوةَ في مكان ماتتْ ملوكُ الدنيا ولم يأكلوا فيه غدوةً ، فأكلتُ معه .

ثم استيقظت ، فعديت من الروضة ، فزرته ، ثم مضيتُ إلىٰ شيخ الإسلام الطرابلسي في زاوية الحطاب ، فأخبرته ، فطلب البغلةَ ، وركب إلى الإمام ، ثم خرجتُ ، فمضيت إلى الشيخ نور الدين الشوني ، فقال إن شاء الله نزوره غداً ، ووجدتُ عنده الشريفَ عرعر وزيرَ السلطان الشريف بركات ، فاستبعد ذلك وقال : هـٰذه أباطيلُ ، الشافعي لا يعتبُ علىٰ مثلك ، فسكتَ الشيخُ ، فبينما الشريفُ عرعر نائم إذ رأى الإمامَ الشافعي ، فقال : عبدُ الوهاب صادقٌ في رؤياه ، نعم أنا عاتبٌ عليهم ، فجاء إلى الشيخ بكرة النهار ، وركبَ هو وإياه لزيارة الإمام ، وأرسل الشريفُ يعتذرُ إليَّ ويقول : ما كنتُ أحسبك إلا [نصاباً] تطلبُ شيئاً من الشيخ(١) ، فلما زار الإمامَ الشافعي رآه الشريف تلك الليلة وهو يقول له : لولا وجود الشوني ومجلسُهُ لهوىٰ بأهل مصر ما هوىٰ .

ولما مرض رضي الله عنه مرضَ الموت مكثَ سبعاً وخمسين يوماً علىٰ جنب واحد ، لم يتقلبْ حتىٰ ذابَ لحمُ ظهره ، وصار النملُ يدخل جسدَهُ ويخرج ، ولم يتأوه قط ، فلما مات ما ضممنا لحم ظهره إلا بالقطن وورق الموز .

ولازمته رضي الله عنه في السهر معه في جامع الأزهر نحو خمس سنين ، ثم قال : أفلا تجمعُ لك جماعةً في جامع الغمري وتسهر بهم ؟! فلعل يحصلُ هناك أحدٌ

---

(١) في النسخ : (نصاب) بدل (نصاباً) .

يوافقك ، فقلت : نعم ، وذلك في سنة تسع عشرة وتسع مئة ، ففعلتُ ذلك بإشارته ، فاجتمع عندنا في ثاني جمعة خلائقُ كثيرةٌ ، وأوقدوا شموعاً وقناديلَ كثيرة ، ففرح الشيخ بذلك ، فانشرح صدري لقراءة : (إنا أعطيناك الكوثر) ليلة الجمعة ألفَ مرة قبل قراءة : (قل هو الله أحد) ، فرأىٰ جماعةٌ كثيرةٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتُ بذلك الشيخ ، فقال : إن شاءَ الله نفعلُها في مجلسنا ، ففعلها في مجلس جامع الأزهر .

ثم إن جماعتنا كرَّروا عند ختام القراءة قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ساعةً طويلة ، فحصل لهم بذلك بسطٌ عظيم ، فأخبرتُ بها الشيخ ، ففعلها في مجلسه ، وتوارثها عنه جماعتُهُ ، وهٰذا كان أصل قراءة (إنا أعطيناك الكوثر) وتكرار هٰذه الآية .

ثم إننا سهرنا العشرَ الأخير من رمضان متوالياً ، وكان الشيخُ لا يسهر إلا ليالي الوتر فقط ، فقلت له في ذلك ، فانشرحَ صدره لسهر العشر كلِّه وقال : إن ليلة القدر واحدةٌ لا تتعدَّدُ ، وربما يكون مطلعُ الهلال مختلفاً ، وربما جاءتْ في الأشفاع بالنظر لمطلع بلادنا ، فهٰذا كان سببَ سهر العشر كاملاً في الأزهر .

واعلم يا أخي : أن الشيخ أولُ من سنَّ الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعةً ، ولم يبلغنا قط أن أحداً فعله قبله من عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ عصره ، إنما كان الناس يصلون فرادىٰ ، ولم يبلغنا في أوراد المشايخ أن أحداً منهم له وردٌ يشتغل به الفقراء جماعةً إلى الصباح ويستغرق الليلَ كاملاً سوىٰ ورد الشيخ نور الدين الشوني رضي الله عنه ، إنما أوراد المشايخ حزب يُقرأ ، أو مجلس ذكر ساعة بعد العشاء وينامون .

ولما دفن رضي الله عنه رأيته في المنام وهو يقول لي : قد جعلوني بواباً للبرزخ ، فلا يدخلُ عملُ أحد إلى البرزخ إلا وأعرفه ، وما دخل على البرزخ عملٌ أضوءُ ولا أنورُ من عمل أصحابنا ؛ وذلك لأنه تلاوةُ قرآن ، وذكرٌ ، وصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهىٰ .

ورأيتُ : أن قبره قد اتَّسع مدَّ البصر ، وهو مغطّىً بلحاف حرير أخضر ، مساحتُهُ

نحو فدان من الأرض ، ثم إنِّي رأيتُه بعد سنتين وشيء ، وهو يقول لي : غطِّني بملاءتك ؛ فإني عريان ، فما أعرفُ ما المُرادُ بذلك ، فمات ولدي محمد تلك الليلة ، فنزلنا به ، فدفنته عنده ، فوجدنا الشيخ عُرياناً على الرمل الأبيض ليس عليه من كفنِهِ خيط واحد ، ووجدناه طريّاً ، وظهرُه يخرُّ دماً مثل ما دفناه سواء لم يتغيَّرْ لحمه ، فغطيته بملاءتي كما قال ، وقلتُ له : هـٰذه وديعةٌ عندك ، فإذا قمت من قبرك ، وألبسوك الخلعةَ أرسلْ لي ملاءتي ، فهي عليه إن شاء الله تعالىٰ إلى الآن .

وهـٰذا من أدلِّ دليل علىٰ أن الشيخ كان اتحد بالنبي صلى الله عليه وسلم اتِّحاداً كلياً بالجسم كما مرَّ في الرؤيا السابقة ؛ ولذلك لم يبل جسدُهُ بعد سنتين وشيء .

ثم إني أرسلتُ وراء البنَّاء ، فبنيتُ عليه حائطاً ، وجعلت فيها طاقةً عالية لا يستطيع أحدٌ أن يدخلَ ميتاً عليه بعد ذلك ؛ قياماً بحرمته ، فليس معه أحدٌ مدفوناً سوىٰ ولدي محمد الأول وأخوه عبد الرحمـٰن ، فإنهما دُفنا قبله بسنتين ، ومكانهما تحت المصطبة التي في الدركاة[1] ، والشيخ تحت الشباك لا تحت التابوت ، ولم يكن علىٰ بال الشيخ الدفن عندنا سوىٰ في مرض موته ، فكنتُ كلما أزوره يقول : الفسقيةُ التي فيها أولادك تسعُ أحداً ؟ فأقول له : نعم ، فلما حضرته الوفاةُ طلب أكابر الدولة أن يدفنوه عندهم ، فقال : إذا متُّ فادفنوني عند عبد الوهاب ، فرضي الله عنه ما كان أكثر محبَّته لنا حيّاً وميتاً !

ثم إني رأيتُه بعد موته بسنتين وهو يقول لي : علِّمني صلاة الشيخ عبد الله العبدوي[2] ؛ فإني وجدتُ ثوابها في الآخرة تعدلُ المرةُ منها عشرة آلاف صلاة من غيرها ، وقد فاتتني في دار الدنيا ، وهي : اللهم ؛ اجعلْ أفضلَ صلواتك أبداً ، وأنمىٰ بركاتك سرمداً. . . إلىٰ آخرها ، فعلمتُ أن الشيخَ إنما يُريد بقوله : (علمني هـٰذه الصلاة) لأُصلِّي أنا بها ؛ فلذلك جعلتُها آخر كيفيات الشيخ التي كان يُصلي بها في حياته ، رضي الله عنه ؛ لأن الشيخَ قد صار لا تكليف عليه .

مات رضي الله عنه سنة أربع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويتنا بخطِّ بين السورين ، وقبره بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

---

(١) الدركاة : عتبة الباب .

(٢) في (ج ، د ، هـ ، و ، ك) : (العبدوسي) .

ومنهم :

(٤٢٧) الشيخ الصالح ، العارفُ بالله تعالىٰ ، والداعي إليه الشيخ علي الكازواني رضي الله تعالىٰ عنه[1]

أحدُ أصحاب سيدي علي بن ميمون ، وأخو سيدي محمد بن عراق في الطريق .

كان كثير المجاهدة والرياضة .

أخبرني من لفظه : أنه كان في بداية أمره يمكثُ الخمسَ شهورٍ طاوياً لا ينام إلا جالساً .

صحبته مدةَ إقامتي بمكة في الحجَّتين اللتين حججتُهما سنة سبع وأربعين ، وسنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ، وانتفعت بكلامه ولحظه وإشاراته .

وأعطاني رسالةً من رسائله ، فقال : انظر هـٰذه من أولها إلىٰ آخرها ، فطالعتُها كلَّها .

وسمعته يقول : (**الإرشادُ علىٰ ثلاثة أقسام** :

١ ـ **إرشاد العوام** إلىٰ معرفة ما يجبُ على المكلَّف معرفته من الحدود والأحكام في فروض العين والكفاية ، وما لا بد منه من السنن المؤكَّدة .

٢ ـ **وإرشاد الخواص** إلىٰ معرفة النفس ؛ وهو معرفةُ الداء والدواء فيما يردُ على الضمائر والخواطر كلِّها .

٣ ـ **وإرشاد خواصِّ الخواص** إلىٰ معرفة ما يجبُ لله تعالىٰ ، وما يجوز ، وما يستحيل ، وتنزيه صفاته ، وذاته ، وأفعاله عن النقائص) .

وسمعته مرةً يقول : (الطريقُ إلى الله تعالىٰ يكون كمالُها بلزوم الحدود ، وكمال الشهود) .

وسمعته يقول : (لا يُؤذن في الكلام إلا لمن ثبتت استقامته في أفعاله ، وأقواله ، وأحواله ، وإلا فهو فتنةٌ على الناس) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٩٩) (٤١٠) .

وسمعته يقول : (الوقوف مع المظاهر حجابٌ ظاهر ، والترقِّي عن المظاهر كشفٌ ظاهر) .

وسمعته يقول : (من صدَّق ما يُقال فيه من المذموم فقد سَلَكَ ، ومن صدَّق ما يُقال فيه من المحمود فقد هَلَكَ) .

وسمعته يقول : (من كان مجاهداً فسوف يكون مشاهداً) .

وسمعته يقول : (من صَدَقَ في طلب الله لم يُبالِ بترك ما سواه ، ومن بالغ في مدح نفسه فقد بالغ في ذمِّ غيره) .

وسمعته مرة أخرىٰ يقول : (من بالغ في ذمِّ غيره فقد بالغ في مدح نفسه) .

وسمعته يقول : (فسقُ العارف في نهايته[1] : أن يتوسَّعَ في مأكله وملبسه ومسكنه ، وينعِّمُ نفسَه بالمباحات الزائدة عن الضرورة) .

وسمعته يقول : (من نفى السِّوىٰ فقد أثبت ، ومن أثبت فقد نفىٰ ، والكاملُ من أثبت ونفى ؛ امتثالاً لأمر الله تعالىٰ ، مع علمه بما الأمر عليه) .

وسمعته يقول : (الذِّكر علىٰ أقسام : ذكرٌ منك إليه ، وذكرٌ منه إليك ، وذكرٌ منه إليه ، لا منك ولا إليك) .

وسمعته يقول : (من ادَّعىٰ كمال الطريقة بغير آداب الشريعة فلا برهان له ، ومن ادعىٰ وجودَ الحقيقة بغير كمال آداب الطريقة ؛ من النُّسك والعبادة فلا برهان له) .

وسمعته يقول : (من زهد في فضول الثياب كان من الأحباب) .

وسمعته يقول : (إذا طلعتْ شمسُ المعرفة علىٰ وجود العارف لم يبقَ نجومٌ ولا قمر وإن وجد الأثر) .

وسمعته يقول : (من علامة من يدَّعي أنه قطعَ حجب العنصر الناري : أن يترقَّىٰ عن الخواطر الشيطانية ، ومن علامة من قطعَ حجب العنصر الترابي : أن يترقَّىٰ عن الخواطر النفسانية ، ومن علامة من قطع حجب العنصر المائي : أن يؤدي

(١) في (أ ، ط) : (فقه) بدل (فسق) .

الطاعةَ ويخلصَ فيها ، ولا يقفَ مع شيء ، ومن علامة من قطع حجب العنصر الهوائي أن يعرفَ الله في كلِّ شيءٍ ، وبكل شيء ، وعند كلِّ شيء ، ومن علامة من ترقَّىٰ عن ملاحظة روحه القائم بصورته الجثمانية : أن يترقَّىٰ عن الحجب النورانية) .

وسمعته يقول : (قال الإمام مالك : من تفقَّه ولم يتصوَّفْ فقد تفسَّق ، ومن تصوَّفَ ولم يتفقَّه فقد تزندق ، ومن تفقَّه وتصوَّف فقد تحقَّقَ) .

وسمعته يقول : (كلُّ ما أخفيته عن الظاهر قوي إشراقُهُ في الباطن) .

وسمعته يقول : (كلما تجاهل العارف كلما قويَ في الإخلاص ، وسلمَ من القواطع) .

وسمعته يقول : (من غلبَ نفسَهُ فلا غالب له من الخلق ، ومن غلبته نفسُهُ غلبه كلُّ أحدٍ ، فإياك أيُّها الفقير أن تأكل الشهوات وتطلبَ نفوذَ القول ؛ فإن ذلك محال) .

وسمعته يقول : (الفرقُ المجرَّدُ شركٌ خفي ، والجمعُ المجرَّدُ جحود جلي ، وشهودُ الجمع في الفرق مقامٌ عليٌّ) .

وسمعته يقول : (البعيدُ هنا في عين القرب ، والقريبُ هنا في عين البعد ، وأجرِ علىٰ هـٰذا القياس ، واللهُ يحفظك من الناس) .

وسمعته يقول : (في باطن الزهد طمعٌ ، وفي باطن الطمع زهدٌ ، وفي باطن الكِبْر تواضعٌ ، وفي باطن التواضع كِبْرٌ ، وفي باطن الفقر غنىً ، وفي باطن الغنىٰ فقرٌ ، وفي باطن العزِّ ذلٌّ ، وفي باطن الذلِّ عزٌّ) .

وسمعته يقول : (كل المظاهر لنا ستائر) .

وسمعته يقول : (ما تعسَّرَ مقامٌ أو معنىً غامضٌ على السالك إلا من بقية في وجوده ، فمن طلبَ الوصول إلىٰ مقام أو معنىً فليجتهد في إزالة تلك البقية ، ولا يقف يتفعل بالفكر ؛ فإن ذلك من التلبيس) .

وسمعته يقول : (إذا مرَّ الهواءُ على الجيفة حملَ رائحتها ، وإذا مرَّ على المسك حملَ رائحته ، كما أن الماءَ يكتسبُ قيداً في مقرِّه أو ممرِّه) .

وسمعته يقول : (إنما خُلق الإنسان أولاً في أحسن تقويم ؛ لأنه كان عند الفطرة بلا

شهوة ، فلما ابتُلي بالشهوة رُدَّ إلىٰ أسفل سافلين) .

وسمعته يقول : (من نظر بعين الجمع كانت له الحقائقُ والأسرار أفلاكاً ، ومن نظرَ بعين الفرقِ كانت له المظاهرُ إشراكاً) .

وسمعته يقول : (الحجابُ عن الله بغفلتك عنه ولو قدرَ نَفَسٍ واحدٍ جحود خفي) .

وسمعته يقول : (الكمالُ في شهود الجمع : هو إعطاءُ كل ذي حقٍّ حقَّهُ في مقام الفرق) .

وسمعته يقول : (كلُّ ذرةٍ من الوجود معراجٌ ، والمربي جبريل السالك) .

فهـٰذا ما سمعته منه بمكة في الحجَّتَين .

وكان بدء أمره بمدينة حلب ، وبنىٰ له النائبُ تكيةً عظيمة ، واجتمع عليه خلائقُ لا يحصون ، فوقعتْ فتنةٌ في حلب ، فقُتِلَ الدفتردار وقاضي العسكر ، فقال الناسُ : إن ذلك بإشارة الشيخ ، فأخرجوه من حلب ، ونفوه إلىٰ رودس ، فأقام بها ثلاث سنين ، ثم رأته خوند الخاصبكية وهو يقول لها : أُريد أن أقيمَ بمكة ولا أرجع إلىٰ حلب ، فقالت : من تكون ؟ فقال : الكازواني ، فكلَّمتِ السلطان سليمان ، فأرسل له مرسوماً بأنه يُسافر إلىٰ مكة ويقيم بها ، وعمَّرتْ له خوندُ هناك تكيةً ، وفيها سِماط ، فزاحمه أهل مكة ، فتركها ، وسكنَ في بيت عند الصفا إلىٰ أن **مات بمكة سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة** ، رضي الله عنه .

وأقبل علىٰ ولدي عبد الرحمـٰن بالمحبَّة ، ودعا له بدعواتٍ شريفة ، وكان يتكلَّمُ هو وإياه بالإشارة في الطريق وهو ابنُ ثلاث سنين ونصف في الحجة الأولىٰ ، ويعجب به ، وقال : أدبني ولدُك بكلمات .

فلما كانتِ الحجة الثانية قال له : قل لوالدك يجاور بمكة هـٰذه السنة ، فقال له ولدي : إنه ليس معنا شيءٌ يقوم بنا ، فقال : الرزقُ على الله تعالىٰ ، فقال له الولد : إن كنتَ تُريد لنا الإقامة على التجريد فشاركنا في ذلك ، فقال له : وكيف أشارِكُكم ؟! فقال تُخرجُ جميع ما عندك من النقد والطعام والثياب لهـٰؤلاء الفقراء الزيالع حتىٰ

لا يبقىٰ عندك في البيت شيءٌ مثلنا ، ونحن نُقيمُ معك ؛ لأنك حينئذ قدوتُنا ، ونصيرُ نتشبَّه بك ، فأرسل يقول لي : قطعني ولدك بالحجة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

وأخبرني بأنه لما دخلَ مكة انقلبت أهلُها إليه ؛ رجاء أن يتوسَّطَ لهم عند السلطان في الأرزاق ؛ لكون الخاصبكية تعتقدَهُ ، قال : فتكدَّرَ عليَّ وقتي بذلك ، فتظاهرت بالرغبة في الدنيا ، وصرتُ كلما يأتي إلىٰ مكةَ صدقةٌ أرسل قاصدي أسألهم أن يُعطوني ، فإذا أعطوني قلت : هـٰذا يسيرٌ ورددته عليهم ، فأنكروا عليَّ ، ولم يصر أحدٌ منهم يقفُ لي علىٰ باب ، فاسترحتُ بذلك ، وراق وقتي للطواف والعبادة ، وإلا فأَنا بحمد الله لا أحتاج إلىٰ صدقة أحد ؛ فإن عندي ما يكفيني ويكفي عيالي من صُررٍ ومسموح ، وغير ذلك . هـٰذا لفظُه لي ، رضي الله عنه ، آمين .

ومنهم :

(٤٢٨) الشيخ الإمام ، العابد الزاهدُ
الشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ رضي الله عنه[(١)]

كان يعظُ الناس بجامع الأزهر وصاحب البرج في دمياط المتهدم الآن .

كان رضي الله عنه مُهاباً عند الملوك والأمراء ، زاهداً مُجاهداً في سبيل الله ، مُرابطاً في ثغر دمياط ليلاً ونهاراً ، والمكحلة[(٢)] منصوبةٌ في طاقة بيته علىٰ بحر النيل على الدوام .

وكان قوَّالاً بالحقِّ لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان إذا تكلَّم على الكرسيِّ بجامع الأزهر يصيحُ الناس ، ويتناحبون بالبكاء والعويل ، حتىٰ كأنهم يشاهدون أهوالَ يوم القيامة رأيَ عين ، وكان أكابرُ الأمراء يحضرونه ، وما رأت عيني من حصلَ له من القبول عند الخاصِّ والعام مثله .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٠٤) (٤١٢) .

(٢) **المكحلة** : المدفع ؛ حيث يوضع كحل البارود مع فتيل صغير لينفجر ، ويقذف القذيفة على الهدف . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ١٣٧) .

كنتَ لا تراه قطُّ ماشياً وحده ، وإنما الناسُ يتبعونه ، ومن لم يحصل جسمَهُ يرمي رداءَهُ على الشيخ حتىٰ يمسَّ ثيابَ الشيخ ، ثم يردُّهُ يمسحُ به علىٰ وجهه .

وكان يختفي إذا شاء في بيته أو غيره ، فيكون يتحدَّثُ مع الناس فلا يجدونه ، ثم يكونون وحدَهم فيجدونه بينهم .

وحكىٰ لي ولده السريُّ نفعَ الله به ، عن جدَّته أمِّ الشيخ : أنها كانت كثيراً ما تضعُ له في المحلِّ الذي كان يجلس فيه ما يأكلُ وما يشرب ، فيأكله وهي لا تراه ، وإنما تسمعُ كلامَهُ فقط .

وكان إذا تكلَّم في علم من العلوم تنصتُ العلماءُ له ، ويقولون : ما سمعنا بهـٰذا العلم قط من أحد ، ويعترفون بفضيلته .

وكان شجاعاً مقداماً في أمور المسلمين وتدبيرِ مصالحهم .

وخرج عليه مرةً لصوصٌ في مركب ، وكان الآخر في مركب ، فخاف أهلُ المركب ، فقال : لا تخافوا ، ثم أشار إليها ، فوقفتْ وتسمَّرتْ في الماء حتىٰ بَعُدَ الشيخُ عنها نحو ميل ، ثم أشار إليها ، فجرتْ ، ثم بعد ذلك جاء اللصوص إلى الشيخ وتابوا ، وصاروا من أصحابه .

وحطَّ مرة على السلطان الغوريِّ في تركه الجهاد على الكرسيِّ ، فبلغه ذلك ، فأرسل إليه ، فحضر ، فقال : ما حملك علىٰ أن تذكرنا بالنقائص بين العوام ؟! فقال : حملني علىٰ ذلك نصرةُ الدين ، فقال : ما عندنا مراكبُ معدةٌ للجهاد ، فقال : عمِّر لك مراكب ، أو استأجر ، وأغلظ على السلطان القولَ ، فاصفرَّ لون السلطان منه ، وأمرَ له بعشرة آلاف دينار ، فردَّها وقال : أنا رجلٌ تاجر ، لا أحتاجُ إلىٰ مالك ، فقال : عمِّرْ بها في البرج ، فقال : لا أحتاج إلىٰ أحد يُساعدني فيه ، ولـٰكن إنْ كنتَ أنت محتاجاً لشيء تصرفُهُ على الجهاد أنا أقرضك ، وأصبرُ عليك .

ثم طال بينهما الكلامُ ، فقال الشيخ للسلطان : أما تؤدي شكرَ بعض ما أنعمَ اللهُ عليك ؟! فقال : فبماذا ؟ فقال : قد كنتَ كافراً ، فمَنَّ اللهُ عليك بالإسلام ، وكنت رقيقاً فمَنَّ الله عليك بالعتق ، ثم جعلك أميراً ، ثم سلطاناً ، ثم عن قريب يُميتك ،

ويجعلون أنفَكَ في التراب ، ثم يُحاسبك على النقير والقطمير ، ويُنادىٰ عليك يوم القيامة : من له حقٌّ على الغوري ؟ فياطول تعبك هناك ، فبكى السلطان وقال : لا تقطعنا ، فقال : لولا أن الله تعالىٰ أمرنا بطاعتك ما طلعتُ لك .

وكان الشيخ يتاجرُ في طبخ الأشربة والخيارشنبر[١] .

وكان لا يأكلُ من الصدقات ويقول : إنها تسوِّد قلبَ الفقير .

وكان رضي الله عنه يتواضعُ لأشياخه ، ولو في مسألة واحدة من العلم ، ولا يرىٰ أنه كافأه عليها أبداً .

ورأيتُهُ مرةً نزل عن دابَّتِهِ في دمياط ، وقبَّلَ يدَ رجل رثِّ الهيئة أعمىٰ ، فقلت له : يا سيدي ؛ من هـٰذا ؟ فقال : هـٰذا أقرأني حزباً من القرآن وأنا صغير ، فلا أقدرُ أمرُّ عليه وأنا راكبٌ أبداً .

وأخبر زوجتَهُ : أن ولدها حمزةَ يُقتل شهيداً بمدفع يطيرُ رأسُهُ معه ، فكان كما قال ، فأتاه مدفعٌ من الفرنج في ليلة وهو في طاق البيت مرابطٌ ، فطارت رأسه .

ولما مرض أخبر والدته أنه يموتُ في تلك المرضة ، فقالت له : من أين لك يا ولدي علمُ ذلك ؟! فقال لها : أخبرني بذلك الخضرُ عليه السلام ، فكان كما قال .

وكانت والدتُهُ تقول : (لما حملتُ به رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأعطاني كتاباً ، فأوَّلتُهُ بولدي هـٰذا) .

وأخبرني ولدُه السري : أن والدته أخبرته أنها رأتِ الشيخَ بعد موته في المنام ، فقالت له : كيف كان حالُك مع مُنكرٍ ونكير ؟ فقال : كلَّمونا بكلام مليح ، وأجبناهم بلسان فصيح .

وله من المؤلفات « شرح المنهاج » للنووي ، و« شرح الستين مسألة » لسيدي

---

(١) **الخيارشنبر** : ضربٌ من الخَرُّوب ، والخروب : شجر مثمر من الفصيلة القرنية ، ثماره قرون تؤكل ، وتعلفها الماشية .

أحمد الزاهد ، وكتاب « القاموس في الفقه » وقطعة من « شرح الإرشاد » لابن المقري .

مات رضي الله عنه وله من العمر نيفٌ وخمسون سنة في ربيع الأول سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يحبُّهُ أشدَّ المحبّة ، ويقيمُ عنده في البرج بدمياط الشهرَ وأكثر ، رضي الله عنه .

ودفن بزاويته بدمياط ، ثم دفن عنده أخي الشيخ أبو العباس الحريثي ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٢٩) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد ، المعمَّرُ الشريف يوسف الهندي(١)

الذي قدم مصرَ في سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة .

وأخبرني أن عمرَه ثلاثُ مئة سنة وشيء .

وكان كثيرَ الصوم والعبادة ، أقامَ بالجبل المقطَّم مدَّةً في زمن السلطان الغوري ، ثم سافر إلىٰ بلاد الروم ، ثم حجَّ ، ثم رجع إلىٰ مصر .

وكان إذا دخلَ رمضانُ لا يُكلِّمُ أحداً مُطلقاً حتىٰ ينقضي رمضان .

كان رضي الله عنه حسنَ الخُلق ، كريمَ النفس ، خفيفَ اللحم ، ولحيتُهُ سوداء مع هـٰذا العمر الطويل .

لبس من ثيابي ، ولبستُ من ثيابه ، وأقام عندي مدَّةً ، ثم سافر إلىٰ مدينة إسكندرية ، **فمات بها سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة ، رضي الله عنه .**

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٧٠) .

ومنهم :

(٤٣٠) الشيخ العابدُ الزاهد ، المنفردُ عن الناس بالجبل المقطَّم الشيخ شاهين رضي الله تعالىٰ عنه[١]

أخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي أحمد بنِ عقبة اليمني المدفون بحوش السلطان برقوق ، فلما مات صحب ستين شيخاً ؛ منهم : الشيخ العارف بالله تعالىٰ حسين جلبي المدفون بزاوية الشيخ دمرداش ، وكان من أجلِّ جماعة سيدي عمر روشني بتوريز العجم رضي الله عنه .

وكان الشيخ شاهين من مماليك السلطان قايتباي ، وكان مقرَّباً عنده ، فسأل السلطان أن يعتقَهُ ويُخلِّيه لعبادة ربه ، ففعل ، فساح إلىٰ بلاد العجم وغيرها ، ثم رجع إلىٰ مصر ، فأقام بالمحل الذي دُفن فيه ، وبنىٰ له فيه معبداً ، وحفر له فيه قبراً .

وكان لا ينزلُ إلىٰ مصر إلا لضرورة شديدة ، ثم انقطعَ لا ينزلُ من الجبل [سبعاً] وأربعين سنة[٢] .

وكانت له الشهرةُ بالصلاح في دولة الجراكسة وبني عثمان .

وكانت نوابُ مصر وقضاةُ عساكرها ودفاترها وسناجقها يزورونه ويتبرَّكون به ، ولم يقع مثلُ ذلك لأحد من أمثال الشيخ من مشايخ مصر الذين أدركناهم غيره .

وكان كثيرَ المكاشفة ، كثيرَ الصمت والسهر والجوع ، متقشِّفاً في الملبس .

وكان يكره تردد الناس إليه ويقول للشيخ جمال الدين : يا ولدي ؛ إنما سكنا في هـٰذا الجبل لأجل قلَّة الناس .

وكان رضي الله عنه يغتسل لكل صلاة ، وبلغنا : أنه قام للوضوء في الليل فلم يجدْ ماءً ، فبينما هو واقف وإذا بشخص طائرٍ في الهواء وفي عنقه قربة ماء ، فأفرغها له في الخابية ، ثم رجع طائراً نحو بحر النيل ، وهـٰذا من صدق الشيخ شاهين ، حيث

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٠٩) (٤١٥) .

(٢) في النسخ : (سبعة) .

سخَّرَ اللهُ له من يأتيه بالماء ولا يتهجد بغير وضوء ويكتفي بالتيمم ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه في رابع شوال سنة أربع وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بالجبل ، وبنى السلطان عليه قبَّةً ، وأوقف علىٰ مكانه أوقافاً .

صحبته في دولة الجراكسة وأنا صبيٌّ أمردُ ، وأوصاني بالبعد عن الناس جهدي إلا لفائدة شرعية .

وقال لي مرةً : عليك بأركان الطريق ؛ فإن من ضيَّعَ الأركان فطريقُهُ باطلةٌ كمن تركَ أركان الصلاة سواء ، فقلتُ له : وما أركان الطريق ؟ فقال : الجوع والسهر والعزلة والصمت ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣١) الشيخ الصالحُ ، العابد الزاهدُ
الشيخ أحمدُ الرُّومي رحمه الله تعالىٰ[1]

كان وقتُهُ معموراً بقراءة القرآن والذِّكر ، ومطالعة كتب التفسير ، وغير ذلك .

صحبته نحو عشر سنين ، وكان كثيرَ المجاهدات والرياضات .

وأخبرني أن له نحو ثلاثين سنة لم يقرب من النساء .

وكان يحبُّ العزلةَ والخمول ، ويأخذُ في أسباب الخفاء ويقول : (من الخفاء العظيم للفقير في هـٰذا الزمان سعيُهُ على الدنيا ، والتظاهرُ بمحبَّتها ؛ فإن الناسَ يقلُّ اعتقادُهم فيه ، فينفرون عنه ، فيستريحُ ؛ وذلك لأن الظهورَ لا يكونُ إلا لأحد شيئين : إما لمن يطلبُ الطريق ، وإما للشفاعة عند الحكام ، وهـٰذا أمرٌ تُودِّع منه ما بقيتِ الدنيا) .

وكان غوَّاصاً في علوم النظر والتوحيد ، هيِّناً ليِّناً بشوشاً ، مع كونه غالبَ الأيام صائماً ، وكان كثيراً ما يطوي الأربعين يوماً ، ويكتفي بزبيبة عند الإفطار .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٠٨) (٤١٤) .

حججنا بصحبته سنةَ ثلاث وخمسين وتسع مئة ، فما رأيتُ أحسنَ خُلقاً منه ، ولا أكرمَ نفساً ، كان لا يردُّ سائلاً ، وما رأيتُهُ جالساً في المحفَّة قطُّ إلا وهو متوجِّهٌ للقبلة ، مراقبٌ لله تعالىٰ .

مات رضي الله عنه مستهل رمضان سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن قريباً من زاوية سيدي محمد ساعي البحر بمصر العتيق رحمه الله .

ورأى الحفارُ في قبره الذي حفره قدرةَ ذهبٍ[1] ، فأخبروا بها نائبَ مصر علي باشاه ، فقال : فرِّقها على الفقراء الحاضرين جنازته ، ففرَّقوها وقالوا : هٰذه كرامةٌ للشيخ ، وسَّعَ بها علىٰ من صلىٰ عليه ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٢) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد ، العارف بالله تعالىٰ الشيخ أحمدُ الكعكي رحمه الله تعالىٰ[2]

كان يتكلَّمُ في مشكلات التوحيد بلسان غريب ، لا يكادُ يفهمُهُ أكابرُ العلماء ، فضلاً عن غيرهم .

وحصل له في بداية أمره جذبٌ ، فأقام عُرياناً [سبع عشرة] سنة[3] ، ينام في حوض الماء في الشتاء ، وينام في الفرن في الصيف ، ثم أفاق من الجذب ، ولبس العمامةَ والثياب الحسنة[4] .

وكان كريمَ النفس جدّاً ، كثيرَ الافتقاد بالحسنة لأصحابه لا سيما إذا سافرَوا ، فلا يزال يتفقّدُ أولادَهم بالفواكه وغيرها .

وكان وِرْدُهُ في اليوم والليلة أربعين ألف صلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، واثني عشر ألف تسبيحة ، ويقول : إن ذلك كان وردَ أبي هريرة رضي الله عنه .

---

(١) في (ز) : (ورأى الحفار في المحل الذي حفروا فيه قبره قدرة ذهب) .
(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١١) (٤١٧) .
(٣) في النسخ : (سبعة عشر) .
(٤) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

وكان أكثر أوقاته مُعتكفاً في بيته ، لا يخرج إلا أوقات الصلاة .

وكان أولُ ما يتخرَّقُ من ثيابه موضعَ الركبتين من كثرة الجلوس عليهما والسجود .

وكان كثيراً ما يدخلُ في وِردِهِ من اصفرار الشمس بعد العصر ، فلا يفرغُ منه للفجر ، أو ضحوة النهار .

وكان وجهُهُ كأنه كوكبٌ دري ، ورأيتُهُ مرةً وقد خرج من وجهه نورٌ ، فكاد شعاعُهُ أن يمنع من رؤية وجهه ، وكان يقعُ له هٰذا كثيراً عقبَ فراغه من ورده ، فكانت أورادُهُ تتشعشع نوراً من كثرة الإخلاص فيها .

وكانت له سبحةٌ ألف حبة كباراً ، فسرق إنسانٌ منها سبعَ حبات ، فرأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقال له : يا أحمد ؛ فلانٌ سرق من سبحتك سبعَ حبات ، ولك كذا كذا يوماً تُصلِّي عليَّ ناقصاً عن العدد ، فذهبَ إلىٰ ذلك الفقير ، فقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخرجها له من رأسه ، فردَّها إلى السبحة .

وما رأيتُ قطُّ سبحةً أنورَ منها ، تكادُ تضيء من النور من كثرة الأوراد عليها .

وبلغنا : أنها كانت تدورُ بنفسها إذا أبطأ الشيخُ عن وقت الورد ، فيعلم دخول الوقت ، فلا أعلمُ هل ذلك لكونها صارت حيةً ، أو أن الملائكة تُحرِّكُها ، أو أحداً من صالحي الجنِّ .

وكان يكره سُكنى الزوايا والربط ، ويحبُّ سكنى الربوع[1] .

وكان كثيراً ما يُخبرني بما أفعلُ مع زوجتي في الليل ، ويقول لي : الليلةَ كنتَ جنباً في الوقت الفلاني .

وقد تكاسلتُ في ليلةٍ عن الغُسل من الجنابة ، فلما رآني بصقَ علىٰ وجهي وقال : أُفٍّ عليك تُضيِّعُ وقتك في الليل بشهوة ، وتؤثرُها علىٰ مجالسة ربك .

وكان يتستَّرُ بالشطح في بعض الأوقات ؛ لينفِّر منه الناسَ الذين لا ينفعون ، وكان لا يمزح إلا صدقاً .

---

(١) **الربوع** : الدار .

وكان يتحمَّلُ حملات الولاة ، ويأخذُ منهم المالَ ، ويراه حلالاً ، ويقول : هٰذا كسبي ، خاطرتُ فيه بروحي .

وكان يؤاخذُ صاحبَهُ بما يخطرُ علىٰ باله ، فكان غالبُ الناس لا يقدرُ علىٰ صحبته .

مات رضي الله عنه خامس عشر رجب سنة [اثنتين] وخمسين وتسع مئة[١] ، ودفن في زاوية شيخه ببيلاق سيدي حسين أبي علي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٣) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد سيدي علي الهندي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

اجتمعتُ به في سنة سبع وأربعين بمكة المشرفة مدَّة إقامتي بها للحج ، وانتفعت برؤيته ولحظه .

وكان قليل اللحم ، بل هو جلدٌ علىٰ عظم ، وكان كثيرَ الصمت والعبادة هو وجماعته .

دخلتُ عليهم في حوش قريباً من دار الشريف بركات ، فوجدت أصحابَهُ نحو خمسين نفساً ؛ كلُّ واحد حُجر عليه بإبراش من خوص ، وهم يتعبدون ، لا يخرجون إلا للصلاة في الحرم ، ثم يرجعون ، لا يخالط أحدٌ منهم صاحبه إلا لضرورة بإذن الشيخ ، فأعجبني حالُهم .

وأعطاني نصفين[٣] ، وقال : هٰذه ضيافتُكَ ؛ فإنا قومٌ متجرِّدون وغرباء ، فلا تؤاخذونا . فوسَّع اللهُ تعالىٰ عليَّ في الرجعة ببركته ، ولم يكن معي شيءٌ لكلفة الرجعة ، وأُعطيتُ فيهما أربعين ديناراً في مكة ، فلم أرضَ ، وقالوا : ما فرحَ منه بهٰذا أحدٌ غيرك ، فلما وقفتُ تجاه قبر النبيِّ صلى الله عليه وسلم جاء شخصٌ ومدحَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بقصيدةٍ ، فأعطيتُهما له .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٢) (٤١٨) .

(٣) النصف : قطعة نقدية .

ورأيتُ له عدَّةَ مؤلفات ؛ منها : « ترتيب أبواب الجامع الصغير » للجلال السيوطي رحمه الله ، فرتَّبها كلَّها على أبواب الفقه ، وأحاديثُ الكتاب إنما هي على حروف المعجم ، فلا يكادُ الإنسان يجد حديثاً في باب من الأبواب إلا إن طالع الكتابَ كاملاً ، فبوَّبَ لكلِّ نوع باباً ، وردَّ الأحاديث إليه ، واختصر : « نهاية ابن الأثير في غريب الحديث » ، وأطلعني على مُصحف في ورقةٍ واحدة ستين سطراً ، كلُّ سطرٍ حزبٌ .

ودعا لي بدعوات حول البيت ، وقال : اللهم ؛ اجعل حركاتِهِ وسكناته كلَّها مرضيَّةً عندك يا أرحم الراحمين ، فلما حججتُ سنة اثنتين وخمسين وجدتُه رجعَ إلى بلاد الهند[١] ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٤) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، مُحيي السُّنة المحمدية في بلاد دمياط والمنزلة
الشيخُ شهاب الدين بن داود رحمه الله تعالى[٢]

ما رأت عيني بعد الشيخ محمد بن عنان ، والشيخ يوسف الحريثي أضبطَ لأفعال السنة منه .

وكان يقول : (من أراد ضبطَ أفعال السنة فليعمل بها ، ولا يكتف بالحفظ ؛ فإنها تتقيَّد عند العبد بالعمل ، فلا يكادُ ينساها) .

وكان محدِّثاً ، فقيهاً صوفياً ، كريماً سخياً ، يخدمُ الفقراء بنفسه ، كما كان والده .

وأخبرني رحمه الله : أنه كان كثيراً ما يعلِّقُ الدست للضيف في الليلة ثلاث مرات ، وقال لي : يا طالما علقنا الدست بالماء والأرز فقط ، فيجعل الله تعالى فيه الدسمَ ؛ تارةً لبناً ، وتارة مرقاً ، فتقول الضيوف : ما رأينا ألذَّ من هذا الأرزِّ باللبن ، أو المرق .

وقال لي : يا طالما ملأتُ الإبريق من البئر شيرجاً أو عسلاً للضيوف ، وسترني الله معهم .

---

(١) في ترجمة سيدي علي الكازواني(٤/ ٢٤٩) أن الحجة الثانية كانت سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرى » (٢/ ٥٢١) (٤٢٧) .

صحبته نحواً من أربعين سنة ، وأقمت عنده نحواً من شهر ، ولبس من ثيابي ، ولبستُ من ثيابه .

وماتتِ السُّنةُ بعد موته من بلاد المنزلة ، وكذلك إزالةُ المنكرات ، فما كان أحدٌ يقدرُ يتظاهر فيها بمعصية ، ولا تركِ صلاة ؛ خوفاً منه أن يضربه بالعصا .

وكانت له هيبةٌ عظيمة رضي الله عنه على الحكام .

مات سنة إحدىٰ وخمسين وتسع مئة ، عن نيف وثمانين سنة ، ودُفنَ عند والده في زاويته بالنسيمية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٥) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، الفقيه المفنَّنُ في العلوم الشيخ عبد القادر(١)

أخي وشقيقي الذي كفلني بعد موت والدي .

كان علىٰ قدم عظيم من الورع والزهد ، وتركِ الدنيا ، ومع ذلك كان يَقري الضيوفَ مع اختلاف طبقاتهم ، ويقوم بالأرامل والأيتام والمساكين ، ويكسوهم ، ويطعمهم ، ويغسِّل الموتىٰ ويكفِّنهم من عنده .

وكان ليلاً ونهاراً في عبادة ، وكان لا يبيت علىٰ دينار ولا درهم .

وحججتُ معه سنة بلوغي الحلم وذلك في سنة أربعَ عشرةَ وتسع مئة ، فما رأيتُ أوسعَ خُلقاً منه .

وكان معنا ثلاثةُ جمال ، فحصل لهم أمرٌ في وادي المنصرف ، فبركوا الثلاثة ، فتصفى الحجُّ كلُّه ، ودخل علينا وقتَ العشاء وهو يضحك ويقول لي ولزوجته : لا تخافوا فإن معكم الماء والزاد ، فإذا فرغ جلس الإنسانُ مستقبلَ القبلة ومات كما ماتَ الصالحون ، فبينما نحن كذلك إذ جاءنا بدويٌّ فقال : لا تخافوا ، وحوَّلَ أحمالنا

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي .

علىٰ جماله ، وساق جمالنا عرياً ، فمشت إلى العقبة ، فأعطى الجمالَ شيئاً ، فلم يرضَ وقال : ما حملتُكم إلا لله تعالىٰ ، فبركَ منا جملٌ آخرُ بعد ذلك فرقدَ ، فتصفَّى الحج ، فأعطونا فيه ديناراً ، فأبيت ، فبينما أنا كذلك إذ جاء البدويُّ الأول ، فقال : كم أعطوكم فيه ؟ فقلت : ديناراً ، فقال عليَّ بذلك ، فأعطاه له الأخ ، فطاب الجملُ ثاني يوم ، وحمَّلَه حملاً من البهار ، فأتى البدويُّ به ، وقال : يا سيدي ؛ جملُكَ طابَ ، فخذه ، فلم يرضَ الأخُ ، فساق عليه العربَ ، فلم يرضَ ، وقال : ما طاب الجملُ إلا علىٰ ذمَّتِك ، فلما وصل إلىٰ مصر باعه بثلاثين ديناراً .

وأخبرني الشيخ أحمد بنُ الشيخ حسن وكان رجلاً صالحاً قال : ذهبت أنا والشيخ عبد القادر ، نفتحَ مطلباً ، وقلت : للشيخ عبد القادر ، اقرأْ أنت العزيمةَ ؛ لكوني لا أعرف الخطَّ ، ونحن إذ ذاك شبابٌ مردٌ ، فلما قربنا من المطلب بعد المغرب ضحك الخدَّام وقالوا لي : أين الزكيبة التي معك للذهب[1] ، ثم قالوا للشيخ عبد القادر : إنا عادة يا شيخ عبد القادر تحبُّ الدنيا ، فخجل الشيخ عبد القادر ورجع ، فما قدرتُ عليه يقرأ العزيمة . انتهىٰ .

فانظر شهادةَ الخدَّام له من الجنِّ بأنه لا يحبُّ الدنيا ، وهي منقبةٌ عظيمة له وهو صغير .

وكان إذا زرع يُخرجُ التقاوي لشريكه ، ومن ذلك الوقت لا نعرُفُه حتىٰ يدخل الدار . وقالوا له مرة : أين جرنك ؟ فقال : واللهِ ؛ ما أدري هو في أيِّ ناحية .

وكان يقول : ما قَسمه اللهُ تعالىٰ لنا لا يقدر الشريكُ يأخذَ منه حبَّةً .

وأرسلتُ له مرةً أقول له : انظر للمقاتِّ[2] البطيخ حارساً حتىٰ نُرسل لك المركبَ توسقه فيها ، فقال : قد وصل إلينا كتابُك ، وفهمناه ، والذي نعلمُ به الأخ أنَّ ما قَسمه الله للفقراء في مصر لا يقدرُ أحدٌ من أهل الريف يذوقُ منه شيئاً ، وما قسمه اللهُ لأهلِ الريف لا يقدرُ أحدٌ من أهل المدينة يأخذ منه شيئاً ، فلا حاجة للحارس .

---

(١) **الزكيبة** : غرارة ، وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح والطحين .

(٢) **المقات** : هي المقثأة : موضع زراعته .

وكانت دارُهُ كأنها مارستان ، كلُّ امرأة مرضتْ أو عجزت يُرسلها الناسُ له ، وكذلك الأيتام والأرامل ، وكان يُنفق على الكل ، ويكسوهم ، ولا يعلمُ أحدٌ من أين يأتيه الأكلُ والدجاجُ والإوز والغنم ، مع أنه لا ثورَ له ولا بقرة ولا حمارة ، وكلُّ شيءٍ عنده بالكراء ، ويَقري الضيوف الواردة ولو كثروا .

وأخبرني إنسانٌ قال : أمسيتُ في السفر ، فدلُّوني علىٰ دار الشيخ عبد القادر ، فوجدتُ الزُّقاق ملآن رجالاً وبهائم ، وما وجدتُ لي موضعاً أدخلُ بحمارتي فيه ، فأقرى الكلَّ تلك الليلة .

وقالوا له مرةً : لِمَ لا تشتري لك بهائم ؟! فقال : إذا اشتهتِ النفسُ شيئاً من ذلك وقفتْ علىٰ كوم البلد وقتَ رجوع بهائمهم من المرعىٰ ، فأقول لها : كل ذلك لكِ ؛ فإنه لا فرقَ عندي بين كون تلك البهائم في داري أو عند الناس ؛ لأني لا أرىٰ لي مُلكاً لشيء مع الله تعالىٰ .

وكان أكثرُ أعماله سريةً .

وكان جميلَ الأخلاق ، حسن المعاشرة ، بشوشاً ، لا تكاد تراه مقبوضَ الخاطر أبداً .

وكان إذا شعرَ شخصٌ بأحواله الذي يُمدح عليها يتعاطىٰ بحضرته أفعالاً تردُّهُ عن ذلك المدح .

وما رأيته قطُّ يدَّعي شيئاً من الكمالات ، إنما الناسُ يصفونه بها ، وربما كان لا يشعرُ هو بكماله .

ولما حججتُ سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة طلب مني الإخوانُ الذين كنا بصحبتهم أن يجتمعوا علىٰ أحد من أولياء الله تعالى الذين يحضرون الموسمَ كلَّ سنة ، فقلتُ لهم : اقرؤوا الفاتحة سبعاً ، فقرأناها سبعاً ونحن في الحِجْر تحت الميزاب ، وقلتُ لهم : قولوا : اللهم ؛ اجمعنا في هٰذه الليلة علىٰ أحد من أوليائك ، أو أطلعنا علىٰ أحد ممن اصطفيته لحضرتك من أهل بلادنا ، ولا يشعر هو بنفسه .

فبينما نحن بين النائمين واليقظانين إذا رأىٰ جماعةٌ منهم الفقير قائلاً يقول وهو

داخلٌ من فتحة الحِجر يمين المُصلي في الحجر : (هٰؤلاء ممن اصطفاهم الله تعالىٰ لمجالسته في هٰذا الزمان) ، فنظرتُ فإذا خلفه اثنا عشر رجلاً ، فعرفتُ منهم الشيخَ عبد القادر أخي هٰذا ، وعرفتُ منهم القاضي أبا البقاء بن جبيلات[١] صاحبَ محكمة بيت الوالي خارج باب زويلة ، والشيخ حسن الحديدي الفقيه بجامع الأزهر ، والشيخ مبارك التاجر بباب اللوق البُرُلُّسي ، فهٰؤلاء هم الذين عرفتهم[٢] .

وقد تتبعتُ صفات هٰؤلاء الأربعة ، فوجدتُهم متقاربين في إخفاء الأعمال ، فلا يكادُ أحدٌ يلحظ بأنهم من الصالحين إلا إن كان من أهلِ الكشف علىٰ مقامات الرجال ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وأخبرني الأمير يوسف من جند السلطان سليمان قال : طفتُ بلاد الشام ، وحلب ، والروم ، والعجم ، ومصر ، وزرتُ فقراءها فما رأيتُ أحداً علىٰ قدم أخيك الشيخ عبد القادر في الأخلاق التي أعطاها الله له ، ثم قال : واللهِ ؛ لو وُضِع الشيخُ عبد القادر في كفَّة ووُضِع جميعُ مشايخ مصر الذين نعرفهم في كفَّة لرجحتْه عليهم ، رضي الله عنه .

وكأنَّ الله تعالىٰ ألقىٰ محبَّتَهُ في سائر القلوب ، فلا تجدُ أحداً ينقصه ، بل يُثنون عليه ، حتى النصارىٰ واليهود والظلمة الذين يردون عليه ، رضي الله عنه .

مات في ثالث عشر صفر الخير سنة ست وخمسين وتسع مئة ودفن بمقبرة بلده .

وطلب أخوه أحمد أن يتزوَّجَ زوجته بعده ، فقلت له : لا تفعل ؛ احتراماً له ، فخالف ، وعقدَ عقده عليها ، فجاءه في النوم بحربة ، وقال : لولا أنت أخي لطعنتك بهٰذه الحربة قتلتك ، ونخسَه بها في ذراعه ، فاستيقظ وأثرُها في ذراعه ، فلم يرجع ، فلم يزالا في خصام وهي تمنعُهُ من نفسها إلىٰ أن طلَّقها ثلاثاً ، ثم ماتتْ عقبَ الطلاق ، رضي الله عنه .

---

(١) ترددت النسخ بين (جيلات) و(حبيلات) ، والمثبت من (د) . وانظر ترجمته (٥/١٤٨) .
(٢) سيورد المؤلف هذه الرؤيا (٥/١٤٩) .

ومنهم :

(٤٣٦) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهدُ
صاحبُ القدم الراسخ في العبادة مع إخفائها
الشيخُ بدر الدين التوزي رحمه الله تعالىٰ(١)

كان من أولياء الله تعالى المستورين ، الذين لا يكاد جليسُهم يُميِّزُهُ عن العامة ؛ لأنه إن جلسَ مع فقيه كان فقيهاً ، أو مع فقير كان فقيراً ، أو مع عارف كان عارفاً ، أو مع عامي كان عامياً .

وكان له خلوةٌ فوق سطح جامع الحاكم ، لا يدخُلُها في الليل أحدٌ غيره ولا ولده ، وكان له فيها عمامةُ شراميط ، ومرقعةٌ بالية ، يلبسها إذا دخل ، فلا يزالُ يتضرَّعُ ويبكي وهم يسمعونه إلى الفجر ، ثم يلبس ثيابَهُ الحسنة ، ويخرجُ لصلاة الصبح .

وكان أكابرُ الدولة كلُّهم يعظِّمونه ، ويبجلونه ، ويكرمونه ، ويهدون إليه الهدايا ، فيفرِّقها على المحاويج ، ولا يأكلُ منها شيئاً .

وكانوا يسمعون أن الشيخ يعرف الكيمياء الصحيحة ، وكان يعرف منهم أنهم لا يعظِّمونه إلا لأجل ذلك ؛ ليعلِّمهم الصنعة .

وخدمه الأمير تغري بردي الأستادار خدمةً طويلة ، فقال له : يا تغري بردي ؛ لا يخلو الأمرُ ؛ إما أن يأذن اللهُ لك في العمل ، فتصحَّ معك ، فيقتلك السلطان ، وإما ألا تصحَ معك فتكون [زغلياً](٢) ، فيقتلك السلطان كذلك ويسلب نعمتك ، فاستغفر عن ذلك الخاطر ، وتابَ إلى الله تعالىٰ .

وكان للشيخ صدقاتٌ عظيمة لا يقدرُ أحدٌ من الأمراء يقوم بها فضلاً عن آحاد الناس .

وكان رضي الله عنه يُغسِّل الأولياء ، فلا يموت وليٌّ إلا ويوصي أنه لا يُغسِّله إلا

---

(١) في (أ) : (النوري) ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/ ٩٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٣) (النوزي) .

(٢) في النسخ : (زغلي) .

الشيخ بدر الدين ، يتبرَّكون بيده ، فغسَّل سيدي أبا العباس الغمري ، وغسل الشيخ نور الدين الحسني ، وغسَّل الشيخ قيس ، وغسَّل ابنَ أخت سيدي مدين ، وغسَّل الشيخ أبا السعود الجارحي ، والشيخ محمد السروي ، والشيخ محمد بن عنان ، وغيرهم .

ومن وصيَّتِهِ لي : (يا فلان ؛ من مدَّ يده للأخذ من مال الولاة قصرتْ يدُه عندهم في الشفاعات) .

وكان يقول لي كثيراً : (لا تَصطلحْ مع نفسك أبداً تبعد عن حضرة ربِّك قهراً عليك) .

مات يوم الاثنين خامس ذي الحجة سنة ثلاثين وتسع مئة ، ودفن قريباً من تربة يشبك رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٧) الشيخ الصالح ، العارف بالله تعالى
الشيخ أحمد المناوي المغربي رضي الله عنه[١]

شيخُ السوهاجي بنواحي الصعيد .

كان رضي الله عنه مجهولَ الحال عند غالب الناس ، كلُّ أعماله قلبيةٌ ، وملبسه الثياب الرفيعة ، ومأكله الأطعمةُ الفاخرة .

وكان لا يصحبُ أحداً في الطريق إلا بعد طول امتحانه ، فإذا طلب منه إنسانٌ الصحبة يقول له : هات لي مالَكَ كلَّهُ ، وينظر ، فإن سمح بذلك فهو يصلح للطريق ، وإن لم يسمح يقول له : اذهب وإلا يمقتُك اللهُ ، ثم يقول : يبيعُ أحدُهم حضرةَ ربِّهِ بأقلَّ من جناح ناموسة ويُقدِّمُها علىٰ ربِّه ، ويطلب ينصبُ على الفقراء وعلىٰ ربه .

وكان كثيراً ما يغلبُ عليه الاستغراقُ اليومين والثلاثة ، فإذا أفاق يقضي الصلاة .

وكان كثير العطب علىٰ من أنكر عليه ، لا بد أن يحصل له نكدٌ ؛ إما مرضٌ ، وإما سرقة ، وإما موت من يحبُّهُ ، وإما إخراجٌ من وطن ، وإما حبسٌ ، وإما غيرُ ذلك .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٢١٥) .

ولو لم يكن من أصحابه الدالِّين علىٰ مقامه إلا الشيخ أبو النجا السوهاجي رضي الله عنه لكان في التنويه بمقامه كفاية .

مات في شهر ربيع الأول ، ودفن بدمياط سنة ستٍّ وأربعين وتسع مئة .

رأيتُهُ في عمري مرةً واحدةً ، ولم يقع بيني وبينه كلام ؛ إنما أخبرني أصحابُهُ بحاله ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٣٨) الشيخ الصالحُ ، المجاهدُ المرابط ، قوَّامُ الليل ، صوَّامُ النهار الشيخ أحمد المغربي الزفتاوي رضي الله تعالىٰ عنه[1]

أجلُّ أصحاب سيدي محمد الغمري المدفون بالمحلة الكبرىٰ .

صحبته نحو ثلاثَ سنين ، وأولُ ما اجتمعتُ به قال لي : ثلاث سنين ، أسألُ الله تعالىٰ أن يجمعني بك قبل الموت ، رضي الله عنه .

مات سنة نيف وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بزفتا بالغربية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٣٩) الشيخُ الصالح ، الذي أقامَهُ الله تعالىٰ في نفع الفقراء والمساكين الشيخُ إبراهيم الرحبي[2]

المُقيم بباب جامع الأزهر الكبير في زاويته .

صحبته نحو أربعين سنة ، يجيء إليَّ وأروحُ إليه .

وكان مجهولَ الولاية عند أكثر الناس ؛ لكونه كان يسأل الناس للفقراء المقيمين عنده الدراهمَ والطعام والثياب والدقيق والشيرج وسائرَ ما يحتاجون إليه ، فيقولون :

---

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٨٥) .

لو كان هـٰذا من الأولياء ما سأل الناس ، ويقيسونه علىٰ مشايخ الناموس ، ولو كشف اللهُ تعالىٰ عن بصيرتهم لرأوا كلَّ يوم للشيخ إبراهيم في هـٰذا الحال أكثرَ من عبادة المنقطع في خلوة سنة وأكثر .

وقد كانت هـٰذه طريقة سيدي عثمان الحطاب رضي الله عنه ، فكان يسأل الخضريةَ في كلِّ شيء بار عندهم ؛ من السلق والرجلة والجزر والكزبرة وغير ذلك ، ويطبخُهُ للفقراء ، وإذا احتاجوا إلىٰ قمح أو بسلة أو كسوة طلع للسلطان قايتباي ، فيأمرُ له بجميع ما يحتاج إليه .

ولما وقع الفصلُ في المماليك رسمَ له بثيابهم ، فحملها علىٰ حمير ، وصار يُلبسها للفقراء حتىٰ طواقيهم الكندس ، ويحملون عليها التراب .

وقال له السلطان يوماً : وأيشٍ تعمل بحبس هـٰؤلاء الفقراء عندك ؟ فقال للسلطان : وأيش تعملُ أنت بهـٰؤلاء المماليك كلِّها عندك ؟ فقال : هـٰؤلاء عسكرُ السلطان ، فقال : وإخوانُنا عسكرُ القرآن . انتهىٰ[١] .

وكانت للشيخ إبراهيم السياحاتُ الكثيرة ، ساح [سبع عشرة][٢] سنة في جبال الشام وغيرها ، واجتمع بمشايخَ لا يحصون ، ثم دخل مصر ، فاجتمع بسيدي الشيخ أبي السعود الجارحي ، فأجلسه في باب جامع الأزهر ، وقال له : كلُّ من رأيتَهُ من العميان أو أصحاب العاهات جاء يطلبُ القرآن ، فردَّهُ أهلُ الجامع ، ولم يُعلِّموه ، فاسألِ الناس ، وأعط فقيهاً الجامكية ، وهو يقرئهم ولا تخيبه .

وكان يخدمُ كلَّ من مرض في الجامع بنفسه ، وينحِّي القذرَ من تحته ، ويعمل له المزاورَ[٣] وغيرها حتىٰ يشفىٰ أو يموت ، فيغسله ويكفِّنه احتساباً لوجه الله .

وكان سيدي محمد بنُ عنان يحبُّه أشدَّ المحبة ، وكان يأتي إلىٰ وقت الشيخ محمد بقِدْرة كبيرة ، فيقول لهم الشيخ : املؤها للشيخ إبراهيم .

---

(١) مرَّ شبيه هـٰذه القصة في ترجمة الشيخ عثمان الحطاب (٤/ ١٢٠) .
(٢) في النسخ : (سبعة عشر) .
(٣) المزوار : طعام لا لحم فيه يتخذ من البقول فقط .

وكان عند الشيخ إبراهيم غالبُ الحوائج التي يحتاجُ إليها الفقراء ؛ من سيورِ القباقيب ، ومساميرها ، والصعتر ، والملح ، والغربال ، والمنخل ، والرحىٰ ، والبصل ، كلٌّ من احتاج شيئاً يقول له : ادخل خذ حاجتَك .

ولبس من ثيابي ولبستُ من ثيابه .

وكان إذا جاءته هديةٌ ، يُفرِّقها على الفقراء ، ولا يتخصص منها بشيء .

ولم تكن له حرمةٌ على الفقراء المقيمين عنده ، بل كانوا يسبُّونه ويشتمونه ، ويستهزئون به ، ويشتكونه في بعض الأوقات إلى الحكام ولا يؤاخذهم ، ويقول : معاملتي يا أولادي ما هي معكم ، وإنما هي مع الله تعالىٰ ، ثم يزيد في الإحسان إلىٰ من شتمهُ وآذاه ، حتىٰ يظن من لا معرفةَ له بحالِ الشيخ أنه إنما يفعل ذلك معه خوفاً من لسانه ، وليس كذلك .

وكان كثيراً ما يقول : يا أولادي ؛ إنما أنا خادمُكم ، وأنتم مخدومون ، والخادم لا يتعالىٰ على المخدوم ، وتزيدوا عليَّ بحفظ القرآن والعلم ، وأنا لا أُطالعُ في علم ، وأتغلط في القرآن ، فأنتم أحسنُ حالاً مني .

وسمعته يقول حين مدحتُهُ : (والله يا أخي ؛ أودُّ أني أخرج من الدنيا كما دخلتُ لا عليَّ ولا لي ، فما تيسَّر ذلك لي ، بل الذي عليَّ أكثرُ من الذي لي ، فيا فضيحةَ مثلي يوم القيامة) .

وسمعته يقول : (لا تشتغلْ قطُّ بمكافأة الخلق علىٰ ما أحسنوا به إلى الفقراء ؛ فإن الله تعالىٰ يكافئُهم عن الفقراء) .

وكان كثيرَ الامتحان للصبيان المقيمين عنده ؛ خوفاً عليهم من الفواحش ، فكان كلُّ من رأىٰ عنده من أصحابه قلَّة دين توَّبَهَ أو أخرجه ، ويقول : يا ولدي ؛ المساجدُ بيوت الله ، ولا يجلس فيها إلا المطهرون .

مات في أواخر شوال سنة أربعٍ وخمسين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٤٠) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهدُ
الشيخ أبو بكر الأبياري رضي الله عنه[(١)]

كان فقيهاً عابداً زاهداً مفنَّناً في العلوم ، محدِّثاً صوفياً ، مقرئاً ، نحوياً ، أصولياً ، عالماً بعلم الهيئة .

وكان يُقرئ الأطفال احتساباً ، ولم يتناول لهم خميساً قط ، ولا أكلَ لأهلهم طعاماً ، وما قرأ عليه أحدٌ إلا وانتفع .

وكان أصلُ ذلك : أنه رأىٰ وهو صغير أنه يزرعُ شجرَ النبق ، فزرع ستين شجرة ، فلم يخبْ منهن واحدةٌ ، فعرض ذلك علىٰ سيدي الشيخ أبي الخير بن نصر شيخ مشايخ الغربية قبل سيدي محمد الشناوي ، فقال له : تفسيرُ ذلك : أنه لا يقرأُ عليك أحدٌ إلا وينتفع ، فكان الأمر كما قال .

وكان رضي الله عنه مورداً للفقراء الواردين علىٰ بلده ، لا ينقطعُ عنه الضيوف ليلةً واحدة ، ولم يكن له معلومٌ ولا رزقة ، إنما كان ينفق من حيث لا يحتسب إلىٰ أن مات .

وما رأيتُ أصبرَ على البلايا والجوع والمحن منه .

وكان يخدمُ المرضىٰ ، ويزيلُ عنهم القذر ، ومرض مرَّةً عنده فقيرٌ ، وصار موضعه لا يقدرُ أحدٌ على القرب منه لخبث رائحته ، فسدَّ أنفه ، وصار يخدمُهُ إلىٰ أن مات .

وكان واسع الخلق ، يقال : إنه لم يُرَ قطُّ غضبان علىٰ أحد آذاه .

أخذ الطريقَ عن سيدي محمد الشناوي وغيره ، وأذن له في تربية المريدين ، فلم يفعل احتقاراً لنفسه .

وكان يقول : (أنا إلى الآن لم تصحَّ لي توبةٌ ، فكيف أتوِّبُ غيري ؟!) رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٩٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٦٩) .

ومنهم :

(٤٤١) الأخُ الصالح ، العالم العابد ، الورع الزاهد ، الصامتُ الشيخ عبد الرحمـٰن المناوي[1]

أحدُ تلامذة شيخنا سيدي محمد الشناوي ، والمأذون لهم في تربية المريدين ، وهو من أوائل من أذنَ لهم الشيخُ في تلقين المريدين وتربيتهم .

أقام في طندتا مدةً ، ثم انتقل إلىٰ جامع الأزهر ، فأقام فيه مدةً ، وانتفع به خلائقُ ، ثم رجع إلىٰ بلده المناوات[2] ، فماتَ بها ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

وكان جميلَ الأخلاق ، حسنَ المعاشرة ، كريمَ النفس ، حمَّالاً للأذىٰ ، صابراً على البلاء ، كثيرَ الصمت ، كثيرَ الحياء ، غاضَّ الطرف ، لا يكادُ يرفعُ بصره إلى السماء ، ولا إلىٰ جليسه ، ولو طالَ به المجلسُ .

وكنتُ كلما رأيته أتذكَّرُ حال أخي الشيخ أبي العباس الحُريثي ، وكان شبيهاً له في الخَلق والخُلق .

أخذ عنه الطريق جماعةٌ ؛ منهم الشيخ الصالح العالمُ الزاهد الشيخ أحمد القلتاوي المالكي ، وانتفع به خلائقُ .

وكانت أوقاتُهُ كلُّها معمورةً بالعبادات ليلاً ونهاراً إلىٰ أن مات علىٰ نعت الاستقامة رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٤٢) الشيخُ الصالح ، العابدُ الخاشع أحمد المنير أبو طاقية رضي الله عنه[3]

والدُ الشيخ عتاب ، والشيخ عبد القادر .

صحب رضي الله عنه الشيخ عبدَ القادر الدَّشْطوطي رضي الله عنه ، وساح معه إلىٰ

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٦١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٠٤) .

(٢) **المناوات** : هي إحدى القرى التابعة لمركز الجيزة في محافظة الجيزة .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٥) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٣١) .

بلاد العجم وغيرها مدَّةَ أربعة وعشرين سنة ، ولما دخل إلىٰ مصر لم يزل في صحبته إلىٰ أن مات الشيخ عبد القادر .

وكان الشيخ أحمدُ يُقرئ الأطفال احتساباً لله تعالىٰ بإذن سيدي عبد القادر ، وكان يأتي بأطفاله إلىٰ سيدي عبد القادر كلَّ يوم قُبيل العصر فيختمون عنده القرآن ، فيحصل للشيخ تواجدٌ عظيم عند سماعهم .

وما رأيت عند سيدي عبد القادر أحداً أمثلَ من الشيخ أحمد ، كان موضعَ أسراره ، ولم يكن له عمامةٌ ، إنما كان يلبس طاقيةً بيضاء مضرَّبة علىٰ شعر رأسه الطويل[1] .

وكان سببُ وفاته : أنه حضر يوماً جمعٌ من الفقراء في زاوية الشيخ عبد القادر خارج باب الشعرية ، فقام فقيرٌ وضربَ رأسَ نفسه بطبر حديد[2] ، فأنكر عليه الشيخ أحمد ، فقال الشيخ بدرُ الدين السروي الأحمدي : لا تُنكر يا شيخ أحمد ، فقال : بل أنكر عليه ذلك ، فوقع بينهما معارضةٌ ، فوجَّه كلُّ واحد منهما سهمَهُ إلىٰ صاحبه فقتله بالحال ؛ وذلك أن الشيخَ بدر الدين سافر إلىٰ سيدي أحمد البدوي يشتكي الشيخ أحمد ، فمات في الطريق ، ثم مات الشيخ أحمد ثالث يوم ، رضي الله عنهما وغفر لهما ما فعله كلٌّ منهما .

مات الشيخ أحمد سنةَ إحدىٰ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بخطِّ المقسم ، بجوار زاوية سيدي الشيخ مدين ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة ، فما رأيتُهُ انحرف عن طريق الشريعة في وقت من الأوقات .

وكان مهيبَ المنظر ، كثيرَ التواجد عند سماع القرآن وكلام القوم ، ربما حمل الرجلين وأكثر ودار بهم في السماع رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **المضرَّبة** : كل ما أكثر تضريبه بالخياطة .

(٢) **الطبر** : نوع قديم من السلاح يشبه الفأس .

ومنهم :

(٤٤٣) الشيخُ الصالح ، العابدُ الناسك
الشيخ شهابُ الدين السُّبكي رضي الله عنه[١]

أحدُ أصحاب سيدي محمد الشناوي المأذون لهم في تربية المريدين ، رضي الله عنه .

صحبته نحو أربعين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه خطيئةً واحدة ، ولا ذَكَرَ أحداً بسوء ، كان الناسُ كلُّهم عنده من الأولياء .

وكان يأكلُ من كسب يده بالحياكة ونحوها ، وما كنت أُمثِّله إلا بالسلف الصالح ؛ كسيدي عبد العزيز الديريني ، أو سيدي علي المليجي .

أقام بمصر أواخرَ عمره حتىٰ ماتَ في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة ، ودفن بتربةِ الفقراء بجوار الجعبري ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٤٤) الشيخُ المُعمَّر ، الشيخ علي النجار
المقيم بباب الخرق رحمه الله[٢]

صحبتُهُ ساعةً واحدة ، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وتسع مئة ، وذلك أنني كنت مارّاً في الخليج الحاكمي أيام الصيف ، فوجدته نائماً تحت قنطرة سُنقر ، وتحت رأسه حجرٌ ، فقلت له : السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ورحمةُ الله وبركاته ومغفرته ، ثم قال لي : ما اسمُك ؟ فقلت له : اسمي عبد الوهاب ، فقال : لي ثلاثُ سنين أسألُ اللهَ تعالىٰ أن أجتمع بك ، اجلسْ ،

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٤٥) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٠) .

فجلستُ عنده ، فقبضَ علىٰ أصابع يدي ، فكاد أن يلصقَها ببعضها ، فقال لي : ما تقولُ في هـٰذه القوة ؟ فقلت : شديدة ، فقال : هـٰذه من لُقيمات الزمن الذي أدركناه حالَ الصِّبا من الكسب الحلال ، وأما لقمةُ هـٰذا الزمان فإنها تجعلُ الجسم كالنخالة من خبث المكاسب .

ثم قال لي : يا ولدي ؛ عمري الآن مئة وخمس وثلاثون سنة ، تغيَّر حالُ الناس في هـٰذه الثلاث سنين الأخيرة أكثر ما تغيَّر في عمري كله ، فقد صارَ ولدُكَ كأنه ما هو ولدك ، وأخوك كأنه ما هو أخوك ، وجارك كأنه عدوٌّ لك ، وصار الإنسانُ إذا نزلت به مصيبةٌ لا يجد أحداً من الخلق يشكوها له ؛ لأن الناسَ قسمان لا ثالث لهما : أحدُهما : شامتٌ ، والآخر قلبُه فارغ ، وصارَ الموتُ تحفةً لكل مسلم كما ورد[1] .

ثم قال لي : (وأنا أوضِّحُ لك ذلك ، وهو أن أصلحَ أهل زماننا من كان زاهداً في الدنيا ، معمورَ الأوقات بذكر الله تعالىٰ ، وفعل الخيرات ليلاً ونهاراً ، وهو مع ذلك لا يقدرُ علىٰ منع نفسه من سوء الظنِّ والحقد ، أو ازدراء أحد من أعدائه ، فلو وُزِنتْ عبادتُه ليلاً ونهاراً ، ووُضِعت في كفَّة والحقد أو سوء الظن في كفَّة لرجحَ على العبادات المذكورة كلِّها ، فإذا كان أصلحُ الصالحين لا تفي أعمالُه كلُّها بسوء ظنٍّ بمسلم ، فكيف بغير الصالحين ؟!) .

ثم دعا لي بدعوات وجدتُ بركتها في تلك الجمعة ، ولم أدرِ الآن هل هو حيٌّ أم ميت ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » كما في « مجمع الزوائد » (٣٨٩٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٤١٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحفة المؤمن الموت » .

ومنهم :

(٤٤٥) (٤٤٦) الشيخُ الإمام ، العالمُ الصالح ، العابد الزاهدُ الجامع بين الطريقين الشيخ شمسُ الدين الأبوصيري ، والشيخ أبو الفضل المالكي أحدُ أصحاب الشيخ أبي السعود الجارحي[1]

فأما أبو الفضل : فكان رضي الله عنه عالماً بمذهب الإمام مالك ، ثم أخذ عن سيدي أبي السعود طريقَ القوم ، فازداد علماً ونوراً وهدىً .

وله عدَّةُ مؤلفات جليلة في الطريق ، وله كتابٌ عظيم في الردِّ علىٰ النصارىٰ واليهود والفرق الهالكة ، وله نظمٌ بديع في أحوال القوم ومنه :

أُشهدتُ هاتيكَ المشاهدْ والخمرُ والخمَّارُ واحدْ

إلىٰ آخرها .

وأما الشيخ شمس الدين الأبوصيري : فكان عالماً بنقول مذهب الإمام الشافعي ، محدِّثاً أُصولياً ، مفسِّراً مقرئاً ، وله النظمُ البديع الشائع ، والصبرُ العظيم علىٰ تغريبات الشيخ أبي السعود عليه .

وكان يفتي على الأربع مذاهب .

وكان يأتيني كثيراً إلى البيت ، وكان له المجاهداتُ العظيمة ، فربما مكثَ الخمس شهور لا يشرب الماء ، ولا يأكل الطعام ، ولا يضع جنبه إلى الأرض .

وحصل له جذبٌ ، فتعرَّىٰ عن اللباس مدة ، ثم لبسَ حين رجع إلىٰ إحساسه .

وما بلغني عن أحد من المريدين أنه صبرَ مع شيخه كما صبر الشيخ شمس الدين هـٰذا والشيخ أبو الفضل ؛ فإن الشيخَ امتحنَهما بالصدود عدَّة سنين ، وأمرهما ألا يدخلا الزاوية ، فأقاما خارجها سنين ، وهما منكس الرأس .

---

(١) تقدم ذكرهما ضمن ترجمة أبي السعود الجارحي (٢/ ٣٦٧) ، (٤/ ١٨٩) .

ولما سافر الشيخُ أبو السعود إلىٰ مكة المشرفة من غير علمهما ، فتبعاه في غير أيام الحجِّ ، فخرجا من مصر بغير زاد ولا راحلة ، فوصلا مكة في خمسة عشر يوماً مشاةً من غير أكل ولا شرب ، فلما قربا من مكَّة تراءىٰ لهما الشيخُ قريباً من مكة ، وقال : اقصدا اليمنَ ؛ فإني مُقيمٌ بزبيد ، فسافرا إلىٰ زبيد ، فلما قربا منها تراءى الشيخُ لهما قبل أن يدخلا زبيد وقال : الذي رأيتماه قبل دخول مكة الشيطانَ ، وأنا مقيمٌ بمكة ، فارجعا ، فرجعا ، فتراءىٰ لهما ثانياً قبل دخول مكة وقال : أنا في زَبيد ، والذي تراءىٰ لكما شيطانٌ ، فما زالا كذلك سنين عديدة ، فلما اجتمعا عليه بمكة أكبَّا عليه يأكلانه من المحبة ، فما أقامهما الناسُ عن الشيخ إلا بجهد عظيم ، فحبسَهما في بيمارستان مكة حتىٰ رجع الشيخُ إلىٰ مصر ، فتبعاه بعد أشهر كما فعلا أول مرة ، فلما دخلا إلىٰ مصر أدخلهما البيمارستان ، فصارا ينظمان موشحاتٍ تُطربُ المجانين ، فصارتِ المجانين يرقصون ، فذُكر ذلك للشيخ ، وشكا قيِّمُ المجانين منهما وقال : أتلفا علينا المجانين ، فأخرجهما وجنزرهما في شجرة توت عظيمة في حوش الأمير علان ، فملخاها بجذورها ، وكان الشيخُ كلَّ قليلٍ يدَّعي عليهما بأنهما أفسدا جاريتَهُ ـ يعني : الدنيا ـ وولفاها ، فيعترفان بذلك عند الحاكم ، فيضربهما ضرباً مبرِّحاً ، وأرياني جوانبهما كالمقارع .

صحبتُهما نحو ثلاثين سنة ، فما رأيتُ لهما نظيراً في جماعة الأشياخ الذين أدركناهم ، وكانا يُكاشفان الناس بما يفعلونه في قعر بيوتهم ، رضي الله تعالىٰ عنهما .

ومنهم :

(٤٤٧) الشيخُ الصالح ، العالمُ الزاهد
الشيخ إبراهيمُ المغربي القيرواني رضي الله عنه[١]

المقيم بباب الخرق ، عُمِّرَ مئةً وخمساً وأربعين سنة ، وكان من أقران الشيخ عرفة رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣١٣) .

صحبته نحو عشرين سنة ، وكان يُحبُّني أشدَّ المحبَّة ، وكثيراً ما كان يأتيني إلىٰ بيتي ماشياً ، يمشي قليلاً ويجلس ، فربما لم يصل إلىٰ داري إلا بعد العصر ، فكان يشقُّ عليَّ ذلك ، فأُقبِّلُ رجلَهُ حياءً منه ، فيقول : الشوقُ يغلبُ عليَّ .

وكان مقرئاً فقيهاً لغوياً أصولياً مفسِّراً .

وذكر لي : أنه ساح في طلب من يدلُّه على الطريق نحو ثلاثين سنة ، حتىٰ وجد الشيخ أبا المواهب الشاذلي ، وسيدي محمد المغربي فأخذ عنهما طريق القوم .

وأقام في مصر إلىٰ أن توفي .

وكان له مكاشفاتٌ غريبة ، وصبرٌ شديدٌ على البلاء ، وعلى الجوع .

وكان يقول : (أوصاني شيخي ألا أسأل ، ولا أردَّ ولا أدَّخر) .

وكان يقول : (الطريقُ كلُّها ترجع إلىٰ شيئين ؛ علم وعمل ، وفي ذلك تفاوتَ المتفاوتون ؛ فكلُّ من زادَ في العلم والعمل كان أفضلَ) .

وسمعتُهُ مرَّاتٍ يقول إذا سُئل عن أولياء الله تعالى : (الأولياء هم العلماء إذا عملوا بما علموا) .

وكان ينكر على الفقير الذي ينقطع في الكهوف والزوايا ويقبلُ معلوماً من مال السلطان أو غيره ويقول : (شرطُ العابد الفرارُ من الخلق إلى الحقِّ ، ومن جعل له معلوماً عند الخلق احتاج ضرورةً إلىٰ مخالطتهم ، وإلىٰ مُداهنتهم ، وإلىٰ ترضِّي خواطرهم) .

وكان يقول : (من ادَّعىٰ أنه من المنقطعين إلى الله ، وعتب علىٰ مَنْ لم يتردَّدْ إليه فهو لصٌّ مراءٍ منافقٌ ، كذابٌ في دعواه أنه من المنقطعين إلى الله تعالىٰ ، ولو أنه كان صادقاً لم يشته قطُّ لقاءَ الناس ، بل كان يفرحُ بنسيانهم له) انتهىٰ ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٤٨) الشيخُ الصالح ، الورع الزاهد ، الخاشع ، المقبل علىٰ عبادة ربه ليلاً ونهاراً صاحبُ المجاهدات الكثيرة ، والرياضةِ في أكثر أوقاته الشيخ حسن الجركسي رضي الله عنه(١)

أجلُّ خلفاء سيدي الشيخ دمرداش .

صحبته نحو سنتين وكان يحبُّني كثيراً .

ورأيتُه مرَّةً وقد أدخلني بيته(٢) ، وكشفَ عيالَه ، وأطلعني عليهم ، وهٰذه علامةٌ عندي لصحة الاتحاد في المحبة .

مات رضي الله عنه في ثامن عشرين شعبان سنة خمسٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بمنزله داخل باب القنطرة ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٤٩) الشيخ الصالح ، الورع الزاهدُ الخاشع المقبل علىٰ عبادة ربه ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً ، سفراً وحضراً الشيخ علي العيَّاشي(٣)

أجلُّ أصحاب سيدي الشيخ أبي العباس الغمري ، وسيدي إبراهيم المتبولي ، وغيرهما .

مكث رضي الله عنه نحو تسعين سنةً لا يضعُ جنبه على الأرض إلا غلبةً ، ولم يكن له قطُّ مخدَّةٌ ولا فروة يجلس عليها ، إنما ينامُ جالساً ، تخفقُ رأسُه بعض خفقات ، ويكتفي بها عن النوم .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٣) .

(٢) أي : في الرؤيا .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢١) (٤٢٨) .

صحبته نحو خمسٍ وأربعين سنة ، ما رأيته نقصَ من أوراده شيئاً .

وكان إذا قرأ القرآنَ يُردِّدُهُ ويبكي إلى الصباح ، فلا يزيدُ علىٰ خمسة أحزاب أو ثلاثة ، ويقرأ أحدُنا الختم .

ورأيته مرةً افتتح سورة (طه) من بعد العشاء ، فلم يزل يردِّدُ آياتها ويبكي حتىٰ طلع الفجر .

وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً ، ولا يُمسك بيده ديناراً ولا درهماً .

وكان القملُ لم يزل يتناثرُ من رأسه ولحيته وثيابه لا يتفرَّغُ لتفليتها ، وعمامته يغسلها من العيد إلى العيد .

وكان شيخنا الشيخ أمينُ الدين يُجلُّه ويُكرمه ويعتقدُه اعتقاداً زائداً ويقول : سمعت الشيخ ابن أبي الحمائل يقول : ما رأتْ عيني أعبدَ من الشيخ محمد بن عنان ، وأنا أقول : هـٰذا أعبدُ من ابن عنان .

وكانت أورادُهُ ما بين صلاةٍ ، وتلاوة قرآنٍ ، وذكر ، وصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وتسبيح .

وكان إذا ذَكَر ينطقُ قلبه مع لسانه ، فلا يقولُ السامعُ إلا أنهما اثنان يذكران .

وأولُ اجتماعي عليه سمعتُهُ يذكر في الليل ، فاعتقدتُ أنهما اثنان ، فقربتُ منه فوجدته واحداً .

وكان كثيراً ما يرىٰ إبليس ، فيضربه بالعصا ، فيروغ عنه ، وقال له مرةً : يا علي ؛ لستُ أخاف من العصا ، وإنما أخاف من النور الذي في القلب .

جلس معنا في الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقام بحزامٍ من ريش ، وقدحَ شخصاً من المغاربة علىٰ كتفه كان يسهرُ معنا ، فقام المغربيُّ ، وقبضَ على الشيخ وقال : تضربني علىٰ ماذا ؟! فقال : إنما ضربتُ إبليس رأيتُهُ راكباً عنقك .

وكان رضي الله عنه يعرفُ أحوال الموتىٰ من معذَّبٍ ، ومرحوم .

ونام مرةً عند قبر جدِّي في زاويتنا ببلاد الريف ، فقرأ هو وجدي من سورة مريم إلىٰ آخر القرآن ، مع أنَّ قبرَ جدي مطموسٌ لا حفيرَ له ؛ عملاً بوصيَّتِهِ .

وأخبرني بصفة لحية جدِّي ووجهه وهو في القبر ، فلم يخطئ شيئاً من صفته ، مع أنه ما اجتمعَ به قطُّ في حال حياته .

وكانتِ الأمواتُ من الأولياء والملائكة يزورونه كثيراً ، لا سيما ذو النون المصري ، والإمام الشافعي ، ويقول : كما ذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فأقول له : يقظة ؟ فيقولُ : يقظة .

وكنا ونحن شباب في جامع الغمري نقوم من الليل فنحفظُ ألواحنا ، ونقرأ ماضينا ، وننام ونقوم وننام ونقومُ في ليالي الشتاء الطِّوال وهو واقفٌ يُصلي من العشاء إلى الصباح ، كان الليلُ والنهار عنده سواء ، ويقول : كلُّه محسوبٌ من العمر ، وكلُّ نَفَسٍ ذهب فارغاً راح .

وكُفَّ بصره آخر عمره ، وأقام عندي في الزاوية نحو الأربع شهور ، ومرضَ مرضاً شديداً ، فلم ينقصْ من أوراده شيئاً .

وكان إذا أبطأ عليه ماءُ الوضوء يتوجَّهُ لأولياء القَرافة ، فيأتونه بالماء ويوضئونه لموضع صدقه في محبة قيام الليل والوقوف بين يدي ربِّه في الظلام ، ويقول : وضَّأَني الليلةَ الإمامُ الشافعي ، فخجلتُ منه غايةَ الخجل ، وكان بعضُ الناس يقول : هـٰذا خفَّ عقلُهُ .

ثم حُمل مريضاً من الزاوية إلىٰ دمياط ، وقال : أسافرُ لقبري ، **فمات** عقب وصوله ؛ وذلك في **سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة** ، وقبرهُ بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٥٠) أخي وصاحبي ، الكامل الراسخُ في سائر العلوم التي ليس للخلق إليها سبيل ، الشيخُ أبو الفضل الأحمدي تلميذُ سيدي علي الخواص والشيخ بركات الخياط ، وغيرهما من الأولياء(١)

كان رضي الله عنه من الراسخين في الطريق ، صاحبَ كشفٍ عظيم ، يرىٰ بواطن الخلق وما فيها ، كما يرىٰ ما في داخل الإناء البلور .

وكان ينظرُ إلىٰ أنفِ الإنسان فيعرفُ جميعَ ما وقع فيه من الزلات .

وكان كالخَضر عليه السلام في كونه لا يستطيعُ مُتشرِّعٌ يصاحبه أبداً ؛ لدقة مداركه وخفاء منازعه في الأحكام .

وكان كلُّ من أنكر عليه عطب ، فأقول له : الحلم مليح ، فيقول : واللهِ ؛ إنما ذلك من الحقِّ تعالىٰ لا بواسطة توجُّهي .

وقد سمعتُ مرةً الهاتفَ يقول لي في آخر الليل : يا فلان ؛ ما صحبتَ مثلَ أبي الفضل ، ولا تصحب ، فأخبرتُهُ بذلك ، فبكىٰ واضطجع على الأرض ، وصار يفحص بيديه ورجليه كالطير المذبوح ويقول : من أين لي أن يتكلم بي الهواتف ؟! انتهىٰ .

وكان أعرفَ من أهل الدنيا بالدنيا ، ويعرفُ عيبَ كل صنعةٍ ، فيأتيه الخياط ، فيتعلَّم منه ، والفيخراني فيتعلَّم منه ، والأدمي فيتعلم منه ، والطباخ فيتعلم منه ، ويقول له : إذا لم تجدِ الحاجةَ الفلانية من حوائج الطعام ، فضع فيه العشبَ الفلاني يقوم مقامها .

وكان له نفوذ البصر في كل شيء للخلق إليه وصول .

صحبته رضي الله عنه نحو [خمس عشرة] سنة(٢) ، ووقعَ بيني وبينه اتِّحادٌ عظيم ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٨٢) (٤٠٨) .

(٢) في النسخ : (خمسة عشر) .

لم يقعْ لي قطُّ مع أحد من الأشياخ ، وكنتُ إذا جالستُهُ وسرىٰ ذهني إلىٰ مكان أو كلام يقول لي : ارجع بقلبك عن الشيء الفلاني ، فيعرف ما سرحَ قلبي إليه .

وكنت إذا وردَ عليَّ شيءٌ من الحقائق في ليل أو نهار ، وأردتُ أن أشرعَ لأقول له يقول لي : قف ، لا تُخبرني حتىٰ أُسمعَكَ ما وردَ عليَّ أنا الآخر ، فيقولُ لي ما وردَ عليَّ حرفاً بحرف .

وتارة يأتيني بورقة في عمامته ، فيقول : هـٰذا كلامٌ وردَ عليَّ الليلة ، فحرِّرْه لي علىٰ مصطلح النحاة ؛ فإني لا أعرفُ أنطق بالنحو .

ووردَ عليَّ كلامٌ في الليل ، فكتبته في الظلام ، فبينما أنا أقرؤهُ للفقراء إذ دخل رضي الله عنه فقال : اسمعوا هـٰذه الورقة ، فقابلناها عليها ، فلم تخطئ حرفاً واحداً ، وربما كان يظنُّ من لا معرفةَ له بأحوال الفقراء أن أحدَنا كتبَ ورقه من الآخر .

وكان رضي الله عنه يدركُ ببصره تطورات الأعمال الليلية والنهارية ، ويرىٰ صورَها ومعاريجها .

وقد سألني مرةً الأميرُ محيي الدين بن أبي إصبع دفتردار مصر كان لطف الله به وهو محبوسٌ في العرقانة[1] : أني أسأل الله تعالىٰ في إطلاقه من السجن ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ في تلك الليلة في الأسحار ، وسألتُ اللهَ تعالىٰ في ذلك ، فجاءني الأخُ المذكور رضي الله عنه وقال : ضحكتُ عليكَ الليلةَ وأنت تدعو للأمير محيي الدين بالخلاص ، ودعاؤك يصعد نحو سبعةِ أذرع إلى السماء ويرجع ، وقد بقي من مدَّةِ حبسه خمسُ شهور ، وسبعةُ أيام ، فلو كنت الشاطر أحمد الدنف[2] لا تقدرُ علىٰ إخراجه حتىٰ تمضي تلك المدَّةُ ، وكان الأمرُ كذلك ، وهـٰذا الأمرُ ما رأيته قطُّ لأحدٍ ممنِ اطَّلعتُ علىٰ طبقاتهم من الأولياء الذين اجتمعتُ بهم .

وكان كثيراً ما يُخبرني بما وقع منِّي في الليل من النوم علىٰ حَدَثٍ ، أو علىٰ طهارة ،

---

(١) **العرقانة** : سجن في مصر . انظر « عجائب الآثار » للجبرتي (١/ ٤٣ ، ٤٩) .

(٢) **أحمد الدنف** : بطل ملحمة شعبية طبعت تحت عنوان : قصة دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة وأخيها زريق السمَّاك مع أحمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق المصري .

أو قراءة ورد ، أو تركه ، حتىٰ بمقدار ما نمتُ من الدرج .

وكان من شأنه تحمُّلُ هموم الناس ، حتىٰ صار جلْداً علىٰ عظم ، وسمعتُه يقول مرَّةً : (والله ؛ لي نحوُ سبع سنين وأنا أحسُّ بلحمي كأنه في صحن نحاس بلا ماء على النار ، ودهني يُطَشْطِشُ لا أكادُ أرىٰ نفسي خاليةً من ذلك الألم) .

وكان من شأنه التقشُّفُ في المأكل والملبس ، وخدمة جميع إخوانه ، وتقديم نعالهم للبس ، وتهيئة الماء لطهارتهم ، وملء بيوت الخلاء ، وتنظيف الملاقي[١] ، وملء قعاوي الكلاب .

وكنا إذا خرجنا لمثل القَرافة ، وخلعنا نعالَنا يحملُها كلَّها في خرج معه علىٰ عاتقه حتىٰ يصلَ لموضع لبس النعال ، ولا يُمكِّنُ أحداً يحمل نعلَ نفسه ، ويقسم عليه حتىٰ يأخذَهُ منه .

وكان نومُهُ في الليل نحو عشر درج من غير زيادةٍ صيفاً وشتاءً .

وكان من أكثر الناس تعظيماً للمساجد ؛ لا يتجرَّأ أن يدخل مسجداً إلا تبعاً لغيره ، وكذلك كان سيدي علي الخواص .

وكان يقول : (مثلُنا لا ينبغي له أن يدخل حضرةَ الله تعالىٰ قبل الناس ، وإنما يدخلُ تبعاً) .

ورأيتُ مرةً في ثوبه سواداً ، فقلتُ له : دعني أغسله لك ، فقال : والله ؛ إني لأستحي من الثوب النظيف أن ألبسَهُ علىٰ هـٰذا الجسم القذر العاصي .

وقال لي مرةً : أعطاني اللهُ تعالىٰ أنه لا يقع بصري قط علىٰ حَبٍّ ويُسوِّسُ ولو مكث ألفَ عام ، فقلت له : فانظرْ إليَّ ، فتبسَّم .

وكان يعرف أصحابَ النوبة في سائر أقطار الأرض ومَنْ تولَّىٰ منهم ومن عُزل ، وهـٰذا أمرٌ ما رأيتُهُ في أحد من فقراء مصر غيره .

وحج رضي الله عنه ثلاثَ حجَّات على التجريد ، فلما كانتِ الحجَّةُ الأخيرةُ خرجوا

---

(١) **الملاقي** : فتحة المراحيض المدورة .

به إلى المحارة وهو ضعيفٌ محمول[١] ، فقلت : ما هٰذا الحجُّ وأنت علىٰ هٰذا الحال ؟! فقال : إنما أسافرُ لترابي لا للحجِّ ، فقلتُ : كيف ؟ فقال : قد قرُبَ أجلي ، وترابي في تربة بدر عند مسجدِ الغمام ، فكان الأمر كما قال ، فجاءني الخبرُ أنه مات في الطلعة ، ودفن ببدر رضي الله عنه .

فلما حججتُ سنة سبع وأربعين لم أجد أحداً يدلُّني علىٰ قبره ، فتوجَّهت إليه ، وقلتُ : أقسمتُ عليك إلا أعلمتني بمكانك ، فأشار عليَّ بمكانه ، فعرفتُهُ منه ، وهو بجانبِ قبر الشيخ أحمد الرديني ، وعليه صخرةٌ حمراءُ مخضرَّةٌ .

وكان رضي الله عنه يقول : (كلُّ فقير تهاون بالأكل من طعام الناس الذين لا يتورَّعون فلا ترجو له خيراً قط) .

ودخلت أنا وهو مرةً علىٰ شخص تظاهر بالصلاح في مصر وأقبلتْ عليه الناسُ ، فناداه : يا فلان ؛ باسمه ، فتخبَّط ، ففتحنا عليه الباب فلم يفق من صياح الشيخ إلا بعد لحظة ، فقال له : فكيف بكَ إذا سمعتَ صيحةَ الداعي إلى الحشر ؟! ثم قال له : يا أخي ؛ كلُّ هٰذا من أكلك الشُّبهات ، فلو أكلتَ حلالاً لأفقتَ كأنك مستيقظٌ ، ثم قال له : أما سمعتَ قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، وهٰذا الذي تأكلُهُ قريباً من ذلك ، فتبْ إلى الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه يكرهُ للفقراء التفعُّل في الطريق في طلب المقامات ويقول : (أخلصوا في العمل لله ، ولا تتَّخذوا الأعمال وسائلَ لمقاصد النفوس تخسروا مع الخاسرين) .

ورأىٰ عند أخي أبي العباس شخصاً قد أخلاه وقد طعنَ في السنِّ ، وهو يذكرُ بصوت خفيٍّ من الجوع والسهر ، فقال : أخرجْ هٰذا ؛ فإن الله تعالىٰ يكره من يعبدُهُ علىٰ حرف ، والخلقُ كالشجر ؛ فمن خلقه الله تعالىٰ سنطاً لا يصير تفاحاً[٢] ، ولو

---

(١) **المحارة** : بفتح الميم : محمل الحاج .

(٢) في (أ ، ط) : (شوكاً) بدل (سنطاً) : **والسَّنْطُ** ، ويقال : الصنط أيضاً : قَرَظ ينبت بمصر ، وهو أجود حطبهم ، يزعمون أنه أكثره ناراً وأقله رماداً .

فعلتَ معه ما فعلتَ ، ثم قال للمختلي : اخرجْ يا فقير ، كُلْ واشربْ ، وإنْ كان سبق لك من الله شيءٌ سوف تصل إليه ، فأبىٰ ، فدعا عليه بالموت ، فأتانا نعيُهُ بأنه مات آخرَ النهار ، فقالوا للشيخ : صلُّوا علىٰ فلان ، فقال سيدي أبو الفضل : واللهِ ؛ لا أُصلِّي عليه ، قد مات عاصياً ؛ لقتله نفسَهُ بالجوع والسهر الذي لم يأمره اللهُ به .

وكان رضي الله عنه إذا انحرف قلبه من إنسان يخسر الدنيا والآخرة ، ولا يفلحُ بعده في شيء .

وسمعته يقول : (سألتُ الله تعالىٰ أن يحجبَ عني ما يفعله الناسُ في بيوتهم ، فلم يجبني ، ولله في ذلك حكم وأسرار ، وأنا في شدَّةٍ من ذلك) .

وكان يقول : أنا من ورثة أبينا إبراهيم الخليل .

وفسَّر القرآنَ من سورة (الفتح) إلىٰ آخر سورة (الناس) بلسان غريب ، لا يكادُ يفهم أحدٌ منه شيئاً ، وقال : هـٰذا من علوم الإرث الإبراهيمي ، واستخرجَ فيه معانيَ كلِّ سورة من اسمها .

ووضع رسالةً كاملة علىٰ لسان السيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان يقول : (ليس المرادُ من الإيجاد الإلـٰهي الإنساني والتكوينِ الطبيعي الناريِّ إلا معرفة الربوبية بأوصافها ، والعبوديةَ وأخلاقها ؛ فأما أوصافُ الربوبية فيكفيك يا أخي منها ما وصل إليك علمه إلهاماً وتقليداً بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تشبيه ولا تعطيلٍ ، وأما أخلاق العبودية فهي مقابلةٌ لأوصاف الربوبية على السواء ، فكلُّ صفة استحقَّتها الألوهية طلبتِ العبودية حقَّها من مقابلة ذلك الوصف غالباً ، ومن هـٰذا المقام كان استغفاره صلى الله عليه وسلم ، فكلٌّ عن مقامه يتكلَّمُ وعما وُصف به يترجم) .

وكان يقول : (مَنْ نظر إلىٰ ثواب أعماله عاجلاً أو آجلاً فقد خرجَ عن أوصاف العبودية) .

وكان يقول : (عليك بحسن الظنِّ بالمسلمين ؛ فإن اللهَ تعالىٰ لا يسألُ عبداً قط في الآخرة : لِمَ حسَّنتَ ظنَّك بالناس) .

وكان يقول : (لا تسبَّ من أحد إلا فعله المذموم لا عينه ؛ لأنك لا تدري بمَ يُختم لك وله ، وتأمَّلْ قوله صلى الله عليه وسلم في شجرةِ الثوم : « إني أكرهُ ريحَها »[1] ، ولم يقل : إني أكرهها ؛ فإن الريحَ من صفاتها) .

وكان يقول لإخوانه : (كونوا عبيداً لله تعالىٰ ، لا عبيدَ نفوسكم ، ولا عبيدَ ديناركم ودرهمكم ؛ فإن كلما تعلَّق خاطرُكم بمحبَّته من محمودٍ أو مذمومٍ يأخذ من عبوديتكم لله تعالىٰ بقدر حبِّكم له ، وأنتم لم تُخلقوا للكون ولا لأنفسكم ، فلا تهربوا من الله ؛ فإنكم حرامٌ علىٰ أنفسكم ، فكيف لا تحرموا علىٰ غيركم ؟!) .

وكان يقول : (كفُّوا غضبَكم عمَّن يُسيء إليكم ؛ لأنه متسلط عليكم بإذن ربكم ؛ فإن غضبتم عليه زاد في التسليط عليكم) .

وكان يقول : (افعلوا كلَّ ما قُسم لكم من المأمورات الشرعية ؛ امتثالاً لأمر الشارع لا لعلَّةٍ أخرىٰ ، واتركوا العللَ كلَّها ، واقطعوها بقوله تعالىٰ : ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد : ٣٩]) .

وكان يقول : (لا تركنْ إلىٰ شيءٍ ، ولا تأمن نفسك في شيء ولا تأمنْ من مكر الله لشيء ، ولا لغير شيء ، ولا تخترْ قطُّ لنفسك حالةً تكون عليها مع الله ، بل سلِّم الأمرَ له طوعاً قبل أن تراه له كرهاً ، ثم بتقدير أنك تختارُ لك حالةً تكون عليها مع الله فلا تدري هل تصلُ إلىٰ ما اخترته أم لا ، ثم إذا وصلتَ إليه فلا تدري ألكَ في ذلك خيرٌ أم لا ، ثم إنْ منعَكَ الحقُّ شيئاً فاشكرْهُ علىٰ ذلك المنع ؛ فإنه تعالىٰ ما منعك عن بخل تعالى الله عن ذلك ، وإنما منعك لحكمة) .

وسمعته يقول : (إذا خيَّرك الحقُّ تعالىٰ في شيء فاختر عدمَ الاختيار ، ولا تقفْ مع شيء ، ولا تر لنفسك معه شيئاً ، واحذر أن تحزنَ علىٰ فوات شيء ؛ فإنه لو كان لك ما فاتك) .

---

(١) رواه مسلم (٥٦٥) عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل من هـٰذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنَّا في المسجد » ، فقال الناس : حُرِّمت حُرِّمت ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس ؛ إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ؛ ولـٰكنها شجرة أكرَهُ ريحها » . وتقدم (٢/ ٤٨٦) .

وكان يقول : (اشتغلوا بما يأمرُكم به شيخُكم ، ولا تشتغلوا بقراءة كلام القوم من غير إشارته ؛ فإن كلاً من القوم تكلَّمَ بحسب مقامه ، وليس ذلك المراد من المريدين) .

وكان يقول : (عليكم بحفظ لسانكم مع علماء الشريعة ؛ فإنهم بُوَّابُ حضَرات الأسماء والصفات ، وعليكم بحفظ قلوبكم من الإنكار على أحد من الأولياء ؛ فإنهم بُوَّابُ حضرة الذات[1] ، وإياكم والانتقادَ على عقائد أولياء الله تعالى بما علمتموه من أقوال المتكلِّمين بأفكارهم ، فإن عقائدَ الأولياء مطلقةٌ مُتجددةٌ في كل آنٍ على حسب الشؤون الإلـٰهية ، والمتكلمون ربطوا عقائدَهم بأمر واحدٍ على الدوام ، والحقُّ مع الأولياء ، بدليل نسخ الأحكام ، وضلال من قال بعدم النسخ) .

وكان يقول : (لا تقربوا من الأولياء إلا بالأدب ولو باسطوكم ؛ فإن قلوبَهم مملوكةٌ ، ونفوسهم مفقودة ، وعقولهم غيرُ معقولة ، يمقتون على أقل من القليل ، ويسامحون في أكثرَ من كثير) .

وكان يقول : (إذا صحبتم كاملاً فلا تؤوِّلوا له كلاماً إلى غير مفهومه الظاهر ؛ فإن الكُمَّلَ لا يسترون لهم كلاماً ولا حالاً) .

وكان يقول : (إذا نزل بكم بلاءٌ فبادروا إلى سؤال الله تعالى العفو والعافية ولو كان أحدُكم صبوراً ؛ إظهاراً للضعف) .

وكان يقول : (الحقيقةُ والشريعةُ كفَّتا الميزان ، وأنت قلبها[2] ؛ فكلُّ كفَّة حصل لك ميلٌ إليها كنتَ من أهلها ، وإن ملتَ إليهما كنتَ حكيمَ الزمان) .

وكان يقول : (عليكم بتنظيف باطنكم من الحرص ، والغلِّ والحقد ، والكِبْر والعُجب ، ونحو ذلك ؛ فإن المَلِكَ لا يرضى أن يسكنَ بجواركم وأنتم على هـٰذا الحال ، فكيف بالحقِّ تعالى ، قال الله تعالى : « يا داود ؛ طهِّر لي بيتاً أسكنه. . . » الحديث[3]) .

---

(١) في (ز) : (نواب) بدل (بواب) في الموضعين ، وفي (ل) : (بوابون) .

(٢) انظر الحاشية (٢) (٢/٤٨٨) .

(٣) أورده ابن عجيبة في « البحر المديد » (٤/٦١١) ، وقدم له بقوله : (وفي بعض الأثر) .

وكان يقول : (لا تتركوا النصحَ لإخوانكم ولو ذمُّوكم لأجل ذلك وشتموكم) .

وكان يقول : (أخرجوا من قلوبكم كلَّ شيء علقت به نفوسُكم من علمٍ أو حال ، فضلاً عن الشهوات المحسوسة) .

وكان يقول : (عليكم بإصلاح الطعمة ، فإنها أساسُكمُ الذي تبنون عليه دينكم) .

وكان يقول : (إذا غضب شيخُكم على أحد فمن الأدب إظهار الغضب عليه تبعاً للشيخ ، ولكن مع الرحمة له بالباطن ، فإن علمت أن غضبَ الشيخ عليه لحظِّ نفس كما يقع لمثل القاصرين من المتمشيخين بالجدود أو بأنفسهم فإياكم أن تغضبوا عليه) .

وكان يقول : (إذا فاجأك حالٌ من الحقِّ فلا تدفعْه ولا تستجلبه بجمع حواسك وتفعلك ؛ فإن ذلك سوءُ أدب ، واحذر أن تُظهرَ لك حالاً أو وصفاً دون أن يتولَّى الله تعالى ذلك من غير اختيارك) .

وكان يقول : (حقيقةُ القرب من الله هو الغيبةُ عن شهودك القرب ؛ فإن شهودَ القرب يمنعُ العلم بالقرب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٥]) .

وكان يقول : (احذروا أن تركنوا إلى نفوسكم الظالمة ؛ فإنه تعالى قال : ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ . . .﴾ الآية [هود : ١١٣]) .

وفي هٰذا القدر كفاية من كلامه رضي الله عنه ، وقد بسطنا الكلام على أحواله في كتاب « المنن والأخلاق » فراجعه .

مات رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن عند شهداءِ بدر ، والله تعالى أعلم .

ومنهم :

(٤٥١) شيخي وأستاذي ، الكاملُ الراسخ ، الأميُّ المحمَّديُّ سيدي عليُّ الخوَّاص البُرُلُّسي رضي الله تعالىٰ عنه[1]

صاحبُ الكشوفات التي لا تُخطئ .

وكان أميّاً لا يكتب ولا يقرأ إلا من لوح قلبه ، وكان يتكلَّمُ علىٰ معاني الكتاب والسنة كلاماً نفيساً ، وكان مطمحَ بصره اللوحُ المحفوظ من المحو ، كما أخبرني به الشيخ محمد بنُ عنان .

صحبته رضي الله عنه عشر سنين فأكثر ، كأنها كانتْ لحظةً .

وكان يطَّلعُ علىٰ خواطر الناس .

وكثيراً ما كنتُ أُرسلُ له الإخوانَ يُشاورونه على الأمور ، فأولُ ما يقف عليه الواحدُ يقول له : سافرْ ، أو لا تسافر ، وتزوَّجْ ، أو لا تتزوج ، فإذا زاحمه الشخص في الكلام يقول له : مفهوم ، كفاية ، ضيَّعتَ علينا الوقت .

وكان إذا وضعَ الحزمةَ الخوصَ التي تدور عليها اليد يضفرُ منها نحو الثلاثين قفَّةً ، فإن شعرَ به أحدٌ وخاف أن يُخبرَ الناسَ بذلك يقول له : اكتم ؛ الكلُّ فعلُ الله .

وكان له طِبٌّ غريبٌ يداوي به أهلَ الاستسقاء ، والجذام ، والفالج ، والأمراض المزمنة التي عجزتِ الحكماءُ عن دوائها ؛ فكلُّ شيء أشار باستعماله يكون الشفاءُ فيه ، فطلب بعضُ أصحابه أن يدوِّنَ ذلك في كتاب ، فقال : يا ولدي ؛ إنما هي أمورٌ بحسب الإذن ، فلو استعملها أحدٌ بلا إذن لا يحصلُ له شفاء .

وكان يعرفُ الأمراضَ التي لا تعرفُ الحكماءُ تشخيصَها بالكشف من غير أن يسأل المريض عن مرضه .

وأطعمتْ مرةً ابنةُ شخص من أصحابنا والدَها سمّاً في قَطْر ، من حيث لا يشعر ، فصار ريالُهُ سائلاً ، وطلع في بدنه قروحٌ حتىٰ ذابَ جلده ، فدخل المارستان فما عرفَ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٩) (٤٠٤) .

أحدٌ مرضَه على التعيين ، فجاءني ، فأرسلتُهُ للشيخ ، فأولُ ما وقف عليه قال : الله يُجازيها بما فعلت ، فقال : من هي ؟ فقال : ابنتُكَ أطعمتك سُمّاً في قطر ، فقال : إي واللهِ ؛ كان ذلك ، أطعمتني زلابيةً بقطر أمسِ[١] ، ثم إنها اعترفتْ بعد ذلك ، ثم قال له : أعط صاحب شجر النارنج نصفاً ، وادخلْ فكلْ منه بشحمه ما تقدر عليه من على أمِّه ، ففعل ، فكان الشفاءُ .

وجاءتنا امرأةٌ من ناحية أبيار وبطنُها كالطبل المنفوخ من الاستسقاء ، فقال لها حكماء المارستان : هـٰذا أمرٌ استحكم ، فما ينفعُ فيه دواءٌ ، فرُدَّتْ مكسورةَ الخاطر ، فأرسلتُها للشيخ ، فقال لها : افطري على عرق سوس وفجل سبعة أيام يذهبْ ذلك ، ففعلتْ ، فكان ذلك .

ومرض ولدي محمد حتىٰ أشرفَ على الموت ، فحُمِلَ إليه ، فقال : خذوا له ورقةً من الشجرة التي في حمام الترجمان ، وعلِّقوها عليه يبرأ ، فكان ذلك .

وسمعتُ الشيخ محمد بنَ عنان رحمه الله يقول قبل موت الشيخ عليٍّ [بخمس عشرة] سنة[٢] : (قد أُعطي الشيخُ عليٌّ الخواص التصريف في ثلاثة أرباع مصر وقُراها) .

وكان إذا أراد أن يشفعَ عند أحد من الظلمة الكبار يدخلُ له بهيئة مزرية ، ويغلظُ على الظالم في القول ، فبمجرَّد ما يزدري الشيخَ ينفذُ فيه السهمُ بالعزل أو الموت .

وكان إذا شفع عند عادل يلبسُ له الثياب الحسنة ؛ رفقاً به ورحمةً .

وكان يكرم أصحابَ الحرف النافعة ؛ كالسقَّاء ، والزبَّال ، والطباخ ، والفيخراني[٣] ، ومقدَّم الوالي ، ومقدَّم أمير الحاج ، والمعدَّاوي[٤] ، والحمَّامي ، والطوَّاف بالبضاعة على رأسه .

---

(١) الزَّلابيةُ : قطائف مقلية ذات طبقات رقيقات كالأوراق محشوة بالعسل واللوز . « تكملة المعاجم » (٥/ ٣٤٤) .

(٢) في النسخ : (بخمسة عشر) .

(٣) الفيخراني : نسبة إلىٰ صنعة الفخار .

(٤) المعداوي : ربان زورق .

وكان يعظِّم العلماءَ ولو لم يعملوا بعلمهم .

ويقوم للولاة ولو جاروا ، ويقبِّل أيديَهم ويقول : هـٰذا أدبُنا معهم في هـٰذه الدار ، وسيعلِّمنا الحقُّ تعالى الأدبَ اللائق معهم في الدار الآخرة إذا انتقلنا إليها ؛ فإن لكلِّ دار أدباً .

وكان لا يمكِّنُ أحداً من أركان الدولة يذهبُ إلىٰ زيارته أبداً بالحال والمقال ، وإذا بلغَه عن أحد منهم أنه عازمٌ علىٰ زيارته يذهبُ هو إليه يزوره هو في بيته ، ويقول : كلُّ فقير مكَّنَ أحداً من أركان الدولة يمشي إليه فهو قليلُ الدين ، فإنْ عمله في ذلك اليوم لا يجيء حقَّ طريقه .

وكان رضي الله عنه يبيع الجمَّيز وهو شابٌّ عند سيدي إبراهيم المتبولي في بركة الحاج ، ثم أَذِنَ له الشيخُ أن يفتح دكانَ زيات ، فمكث فيها نحو أربعين سنة ، ثم ترك ذلك واشتغل بضفر الخوص إلىٰ أن مات .

وكان لا يأكلُ من كسب أحد إلا إنْ علم ورعَهُ وخوفَهُ من الله تعالىٰ .

وكان يردُّ جميعَ ما يعطيه له الظلمةُ والقضاة وأعوانهم ، ثم قَبِلَ ذلك أواخر عمره ، فكان يضعُهُ عنده في الدكان يُفرِّقُه علىٰ من يمرُّ عليه من العميان والعجائز والشيوخ الذين يسألون الناس ، ويقول : ينبغي للفقير أن يكون كالبنَّاء ، يعرفُ موضع كل طوبة يضعُها فيه .

ورمدتْ عيناه مرةً رمداً شديداً ، فأعطاه شخصٌ من إخواننا ثلاثةَ أنصاف ، وقال : أنفقوها اليومَ ، وأريحوا عينيكم ، فردَّها وقال : يا أخي ؛ أنا باضفر الخوصَ في هـٰذه الحالة ، ولا يعجبني أن آكلَ من كسبي ، فكيف آكلُ من كسبك ؟! فقال : يا سيدي ؛ خاطري طيب ، فقال الشيخ : خاطري ما هو طيب .

وكان من شأنه أن يطوف على المساجد يوم الخميس والجمعة فيكنسها وينظف أخليتها ، ويحمل الكناسة إلى المزابل احتساباً .

وكان ينظِّفُ المقياسَ كلَّ سنةٍ صباحَ نزولِ النقطة[1] ، فيكشطُ سُلَّمَه من الطين ، ثم

---

(١) كانت هناك مقاييس أقيمت على امتداد النيل للتعرف علىٰ مقدار ارتفاعه في أيام الفيضان ،=

ينزل ويتوضَّأُ ويُصلِّي ركعتين ، ثم يدعو ويبكي ، ويتضرَّع إلى الله تعالىٰ في طلوع النيل ، وكان يُرسلُ وراءنا ويقول : تعالوا زوروا محلَّ نزول الرحمة لأهل مصر ، ويأمرنا ألا نُخرجَ في الروضة ريحاً ، ولا نبول فيها ، ويقول : من كان له حاجةٌ إلى البراز فليفعل ذلك في ساحل مصر ، ولا تطلعوا الروضة إلا علىٰ طهارةٍ .

وكان يأخذ معه ذلك النهار الأموالَ الجزيلة ؛ من ذهب وفضة وفلوس مخلوطة ، فيفرِّق علىٰ كل من رآه من الفقراء من حين يخرج إلىٰ حين يرجع ، ويعطي المعدَّاوي بالكبشة[١] ، وكذلك خدَّامَ المقياس ، ويعطي كلَّ من رآه يملأ علىٰ حوض ، ويُطعم الكلاب الخشكنان[٢] ، والكعك الذي يكون عنده من أيام العيد ، فيحمل منه علىٰ رأسه فرداً كبيراً ، ويرمي منه للسمك ، وكنا نعدُّه يومَ عيد .

وكانوا يقولون : إن عليه وظيفةَ سؤال الله طلوع النيل .

وكان من دعائه ما دام البحر زائداً : اللهم ؛ طمِّنْ قلوبنا بوفاء النيل[٣] ، وإن كنا لا نستحقُّ ذلك ، فأنت ذو الفضل علينا وعلى العباد ، فإذا انتهىٰ يقول : اللهم ؛ مُنَّ علينا بريِّ البلاد ، فإذا زرعوا يقول : اللهم ؛ منَّ علينا وعلى الأنعام بختام الزرع ، ولا تعذِّبنا بالغلاء يا أرحمَ الراحمين ، ويقول : باللقمة صلاح الوجود .

وكان لا يدخلُ لمصر نائبٌ إلا بإشارته ، فإذا قال : يخرجُ فلان عنَّا يخرجُ عن قرب .

ولما دخل إبراهيمُ باشاه إلىٰ مصر قال لأخي أفضل الدين : اذهبْ فانظرْ من دخل معه من أصحاب النوبة ، فلقيه وهو داخلٌ من باب النصر ، ورجع وقال : معه سبعةُ أَنفسٍ ، فقال : والله ؛ مغفر ، يرجعُ إن شاء الله سالماً من فقراء مصر .

وكان سيدي محمد بنُ عنان إذا سألوه في الحوائج العظيمة ؛ كقتل إنسان أو عزله

= أو انخفاضه زمن التحاريق ، وأشهرها مقياس جزيرة الروضة ، وكانت الضرائب تقرر عندما يحدد المقياس درجة معروفة لارتفاع النهر . « شرح غريب كتاب النجوم الزاهرة » .

(١) **الكبشة** : الكمشة : مقدار ما تمسكه قبضة اليد من الأشياء الصغيرة .

(٢) **الخشكنان** لغة : الخبز الجاف ، وتطلق علىٰ نوع من المخبوزات يصنع من الدقيق والسكر واللوز . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ٦٩) .

(٣) **وفاء النيل** : أيام فيضانه في شهر (تموز) حيث يصل منسوب الماء إلى (١٦) ذراعاً .

من منصبه ونحو ذلك يُرسلُ أصحابَ الحاجة إلىٰ سيدي علي الخواص ، ويقول : أنا مالي تصريف ، التصريفُ للشيخ علي .

وجاءتِ امرأةٌ إلىٰ سيدي محمد بنِ عنان وقد مسكَ السلطان الغوري ولدَها ، وأمرَ بشنقه ، فرفعت ذيل الشيخ علىٰ رأسها ، فصاح الشيخُ بأعلا صوته : ما هي وظيفتي ، هـٰذه وظيفةُ الخواص ، اذهبي إليه ، فذهبتْ ، فقال لها : روحي قنطرةَ الحاجب ، فإذا جاؤوا بولدك للتوسيط فقولي للوالي[1] : أمهلْ عليَّ حتىٰ أُعانقَ ولدي قبل موته ؛ فإنك لن تفرغي من مُعانقته إلا وقاصد السلطان وصل بالشفاعة فيه ، فكان الأمر كذلك ، فعملتْ للشيخ قفَّةَ كعك ، فقبلها منها ، وفرَّقها علىٰ عجائز الحارة .

وأخبرني الشيخُ الصالح عبدُ الدائم بن عنان قال : رأىٰ عمِّي الشيخُ محمدٌ بلاءً نازلاً علىٰ أهل مصر وهو يُصلي الضُّحىٰ ، فقال : يا عبدَ الدائم ؛ رحْ إلى الشيخ عليٍّ فقل له : أيشِ هـٰذا ؟ فقال : شيءٌ نزل ، وسيرسل اللهُ له من يحملُهُ ، فبينما الشيخُ محمد يُصلي الظهر وإذا بالبلاء قد ارتفع ، فقال يا عبد الدائم : رحْ انظرْ أيشِ جرىٰ للشيخ ، فوجده مضروباً مَخزوماً في أنفه وكتفه ، وذلك أنَّ جان بلاط المُحتسب مرَّ على الشيخ وهو زيَّاتٌ ، فقال له : ميزانُك غيرُ صحيحة ، فضربه مقترحاً ، وخزمَهُ في أنفه وكتفه ، وطافَ به مصرَ وبولاق ومصر العتيق ، فما رجع الشيخُ حتىٰ كاد يموت ، وكان الشاكي له شيخَ الإسلام الشيخَ شهاب الدين بنَ النجّار الحنبلي[2] ، وكان في حارته ، ولـٰكن كان لا يعرفُ مقامَهُ ، فلما أخبرتُهُ بمقامه ندمَ كلَّ الندم ، واستغفرَ .

قال الشيخ عبد الدائم : فلما رجعتُ إلىٰ عمي وأخبرتُه خرَّ ساجداً لله عزَّ وجل وقال : الحمد لله الذي جئنا في زمان رجلٍ يتحمَّلُ بلاءَ مصر كاملاً وحده ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين بلاءٌ يصيرُ صامتاً ، لا يكلِّمُ أحداً ، ولا يضحك ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام حتىٰ يكشفَهُ اللهُ تعالىٰ .

ورأيتُهُ مرةً يضفرُ الخوصَ وهو يَنعَسُ ضحوةَ النهار علىٰ خلافِ عادته ، فقلتُ له : ما لكم ؟! فقال : الليلة كان نوء ، وجرتْ عادةُ الله تعالىٰ أنَّ زهر الفواكه والقثّاء تقعُ

---

(١) **التوسيط** : قطع الرَّجل نصفين .

(٢) هو الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي . انظر ترجمته (٤/ ٤٤٧) ، (٥/ ٩٨) .

منه ، فتخسرُ أصحابُ الفواكه وأصحابُ الفلوس الذين يعطون على ذلك قبل بدوِّ صلاحه ، فما زال النوْء حتى طلع الفجر ، فخرجتُ للصبح ، فما لحقتُ أنام شيئاً .

وكان إذا سأل اللهَ تعالى في رفع بلاء يكشف رأسَهُ حتى من العرقية[١] ، ويقفُ منكَّس الرأس حافياً ، يبكي ويتضرَّعُ ، رضي الله عنه .

وكان لا يغفلُ عن ملءِ قعاوي الكلاب التي في حارته .

وكان يصلي الظهرَ دائماً في الجامع الأبيض برملة لدٍّ .

وكان إذا أُذِّن بالظهر يردُّ باب حانوته ويدخل ، فيغيب ساعةً ، ثم يخرجُ ويجلس ، وكان شخصٌ من العلماء في حارته يُنكر عليه ويقول : كأنَّ اللهَ تعالى لم يفرضْ عليك الظهرَ أبداً ، فيسكتُ الشيخ ، قال سيدي يوسفُ الكردي أجلُّ أصحاب سيدي إبراهيم المتبولي : وكذلك كان سيدي إبراهيم يفعل ، فكانوا لا يرونَهُ في بركة الحاج قطُّ يُصلي الظهر ، كان إذا أُذِّنَ بالظهر دخل النخل ، فيغيبُ ساعةً ، ثم يظهر ، قال : وحضرتُ مرةً مع سيدي إبراهيم في صلاة الظُّهر في الجامع الأبيض .

وله رضي الله عنه كلامٌ عالٍ في الطريق ، رقمتُ منه جملةً صالحةً في كتابنا المُسمَّىٰ بـ« الجواهر والدرر » .

وكتب عليه علماءُ مصر ، واستفادوا منه أجوبةً لم تكن عندهم ؛ كالشيخ شهاب الدين الحنبلي ، والشيخ ناصر الدين اللقَّاني المالكي ، والشيخ شهاب الدين ابن الشلبي الحنفي ، والشيخ شهاب الدين الرملي .

وحلف لي الشيخُ شهابُ الدين الحنبلي شيخُ الإسلام : أن له مدةَ ستين سنة يُطالع كتبَ التفسير والحديث ، فما رأى جواباً من كتاب « الجواهر والدرر » مسطوراً[٢] .

مات رضي الله عنه في جُمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بزاوية الشيخ بركات خارج باب الفتوح ، تجاه حوض الصارم بمصر المحروسة ، رضي الله عنه .

* * *

(١) **العَرَقية** محركة : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة .

(٢) **يريد** : فما رأى أفضل جواباً من كتاب « الجواهر والدرر » مسطوراً .

الباب الثاني
في ذكر جماعة من أرباب الأحوال ممن النظرة لهم تغني المريد عن المجاهدة، وهم كثر

فمنهم :

(٤٥٢) الشيخُ الصالح المُكاشَف الشيخ محمد الشربيني رضي الله عنه[١]

اجتمعتُ به مرةً واحدة ، وكان من أرباب الأحوال ، ومن أصحابِ الخطوة .

أخبرني بعض السواح : أن له ذريةً بأرض المغرب من بيت سلطان مدينة مُرَّاكش ، وذريةً في بلاد العجم ، وذريةً في بلاد الهند ، وذريةً في بلاد التكرور ، فكان في ساعة واحدة يطوفُ على عياله في هذه البلاد ، ويقضي حوائجهم ، وكلُّ أهل بلاد يقولون : إنه مقيمٌ عندنا ليلاً ونهاراً .

وأخبرني ولدُهُ الشيخ أحمد : أن ولدَهَ من بيت[٢] سلطان مراكش جاءه بهديةٍ إلىٰ شربين ، وأقام عنده نحو شهرٍ ، وسافر إلىٰ والدته ، وحكت عنه صورةَ خطبتها ، وقالت : كان صورةُ خطبتي من والدي : أنَّه وردَ علىٰ أبي ، فصلىٰ معه الجمعة ، وعليه مرقعةٌ ، فقال له : زوِّجني ابنتَكَ ، فاستعظمَ الناسُ من الشيخ ذلك ؛ احتقاراً له ، فقال والدي : باسم الله ، ولكن لي بك اجتماعةٌ في البيت ، فلما أتىٰ به البيت أراني له ، وقال للشيخ : أَعْجبتْكَ ؟ فقال : نعم ، فقال : أعطنا المهر ، فقال : وما هو ؟ فقال : عشر جواهر ؛ كلُّ جوهرةٍ بألف دينار ، فقال : أمهلني إلى العصر ،

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٢) (٣٦١) .

(٢) في (ج ، ز) : (بنت) بدل (بيت) ، وفي (ك) : (ابن بنت) بدل (من بيت) .

فأتانا العصرَ بجراب فيه ثلاثون جوهرة ، فكتب والدي كتابي عليه ، وأراد أن يغيِّرَ ثيابَهُ ، ويلبسَه ثياباً تناسب صهر السلطان ، فأبىٰ وقال : قولوا لها : إنْ كانت ترضىٰ بمرقعتي كان ، وإلا غيرتُها بملابس تناسب بنت السلطان ، قالت : فاخترتُ دخولَه عليَّ بالمرقعة ، فنام معي ليلةً ، فحملتُ بك يا ولدي ، واسم الولد سيدي إبراهيم .

وأخبرني بعض السُّوَّاح أنه رأىٰ زاويةً عظيمة ، وفيها قبةٌ عظيمة ، وفقراء مقيمون ، وفي هلالها جوهرةٌ يأتي عليها المسافرون في الليل من نحو ميل مفروشةٌ تلك القبة ببُسط نفيسة ، وسترٍ عظيم على التابوت ، مرصَّعٍ بالفصوص والمعادن ، مكتوبٍ عليه : هـٰذا ضريح سيدي محمد الشربيني المصري .

وأخبر أنه يُذبحُ في الزاوية كلَّ يوم عشر رؤوس من الغنم ، وسماطٌ عظيم .

وله ذرِّيةٌ هناك ، وكبيرُهم اسمه سيدي أحمد ، وأختُهُ فاطمة علىٰ زهدٍ وعبادةٍ وصدقات وخير .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد : أنه لما حجَّ نامَ قريباً من سيدي مرزوق الكفافي من المغرب إلى الصباح ، فما قام إلا وبينه وبين الحاجِّ مرحلةٌ ، فبينما هو حائرٌ لا يدري أين يتوجَّه وإذا هو بوالده تحت شجرة يقول له : يا أحمد ؛ هـٰذه نومةٌ طويلة ، ثم أخرجَ له لحماً مشوياً ورقاقاً سخناً وقال : والدتُك تُسلِّم عليك ، وذبحت بعدَك الخروفَ المسمن ، وقالت : ما تطيبُ نفسي أن آكلَ منه إلا إن أكل ولدي ، قال فتغدَّيتُ مع الوالد ، ثم أخرجَ لي صُرَّةَ فضة ، وقال : أنفق هـٰذه ، ثم قال لي : اركبْ ، وغمِّضْ عينيك ثلاثين خطوة ، ثم افتحْ عينيك ، ففعلتُ ، فإذا أنا بالحاجِّ نازلٌ ، وما صدَّقتْ أمي بأني أكلتُ منه حتىٰ رجعتُ من الحجِّ ، وأخبرتها بذلك .

قال الحاج علي القاصد : وتنازع اثنان في جزيرة عند الشيخ ، فقال لهما الشيخ : اقسماها نصفين ، فلم يرضيا بذلك ، فمدَّ يده وقال : أنا أنقلُها من تلك الأرض ، فذهبا ، فلم يجدا لها أثراً إلىٰ يومنا هـٰذا .

قال : وقد وقع أن بعضَ الفقهاء بناحية شربين أنكروا على الشيخ عدمَ صلاته للجمعة في شربين ، وأرسلوا يقولون له : الجمعةُ فرضٌ ، فمن جحدَها كفر ، فقال : يا ولدي ؛ إن شاء الله نُصلي عندهم هـٰذه الجمعة ، فبينما هو خارجٌ للجامع إذ قال

لي : يا أحمد ؛ خذْ هـٰذه الخمس دنانير ، وغمِّض عينيك ، ولا تفتحهما حتىٰ أقولَ لك ، ومتىٰ فتحتَهما قبلَ أن أقول لك أخذتهم منك ، فمشينا خطوات ، ثم قال لي : افتح عينيك ، فوجدتُ نفسي عند الحجر الأسود ، فطفنا قبل صلاة الجمعة أسبوعاً ، وشربنا من ماء زمزم ، وصلَّينا الجمعة خلف الإمام ، وغاب عني والدي فلم أجدْه ، فصرتُ حائراً في مكة ، هل أقعد حتىٰ يجيء الحجاج أم أرجعُ في البحر ، فبينما أنا كذلك إذ رأيتُ مبتلىً والدودُ يتناثر من يديه ، فقال لي : اخرج عن الخمس دنانير التي في فمك وأنا أُوصلُكَ إلىٰ أبيك هـٰذا الوقت ، فأعطيتهم له ، فقال : غمِّض عينيك ، فدفعني ، فإذا أنا بشربين ، فقال : يا أحمد ؛ إياك أن تخبرَ فقيهك بذلك يشتدُّ إنكارُه علينا ، ويضربُكَ علقةً[1] ، فقال لي الفقيه : كيف تترك الجمعة أنت وأبوك ؟! فسكتُّ ، فضربني علقةً وأنا ساكتٌ ، فقال : لا شك أن والدك مرتد .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد أيضاً وصدَّقه علىٰ ذلك الشيخُ العالم العلامة شهابُ الدين البُهُوتي الحنبلي قال : مرضتُ مرَّةً حتىٰ أشرفتُ على الموت ، وحضرني عزرائيل ، ورأيتُهُ جالساً عندي لقبض روحي ، فدخل عليَّ والدي ، فقال لعزرائيل : راجعْ ربك ؛ فإن ذلك الأمرَ تغيَّرَ ، فخرجَ عزرائيل ، وأنا أعيش إلى الآن ، والحكايةُ لها أكثر من ثلاثين سنة .

وأخبرني الشيخ شهابُ الدين البُهُوتي نفعَ الله به : أن الشيخَ كان كثيراً ما يقول لنا : يموتُ شخصٌ من عباد الله في ثامن صفر سنة سبع وعشرين ، فكلٌّ من أخذ من ماء غسله شيئاً ووضعه عندنا في قنينة ، ومسَّ منه الأبرص ، أو الأجذم ، أو الأعمىٰ ، أو المريض شُفي من مرضه أو عماه ، قال : فما عرفنا أنه يعني نفسَهُ إلا يوم مات ، فلم يقع من ماء غسله نقطةٌ واحدة إلى الأرض .

قال : وكان الشيخُ يقول لعصاه : كوني صورةَ إنسان من الشجعان ، فتتطوَّرُ في الحال إنساناً ، ويُرسلها تقضي الحوائج ، ثم تعودُ عصاً .

وأخبرني الشيخ محمد السروي قال : هرب فقيرٌ مني إلى الشربيني ، ثم جاء ،

---

(١) أي : يضربك بالعصا .

فقلت : أين كنت ؟ فقال : عند الشربيني ، فقلت له : لأضربنك حتىٰ يجيء الشربيني علىٰ صياحك ، فعلَّقته للضرب ، وإذا بالشربيني واقفٌ علىٰ رأسه ، فقال : شفاعة ، فتركته ، واختفى الشيخ .

وكان من شأنه عدمُ النوم في الليل ، فيجلس مع خواصِّ أصحابه يتحدَّثون في الطريق ومقاماتها ، وأحوالِ الفقراء المقيمين في أقطار الأرض إلى الفجر ، ثم يدخلُ الخلوة ، ويُغلق بابَها ، فلا يتجرَّأُ أحدٌ يُكلِّمه من الهيبة .

ربما مكثَ الأربعين يوماً في الخلوة لا يخرجُ ، وكانت خلوتُهُ كلُّها ثعابين وحيات ، يدخلون من ذيله ، ويخرجون تارةً من طوقه ، وتارةً من كمِّه ، فيهربُ الناس .

وقال لي ولدُهُ الشيخ أحمد : دخلتُ عليه مرَّةً فإذا بحيَّة لها رأسان خارجة من قفاه ، فقال لي : اسحبْها وأخرجها ، فوجدتُها غلظَ يدي ، فوضع لها فتاتَ خبز وقال : إنها إلى الآن ما تغدَّت .

وكان أحدٌ لا يجدُ مكاناً لقدمِهِ في خلوته من الثعابين والحيات .

وكان السلطانُ الغوري والأمراء يعتقدونه اعتقاداً زائداً .

وكان إذا أرسل يشفعُ عند أميرٍ ولم يقبلْ شفاعتَه نفخَه حتىٰ تكاد بطنه تتمزق ، فيصيح : اقضوا حاجة الشيخ ، غصباً عليه .

وكان إذا أتىٰ للمُعدِّية[1] يعدِّي يقول له المُعدَّاوي : هات كراء حمارتك ، فيقول : عدِّينا لله يا فقير ، فيعدِّيها ، فأتىٰ يوماً وقال : زمقتنا بحمارتك ، فقال : ها الله ، فطأَطأ الإبريقَ ، فأخذ ماءَ البحر كلَّهُ فيه ، ووقفتِ المُعدِّية على الأرض ، فتاب المعدَّاوي واستغفر ، فصبَّ الإبريقَ في البحر ، فرجع الماءُ كما كان .

وكان قط لا يشتري شيرجاً للطعام ، إنما يقول للنقيب : خذ هـٰذا الإبريق املأهُ من البحر ، فيملؤه فيجده شيرجاً ، وتارة يملؤه عسلاً للضيوف ، وتارة لبناً .

---

(١) **المُعدِّية** : المركب يعبر عليه من شاطئ إلىٰ شاطئ .

وكان يقول : اللهم ؛ اجعلنا ممن تزهدُ فيه الدنيا ، ولا تجعلنا ممن يزهدُ هو فيها ، إلا إن سلَّمتنا يا رب من العلل .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : كان سببُ اعتقاد أمير كبير قرقماس فيه : أنه حُبس في برجِ الشام حتىٰ أكلَهُ الدَّلَم والقمَّل والبق[1] ، فقال يوماً : يا شربيني ؛ أنا فقيرك ، فمدَّ الشيخُ يدَهُ ، فأخرجه من طاقة عالية في البرج ، فما شعروا به إلا وهو في مصر ، فما جاء إلا وقد طيَّبَ عليه خاطر السلطان ، فهـٰذا كان سببَ اعتقاده وبنائه الزاويةَ له ، ولـٰكنها لم تكمل .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : تركتُ والدي في شربين ، وسافرتُ الحجاز ، فدخلتُ مكة ، فوجدت والدي هناك مقيماً ، وفقراءُ مكةَ يحطُّون عليه ، ويضربونه وهو ساكتٌ ، فأشار إليَّ : أن اسكت حتىٰ فرغوا يَصكُّونه ، فقال : يا أحمد ؛ تعالَ مرِّغ لي رقبتي ؛ فإني أحسُّ بها وارمةً قدر البردعة ، فعقدوا لوالدي عقدَ مجلس ، واتفق أصحابُ الحديث أن كلَّ من جلس والخطيبُ يخطبُ ، ولم يحتج إلى الخروج من الحرم فهو شيخُ مكة ، فجلس الفقير الذي كان حزبَ علىٰ والدي الناس والخطيبُ يخطب ، فرأىٰ نفسَهُ قد احتلمَ ، فخرج للغُسل ، فقال الفقراءُ كلُّهم : البلد للشربيني .

ووقع له مرةً أخرىٰ نحوَ ذلك مع خطيب مكة ، وكان يُنكر على الشيخ ، فمدَّ الشيخُ يدَهُ للخطيب ، فوجدَ كمَّ الشيخ كالزقاق ، فدخله ، فوجدَ مطهرةً ، فتطهر وخرجَ من كمِّ الشيخ ، فزال إنكارُ الخطيب واعتقده .

وأخبرني ولده الشيخ أحمد قال : وجدتُ جراباً في طريق الحجاز فيه ذهبٌ كثير ، فحملته ولم أفتحه إلىٰ أن وصلتُ البلاد ، فأرسل والدي إلىٰ تاجر من مصر ، فحضر ، فقال له : كيف تخرجُ للفقراء عن ألف دينار وترجع فيها ، ائتني بها ، فقال : يا سيدي ؛ قد وقع مني مالي كلُّه في طريق الحجاز ، فقال : إن رجع تُعطينا الألف منه ؟ فقال : نعم ، فقال : يا أحمد ؛ هات الجرابَ الذي عندك ، فأخرجتُهُ ، فواللهِ ؛ ما فتحته ، فأول ما رآه قال : هـٰذا جرابي ، وفيه عشرةُ آلاف ذهباً ، فعدُّوها فوجدوها

---

(١) الدَّلَم : ولد الحية . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٩٤) .

كما قال ، فأعطى الشيخَ ألف دينار ، وأخذ الباقي ، وجه الكرامة : أن الشيخَ حفظَ عليه ماله مع ولده حتىٰ خلص ذمَّةَ الناذر .

ووقائعُهُ كثيرةٌ مشهورة بين فقرائه .

توفي رضي الله عنه في ثامن صفر سنة سبع وعشرين وتسع مئة ، ودفن في زاويته بشربين ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٥٣) صاحبُه العارف بالله تعالى الشيخ علي أبو خودة رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان علىٰ رأسه خودة حديد صيفاً وشتاءً وزنها قنطار وثلث .

وكان رجلاً أسمر قصيراً ، و[عيناه][٢] كالجمر الأحمر ، وهو مشمِّرٌ إلىٰ ركبتيه ، ومعه شعبةٌ في يده لها رأسان ، كلُّ من ضربه بها صرعه .

وكان له نحو عشر عبيد بخود حديد ، وكلُّ عبدٍ علىٰ حمار ، وتحته خرجٌ يدورُ البلاد يسألُ الناس ، وكلُّ ما حصله يفرِّقه على المحاويج .

وما رُئيَ ضاحكاً قط ، ولا مُصلِّياً .

وكان أهلُ الحسينية يُنكرون عليه أشدَّ الإنكار ، وكان يأمرُ عبيدَهُ بأن يحكوا للناس : أنَّ الشيخَ يفعلُ فينا الفاحشة ، فيزدادون عليه إنكاراً ، ثم يعطبُ كلَّ مَنْ أنكرَ عليه .

ولما اتَّسعتْ دائرتُهُ وأُعطي دركَ بحر الروم غار منه الفقراء ، فقتلوه بالحال حين اجتمعوا عليه .

وكان الشربيني يقول : (يا تعب الناس في بلاد الروم ، ويا طول جهاد ابن عثمان ،

---

(١) كذا في النسخ بالدال المهملة هنا وما بعدها ، وهي عامية لفظة (الخوذة) ، وتقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٠) (٣٦٠) .

(٢) في النسخ : (وعينيه) .

ثم يقول : فرطنا فيه ، فاحتجنا له ، فما سدَّ أحدٌ في دركه بعده ؛ بدليل كثرة التجاريد بعد موته[١] ، بخلافها أيام حياته ، ما كان ابنُ عثمان يجاهد إلا في حين) .

وكان يقول : (أنا غفيرُ الروم ، والشربيني غفيرُ الهند) .

ولما حضرته الوفاة أنشد :

يا سعدُ قلْ لأصحابِ الأدراكِ يرمقوا لأدراكهـم إحنـا بقينـا عـواجـز

وأخبرني الشيخ أحمدُ الكعكي رحمه الله قال : بينما أنا ماش مع أبي خودة خارج باب الشعرية ، فقربنا من الشيخ عبد القادر الدشطوطي ، فقال أبو خودة : مقصودي أخلي هراره في رجليه[٢] ، فوضع رأسَهُ في طوقه ، فكركبت بطنُ الدشطوطي ، فقال : انظروا من هو مار ؛ لأنه كان ضريراً ، فقالوا له : أبو خودة ، فقال : الله لا يجبر له كسراً ، أيش عملنا له ؟!

وكان إذا رأى امرأةً أو أمردَ حسَّسَ بيده على مقعدتها ، ولو كانتِ امرأةَ أمير أو ولده ، لا يُراعي أحداً ، ثم إذا أنكروا عليه عطبهم[٣] .

وكان إذا حضر قوَّال الفقراء يحملُ القوَّالَ على كتفه ، ويصيرُ يرمحُ به كأنه عصفور .

وأخبرني الشيخ يوسف الحريثي قال : كنتُ في دمياط ، فنزلنا المركب للسفر للقاهرة وإذا بأبي خودة جاء هو وعبيده ، فقال الناسُ : إنْ نزلَ هـٰذا الكلبُ معنا غرقتِ المركب ، فأخرجه الريِّسُ من المركب ، فضربها بالعصا وقال : سمَّرتُك ستَّ شهور ، فجرَّدوا ما فيها ، وصارتْ في البرِّ المدةَ المذكورة .

قال : ونزلنا معه في مركب مرةً أُخرىٰ ، فوحلتِ المركبُ في وسط البحر ، فضربها فلم تجرِ ، فنزل هو وعبيدُه يمشون على الماء حتىٰ وصلوا البر والناسُ ينظرون .

وكان يضربُ أميرَ كبير قُرْقُماس بعكَّازه بحضرة الأمراء ، فإذا حرقه الضربُ هرب منه ، ودخل المبيت ، فيجري وراءَه ، فإذا قفلَ البابَ خلعه ودخل ، فلا يزالُ يضربُهُ

---

(١) **التجاريد** : الجيوش .

(٢) **هراره** : برازه .

(٣) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

حتىٰ يقضي وطرَهُ منه ، لا يتجرَّأُ أحدٌ أن يمدَّ يده ، ولو مدَّ أحدٌ يده شَلَّت ويبست بجنبه .

اجتمعتُ به كثيراً ، فقلتُ له مرةً : أوصني بوصية ، فقال لي : احترسْ أن تبلعَك أمُّك ، فقلتُ لعبدٍ من عبيده : ما معنىٰ هـٰذا ؟ فقال : يقول لك : احذرْ أن تميل إلى الدنيا بقلبك ، فتحكم عليك بالخنوثة بين الرجال .

وأخبرني بعضُ الثقات أنه دخل يوماً علىٰ بعض أصحابه ، فتركه صاحبُهُ وانصرف ، ثم دخل فوجده يُقبِّلُ زوجته ، فرجع ، فأخبرَ الناس ، فقال له الشيخ : خنَّاقة تأخذ روحك ، فطلعتْ له الخناقة ، فقال له الخادم : اذهبْ بنا ، فقال : حتىٰ نحضرَ دفنه ، فدفنه ، ثم انصرف .

وكان يجبي الفراخَ من البلاد من النساء ، فامتنعتْ منهنَّ واحدةٌ أن تُعطيه عادته ، فلما سافرَ الشيخُ بالدجاج عوىٰ عليه الذئبُ ، فقال : لا تعوي علينا ، واذهبْ إلىٰ فلانة ، فكُلْ دجاجَها ، فنقلها الذئب كلَّها تلك الليلة .

وأخبرني الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الشربيني : أن أبا خودة جاءَ يوماً لزيارة والده ، فقال : يا أحمد ؛ انظر لي أبوك ، فقلت له : أنا رايح الكتَّاب ، قال : فدفعني ، فوجدتُ نفسي في مكة ، فطفت بالبيت ، وإذا أنا بجاريةِ أُمِّي تطوفُ ، وكانتْ مجاورةً مع الوالدة ، فقلت لها : أين الوالدة ؟ فقالت : الوالدة تبخرت من ساعة ، ودخلتْ بيتَ ناسٍ غرب ، قال : فقلتُ لها : أرني البيت ، فذهبتُ معها إليه ، فدخلتُ ، فوجدتها جالسةً علىٰ سرير هي وأبي ، فنظر إليَّ نظرَ الغضب وقال : يا أحمد ؛ تظنُّ السوءَ بأمِّك ؟! فقلت : التوبةَ ، ثم خرج الوالد فلم أجده في مكة ، فعرفتُ أنه رجع إلىٰ شربين ، فخرجتُ أتمشَّىٰ في المسعىٰ ، فوجدتُ شخصاً مبتليٰ ، فزاحمته بكتفي ، فدفعني ، فوجدتُ نفسي واقفاً علىٰ باب دارنا في شربين والشيخ أبو خودة واقفٌ على الباب ، فقال : ادخل استأذنْ والدك ، فدخلتُ فوجدتُهُ جالساً يفتُّ للثعابين والحيات الخبز ويُطعمهم ، فخرج والدي ، فقلت له : آللهِ ، هـٰذه الواقعةُ وقعتْ لك ؟ فقال : واللهِ ؛ وقعتْ لي .

مات الشيخ أبو خودة في طريق المحلة الكبرىٰ كما أخبرني الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد الشربيني .

قال : وأخبرنا بكرةَ النهار : بأنه يموتُ ذلك النهار ، فقلنا : كيف نحملُكَ إلىٰ مصر ؟ فقال : علىٰ جملٍ ، فبينما هو سائرٌ إذ ارتفعَ بحمارته في السماء حتىٰ صرنا نراه كالطير الحمام ، ثم هبطَ إلى الأرض بالحمارة ، ومات هو والحمارة ، قال : فحملناه علىٰ جمل إلىٰ مصر كما قال ، وذلك في سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من جامع شرف الدين آخر الحسينية ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٥٤) الشيخُ الصالح ، ذو الأحوال الغريبة ، والمكاشفات العجيبة سيدي علي الذؤيب رضي الله تعالىٰ عنه[1]

بالبحر الصغير ، كان رضي الله عنه من أكابر الملامتية .

اجتمعت به مرةً واحدةً عقب منام رأيتُهُ ، وذلك أني سمعتُ قائلاً يقول لي في المنام : الشيخ علي الذؤيب قطبُ الشرقية ، ولم أكنْ سمعتُ به أبداً ، فسألت الناسَ عنه ، فقالوا لي : هـٰذا رجلٌ من أولياء الله ، له وجودٌ ، وهو أوَّلُ مشايخ الشيخ محمد العدل الطناحي .

وكان رضي الله عنه يلبسُ لباسَ الجمَّالين تارةً ، والترَّاسين تارة .

وكان يقيم في النهار في البرية ، ولا يدخل بلدَهُ إلا ليلاً .

وكان يمشي كثيراً على الماء ، فإذا أبصرَهُ أحدٌ اختفىٰ .

وأخبرني الشيخ شمس الدين الطنيخي صهرُ الشيخ محمد بن عنان : أن سيدي علياً هـٰذا أقام بمصر نحو عشرين سنة ، فكان ليلاً ونهاراً واقفاً تجاه المارستان ، مُعتمداً علىٰ عصاه وهو متلثِّمٌ ، ثم بعد ذلك نزل إلى الريف ، وظهرتْ له كراماتٌ وخوارقُ .

وكان يُخبر الناسَ كلَّ يوم بما وقع في أقطار الأرض ، فيجيءُ الخبرُ بعد ذلك كما أخبر .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٣) (٣٦٢) .

ولما مات وجدوا في داره نحو ثمانين ألف دينار ذهباً ، وما عَلِمَ الناسُ من أين أتاه ذلك ؛ لكونه كان متجرِّداً من الدنيا ، فأرسلَ نائبُ مصر ، فأخذها لبيت المال .

وأخبرني السيد الشريف البلقسيُّ أنه قال لسيدي عليٍّ : ما هٰذه البطنُ الكبيرة ؟! فقال : يا شريف ، هٰذه أحسنُ من البطن الضيِّقةِ ؛ لأن كلَّ كلمة قبيحة دخلتِ البطنَ الواسعة تغيبُ فيها ولا تظهر ، بخلاف مثل بطنك الضيِّقةِ ، كلمةٌ واحدةٌ تكدِّرُها من أوَّلها إلىٰ آخرها .

وكان يُرىٰ كلَّ سنة بعرفات ، ويختفي من الناس إذا عرفوه .

مات رضي الله عنه سنة سبع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بداره ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٥٥) الشيخ الصالحُ ، الجميلُ الأخلاق والشيم ، الصائمُ الدهر الشيخ أحمد السطيحة رضي الله عنه[١]

كان من الفقراء الصادقين .

صحبته نحو عشر سنين ، وأقام عندي بمصر الأيام والجُمع ، وكان يحبُّني كثيراً .

وكان علىٰ قدم الشيخ محمد الفرغل ، وكانوا يلبسونه النعلَ الجديد فيذوب في جمعة ، ويجدون فيه الحصىٰ والرمل ، فكان الناس يتعجَّبون من ذلك .

وأخبرتني زوجتُهُ أمُّ الشيخ سليم : أنه كان ينتشر من بعد العشاء ويصيرُ شابّاً نشيطاً إلى الفجر ، فيعود لحاله من الزمانة ، وكان متزوِّجاً أربع زوجات .

وله الشفاعاتُ المقبولةُ عند الباشوات ومشايخ العرب والكشَّاف ، وكلُّ من ردَّ شفاعتَهُ فلا بدَّ أن يحصل له تلك الجمعة ضرورةٌ .

وقعت له الكراماتُ الكثيرة .

وكان كفُّه أَلينَ من الحرير ، وصوتُه خفيٌّ لا يتكلَّمُ إلا همساً .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٤) (٣٦٣) .

وكان كثيرَ المُباسطة لأصحابه ، لطيفَ الذات ، كريمَ النفس ، يكرمُ كلَّ وارد ورد علىٰ زاويته في شبرا قبالة[١] ، ويعلف دوابَّهم[٢] ولو كانوا مئةً .

وكان زرعُهُ واسعاً ، والناسُ يقصدونه بالهدايا والنذور من البلاد .

وكان خادمُهُ يُركبه على الفرس في حضنه كالطفل ، وله طرطورُ جلد طويل[٣] ، وعليه جبَّةٌ حمراء .

وكانت آثارُ الولاية لائحةً عليه ؛ إذا رآه إنسانٌ يأخذُ بمجامع قلبه ، فلا يكاد يُفارقُهُ .

وسخر به شخصٌ من ناحية بطا بالغربية ، ووضع علىٰ رأسه طرطورَ جلد ، وركب علىٰ فرس في حضن إنسان ، وصار يُحاكي الشيخ ، فحصل له في رقبته وجعٌ وورمٌ حتىٰ كاد يهلك ، فقال : اذهبوا بي إلى الشيخ السطيحة وإلا متُّ ، فذهبوا به إليه ، فضحك الشيخُ وقال : تُزاحمني على الكساح ، تُبْ إلى الله عزَّ وجل ، فتاب واستغفرْ ، فأخذ الشيخُ شيئاً من الزيت وبصقَ فيه وقال : ادهنوا به رقبتَهُ ، وكانتْ وارمةً كخلية النحل ، فدهنوها بالزيت ، فصارتْ تنقصُ شيئاً فشيئاً إلىٰ أن زالَ الوجع ، ونزعَ الطرطورَ ، وصار يخدمُ الشيخَ إلىٰ أن مات .

وأراد أن يُسافرَ في مركب من بولاق ، فنزل هو وجماعتُهُ في غيبة الريِّس ، فجاء الريس ، فقال : اطلعوا أنا لا أحملُ فقراء ، فقال له : نُعطيك أجرتَك ، ولم يعرف قيمةَ الشيخ ، فطلعَ الشيخُ ، فانفتح في المركب فوراً ، وغرقت حوائجُ الركاب ، ولولا تسارعَ الناسُ للبرِّ لغرقوا كلُّهم ، فترضوا خاطره ليرجع ، فأبى الشيخ وقال : سدُّوا مركبَكم وسافروا .

وسخرَ بطرطوره بعضُ الفلاحين ، فأكلَ شوكَ لحلاح ، فوقف في حلقه ، فمات في المجلس .

---

(١) **شبرا قبالة** : إحدىٰ قرىٰ مركز قويسنا التابع لمحافظة المنوفية .

(٢) في (ي) وحدها : (يعلق) بدل (يعلف) .

(٣) **الطرطور** : القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس .

وخطبَ مرَّةً بنتاً بكراً ، فأبتْ وقالت : الدنيا ضاقتْ عليَّ ، أتزوَّج مكسَّحاً سطيحاً ؟! فلحقها الفالجُ في الحال ، فلم ينتفعْ بها أحدٌ حتىٰ ماتت ، فجاءته على الأثر ابنةٌ بكرٌ وسألته بنفسها ، فعايرها البنات وصاروا يقولون لها : يا امرأة المكسح ؛ فلم تلتفتْ لهنَّ ، فأزال بكارتها وحصل لها خيرٌ عظيم ، وكانت أحبَّ نسائه إليه ، وبارتْ جميعُ البنات اللاتي عايرنها ، فلم يخطبهنَّ أحدٌ .

وشفع مرةً عند كاشف مدينة منف في محبوسٍ[1] ، فقبل شفاعتَهُ نفاقاً ، فلما خرجَ الشيخُ ردَّ شفاعته في الحال ، وحبس الرجلَ ثانياً ، فطلعتْ في عنقه غدَّةٌ فخنقته ، فمات الكاشف من يومه .

وتكسَّحتْ في بلاده امرأةٌ ، وعجز الأطباء عن مداوتها أربع سنين ، فأخبروا بها الشيخ ، فأخذ بعضَ زيت ، وبصق فيه ، ثم قال : ادهنوها به ، فدهنوها ، فقامتْ صحيحةً في الحال بحضرة الناس ، قال بعضُ الناس في سرِّهِ : كنتَ عملتَ ذلك لنفسك ، فقال : أنا ما أعتقدُ نفسي ، وأيضاً : فإني مع الإذن من ربِّي لا مع ما تشتهيه نفسي .

وحضر مجلسَ سماع في ناحية دسوق ، فطعنه فقيرٌ عجمي تحت بزِّهِ ، فقال : طعنني العجمي ، اقرؤوا الفاتحةَ ، واسألوا اللهَ أن يأخذَ لنا حقنا منه ، فأصبح العجميُّ مشنوقاً ميتاً علىٰ حائط لا يدرون من شنقه .

ومما وقعَ لي معه : أنه وقفَ علىٰ باب زاويتي بالفرس وهو طالعٌ للقلعة في شفاعة ، فقرأ الفاتحة وقال : خاطرُكُم معنا في قبول هـٰذه الشفاعة ، فسرىٰ ذهني إلىٰ مكةَ ، فرأيتُ نفسي واقفاً تجاه باب الكعبة ، فخاطبني وقال : يا هو ؛ ارجعْ ما هو وقت سياحتك ، وعرف مكان خاطري .

وأخبرونا أنه من حين مَيَّزَ وهو صائم الدهر .

توفي رحمه الله سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته خارج شبرا قبالة بالغربية ، في قبَّة تُرىٰ من بعيد .

---

(١) في (أ ، ز ، ط ، ل) : (منوف) ، بدل (منف) .

وكان جميعُ أهل بلده يُنكرون عليه ، فكانوا يخربون واحداً بعد واحد إلىٰ أن خربتْ كلُّها ، وما بقي ساكنٌ هناك إلا هو وجماعته ، فقلت له : الفقير يحملُ ، فقال : هـٰؤلاء منافقون قليلو الدين والصلاة ، والحرامُ عندهم كثير ، وحاقت دعوتُهُ فيهم ، فأكثر أوقاتها خراب إلىٰ وقتنا هـٰذا ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٥٦) الشيخُ الصالح ، صاحب المكاشفات والخوارق ، الشيخ بهاء الدين المجذوب القادري رضي الله عنه[١]

كان من الأكابر العارفين ، وما ضبطوا عليه أنه أخطأ قطُّ في شيء أخبر به .

وكان أولاً خطيباً في جامع ميدان القمح بمصر ، فحضر يوم جمعة في عقد تزويجٍ ، فسمع قائلاً يقول : هاتوا النارَ جاء الشهود ، فصاح وخرج هائماً علىٰ وجهه ثلاثة أيام في الجبل المقطَّم وغيرِه ، لا يأكلُ ولا يشرب ، ثم ثقل الحالُ عليه ، فمكث خمسَ سنين لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وطلبتْ زوجتُهُ أن تتزوَّجَ لما جُذب ، فلم يتجرَّأ أحدٌ من القضاة يفسخ نكاحها إلا شخص واحدٌ ففسخ نكاحَها ، وعقد عليها ، فلما دخل عليها الزوجُ وعانقها ماتا جميعاً لوقتهما ، وعُزل القاضي ، وتحولت عنه النعمة .

ثم لمَّا زاد عليه الحالُ خرجَ عن الدنيا بالكلية .

وكان من محفوظاته قبل الجذب كتاب « البهجة » لابن الوردي ، فكان لم يزل يقرأُ منها أبياتاً ؛ لكونه جُذب وهو مشغولٌ بها ، وكلُّ شيء جُذب عليه الشخصُ لا يزالُ يتذكَّرُهُ ؛ كما أن الشيخَ فرج المجذوبَ كان الغالبُ عليه قوله : عندك رزقة تبيعها ؟ عندك إقطاعُ تبيعه بشرطِ أن يكونَ فيه ضيافةٌ من فراخ وإوز وغنم ؟ لكونه جُذب وهو مشغولٌ بذلك ، وكذلك إذا جُذبَ الشخصُ في حال قبضٍ أو بسط فلا يزالُ ذلك

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٧) (٣٦٤) .

دأبَهُ ، ثم إن الألفَ سنة عند المجاذيب كأنها لمحة في حضرة الله ، لا يَدرون بمضيِّ الزمان .

ورأيت القاضي ابن عبد الكافي لمَّا جُذب يدخلُ الخلاءَ ، فلا يزالُ يقول : لا حقّاً ولا استحقاقاً ، ولا دعوىٰ ولا طلباً ؛ لكونه جُذب وهو قاضي .

ورأيت ابنَ البجائي لمَّا جُذب وأُعطي دركَ بحر الهند ، لم يزلْ يقول : بابُ النكرة ، النكرة : كل أمر شائع لا يختصُّ به واحد دون آخر ؛ لكونه جُذب وهو يقرأُ في النحو ، فاعلم ذلك .

ومما وقعَ لنا مع الشيخ بهاء الدين : أنَّنا بتْنَا نحن وإياه في وليمة وكان جالساً في شباك علىٰ بركة الرطلي ، فأخذَ قلَّةَ ماءٍ ، وضرب بها نحوَ السقف ، فقال فقيهٌ : كسر القلة ، فقال الشيخ : تكذبُ ، فنزلتْ على الأرض صحيحة ، ثم إن ذلك الفقيهَ اجتمعَ به بعد [سبع عشرة] سنة[1] ، فقال : أهلاً بشاهد الزور الذي يشهدُ بغير علم ، مع أنَّ القاعةَ كانت ملآنةً خلقاً ، وهو ظلام .

وكان إذا قال لأمير : عزلناك يُعزلُ في يومه ، أو جمعته ، أو قال : ولَّيناك الشيءَ الفلاني تولاه عن قريبٍ .

وكانت مكاشفاته مع الأكابر لا تُحصىٰ .

صحبته نحو ثلاث عشرة سنة .

وأوصاني بتحمِّل الأذىٰ من جميع الخلق ؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

توفي رضي الله عنه سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة ، ودُفن بزاويته قريباً من باب الشعرية ، رحمه الله تعالىٰ .

(١) في النسخ : (سبعة عشر) .

ومنهم :

(٤٥٧) الشيخ الصالحُ الراسخ ، ذو المكاشفات الكثيرة ، والقبول التامِّ عند الخاصِّ والعام من الملوكِ فمن دونهم الشيخُ عبدُ القادر الدَّشْطُوطي رحمه الله[1]

كان رضي الله عنه مشهوراً بالكرامات والخوارق ، وعمَّر عدَّةَ جوامع في مصر وقُراها ، وأوقف الناسُ عليها الأوقافَ الكثيرة ، وكان مقبولَ الشفاعة ، لا يُخالفُهُ أحدٌ من الولاة .

وأخبرني الشيخ أبو الطيب نقيبُهُ قال : دخلتُ الميدان في شفاعة على السلطان الغوري وهو جالسٌ ، والأمراء المقدَّمون ، والعساكر بين يديه ، فهرعَ الناس إلى الشيخ يُقبِّلون يده ، حتىٰ لم يبقَ عند السلطان أحدٌ ، فقال الغوري : هـٰذا هو السلطان ، واحتقر نفسه ، فقامَ الآخرُ ومشىٰ له ، وقبَّل يده ، وقبلَ شفاعتَهُ .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة ، وكان يُقبلُ عليَّ إقبالاً كثيراً إذا وردت عليه .

وأول ما اجتمعتُ عليه وأنا شابٌّ أمردُ أوصاني بوصايا ، وقال لي : أنا أعرفُ أنَّ عقلَكَ الآن ما يحملُ هـٰذا الكلام ، ولـٰكنْ هاتِ الدواة والقلم واكتبْها ، فأتيته بالدَّواةِ والقلم ، فكتبتُها ، وقال : احفظْ هـٰذه الوصية حتىٰ تكبرَ وتعرفَ معناها ، وتدعو لمن علَّمَك ؛ من تلك الوصايا :

(أوصيك بعدم الالتفات لغير الله عز وجل في شيء من أمورك في الدنيا والآخرة ؛ فإنَّ جميعَ الأمور لا تبرزُ إلا بأمره ، فارجع في الأمور إلىٰ من قدَّرها) .

ثم قال : (يقول اللهُ في بعض كتبِهِ المنزلة : يا عبدي ؛ لو سقتُ إليك ذخائرَ الكونين ، فنظرتَ بقلبك إليها طرفةَ عينٍ فأنت مشغولٌ عنَّا لا بنا) .

وكان من صفاته رضي الله عنه : أنه صاحٍ لأمور الدنيا والآخرة ، وملبسُهُ وهيئتُهُ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٨٨) (٣٦٥) .

كالمجاذيب ؛ حافٍ ، مكشوفُ الرأس ، عليه جبَّةٌ حمراء ، وتارة جبَّتان ، وكان إذا لبسَ واحدةً تعمَّمَ علىٰ رأسه بالأخرىٰ .

وكان لقبُهُ بين الأولياء صاحبَ مصر .

توقَّفَ البحر يوماً ، ثم هبطَ أيامَ الوفاء[1] نحو ثلاثة أذرع ، فجاء الناس إليه ، فذهب إلىٰ شاطئ النيل ، فخاض فيه ، وقال : اطلعْ بإذن الله تعالىٰ ، فطلع البحرُ ، وأوفىٰ ذلك الوقت ، فكاد الناسُ أن يتقاتلوا عليه ، يتبرَّكون به .

واتفق الناسُ علىٰ أنه ما رئي قط في معدية في البحر ، لا في الجيزة ، ولا في أنبابة ، إنما كانوا يرونه في هـٰذه البرِّ ، أو في هـٰذا البر .

وحجَّ مرَّةً حافياً ماشياً طاوياً ، فلما وصلَ إلىٰ باب السلام انطرحَ بخدِّه على العتبة ثلاثة أيام حتىٰ أفاقَ ، ثم دخل للطواف والسعي .

ولمَّا زارَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضعَ خدَّه علىٰ بابِ السلام مُستغرقاً إلىٰ أن رحل الحجاج ، ولم يدخل المسجدَ .

وكانوا يرونه أمام الدليل تارةً ، وفي ساقةِ الحجِّ تارةً ، وكان يظهر إذا شاء ويختفي إذا شاء .

وكان السلطانُ قايتباي إذا رآه يمرِّغُ وجهَهُ علىٰ أقدامه .

ولما اشتهر كثرة اعتقاد السلطان فيه زوَّرَ الشياطينُ على السُّلطانِ شخصاً علىٰ صورته وأتوا له به أجلح الرأس ، وأجلسوه في القَرَافة ليلاً ، وأرسلوا إلى السلطان : أن الشيخَ عبد القادر ينتظرُكَ في المكان الفلاني ، فتوضَّأ السُّلطانُ ، ونزل ليلاً ، وصارَ يمرِّغُ وجهَه علىٰ باطن أقدام الشيخ ، فقال للسلطان : الفقراءُ مُحتاجون لعشرة آلاف دينار في هـٰذا الوقت وأنت جالس ، فحضر بها الخازندارُ ، ورجع السلطان ، فاشتاعَ الخبرُ بذلك ، فبلغَ الشيخَ عبد القادر ، فأرسل يقول للسلطان : نصبوا عليك ، فأرسل السلطان وراء الفقير ، وضربَهُ حتىٰ أشرفَ على الهلاك ، وقال : أما تستحي من شيبتي وأنا أُمرِّغُها علىٰ أقدامك القذرة ، وقيل : إنه مات من الضرب .

---

(١) وفاء النيل : تقدم شرحها (٤/ ٢٩٤) .

وأخبرني الأمير يوسف بن أبي إصبع رحمه الله : أن السلطان قايتباي لمَّا أرادَ السفر لنواحي بحر الفرات استأذنَ سيدي عبد القادر ، فأذن له ، قال : فلما سافرنا مع السلطان كنا نجدُهُ ماشياً قدَّام السلطان في البرية ، وبيننا وبينه نحو عشرة أذرع ، فإذا نزلنا نُسلِّم عليه اختفىٰ ، فلما دخلنا حلبَ وجدنا زحمةً علىٰ باب زاويةٍ ، فقلنا : ما هـٰذا ؟ فقالوا : سيدي عبد القادر الدشطوطي له هنا خمس شهور ضعيف في هـٰذه الزاوية ، فقلنا : نحن فارقناه في مصر من نحو خمسةٍ وعشرين يوماً ، وكنا نراه أمامنا في الطريق ، فدخلنا ، فوجدناه ضعيفاً كما قالوا ، وتحيَّرنا في أمره .

ودخلتُ عليه مرةً وأنا شابٌّ أعزب ، فقال لي مبادرةً : تزوَّجْ ابنةَ الشيخ محمد بنِ عنان ؛ فإنها صبيةٌ هائلةٌ ، وتجمعُ أصحابَ الشيخ عليك ، فقلت له : يا سيدي ؛ ما معي شيءٌ ، فقال : ما معك خمس دنانير وشيء ؟ فتذكَّرتُ أنَّ لي عند إنسان من بلاد المنزلة هـٰذا المبلغ ، وتعجَّبتُ من صحَّة كشفه لحالي .

ثم أُذِّنَ بالظهر علىٰ جامع المغاربة ، فاضطجعَ ، وتغطَّىٰ بملاءةٍ ، فصارت الملاءة تنتفش حتىٰ لم أجدْ تحتها أحداً ، فغاب نحو خمس عشرة درجة ، ثم حضر ، فانتفختِ الملاءة ، فقام ، فذكرتُ ذلك لسيدي محمد بن عنان ، فقال : إن الشيخَ صلى الظهرَ في الجامع الأبيض برملةِ لُدٍّ بطريق الشام .

ودخلتُ مرةً علىٰ سيدي عبد القادر ، فقال : يا ولدي ؛ كلُّ من قال إن سعادته بيده كَذَبَ ، وأذكرُ لك بدايةَ أمري ؟ فقلت : نعم ، فقال : كنتُ في دشطوط لا أهجعُ من السعي في الدنيا، وأنا راكبٌ علىٰ ظهر الفرس من الغيط إلى السواقي إلى التقدمة ، وكان المثلُ يُضرب بي في الجهد في الدنيا ، فبينما أنا راكبٌ فرسي يوماً وأنا ذاهبٌ إلى الغيط فحصل لي جاذبٌ إلـٰهي ، فصرتُ أغيبُ عن إحساسي اليومين والثلاثة ، ثم أفيقُ فأجدُ الناسَ حولي وأنا في بلدٍ أُخرىٰ غير بلدي ، ثم أغيب حتىٰ صرت أغيبُ من الجمعة إلى الجمعة ، ثم من الشهر إلى الشهر ، لا آكلُ ولا أشرب ، فأفقتُ يوماً ، فقلت : اللهم ؛ إنْ كان هـٰذا واردَ حقٍّ منك فاقطعْ علائقي من الدنيا ، فرجعتُ إلىٰ بلدي بعد تسعة أشهرٍ ، فوجدتُ الأولاد والبهائم والعيال كلَّهم ماتوا ، فقلتُ للناس : هل وقعَ فصلٌ في البلد ؟ فقالوا : لا ، إنما وقعَ ذلك في دارك فقط ، فعلمتُ أنه واردُ حقٍّ ،

فأخذت في السياحة إلىٰ يومي هـٰذا ، ليس لي علاقةٌ من الدنيا سوىٰ هاتين الجُبَّتين اللتين عليَّ ، هـٰذه حكايتُهُ لي بلفظه .

ودخلتُ عليه مرةً وهو يُعمِّرُ في زاويته التي دُفن فيها وهو يقول للشيخ جلال الدين البكري : عجِّلوا بعمارة القبَّة ؛ فإن الوقتَ قد قربَ ، ولا تجعلوا قبري يَسعُ أحداً يُدفن معي ، وإياك يا جلال الدين أن تجعلَ لأحد من الشهود أو القضاة وظيفةً في زاويتي هـٰذه ، إنما جعلتُ وقفها [لمكشوفي] الركب من المقيمين والواردين[1] ، فمات الشيخُ ، وبقي من ختام القبة عمارةُ يوم واحد .

وأخبرني الشيخ أبو الطيب نقيبُهُ : أن الشيخ كان ينام عند نصرانيٍّ بباب البحر ، ويخصُّه بالنوم عنده ، ويسألُه جارُهُ القاضي أن ينامَ عنده فلا يرضىٰ ، فإذا قيل له في أمر النصراني يقول : هـٰذا ما هو نصراني ، إنما هو مسلمٌ ، فأسلم النصرانيُّ عن قريب ، وحَسُنَ إسلامُه كما قال الشيخ ، فكان يُخبرُ عن عاقبة أمره .

وحضرتُ عنده مرةً والشيخ شمسُ الدين البهنسي عنده ، فقال : يا سيدي ؛ بعد عمرٍ طويلٍ نجتمعُ بعدكم علىٰ مَنْ ؟ وذكرَ له مشايخَ العصر ، فقال : يا ولدي ؛ اجتمع بفلان الفلاني في باب اللوق ، ولا تجتمع بهـٰؤلاء المتظاهرين بالصلاح في الزوايا الجالسين بغير إذنٍ من الأشياخ ؛ فإنهم واللهِ ؛ لم يشمُّوا القشرَ البرَّاني للطريق ، فضلاً عن اللب .

وأحوالهُ ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورة ؛ كنومِهِ في مكانين وأكثر من العشاء إلى الصباح ، حتىٰ صنَّفَ في ذلك الجلالُ السيوطي مصنَّفاً وسمَّاه : « تطور الولي » .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، وصلَّىٰ عليه خاير بك ملكُ الأمراء نائب مصر ، وأركانُ الدولة ، والعلماء ، والعامة ، وكانت جنازتُهُ حافلةً .

ودفن خارجَ باب الشعرية بمصر المحروسة رضي الله عنه .

---

(١) في النسخ : (لمكشوفين) بدل (لمكشوفي) .

ومنهم :

(٤٥٨) الشيخ الصالح ، العابدُ الزاهد
ذو الكشف الصحيح ، والحال العظيم
الشيخ حسن العراقي[١]

المدفون فوق الكوم المشرف علىٰ بركة الرطلي .

كان رضي الله عنه قد عُمِّر نحو المئة سنة وثلاثين سنة .

ودخلتُ عليه مرةً أنا وسيدي أبو العباس الحريثي ، فقال : أحدِّثُكم بحديثٍ تعرفون به أمري من حين كنتُ شاباً إلىٰ وقتي هـٰذا ؟ فقلنا : نعم ، فقال : كنت شاباً أمردَ أَنسجُ العباءَ في الشام ، وكنت مُسرفاً علىٰ نفسي ، فدخلتُ جامع بني أمية ، فوجدتُ شخصاً على الكرسيِّ يتكلم في أمر المهدي وخروجه ، فتشرَّبَ حبَّهُ قلبي ، فصرت أدعو في سجودي : بأن اللهَ تعالىٰ يَجمعني عليه ، فمكثتُ نحو سنة وأنا أدعو ، فبينما أنا بعد المغرب في الجامع إذ دخلَ شخصٌ عليه عمامةٌ كعمامة العجم وجبَّةٌ من وبر الجمال ، فمسَّ بيده علىٰ كتفي وقال لي : ما لك بالاجتماع بي ؟! فقلتُ له : من أنت ؟ فقال : أنا المهدي ، فقبَّلتُ يده ، وقلت له : امض بنا إلى البيت ، فأجاب ، وقال : أخلِ لي مكاناً لا يدخلُ عليَّ فيه أحدٌ غيرك ، فأخليتُ له مكاناً ، فمكث عندي سبعةَ أيام ، ولقَّنني الذكرَ ، وأمرني بصوم يوم وإفطار يوم ، وبصلاة خمس مئة ركعة في كلِّ ليلة ، وألا أضعَ جنبي الأرضَ للنوم إلا غلبةً ، ثم طلب الخروجَ وقال لي : يا حسن ؛ لا تجتمعْ بأحد بعدي ، ويكفيك ما حصلَ لك مني ، فما ثَمَّ إلا ما هو دونَ ما وصل إليك من قِبلي ، فلا تتحمَّلْ منةً لأحدٍ بلا فائدة ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، فخرجتُ أودِّعُهُ ، فأوقفني عند عتبة باب الدار وقال : من هنا ، فأقمت علىٰ ذلك سنين عديدة .

ثم شرعتُ في السياحة ، فخرجتُ إلىٰ مكة ، ورحت إلى اليمن ، ثم إلى الهند ، ثم إلى السِّند ، ثم إلىٰ بلاد الصين ، ثم رجعتُ إلىٰ بلاد العجم ، ثم سافرتُ إلىٰ بلاد الروم ، ثم عدَّيتُ إلى الغرب حتىٰ وصلت إلى البحر المحيط ، ثم رجعتُ إلىٰ بلاد

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩١) (٣٦٦) .

التكرور والسكوت ، ثم رجعتُ إلىٰ مصر ، وكانتْ مدَّةُ سياحتي سبعاً وخمسين سنة .

فلما دخلتُ مصرَ وجدتُ نفوذ الكلمة والشهرة لسيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه ، فاستأذنتُهُ في دخول مصر ، فلم يأذن لي وقال : اسكنْ في القَرافة ، ولا تجتمع بأحد ، فأقمت في قبَّةٍ مهجورة عشر سنين ، وسخَّرَ اللهُ لي الدنيا في صفة امرأةٍ عجوز تأتيني كلَّ يوم بإناء فيه طعام وبرغيف ، ولم أكلِّمْها ، ولم تُكلِّمني أبداً .

ثم أذن لي في دخول مصر ، فعارضني بعضُ الفقراء ، فأشار عليَّ بعضُ الإخوان بسُكنَى الحسينية خارج باب الشعرية ، فأقمتُ فيها في دكان سقاء سبع سنين .

ثم جاء الدشطوطي يريد يُعمِّرُ له جامعاً علىٰ بركة القرع ، فعارضني في الإقامة هناك ، فلم أزل أنا وإياه في نزاع ، فقلتُ لنفسي : يا حسن ؛ ابعدْ عنه ، فطلعتُ هـٰذا الكوم ، فأقمت فيه ثلاث سنين ، فبينما أنا جالسٌ إذ طلع الدشطوطي إليَّ وقال : ارحلْ من هـٰذا الكوم ، فما رضيتُ ، فمنِّي كلمةٌ ومنه كلمة ، فدعا عليَّ بالكساح ، فتكسَّحتُ ، ودعوتُ عليه بالعمىٰ فعمي ، فها هو في بيت المهندس أعمىٰ ، وها أنا مكسح ، وأوصيكَ يا عبدَ الوهاب بالتحمُّلِ للأذىٰ ، كلُّ من نازعك في مكان فاتركْهُ له ؛ فإن الدنيا ما هي دار إقامة . هـٰذه حكايتُهُ لي بلفظه .

قال : وسألتُ المهديَّ عن عمره ، فقال : يا ولدي ؛ عمري الآن ست مئة سنة وعشرين سنة ، ولي عنه الآن مئة سنة ، فقلتُ ذلك لسيدي علي الخواص ، فوافقه علىٰ عمر المهدي رضي الله عنه .

وكان من طريقته رضي الله عنه إذا أتاه أحدٌ بشيء من الأثواب النفيسة ويقول : هـٰذه نذرٌ لك يا شيخ حسن . . يقبلُها ، ثم يأخذُ السكينَ فيشرحُها شرائحَ شرائحَ ، ثم يخيطُها بخيط دارج ومسلَّة ، ويقول : إنَّ العبدَ إذا لبس جديداً تصير النفس تُسارقه بالنظر إليه والعُجب به ، فإذا قطعناه انقطعَ خاطرُ النفس .

توفي رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن في القبة التي فوق الكوم ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٥٩) الشيخ الصالح ، المجذوبُ الصاحي
ذو الأحوال الغريبة ، والكشوفات العجيبة
الشيخُ إبراهيم عُصيفير رضي الله عنه[١]

كان من أهل الكشف الكامل ، وكان كثيرَ العطبِ لمن يؤذيه ، وأصله من نواحي البحر الصغير .

وكان ينامُ مع الذئاب في البرية ، ويمشي على الماء جهاراً ، وينام في الكنائس مع الرهبان ، فقالوا له في ذلك ، فقال : نمتُ مرةً في جامع الأزهر ، فسرقوا عمامتي ونعلي ، وهـٰؤلاء الرُّهبان لي مدَّةَ عشر سنين أنامُ عندهم ما سرقوا لي شيئاً .

وكان بوله يُرىٰ كاللبن الحليب .

وكان إذا غلب عليه الحالُ يدورُ يُغلقُ علىٰ أهل الحارة أبوابَ دورهم ويقول : نمنعهم من أذىٰ بعضهم بعضاً .

وكان يتشوَّشُ من قول المؤذن : (الله أكبر) ويقول : إنما يُكبِّرُ الناسُ على النصارىٰ ، ويرجمُ المؤذِّن بالحجارة[٢] .

ومزحَ معه شخصٌ في الحمام ، فقال : اسكتْ وإلا كسرتُ رجل ثور السَّاقية ، فقال : ما أسكت ، فزلق ثور ساقية الحمام ، فوقعَ في بيت الترس ، فانكسرَ فخذُهُ ، فجاء الحمامي إليه ، فقال : يا سيدي أيش ذنب الثور ؟! فقال : اشترِ له بطيخة صيفي واسقها له يبرأ ، ففعل ، فبرئ في الحال .

ومزح معه مرةً شخصٌ يُسمَّى القلعي كان عالية العوال في الدقاف[٣] ، فقال : الله يرزق البعيد في رجله بلاءً لا يخرجُ منه إلا بالموت ، فحصل له ورمٌ في رجليه ، حتىٰ صار إذا ركب يحطُّ كلَّ رجلٍ في خرجٍ ، وتفتَّحتْ كلُّ رجلٍ ، وصار يحشي فيها

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٤) (٣٦٧) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٣) **الدقاف** : نوع من أنواع القتال .

الشراميط والمشاق[١] ، ولا يقدرُ قطُّ يستنجي ، فكانت ثيابُهُ ملطخةً عذرة ، ولم يُصلِّ لله ركعةً بعد الدعاء عليه إلىٰ أن مات علىٰ أسوء حال .

وجاءه ابن موسى المحتسب مرَّةً ، فقال : ادعُ لي ، فقال : الله يبليك بقاتل يقتلك قريب ، فكان الأمرُ كذلك ، فقُتل تلك الليلة .

وقال له صاحبُنا الشيخُ محمد المنوفي : ادع لبنتي ، فقال : اللهُ يجعل بعد غدٍ ثالثها ، فماتَتْ لوقتها .

ومرَّ على الأمير سودون أمير كبير وهو يُعمِّرُ في جدار المدرسة المتعلِّقة بِنَا قبل بنائها مدرسة ليعمله قصراً له ، فرجمَهُ وقال : أنتم فرغتْ مدَّتُكم ما بقيتم تلحقوا تسكنوا ، فكان الأمر كذلك ، فسافر الغوريُّ لقتال ابن عثمان ، فقُتل وخربتْ دورُ عسكره كلِّهم ، واشترينا تلك الخرابةَ ، فجعلناها مسجداً .

وجاءه جانمُ الحمزاوي مرَّةً فقال : خاطرُك عليَّ ؛ فإني مسافرٌ إستنبول ، فقال تروحُ وتجيء طيب ، ولـٰكن ابنِ لي مدفناً ، فأمرَ له بعمارة المدفن الذي دُفن فيه ، فمات الشيخ قبل دخول الأمير جانم من الروم بيومين .

وكان الشيخُ مُحيسن قال لجانم : إن قعدتَ هنا قطعوا رأسَك ، وإن رحتَ الروم شنقوك ، فصدق الشيخ عصيفير ، وصدق الشيخ محيسن ؛ فإنهم قطعوا رأس جانم في مصر هو وولده ، وصدق الشيخُ عصيفير في قوله إنه يجيء من الروم في تلك السفرة سالماً .

ووقف ليلة السابع عشر من رمضان تجاه مدرسة أم خوند بخطٍّ بين السورين ، وكنَّا مقيمين بها ، فأخذ نصفين من شخصٍ من القضاة فأعطاهما للسقاء وقال : صبَّ لي هنا راويتين علىٰ هـٰذا الحريق يُطفيه ، فصب لي راويتين ، فأنكر الناسُ على القاضي الذي أعطى الشيخ النصفين ، وقالوا : كنتَ أخذتَ بهما خبزاً للفقراء ، فبينما نحن في صلاة التراويح إذا بالنارِ مطلوقة في المنارة ، وكانت ثلاثة أدوار من خشب وبوص ، وذلك أن

---

(١) **المشاق** : حشوة الصوف أو الوبر أو الحرير أو الكتان .

الوقادَ أوقدَ القناديل ، وغرز العودَ الذي أوقد به في المنارة فوق الريح[١] ، ونزل ، فطلع يُطفئ القناديل ، فوجد المنارة مشتعلةً بالنار ، وشررها طائرٌ ، وكانت ليلةَ ريح ، فما استطاع أحدٌ أن يطلع من سلالمها بالماء ، ولا أنْ ينصبَ خارجها إسقالة[٢] ، فتدوَّرت من الدور الأسفل ، وارتمت في الشارع على الماء الذي صبَّه الشيخُ تجاه المدرسة ، فكأنَّ أحداً ملخها وأرقدها في الزقاق ؛ كالشخص النائم ، لم تؤذِ شيئاً من الربوع التي تحتها ، ورأيتُ أنا قناديل رأسِ المئذنة وقد وصلوا إلى الأرض ولم ينطفوا .

وسمعتُه مرَّةً يقول : (صوم هـٰؤلاء المسلمين عندي لا ثوابَ فيه ؛ لأن أحدَهم يشتري يومَ صومه الخمسةَ أرطال لحم ، ويأكلُ بعد العشاء ، وقبل الفجر ، فلو حسب أكلَهُ في رمضان لوجدَهُ أكثرَ من الأكل في الإفطار ، ويا ليتهم [يصومون][٣] مثلَ صوم النصارىٰ ، فيفطرون علىٰ زيتٍ أو خلٍّ) .

وكان إذا مرَّتْ عليه جنازةٌ يمشي أمامها ، ويجمعُ أطفالاً ، ويقول : زلابية هريسة ، زلابية هريسة .

وكان ينامُ على التبن صيفاً وشتاءً في المخزن ، وأوقاتاً في الكنيسة ، وأوقاتاً في الفرن .

ورأىٰ مرَّةً جرو كلب ، فرماه في دستِ طباخ ، فبحثَ الناسُ عن ذلك ، فوجدوه لحم ميتةٍ .

ومرَّ عليه مرة شخصٌ بإناء فيه لبن ، فرماه منه ، فكسرَهُ ، فوجدوا فيه حيَّةً ميتة .

وكراماته ومكاشفاته كثيرة .

وكان له جارٌ يُصلي في المسجد ، فقال له : لا تعدْ تُصلِّي يأخذوا حوائجك من الحانوت ، فبينما هو يُصلي الجمعة إذ خرج من الصلاة ، فوجد اللصوصَ لم يخلُّوا في دكانه شيئاً .

---

(١) في (أ ، ط) : (الزرب) بدل (المنارة) ، وفي (ب ، ج ، د ، ك) : (الفرد) ، وفي (ل) : (الفرز) .

(٢) **الإسقالة** : ما يربطه المهندسون من الأخشاب والحبال ليصلوا بها إلى المحال المرتفعة .

(٣) في النسخ : (يصوموا) .

وكان يقول : (أنا أكره من يُصلِّي وهو يأكلُ الحرام) رضي الله تعالىٰ عنه .

مات سنة [اثنتين][1] وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بخطٍّ بين السورين تجاه زاوية الشيخ أبي الحمائل شيخ الشناوي رحمه الله .

رأيته بعد موتِهِ ، فألبسني طاقيَّتَهُ وعمامته ، وأخذ طاقيتي فلبسها[2] ، والله تعالىٰ أعلم .

ومنهم :

(٤٦٠) الشيخُ شهابُ الدين الطويل المجذوب النَّشيلي[3]

من أولاد الشيخ خليل النَّشيلي أحدِ أصحاب سيدي أبي العباس المرسي رضي الله عنه .

صحبته من أوائل جذبه إلىٰ أن مات ، وأوَّلُ ما اجتمعتُ عليه كان أهلُهُ يعلِّقون عليه الحروز والهياكل ، يظنُّون أن الذي به جنونٌ .

وأوَّلُ ما سلَّم عليَّ قال : أهلاً بابن الشوني ، وما كنتُ قط اجتمعتُ بالشوني ، ولا سمعتُ به ، فكان الأمرُ كما قال ، فاجتمعتُ به بعد ذلك ، وحصلَ لي منه مددٌ وخير .

وكان يأتيني البيتَ ، فأقدِّمُ له خبزاً وبيضاً ، فيأكلُ البيض أولاً ، ثم يأكل الخبز حافاً .

وكان إذا راق يتكلَّمُ بكلام يُشبه كلام الأنبياء في الأدب مع الله ومع خلقه .

ورأىٰ مرَّةً وهو خارجٌ من عندنا قاضياً طالعاً للجامع ، فضربَهُ فرمىٰ عمامته وقال : رح الحمام ، فتأمَّل القاضي فإذا هو جنبٌ .

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) في (ط) : (وأخذ طاقيتي وعمامتي فلبسهما) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٣٩٦) (٣٦٨) .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخوَّاص يقول : (تولى الشيخُ شهاب من أصحاب النوبة سبع سنين ، ثم عُزل بولد البجائي) .

وكان رضي الله عنه يحبُّ دخولَ الحمام إلىٰ أن مات لا يزال فيه .

وكان يدعو خادمَهُ وهو في الصلاة ، فإن أبى الخادمُ أخرجَهُ من الصلاة غصباً .

ونزل له شخصٌ مرَّةً من فوق بغلته ، فلطمه علىٰ وجهه بالنعل وقال : يا كلب ؛ تفعلُ في عبدك الفاحشة ، فاعترف الشخص بذلك ، واستغفرَ ، وافتضح بين الناس .

وكان يقول : (أنا أعرفُ رائحةَ العاصي والطائع) .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته بمصر العتيق قريباً من شون السلطان رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦١) الشيخُ الكامل الراسخُ ، المستغرق في أكثر أوقاته الشيخ عبدُ الرحمـٰن المجذوب رضي الله عنه[١]

كان من الأولياء الأكابر .

وكان سيدي عليُّ الخواص رحمه الله يقول : (ما رأيتُ أحداً قط من أرباب الأحوال دخلَ مصرَ إلا ونقصَ حالُهُ إلا الشيخ عبد الرحمـٰن المجذوب) .

وكان مقطوعَ الذَّكَرِ ، قطعه بيده أوائل جذبه لمَّا فُتنَتْ به امرأةٌ .

وكان جالساً في خلوة مفروشة من الرمل صيفاً وشتاءً .

وكان إذا جاع أو عطش يقول : أطعموه اسقوه .

وكان يمكثُ ثلاثةَ أشهر يتكلَّم وثلاثةً يسكت ، وكان يتكلَّمُ كثيراً بالسرياني .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخَّواص رحمه الله يقول : (ما مثَّلتُ نفسي إذا جلستُ عند الشيخ عبد الرحمـٰن إلا كالقطِّ عند السَّبُع) .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٧) (٣٦٩) .

وكان يُرسل لي السلامَ ، ويُخبر خادمَهُ بوقائعي في الليل على التفصيل ، فكنتُ أتعجَّبُ من قوة اطِّلاعه .

وحصل لي مرَّةً واردٌ صار جسمي كالنار ، فنزعتُ ثيابي ، ومررتُ في حارته في الليل ، فصار يقول لخادمه من داخل الدار التي هو فيها : اذهبْ بهٰذه البردة والحقْ بها عبدَ الوهاب غطِّيه بها ، فما أخبرني الخادم إلا بعد أيام وقال : إن الشيخ قال له في ذلك الوقت ذلك الكلام ، وقال : قلتُ في نفسي : إنه مجذوبٌ ، يتكلَّم بمهما طلع علىٰ قلبه .

ومكث مقعداً نحو خمس وعشرين سنة ، أقعده الفقراءُ .

وكان يُخبرُ بوقائع الناس في سائر أقطار البلاد .

مات رضي الله عنه سنة أربع وأربعين وتسع مئة ، ودفن بزاويته قريباً من جامع الملك الظاهر بالحسينية ، وقبرُه ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦٢) الشيخُ الصالح ، المجذوب
سيدي محمد الرُّويجل العُريان رضي الله تعالىٰ عنه(١)

كان من أرباب الكشف التام .

رأيتُهُ مرَّةً من بعيدٍ بيني وبينه نحو مئةُ قصبة ، فقال لي رفيقي : يا تُرىٰ هل يحسُّ بأحدٍ إذا ضربه ؟ فلما وصلنا إليه التفتَ إلىٰ رفيقي وقال : تضربني علىٰ أيِّ شيء ؟!

وكان ينامُ في كانون الطبَّاخ وهو جمرٌ فلا يحرقه .

وأخبرني شيخنا الشيخ شهابُ الدين الرملي رحمه الله قال : أصلُ ما حصلَ لي من الخير والفتوىٰ بمصر من دعوة سيدي محمد الرُّويجل ؛ فإنه دخل عليَّ في بيتي وقتَ القائلة إلىٰ أن وقف علىٰ رأسي ، وقال : الله يفتح عليك ، ثم خرجَ .

وأخبر قبل موته عن قطع رقبته لما دخل عسكرُ ابن عثمان إلىٰ مصر ، فوقفَ علىٰ

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٨) (٣٧٠) .

شبَّاك ضريح سيدي محمد بنِ عنان ، وصار يُكلِّمُ الشيخ في الضريح ويقول : أيشٍ عملَ الرُّويجل يا سيدي حتىٰ يقطعوا رأسه ؟! ثم خرجَ من جامع باب البحر ، فقطعوا رأسه في طريق ببلاق ، ودفن في مقبرة الجزيرة .

مات رضي الله عنه في سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٦٣) الشيخُ الصالح ، سيدي حبيبُ المجذوب رضي الله عنه[١]

كان رضي الله عنه كثيرَ العطبِ للناس .

وكان سيدي عليٌّ الخواص يُحذِّرُ الناسَ من القرب منه ويقول : إنه حيَّةٌ نقطاء ، خلقه اللهُ لهلاك قوم .

وكان إذا رآه يقول : اللهم ؛ اكفنا السُّوء ؛ خوفاً أن يخطرَ في باله شيء فيؤاخذه عليه .

مات في سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالكوم خارج باب الشعرية في الحُسينية ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦٤) الشيخ الصالحُ الزاهد ، سيدي فرج المجذوب[٢]

كان له الكشفُ التام ، والكراماتُ الخارقة .

وكان طولَ نهاره يجمعُ من الناس الدراهم ، ويفرِّقها علىٰ محاويج الناس ممن لا يملكُ عشاءَ ليلةٍ من غيرِ سؤالٍ منهم ، وكثيراً ما كان يدفنُها في جدار حائط بحضرة الناس ، فيأخذها كلُّ من له فيها نصيب .

وأخبرني الشيخ جمالُ الدين ولدُ شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله قال : لقيني

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٩٩) (٣٧١) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٠) (٣٧٢) .

الشيخ فرج وفي رأسي أربعون نصفاً ، فقال : أعطني نصفاً ، فأعطيتُهُ ، فلا زال يقول لي : أعطني نصفاً ، حتىٰ بقي منها نصفٌ واحدٌ على اسم الحمام ، فتبعني للحمام وقال : أعطني النصفَ الآخر وأنا أعطيك وصولاً علىٰ شموالَ اليهوديِّ بأربعين ديناراً ، قال : فلم أعطه النصف ، فلما خرجتُ من الحمام وجلست في البيت إذا بشخص يستأذن في الدخول ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقال : شموال اليهوديُّ ، فقلتُ : ما حاجتك ؟ فقال : كنت اقترضت من والدك أربعين ديناراً ، وليس بها شاهدٌ إلا الله ، وقد تحرَّكَ عندي الخاطرُ بقضائها هـٰذا اليوم ، وعجزتُ عن دينار واحد ، وها هي ، فأعطاني تسعةً وثلاثين دينار ، فندمتُ الذي لم أكن أعطيته النصفَ الآخر .

وله وقائع كثيرة مع أهل مصر ، رضي الله عنه .

انقطع آخرَ عمره في المارستان إلىٰ أن مات ، ودفن في زاوية الشيخ بهاء الدين المجذوب بباب الشعرية ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٦٥) سيدي إبراهيمُ المجذوب الشهير بـ (ابنِ خريطتي)[١]

كأن الله تعالىٰ قد سخَّر له أهلَ الدنيا ، وكان كلُّ دراهم أعطوها له دعا المطبِّلين والمزمِّرين ، فقال لهم : دقوا الطبلَ والزمر ، ويُعطيهم كلَّ ما معه ولو عشرَ دنانير .

وسمعت سيدي عليَّ الخوَّاص يُخبر : أنه من أصحاب النوبة والتصريف بمصر .

وكان كلُّ قميص لبسه يخيطه علىٰ دائر رقبته بخيطٍ دارج ؛ فإن خَرَقَه قويّاً حصل للناس شدَّةٌ عظيمة ، وإن خرقَهُ يسيراً حصلَ للناس شدَّةٌ يسيرة ، وإن قطعَ الخياطة انفرجتْ عن الناس .

وكان سيدي عليٌّ الخوَّاص إذا شكَّ في أمر نزل بالمسلمين يقول : انظروا طوقَ الشيخ إبراهيم ، فيعرفُ ذلك الأمر من طوقه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٠) (٣٧٣) ، وفي « طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٢) : (ابن خرطتي) .

صحبته نحو سبع سنين ، وكان كلَّما رآني يتبسَّم .

مات سنةَ نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة، ودفن خارجَ باب الفتوح في زاويته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٦٦) الشيخُ الصالح أحمد المجذوب ، المشهور بـ(حبِّ رُمَّانتي)[١]

كان يلبسُ قمصَ الحرير ، لا يلبس غيرَها ، وعليه قبعٌ طويل حرير .

وكان محبوباً لكل الناس ، يراه الناسُ في أماكن مختلفةٍ في وقتٍ واحد .

وكان يستخرجُ من الناس المالَ الكثير ، فيعطيه للمحاويج ؛ من العجائز والعميان وأرباب الديون .

وكان إذا لم يُعطه أحدٌ شيئاً ، يقفُ على رأسه ، ويصيح بأعلىٰ صوته : يا مالي ومال السلطان عند هٰذا ، فإن لم يُعطه شيئاً أخذه الولاةُ ، وسلبوا نعمتَهُ .

وكان له كراماتٌ كثيرة .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بباب اللوق رحمه الله .

وصحبته نحو عشر سنين .

ومنهم :

(٤٦٧) الشيخ إبراهيم العريان[٢]

كان من أصحاب سيدي محمد الشناوي ، ثم حصل له جذبٌ ، فتعرَّى الثياب جملةً .

وكان يأتيني إلى البيت ، فيطلبُ ما يأكل وما يشرب .

وكان محبوباً للناس ، لا تكادُ تجدُ أحداً إلا وهو يحبُّهُ ويعتقده .

وكان إذا دخل حارةً أو بلداً يُسلِّم علىٰ أهلها كباراً وصغاراً ، نساءً وذكوراً بأسمائهم ، حتىٰ كأنه تربَّىٰ بينهم .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠١) (٣٧٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٢) (٣٧٥) .

وكان كلُّ جامع دخله يطلعُ يخطبُ عُرياناً ما عدا شدٍّ على رقبته فقط[١] ؛ فيخطبُ للناس ، ويذكرُ لهم الوقائعَ المستقبلة في تلك الجمعة أو الشهر ، فيقعُ الأمرُ كما قال .

وكان إذا صحا من الجذب يتكلَّمُ بكلام حلو حتىٰ لا يكاد الشخصُ يُفارقه .

وكان إذا دخل لنا البيتَ يقول لي : أيشٍ حالك يا عبد الوهاب ؟ ثم يقولُ في الحال : قلْ لي على اسمك .

وكانوا يغلقون عليه البابَ ، فيجدونه خارجه ، وكان له مكاشفاتٌ كثيرة .

مات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بالروضة ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٦٨) الشيخُ الصالحُ مُحيسن البُرُلُّسيُّ المجذوبُ[٢]

كان من أصحاب الكشف التامِّ ، وكان مُقيماً أولاً ببيلاق ، ثم انتقلَ إلى الرميلة .

وكان كثيراً ما يربط عنده العنزَ والديك في حبلٍ .

وكان يوقدُ النارَ عنده كثيراً ، فيعرفُ أصحاب الحديث من الأولياء أنه لا بدَّ من وقوع فتنةٍ ، وكان إذا صبَّ عليها الماءَ انطفأتِ الفتنةُ .

وسمعت سيدي عليَّ الخوَّاص رحمه الله يقول : (إن الشيخ مُحيسنَ معه دركُ بحر الهند بعد سيدي محمد الشربيني) .

وجلستُ عنده مرَّةً ، فجاءه فقيرٌ يُثاقله ، فقال له : قم ، فقال : ما لي ، فقال : مسكتَ امرأةَ جارك فوقَ الفرن وجئت تُثاقلني ؟! ـ كهيئة من يستفهمُ غيرَهُ الاستفهامَ الإنكاري ـ فاصفرَّ لونُ الفقير ، وقال لي : واللهِ ؛ وقعَ لي ذلك وأنا شابٌّ ، ولها سبعٌ وخمسون سنة في نواحي دمياط ، فقلتُ للفقير : تبْ إلى الله عن مُثاقلة المجاذيب ، وإلا فضحوك بين الناس ؛ فإن قلوبَ الناس عندهم مكشوفةٌ ، ويعرفون ما يخطرُ على بال المارِّ عليهم .

---

(١) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات ، والشدُّ ، وجمعه شدود : رباط ولفافة .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٢) (٣٧٦) .

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة .

وكان إذا رأىٰ صغيراً يريدُ أبوه أن يُقرئهُ القرآن يقول له : اذهبْ إلىٰ زاوية عبد الوهاب ، فيحصلُ لذلك الولدِ الخيرُ ببركة إشارته .

ومما وقع لي معه : أن الأمير جانم الحمزاوي أرسلَ يطلب خاطرَ الفقراء حين عزم على السفر إلىٰ إستنبول ، وقال : اكتبْ لي شيئاً أحمله فوقَ رأسي ، فكتبتُ له ورقةً فيها : الفقيرُ عبدُ الوهاب يقبِّلُ الأرض بين يدي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين يدي سائر الأنبياء على اختلاف طبقاتهم ، ثم بين يدي أصحاب النوبة بنواحي الروم ، ثم بين يدي مولانا السُّلطان سليمان ، ثم بين يدي الوزراء ، ويسألُهم أن يشملوا الأمير جانم بالنظر ، ويسمعوا منه أخبارَ مصرَ مفصَّلةً ؛ فإنه إن شاء الله صادقٌ فيما يخبر به ، وطويتُها ، وأرسلتُها للأمير جانم ، فوضعها في رأسه ، فبعد نحو خمس درج أرسلَ الشيخ مُحيسن قاصدَه يقول لي : أنت الذي صرتَ ترى الناسَ في عينك كالتراب ، تُكاتب أولياءَ الرومِ من غير مشورةِ أصحاب النوبة بمصر ، فنبَّهني علىٰ قلَّة أدبي ، وصرتُ بعد ذلك لا أُكاتبُ أحداً خارج درك مصر إلا بعد استئذان أولياء مصر بالقلب .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن في تربة الأمير جانم المجاورة لقبة الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٦٩) الشيخُ الصالح الكبير ، صاحبُ الكشوفات والمعارف والخوارق والأحوال الغريبة ، الشيخ أبو الخير الكُليباتي[1]

كان لا تُفارقه الكلابُ في أيِّ محلٍّ جلس حتىٰ في جامع الحاكم .

وأنكر عليه بعضُ القضاة ذلك ، فقال : هم أولىٰ بالجلوس في المسجد منك ؛ فإنهم لا يأكلون حراماً ، ولا يشهدون زوراً ، ولا يستغيبون أحداً ، ولا يدَّخرون

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٤) (٣٧٧) .

عندهم شيئاً من الدنيا ، ويأكلون الرِّممَ التي تضرُّ رائحتُها بالناس[١] .

وأخبرني سيدي علي الخواص : أنهم لم يكونوا كلاباً حقيقة ، وإنما كانوا جناً سخَّرهم الله تعالىٰ له يقضون حوائجَ الناس .

فكان كلُّ من راحَ له بغلةٌ أو بقرة أو جاريةٌ أو غيرُ ذلك وحمَّلَ الشيخَ الحملةَ يقول : اشترِ لهٰذا الكلب رطلَ لحمٍ أو شوربة أو شواء وهو يدلُّكَ علىٰ ضائعك ، فإذا أكلَ ذلك ذهبَ وصاحبُ الحاجة وراءه حتىٰ يقفَ على المكان الذي فيه الضائعُ ، فيجده .

وكان لم يزل يحطُّ علىٰ نفسه ، وربما جلس في بيت الخلاء من ميضأة جامع الحاكم الأيام المتتابعة ، لا يرفعُ رأسَه من الملاقي ، ويقول لنفسه : تستأهلي يا خبيثة .

وأخبرني الشيخُ محمد الغزاوي : أن امرأته اشتهتْ مامونيةَ حموي ، وما رأىٰ زوجُها في مصرَ شيئاً ذلك الوقت ، قال : فأتيتُ الشيخ أبا الخير ، فأخبرتُهُ بذلك ، فقال : ائتني بصحنٍ ، فأتاه به ، فولاه ظهرَهُ ، وشمَّرَ وتغوَّطَ له مامونية سخنة بعسل نحل ، قال : فأكلنا منه ، وأطعمنا الجيرانَ ، واستحلفتُهُ علىٰ ذلك ، فحلف أنَّ ذلك حقٌّ[٢] .

وأنكر عليه شخصٌ من الجامع الأزهر إدخالَهُ الكلاب في الجامع ، فقال : رح وإلا جرَّسوك علىٰ ثورٍ ، فشهدَ ذلك النهار زوراً ، فجرَّسوه دائرَ مصر علىٰ ثور كما قال .

وكانت صفةُ الشيخ : أنه رجلٌ قصير ، يعرجُ بإحدىٰ رجليه ، وله عصاً فيها حلقٌ وشخاشيخ .

صحبته أولَ دخولي مصرَ سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة .

فمات بعد سنةٍ[٣] ، ودفن في الدير الذي كان يجلسُ فيه قريباً من زيادة جامع

---

(١) **الرِّمم جمع الرِّمَّة** : وهي العظام البالية .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٣) قال الغزي في « الكواكب السائرة » (١/ ١٢٠) بعد ما ذكر أن الحمصي قال في « تاريخه » : بأنه توفي سنة (٩٠٩هـ) ، وأن الشعراني قال : إنه توفي سنة (٩١٢هـ) : (وكان الحمصي يومئذٍ بمصر ، وما قاله أصح ؛ لأنه يتقيد بالوقائع والحوادث يوماً يوماً ، وأكثر ما أرخه الشعراوي رحمه الله في « طبقاته » تقريب) أقول : وقد أرَّخ الشعراني وفاته في « طبقاته الكبرىٰ » سنة (٩١٩ هـ) .

الحاكم ، وبنوا عليه زاويةً ، وأقيمتْ بها الشعائر رحمه الله .

وله مكاشفاتٌ غريبة مع أركان الدولة .

دعا لي رحمه الله بدعواتٍ منها : الله يصبِّرك علىٰ ما ابتلاك ، فالحمدُ لله رب العالمين .

ومنهم :

(٤٧٠) الشيخُ الصالح ، المجذوب الصاحي سيدي سعود رضي الله عنه[١]

كان مُقيماً بسويقة العزي بالقرب من مدرسة السلطان حسن .

اجتمعتُ به وصحبتُهُ من أول جذبه إلىٰ أن مات .

وكان ملازمَهُ في أولِ جذبه كلبٌ أصفر كبير يُقارب السَّبُعَ العظيم ، فكان لم يزل واقفاً عند كتفه .

وكان من أهل الكشف الكامل ، وأرسل لي السلامَ مرات ، وجاءني مرات .

وكان يُخبر عن وقائع أقاليم الأرض كلِّها ويقول : مات اليوم فلان ، وتولَّى اليومَ فلان ، عُزِلَ اليوم فلان ، فيأتي الأمرُ كما قال .

مات رضي الله عنه سنة إحدىٰ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بالزاوية التي بناها له الباشا سليمان رحمه الله ، وجعل له قبةً خضراء ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٧١) الشيخُ الصالح ، صاحبُ الكرامات والخوارق والمكاشفات الكثيرة الشيخُ سويدان[٢]

أقام مدةً طويلة بالخانقاه السرياقوسية ، وبنوا له هناك زاويةً خارج الخانقاه مما يلي مصر ، ثم انتقلَ أيام السُّلطان الغوري ، ثم انتقل إلى المدرسة الزمنية برصيف بولاق

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤٠٦) (٣٧٩) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤٠٦) (٣٨٠) .

عمارة الخواجا ابن الزمن ، ولازمته فيها ملازمةً كبيرة بالأيام والليالي .

وكان كثيرَ التحمُّل لحملات الناس وهمومهم من أركان الدولة وغيرهم .

وكان كلُّ من حمَّله حملةً يحطُّ في فمه حِمِّصةً يتذكَّر بها حملته ، فربما امتلأ فمُهُ حبَّاتِ حمص ، ويمكثُ في فمه نحو الشهر حتىٰ يقضي تلك الحوائج .

وكانوا يرونه بمكَّةَ تارةً وبمصر أخرىٰ .

وأخبر بموت أمِّهِ يوم ماتت بمصر وهو بمكَّةَ ، ودخل زمزم بكفنِها ، فغسله منها ، ورماه لهم في مصر مبلولاً وهم يغسِّلونها ، وما عرف الناسُ مَنْ رماه حتىٰ جاء الخادمُ من مكة ، وأخبر الناس بذلك .

وكان مكشوفَ الرأس على الدوام ، وله شعرٌ طويل ملبَّدٌ قروناً قروناً من قلَّةِ التسريح ، وكان كثَّ اللحية ، ضربه الشيبُ .

وكان له علىٰ خوند امرأةِ سلطان مصر جوخةٌ حمراء كلَّ سنة ، فيخلعُ العتيقة ، فيأخذها النقباءُ ، ويُلبسونه الجديدة .

وكان أكثرُ كلامه إشاراتٍ لا يفهمها عنه إلا الفقراء الصادقون .

وكانوا يدخلون عليه ، تارةً يجدونه سَبُعاً ، وتارةً فيلاً ، وتارة أميراً ، وتارةً فقيراً ، فكان كثيرَ التطور ، رضي الله عنه .

مات سنة تسعَ عشرة وتسع مئة ، ودفن بزاويته بالخانقاه السرياقوسية ، وقبره خارجُ البلد ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٧٢) الشيخ الصالح المجذوب أحمد البجائي[١]

جُذب رحمه الله وهو يقرأُ في علم النحو ، فكانَ دائماً تجدُهُ يُعرب الكلام .

وكان اللهُ قد أطلعَهُ علىٰ معاصي العباد ، فكان كلُّ من لقيه من العصاة يبصقُ علىٰ وجهه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/٣٢٦) (النجائي) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/٣٢٧) (البخاتي) .

وأُعطي دركَ بحر الهند .

وكان كلما مرَّ علىٰ سيدي علي الخواص يقول : (سبحان المعطي بفيضهِ على الحال الذي هو فيه) .

ومكاشفاتُهُ كثيرة .

مات سنة خمسٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن بسويقة اللبن في زاوية والد الشيخ أفضل الدين الأحمدي ، وقبرُه بها ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٧٣) الشيخُ المجذوبُ محمد بنُ القاضي رضي الله عنه[١]

الذي كان يجلسُ علىٰ دكان باب القنطرة عرياناً ، مكشوفَ الرأس .

كان الغالبُ عليه الصمتَ .

صحبته حالَ صحوه وحالَ جذبه ، وأعطاني جزءاً من كتاب « الإحياء » أوائلَ جذبه .

وكان كثيرَ الكرامات .

مات رحمه الله سنة تسعٍ وأربعين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٧٤) الشيخُ الكامل ، ذو الأحوال العظيمة ، والمكاشفات الغريبة مع الحال المستور الشيخ بركات الخياط[٢]

الذي كان مقيماً بالدَّربِ الأحمر ، خارجَ باب زُويلة .

كان أُستاذاً في تفصيل الثياب للأكابر ، يقصدونه من سائر الحارات .

وكان عليه جبَّةٌ كأنها جُبَّةُ سمَّاك .

وكان يقول لمن طلبَ أن يخيطَ له : (هات لي فوطةً أضعها علىٰ ركبتي ، حتىٰ أخيط لك ؛ خوفاً أن تتسخ ثياب الناس منه) .

---

(١) انظر استئناساً من هذا الجزء (٣٥٩) (٥٠٤) .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٠٧) (٣٨١) .

وكان كلُّ كلبٍ أو حمارٍ أو قطٍّ رآه ميتاً يحملُهُ ويضعُهُ عنده في الدكان ، فكان لا يستطيعُ أحدٌ أن يجلسَ عنده من تلك الرائحة .

وكان فقراء مصر يحمِّلونه حملاتهم حتىٰ سيدي علي المرصفي رأيتُهُ مرة حمَّله حملةَ ابن كاتب غريب لمَّا كتبوا اسمَه مع المتوجِّهين إلىٰ إستنبول لمَّا دخلَ ابنُ عثمان سليم مصر ، فقال سيدي علي : أنا ما لي تصريفٌ ، ثم أخذ حجراً وجه الصبح ووضعَهُ علىٰ دكان الشيخ بركات ، فأول ما جاءَ الشيخُ عرفَ الحملة ومَنْ جاء بالحجر ، فقال : الاسم لطوبىٰ والفعائل لأمشير[1] ، يأكلون هدايا الناس ، ويجعلونهم من مريديهم ، وإذا لحقهم بلاءٌ يجيؤوا لبركات ، أيش أكل بركات حتىٰ يحملَ ؟! فقال له أخي أفضلُ الدين : هـٰذا رجلٌ عظيم ، وأذلَّ نفسه وجاءَ لكم ، فلا تخيِّبوا ظنَّ مريده فيه ، فقال : باسم الله ، فنسيه جماعةُ السلطان من ذلك اليوم ، ولم يطلبوه للسفر ، مع أنه مكتوبٌ عندهم في أسماء من ينفونه من مصر ، رضي الله عنه .

وأخبرني الشيخُ عبد الواحد أحدُ أصحاب سيدي أبي السعود الجارحي قال : أثنيتُ على الشيخ بركات بحضرة الشيخ جمال الدين الصاني المُفتي بجامع الأزهر ، فقال : لا بدَّ أنك تجمعني عليه أزوره ، وكان يومَ جمعة ، فجمعتَهُ عليه ، فمكثَ حتىٰ أُذِّنَ بالجمعة ، فما وجد علىٰ بال الشيخ صلاة ، فقال : يا سيدي ؛ أما تخرجوا لصلاة الجمعة ؟ فقال الشيخ بركات : ما لي عادةٌ بذلك ، ولـٰكن لأجلِكم أُصلِّي هـٰذا اليوم ، فقال له الشيخ جمال الدين : أنتم متوضئون ؟ فقال : عمري ما توضَّأتُ ، فعلِّمني ، فأتوا بالماء ، وصار الشيخُ جمال الدين يُعلِّمه حتىٰ فرغ ، ثم خرجوا لجامع المارداني يُصلون الجمعة ، فوجد الشيخُ شخاخَ حمارٍ ، فأزاحه بيده عن الطريق ، فقال الشيخ جمال الدين : اغسلوا يدكم ، فأدخلها في قعوةٍ من قعاوي الكلاب ، فأنكر عليه الشيخُ جمال الدين ، وسبَّ الشيخ عبدَ الواحد الذي أتىٰ به إلىٰ مثلِ هـٰذا ، وصار الشيخُ بركات يسبُّ عبدَ الواحد ويقول : أنت ما وجدتَ إلا هـٰذا المنكر تأتي به إليَّ ، ثم قال : ما تركتُ صلاةَ الجمعة قطُّ ، وإنما وَرَّيتُ له في الكلام ، وشخاخ الحمار الذي

---

(١) طوبىٰ : شهر قبطي يوافق شهر كانون الثاني (يناير) ، وأمشير : شهر قبطي أيضاً يوافق شهر شباط (فبراير) .

رآه هو صورةُ اعتقاده ، وقعاوي الكلاب هي مشربُهُ . انتهىٰ .

فما كان غالبُ الناس يقدرُ علىٰ صحبته .

ووقع لي معه : أنني زرتُهُ بعد موته ، فأخرج لي الخادمُ طعاماً فيه أعضاءُ آدميٍّ وذراعه ورجلاه ، فنفرتْ نفسي من أكله ، فقال لي : الشيخُ يُباسطك ، فصار النقيبُ يأكلُ من ذلك الآدميِّ ويقول : هـٰذا لحمٌ ضاني ، وأنا أرىٰ مشطَ رِجلِ الطِّفلِ وأصابعَهُ وذراعَهُ ويديه ، فقلتُ ذلك لأخي أفضل الدين ، فقال : هـٰكذا كانَ حالُهُ في حال حياته ، كنَّا نأكلُ معه مرَّةً طيورَ حمام ، فيقلبُها في الحال سمكاً ، ثم قلبها دجاجاً ونحن نرىٰ ، وربما ذبحَ خروفاً ، فوضعوه في الدست فصار كلباً ، فيأكلُهُ وحده ، ولا يُطعمُ أحداً منه شيئاً .

وأخبرني أخي أفضل الدين قال : بينما نحن مع الشيخ بركات خارجَ باب زويلة وإذا بتاجرٍ مغربي من تجار جامع طولون راكباً بغلةً ، ومعه عبدٌ حبشي ، وإذا بالشيخ بركات مسكَهُ من طوقه وقال : أنا وإياك بيت الوالي يا حرامي ، سرقتَ لي عشرةَ آلاف دينار ، فما قدرَ أحدٌ يُطلقه منه ، حتىٰ دخل به للوالي ، فادَّعىٰ عليه بالعشرة آلاف دينار وقال : عاقبه ، وإن مات عليَّ ديتُهُ ، فجرَّدَ الوالي ذلك المغربيَّ من ثيابه ، وضربه مقارع وكسارات حتىٰ كاد يهلك والمغربيُّ يقول : يحلُّ لك من الله ؟ فيقول الشيخ : نعم ، فلما عصروا رأس المغربي ، جاء الشيخُ ونظرَ في وجه المغربي وقال للوالي : يا سيدي ؛ أنا غلطتُ في المغربيِّ ، ما هو الذي سرقَ فلوسي ، وذلك بعد أن علمَ الشيخُ أن العقوبةَ قد أخذت حدَّها ، فضربَ الوالي الشيخَ بالخيزران علىٰ رأسه ، فخرج الشيخُ ، فنام علىٰ عتبة باب الوالي وقال : واللهِ ؛ ما أقومُ إلا إنْ عُزل الوالي ، فأرسلَ السُّلطانُ ، فعزله في الساعة ، فقال له سيدي أفضلُ الدين : أيشٍ هـٰذا الحال ؟ فقال : إنَّ هـٰذا المغربي ادَّعىٰ علىٰ شخص باطلاً أنه أخذَ مالَهُ ، فعاقبه الوالي ظُلماً ، فأخذتُ له حقَّهُ ، وأما الوالي فإنَّ الغالبَ عليه أن يحكمَ وهو سكران ، فلا يصلحُ للولاية . انتهىٰ .

وكان يتعمَّمُ بالشدود المخطَّطة بالأزرق ؛ كعمامة النصراني ، فيقولُ الناس له : حاشاك يا معلم .

وأخبر بدخول ابن عثمان وأخذه مصر في الوقت الذي دخلَ لها فيه ، وهو آخرُ يومِ

من سنة [اثنتين] وعشرين وتسع مئة[١] ، فكان الأمر كما قال .

وكان له كلامٌ عالٍ في الطريق ، لا يفهمه غالبُ فقراء مصر .

وحلفَ لي سيدي أفضلُ الدين : أن مشايخَ مصر لا يصلحون أن يكونوا مُريدين له ؛ لأن شرطَ المريدِ أن يفهمَ كلامَ شيخه .

وكان يعدُّ نهايات مشايخ زمانه بداياتٍ للطريق .

مات ثالث شهر من دخول ابن عثمان مصر سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ، ودفن بالزاوية التي عمَّرها له الشيخُ رمضان تلميذُهُ ، ودُفن معه عدَّةُ أشياخ ؛ منهم : سيدي عليٌّ الخواص ، والشيخ ناصرُ الدين النحاس ، والشيخ عبد القادر الظاهري ، والشيخ عبد الرحمٰن المجذوب ، وغيرُهم رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٤٧٥) الشيخ الصالحُ المجذوب الصاحي سيدي خال رضي الله عنه[٢]

كان مُقيماً في القلعة ، ثم لمَّا قربتْ دولةُ ابن عثمان قال للغوري : هات مفاتيح القلعة ، ثم نزل مصر فأقام بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٧٦) سيدي إبراهيم أبو لحاف[٣]

كان رحمه الله من أوسع الناس خُلقاً ، لا يكاد أحدٌ يُغضبه أبداً .

وكان أول جذبِهِ مُقيماً في البرج الأحمر من قلعة الجبل نحو عشرين سنة ، فلما قربَ زوالُ دولة الجراكسة أرسل يقول للغوري : تحوَّلْ من القلعة ، وأعط مفاتيحَها

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

(٢) انظر « طبقات المناوي الكبرىٰ » (٣/ ٣١٩) ، و« الصغرىٰ » (ص ٢٧٥) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ٨٥) .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٤) (٣٩٩) .

لأصحابها ، فلم يُلقِ الغوريُّ إلىٰ كلامه بالاً وقال : هـٰذا : مجذوبٌ ، فنزل الشيخُ إلىٰ مصر ، فزالتْ دولة الجراكسة بعد سنةٍ .

وكان يقيم عندنا في الزاوية الشهرَ وأكثر ، ولا ينامُ في الليل أبداً ، بل يجلسُ يُهمهمُ بالذكر إلى الفجر صيفاً وشتاءً ، وأوقات يقول : (الله الله) من العشاء إلى الفجر .

وكان حافياً مكشوفَ الرأس ، وأكثرُ إقامته في بيوت الأكابر .

وكان من تسبيحه أن يقول : سبحانَ مَنْ خلقَ الخلقَ احتياط علم خبر فقط .

وكان رضي الله عنه ينظرُ ما ينزل من البلايا على الإنسان في المستقبل ، فيأتي إلىٰ ذلك الشخص ويقول : نازلٌ عليك كذا في الوقت الفلاني ، هاتِ عشرةَ ذهب ، وإلا نزل عليك ، فإنْ أعطاه تحوَّل البلاء .

وكثيراً ما كان يأخذُ العبدَ من الإنسان إذا لم يجد عنده غيره ، فيُعطي العبدَ للطباخ ، ويصيرُ يستجرُّ به طبيخاً إلىٰ أن يفرغ ثمنه .

وكان يضبطُ على الإنسان القولَ لا ينساه ، وإن أعطاه شيئاً يجيء إليه في مثل ذلك الوقت من السنة الآتية ، ويقول : أنتَ كنتَ أعطيتني في السنة الماضية كذا وكذا ، فهاته .

مات رضي الله عنه سنةَ أربعين وتسع مئة ، ودفن بقنطرة السدِّ في طريق مصر العتيق في الشبَّاك المجاور للسبيل العالي ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٧٧) الشيخُ الصالح ، ذو المكاشفات والأحوال سيدي محمد بنُ زرعة[1]

أحدُ أصحاب سيدي حسين أبو علي ، وسيدي إبراهيم المتبولي .

كان رضي الله عنه مُزمناً ، أقعدَهُ الفقراءُ في قنطرة قُديدار ، وكان لم يزل جالساً في الشباك الذي دُفن الآن فيه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٥) (٤٠٠) .

وكان يتكلمُ ثلاثة أيام ويسكتُ ثلاثة أيام ، وكان يتكلَّمُ علىٰ ما يخطرُ للإنسان في نفسه .

زرته مرات ، ودعا لي بدعواتٍ ؛ منها : (اللهم ؛ اجعلْ هـٰذا الولد من حزب محمد صلى الله عليه وسلم) .

وسمعتُ بعضَ الفقراء الصادقين يقول : كان الشيخُ عبدُ القادر الدَّشْطُوطي من سعاة سيدي محمد بن زرعة ، فكان يطوفُ قدَّام روحه إذا جالت في الأرض .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن ببيته قريباً من القنطرة المذكورة .

ومنهم :

(٤٧٨) الشيخ الصالح ، المجذوبُ الصاحي ، سيدي وحيش[١]

أقام بمصرَ أيام السلطان الغوري ، ثم انتقل إلى المحلة الكبرىٰ ، فأقام بها مدَّةً ، ثم رجع إلى النحرارية ، فأقام بها حتىٰ مات .

واجتمعتُ به في مصر مرَّاتٍ ، وكان له كشفٌ عظيم .

وأخبرني سيدي محمدُ بنُ عنان رحمه الله : أن الشيخ وحيش كان لابساً للثياب دائماً ، وإنما الناسُ كانوا يرونه عُرياناً ؛ لأن بدنَهُ تَجوهَرَ حتىٰ صار كالمرآة .

وكان جالساً عنده الشيخ العلامةُ الشيخُ شهاب الدين المسيري المُفتي بجامع الأزهر ، فقال : يا سيدي ؛ هـٰذا أمرٌ يُخالف الحسَّ ، فقال : أنا وضعتُهُ في رسالتي ، فقال : إروها لي ، فضربَ الشيخ شهاب الدين علىٰ ذلك ، فهو إلى الآن مضروبٌ عليه في النسخة التي بخطِّ الشيخ يوسف الحُرَيْثي .

وكان الشيخ محمد ذكرَ أنَّ من شأن المجاذيب أنك ترىٰ أحدَهم ماشياً وهو راكب ، وتراه يأكلُ في رمضان وهو صائم لم يُفطر .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٦) (٤٠١) .

فأخبرني الشيخ محمدُ الطنيخي : أنَّ الشيخ وحيش مرَّ علىٰ بنات الخطا في المحلة ، فقال لهم : اخرجوا ؛ فإن الخانَ رايح يطبق عليكم ، فقالت بنات الخطا : لا يبشرك بخير يا شيخ وحيش ، فسمعتْ منه واحدةٌ ، فخرجتْ ، فسَلِمتْ ، وتطبَّقَ على الباقيات ؛ وهو موضعُ جامع التوبة الآن بالمحلة الذي عمَّره سيدي أبو العباس الغمري رضي الله عنه .

وأخبرني أيضاً أنه طلع ناحية نمرة ، فوجد شخصاً يبيع فاكهةً في ظلِّ المئذنة ، فقال : قوموا وإلا وقعتْ عليكم رأسُ المئذنة ، فلم يسمعوا ، فوقعت عليهم في الحال ، فمات منهم جماعةٌ ، وهي إلى الآن بلا رأس .

وكان يجلسُ علىٰ باب الخان ويقول لكلِّ مَنْ خرج من عند بنات الخطا : قفْ حتىٰ أشفعَ فيك ، وإلا مسكك الوالي ، فمن لم يُطعه يمسكه الوالي ذلك اليوم .

وله أحوال غريبة ، مات بالنحرارية سنة سبع عشرة وتسع مئة ، وقبرهُ هناك ظاهرٌ يُزار .

ومنهم :

(٤٧٩) الشيخُ بركات المجذوبُ[١]

كان يقيم في الأخلية ، وكان أكثرُ إقامته في ميضأة الكاملية وميضأة الحجازية .

وكان يُري الناسَ أموراً لا حقيقةَ لها .

وسلَّ عليه شخصٌ سيفاً وقال : كيف أنت شيخ وتأكلُ حشيشة ؟! فقال : هـٰذا ما هو حشيشة ، وأعطاه للجندي ، فوجدها مامونية سخنة .

وله كرامات كثيرة .

صحبته نحو سبع سنين حتىٰ مات سنة خمسَ عشرةَ وتسع مئة .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٦٧) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٦٦) .

ومنهم :

(٤٨٠) الشيخُ الصالح ، المجذوبُ الشريف ، هاشم[١]

المُقيم في المارستان ، وحاصله قدَّام باب المجانين .

وكان له كشفٌ عظيم ، ويؤاخذ الناسَ بما يخطر في سرائرهم ويضربُهم .

وكان أصحابُ النوبة بمصر يجلُّونه ويعظِّمونه .

وكان يحلقُ رأسَه ولحيته وحواجبه ، ويدَّهِنُ بالسمن أو الشيرج ، وعلىٰ رأسه قبعٌ من غير عمامة .

ويأكل في رمضان جهاراً ويقول : أنا معتوق ، وكان كلُّ مَنْ أنكر عليه يعطبه[٢] .

وله وقائعُ غريبةٌ ومكاشفاتٌ عجيبة مع الأكابر وغيرهم .

ولمَّا طُعن سيدي علي الخواص من أصحاب النوبة وكانوا أعجاماً . . كان يقول : لولا الشريفُ هاشم قُتلت .

مات رضي الله عنه ببلده أتليدم بالصعيد ، ودفن بها سنة ثمان وأربعين وتسع مئة .

ومنهم :

(٤٨١) الشيخُ الصالح ، سيدي علي الدَّمِيري المجذوب رضي الله عنه[٣]

كان مُقيماً في دكَّان العجمي الذي يعملُ الرقاق ، وكان جالساً ليلاً ونهاراً مدَّةَ ثلاثين سنة .

وكان لا يتكلَّمُ إلا نادراً كلماتٍ خفيفات .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٧) (٤٠٢) .

(٢) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٣) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤٢٨) (٤٠٣) .

وكان مكشوفَ الرأس ملفوفاً في بُردةٍ ، فكان كلُّ من رآه يعتقدُ أنه أعجمي .

وذكروا أنه كان لا يدخلُ الخلاءَ إلا كل نحو ثلاثة أشهر مرةً .

وكنتُ كلما أَمرُّ عليه يتبسمُ لي .

مات رضي الله عنه سنة أربع وعشرين وتسع مئة ، ودفن في المسجد المقابل لبابِ ابن خاص بك بخطٍّ بين القصرين ، وقبرهُ ظاهرٌ يُزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٨٢) الشيخ الصالحُ ، الشيخ ناصر الدين النحاس رضي الله عنه[١]

كان صانعاً عند الشيخ أبي النجا النحاس يأكلُ من عمل يده ، ومهما فضلَ عن نفقته تصدَّق به .

فسافر الشيخ أبو النجا لإستنبول يطلبُ له جوالي[٢] ، فخرج الشيخُ ناصر الدين من عنده وهجرَهُ إلىٰ أن مات .

صحبته نحو خمسَ عشرَة سنة حتىٰ مات .

وكان يذهب كلَّ يوم إلى المذبح ، فيأتي بالشغت[٣] والطحالات وغير ذلك يُطعمه للقطط والحدادي[٤] ، فيحملُ القفَّة علىٰ رأسه ، وهي تخرُّ عليه الدمَ والفرثَ ، ثم يذهب فيغتسل ويلبس ثيابه للصلاة .

وحجَّ مرَّةً على التجريد من غير مالٍ ولا زاد ، ولا قبولِ شيءٍ من أحد ، فطوىٰ من مصرَ إلىٰ مكة ، فمرض هناك ، فذهب إليه سيدي علي الخواص ليلاً بقشطة ودبس

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٤٩٨) (٤٠٩) .

(٢) **الجوالي** : الجزية ، وكانت تصرف أجوراً للعلماء والمدرسين . « معجم الألفاظ التاريخية » (ص ٥٦) .

(٣) **الشغت** : هي بقايا اللحم التي لا تُؤكل ، وفي دمشق يسمونها الشخت .

(٤) **الحدادي** : مفرد حُديَّا ، وأصله الحدأة مفرد الحِدأ : وهو طائر يصيد الجرذان .

ورغيفين من مصر ، فأطعمَهُ ومسحَ عليه ، فطاب ، فلما جاء إلىٰ مصر أخبرَ الناسَ بذلك ، فقال سيدي علي الخواص : (الإنسان إذا ضعف خَرِفَ) .

وأخبر الشيخُ ناصر الدين بيوم ماتَ أخي أفضلُ الدين ببدر وقال : مات أفضلُ الدين اليوم ، ودفنَّاه ببدر ، فجاءتْ كتبُ الحاج بذلك كما قال .

ووقع لنا معه عدَّةُ كرامات ، فتركنا ذكرها ؛ لكونه كان يكرَهُ الشهرة .

مات رحمه الله سنة خمسٍ وأربعين وتسع مئة ، ودفن عند سيدي علي الخواص خارجَ باب الفتوح .

ومنهم :

(٤٨٣) الشيخ الصالحُ ، المجذوبُ الصاحي ، شعبان رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صاحبُ تصريفٍ عظيم بمصر المحروسة إلىٰ أن مات ، وكانت مكاشفاتُه غريبةً .

وكان يلبس الزُّنوطَ الحُمْر[٢] ، يفردها ويجعلُ قطعةً علىٰ قُبُله وقطعةً علىٰ دُبُره .

وكان يرىٰ حلالَ الدُّنيا حساباً .

وكان يفتح كحالاً في البيمارستان بين الكحالين ، وبين يديه كومُ جير وقصرمل[٣] ، ومِرْود قدر وتد الثور ، ويقول : هـٰذا يقطعُ عروقَ السبل[٤] والجرب من العين ، فمن أطاعَهُ وكحَّله زال ما كان في عينه ، ومن أبىٰ خسر وقطعوا عينه بالفولاذ .

وكان يعرفُ جميع ما يُحدثُهُ اللهُ تعالىٰ في السنة من رؤية هلالِها .

وكان سيدي علي الخواص إذا شكَّ في أمرٍ يحدثُ في تلك السنة ، أرسل إليه يستفهمُ منه .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥١٣) (٤١٩) .

(٢) **الزُّنُوط** جمع زنط : وهي الطربوش في مصر .

(٣) **القصرمل** : هو الخلطة الناتجة عن مزج الرماد مع الفخار المطحون والجير .

(٤) **السَّبَل** : داء يُصيب العين ، قيل : غشاوة كأنها نسج العنكبوت من انتفاخ عروقها الظاهرة في سطح الملتحمة . « متن اللغة » (٣/ ٩٩) .

وقالوا مرةً لسيدي علي الخواص أول يومٍ في السنة : إنه لبسَ جلدَ بقر ، فقال الشيخُ عليٌّ : هـٰذه سنة يموت فيها البهائم ، فكان الأمرُ كذلك ، ومرَّةً لبس جلدَ عنز ، فمات المَعِيزُ تلك السنة ، ومرَّةً جلدَ غنمٍ ، فماتت الغنمُ ، ومرَّةً لبس شبكة جمال من الليف ، فانفتح على الجمال سخرةُ السويس ، ومرَّةً أوقدَ النار ، فقال الشيخُ عليٌّ : لا بدَّ من فتنةٍ تقعُ في مصر ، فوقعتْ فتنةُ أحمد باشاه[1] .

وكان يطَّلعُ علىٰ ما في ضمائر الخلق .

وجاءتني امرأةٌ مرَّةً باتتْ عندي ، وما أعرف حاجتها ، فأرسل الشيخُ يقول لي مع النقيب : لا تُفرِّق بين رأسين في الحلال ، فما عرفتُ معنىٰ ذلك ، فلما طلعَ النهارُ قالت لي تلك المرأةُ : لي بنت وكتب شخص كتابه عليها ، وله مدَّةُ ثلاث سنين غائبٌ ، ومقصودي أن تُرسلوا أحداً معي إلى القاضي يفسخ عليه ، فإنَّ مصالحها ضاعتْ ، فتذكَّرتُ قولَ الشيخ : (لا تفرق بين رأسين في الحلال) ، فقلتُ لها : إنَّ بعض الفقراء يقول لكِ : اصبري ؛ فإن زوجَها يأتي عن قريبٍ ، فسافرتِ المرأةُ إلى البلاد ، فبعد شهرٍ حضر زوجُ البنت ، فانظر يا أخي اطِّلاعَهُ علىٰ ما في ضمير المرأة التي باتت عندي .

وكان أهلُ مصر كلُّهم مطبقين على الاعتقاد فيه .

صحبته نحو خمسٍ وثلاثين سنة .

وأرسل لي السلامَ مع النقيب مرَّات ، وقالَ مرَّةً للنقيب : ما في فقراء مصر كلِّها أكثرُ تعبُّداً من عبد الوهاب ، هـٰذا ساكن علىٰ بركةِ الدم من حملات الناس .

ومصداق ذلك : أن الماء الذي تحت بيتنا في الخليج يصير من حملات الناس كلَّ سنة كماء المصبغة الأحمر ، حتىٰ يعتقد الناسُ أنه خارجٌ من المصبغة ، ويتكابرون في ذلك ، مع أن الخليجَ فيه أماكنُ كثيرةٌ فيها الماء لا يحمرُّ أبداً .

---

(١) **فتنة أحمد باشا** : كان من خواص مماليك السلطان سليم ، تقلَّد نيابة مصر ، وأظهر الطغيان والتجبُّر ، وصادر الأموال ، وقتل الأمراء ، وأظهر أعمال التعذيب ، حصل بينه وبين العثمانيين مقتلة عظيمة ، وحاصروه في القلعة حتىٰ قتلوه سنة (٩٣٠هـ) . انظر « الكواكب السائرة » (١/١٥٦) ، و« الخطط التوفيقية » (١٤/٧٦) .

وسألتُ أهلَ بين السورين عن احمرارِ هـٰذا الماء : هل كان يحمرُّ قَبل سكننا هناك أم ذلك خاصٌّ بمدَّةِ أيامنا ؟ فقالوا كلُّهم : هـٰذا خاصٌّ بأيامكم .

مات رضي الله عنه رابع شهر شعبان سنة سبع وخمسين وتسع مئة ، ودفن بزاويته في درب الإبزاريين ، بالقرب من سويقة اللبن .

وكانت جنازتُهُ حافلةً ، وغَفَّروها بجند السلطان[1] ؛ خوفاً أنَّ الناسَ يتقاتلون علىٰ دفنهم له ، فكلٌّ جماعة يقولون : ندفنه في حارتنا تبرُّكاً به ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٨٤) الشيخُ الصالح عبدُ العال المجذوب[2]

كان له كراماتٌ ومكاشفات .

وكان عرياناً مكشوفَ الرأس ما عدا ملاءة يسترُ بها عورتَهُ ، ومسواكُهُ مربوطٌ فيها ، والإبريقُ معه دائماً للوضوء والشرب .

وكان الخلقُ كلهم مكبين على الاعتقاد فيه .

ولما دنتْ وفاتُهُ جاءني إلى الزاوية وقال : الفقراء يُريدون أن يموتوا في قليوب ، فبعدَ جمعة جاءنا الخبرُ بأنه ماتَ في ناحية قليوب ، وعملوا له هناك ضريحاً ، وقبرُهُ يُزار قريباً من القنطرة .

وكان مُحافظاً على الوضوء والصلاة مع الجذب ، وكانتْ صلاتُهُ بخشوع وخضوع ، حتىٰ كأنَّه جذعُ نخلة .

وكانوا يرونه كثيراً في عرفة أيامَ الموسم .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة ، والله تعالىٰ أعلم .

---

(١) **غَفَّروها** : أي : حرسوها .

(٢) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥١٧) (٤٢٢) .

ومنهم :

(٤٨٥) الشيخ الصالح عامرُ المجذوب البيجوري[١]

كان أكثر إقامته في مدينة منف ، وفي سِرْس الليانة[٢] .

وكان علىٰ رأسه عمامةٌ من هُدَّاب القماش ، لا يكادُ الرجلُ الشديد يحملها من الأرض إلا بعسرٍ ، فكان يلبسُها ويدورُ بها البلاد ، وأوقاتاً يأخذُ حجراً كبيراً يربطه بحبال ، ويقفُ فوق الكومَ يحرِّكُهُ يميناً وشمالاً ، ويخاطبُ الفقراء في أقاليم الأرض .

وأخبرني الشيخُ أحمد السطيحة : أنه لما سافرَ الصعيد وعارضه فقراء الصعيد بالحال ، فتوجَّه إلىٰ أشياخ مصر ، فما أجابَهُ أحدٌ غير الشيخ عامر هـٰذا .

وكان لا يأكلُ إلا إن وضع أحدٌ له طعاماً ، فإنْ لم يضع أحدٌ له طعاماً لا يأكل ولو مكثَ شهراً .

صحبته سنين عديدة .

وكان له خلوةٌ مملوءةٌ شراميط ، فدخلَ رجلٌ يقلي الزَّلابية ، يأخذُ من شراميطه شيئاً ، فوجدَها كلَّها ثعابين ، رضي الله عنه .

مات في بلده البيجور سنة ستٍّ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بها رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٤٨٦) الشيخُ الصالح ، المجذوبُ مروان رضي الله عنه[٣]

كان رحمه الله قاطعَ طريقٍ من بلاد الشرقية ، وكان مشهوراً بالفروسية ، فلما جُذب دخلَ مصر ، فكان طولَ نهاره دائراً في الأسواق ؛ كمرجوش والوراقين ، وباب

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥١٨) (٤٢٤) .

(٢) سِرْس : قرية من أعمال المنوفية ، ويقال لها : سِرْس القثاء ؛ لشهرتها بزراعة القثاء ، وسِرْس الليانة ؛ باسم ترعة قديمة بها . « قاموس رمزي » (٢/٢/٢١٨) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٢/٢٥٠) ، و« طبقات المناوي » (٣/٤٥٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٤٤٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/٢٥١) .

الشعرية ، وكان ينامُ دائماً في مدرسة ابن مزهر بسويقة اللبن .

وكان كثيرَ الكرامات والخوارق ، كثيرَ العطب لمن أساءَ به الظنَّ .

وكان إذا لقي أحداً فعلَ معصيةً ذلك النهار يصيرُ يصكُّه حتىٰ يفرغَ خاطرُهُ ، فإن أراد أحدٌ أن يردَّه عنه شَلَّت يدُهُ .

وأخبرني الشاطر علي المداقف قال[١] : شتمني الشيخُ مروان بحضرة مشاديدي[٢] ، فعزمتُ علىٰ ضربه ، فلقيتُهُ عند قناطر الإوز ، فقلتُ : اليومَ أضربُهُ حتىٰ أشبع منه ، فلما قربتُ منه نحو سبعةِ أذرعٍ التفتَ إليَّ وقال : أنت هنا ؟ فقلت : نعم ، فيبستْ يدي في جنبي ، وصار يصكني في عنقي حتىٰ شبعَ ، ثم بعد ذلك ما لقيني قطُّ إلا وصكَّني إلىٰ وقتي هـٰذا .

وكان بدنُهُ لم يزل فيه الطلوعات[٣] ، يتناثرُ منها الدود وهو صابرٌ .

وكان اللهُ قد سخَّر له الخلقَ ، فلا يطلب ثياباً أو دراهمَ إلا وأعطوه ، فوجدوا بعده حاصلاً ملآنَ قَباطيَّ[٤] وجُبباً وثياباً .

وكان له كلَّ يوم نعلٌ جديد يُشترىٰ له ، ويبيع العتيق الذي باتَ عنده ، فيأخذُ النعلَ بعشرة أنصاف ، ويبيعُهُ تارةً بجديد نقرة ، وتارةً بعثماني .

وكان كلُّ من طلب منه شيئاً ومنعه فلا بدَّ له من بليَّةٍ في تلك الجمعة ، فكان الناسُ يخافون من مخالفته .

وسمعت سيدي عليَّ الخواص رضي الله تعالىٰ عنه يقول : (إن الشيخَ مروان لا يفوتُهُ غزوةٌ في الكفار ولا يوماً واحداً ؛ فإنَّ للفقراء الصادقين في كل يوم غزوةٌ بعد العشاء في بلاد الفرنج ، وتلك الجروح التي به إنما هي من الكفار ، وحضر رودس) .

وكان له الصيتُ بين الفقراء فيما فعل في الكفار أيامَ دولة السلطان سليمان بن عثمان .

---

(١) **المداقف** : الولع في الشجار .

(٢) **المشاديدي** : رجل مسلح من قبل شخص آخر فهو تابع له .

(٣) **الطلوعات** : جمع طلوع : وهو خرَّاج عظيم في البدن .

(٤) **القَباطي جمع قِبْطي** : وهو ثوب من كتَّان رقيق يعمل بمصر نسبة إلى القبط .

وأرسلَ مرَّةً يطلبُ مني جبَّةً سوداء ، وأرسلَ لي مع النقيب صرَّةً فيها فضةٌ وفلوس ، فأرسلتُ له الجبة ، ورددتُ عليه الفلوس ، فضحك ، وعرف أني عرفتُ منه أنَّ تحتها حملاتِ الناس .

وكان عندي مرَّةً صحنُ شهدٍ على رفٍّ داخلَ البيت ، فأرسل يقول لي : أرسل القطعة الشهد التي على الرفِّ ، فرآها وهو في مكانه .

ومكاشفاتُهُ كثيرةٌ مشهورة بين أهل مصر .

مات رضي الله عنه سنةَ خمسٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن في جامع البنهاوي خارج باب الفتوح ، وقبرُهُ به ظاهرٌ يُزار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٨٧) الشيخ الصالح أحمد المجذوب الشِّيبيني رضي الله عنه[(١)]

كان رضي الله عنه مجذوباً غارقاً لا يصحو إلا وقتَ الوضوء والصلاة .

وكان يودُّني ويُسافر من بلده إلىٰ مصر بقصد زيارتي ، وكلُّ من رآه لا يزورني يعتبُ عليه .

وكان له كلَّ سنةٍ جبَّةٌ وفوطة ، ونعلٌ وزنط أبيض وشدٌّ ، لابدَّ أنه في كلِّ سنة يبدلهم .

وكان لا يُصلِّي صلاةً إلا ويؤذِّن لها برفعِ الصوت .

وكان إذا دخلَ لنا مجذوب لا يُصلِّي يقول : هـٰذا قليل الدين ، ما مجذوبٌ على الصحة إلا الذي مثلي لا يعرفُ سوى الماء والمحراب والأذان .

ووقع من المنارة العاليةِ من مدينة منف إلى الأرض فلم ينكسر من أعضائه شيء ، ونزل واقفاً ، ومشىٰ على الأثر .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٩) ، و« شذرات الذهب » (٨/ ٣١٥) ، و« الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٢٢٠) ، والشيبيني : نسبة إلىٰ شيبين الكوم ؛ بلدة كبيرة ، مركز ديوان مديرية المنوفية . انظر « الخطط التوفيقية » (١٢/ ٣٨٩) .

صحبته نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ كاتبَ الشمال كتبَ عليه كلمةً واحدة .

مات رضي الله عنه سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة ، ودفن بناحية شِبِين .

وكان محبوباً لجميع الناس .

وكان إذا دخل لنا أحدٌ فيه ريبةٌ بين المجاورين يقول : أخرجوا هٰذا ؛ فإنه ميشوم[١] ، فيظهرُ الأمر بعده كما قال ، ويخرجُ بريبة يقع فيها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٨٨) الشيخُ الصالح ، المجذوب الصاحي ، الشيخُ نصر[٢]

الذي كان يركبُ الفيل في مصر أيام السُّلطان الغوري .

كان من الملامتية ، وكان عرياناً دائماً ، ليس عليه إلا سراويلُ من جلدٍ وطرطور من جلدٍ ، وهو محلوقُ اللحية .

وكان زفرَ اللِّسان مع السلطان فمَنْ دونه ، يشتمُ ويسبُّ ، وكلُّ من أنكرَ عليه عطبَهُ[٣] .

وقد يتظاهرُ بالخطأ في الكشف عمداً حتىٰ لا يعتقدَهُ أحدٌ .

صحبته نحو سنة ، **ثم مات سنة [اثنتين] وعشرين وتسع مئة**[٤] ، **رحمه الله تعالىٰ** .

ومنهم :

(٤٨٩) الشيخُ الصالح ، المجذوب دنكر[٥]

كان محلوقَ الرأس واللحية ، ويركب الجريدةَ ، فيطوف الشرقَ والغرب ويرجعُ في لحظة .

---

(١) **الميشوم** : تحريف مشؤوم ، كما نبه عليه الزبيدي في « تاج العروس » (١/ ٨٩) .

(٢) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٦١٨) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٣١١) .

(٣) انظر الكلام على المجاذيب في المقدمات .

(٤) في النسخ : (اثنين) بدل (اثنتين) .

(٥) انظر « الطبقات الكبرىٰ » للمناوي (٣/ ٣٦٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٠) ، وفيهما وفي (و ، ز ، ط) : (دنكز) .

وكان يُكاشف كلَّ من مرَّ عليه بما يفعله في قعر بيته .

وكان يلبسُ الثياب بحاشية الحرير .

صحبته نحو ثلاث سنين ، ثم قتله جماعةُ السلطان سليم لمَّا فتحَ مصر سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ، ودفن بمصر ، وأخبر بقتله قبل موتِهِ بساعةٍ .

وقتل عسكرُ ابنِ عثمان عدَّة مجاذيب لمَّا دخلوا مصر ، فقال الشيخ علي الخواص : قد طاب الرحيل من هـٰذا البلد .

ولولا خشية الإطالة لذكرتهم ، رضي الله عنهم أجمعين .

ومنهم :

(٤٩٠) الشيخُ الصالح ، عبد الله رضي الله عنه[١]

الذي كان يصحنُ الحشيشَ في خرائب الأزبكية[٢] ، وكلٌّ من أخذها منه يتوبُ من وقته ، فلا يعودُ لها أبداً ، وكان من الراسخين .

وكان سيدي علي الخواص يُرسل له الحوائجَ المهمة فيقضيها ، وإذا عجز عنها يُرسلُ صاحبَ الحاجة إلىٰ شخص آخرَ يصحنُ الحشيش في باب اللوق[٣] .

وكان كثير الكشف .

وكان إذا دخل وقتُ الصلاة غسلَ يدَيه وتوضأ ، وقام إلى الصلاة .

وسمعته يقول مرَّةً : (وعزَّةِ ربِّي ؛ ما أخذها أحدٌ من هـٰذه اليد وعادَ إليها) يعني : الحشيش .

مات رحمه الله سنة سبعٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن في خرائب الأزبكية مع الغرباء ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٩٠) ، و« الكواكب السائرة » (٢/ ١٥٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٠) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ١٢٥) .

(٢) **يصحن** : تحريف يطحن . انظر « تكملة المعاجم » (٦/ ٤٢٤) .

(٣) تقدم شبيه هـٰذه القصة في ترجمة سيدي أبي بكر الدقدوسي (٤/ ١٠٣) .

دعا لي مرَّةً بأنَّ اللهَ تعالىٰ يسترني بين يديه يوم القيامة ، وأوصاني ألا أتخلَّفَ عن حملة أحد من المسلمين ؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم :

(٤٩١) الشيخُ الصالح ، الشيخُ علي المجذوب رضي الله عنه[١]

كان يجلسُ علىٰ بابِ سوق أمير الجيوش ، وهو محلوقُ الرأس واللحية والحواجب .

وله كل يوم قميصٌ يلبسُهُ علىٰ أهل السوق ، فيجيء الواحدُ إليه ويقول له : زرُّ قميصك مرخي ما هو مليح ، فيخلع القميص ، ويأتونه بخلافِهِ .

وكان إذا مسَكَ أحدٌ أذنَهُ يعضُّ من يجدُهُ بجنبه ، ولا يُكلم الذي مسكَ أذنَهُ .

وكان كثيرَ المكاشفات ، ويدخلُ الحمام كلَّ يومٍ .

مات سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن بالروضة خارجَ باب النصر ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار

صحبته نحو سنتين ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٢) الشيخُ الصالح سيدي محمدُ فرفور رضي الله عنه[٢]

كان محلوقَ اللحية ، ويلبس الثوب الأبيضَ النظيف .

ولم يزل في عبِّهِ الليمون يبيعُ كلَّ واحدة بجديد[٣] ، وكان كلُّ من أكلَ من ليمونه وبه مرضٌ شُفي لوقته .

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٤٧٤) .

(٢) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٤٨) (قرقور) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ١٧٧) .

(٣) **الجديد** : اسم نقد من النحاس .

وكان له أخٌ يبيعُ الفجلَ علىٰ باب جامع الأزهر ، فكان كلُّ من أكلَ ورقة من فجله وبه مرضٌ عوفي ، سواء الرمد ، والحب ، وضربان المفاصل ، والرأس ، والاستسقاء ، وغير ذلك .

ووقعتْ في حَلْقِ شخصٍ من حارة سيدي علي الخواص علقةٌ ، فكبرتْ حتىٰ سدَّتْ حلقَهُ ، فقال له سيدي عليٌّ : رح إلىٰ عند الشيخ الذي يبيع الفجل علىٰ باب الأزهر وخذْ منه ورقةَ فجلٍ وكُلْها تقع العلقة ، ففعلَ ، فوقعتْ في الحال ببركة الشيخ .

صحبت الشيخ فرفور رضي الله عنه عشر سنين إلىٰ أن توفي سنة أربعٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٤٩٣) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد ، صاحبُ الكشوفات التامة ، والكرامات الخارقة الشيخ حسنُ بن إبريق(١)

الذي كان يملأُ على البئر التي في حارة الحمصانيين خارج باب الفتوح ، رضي الله عنه .

كان الشيخ علي الخواص ، والشيخ محمدُ بن عنان ، ومشايخ العصر يقصدونه بالزيارة ، ويسألونه الدُّعاء .

وكان إذا وقع منه الدَّلوُ في البئر يأمر البئرَ أن ترفعَ ماءَها ، فيرتفعُ الماءُ إلى الخرزة ، فيأخذ الدلو بيده .

وسمعتُ سيدي عليَّ الخواص رضي الله عنه يقول : (إن الله تعالىٰ أعطى الشيخَ حسن هٰذا معرفةَ أنساب الحيوانات كلِّها ، فكان يعرفُ أبا كلِّ حيوانٍ وأمهاتِهِ إلى الأب والأم الأصلية) .

وكان شيخاً كبيرَ السنِّ ، علىٰ رأسه قلنسوة ملبَّدة ، وعيناه حمرٌ كالدم الأحمر .

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٨) .

توفي بناحية الخُصُوص[1] ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يُزار .

صحبتُهُ نحو ثلاث سنين .

وتوفي سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٤) الشيخُ الصالح ، العابدُ الزاهد الورع الشيخُ عبد الودود[2]

المُقيم بنواحي قلعة الجبل .

كان من أعزِّ أصحاب سيدي محمد بنِ عنان رضي الله عنه ، وكان يقصده بالزيارة .

وكان عازباً ، وله فرنٌ يَخبِزُ فيه في التربة التي هو فيها .

وزرته مرة مع سيدي محمد بنِ عنان ، فقال : لا بدَّ أن تأكلوا عندي ، فعجن لنا فطيراً ، وخبزه في الفرن ، وبسَّهُ بسمنٍ وعسلٍ[3] ، وأطعمنا أجمعين ، وكنا نحو عشرين رجلاً .

وكان ينسجُ الصوفَ ويتقوَّتُ منه في التربة التي هو فيها .

وكانت عمامته من شراميط الصوف الأحمر .

وغضب مرَّةً علىٰ عبد الدائم بن بقر فحبسَهُ السلطانُ الغوري ثاني يوم ، وصارَ الشيخُ محمد بنُ عنان يترضَّىٰ خاطرَ الشيخ عبد الودود على الأمير عبد الدائم ، فيقول له : حتىٰ يتوبَ عن ظلم الفقراء .

---

(١) **الخُصُوص** : قرية من مديرية القليوبية في بحري منية السيرج . انظر « الخطط التوفيقية » (٢٢٨/١٠) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢٥٧/١) ، و« شذرات الذهب » (١٠٢/١٠) ، و« الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٤٤٦) .

(٣) **البسُّ** : الخلط .

وكان له مكاشفاتٌ غريبة ، وإذا رآه الفقيرُ حصل له أنسٌ عظيم برؤيته .

توفي سنة خمس عشرة وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٤٩٥) الشيخُ الصالح العابدُ ، الورع الزاهد ، الحافظُ لسانه ويده الشيخ علي الإثميدي[١]

من أجلِّ أصحاب سيدي محمد بنِ عنان .

كان يقرئ القرآن للمجاورين في زاوية الشيخ .

صحبته نحو أربعين سنة ، ما أظنُّ كاتبَ الشمال كتبَ عليه كلمةً واحدة .

وكانت أفعالُهُ وأقواله محرَّرَةً على الكتاب والسنة ، ولو أخذتُ أذكر صفاته الحسنة لَكَلَّ لساني[٢] .

ولم يزل مقبلاً على الله عز وجل حتىٰ تُوفي ويدُهُ تتحرَّكُ بالسُّبحة مع لسانه حتىٰ طلعتْ روحُهُ ، فكان آخر حركة يده ولسانه طلوع روحه ، وهـٰذا أمرٌ لم يُنقل إلا عن أكابر الأولياء ؛ كالجُنيد ، وسيدي محمد بنِ عنان ، وأضرابهما ، رضي الله عنهم أجمعين .

توفي بجامع الغمري ، ودفنَ خارجَ باب النصر سنة سبعٍ وخمسين وتسع مئة[٣] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) كذا في النسخ عدا (ك) : (الإتميدي) ، والمثبت من (ك) ومصادر ترجمته . انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٣) ، و« شذرت الذهب » (١٠/ ٤٤٧) ، و« معجم المؤلفين » (٢/ ٣٩٠) .

(٢) كَلَّ : أعياد وتعب .

(٣) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » ضمن وفيات سنة (٩٥٦هـ) .

ومنهم :

(٤٩٦) الشيخ الصالح ، العابدُ الزاهد ، ذو الأخلاق المرضية ، والشِّيم الحسنة ، الشيخ عبدُ القادر الشاذلي رضي الله عنه[١]

كان عبداً صالحاً عالماً بفقه الإمام مالك رضي الله عنه .

وله الباع الطويل في علم الحديث ، كثير الصيام والقيام ، كريم النفس ، لو لم يكن في يده إلا روحه لجاد بها على أصحابه .

صحبته رضي الله عنه نحو خمسَ عشرةَ سنة ، وكان يزورني وأزوره ، وتفضَّل بلبسِ قميصي ، وأوصى أن يُكفَّنَ فيه ، ففعلوا .

وهو الذي أقرأَ أولادَ الشيخ شمس الدين الحنفي القرآنَ والعلم .

وكان يعظُ على الكرسي في المساجد وفي زاوية الشيخ الحنفي يوم المولد كلَّ يوم أحد .

وكتبَ الحديث الكثير ، واختصرَ غالبَ مؤلفات سيدي الشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله .

وله عدَّةُ مؤلفات حسنة[٢] ، وكتبَ على بعض مؤلَّفاتي أحسنَ كتابة .

وما كان جليسُهُ يملُّ من مجالسته ولو طالتْ ؛ من حُسْنِ سمته وأدبه ، وحلاوة منطقه ، رضي الله عنه .

ماتَ رضي الله عنه ودُفن بجوار قبر الشيخ جلال الدين السُّيوطي خارجَ باب القَرافة بجوار تربة قوصون ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار ، رحمه الله رحمة واسعة ، آمين[٣] .

---

(١) انظر « كشف الظنون » (٤٠٩ ، ١٠٥٦) ، و« إيضاح المكنون » (١/٢٠٢ ، ٢/٦٠٣) ، و« هدية العارفين » (١/٥٩٨) ، و« معجم المؤلفين » (٢/١٩٤) (عبد القادر بن محمد بن أحمد) ، وله ذكر في « الكواكب السائرة » (٢/٢٢٨ ، ٢٢٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٧٧).

(٢) من مؤلفاته : « بهجة العابدين بترجمة الحافظ السيوطي جلال الدين » ، وقد صدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق الدكتور عبد الإله نبهان .

(٣) ذكر عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » (٥/٢٩٨) وفاته سنة (٩٣٥هـ) .

ومنهم :

(٤٩٧) الشيخُ الصالح ، سيدي محمد بنُ عزٍّ رضي الله عنه[1]

كان صاحبَ كشوفات ومعارف .

صحبته نحو عشرين سنة .

وكان ساكناً في الزاوية الحمراء خارج مصر ، وكان يأتيني في مدرسة أمِّ خوند ، فيبيت عندي الليالي ، فكنت لا أراه ينام شيئاً من الليل من العشاء إلى الفجر ، تارةً يضحك ، وتارةً يبكي حتىٰ أرقَّ له .

وكان أكابرُ مصرَ يحترمونه .

وكان يلبسُ ثيابَ الجند ، وله مقلبٌ خلف ظهره[2] ، وعمامة هوَّارية ، وكان يمشي بالسلاح والسيف .

وله الاعتقادُ التامُّ في قلوب الناس .

زاحمه إنسانٌ في بين القصرين ، فرماه علىٰ وجهه ، فدعا عليه بالتوسيط[3] ، فوسَّطه الباشاه آخرَ النهار .

وكان مُجاب الدعوة ، ودعا لي بدعواتٍ صالحة ، فوجدتُ بركتها .

وكان إذا أخبر بولاية أحدٍ أو عزله في وقتٍ لا يُخطئ أبداً .

مات رضي الله عنه غريقاً في الخليج بالقرب من الزاوية الحمراء في سنة ثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٥٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٤٣) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٤٤٨) .

(٢) في « تكملة المعاجم » (٨/ ٣٥٥) : (مقلب : قطعة من البندقية يضرب عليها ديك البندقية) ، وقال الزبيدي في « تاج العروس » (ق ل ب) : (**المقلب** كمنبر : حديدة تقلب بها الأرض لأجل الزراعة) .

(٣) **التوسيط** : قطع الرجل نصفين من وسطه .

ومنهم :

(٤٩٨) ومنهم الشيخُ الصالح ، صاحبُ الكشوفات ، والكرامات والخوارق ، الشيخ حسن المطراوي(١)

كان مقيماً في جامع محمود بالقَرافة ، والناسُ يقصدونه بالزيارة .

وزرته مع سيدي محمد بن عنان كذا كذا مرة .

وكان له جاريةٌ تخدمه لا يقرب منها .

ولما زرته أقبلَ عليَّ إقبالاً زائداً ، وباسطني بالكلام ، وأخرجَ لنا خبزاً وزيتوناً وخلطه ، وقال لي : (اسمع يا عبد الوهاب مني هـٰذه الكلمات : الحلو شفاء ، والمالحُ أذىٰ ، والحامض غذاء) .

وكان شيخاً قد طعن في السنِّ أشرفَ على المئة سنة ، وكان يقومُ الليلَ على الدوام ، وأخبرني أنه فقدَ الماءَ الذي يتوضَّأُ به في ليلة من الليالي ، فتوجَّه إلى الله تعالىٰ وإذا بشخص من أرباب الأحوال طائراً في الهواء ، وفي عُنقِهِ قربةُ ماء ملأها من بحر النيل ، ونزل عليه ، وصبَّها له في الخابية ، وصعد في الهواء ، ثم قال لي : يا ولدي ؛ مَنْ صدق مع الله تعالىٰ سخَّرَ له الوجودَ ؛ فإني أعلمُ لو كنتُ غيرَ صادقٍ معه في قيام الليل ، وقمتُ لعلَّةٍ ما سخَّر لي بعضَ أوليائه .

صحبته رضي الله عنه نحو خمسَ سنين ، ثم مات ، وذلك أيام سياحتي .

وكان أوَّلُ فتحي في البقعة التي تجاه جامع محمود ، وما عندي في القَرافة أعزُّ منها ، وهي بقعةٌ نيِّرةٌ .

وسألتُه مرَّةً عن قبور إخوة يوسف المجاورة لجامع محمود : هل لذلك صحة ؟

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٨٢) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٥٩) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٣٩٩) .

فقال : لا ، وإنما بلغنا : أنَّ شخصاً قرأ سورةَ يوسف في هـٰذه البقعة ونامَ ، فجاءه جماعةٌ في المنام وقالوا : نحن من إخوة يوسف ، فمن أعلمَكَ بقصتنا ؟ فإنَّ جميعَ ما قصصتَهُ حقٌّ ، فأعلمَ الرائيُّ بذلك نائبَ مصر ، فبنىٰ عليهم قبَّةً ومزاراً ، فهـٰذا ما بلغنا من أمرهم ، رضي الله عنهم .

ومنهم :

(٤٩٩) الشيخ الصالحُ ، الورع الزاهد العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد الدَّلْجي[١]

كان مُقيماً في تربةٍ خارج باب القَرافة في الزُّقاق الأول علىٰ يمين الخارج من الباب .

زرته مرَّاتٍ مع سيدي محمد بنِ عنان ، وكان مهاباً .

ولما جلس عنده سيدي محمد بنُ عنان صار كالولد مع الوالد ، فصار يقولُ له : آنست بلادنا يا محمد ، وسيدي محمد يُقبِّل رجلَهُ .

وكان شيخاً قد طعنَ في السن ، وكان جالساً في دهليزِ التربة علىٰ تختٍ من جريد ، وعلىٰ رأسه قلنسوة خضراء بلا عمامة .

وزرته وحدي مراتٍ ، وحصل لي منه خيرٌ كبير ، ودعا لي بدعوات .

مات رضي الله عنه سنة ثلاث عشرة وتسع مئة ، ودفن بالقرب من قبور الخَولانيين الذين حفروا قبورَهم بأيديهم ، وقبورُهم على الشارع ، وعلىٰ رأسهم لوحٌ كبير من حجر مكتوب فيه أسماؤهم وتواريخهم بالكوفي ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٧٩) ، و« طبقات المناوي » (٤/ ٤٥٧) ، **والدَّلْجي** : نسبة إلىٰ دَلْجا ؛ قرية بصعيد مصر من غربي النيل . « قاموس رمزي » (٢/ ٤/ ٤٦) .

ومنهم :

(٥٠٠) الشيخ الصالح ، ذو المفاخر والمآثر ، ختامُ الدوائر سيدي محمد أبو الفضل شيخ بيت بني الوفا والدُ سيدي إبراهيم الموجود الآن رضي الله عنه[١]

صحبتُهُ عشر سنين ، فرأيتُه علىٰ قدم عظيم في الطريق .

وله مكاشفاتٌ كثيرة ، وخوارقُ وكراماتٌ مشهورة بين تلامذته .

وكان قوالاً بالمعروف[٢] ، ناهياً عن المنكر ، شجاعاً ، عالماً ، كريماً ، حليماً ، حسنَ الشمائل .

وكان في بداية أمره يصطادُ السمك في بحر النيل في مركبٍ ، ويتقوَّتُ منه ، ولا يأكل لأحد مُطلقاً طعاماً إلىٰ أن اتَّسع حالُهُ ، وعَمَّر له عدةَ مراكبَ كثيرةٍ تحمل مغلَ السلطان[٣] ، فكان يأكلُ منها إلىٰ أن مات ، ويتصدَّقُ منها ، ويُنفق منها علىٰ أصحابه ، وعلىٰ موالد السادات ، رضي الله عنهم أجمعين .

وكانت له مكاشفات غريبة لا تُخطئ ، وكان قد أُعطي حرفَ (كن) ؛ فإذا قال للجبل : كن ذهباً صار ، كما أخبرني بذلك ولده سيدي أبو المكارم رضي الله عنه .

وأخبرني بيوم موته فلم يتعدَّهُ ؛ وذلك أني زرتُهُ وهو جالسٌ على الدكة في طاحونة بالروضة ، فقال لي : أوصيك يا ولدي بوصية ، فاحتفظْ بها ، ولا تخالفْها تندمْ ، فقلت له : وما هي يا سيدي ؟ فقال : لا تدخل قطُّ في حملة أحد من هـٰؤلاء الظلمة في هـٰذا الزمان ، وإياك أن تَرِقَّ لهم ؛ فإنهم مؤاخذون بأعمالهم السيئة ، فربَّما دخلوا تحت ذيل الفقير ، فيرقُّ لهم ، وينسىٰ ما عملوه من ظلمهم العباد والبلاد ، ويدخلُ في التوجُّه إلى الله تعالىٰ في ردِّ العقوبة الدنيوية التي أنزلها الحقُّ تعالىٰ بهم ، فيعارض القدرةَ ، فيهلك .

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ١٧٦) .

(٢) في (ز) : (آمراً) بدل (قوالاً) .

(٣) مغل السلطان : غلال السلطان ؛ أي : محصوله .

وقد دخلتُ يا ولدي في حملة جانم الحمزاوي ، وما معي أحدٌ يساعدني في مصرَ ، وما أظنني إلا ميت بعد خمسة أيام ، فكان الأمرُ كما قال .

وأوصاني ألا أقبلَ من الولاة هدية أبداً وقال : من أكلَ الغفارة وجبَ عليه يردُّ الغارة ، بخلاف مَنْ لا يقبل لهم هديةً ، فإنه متطوعٌ بالحملة ، ثم قال : إنْ أردتَ يا ولدي أن تسعىٰ في تنفير الولاة والمباشرين عنك في هـٰذا الزمان فافعلْ ؛ فإنَّ القربَ منهم نار .

وكان عنده غيرةٌ شديدةٌ علىٰ عياله ، لا يمكِّنُ أحداً من الخدم يدخل عليهنَّ أبداً ، إنما يقضون الحاجةَ من باب الدار ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠١) الشيخُ عمر البوصيري رضي الله تعالىٰ عنه[1]

صحبته نحو عشرين سنة ، ورأيتُ منه كشوفات ، ولم يأذن لي في إفشاء شيء منها ؛ لأنه من الرجال الملامتية ، رضي الله عنه .

وجمعني على الأولياء الذين يشفعون في أهل الموقف بعرفة كلَّ سنة في سنة سبع وأربعين وتسع مئة في مسجد منىً ، وكانوا كلهم من اليمن ، أحدُهم أمردُ ، ألوانهم كالزعفران من الصفرة ، رضي الله عنهم ، ونفعنا ببركاتهم ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٢) الشيخ يونس الدنوشري المشهور بالشيخ مضيها رضي الله عنه

صحبته مدةً ، فرأيته علىٰ قدم عظيم في دوام الطهارة ، والكشف بأحوال الخلق ، لا تحجبه الجدرانُ عما يفعلُهُ الناسُ في بيوتهم ، وله اعتناء عظيم بقضاء حوائج الناس ، لا سيما النساء الجميلات ، فيدخلُ بيوتَهن ، ويقضيهنَّ الحوائج ، وإذا مزحَ

---

(١) انظر « طبقات المناوي » (٣/ ٤٢٨) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢/ ٢٢٤) .

معه صاحبُ البيت وقال : أيش دخلك بيتي بغير إذني ؟! يقول له : أنا عبدُك وخادمك ، وإذا دعاه زوجُ العجوز إلىٰ خدمتها يشتمه ولا يجيبه ، فينبسطُ الناسُ عليه ، ويعتقدونه مع ذلك أشدَّ الاعتقاد .

وأكثرُ إقامته في بلد سيدي أحمد البدوي ونواحيها .

ولـٰكن إذا تحوَّلَ بقلبه علىٰ أحد من الأكابر تخربُ داره بسرعة ، وتدورُ عليه الدوائر .

أقام عندي في مصر مدَّةً ، وطلب مني زنطاً يلبسه(١) ، وسكَّراً ، وغيرَ ذلك ، فاشتريتُ له ذلك ، فدعا لي بدعوات وجدتُ بركتها ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٠٣) الشيخ عبد الله الخوانكي رضي الله عنه(٢)

دخلَ مصر أواخر سنة تسع وخمسين وتسع مئة ، فأقام خارجَ باب الفتوح علىٰ باب خان الحصريين .

وله حالٌ عظيم ، وتعاريض للناس ، ولِمَا يقعون فيه من الأمور المستقبلة .

لا يكادُ يَعرف أنه من الرجال إلا قليلٌ من الفقراء الصادقين ؛ لأنه ليس له علامةٌ تميِّزُهُ عن العامة في عبادةٍ ولا ملبسٍ ، وإنما يعرفُهُ بعضُهم برؤية عينيه ؛ لأن نظرةَ الوليِّ لها هيبةٌ ؛ لأن مطمحَ بصره القلبي دائماً إلىٰ حضرة الله تعالىٰ ، بخلاف غيره ؛ فإن مطمحَ أبصارهم إلى الكون الفاني أو الآخرة ، فلا يكتسبُ أحدُهم من الكون هيبة .

وقد أرسل لي السلام مرَّةً مراسلةً قلبية ، فوجدتُ منها الراحة رضي الله عنه ، ومثلُ هـٰذا لا يزورُهُ الزائرُ إلا بالقلب فقط ، فينبغي للمارِّ أن يحفظ قلبه عن الخواطرِ الرديئةِ ، ومرورِ شيءٍ من المعاصي علىٰ قلبه ؛ تعظيماً لحضرته ، فربما مقتَ من مرَّ عليه وهو غافلٌ ، أو متلطِّخٌ بمعصية ، أو شهوة لها ، والله يحفظُ من يشاء عن مثل ذلك ، والله أعلم .

---

(١) تقدم شرحها قريباً (٤/ ٣٤٠) حاشية (٢) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٥٦) .

ومنهم :

(٥٠٤) الشيخ محمد بنُ القاضي رضي الله تعالىٰ عنه[1]

كان أكثرَ إقامته في نواحي جامع الملك الظاهر ، وفي كوم الحاجب ، وكان له مكاشفاتٌ عجيبة .

يقفُ الإنسانُ عنده من غير لفظٍ ، فيخبرُهُ بما في باطنه وبما جاء لأجله ويقول له : افعل أو : لا تفعل .

وأرسل لي السلامَ مراتٍ علىٰ لسان الشيخ حسن الريحاني .

وربما عزمتُ علىٰ أمر في نفسي ، فيرسل يقول لي : لا تفعل كذا وكذا ، واصبر واحتمل .

ودخلتُ مرَّةً أنا وأخي أفضلُ الدين جامعَ شرف الدين بالحُسينية ، فقال لنا : إياكم والإنكارَ على الناس بسوء الظنِّ ، فإذا رأيتم مثلاً حشَّاشاً يبلعُ الحشيش ، فعظوه برفقٍ ورحمة ، وإن كان لكم حالٌ مع الله تعالىٰ فاسألوه يرفعْ عنه ذلك البلاء إن كان سبقَ في علمه تعالىٰ أن يرفعَه بسؤالكم ، وإلا فليس في كلامكم باللسان إزالةُ المنكر الذي كلَّفكم الشارع بإزالته ، فأحدُكم معافىً ، وذلك مبتلىً ، وما عند أهل الجنة خبرٌ من حال أهل النار ، فحصل لنا من كلامه رعبٌ في الباطن ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠٥) العبَّادُ الثلاثون نفساً رضي الله عنهم أجمعين

المُقيمون بآخر الجبل المقطم الذي يُشرف على السويس .

صحبتهم صحبةً برزخيَّةً ، وأرسلوا لي السلامَ مع الشيخ حسن الريحاني مرات ، وذكروا له أنهم مرُّوا عليَّ قبل انقطاعهم في الجبل ، وذكروا معنا في المجلس من حيث لم أشعر بهم .

وهم الآن قد تركوا الطعامَ والشراب ما عدا نسيمَ السحر ، فيفتحُ أحدُهم فمَهُ في

---

(١) انظر ما تقدم (٤/ ٣٣١) (٤٧٣) .

السحر ، فيغتذي بنسيمه ، هٰكذا أخبرني الشيخ حسن المذكور ، وأقام عندهم أياماً طاوياً ، فلم يقدر يُوافقهم ، فرجع ، وقالوا له : سلِّم لنا علىٰ عبد الوهاب ، فأسألُ اللهَ من فضله أن ينفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٦) الشيخ شُرَيْف رضي الله تعالىٰ عنه[١]

بضمِّ الشين وإسكان التحتية .

صحبته نحو عشرين سنة .

وكان في ابتداء أمره جالساً في طريق أجهور الكبرىٰ ليلاً ونهاراً[٢] ، فكلُّ من مرَّ عليه يقول له : من أين ؟ إلىٰ أين ؟ لا غير ، ثم إنه انتقلَ إلىٰ ناحية النعناعية عند والدته[٣] ، فأقام علىٰ جسر بين البلاد يأوي إليه الذئاب بالليل .

ولما نزلتُ من مصرَ إلىٰ عمارة زاوية جدِّي رضي الله عنه جاءني وطلب مني كتاباً لعامر بن بغداد بكلام فصيح ، حتىٰ تعجَّبَ الناسُ منه ، فقلتُ له : تحوَّلْ عليه بالقلب يقضي لك حاجتك ، فقال لي : مع وجودك لا يحتاج إلىٰ مثل ذلك ، وقد أرسلَ الكتابَ إلىٰ عامر ، فسامح حاملَهُ بخراجه كلِّه تلك السنة ، مع أنه لا يعرفُ شخصَ هٰذا الشيخ أبداً ، فعرفتُ أنَّ ذلك من صدق حاله ، نفعنا الله ببركاته والمسلمين ، آمين .

ومنهم :

(٥٠٧) الشيخ محمد رضي الله عنه

الذي هو نازل قريباً من قنطرة السدِّ .

صحبتُهُ صحبةً قلبية ، فرأيتُ له حالاً عظيماً لا يُطيق المتشرِّع المشي معه عليه .

---

(١) انظر « الطبقات الصغرىٰ » للمناوي (ص ٣٤٢) .

(٢) أجهور الكبرىٰ : من البلاد القديمة بمركز قليوب . « قاموس رمزي » (٢/ ١/ ٥٣) .

(٣) النِّعناعية : تقع في مركز أشمون . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٦٧) .

يُراسل المارِّين بالخواطر طولَ النهار ؛ فمنهم : من يُجذب ، ومنهم : من يتمزَّقُ عن أحوال الدنيا ، ولا يصير له شهوةٌ إلىٰ شيء فيها ، ومنهم : من يمسح اللهُ من قلبه الإنكار على الأولياء ، ومنهم : من يستغرقُ في حضرة الله تعالىٰ ، فلا يخرج بعد ذلك منها لا دنيا ولا أخرىٰ .

أرسل لي السلامَ مرَّاتٍ مع خادمه ، ودعاني إلىٰ طريقه ، فأبيت ، وقلتُ له : هٰذه طريقٌ قليلةُ السالك ، فلا حاجةَ لي بها ، فضحك ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٠٨) الشيخ عبد الله الفيومي رضي الله تعالىٰ عنه[(١)]

الذي كان جالساً تحت قنطرة قديدار ، وعنده القوارير ، والشقف ، وتأوي إليه الكلابُ والقطط ؛ كالمجذوب الذي هو الآن في نواحي باب اللوق .

كان يترحَّبُ بي كلما أمرُّ عليه ويقول لي : سلمْ لي على الشيخ خروف المدفون قريباً من الجزيرة الوسطانية[(٢)] .

وكان حالُه قوياً .

جلس بعد سيدي محمد بن زرعة ، وقالوا : إنه ورث مقامَهُ .

وهو كثيرُ العطب لمن يمرُّ عليه من أهل المعاصي ، رضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

* * *

---

(١) انظر « طبقات المناوي الصغرىٰ » (ص ٣٩٠) .

(٢) ذكر ترجمة الشيخ خروف المناوي في « طبقاته » (٣/ ٣٦٢) ، وقد تقدم في ترجمة الشيخ أحمد البهلول قصة حصلت بين المؤلف والشيخ خروف (٢/ ٢١٤) ، فلتنظر .

القسم الثالث (*)

في ذكر مناقب العلماء الذين صحبناهم

(*) هذا القسم حتى الصفحة (٣٧٩) سيرد في بداية الذيل (٥/ ٩) حتى (٥/ ٢٩) ومنه أثبت فروق النسخ .

الباب الأول

في ذكر مناقب العلماء الذين قرأنا عليهم العلوم الشرعية ومتعلقاتها ؛ من نحوٍ ، وأصول ، ومعانٍ ، وبيان ، وغير ذلك .

وقد ذكرنا الكتبَ التي شرحناها عليهم في كتاب « المنن » .

الباب الثاني

في ذكر مناقب من صحبناه ، ولم نقرأ عليه ؛ إما لاستغنائنا عنه بأقرانه أو بأشياخه ، أو لمخالفته لنا في المذهب .

الباب الثالث

في ذكر مناقب من صحبناه من الأقران المدرسين والمفتين إلىٰ ختام سنة ستين وتسع مئة ، ولم نلتزم فيه تقديمَ الأفضل علىٰ غيره ؛ لجهلنا بمراتبهم الآن[1] ، أو بما ينتهي أمرُهم إليه عند طلوع الروح .

وقد سبقني إلىٰ نحو ذلك سيدي عبدُ العزيز الديريني رضي الله عنه ، فذكر مشايخَهُ في العلم في أرجوزةٍ ، وهـٰأنا ملخِّصٌ لك يا أخي عيونَها ؛ تبرُّكاً بها ، فأقول وبالله التوفيق :

قال سيدي عبد العزيز وهو لسانُ حالي أيضاً بعد الحمد والصلاة ، وذكر بعضَ حكم وآدابٍ : [من الرجز]

وأذكـرُ الآنَ رجـالاً كـانـوا ... كـأنجـمٍ يـزهـو بهـا الـزمـانُ

مشـايخـاً صحبتُهـمْ زمـانـاً ... أو زرتُهـم تبـرُّكـاً أحيـانـا

منهـمْ سـراجُ الـدِّيـنِ عبـدُ اللهِ ... كنَّـا بفضـلِ علمِـهِ نُبـاهـي

صحبتُـهُ سبـعَ سنيـنَ أولا ... وكنـتُ فـي خـدمتِـهِ تفضُّـلا

أعنـي مـنَ اللهِ علـيَّ فضـلا ... مـا كنتُ في القـدرِ لـذاكَ أهـلا

وكـان بحـراً فـي علـومِ النظـرِ ... والفقـهِ والتحقيـقِ ذا تَبَحُّـرِ

والـزهـدِ والفتـوةِ المـذكـورهْ ... والصـدقِ والعبـارةِ المشهـورهْ

---

(١) من قوله : (مناقب) إلىٰ قوله : (تقديم) زيادة من (ز ، ك) فقط .

والشيخُ تاجُ الدينِ بهرامُ البدلْ — كانَ إماماً في العلومِ والعملْ
أوصافُهُ في فضلِهِ مشهورهْ — وكمْ لهُ كرامةٌ مأثورهْ
صحبتُهُ خمساً وعشرينَ سَنَهْ — كأنَّها مِنْ طيبِها كانتْ سِنَهْ
والشيخُ زينُ الدِّينِ بالمحلَّهْ — أعني أبا بكرٍ فما أَجَلَّهْ
وعلمُهُ وزهدُهُ معروفُ — ونسكُهُ بينَ الورىٰ مَوصوفُ
قدْ نلتُ منهُ دعوةً مُجابَهْ — وصحبةً لي معَهَا قرابَهْ
وشيخُنا عبدُ الوهابِ بنُ خلفْ — كانَ شبيهاً في السُّلوكِ بالسلفْ
لهُ علومٌ جمَّةٌ وزهدُ — وورعٌ وخشيةٌ وقصدُ
والشيخُ مجدُ الدِّينِ ذو الفنونِ — هوَ ابنُ عبدِ الصَّمدِ الأمينِ
محمدُ المنتسبُ الأنصاري — كالبحرِ في معرفةِ الآثارِ
رويتُ عنهُ كلَّ ما يَرويهِ — منْ سائرِ العلومِ أو يُمليهِ
وقدْ صحبتُ الشرفَ ابنَ ثعلبِ — ونلتُ منْ جَذواهُ أيَّ مطلبِ
صحبتُهُ عامَ بلوغي طالبا — مهاجراً إلىٰ حماهُ راغبا
وجامعُ الفضلينِ عبدُ المعطي — أنفاسُهُ كأسهمٍ لا تُخطي
أفادني في مدَّةٍ قليلهْ — فوائداً عظيمةً جليلهْ
والشيخُ عزُّ الدِّينِ تاجُ العُلما — بدرُ الزمانِ إذا قامَ العلما
لاحتْ لنا منْ نحوهِ المسرَّهْ — طُوبىٰ لعينٍ نظرتْهُ مرَّهْ
والعالمُ العاملُ إبراهيمُ — ومنْ قليلٍ فضلُهُ معلومُ
عاشَ سليماً منْ جميعِ الرِّقِّ — مُستغنياً باللهِ لا بالخلقِ
ذو الخُلُقِ المُستحسنِ الرَّضيِّ — والمنظرِ المُستعظمِ البهيِّ
عُمِّرَ في نزاهةٍ وطاعهْ — وعفَّةٍ يزينُها قناعهْ
والشيخُ إسماعيلُ منْ قطورِ — راوي شفاء غلَّةَ الصدورِ
وقدْ صحبتُ العالمَ الصَّفراوي — ثم الزكيَّ العالمَ المنشاوي
كذلكَ البرهانُ بالمحلَّهْ — وبعدَ داودَ ارتقىٰ مَحلَّهْ
كذا الإمامُ الظَّاهرُ المحلِّي — خطيبَ مصرَ الطاهر المحلِّ
وصهرُه المجدُ هوَ الإخميمي — لقيتُهُ بمصرَ للتسليمِ

فهٰؤلاءِ كلُّهمْ أَبرارُ ... أئمةٌ لدينِنا أَخيارُ
غطَّاهمُ العلمُ فهمْ في سترِ ... والنَّجمُ لا يَظهرُ وقتَ الظهرِ
لأنَّ نورَ علمِهمْ كالشَّمسِ ... فزهدُهمْ مُستترٌ في طمسِ
وفضلهمْ يُغني الورَىٰ عنْ شاهدِ ... فليسَ يُخفيهِ سوىٰ معاندِ
وإنما يحتاجُ للكرامهْ ... مَنْ لمْ يكنْ لفضلِهِ علامهْ

وأطال في ذلك ، ثم قال :

وعلمُ تفسيرِ الكتابِ أعلىٰ ... ما يَعتني المرءُ بهِ وأَغلىٰ
لأنَّهُ فهمُ خطابِ المولىٰ ... فكانَ أَوفىٰ مطلبٍ وأولىٰ
وكلُّ علمٍ فمِنَ القُرآنِ ... وفيهِ أصلُ سائرِ المعاني
ثمَّ حديثِ المصطفىٰ محمَّدِ ... فإنَّهُ نورٌ لكلِّ مُقتدي
والفقه في معرفةِ الأحكامِ ... والفصلِ بينَ الحِلِّ والحرامِ

وأطال في ذلك ثم قال :

ثم العلومُ ليس يُحصىٰ حدُّها ... ولا يُطاقُ حصرُها وعدُّها
وعمرُ كلِّ واحدٍ يَضيقُ ... عنْ كلِّ علمٍ رامَهُ الفريقُ
وكانتِ الرِّجالُ منْ قديمِ ... منْ قوَّةِ الهمَّةِ والتعليمِ
ليسَ لهمْ علاقةٌ دنيَّهْ ... تشغلُهمْ بلْ همَّةٌ عليَّهْ
وصارَ أهلُ عصرِنا في غمرهْ ... وغفلةٍ طويلةٍ وسكرهْ
فقدِّمِ الأهمَّ ثمَّ الأَحسنا ... مِنْ كلِّ علمٍ حَسَنٍ إنْ أَمكنا
لكنْ أُناسٌ عكسُوا التَّرتيبا ... فأهملوا الأَهمَّ والمطلوبا
وكلُّ علمٍ حسنُهُ في مطلبِهْ ... معتبرٌ بقدرِ قبحِ الجهلِ بهِ
والعلمُ زادٌ للسُّلوكِ والعملْ ... وما رأينا بالكلامِ مَنْ وصلْ
كواصفِ الأطعمةِ الرَّفيعهْ ... واللبسِ والأبنيةِ المنيعهْ
وهوَ منَ الجوعِ وتضييعِ الفرصْ ... والفكرِ والهمِّ العظيمِ في غُصصْ
وآخرونَ حُرموا الإخلاصا ... فما رأوا منَ الهوىٰ خلاصا
والعالمُ المحفوفُ بالتوفيقِ ... مَنْ جرَّهُ العلمُ إلى التَّحقيقِ

فجاهدَ النَّفسَ وسَلَّ السيفا ... ولَمْ يُعلِّلْ بعسىٰ وسوفا
ولا تذوقُ النَّفسُ طعمَ التقوىٰ ... إلا إذا منعتَها ما تهوىٰ
والشهواتُ كالسِّباعِ الكاسرهْ ... فصفقةُ الهالكِ منها خاسرهْ
والعبدُ لا يَصيرُ حرّاً عنها ... وقلبُهُ في أَسرِ شيءٍ منها
ومَنْ نفى المذمومَ بالرِّياضهْ ... طهَّرَ مِنْ أسرارِهِ رِياضهْ
وصار مَوطناً لكلِّ غرسِ ... ولاجتناءِ ثمراتِ الغَرْسِ
إذا بدا بادٍ منَ الحقائقِ ... لسالكٍ فرَّ منَ العلائقِ
وصارَ ما يقصدُ بالمجاهدهْ ... ميسَّراً سهلاً بلا مكابدهْ
مثلُ الملوكِ نزلوا ببقعهْ ... فارتحلتْ عنها الرعاع سُرْعَهْ[1]
وبثَّتِ الجنودُ والعساكرُ ... في الأرضِ واستقامتِ الأوامرُ
وجاءَ جيشُ العزمِ والإنابهْ ... والصدقِ والتوبةِ والإجابهْ
والذِّكرِ والقرانِ والزهادهْ ... والخوفِ والخشوعِ والإرادهْ
والصبرِ والرِّضا وشكرِ النعمهْ ... وخشيةِ اللهِ وحفظِ الحرمهْ
والقصدِ والهيبةِ والحياءِ ... والأُنسِ بالمحبوبِ والرجاءِ
وصحَّةِ الإخلاصِ والتوكُّلِ ... والشوقِ والتسليمِ والتبتُّلِ
والجمعِ والعرفانِ والمحبَّهْ[2] ... ثمَّ الفنا عنْ سائرِ الأحبَّهْ
ثمَّ الفنا عنْ رؤيةِ الفناءِ ... والشُّغلِ بالمعطي عنِ العطاءِ
وصحةِ التجريدِ والتفريدِ ... والفَرَقِ الدائمِ والتوحيدِ
فهٰذهِ معالمُ الطريقهْ ... والجمعِ بينَ العلمِ والحقيقهْ
ولا تُنالُ دونَ بذلِ الرُّوحِ ... فأغنَ عنِ التصريحِ بالتلويحِ
والحمدُ للهِ على التَّحقيقِ ... فهوَ غياثي وبهِ توفيقي

انتهىٰ كلام سيدي عبد العزيز رضي الله عنه ملخَّصاً .

ولنشرع في مقصود الكتاب فنقول وبالله التوفيق :

(١) في (أ ، ز ، ط) : (الرعاة) بدل (الرعاع) .
(٢) في (ج ، د ، ل) : (الفرقان) بدل (العرفان) .

البَاب الأوَّل
في ذِكر جملة من مشايخ الإسلام الّذين أدركناهم وأخذنا عنهم العُلوم من فقهاء ومحدِّثين، ونحاة وأصوليِّين، ونحوهم رضي الله عنهم أجمعين

وقد حُبِّبَ لي أن أصدِّرَ هـٰذا الباب بذكر سندنا بالفقه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليعرف الطالب أباه في العلم ، فقلَّ من الطلبة من يعرفُ ذلك ، فأقول وبالله التوفيق :

أخذتُ علم الفقه والتفسير والحديث وغير ذلك عن جماعةٍ بأسانيد مختلفة ، أخصرُها طريقُ شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه ، وقد خدمتُهُ وقرأتُ عليه مدة عشر سنين ، وقد ذكرتُ في كتاب « المنن » عدة الكتب التي قرأتُها عليه ، فراجعه .

وقد أخبرني بلفظه : أنه أخذَ علمَ الفقه عن شيخ الإسلام جلال الدين البلقيني ، والحافظ ابن حجر ، والشيخ جلال الدين المحلِّي .

وأخذ هـٰؤلاء الثلاثةُ الفقهَ عن الشيخ عبد الرحيم العراقي ، عن الشيخ علاء الدين بن العطار ، عن محقِّق المذهب ومرجِّحه العالِمِ الصالح يحيى بن شرف النووي ، عن الشيخ الإمام كمال سلار الإربلي ، عن الشيخ محمد بن محمد صاحب « الشامل الصغير » ، عن الشيخ عبد الغفار القزويني صاحب « الحاوي » ، عن أبي القاسم الرافعي شيخ المذهب ، عن الإمام محمد أبي الفضل ، عن محمد بن يحيىٰ ، عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، عن أبي المعالي محمد إمام الحرمين ، عن والده الشيخ أبي محمد الجُويني ، عن أبي بكر القفَّال المروزي ، عن أبي زيد المروزي ، عن أبي العباس بن سريج ، عن أبي سعيد الأنماطي ، عن أبي إسحاق إبراهيم المزني ، عن الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي ، عن الإمام مسلم بن

خالد الزَّنْجي ، عن محمد بن جُريج ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين .

ولم أذكرْ من أشياخي إلا من كان جامعاً بين العلم والعمل .

فأولهم :

(٥٠٩) والدي، الشيخُ الإمام العلامة الفقيه المحدِّث، النحوي المقرئ، الورع الزاهد الشيخُ شهابُ الدين أحمد الشعراني رضي الله تعالىٰ عنه[١]

قرأتُ عليه النِّصفَ الآخر من القرآن ، وسمعتُ منه الحديثَ .

وسأل لي الإجازةَ من الشيخ جلال الدِّين السُّيوطي ، فأجازني بجميع مروياته وعمري إذ ذاك نحو عشر سنين .

وكان رضي الله عنه قوَّاماً بالليل ، صواماً بالنهار ، لا يأكلُ لأحد من الولاة وأعوانهم طعاماً .

وسمعتُهُ مرَّةً يقول : (قد جمعتُ بحمد الله من العلوم ما لو اجتمعَ عليَّ سائرُ علماء الجامع الأزهر لقطعتهم بالحجج) .

مات رضي الله عنه خامسَ شهر صفر سنة سبعٍ وتسع مئة ، ودفن بجنب قبر والده بزاويته في ناحية ساقية أبي شعرة ، رضي الله عنه .

وكان إذا صلىٰ بالليل وقرأ القرآنَ يُبكي الناسَ من الخشوع ، ويخرُّ بعضُهم إلى الأرض .

فصلَّىٰ خلفه الشيخ كمالُ الدين الطويل فكاد أن يخرَّ إلى الأرض ، فقال له : أنت لا يُناسبك إلا الإمامة بجامع الأزهر لا بالريف .

وكان له الباعُ الطويل في إنشاء الخطب ، والنظم ، وفي علم الفلك ، والفرائض .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/١٣٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٤٩) ، وستأتي ترجمته (٥/١٨) (١) .

وكان يعملُ الدوائر ، ويشدُّ المناكيب ، وهو مع ذلك لا يخلُّ بأمرِ معاشه ؛ من حرثٍ ، وحصادٍ ، ودياس ، وشهادة بين الناس في ضبط خراجهم احتساباً .

وكان ينشئ الخطبةَ حالَ صعوده المنبر .

وبلغه أنَّ الإمامَ عليَّ بن أبي طالب خطَبَ مرَّةً بخطبة لا ألفَ فيها ، حين تذاكرَ عنده العرب أنَّ الألفَ أدخل الحروف في الكلام ، فأنشأ خطبةً ليس فيها حرفُ الألف ، وجمع فيها الأركان .

أولها : (حمدتُ ربِّي وربَّ كلِّ مخلوق بحمد عظيم صَدَرَ من قلب مؤمن صدوق ، يُسبِّحُ بحمده شجرٌ ومدرٌ ، ونجوم وغيوب وبروقٌ ، وشمس وقمر ، وبحر وبرٌّ في غروب وشروق) .

ومن جملة وعظها : (عليكم بتطهير قلبٍ شُغف بحبِّ كلِّ فسوق ، مسودٍّ من غلٍّ وحقد وحسد ، ودنس به معلوق ، فقد علمتُم سرعةَ مسيركم للمحشر ودموعُكم دلوق ، مع كلِّ شخصٍ منكم شهيدٌ يشهدُ عليه وحثيث له يسوق ، يومئذٍ تُعرضون ثم تتميَّزون فمؤمن مع نبيه ، ومجرم معه يغوث ويعوق . . .) إلىٰ آخر ما قال .

وكان له توجُّهٌ صادق في قضاء حوائج الناس ، وقيامٌ طويل في الليل بثلث القرآن وأكثر في كلِّ ليلةٍ .

وأتاه مرَّةً شخصٌ من العصاة الذين يقطعون الطريق ، فقال : اكتبْ لي ورقةً بأنَّ لي عند فلانٍ ثمنَ ثور ، فقال : حتىٰ يأتي أحدٌ يشهد لك ، فغضب العاصي ، وتوعَّده بالقتل ، وصار يكمنُ لقتله كلَّ ليلة ، فقال له أخي الشيخ عبد القادر : يا سيدي ؛ ادعُ علىٰ هـٰذا المنافق ، فقال : يا ولدي ؛ في الله كفايةٌ ، ثم نام تلك الليلة ، فرأىٰ هاتفاً يقول له : بعد غدٍ تقطعُ رأس عدوِّك في ساحل البحر قبل طلوع الشمس ، فكان الأمرُ كذلك ، فبينما نحن معه راجعون من الجامع بعد صلاة الصبح إذ وجدهُ حسامُ الدين بن بغداد ، فقطعَ رأسَهُ .

وكان اشتغالهُ بالعلوم علىٰ والدِهِ ، ووالدُهُ أخذ العلم عن شيخ الإسلام صالح البلقيني ، وعن الشيخ يحيى المناوي ، وعن الحافظ ابن حجر .

وقد كنتُ أقرأُ عليه مرَّةً في سورة (والصافات) ، فلما بلغتُ قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [٥٥ـ ٥٦] فبكىٰ حتىٰ أُغمي عليه ، وصار يتمرَّغُ في الأرض كالطير المذبوح ، وكان عمري إذ ذاك نحو ثمان سنين .

وصنَّف عدَّةَ مؤلفات في علم الحديث والنحو والأصول والمعاني والبيان ، فنُهبتْ مؤلفاته كلُّها فلم يتغير وقال : قد ألَّفناها لله ؛ فلا علينا أن يَنسبَها الناسُ إلينا أم لا ، والحمد لله رب العالمين .

ومنهم :

(٥١٠) شيخُنا العالم الصالح ، المفنن في العلوم ، والمعدُّ لحلِّ المشكلات سيدي علي النَّبْتِيتي الضرير رضي الله عنه[١]

كان له مكاشفاتٌ غريبة ، وأخلاق شريفة ، وخوفٌ عظيم من الله تعالىٰ حتىٰ كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له وحده .

وكان علىٰ قدم عظيم في العلم والعمل ، جبلاً في العلوم الظاهرة والباطنة والأخلاق المرضية .

وكان مخصوصاً في عصره بالاجتماع بالخضر عليه السلام من بين العلماء ، وذلك من علامة كماله وتمكُّنِهِ في مقام الولاية ؛ فإن أشياخَ الطريق أجمعوا أنه لا يقدرُ علىٰ صحبة الخضر في اليقظة إلا من حُقَّ له مقامُ الولاية الكبرىٰ ؛ لعزَّةِ اجتماعه ، وعزَّة شرائطه في صحة الاجتماع به ، وكيف لأحدٍ أن يصحبَهُ وقد وقعَ له مع السيد موسىٰ ما وقع ، وكان آخرُ أمره أن قال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] ؟! لٰكنْ يراه بعضُ المريدين في المنام ؛ لعجزهم عن مجالسته في اليقظة .

وقد رأيته عليه السلام في بداية أمري ، وعلَّمني ميزاناً في العقائد ، وميزاناً في الشريعة يردَّانِ جميع أقوال العلماء إلىٰ مرتبتين :

أما ميزان العقائد في الله تعالىٰ فقال لي : كلُّها ترجعُ إلى الإطلاق والتقييد ؛ أي :

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٣٥٣) (٣٤٧) ، وستأتي في « الذيل » (٥/ ٢١) (٢) .

التنزيه والتشبيه ؛ فالتنزيه : علمُ الله تعالىٰ بنفسه ، والتشبيهُ علمُ الخلق بربهم ؛ فكل ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الأئمة مما يعطي ظاهره التشبيه فرجْعه إلىٰ علم الخلق ، وكلُّ ما جاء من التنزيه رجْعه إلىٰ معرفة الحقِّ تعالىٰ بنفسه ، ولا يحتاجُ مع ذلك إلىٰ تأويل أبداً .

فأما ميزان الشريعة : فكلُّها ترجعُ إلىٰ مرتبتين ؛ تخفيفٌ ، وتشديد ؛ أي : عزيمةٌ ورخصةٌ ، فمن قَوِيَ من الخلقِ خُوطب بالعزائم ، ومن ضعفَ منهم خُوطب بالرخصة بشرطها المعروف عند العلماء .

ثم قال لي : امتحنْ ذلك بمذهبك مع غيره ، أو بالقول الأصحِّ في مذهبك ، مع مقابله يتَّضحْ لك ذلك ؛ لأنَّ أحدَ القولين لا بدَّ أن يكونَ مائلاً إلى التشديد ، والآخرَ إلى التخفيف ، فمن ذاقَ ذلك لم يرَ في الشريعة المطهَّرةِ تناقضاً أبداً . انتهىٰ .

وقد شرحتُ هـٰذين الميزانين بنحو كرَّاستين ، وكتب عليهما علماءُ مصر ، وأذعنوا لهما تسليماً وتقليداً ، لا ذوقاً ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

وكان أول اجتماعي بسيدي علي في المدرسة الكاملية بخطِّ بين القصرين ، وأملاني حديثَ عائشة رضي الله عنها الذي رواه الطبراني وغيرُهُ مرفوعاً ، « مَنْ أرضى الناسَ بسخطِ اللهِ سخطَ اللهُ عليهِ ، وأَسخطَ عليهِ الناسَ ، ومَنْ أرضى اللهَ بسخطِ الناسِ رضيَ اللهُ عنه ، وأرضىٰ عنهُ الناسَ »[1] .

ثم قرأتُ عليه بعضَ دروسٍ من كتاب « المنهاج » في الفقه ، لتكون له شياخةٌ عليَّ .

وسألتُهُ عن **شروط الاجتماع بالخضر** عليه السلام ، فقال لي : (**هي ثلاثةُ شروط** :

الأولىٰ : أن يكونَ علىٰ سُنة في جميع أحواله .

والثاني : ألا يكون له حرصٌ على الدنيا ، ولا يبيتَ علىٰ دينار ولا درهم إلا لدينٍ .

---

(١) المعجم) الكبير (١١/ ٢٦٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : (١٠/ ٣٨٦) : (رجاله رجال الصحيح) ورواه عن عائشة الترمذي (٢٤١٤) بلفظ مقارب .

والثالث : أن يكونَ سليمَ الصدر لأهل الإسلام ، ليس في قلبه غلٌّ ، ولا حقدٌ ، ولا حسدٌ لأحد منهم .

ثم قال : فمن لم تجتمع فيه هٰذه الشروطُ لا يجتمعُ به الخضرُ ، ولو كان علىٰ عبادةِ الثقلين) انتهىٰ .

وقد رأيتُ في « رسالة القشيري » ما يؤيِّدُ الشرطَ الثاني ، وذلك أنَّ أبا عبيدِ الله البُسري رضي الله عنه كان يجتمع بالخضر عليه السلام يقظةً ، ويحادثُهُ كثيراً ، ثم انقطعَ عنه الخضرُ ، فصار يراه في النوم دون اليقظة ، فقال في نفسه : لابدَّ أن يكون سبق منكِ هفوةٌ ، ثم إنه رأى الخضر ، فسأله عن سبب انقطاعه عنه في اليقظة ، فقال : أَتَذْكُرُ يوماً قلتَ فيه لزوجتك : ضعي هٰذا الدرهمَ على الرفِّ إلىٰ بكرةِ النهار ؟ فقال : نعم ، فقال : نحن لا نصحبُ من يدَّخرُ قوتَ غدٍ ، ثم لم يزل يراه في المنام دون اليقظة إلىٰ أن مات البسريُّ رحمه الله .

وسيأتي في ترجمة شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه[1] : أن سيدي علياً سأل الخضرَ عليه السلام عن حال الشيخ زكريا ، فقال : ونعم منه ، إلا أن عنده نُفيسةً تزولُ إن شاء الله تعالىٰ ، فلما أعلمه سيدي عليٌّ بذلك تكدَّرَ وصار كلَّ ناقصةٍ وقعَ فيها يقول : لعلَّ هٰذه هي مرادُ الخضر ، فأرسلَ يسألُ سيدي علياً أن يسأل له الخضرَ عن تلك النفيسة ، فرآه بعد سبع شهور ، فقال : إنه يرسلُ قاصدَهُ إلى الأمراء ويقول لأحدهم : قل للأمير : يقولُ لك الشيخُ زكريا : كذا وكذا ، ويُسمي نفسَهُ شيخاً ، فقال الشيخ زكريا : صدق عليه السلام ، ومن ذلك اليوم صار يقولُ : (زكريا) من غير لفظ شيخ .

وأخبرني الشيخ عمرُ المفتي ولدُ الشيخ سيدي عليٍّ : أن يدَ والده لم تزل ممدودةً نحو السماء ؛ إذا جلس ، وإذا مشىٰ ، وإذا اضطجع ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الحقَّ تعالىٰ عطاؤه فيَّاض في الليل والنهار علىٰ عباده ، فأنا أتعرَّضُ لذلك في كل الأوقات ، فكما لا يملُّ تعالىٰ من العطاء ، فكذلك العبدُ من شدَّةِ فاقته لا يملُّ من الأخذ . انتهىٰ .

---

(١) انظر (٤/ ٤٠١) .

وعارضه السلطانُ قايتباي في طاحونه بالخانقاه السرياقوسية ، وأراد هدمَها وإعطاءه رزقةً مكانها ، وكان صوتُها يشوِّشُ على السلطانُ وهو جالسٌ في قصره الذي بناه عند البحرة بالخانقاه ، فقال له سيدي علي : يا قايتباي ؛ ليس لك قدرةٌ علىٰ توجُّه الفقراء إلى الله فيك ، فاكفهم شرَّك ، فارتعدَ السُّلطان من كلامه ، ورجع عما كان أراد وقال : هـٰذا نَفَسُ من لا يخاف إلا الله . انتهىٰ .

وكانت إقامةُ الشيخ رضي الله عنه بناحية نبتيت ، والناسُ يقصدونه للعلم والاستفتاء والتبرُّك من سائر الآفاق .

وكانت الأسئلةُ تأتيه من مصر والشام والحجاز في المشكلات ، فيجيبُ عنها نظماً ونثراً بأوضح جواب .

وكان إذا دخلَ مصرَ تهرعُ إليه الخلائقُ من العلماء والأكابر يزورونه .

وكان يجلس في الصُّفَّة التي علىٰ يسار الداخل للإيوان الذي فيه المحراب من المدرسة الكاملية ؛ لكونه كان مجلسَ شيخه الشيخِ كمالِ الدين إمامِ الكاملية ، رضي الله عنه .

وكانت نصوصُ الإمام الشافعي وأقوالُ مقلِّديه من المتقدِّمين والمتأخِّرين كأنها نصبُ عينيه .

وكان إذا سُئل عن مسألة يقول للطالب : افتح الكتاب الفلاني ، وعدَّ كذا كذا سطراً من الورقة الفلانية تجدِ المسألةَ ، فيجدها الطالب كما قال من شدَّة نور قلبه ، رضي الله عنه .

وكان إذا نزلَ ببلده أو إقليمه بلاءٌ يقول : (هـٰذا كلُّهُ بذنب عليٍّ ، فلو أخرجتموه من بلادكم لخفَّ عنكم البلاء) .

وكان إذا نزلَ بالمسلمين بلاءٌ لا يأكلُ ، ولا ينام ، ولا يضحك ، ويقول : هـٰذا من شرط المؤمن .

وكان يفحصُ في الأرض ويبكي كالطير المذبوح في الليل .

وكان وقتُه كلُّهُ معموراً بالعبادة ليلاً ونهاراً .

وكان يقول لأصحابه : (إياكم أن تغترُّوا بكثرة طاعاتكم وتقولوا : ما بقي لإبليس علينا سبيل ، فيغويكم ويأخذُكم إلى النار وأنتم لا تشعرون) .

وكان يقول : (لا يكمل الرجلُ في العقل إلا إن كان كاتبُ الشمال لا يجد شيئاً من أعماله يكتبه) .

ومناقبه رضي الله عنه في بلاده كثيرةٌ مشهورةٌ ، ومن نظمه : [من الوافر]

وما ليْ لا أنوحُ علىٰ خطائِي ... وقدْ بارزتُ جبَّارَ السَّماءِ
قرأتُ كتابَهُ وعصيتُ سرّاً ... لعظمِ بليَّتِي ولشؤمِ رائي
بلائِي لا يُقايسُهُ بلاءٌ[1] ... وأعمالِي تدلُّ علىٰ شقائِي
فيا ذُلِّي إذا ما قالَ ربِّي ... إلى النيرانِ سُوقوا ذا المُرائِي
فهٰذا كانَ يَعصيني جهاراً ... ويزعمُ أنَّهُ منْ أوليائِي
تصنَّعَ للعبادِ ولمْ يُردْني ... وكانَ يُريدُ بالمعنىٰ سوائي

إلىٰ آخر ما قال .

توفِّي رضي الله عنه يومَ عرفة سنة سبعَ عشرةَ وتسع مئة ، ودفن ببلده ، وقبرُهُ بها ظاهرٌ يزار ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥١١) شيخي وقدوتي إلى الله تعالى ، الشيخُ العلامة ، الورع الزاهد الشيخ حسن الشامي ثم الغمريُّ الضرير رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كان عالماً عاملاً ، حافظاً لمتون الكتب الشرعية وآلاتها علىٰ ظهر قلب .

وكان حافظاً للسانه ، ملازماً لشأنه ، مواظباً على الطهارة الظاهرة والباطنة ، غزيرَ الدمعة ، لا يسمعُ آيةً أو حديثاً أو شيئاً من أحوال السلف أو أحوال أهوال يوم القيامة إلا بكىٰ حتىٰ أرحمُهُ من شدَّة البكاء .

---

(١) في (ز) ، و« الطبقات الكبرىٰ » : (لا يقاس به) بدل (لا يقايسه) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٣٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٣) ، وفيهما : (حسن بن إسكندر بن حسن بدر الدين النصيبي الحلبي) ، وسترد ترجمته في « الذيل » (٥/ ٢٦) (٣) .

وكان كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، أمّاراً بالمعروف ، لا يُداهن أحداً في دين الله عز وجل .

وهو أكثرُ أشياخي نفعاً لي ، قرأتُ عليه القرآن بعد والدي تجويداً ، وقرأتُ عليه « المنهاج » و« الألفية » و« الشاطبية » و« التوضيح » و« جمع الجوامع » و« تلخيص المفتاح » و« قواعد الإعراب » ، وكنت أقرأ عليه الماضي ، ويُعْلِمني بمتشابهاتها كأنها قرآن ، وربما ختمتُ أنا وإياه كتاب « المنهاج » في مجلس واحد .

وقد ذكرتُ عدَّةَ الكتب التي شرحتها عليه في كتاب « المنن » .

وكان يُحبُّني محبّةَ الوالد لولده ، ويُطعمني كلَّ ما اشتهته نفسي وأنا صغير ، ويقول : (يا ولدي ؛ مقصودي لك أن تُحيطَ علماً بكلِّ علمٍ ، وبكلِّ مطعمٍ وملبس قطعاً لخاطر النفس) .

وكان كثيراً ما يقولُ لي : مقصودي اليومَ آكلُ أنا وإياك من الحلال ، فأقول له : في أيِّ المواضع ؟ فيقول : في بركة الخازندار خارجَ مصر ، فأقودُه إليها ، فيجلس على شاطئها ويقول : اجمع لي من ورق الخسِّ والجزر والفجل ما تراه في جانب الشطِّ مما تساقطَ من الذين يغسلون الخضراوات من الطين ، فألتقطُ له شيئاً من ذلك ، فيأكله ، ويشربُ من البركة ويقول : الحمد لله الذي أَطعمنا هٰذا اليوم حلالاً لا شُبهة فيه ، فلا أزال أُطالع له حتىٰ تصفرَّ الشمس ، ثم يرجعُ إلىٰ جامع الغمري ، وربما واظبنا علىٰ مثل ذلك الأسبوع كاملاً لا يذوقُ طعاماً ولا شراباً غير الورق والشرب من البركة ، ولم أجد في عصره أحداً من العلماء يفعلُ مثلَ ذلك .

وكان رضي الله عنه إذا أعطاه أحدٌ شيئاً وشكَّ فيه يشتري به حطباً للطعام ، أو صابوناً لغسيل الثياب ويقول : إنه أهونُ من الأكل والشرب من حيث الحساب .

وكان رضي الله عنه لا يتركُ قيامَ الليل في شتاء ولا صيف ، ويأمرني بذلك ، فربما كنتُ أقوم الليل بكلِّ القرآن في ركعةٍ .

وكان مواظباً علىٰ قراءة الأوراد والأذكار الواردة في سائر الأحوال سفراً وحضراً في أوقاتها ، لا يكاد يخلُّ منها بشيء إلا لمرضٍ ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه في سنة نيِّفٍ وخمسين وتسع مئة[1] ، ودفناه في مقبرة الفقراء المتعلِّقة بزاويتنا خارج باب النصر رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٥١٢) شيخنا الإمامُ العلامة ، المحققُ الصالح ، الزاهد الصوفي المحدِّث الشيخ شمسُ الدين الدَّواخلي[2]

نسبةً إلىٰ محلة الداخل[3] ، قريباً من المحلة الكبرىٰ .

أخذ العلم عن شيخ الإسلام زكريا ، وعن شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، وعن الشيخ كمال الدين الطويل ، وعن الشيخ شمس الدين بن قاسم ، وعن الشيخ شمس الدين الجوجري ، وعن الشيخ فخر الدين المقسي ، وعن الشيخ عبد الرحيم الأَبناسي ، وعن الشيخ شمس الدين بن المغربل ، وخلائق .

ودرَّس العلومَ بجامع الغَمْري وغيره ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون .

وكان مخصوصاً بالفصاحة في قراءة الحديث وكتب الرقائق والسير ، يقولُ سامعُهُ : ما سمعت أحداً ألذَّ قراءةً منه .

وكان حلوَ اللِّسان ، كثيرَ الأدب ، كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، كثيرَ العبادة وقيام الليل .

وكان لا ينامُ في شيء من ليالي رمضان كلِّها .

وكان قلبُهُ خزانةً للعلوم الشرعية .

وصحب سيدي الشيخ أبا العباس الغَمْري وغيرَهُ من أولياء العصر .

وكان يُصبح وجهُهُ كلَّ ليلة كأنه قطعةُ شمس أو قمر من كثرة قيام الليل .

---

(١) ذكره ابن العماد في « الشذرات » (١٠/ ٤١٣) ، ضمن وفيات سنة (٩٥١هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٦٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٢٨) (٤) .

(٣) **الداخل** : من القرى القديمة ، حسنة ، لها بساتين وجنات ، حُرِّفَ اسمها إلى الدواخلية . « قاموس رمزي » (٢/ ٢/ ١٥) .

لازمتُهُ نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتب عليه خطيئةً واحدةً من شدَّة ضبط لسانه .

وكان كثيرَ البكاء من خشية الله ، يحبُّ الخمولَ وعدمَ الشهرة إلىٰ أن مات رضي الله عنه سنة تسعٍ وثلاثين وتسع مئة ، ودفن بتربة دجاجة ، خارج باب النصر رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥١٣) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ جلالُ الدين السُّيوطي رحمه الله(١)

قد كان رضي الله عنه يقول : (قد أشاع الناسُ عني أنني ادَّعيت الاجتهادَ المطلق كأحدِ الأئمة الأربعة ، وذلك باطلٌ عني ، إنما مُرادي بذلك المجتهد المنتسب ؛ فإن الاجتهادَ علىٰ نوعين :

أحدهما : المجتهد المطلق المستقلُّ : وهٰذا النوعُ قد فُقِدَ من القرن الرابع ، ولا يُتصوَّر وجوده الآن ، ولم يدَّعه أحدٌ بعد الإمام الشافعي رضي الله عنه إلا ابن جرير خاصة .

النوع الثاني : المجتهد المطلق المنتسب : وهٰذا هو المستمرُّ إلىٰ أن تقوم الساعة ، وفي أصحاب الشافعي من أهل هٰذا النوع كثيرٌ ؛ كالمزني ، وابن سريج ، والقفَّال ، وابن خزيمة ، وابن الصباغ ، وإمام الحرمين ، وابن عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ، والشيخ تقي الدين السُّبكي ، وولده عبد الوهاب ؛ فإنه كتبَ مرَّةً لنائب الشام : أنا مجتهد الدنيا على الإطلاق ، لا يقدر أحدٌ يردُّ عليَّ هٰذه الكلمة ؛ فكلُّ هٰؤلاء مجتهدون منتسبون ، وكذلك القولُ في أصحاب الإمام مالك ؛ كابن وهب

(١) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٦٥) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٢٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٧٤) ، و« البدر الطالع » (ص ٣٦٧) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٣٠) (٥) .

وأضرابه ، بلغوا الاجتهاد المُطلق في مذهب مالك ، وكذلك أبو يوسف ومحمد بلغا الاجتهاد المطلق ، قال الشيخ جلال الدين : ومع ذلك فلم يخرج هـٰؤلاء عن تبعيَّتهم لإمامهم ، فمن أنكر الاجتهاد مطلقاً فهو جاهل . انتهىٰ .

فنزِّل يا أخي هـٰذا علىٰ ما تنقله عنه في شأن الاجتهاد كذلك .

وقد كان الشيخُ جلالُ الدِّين رحمه الله تعالىٰ علىٰ قدم السلف الصالح من العلماء العاملين ، والأكابر من العارفين .

وكان رضي الله عنه له مكاشفاتٌ غريبةٌ ، وخوارقُ وعلومٌ جمَّة ، ومصنفاتٌ جيدة كثيرةُ الفوائد .

أرسل لي ورقةً مع والدي بإجازته لي بجميع مروياته ومؤلفاته ، ثم لما جئتُ إلىٰ مصر قُبيل موته اجتمعت به مرةً واحدةً ، فقرأتُ عليه بعضَ أحاديث من الكتب الستة ، وشيئاً من « المنهاج » في الفقه تبرُّكاً ، ثم بعد شهر سمعتُ ناعيَه ينعي موته ، فحضرتُ الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأباريقي بالروضة عقبَ صلاة الجمعة ، وفي سبيل المؤمنين ، وعند الجامع الجديد بمصر العتيق ، رضي الله عنه .

بعض مناقب السيوطي رحمه الله تعالىٰ :

وقد جمع الشيخ عبد القادر الشَّاذليُّ بعضَ مناقبه في جزءٍ ، وهـٰأنا ملخِّصٌ لك عيونَهُ ، فأقول وبالله التوفيق :

كان الشيخ جلال الدين رحمه الله مجبولاً على الخصال الجميلة : من صفاء الباطن ، وسلامة السريرة ، حَسَنَ الاعتقاد ، زاهداً ، ورعاً ، مجتهداً في العلم والعمل ، لا يتردَّدُ إلىٰ أحد من الأمراء والملوك وغيرهم مدَّةَ حياته رضي الله عنه .

وكان يُظهر كلَّ ما أنعم الله تعالىٰ به عليه من العلوم والأخلاق ، ولا يكتم منها إلا ما أُمِرَ بكتمه ؛ عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ : ١١] .

وكان من لا يعرفُ مقصدَهُ يقول : فلان عنده دعوىٰ عظيمة ، وسيأتي ما يشهدُ له أوائل خاتمة هـٰذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وكان رضي الله عنه يُفتي بتحريم الاشتغال بعلم المنطق ، وينقلُ تحريمَ ذلك عن

شيخه علم الدين البُلقيني ، وألَّفَ كرَّاسةً في ذلك سمَّاها « الغيث المُغدق في تحريم المنطق » وكتبه جماعة ، قال : وهاذه الواقعةُ من أول وقائعي التي قام الناسُ عليَّ فيها .

وكان يقول : (ينبغي للمدرِّس أن يقرأَ سورة : « تبارك الذي بيده الملك » وسورة « الإخلاص » و« المعوذتين » و« الفاتحة » كلما أراد أن يُدرِّسَ) ، وينقلُ فعل ذلك عن شيخ الإسلام علم الدين صالح البُلقيني رحمه الله .

وكان يقول : (أخذتُ علمَ الحديث عن ست مئة نفس) .

وقد نظمَهُم في أرجوزةٍ قال : (وهم أربعُ طبقات :

الأولىٰ : من يروي عن أصحاب الفخر بن البخاري ، والشرف الدمياطي ووزيره ، والحجَّار ، وسليمان بن حمزة ، وأبي نصر بن الشيرازي ، ونحوهم .

الثانية : من يروي عن السراج البُلقيني ، والحافظ أبي الفضل العراقي ، ونحوهما ، وهي دون التي قبلها في العلوِّ .

الثالثة : من يَروي عن الشرف بن كويك ، والجمال الحنبلي ، ونحوهما ، وهي دونَ الثانية .

الرابعة : من يروي عن أبي زُرعة العراقي ، وابن الجزري ونحوهما ، وهاذه لتكثير العدةِ ، وتكبير المعجم ، ولم أروِ عنها شيئاً لا في الإملاء ، ولا في التخريج ، ولا في التأليف) .

وصنَّفَ رحمه الله في مكةَ لما حجَّ وجاور كراسةً علىٰ نمط « عنوان الشرف »[1] في يوم واحدٍ ، يحتوي علىٰ نحوٍ ، ومعانٍ ، وبديع ، وعروض ، وتاريخ .

وكان يقولُ : (لما حججتُ شربتُ ماءَ زمزم علىٰ نيَّة أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدين البُلقيني ، وفي الحفظ للحديث كالحافظ ابن حجر) .

---

(١) عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي : لشرف الدين ابن المقري إسماعيل اليمني المتوفىٰ سنة (٨٣٧هـ) كتاب بديع في مجلد صغير . انظر « كشف الظنون » (٢/ ١١٧٥) .

وكان يقول : (انقطع إملاءُ الحديث بالديار المصرية بعد الحافظ ابن حجر عشرين سنة ، فابتدأت في إملاء الحديث مُستهلَّ سنة [اثنتين][1] وسبعين وثمان مئة في جامع ابن طولون) ، قال : (وأولُ من أملى الحديثَ فيه الربيعُ بنُ سليمان صاحبُ الإمام الشافعي رضي الله عنه) .

قال : (وإنما اخترتُ الإملاء يومَ الجمعة بعد الصلاة اتباعاً للحفَّاظ المتقدِّمين ؛ كالخطيب البغدادي ، وابن السمعاني ، وابن عساكر ، خلافَ ما كان عليه العراقي ، وولده ، وابنُ حجر ؛ فإنهم كانوا يُمْلون يوم الثلاثاء) .

قال : (وكان في بداية إفتائي سنة إحدىٰ وسبعين وثمان مئة ، وخالفني أهلُ عصري في خمسين مسألة ، فألَّفتُ في كلِّ مسألةٍ مؤلفاً بيَّنتُ فيه وجهَ الحق) .

قال : (ولما بلغتُ مرتبةَ الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي وإن كان الراجحُ عندي خلافَهُ .

ولما بلغتُ إلىٰ رتبة الاجتهادِ المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، كما كان القفَّال يُفتي بعد بلوغه درجةَ الاجتهاد المطلق ، فكان يُفتي بمذهب الإمام الشافعي ، لا باختياره ، ويقول : السائلُ إنما سألني عن مذهب الإمام الشافعي ، لا عمَّا عندي أنا من العلم ، مع أني لم أخترْ شيئاً خارجاً عن المذهب إلا يسيراً جداً ، وبقيَّةُ ما اخترتُهُ هو من المذهب ؛ إما قول آخر للشافعي ؛ قديم أو جديد ، أو وجه في المذهب لبعض أصحابه ، وكل ذلك راجع إلى المذهب ، وليس بخارج عنه) .

وله من المؤلفات أربع مئة وستون مؤلفاً ، مذكورة في كتاب « فِهْرِسْت » كتبه ، من عشر مجلدات إلىٰ ما دونها ، وانتشرت مؤلفاته في البلاد الحجازية ، والشامية ، والحلبية ، وبصرىٰ ، والروم وبلاد التكرور ، والمغرب ، والهند ، واليمن ، وغيرها .

وكان يقول : (مما أنعمَ اللهُ به عليَّ هـٰؤلاء الجماعة الذين انتصبوا لعداوتي

---

(١) في النسخ : (اثنين) .

وآذوني ؛ وذلك ليكون لي أسوةٌ بالأنبياء والمرسلين ، وقد كان أبو الحسن الشاذليُّ يقول : لمَّا علمَ اللهُ عزَّ وجل ما سيُقال في أنبيائه وأصفيائه من الزُّور والبهتان قضىٰ علىٰ قوم بالشقاء ، فنَسَبُوا له زوجةً وولداً ، ونسبوا الأنبياء إلى السحر والجنون ، حتىٰ إذا ضاقَ ذرعُ الوليِّ من كلام قيل فيه نادته هواتفُ الحقِّ : أما تَرضىٰ أن يكونَ لك أسوةٌ بي وبأنبيائي فيما نُسب إليَّ وإليهم من البهتان ، فهناك يسكنُ قلبُ الولي ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين) .

وكان يقول : (قد رزقني اللهُ التبحُّرَ في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع علىٰ طريقة العرب والبلغاء ، لا علىٰ طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة) .

قال : (ودون هٰذه السبعة في المعرفة : أصولُ الفقه ، والجدل ، والتصريف ، والفرائض ، والإنشاء ، والترسُّل ، والقراءات ، والطب ، والحساب) .

وكان يقول : (قد بلغتُ مقامَ الكمال في جمع آلات الاجتهاد المطلق المنتسب ، وصرَّحتُ بذلك تحدُّثاً بنعمة الله عز وجل ، لا فخراً بالدنيا ، وأيُّ قدر للدنيا حتىٰ يُطلبَ تحصيلها بالفخر ، وقد أزف الرحيل ، وبدأ الشيبُ ، وذهب العمر ، ولو أني أردتُ أن أكتب في كلِّ مسألة مُصنَّفاً يحتوي علىٰ أدلَّتِها وتفاصيلها وفروعها لفعلتُ ، كلُّ ذلك بفضل الله لا بحولي وقوتي) .

وكان يقول : (قد استنكرَ جماعةٌ بلوغي مرتبةَ الاجتهاد المطلق في الفقه والحديث والعربية ؛ لظنِّهم انفرادي بذلك بعد الأئمة المجتهدين ، وغاب عنهم أنها كانت مجتمعةً في الشيخ تقيِّ الدين السُّبكي رحمه الله ، وقبله جماعةٌ اتَّصفوا بالاجتهاد المطلق ؛ لٰكن في الفقه فقط ، وأما الجامعون بين هٰذه الثلاثة علوم فقليلٌ ، ولم تجتمع في أحد بعد السُّبكي غيري) .

قال : (ولا يُظَنَّ أن من لازم المجتهد المطلق : أن يكونَ مجتهداً في الحديث ، مجتهداً في العربية ؛ لأنهم قد نصُّوا علىٰ أنه لا يشترطُ في الاجتهاد المطلق التبحُّرُ في العربية ، بل يكتفىٰ فيها بالتوسُّط .

ونصُّوا في الحديث علىٰ ما يؤدِّي إلىٰ مثل ذلك ، والاجتهاد في الحديث : هو المرتبةُ الذي إذا بلغها الإنسان سُمِّي في عرف المحدِّثين بالحافظ ، وقد وُصِفَ بالاجتهاد المطلق من لم يُوصف بالحافظ ؛ كالشيخ أبي إسحاق الشِّيرازي ، وأبي نصر ابن الصباغ ، وإمام الحرمين ، والغزالي ، وقد روىٰ هـٰؤلاء في مؤلفاتهم أحاديثَ احتجُّوا بها وهي مُنكرةٌ نبَّه عليها ابنُ الصلاح وغيره ؛ كالنووي .

فعُلم : أن خفاءَ بعض الأحاديث لا يقدحُ في مقام الاجتهاد ، إذ ليس من شرط المجتهد أن يُحيطَ علماً بكل حديث في الدنيا ، وقد علَّقَ الإمامُ الشافعيُّ الأخذَ بعدَّة أحاديث خفيتْ عليه علىٰ صحَّتها بعده وقد صحَّتْ عند غيره ، بل وقعَ ذلك لأكابر الصحابة ؛ كعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه ، فكان يقضي بأشياءَ تُخالف الحديثَ حتىٰ يُحدِّثوه بها ، فيرجع عن أقضيته) .

قال : (وقد بلغ الشيخُ أبو محمد الجُويني رتبةَ الاجتهاد المطلق ، وألَّفَ كتابه « المحيط » والتزم فيه الوقوفَ مع الحديث وعدم التقيد بالمذهب ، فوقع للإمام البيهقيِّ منه ثلاثةُ أجزاء في حياة المصنف ، فتعقب فيه أوهاماً حديثية ، وأرسلَ بذلك إلى الجويني ؛ من جملتها : الشيخُ أهلٌ أن يجتهدَ ويتخيَّرَ ، ولـٰكن يحتاجُ إلىٰ ثبوت الحديث الذي احتجَّ به ؛ فإنه غيرُ ثابت ، فانظر كيفَ سلَّمَ له رتبة الاجتهاد مع خفاء أمر تلك الأحاديث عليه) .

قال : (وقد كان سراجُ الدين البُلقيني مُجتهداً مُطلقاً ، وكان من حفَّاظ الحديث أيضاً ، ووصفه تلميذُهُ الحافظ ابنُ حجر بالحفظ ، وذكرَهُ في « طبقات الحفَّاظ » ، ولـٰكن لم يكن في الرتبة العليا من الحفظ والتعديل ، كان معاصرُهُ الحافظُ أبو الفضل العراقي أحفظَ منه ، وأجلَّ في الفنِّ الحديثي والنقد بكثير ، وكانت عربيَّةُ البلقيني وسطىٰ ، وأما بقيَّةُ من جاءَ من المجتهدين بعد السُّبكي إلى اليوم فلم يكن فيهم من يبلغ رتبة البُلقيني في الحديث ، وأما قبل السُّبكي فاجتمعَ الاجتهادُ في الأحكام والحديث لخلق ؛ منهم ابنُ تيمية ، وابن دقيق العيد ، والنووي ، وقبله أبو شامة ، وقبله ابن الصلاح ، وأما قبلَه من المتقدمين فكثيرٌ جدّاً .

وأما الاجتهادُ في العربية فلم يجئ بعد ابنِ هشام من يصلحُ لأن يُوصف به غيري ،

إلا ما بلغني عن الغماري ، وقبل ابن هشام خلائقُ ؛ كأبي حيان ، والأُبَّذي[1] ، وابن الضائع[2] ، وابن مالك) .

قال : (وغالبُ الناس لا يعرفون الاجتهاد في الحديث والعربية ، وإنما يعرفون الاجتهاد في الشريعة فقط ، وقد قال الإمامُ الرازي في « المحصول » ما نصُّه : « المعتبرُ في الإجماع وكلِّ فنٍّ مَنْ كان من أهل الاجتهاد في ذلك ، وإن لم يكونوا من أهل الاجتهاد في غيره ») انتهىٰ .

وألَّف الشيخُ كتباً في بيان شروطِ الاجتهاد المطلق ؛ منها : « إرشاد المهتدين إلىٰ نصرة المجتهدين » ، ومنها : « تيسير الاجتهاد وبيان ما له من الاستناد » ، ومنها : « الردُّ علىٰ من أخلد إلى الأرض ، وجهل أن الاجتهادَ في كل عصر فرض » ، وأطال في ذلك .

ثم قال : (فالعبرةُ في مسائل الكلام بالمجتهد في الكلام ، وفي مسائل الفقه بالتمكُّن من الاجتهاد في مسائل الفقه ، فلا عبرةَ بأهل الكلام إذا تكلَّموا في الفقه ، ولا بأهلِ الفقه إذا تكلَّموا في علم الكلام ؛ بل من تمكَّنَ في الاجتهاد في الفرائض دون المناسك يُعتبر وفاقه وخلافه في الفرائض دون المناسك) .

وقال أبو الحسين البصري : (لا يجوزُ التقليدُ في أصول الفقه ، كما لا يجوز الاجتهادُ في أصول الدين ، ولا يكون كلُّ مجتهد فيه مصيباً ، بل المصيبُ فيه واحدٌ ، بخلاف الفقه في الأمرين) . قال : (والمخطئ في أصول الفقه غير معذور ، بخلاف الفقه ؛ فإنه معذورٌ غيرُ ملوم ، فهـٰذه ثلاثُ قواعد خالف فيها الفقه ؛ لأن أصولَ الفقه ملحقٌ بأصول الدين ، ومطالبه قطعية) انتهىٰ . فانظر يا أخي إلىٰ كلام الإمام وأبي الحسين كيف أطلقا الاجتهادَ والمجتهد في أصول الفقه وسائر الفنون .

ثم قال : (ولنتكلم علىٰ هـٰذه الاجتهادات الثلاث :

---

(١) في النسخ : (الأبدي) بالدال ، والصواب بالذال : الأبذي ـ نسبة إلى أُبَّذة بالأندلس ـ : علي بن محمد بن محمد نحوي من أحفظ الناس بكتاب سيبويه ، والواقفين على غوامضه ، توفي سنة (٦٨٠هـ) . انظر « بغية الوعاة » (٢/ ١٩٩) .

(٢) في النسخ : (الصائغ) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وهو : علي بن محمد ابن الضائع الإشبيلي عالم بالعربية شرح «كتاب سيبويه» و«جمل الزجاجي»، توفي سنة (٦٨٠هـ) .

فأما الاجتهادُ في العربية : فهو أن يحيط بنصوص أئمةِ الفنِّ من سيبويه إلىٰ زمانه هـٰذا ، ويحفظ غالبَ شعر العرب الذين يحتجُّ بأشعارهم في العربية ، ولا يضرُّ خفاءُ بعض ذلك عليه ، وليس المرادُ حفظها عن ظهر قلب ، وإنما المرادُ أن يكون له اطِّلاعٌ علىٰ دواوينهم ، بحيث يعرفُ محلَّ الاستدلال بذلك من الكتب ، ويكون مع ذلك مُحيطاً بقواعد النحاة التي بنوا تصرُّفاتهم عليها ، غير القواعد المذكورة في واضحات الكتب ؛ فإن تلك كالأصول لهـٰذه القواعد ، وهـٰذا لا يعرفُهُ الآن إلا مُتبحِّرٌ في الفن) .

قال : (وقد ألفتُ في هـٰذه القواعد كتاباً يجمع أصولَ النحو علىٰ مصطلح قواعد الفقه .

وأما الاجتهاد في الحديث : فقال الحافظ المِزِّي : أقلُّ مراتب الحافظ أن يكون الرجالُ الذين يعرفُهم ويعرفُ تراجمَهم وأحوالَهم وبلدانهم أكثرَ من الذين لا يعرفهم ؛ ليكونَ الحكمُ للغالب ، وأما ما يُحكىٰ عن المتقدِّمين من قولهم : كنا لا نعدُّ صاحبَ حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث ، فهو بحسب زمانهم .

وكان الحافظ ابنُ حجر يقول : « الشروط التي إذا اجتمعتْ في الإنسان سُمي حافظاً هي الشهرةُ بالطلب ، والأخذ من أفواه الرجال ، والمعرفة بالجرح والتعديل ، والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم ، وتمييز الصحيح من السقيم ، حتىٰ يكونَ ما يستحضرُهُ من ذلك أكثرَ مما لا يستحضره ، مع استحضارِ الكثيرِ من المتون ، فهـٰذه الشروط من جمعها فهو حافظ ») .

قال : (وكان الحافظُ ابنُ حجر يحفظُ ما يزيد علىٰ مئة ألف حديث ، وكان الشيخ عثمان الديمي يحفظ عشرين ألف حديث) .

قال : (وأما أنا فأحفظ مئتي ألف حديث ، ولو وجدتُ أكثرَ لحفظته ، ولعله لا يوجد علىٰ وجه الأرض الآن أكثرُ من ذلك .

وأما الاجتهاد في الفقه : فقد ألَّفنا فيه كتباً) .

قلت : وله رضي الله عنه سبعُ سؤالات أوردها علىٰ علماء العصر ، ولم يجيبوا عليها ، وهي : (ما يقول علماء عصرنا [المدعون][1] للعلم والفهم في هـٰذه الأسئلة

---

(١) في النسخ : (المدعين) .

المتعلقة بألف باء تاء ثاء . . . إلىٰ آخرها ؟ وما هـٰذه الأسماء ؟ وما مسماها ؟ وهل هي أسماءُ أجناس أو أسماء أعلام ؟ فإن كان الأول : فمن أيِّ أنواع الأجناس هي ؟ وإن كان الثاني : فهل هي شخصيةٌ أم جنسية ؟ فإن كان الأول : فهل هي منقولةٌ أو مُرتجلة ؟ وإن كان الأول : فممَّ نُقلت ؟ أمن حروف ، أم أفعال ، أم أسماء أعيان ، أم مصادر ، أم صفات ؟ وإن كانت جنسيةً : فهل هي من أعلام الأعيان أو المعاني ؟

السؤال الثاني : من وضع هـٰذه الحروف ؟ وفي أيِّ زمنٍ وضعت ؟ وما مستندُ واضعها ؟ هل هو العقل أو النقل ؟

الثالث : هل هـٰذه الحروف مختصةٌ باللغة العربية أم عامة في جميع اللغات ؟

الرابع : هل الألفُ والهمزة مترادفان ، أم مفترقان ؟ وعلى الثاني : فما الفرقُ ؟ وأيُّهما الأصل ؟

الخامس : لِمَ أجمع علماءُ اللغة والعدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة ؟ وهل هو أمرٌ اتِّفاقيٌّ أو لحكمة ؟

السادس : كلماتُ أبجد هوز . . . إلىٰ آخرها : هل هي مهملةٌ أو مستعملة ؟ وما عني بها ؟ وما أصلها ؟ وكيف نقلت إلى المراد بها ؟ وما ضبطُ ألفاظها ؟

السابع : ما حكمُها في الابتداء والوقف ، والمنع والصرف ، والتذكير والتأنيث ، والإعراب والبناء ، والنقط والرسم ، وعند التسمية بها ؟ وما حكمُها شرعاً عند نقشها علىٰ ثوب أو بساط ، أو حائط أو سقف ؟ وهل لها من الحرمة ما للحروف المجتمعة أم لا ؟

فمن أجابَ عن هـٰذه الأسئلة فهو من الرجال ، وإلا فلا مزيةَ له على الأطفال ، ومن عجزَ عن معنىٰ ألف باء تاء ثاء فلا ينبغي له أن يقرِّرَ أبحاثاً) ، انتهىٰ ما نقلته من خطِّه رحمه الله[1] .

وكان الشيخ شمس الدين الداودي يقول : (عاينت الشيخَ وقد كتب في يوم واحد ثلاثةَ كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يُملي الحديث ، ويُجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة من غير تكلُّف) .

---

(١) وقد أجاب على هذه الأسئلة وشرحها الشيخ أبو بكر بن إسماعيل الشنواني، المتوفى سنة (١٠١٩هـ) .

وكان يقول : (ما أجبتُ قطُّ عن مسألة جواباً إلا وأعددتُ جوابها بين يدي الله إنْ سُئلت عنه) .

وكان إذا عارضَهُ أحدٌ في أجوبته يردفُها بأجوبةٍ غيره حتىٰ يبهرَ العقولَ .

وغسَلَ قُبيل موته عدَّةَ كُتبٍ لا يعلم أهلُ عصره لها نظيراً .

وسرقَ بعضُ المعاصرين له كتاباً ونسبه لنفسه ، ولم يكن عند الشيخ غيره ، فألَّفَ كتاباً في ذلك سمَّاه : « البارق في قطع يد السارق » ثم قال : (ولعمري ؛ إن المؤلِّفَ إنما يطلبُ أجرَهُ من الله في تأليفه ، فكيف يطلب أجرَ ما لم يعمله ؟!) .

وكان رضي الله عنه أعلمَ أهل زمانه بعلوم الحديث وفنونه ، حافظاً متقناً ، يعرفُ غريبَ ألفاظه ، واستنباط الأحكام منه .

وقد بيَّضَ ابنُ حجر لعدَّةِ أحاديث لم يعرف من خرَّجَها ولا مرتبتها ، فخرَّجَها الشيخُ وبيَّن مرتبتها ؛ من حسنٍ وضعيفٍ ، وغير ذلك .

وأخبرني الشيخ سليمان الخضيري الصوفي قال : (أرسلَ شيخُ الإسلام الأوجاقي معي عدَّة أحاديث بيَّضَ لها الحفاظُ ولم يعرفوا مرتبتها إلى الشيخ جلال الدين ، وقلبَ رواتها ، فردَّهم الشيخُ إلىٰ من لهم رواية عنه ، وبيَّن مرتبتها ، فذهب شيخُ الإسلام إليه ، وقبَّل يده وقال : واللهِ ؛ ما كنتُ أظنُّ أنك تعرف شيئاً من هـٰذا ، فاجعلني في حلٍّ ، فطالما تغديت وتعشَّيت بلحمك ودمك) .

وأخبرني الشيخ سليمان أيضاً قال : (بينما أنا جالسٌ في الخضيرية علىٰ باب الإمام الشافعي رضي الله عنه إذ رأيتُ جماعةً عليهم بياضٌ ، وعلىٰ رؤوسهم عِمامة من نور يقصدونني من ناحية الجبل ، فلما قربوا مني فإذا هم النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ ، فقبَّلتُ يدَهُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : امض معنا إلى الروضة ، فذهبتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ بيت الشيخ جلال الدين ، فخرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقبل يده ، وسلم علىٰ أصحابه ، ثم أدخله الدار وجلس بين يديه ، فصار الشيخ جلال الدين يسألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن بعضِ الأحاديث وهو يقول له : هات يا شيخ السُّنة) انتهىٰ .

وذكر لي الشيخُ عبد القادر الشاذلي رحمه الله عن الشيخ : أنه رأىٰ هـٰذه الرؤيا بعينها وقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : هات يا شيخ الحديث كما سيأتي .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يُجيب السائلَ على البديهة ، ثم يقول : الذهنُ خوَّان ، افتحِ الكتابَ الفلاني ، وعدَّ من الصفحة الفلانية كذا كذا سطراً تجدِ المسألةَ إن شاء الله كما قلتُ لك ، فيفتح الكتاب ، فيجد الأمرَ كذلك .

وكان رضي الله عنه يقول بنجاة أبوي النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأنهما في الجنة ، ووافقَهُ علىٰ ذلك مِن أهل عصره الشيخ عثمان الديمي ، وخالفه الحافظ السخاوي ، وصنَّفَ الشيخُ جلال الدين في ذلك ستَّ مؤلفات ، وذكر فيها مَنْ وافقَهُ علىٰ ذلك من الحفَّاظ .

وكان رضي الله عنه يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً .

وأخبرني الشيخُ عبد القادر الشاذلي : أنه رأىٰ بخطِّ الشيخ جلال الدين ورقةً كتبها لبعض أصحابه حين سألَهُ أن يقضيَ له حاجةً عند السلطان الغوري : يا أخي ؛ إني أرى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، وأخافُ أن أُجالسَ الغوري ، فيحجبَ عني عقوبةً لي ، ولـٰكن أسأل لك النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : فقلت له : يا سيدي ؛ فكم رأيتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ؟ فقال : بضعاً وسبعين مرة .

قال : وقد ألف الشيخُ كتاباً سماه : « تنوير الحلك في إمكان رؤية النبيِّ والملَك » ، وذكر فيه من كان يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وبالملَكِ في اليقظة لا في المنام من الأولياء والصحابة والعلماء ، ولم يذكر شيئاً مما ذكره في هـٰذه الورقة التي ذكرناها .

وكان رضي الله عنه يقول : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، فقال لي : يا شيخَ الحديث ، فقلت له : يا رسول الله ؛ أمنْ أهل الجنة أنا ؟ فقال : نعم ، فقلتُ : من غير عذاب يسبق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : لك ذلك .

وكان الشيخُ عطية الأبناسي يقول : قال لي الشيخُ جلالُ الدين لما سألتُه يقضي لي حاجةً عند السلطان ، يا عطية ؛ إني أجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً ، وأخافُ

أن أجتمعَ به فيحتجب عني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لي : اكتمْ عني ذلك ، ولا تخبر به إلا بعد موتي .

قال الشيخ قاسم المالكي الإمام بمقام الإمام الشافعي رضي الله عنه : (ومراد من قال : إنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقظةً انكشافُ حجاب القلب ، وليست كرؤية أحدنا صاحبه الآن) ، فالله أعلمُ بالحال .

وأخبرني خادمُ الشيخ جلال الدين ـ وكان اسمه محمدَ بنَ علي الحبَّاك ـ قال : لما وقعتْ فتنة الشيخ برهان الدين البُقاعي في إنكاره علىٰ سيدي عمر بن الفارض قال لي الشيخُ جلال الدين : قم بنا إلىٰ زيارة سيدي عمر ، وكان ذلك وقتَ القيلولة ، فزرناه ، وطلعنا للشيخ عبد الله الجيوشي فوقَ الجبل ، فوجدنا الظلَّ تحت حائط الزاوية نحو ذراع ، فجلسنا ساعةً ، فقال لي : نريدُ نُصلي في مكة صلاةَ العصر بشرطِ أن تكتمَ ذلك عليَّ حتىٰ أموت ، فقلت له : نعم ، فأخذ بيدي وقال لي : غمِّض عينيك ، فغمَّضتُهما ، فرمل بي نحو سبع وعشرين خطوة ، ثم قال لي : افتح عينيك ، فإذا نحن بباب المعلىٰ ، فزرنا أمَّنا خديجة ، والفضيل بنَ عياض ، وسفيانَ بن عيينة ، وغيرَهم .

ثم دخلنا الحرمَ ، فطفنا وشربنا من ماء زمزم ، وجلسنا خلف المقام حتىٰ صلينا العصر ، وطفنا وشربنا من ماء زمزم ، ثم قال لي : يا فلان ؛ ليس العجب من طيِّ الأرض لنا ، وإنَّما العجب من كون أن أحداً من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا .

ثم قال : إن شئتَ تمضي معي ، وإن شئتَ تقيم حتىٰ يأتي الحاجُّ ، فقلت : بل أذهبُ مع سيدي ، فمشينا إلىٰ باب المعلىٰ ، وقال لي : غمِّض عينيك ، فغمَّضتهما ، فهرول بي سبع خطوات ، ثم قال لي : افتحْ عينيك ، ففتحتُهما فإذا نحن بالقرب من الجيوشي ، فنزلنا إلىٰ سيدي عمر ، فركب الشيخُ حمارته ، وذهبنا إلىٰ بيته في جامع طولون . انتهىٰ .

قلت : ورأيتُ الشيخَ مرَّةً ومعه مفاتيحُ كثيرةٌ ، فأعطاها لي وقال : هـٰذه مفاتيح علومي ، فخذها لك .

وأخبرني شيخُنا الشيخُ أمين الدين الإمام بجامع الغَمْري قال : سمعتُ الشيخ جلال

الدين يقول في سنة عشرٍ وتسع مئة : (اسمع مني هـٰذا الكلام ، ولا تخبرْ بذلك أحداً حتىٰ أموت ، فقلت له : نعم ، فقال : يدخلُ سليمُ بنُ عثمان مصرَ افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وتنقرضُ بياضاتها من ذوي البيوت سنة ثلاثٍ وثلاثين ، فلا يصيرُ أحدٌ يُسأل الله منهم شيئاً فيجاب ، وتخرب خراباً وسطاً سنة سبعٍ وخمسين ، ويقفُ خراجُ غالب رزقها ، وتخربُ خراباً أشدَّ من ذلك سنة سبعٍ وستين) انتهىٰ .

قلت : وسمعتُ أنا هـٰذا الكلام من الشيخ أمين الدين سنةَ خروج السلطان الغوري لقتال السلطان سليم ، فأخبرتُ بذلك بعضَ العلماء الذين كانوا يُنكرون على الشيخ جلال الدين ، فقال : هـٰذا أمرٌ لا يجوزُ تصديقه ، فلما قُتل الغوري ودخل عسكرُ السلطان افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وصاروا يحرقونَ أبواب بيوت الجراكسة ، ويقتلونهم ، ويسبون حريمهم ، فقال لي الشيخ أمين الدين : اذهبْ إلىٰ ذلك المُنكر فقل له : انظرْ صدقَ ما أخبر به الشيخ لم يخط يوماً واحداً ، فقال بكل شيء فيه ، وهو يرعدُ : هـٰذا موافقةُ قدر ، فرددتُ جوابَهُ على الشيخ أمين الدين ، فتبسَّم وقال : وانشقاقُ القمر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بقدرِ الله عز وجل أيضاً ، وإنما المعجزةُ فيه إجابةُ الحقِّ سؤالَهُ والانتصارَ له ، وكذلك القول في كرامات الأولياء ، ثم قال : يا سبحان الله ! والحسدُ يؤدي إلىٰ هـٰذا كلِّهِ ؟

قلت : وقد صدقَ الشيخُ في العلامة الثانية والثالثة أيضاً ، ووقف غالبُ خراج رزق مصر في سنة سبع وخمسين ، وبقيت العلامةُ الرابعة ، والله أعلم .

وأخبرني الشيخ عبدُ القادر الشاذلي قال : لما بلغَ الشيخُ جلال الدين أربعين سنة أخذَ في التجرُّدِ للعبادة ، والانقطاع لله عزَّ جل ، والاشتغالِ به صرفاً ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، حتىٰ كأنه لم يعرف أحداً منهم ، وشرعَ في تحرير مؤلفاته ، وتركَ الإفتاء والتدريس ، وألَّفَ في ذلك كتاباً سماه : « التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس » ، وأقامَ في روضة مقياس النيل ، فلم يتحوَّل منها إلىٰ أن مات .

وبلغنا : أنه لم يفتح طاقاتِ بيته التي علىٰ بحر النيل مدَّةَ سكناه .

وكانتِ الأمراءُ والأغنياء يأتون إلىٰ زيارته ، ويُعرضون عليه الأموالَ النفيسة ، فيردُّها .

وأرسل له السلطانُ الغوري خَصِياً وألفَ دينار ، فردَّ الألفَ ، وأخذ الخَصيَّ ، فأعتقه ، وجعله خادماً في الحجرة النبوية ، وقال لقاصده : لا تعدْ تأتينا قطُّ بهديةٍ ؛ فإنَّ الله قد أغنانا عن مثل ذلك .

وقالوا له مرَّةً : إن بعض الأولياء كان يتردَّدُ إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس ، فقال : اتِّباعُ السلف الصالح في عدم تردُّدِهم أسلمُ لدين المسلم ، وكذلك في ردِّ أموالهم عليهم .

وأخبرني الشيخ أمينُ الدين : أن الشيخ جلالَ الدين طلع للسلطان قايِتْباي في حادثةٍ وعلىٰ رأسه الطيلسان ، فقال له السلطان : أنت مالكيٌّ حتىٰ تلبس الطيلسان ؟! لظنِّه أنه خاصٌّ بالمالكية ؛ لكونه كان لا يطلعُ له بالطيلسان إلا القاضي المالكي فقط ، فقال له الشيخ : هـٰذه عادة حدثتْ قريباً ، وكان في الزمن الماضي الطيلسانُ خاصّاً بالشافعي إلىٰ أيام الشيخ تقيِّ الدين السبكي ، فطال بينهما الكلام ، فقال الشيخُ للسلطان : الطيلسانُ سُنَّةٌ في كلِّ مذهب ، لا يختصُّ بالمالكية ، فقال : هـٰذا تكبُّرٌ وتجبُّر ، وبالغ في النكير ، فقال له الشيخ : معاذ الله ! بل هو سنةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ولم أُؤاخذِ السلطانَ علىٰ ذلك ؛ لكونه كان محذوفاً عليَّ من بعض القضاة[1] ، ثم إنه تأدَّب معه في آخر المجلس ، وانصرف .

فلما كان بعد أيام بلغ الشيخَ أن إمامه إبراهيمَ الكركي قال له : ليس الطيلسانُ سُنَّةً ، ولو كنتُ حاضراً عند قوله : (إنه سنة) لقلتُ له : يعني : سنة اليهود ، فقال الشيخ : بل هو يكفرُ لردِّه سنَّةً ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الشيخ جلال الدين صنَّفَ كتاباً حافلاً سماه : « الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » ، ثم إن السلطان مرضَ مرضاً أشرفَ فيه على الموت ، وطلعَ له العلماء وغيرُهم يهنئونه بالسلامة ، فلم يطلعِ الشيخُ إليه ، فأرسل له قاصده يطلبُه ، فأبىٰ ، فأوقد ابنُ الكركي عليه النار ، وقال : هـٰذا عاص لله ولرسوله في عدم إجابة وليِّ الأمر .

---

(١) **الحذف** : الرمي والقذف .

قال الشيخ : ثم إن السلطان أرسلَ قاصدَه إليَّ يُخوِّفني بأمورٍ يوقعها فيَّ ، فقلتُ لقاصده : قل له : إن لك سلطاناً نيفاً وعشرين سنة ما رأينا منك سوءاً ، فإن لم ترجع عني وإلا توجَّهت فيك لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحكمُ بيني وبينك ، فسكتَ حتىٰ طلعَ مشايخُ الإسلام يهنئونه بالشهر ، فاستفتاهم عليَّ في عدم الطلوع له لسلوكي طريق السلف في ذلك ، فما منهم أحدٌ نصرَ الحقَّ ولا قال بما يلزمُهُ ؛ من أن عدم دخول العلماء على الملوك سنة ، ولا قال هو سنةُ السلف الصالح ، فعَزلتُ نفسي من سائر الوظائف التي لهم عليها ولاية ، وألَّفتُ في ذلك كتاباً سميته : « ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين » .

فلما بلغَ السلطانَ ذلك شقَّ عليه ، وأرسل إليَّ أميرآخور كبير[1] ، وتمراز أمير كبير ، والإمام الذي يُصلي بالسلطان بكلام طيب ، يطلبوا مني الطلوعَ ، فلم أُجبهم ، وأرسلت للسلطان رسالةً سمَّيتها : « الرسالة السلطانية » ، فيها جملةٌ من الأحاديث الواردة في منع العلماء من التردُّدِ للسلاطين ، فلما قرأها عليه أمير كبير قال السلطان : واللهِ ؛ لو أنَّ الشيخَ هـٰذا أخذ الآن عَصاً وضربني لأذعنتُ له ولم أُقابله ، فساء ذلك ابنَ الكركي ، وأخذ يُغري السلطان عليَّ[2] ، فرجع عن قوله الأول ، وصار يتوعَّدُني بالقتل ، فقال لي شيخُ الإسلام الشافعي : لا بأس بأن تتلافىٰ خاطرَ السلطان ؛ بإرسال كلامٍ طيِّب علىٰ لسان أمير كبير ، فإننا نخافُ عليك من السلطان ، فقلت له : إني متمسِّكٌ بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزالُ طائفةٌ منْ أمتي ظاهرينَ على الحقِّ حتىٰ يأتيَ أمرُ اللهِ ، لا يضرُّهمْ مَنْ خذلهمْ »[3] ، ثم إني توجَّهت فيه إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فمرض بعد يومين ، واشتدَّ به المرضُ إلىٰ أن مات بعد أيام . انتهىٰ .

قلتُ : ولما عمَّرَ السلطانُ الغوري مدرستَهُ ومدفنه القبة الزرقاء بعث للشيخ

---

(١) أمير آخور : رئيسُ الإصطبل ، ومُروِّضُ الجياد .

(٢) في (ز) : (يقوي) بدل (يغري) .

(٣) رواه البخاري (٧٣١١) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، دون لفظ : « لا يضرهم من خذلهم » ، ورواه مسلم (١٩٢٠) بلفظ المؤلف عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه .

بمشيختها ، فلم يقبلْ ، فقال : نرتِّبُ لك جوالي كلَّ شهرٍ[١] ، فلم يقبل ، وكان يعتقدُهُ اعتقاداً عظيماً .

ولما قامَ عليه صوفية الخانقاه والبيبرسية ، وكان قال لهم : إنكم لستم بصوفية ، وإنما الصوفيُّ من تخلَّق بأخلاق الأولياء ، كما يشهدُ لذلك كتابُ « الحلية » لأبي نُعيم و« رسالة القشيري » وغيرُهما من الكتب ، ومن يأكلُ المعلومَ بغيرِ تخلُّق بأخلاقهم أكلَ حراماً .

فلما اشتدَّ الأمرُ وسعوا في قتله عند السلطان ، قال الشيخ : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أني منصورٌ عليهم ، ولم يتغيَّرْ منه شعرةٌ ، ثم إن جميع من قام على الشيخ حصلَ له مقتٌ بين العباد ، ومات علىٰ أسوءِ حالٍ .

وقد رأيتُ أنا بعيني مَنْ صار ينصِبُ علىٰ من يبيعُ الدجاج والمآكل[٢] ، ويدخلُ بها بيته ، فلا يعودُ يخرجُ حتىٰ يتعبَ صاحبُها ، وييئسَ من ثمنها ، ويأكلَها حراماً سُحتاً .

وبعضهم ابتُلي بالإنكار على العلماء والأولياء ، حتىٰ ظهرت عليه أمارات الشقاء عند الموت من عقد لسانه عن الشهادتين[٣] ، وزرقة عينيه ، وسواد جبهته ، نسألُ الله العافية .

ولما أجَّجوا النارَ على الشيخ عند السلطان العادل ، وقالوا له : إنه يحط عليك كثيراً ، فقال : لئن رأيتُهُ لأقطعنَّه قطعاً قطعاً ، فقال الشيخ : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن رأسَه تُقطع في يوم كذا وكذا ، فكان الأمرُ كما قال ، لم يتخلَّفْ يوماً واحداً ، وصدق الشيخ .

قال الشيخ عبد القادر : وامتُحن الشيخ بمحن كثيرة ، وما سمعتُهُ يوماً واحداً يدعو علىٰ من آذاه من الحسدة ، ولا يُقابله بكلمة سوءٍ ، وإنما يقولُ : حسبنا اللهُ ونعم الوكيل ، وصنَّفَ في ذلك كتاباً سماه : « تأخير الظلامة إلىٰ يوم القيامة » .

---

(١) **الجوالي** : الأجر الشهري .

(٢) **النصب** : الخديعة والاحتيال .

(٣) **عقد لسانه** : أي : عجز عن الكلام .

وأخبرني الشيخُ بدر الدين بنُ الطباخ نفع الله به قال : لما قامتْ صوفيةُ البيبرسية على الشيخ جلال الدين ، وصنف فيهم كتاباً سألوني أن أُعارِضَه بكتاب ، فشرعت تلك الليلة فيه ، وإذا بورقةٍ نزلتْ في حِجري في الليل ، مكتوبٌ فيها : عبدي يا مؤمن ؛ لا تؤذِ أحداً ممن عمل بسنتي ، فرجعتُ عن التأليف ، وعلمتُ أن الشيخَ جلال الدين محقٌّ .

وكان الشيخُ تقيُّ الدين الأوجاقي يحطُّ على الشيخ جلال الدين كثيراً لما أملى الحديث ، وكان يقول : ما بقي يُعجبني أحدٌ يُملي الحديثَ بعد شيخنا الحافظ ابنِ حجر ، فحضر يوماً إملاءَ الشيخ جلال الدين ، فاعترفَ بفضله واستغفر ، وقال : الأمور لله يُعطي العلمَ لمن يشاء ، لا تحجيرَ ، ولم يزل يعترفُ بفضله إلىٰ أن مات .

ومناقبُ الشيخ كثيرةٌ مشهورة ، ولو لم يكنْ له من الكرامات إلا إقبالُ الناس في سائر أقطار الأرض علىٰ كتابة مؤلفاته ومطالعتها . . لكان كفايةً ؛ لما اشتملتْ عليه من العلوم والمعارف .

فممَّ انفرد به من التأليف ولم يُسبق إليه كتاب : « المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة » ، و« أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب » ، وكتاب « تزيين الأرائك في إرسال نبيِّنا إلى الملائك » ، وكتاب « نشر العلمَيْنِ في إحياء الأبوين »[1] ، وكتباً كثيرة تُعلم من كتاب « الفهرسة » .

مات رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جُمادى الأولىٰ سنة إحدىٰ عشرة وتسع مئة ، وكان مرضُهُ سبعةَ أيام بورمٍ شديد في ذراعه اليسار ، يقال إنه : خلط أو انحدار ، وقد استكملَ من العمر إحدىٰ وستين سنة وعشرةَ أشهر وثمانية عشر يوماً .

وكان له مشهدٌ عظيم ، ودفن بحوش قوصون خارجَ باب القَرافة ، رضي الله عنه ، وقبرُهُ ظاهرٌ ، وعليه قبة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **واسم الكتاب كاملاً** : (نشر العَلَمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين) .

ومنهم :

(٥١٤) شيخُنا وقدوتُنا إلى الله تعالىٰ ، شيخُ مشايخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله عنه(١)

شارح « البهجة »(٢) و« الروض » ، وغير ذلك .

انتهت إليه الرياسةُ في مصر ، حتىٰ إنه لم يبق في مصر أواخر عمره إلا طلبتُهُ أو طلبةُ طلبتِهِ .

وقرئ عليه « شرح البهجة » سبعاً وخمسين سنة في حياته ، حتىٰ حُرِّرَ أتمَّ تحرير ، ولم يُنقل ذلك عن أحد من المؤلفين ، وغالبهم يموتُ عقبَ مؤلفاته من غير تحرير .

وكان رضي الله عنه مهيبَ المنظر ، مع أنه إذا رآه الإنسانُ امتلأ أنساً ، وذلك من علامة ولايته ؛ فإن الهيبةَ قلَّ ما تجتمع مع الأنس في شخص .

وكان يُدرِّسُ في علم الفقه والتصوف .

وطالعتُ له لما كُفَّ مدةَ عشر سنين كأنها من طيبها كانت سِنَةً ؛ لكوني ما كنتُ أجدُ عند غيره ما أجدُ عنده ، بل أقول : طوبىٰ لعين نظرته في عمرها مرَّةً واحدة .

وكان رضي الله عنه مقبلاً علىٰ ربِّه على الدوام ، لا تكادُ تجدُهُ غافلاً من عبادة ربِّه لحظةً واحدةً .

وكنتُ إذا أصلحتُ شيئاً في الكتاب الذي أقرؤه عليه يصير يقول بخفض صوت : الله الله !

ولا يمكثُ غافلاً عن الذكر لحظة .

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٣٤٨/٢) (٣٤٦) ، وسترد في « ذيل الطبقات » (٤٦/٥) (٦) .

(٢) **البهجة** : للعلامة ابن الوردي ، نظم فيها « الحاوي الصغير » للقزويني مع زيادات ، واسم الشرح : « الغرر البهية في شرح البهجة الوردية » .

وكان يشرحُ كلامَ أهل الطريق علىٰ أتمِّ حال ، ويُجيب عنهم الأجوبة الحسنة إذا أشكلَ على الناس شيءٌ من كلامهم .

وكان يقول : (إن الفقيه إذا لم يكن له معرفةٌ بمصطلح ألفاظ القوم فهو حاف ؛ كالخبز الحاف من غير إدام) .

ولما وقعت فتنة البُقاعي في كلام سيدي عمر بن الفارض خطب للسلطان خطبة بليغة[1] ، وبيَّن فيها : أن من لا يعرفُ مصطلحَ القوم لا يجوزُ له أن يتكلَّمَ في حقِّهم بشيء[2] .

وكان يُلقِّنُ الذكر ، ويُلبسُ الخرقة .

وكان رضي الله عنه من أهل الهمم العالية ، ورأيتُهُ بعد بلوغ عمره أكثرَ من مئة سنة يُصلي النوافلَ حالَ مرضه قائماً ، فيصير يميلُ يميناً وشمالاً ، لا يتمالكُ أن يقفَ من غير ميلٍ ، فقلتُ له يوماً : مثلُكم لا يُكلِّفُه اللهُ تعالى الصلاةَ قائماً ، فقال : يا ولدي ؛ النفسُ من شأنها الكسل ، وأخافُ أن تغلبني ، فأختم عمري بذلك .

وكان إذا طوَّل عليه أحدٌ في الكلام يقول : عجِّل ، فقد ضيَّعتَ علينا الزمان .

ومكثتُ أتغذىٰ معه مدة عشر سنين ، فما كان يزيدُ علىٰ ثلث رغيف من خبز خانقاه سعيد السعداء .

وكان يقول : (إنما خصصتُها بالأكل من خبزها ؛ لكون صاحبها كان رجلاً صالحاً) ، وذكرَ أنه عمَّرها بإشارة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وكان إذا حضر عنده أكابرُ العلماء يُخفونَ في نوره ، حتىٰ كأنهم بين يديه أطفال ،

---

(١) في (أ ، ز ، ط) : (رجع السلطان إلىٰ فتيا الشيخ دون جميع الأشياخ) بدل (خطب للسلطان خطبة بليغة) .

(٢) في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٤٧) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٠٣) : (أرسل السلطان إلى العلماء ، فكتبوا بحسب ما ظهر ، وامتنع الشيخ زكريا ، ثم اجتمع بالشيخ محمد الإستنبولي ، فقال لي : اكتب وانصر القوم ، وبيِّن في الجواب أنه لا يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم في حقهم بشرٍّ) .

وكانت هيبتُهُ فوقَ هيبة السلطان ، وقد جالستُ السلطان الغوري والسلطان طومان باي بعد الغوري فكانت هيبةُ الشيخ ترجحُ علىٰ هيبتهما .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الكشف ، لا يكاد يخطرُ في قلبي شيءٌ بين يديه إلا قال لي : قل ما في نفسك .

وكنت إذا حصلَ عندي صداعٌ في رأسي ، وتأوَّهتُ وأنا أطالعُ له يقول لي : انو الاستشفاء بالعلم يذهب ، فإذا نويتَ ذلك شُفيت ببركة إشارته ، لا ببركة إخلاصي ، وهٰذا دليل علىٰ إخلاص الشيخ في العلم ؛ فإن الإنسانَ لا ينوي الشفاءَ بعمل لا إخلاص فيه ، بدليل الثلاثة الذين دعوا الله بصالح أعمالهم لما انحدرتْ عليهم الصخرةُ ، فسدَّتْ عليهم فمَ الغار(١) .

وأخبرني بأنه من حين كان شاباً وهو يحبُّ طريقَ الصوفية ، ويحضرُ مجالسَ ذكرهم ، حتىٰ كان الأقران يقولون : زكريا لا يجيء منه شيءٌ في طريق الفقهاء ؛ لكوني كنتُ مكبّاً علىٰ مطالعة رسائل القوم ، مواظباً علىٰ مجالس الذكر ، بحيث كان يذهب غالبُ الوقت في ذلك .

وأخبرني أنه سافر من مصر إلىٰ سيدي محمد الغمري في المحلة الكُبرىٰ ، وتلقَّن عليه ، وأقام عنده أربعين يوماً ، وقرأ عليه كتاب : « قواعد الصوفية » له كاملاً ، ثم رجع إلىٰ مصر .

وأخبرني رضي الله عنه أنه دخل مرَّةً علىٰ سيدي محمد الغمري الخلوةَ علىٰ غفلة ، فرأىٰ له سبعَ عيون ، قال : فلما بهتُّ منه قال لي : يا زكريا ؛ إن الرجلَ إذا كمل صارَ له عيون بعدد أقاليم الدنيا .

قال : (ودخلتُ عليه مرةً أخرىٰ ، فرأيته متربِّعاً في الهواء ، قريباً من سقف الخلوة) .

قال ولما اشتغلتُ بالعلم ، وبرعت فيه بحمد الله شرحتُ « البهجة » فلما أتممتُ

---

(١) وكان هٰؤلاء النفر من بني إسرائيل ، روىٰ حديثهم البخاري (٢٢١٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

شرحَها غارَ بعضُ الأقران ، فكتبَ علىٰ بعض نسخ الشرح : كتاب الأعمىٰ والبصير ؛ تعريضاً بأني لا أقدرُ أن أشرح « البهجة » وحدي ، وإنما ساعدني فيه رفيقٌ أعمىٰ ، كنتُ أطالعُ أنا وإياه ، فاحتسبت بالله ، ولم ألتفت إلىٰ مثل ذلك ؛ اقتداءً بإمامي الشافعي رضي الله عنه في قوله : « أحبُّ أن يقرأَ الناسُ هـٰذه العلوم ولا يُنسب إليَّ منها شيءٌ ») .

قال : (وكان تأليفي لـ« شرح البهجة » في يوم الاثنين أو الخميس ؛ لكونهما ترفعُ فيهما الأعمال ، كما ورد في الحديث[1] ، وكان تأليفي له فوقَ سطح الجامع الأزهر) .

قال : (وكان وقتي رائقاً من الكدورات النفسانية ؛ لقلة علائقي في الدنيا ، وكان ظاهري بحمد الله محفوظاً من الأعمال الرديئة ، وكنت قليلَ اللهو واللعب ، قليلَ الذهاب إلىٰ مواضع التنزهات ، وما سكنتُ قطُّ بيتاً علىٰ بحر ولا خليج ، ولـٰكن كان الطلبةُ إذا أرادوا رؤيةَ البحر أذهبُ بهم إلىٰ ناحية مسجد الآثار ببركة الحبش ، فنجلس على البحر ، ويقرؤون دروسَهم هناك) .

قال : (وكنتُ أعومُ البحرَ إلىٰ ذلك البر كلَّ سنة مرة ؛ خوفاً أن ينفك إدماني على العوم ؛ فإنه كمالٌ في الرجل والمرأة) .

قال : (وكنتُ مجابَ الدعوة ، لا أكاد أدعو علىٰ من ظلمني إلا ويقصمه الله تعالىٰ ، ولا لمريض إلا شفاه الله عز وجل ، فلما اشتَهر ذلك عني أشارَ عليَّ بعضُ الفقراء بستر حالي) .

وكان رضي الله عنه كثيراً ما يحكي لي شيئاً من أحواله ، ثم يقول : يا ولدي ؛ اكتم ذلك أيامَ حياتي ؛ فإني لم أَنطقْ بذلك إلا لك ، فيحصل لي بذلك غايةُ السرور حيث جعلني محلاً لموضع أسراره .

---

(١) روى الحديث مسلم في « صحيحه » (٢٥٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « تُعرض الأعمال في كل يوم خميس واثنين ، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئٍ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : اركُوا هـٰذين حتىٰ يصطلحا ، اركُوا هـٰذين حتىٰ يصطلحا » ، ومعنى **اركُوا** : أخِّروا .

وقال لي مرَّةً : هل هنا أحدٌ غيرك ؟ فقلت : لا ، فقال : أُريد أذكر لك بدايةَ أمري لتحيطَ بذلك علماً ، فقلت له : نعم ، فقال : جئت من البلاد إلىٰ جامع الأزهر وأنا شابٌ ، فلم أعكف على الاشتغال بشيءٍ من أمور الدنيا ، وكنتُ إذا جعتُ في الجامع ، واشتدَّ عليَّ الجوعُ أخرج في الليل إلى الميضأة ، فأغسل قشيرات البطيخ الذي حولَ الميضأة وآكلها ، وأقنعُ بها عن الخبز ، فأقمتُ علىٰ ذلك الحال سنين .

ثم إن الله عز وجل قيَّضَ لي شخصاً من أولياء الله تعالىٰ كان يعملُ في الطواحين في غربلة القمح ، فكان يتفقَّدني ، ويشتري لي ما أحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب ، ويقول : يا زكريا ؛ لا تُخفِ عني من أحوالك شيئاً ، فلم يزل معي كذلك عدَّة سنين ، فلما كان ليلةٌ من الليالي أخذ بيدي ، وأتىٰ بي إلىٰ سلَّم الوقادة الذي في صحن جامع الأزهر ، فقال لي : اصعدْ هـٰذا الكرسيَّ ، فصعدتُ ، فلا يزل يقول لي : اصعد إلىٰ آخر درجة ، ثم قال لي : انزل ، فنزلت ، ثم قال لي : يا زكريا ؛ إنك تعيشُ حتىٰ يموتَ جميعُ أقرانك ، ويرتفعُ شانُك ، وتتولَّىٰ شيخَ الإسلام مدةً طويلة ، ثم انقطعَ عني ، فلم أره بعد ذلك إلىٰ يومي هـٰذا . انتهىٰ .

وكانت أولُ شهرة الشيخ بالصلاح أيام السلطان خُشْقَدَم ، وذلك أنه كان في باب النصر رجل مشهور بالصلاح ، وكان السلطان إذا رآه يقول له : ادعُ لنا ، فيقول له : إذا كان لك حاجة فاسأل فيها الشيخ زكريا ، فركب السلطان إليه فزاره ، فأسرع الناس إليه ، فمن ذلك اليوم اشتَهر بالصلاح .

وقال مرةً : إنما كانتْ غلطةً ، فقلت له : ما هي ؟ فقال : توليتي للقضاء صيَّرتني وراء الناس ، مع أني كنتُ مستوراً من السلطان قايِتْباي ، فقلت له : يا سيدي ؛ إني سمعتُ بعضَ الأولياء يقول : كانتْ ولايةُ الشيخ للقضاء سترةً لحاله ؛ لما شاع عند الناس من صلاحه ، وزهده ، وورعه ، ومكاشفاته ، فقال : الحمد لله ، خفَّفتَ عني يا ولدي .

وقال لي مرةً : لما سألني السلطان في القضاء أَبَيتُ ، فغمز النقيبَ ، فأخرجَ لي الخلعةَ ووضعها علىٰ ظهري مفاجأة ، وطلبَ لي بغلةً أركبها ، فقلتُ : لا أُغيِّرُ حمارتي ، فركبتُ الحمارة وأنا لابسُ الخلعة ، فجاءتني البغلةُ في بعض

الطريق ، وغلبوني علىٰ ركوبها ، فركبتُها إلى البيت .

وقال لي السُّلطانُ مرةً : لقد شاورتُ نفسي أني آخذُ بلجام بغلتك ، وأمشي معك إلىٰ بيتك ، وليَ الشرفُ بذلك .

قال : (ولم يكن أحدٌ يحمل نُصحي بالكلام الجافي الخالي من المداهنة مثلَ السلطان قايِتْباي ، لو قلتُ لأحد من علماء الزمان ما قلتُ له لعاداني طولَ عمره) .

قال : (وكنتُ إذا تعذَّر عليَّ مشافهته بالنصح أَتعرَّضُ في الخطبة لذلك الأمر خطاباً عامّاً للحاضرين ، فيلحق هو بذلك ، فإذا سلَّمتُ من صلاة الجمعة قام لي وسلَّم عليَّ ، وقال : جزاك الله تعالىٰ عنَّا في هـٰذا النصح خيراً) .

ثم لم تزلِ الحسدةُ يُوحون إلى السلطان ، ويظهرون له المحبةَ ، والتأثير من وعظي له ، وأنَّه يُرسل يمنعني من التعرُّض له في الخطبة ، حتىٰ قال لهم يوماً : فماذا أفعل ، أقولُ لشخصٍ يبصِّرُني بعيوبي : لا تعدْ تنصحني ؟!

قال : ثم إني أغلظتُ عليه يوماً في النصيحة بحضرة بعض الأمراء الأكابر ، فتطوَّرَ مني ، فتقدَّمتُ إليه ، ثم مسكتُ يدَهُ ، وقلتُ : يا مولانا السلطان ؛ إنما أعظك بأمور أعرفُ أنها تُغطي عليك ، وأخاف علىٰ جسمك هـٰذا أن يكون فحماً من فحم جهنم ، فصار السلطانُ ينتفضُ ويبكي .

وقلت له مرَّةً في الخطبة : تنبَّه لنفسك يا مَنْ ولاه اللهُ أمورَ العباد ، وتذكَّر بدايةَ أمرك وما كنتَ فيه ، وحالَكَ اليوم ، قد كنتَ عدماً فصرت وجوداً ، وكنت كافراً فصرت مُسلماً ، وكنت رقيقاً فصرتَ حرّاً ، وكنت مأموراً فصرت أميراً ، وكنتَ أميراً فصرتُ سلطاناً ، فلا تقابلْ هـٰذه النعم بالتكبُّر والتجبُّر ، وتنسىٰ مبداك ومنتهاك ، ووَضْعَ أنفِك في التراب حين تموت ، ثم يأكلُكَ الدُّودُ وتصير تراباً ، فبكى السلطان ، ثم قال لمن حوله من الأمراء : إذا أبعدتُ هـٰذا عني فمن يقولُ لي هـٰذا الوعظ .

وأخبرني يوماً أن الخضرَ عليه السلام كان يجتمعُ بسيدي علي الضرير النبتيتي ، فسأله يوماً عن أحوال علماء العصر ، فصار يقول : ونعم منهم ، فسأله عني ، فقال : ونعم منه إلا أن عنده نُفيسةً ، فقلْ له يتوبُ عنها ، ولم يعيِّنْ له الخضرُ ذلك ، فتنكرتْ

عليَّ أفعالي ، وصار عندي تطيُّرٌ من جميع أفعالي ، فأرسلتُ أقولُ لسيدي علي : إذا رأيتَهُ مرَّةً فاسأل فضلَه أن يُعيِّنَ لي النفيسةَ ؛ لأتوبَ عنها ، فرآه ، فأخبره وقال : إنه إذا كاتبَ الأمراءَ في حاجة يقول لقاصده : قلْ : هـٰذا الكتاب من عند الشيخ زكريا ، فيُسمِّي نفسَهُ شيخاً ، فمن ذلك اليوم ما تلفَّظتُ بهـٰذه الكلمة .

وحكىٰ لي مرةً قال : كنتُ كثيرَ الاعتكاف في خلوتي فوق سطح جامع الأزهر ، فدقَّ عليَّ رجلٌ الباب ، ففتحتُ له ، فقلت له : ما حاجتُك ؟ فقال : قد كُفَّ بصري ، ودلَّني الناسُ علىٰ فضلك تدعو لي بالشفاء ، فيردُّ اللهُ عليَّ بصري ، قال : وكان لي علامةٌ في إجابة الدعاء المجاب وغير المجاب ، فتوجَّهتُ إلى الله تعالىٰ ، فرأيتُ علامةَ الإجابة ، وخفتُ من الشهرة ، فقلت له : خذ هـٰذا الدرهم ، وامض به إلى العجميِّ الذي تحت البرقوقية ، فقل له : بَعثني زكريا إليك لتُعطيني بهـٰذا الدرهم توتياء حاف ، قال : فمضى الرجل ، وأخذ التوتياء ، ورجع إليَّ ، فقلتُ له : لا يردُّ الله عليك بصرَك في مصر ، وإنما يردُّه عليك في قطية[1] فسافرْ ، وإذا ردَّ بصرَك فلا ترجع إلىٰ مصر في هـٰذه السنة ، قال الشيخُ : فوصل إلى القدس بصيراً ، ومكث يكتبُ مصاحفَ وكُتُبَ علمٍ ، وأرسل لي كذا كذا كتاباً بخطه ، ولم يزل بصيراً حتىٰ مات .

وكان رضي الله عنه كثيرَ الصدقة سرّاً وجهراً ، ولـٰكن كانت صدقتُهُ سرّاً أكثرَ ، وما رأيتُ في العلماء والصالحين أكثرَ صدقةً منه ، كان له جماعةٌ يتصدَّقُ عليهم كفايتَهم ؛ من يومٍ ، أو جمعةٍ ، أو شهرٍ .

وكان كثيراً ما يعطي كلَّ وارد عليه يوم تهنئته بالشهر ، ولكلِّ أحدٍ مقامٌ عنده في العطاء من القضاة والعلماء ، وطلبة العلم والمساكين ؛ فمنهم من له كل رأس شهر عشرةُ أنصاف ، ومنهم من له خمسة أنصاف ، إلىٰ نصف ، إلىٰ عثماني ، وكان غالبُ الناس يعتقدُ في الشيخ قلَّةَ الصدقة من كثرة إخفائها .

وكان إذا جاءه فقيرٌ يطلبُ شيئاً ، يقول لي : هل هنا أحدٌ ، فإن قلتُ له : نعم قال لي : قل له : يأتينا في غير هـٰذا الوقت .

---

(١) قطية : قرية في الطريق بين مصر والشام ، بين القنطرة والعريش . « قاموس رمزي » (١/ ٣٥٠) .

وكان فقيرٌ من الصعيد له عليه مرتب كل يوم ، فيقول له : زرتُ سيدي عبدُ القادر الجيلاني البارحة ، زرتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم البارحةَ ، زرتُ سيدي أبا الحجاج الأقصري والشيخُ ساكتٌ ، فقلت له يوماً : إنه لم يلحق يصل إلىٰ هـٰذه الأماكن ، فقال الشيخ : يحتملُ أن يكونَ صادقاً ، فإن الأمرَ مُمكنٌ ، فإن الدنيا خطوةُ مؤمن .

ورأيتُ له مرةً رؤيا حسنة ، ولم أذكرها له ، فلما جلستُ بين يديه للمطالعة في « شرح البخاري » قال لي من ذات نفسه : قفْ واذكر لي ما رأيتَ الليلة ، فقلتُ له : رأيتُ أني معكم في مركب ، وأنت جالسٌ عن يسار الإمام الشافعي ، فقلتَ لي : سلِّم على الإمام الشافعي ، فسلَّمتُ عليه ودعا لي ، والمركبُ مقلعةٌ في بحر مثل عباب النيل ، ورأيتُ المركبَ كلَّها مفروشةً بالسُّندس الأخضر ، وكذلك القلع ، وحبالُهُ كلُّها حريرٌ أخضر ، ومتكآت خضر ، فلا زلنا مُقلعين حتى انتهينا إلىٰ جنينة عظيمة ، أصولُها في ساحل البحر ، وثمارُها مدلاة من شراريف الحائط[١] ، فطلعتُ أنا من المركب إلى البستان ، فرأيتُ حوراً حساناً يجنين من الزعفران في قفافٍ بيض ، علىٰ رؤوسهنَّ كلُّ قُنبعة من الزعفران قدرُها في الجرم أسباطة البلح[٢] ، فاستيقظتُ ، فقال لي : إنْ صحَّ منامُك سوف أُدفن بالقرب من الإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ لكون المركبِ جمعتني أنا وإياه ، وكان حاضراً عندنا الشيخُ جمالُ الدين الصاني ، والشيخ أبو بكر الظاهري .

فلما تُوفي الشيخُ فتحوا له فسقيةً في باب النصر ، فقال لي الشيخ جمال الدين : أين رؤياك ؟ فقلتُ له : إن الشيخَ قال : إنْ صحت رؤياك ، فبينما نحن كذلك وقد كُفِّنَ الشيخُ ، وما بقي إلا الحمل جاءَ قاصدُ ملك الأمراء خايربك ، فقال : إن ملكَ الأمراء ضعيفٌ ، ولا يستطيعُ أن يأتي إلىٰ باب النصر ، ومقصودُهُ من فضلكم أن تحملوه لسبيل المؤمنين يُصلِّي عليه ، فحملوه للرُّميلة ، فلما صلىٰ عليه ملكُ الأمراء قال : ادفنوه عند

---

(١) الشراريف : جمع شُرَّافة : زوائد توضع في أطراف الشيء تحلية له . « المعجم الوسيط » (١/ ٤٨٠) .

(٢) القنبعة : الورقة السفلى التي تخرج الزهرة من إبطها في نباتات الفصيلة النجيلية . « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٦١) .

الإمام الشافعي تجاه قبر الشيخ نجم الدين الخَبُوشاني المطل عليه الشباك ، قبالة وجه الإمام ، فكان الأمر كذلك .

وكانتْ جنازتُهُ مشهودةً ، ما رأيتُ أكثرَ خلقاً منها .

وقد ألبسني الخرقةَ الصوفية ، وأرخىٰ لي العذبَةَ ، ولقَّنني الذكرَ ، فبيني وبين سيدي أحمد الزاهد رجلان ؛ لأن الشيخَ أخذَ عن سيدي محمد الغمري عن سيدي أحمد ، ولا أعلمُ الآن في مصر أعلا من هٰذا السند ؛ فإن غالبَ الناس بينه وبين الزاهد أربعُ رجال أو ثلاثة .

ولما تُوفي رضي الله عنه أظلمتْ مصرُ ؛ فإنه كان فيها كالشمس ، فطوبىٰ لعينٍ رأته مرَّةً .

مات رضي الله عنه في ذي الحجة عام نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه[1] .

ومنهم :

(٥١٥) شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ ، شيخ الإسلام الشيخ برهانُ الدين بن أبي شريف الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كان شيخاً عالماً صالحاً ، ورعاً زاهداً ، متمكِّناً في علوم الظاهر والباطن .

صحبته رضي الله عنه نحو خمس سنين .

وكان من المُقبلين على الله عز وجل ليلاً ونهاراً ، لا تكادُ تسمع منه كلمة يكتبها كاتب الشمال .

---

(١) ذكر نجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » (١/١٩٨) ، وفاته سنة ست وعشرين وتسع مئة .

(٢) إبراهيم بن محمد بن أبي شريف المقدسي المصري الشافعي . انظر « الكواكب السائرة » (١/١٠٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٦٦) ، وسيذكره المؤلف ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٥٥) (٧) .

وكان لا يتردَّدُ لأحد من الولاة أبداً .

وكان الإنسانُ إذا عرض عليه محفوظاته يتلجْلَجُ من شدَّةِ هيبته ، فيباسطُ الصغير حتىٰ يسكنَ روعه .

وكان له صبَّانةٌ في القدس يُعمل فيها الصابون ، ويتقوَّتُ منها .

وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام .

وكان قوَّالاً بالحقِّ ، آمراً بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وعارضه السُّلطانُ الغوري في واقعة ، فما أفلحَ بعدها أبداً ، وسُلب ملكُهُ ، فكان الناسُ يقولون : جميعُ ما وقع للغوري ببركة الشيخ برهان الدين .

توفي سنة نيف وعشرين وتسع مئة[1] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥١٦) شيخنا الشيخ كمالُ الدين الطويل القادري ، شيخ الإسلام رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كانتِ الأنوارُ تخفقُ علىٰ وجهه ، وكان إماماً في العلومِ والمعارف ، مُتواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يكادُ جليسُه يملُّ من مجالسته .

انتهت إليه الرئاسةُ في العلم ، ووقف الناسُ عند فتاويه ، وكانت كتبُ مذهب الشافعي كأنها نُصبَ عينيه ، لا سيما كتب الأذرعي والزركشي .

وكان من أولاد الترك ، وبلغنا أنه كان في صباه يلعبُ بالحَمَام في الريدانية[3] ، فمرَّ عليه سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه وهو ذاهبٌ إلىٰ بركة الحاج ، فقال له :

---

(١) في « الكواكب السائرة » (١/ ١٠٥) ، و« شذرات الذهب » : أن وفاته : سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة .

(٢) واسمه : محمد بن علي الطويل ، وانظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٤٥) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٥) (٧) .

(٣) **الريدانية** : موضع خارج مصر .

مرحباً بالشيخ كمال الدين شيخ الإسلام ، فاعتقدَ الفقراءُ أن الشيخ يمزحُ معه ، إذ لم يكن عليه أمارات الفقهاء ، فمن ذلك اليوم تركَ لعبَ الحمام ، واشتغل بالقرآن والعلم .

وعاش جماعةُ سيدي إبراهيم الذين ظنوا أن الشيخَ كان يمزحُ معه حين لقَّبه بشيخ الإسلام حتىٰ رأوه تولَّىٰ مشيخة الإسلام ، وظهر لهم صدقُ كلام الشيخ .

ولما دنتْ وفاةُ الشيخ كمال الدين رأيتُ سيدي إبراهيم المتبولي في المنام ، وقال : قل للشيخ كمالِ الدين يتهيَّأ للموت ، ويكثر من الاستغفار ؛ فقد دنا أجلُهُ ، فأعلمتُه بذلك ، فقال : سمعاً وطاعة ، فعاش بعد ذلك شهراً ونصفَ شهرٍ ، فانظر يا أخي ملاحظة سيدي إبراهيم له أولَ أمره وآخره .

ومناقبه كثيرة .

توفي بعد دخول ابن عثمان مصر[١] ، ودُفن بتربته خارج باب النصر قريباً من المدرسة الحاجبية ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥١٧) شيخُنا شيخ الإسلام برهان الدين القلقشندي الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان عالماً صالحاً زاهداً ، قليلَ اللغو والمزح ، مقبلاً علىٰ أعمال الآخرة ، حتىٰ ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل .

انتهتْ إليه الرئاسة وعلوُّ السند في الكتب الستة والمسانيد والأجزاء .

وسمعت عليه بقراءة الشيخ شمس الدين المظفري « الغيلانيات »[٣] ، و« مسند

---

(١) دخل العثمانيون مصر آخر سنة (٩٢٢هـ) .

(٢) واسمه : إبراهيم بن علي ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/١٠٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٤٩) ، و« النور السافر » (ص ١١٠) . وستأتي ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٥٧) (٩) .

(٣) **الأجزاء الغيلانيات** : وهي أحد عشر جزءاً ، تخريج الدارقطني من حديث أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي البزار ، المتوفىٰ سنة (٣٥٤هـ) ، وهو القدر المسموع لأبي طالب=

عبد بن حميد » ، وأجازني بمروياته كلِّها .

وكان لا يخرج من داره إلا لضرورة شرعية ، وليس له تردُّدٌ لأحد من الأكابر .

وكان إذا ركب بغلتَهُ وتطيْلَسَ يصيرُ الناسُ كلهم ينظرون إليه من الخفر والهيبة التي عليه[1] .

مات رضي الله عنه قبل دخول السلطان سليم مصر ، وكأنَّ الشمسَ كانت في مصر ، فغربتْ ، رضي الله عنه .

وكانت جنازتُهُ خاصةً بالأمراء والعلماء والصالحين ، رضي الله عنه[2] .

ومنهم :

(٥١٨) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالىٰ ، شيخُ الإسلام الشيخ شهاب الدين الشيشيني الحنبلي رضي الله عنه[3]

كان عالماً زاهداً ، تقيّاً نقيّاً ، عفيفاً ، متواضعاً ، طالما رأيتُهُ يُدرِّسُ العلم علىٰ نخِّ حلفاء[4] ليس فوقه شيءٌ ، وكان إماماً في التفسير والمذهب .

وكان إذا دخل جامعاً وقتَ صلاة عصرٍ مثلاً يصعد الكرسيَّ بعد الصلاة ويتكلَّمُ علىٰ تفسير آية أو آيتين كلاماً مشحوناً بالمواعظ والزواجر ، حتىٰ يُبكي الناس ، ثم يدعو وينزل .

وكان لا يأكلُ من معاليم مشيخةِ الإسلام شيئاً .

= محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار ، المتوفىٰ سنة (٤٤٠هـ) من أبي بكر المذكور ، وهي من أعلى الحديث وأحسنه . انظر « الرسالة المستطرفة » (ص ٩٢) .

(١) **الخَفَر** بفتحتين : شدة الحياء .

(٢) وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٣٠) ، و« السحب الوابلة » (١/ ١٨٩) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٨) (١٠) .

(٤) تقدم شرح النخِّ (٤/ ١٢٢) ، **والحلفاء** : وزان حمراء : نبات معروف .

ودخلتُ له مرَّةً فوجدتُه يُدوِّرُ مواسيرَ الغزل للحياكين في حارته ، ويتقوَّتُ منها ، وكذلك كان ولدُه الشيخ عزُّ الدين يفعلُ لما تولَّىٰ بعد والده مشيخة الإسلام ، وعزل وتركَ ذريّةً طاهرةً طيبة ، رضي الله عنهم .

مات سنة تسع عشرة وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه[1] .

ومنهم :

(٥١٩) شيخنا الإمام العالم ، الصالح الورع الزاهد نور الدين الأشموني الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

كان متقشِّفاً في مأكله وملبسه وفرشه .

صحبته نحو ثلاثَ سنين ، كأنها كانتْ سِنَةً من حُسْنِ سمته ، وحلاوة منطقِهِ ، وقلَّة كلامه ، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ مات رضي الله عنه .

نظم « المنهاج » في الفقه وشَرَحَهُ ، ونظمَ « جمع الجوامع » في الأصول وشَرَحَهُ ، وشرح « ألفية ابن مالك » شرحاً عظيماً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٢٠) شيخ الإسلام والمسلمين ابن النقيب رحمه الله[3]

هو الشيخ محيي الدين ، قرأ العلمَ علىٰ جماعةٍ من الأعلام ؛ منهم : الشيخ كمال الدين بن أبي شريف ، والشيخ زكريا ، وأضرابهما .

---

(١) تحرفت في « الكواكب السائرة » إلىٰ : (سبع عشرة) .

(٢) انظر « الضوء اللامع » (٥/٦) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٤) ، و« شذرات الذهب » (٢٢٩/١٠) ، و« كشف الظنون » (١/ ١٥٣) ، و« الخطط التوفيقية » (٧٤/٨) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥٨/٥) (٩) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٢٥٣/١) ، و« شذرات الذهب » (١٥٦/١٠) (عبد القادر المعروف بابن النقيب) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥٩/٥) (١٢) .

تولَّىٰ قاضي القضاة مرات ، وكان لا يُصلي الصُّبحَ صيفاً ولا شتاءً إلا في جامع الأزهر ، يمشي كلَّ يوم من المدرسة الناصرية إليه .

وكان مُتواضعاً كثيرَ البكاء من خشية الله ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٢١) شيخُنا وقدوتنا إلى الله تعالى
العالم الصالح ، الورع الزاهد العابد
الشيخُ سعدُ الدين الذهبي الشافعي رضي الله عنه[١]

كان وِردُهُ كلَّ يوم ختماً شتاءً وصيفاً .

وكان خُلُقُه واسعاً إذا تجادلَ عنده الطلبةُ ، يشتغلُ هو بتلاوة القرآن حتىٰ يفرغَ جدالُهم .

وكان يقضي جميعَ حوائجه من السُّوق ويحملُها ، ولا يمكِّنُ أحداً يحملها معه ، ولم تزلِ القفَّةُ بيده إذا مشىٰ وهو يتلو القرآنَ سرّاً .

وكان لا يقبلُ من أحد صدقةً علىٰ خلاف ما عليه الفقهاء .

وكان كثيرَ الصدقة ، وأوصىٰ بمال جزيل للفقراء والمساكين ، رضي الله عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة[٢] ، ودفن خارج باب النصر رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٤٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٣٠) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٥٩) (١٣) .

(٢) في « الكواكب السائرة » : (٩٣٨هـ) أو (٩٣٩هـ) ، وفي « الشذرات » : (مات سنة « ٩٣٩هـ ») .

ومنهم :

(٥٢٢) شيخنا الشيخُ الإمام ، العالم الصالح الشيخُ عبدُ الحقِّ السنباطيُّ الشافعي رضي الله عنه[١]

كان صالحاً عابداً ، مُتواضعاً ، طارحاً للتكلف .

انتهتْ إليه الرئاسةُ في الفقه والأصول وغيرِهما من العلوم .

وكنتَ إذا رأيتَهُ شهدتَ له بالصلاح قبل أن تُخالطه .

مات رضي الله عنه بمكة المشرفة ، ودفن بباب المعلىٰ رضي الله تعالىٰ عنه[٢] .

ومنهم :

(٥٢٣) الشيخُ الإمام ، العالم العامل الورع الزاهد ، جامعُ أشتات الفضائل الشيخُ جلال الدين البكري[٣]

والد الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه .

كان من العلماء العاملين ، وله القدمُ الراسخة في علم التصوف والفقه والأصول ، وغير ذلك .

أخذ العلم عن جماعة ؛ منهم : الشيخُ جلال الدين البكري الكبير ، وشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين بن أبي شريف ، وشيخ الإسلام يحيى المُناوي ، وأضرابهم ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس وهو ببلاد الفيوم ، فأفتىٰ بها ودرَّسَ العلوم ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون .

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٤/ ٣٧) ، و« النور السافر » (ص ١٥٢) ، و« الكواكب السائرة » (١/ ٢٢١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٤٨) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٠) (١٠) .

(٢) وكانت وفاته سنة (٩٣١هـ) .

(٣) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦١) (١٥) .

ثم رحل إلىٰ مصر بأولاده وعياله بإشارة الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي عبد القادر الدَّشْطُوطي رضي الله عنه ، فاستخلفه علىٰ عمارة الجوامع التي عمَّرها بمصر وغيرها ، فعمرها كلَّها من فيض فضل الله تعالىٰ من حيث لا يحتسب ، واشترىٰ لها الأوقاف ، وأقام بها الشعائرَ ، ولم يشاركه أحدٌ في ذلك إلا من كان من طلبته وتحت تربيته ، فكلُّ الأماكن المنسوبة إلىٰ سيدي عبد القادر عمارةُ الشيخ جلال الدين رضي الله عنه ، وجميعُ ما فيها من الخيرات والأرزاق في صحائف الشيخ جلال الدين ؛ لأنها من كسبه واجتهاده .

وكان الشيخ غارقاً فيما هو فيه من الجذب لا يفيقُ إلا قليلاً ، فالاسمُ له والمعنىٰ للشيخ جلال الدين .

وسمعتُهُ رضي الله عنه يقول مرَّةً للشيخ جلال الدين : إياكَ أن تُدخلَ في المقام أحداً من أبناء الدنيا ، واجعلْ جميعَ وظائفه وخبزه وطعامه للفقراء والمساكين و[مكشفي] الركب[1] ، والواردين ، فامتثل الشيخ جلال الدين ذلك ، وسار في المقام سيرةً عظيمةً حتىٰ صارَ يُضرب بالمقام المثل من كثرة الاشتغال الذي فيه .

وكان لا يتناولُ منه معلوماً علىٰ نظره ، ولا يُزاحم الفقراء في الوقف .

وكان يُكرمُ كلَّ واردٍ عليه ؛ من أمير ، أو فقير ، أو غني ، أو صغير ، ويُقدِّمُ لكل واحد ما يناسبه .

وكان كثيرَ الحياء والأدب ، كريمَ النفس ، جميلَ المعاشرة ، حلو الكلام ، كأنَّ اللهَ تعالىٰ عجنَ طينةَ جسده من سائر المحاسن .

وكان يتفقَّدُ كلَّ من نام في المقام ، ويسأل عن القيام بواجبه وإكرامه ، فباتَ عنده جماعةٌ مرَّةً ، واشتروا عشاءَهم من السوق ، فتكدَّرَ غايةَ التكدير ، وكان علىٰ طريقة العرب في الكرم والنخوة والمروءة .

وكان كثيرَ الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، وكانوا يهابونه ويجلُّونه .

---

(١) في النسخ : (مكشفين) أو (مقشفين) بدل (مكشفي) .

وكان مهيبَ المنظر ، عليه خفرُ العلماء العاملين ، والأولياء والصالحين ، كثيرَ الصيام والقيام ، زاهداً ورعاً عفيفاً ، متقشِّفاً في ملبسه ومأكله ، لا يدَّخرُ شيئاً من الدنيا ، ولا يبيتُ علىٰ دينارٍ ولا درهم ، يكسي الفقراء والمساكين ، ويفتقدُ الأيتام والأرامل .

وكثيراً ما يغرفُ الماجور الكبير من الطعام[1] ، ويضعُهُ علىٰ باب الزاوية بعد المغرب ، فكلُّ من رآه ذاهباً إلى السوق يشتري عشاءَهُ يقول له : تعالَ ، فيغرفُ له ما يكفيه ويكفي عياله ويقول له : توسَّعْ بما كنتَ عازماً علىٰ شراء عشائك به .

وأوصافه الحسنة تجلُّ عن تأليفي ، فأسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعنا ببركاته وبركات أسلافه الطاهرين ، آمين .

مات رضي الله عنه ودُفن في القبة الكبيرة التي في الجامع الأبيض ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

ورأيتُه بعد موته بشهور وهو في نعشه طائراً في الهواء حتىٰ جاء إلىٰ مقام سيدي عبد القادر ، فدخلَ من شباك القبة ، فقلتُ له : يا سيدي ما لك انتقلتَ ؟! فقال : إن الفسقيةَ التي أنا فيها يدخلها الماء من بركة القرع ، فقلت ذلك لولده الشيخ أبي الحسن ، فقال لي : لعل منامَكَ [صحيح][2] ، ثم فتحَ الفسقية ، فوجدَ الشيخ عائماً بكفنه ، فعملَ للشيخ دكَّةَ خشبٍ معلَّقة[3] ، ووضعه عليها ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) **الماجور** : إناء من خزف يطبخ فيه اللحم .

(٢) في النسخ : (صحيحاً) .

(٣) **الدَّكَّة** : ضرب من العربات النقالة توضع عليها النواويس ـ الأضرحة ـ قبل نقلها إلى القبر .

ومنهم :

(٥٢٤) الشيخ الإمام ، الفقيه الصوفي النحويُّ
الشيخ شهابُ الدين الحسامي رضي الله عنه[١]

صحبتهُ نحوَ عشر سنين ، فما رأيتُ وقتاً دخلَ عليه وهو مُحدِثٌ ، كان دائمَ الطهارة ، كثيرَ الصمت والحياء والأدب ، يمكثُ اليومين وأكثر لا يتكلَّمُ بكلمة لغو .

وكان زاهداً ورعاً ، كثيرَ الصيام ، طويلَ القيام ، يقومُ للتهجد من أول النصف الثاني من الليل .

وكان نهارُهُ كلُّه في طاعة ؛ إما في علم ، أو قراءة قرآن ، أو قراءة أوراد .

يقول مَنْ عاشره : ما ضبطنا عليه قطُّ ساعةً هو فيها غافلٌ عن مصالح دنياه أو آخرته .

وكان لا يأكلُ شيئاً من صدقات الناس ، ولا يقبلُ هديةَ أحد من الولاة ، أو القضاة ، أو المباشرين ، أو التجار الذين لا يتورَّعون في كسبهم .

أخذ طريقَ التصوف عن جماعة ؛ منهم : سيدي الشيخ علي السمرصفي رضي الله عنه ، وكان يذهبُ إلىٰ مجلسه كلَّ يوم جمعة .

وكان رجلاً مهيبَ المنظر ، يتعمَّمُ بالقطن من غير قصارة ، وثيابُهُ قصيرةٌ على السُّنَّةِ المحمدية .

وكان يخدمُ نفسَهُ ، ويشتري حوائجَهُ من السوق بنفسه ، ولا يمكِّنُ أحداً يحملها معه .

وكان العلماءُ يرجعون إليه في المعقولات ، ويعدلونه بابن مالك ، أو ابن هشام ، رضي الله تعالىٰ عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة[٢] ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٨٤) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٤) (١٧) .

(٢) ذكرت مصادر ترجمته وفاتَهُ يوم الثلاثاء (١٥) ربيع الأول سنة (٩٢٥هـ) .

ومنهم :

(٥٢٥) الشيخُ الإمام ، العالم المحقِّق ، الورع الزاهد الشيخُ صلاح الدين القليوبي الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

صحبته عشرَ سنين ، وقرأت عليه عدَّة كتب .

وكان حسنَ الخلق ، كريمَ النفس ، يتفقَّدُ جيرانَهُ كلَّ ليلة بالطعام ، ويقوم بأيتام حارته وأراملها خارج باب النصر .

وكان من أجلِّ جماعة مولانا الشيخ زكريا وشيخ الإسلام ابن أبي شريف ، وشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين الطويل .

وكان مهيبَ المنظر ، عليه خفرُ أهل العلم بين الأكابر .

وكان إذا خرج من بيته للصلاة يزدحمُ الناسُ عليه يتبرَّكون به .

وكان يباشر وظائفَهُ ؛ من تدريس علمٍ وغيره ، ويتصدَّقُ بمعلومها على الفقراء ، ويحسبُ الأيام التي لم يباشرها يوفِّرُها للوقف ، رضي الله عنه .

مات في سنة ثلاثين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٦) الشيخ العالم الصالح الشيخ شمسُ الدين الدِّمياطيُّ الشافعي[٢]

المقيم بخانقاه سعيد السعداء .

كان محقِّقاً للعلوم ، كثيرَ البكاء من خشية الله ، زاهداً ورعاً ، عابداً ، لا يكادُ ينام من الليل إلا قليلاً .

---

(١) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي .

(٢) لم أجد له ترجمة في المصادر التي بين يدي ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/٦٣) (١٦) .

أخذ العلم عن جماعة ؛ منهم : الشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ عبد الحقِّ السنباطي ، وأخذ التصوفَ عن سيدي محمد الإستنبولي ، وعن الشيخ نور الدين الحسني .

وكان سمتُهُ سمتَ الصالحين ، وأعمالُه أعمالَ المتقين .

وكان يعيب على الفقهاء الذين يتوسوسون في ماء الطهارة ولا يتوسوسون في اللقمة ، ويقول لهم : لو عكستم الأمرَ لأفلحتم .

صحبته نحو خمس سنين ، ثم مات ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً .

وكان عزباً لم يتزوج قطُّ ، وكان يطبخُ بنفسه ، ويفرِّقُ على جيرانه ، ويُطعم طلبته ويقول : ما أحوجني الله تعالىٰ إلى النساء ، كابدتُ العزوبةَ سنةً ، ثم ذهبتْ عني شهوة الوطء .

وكان كثير الذكر لله تعالىٰ ، لا يكادُ يغفُلُ عن قول : (الله الله) في حال درسه ، وفي حال عمله الشغل ، رضي الله عنه .

ولمَّا ماتَ أخبرَ عنه جماعات كثيرة أنه كان يَعولُهم ، فيحملُ إليهم بالليل ما يأكلون وما يلبسون ، ويأمرُهم بكتمان ذلك ، فلم يظهر الأمر إلا بعد موته ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٢٧) الشيخُ الإمام ، العالم الصالحُ
الشيخ عبد الخالق الميقاتي الحنفي رضي الله عنه[١]

صحبته نحو [خمس عشرة] سنة[٢] .

وكان عالماً بمذهب الإمام أبي حنيفة ، وله الباعُ الطويل في المعقولات ، وعلم الهيئة ، وعلم التصوف .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٢٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٠) ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٥) (١٨) .

(٢) في النسخ : (خمسة عشر) .

وكان وقتُهُ كلُّهُ معموراً بذكر الله عز وجل أو غيره من الطاعات .

وكان كريمَ النفس ، لا ينقطعُ عنه الواردون في ليلة من الليالي .

وكان للفقراء عنده في الجمعة ليلةٌ يتذاكرون عنده في أحوال الطريق إلى الصباح ، وله سماطٌ من أول رمضان إلىٰ آخره .

وكان دائمَ الصمت ، لا يتكلَّمُ إلا لضرورة ، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، لا تأخذُهُ في الله لومةُ لائم .

وكان علىٰ طريقة الفقراء الأقدمين ، لا يعجبه أحدٌ من فقراء الزمان وعلمائه ، ويقول : إنه لا ينبغي لأحد أن يتظاهرَ بأنه من قوم إلا إن صدقَ في طريقهم .

وكان يكره لبسَ الزِّيِّ ويقول : ليستِ الطريقُ بمثل ذلك ، وإنما كان السلفُ يلبسون الصوف والمرقعاتِ لقلة الحلال المناسب لمقامهم ، ثم يقول : وماذا يُغني لبسُ مئزرِ الصوف والجبة وصاحبُهما ينام الليلَ ويفطر النهار[1] ، ولو أنه عكسَ الأمر لكان خيراً له .

مات رضي الله عنه ودفن قريباً من جامع آل ملك[2] ، وكانت جنازتُهُ مشهودة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٨) الشيخُ الصالح ، العالمُ الزاهد

الشيخ شمسُ الدين الجزيري الشافعي الغمري رضي الله عنه[3]

كان علىٰ قدم عظيم في ضبطِ اللسان والجوارح ، لا يكادُ كاتبُ الشمال يجدُ شيئاً يكتبه الجمعةَ وأكثر .

وكان وقتُه كلُّهُ معموراً بالعلم والعمل والأوراد ، وما سمعتُهُ قطُّ يذكرُ أحداً بسوء ، ولا يأكلُ لأحد من المتهورِّين في مكاسبهم طعاماً .

---

(١) في (ب ، ج ، د ، ك) : (يعني) بدل (يغني) .

(٢) ذكره ابن العماد ضمن وفيات سنة (٩٣١هـ) وقال : (وفيها تقريباً) .

(٣) لم أجد له ترجمة ، وسترد ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٦) (١٩) .

وكان يحسبُ ماله ، ويخرجُ زكاته على التمام والكمال .

وكان كثيرَ الصدقة سرّاً ، ويتفقَّدُ جيرانه بالطعام كلَّ ليلة .

وكان حلوَ اللسان ، كثيرَ الحياء ، كثيرَ الأدب ، كثيرَ الحلم والعلم .

وبالجملة : فقد كان عديمَ النظير في عصره ، وأوصافُه كثيرةٌ رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٢٩) شيخُنا العالمُ العلامةُ ، حافظة العصر الشيخ نورُ الدين بنُ ناصر الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان يحفظُ نصوصَ مذهب الشافعي وأقوالَ مقلِّديه عن ظهر قلب ، لا يحتاجُ حالُ قراءته إلىٰ نظر في كراس[٢] .

وكان جميلَ المعاشرة ، حسنَ الأخلاق والشيم ، لا تكاد تجده إلا متبسماً .

وكان النورُ يخفق علىٰ وجهه ، يُدركُهُ كلُّ المؤمنين .

وكان محفوظُهُ أكثره من « الروضة » كان في تدريسه كالبحر الهدَّار في العلم ، رضي الله عنه .

مات سنة نيِّفٍ وعشرين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٠) شيخُنا العالم العلامة الشيخ مجلي الشافعي رضي الله عنه[٣]

كان يُفتي في المدرسة الصالحية وعلىٰ بابها عن ظهر قلب في جميع الوقائع التي يُسأل فيها ، وقلَّ أن يكشف ؛ لأن مذهبَ الشافعي كان نُصبَ عينيه ، ومكث يُفتي

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٧) ، وسيذكره المؤلف ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٦) (٢٠) .

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (لا يحتاج إلىٰ نظر في كراس) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٧) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٧) (٢١) .

الناسَ أكثر من خمسين سنة كما أخبرني بذلك في مرض موته .

وكان ورعاً زاهداً ، قليلَ الكلام ، ربما يمكثَ اليومَ كاملاً لا يتكلَّمُ بكلمة لغو[١] .

وكان يشهد في الصالحية ولا يقضي ، وسألوه بالقضاءِ فأبىٰ .

وكان بيته خالياً من أمتعة الدنيا ، لا تكاد تجد فيه غير الإبريق ، ونخٍّ حلفاء[٢] مفروشٍ تحته ، وإبريق يتوضَّأُ منه .

وكان ملبسُه إذا دخلَ بيته هُديمات ، وعِمامة شراميط .

ودخلتُ عليه في مرض موته ، فقال : يا ولدي ؛ خيرُ الناس من خرج من الدنيا لم يأخذ من أجر عمله شيئاً ، لي خمسون سنة أُفتي في هٰذه البلد ومع ذلك لم يتفقَّدني أحدٌ في هٰذه الضعفة برغيف ، ولا بجديد ، ولا بقطعة سكر ، فالحمدُ لله رب العالمين .

مات رضي الله عنه قريباً من عشرين وتسع مئة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٣١) شيخُنا العالمُ الصالح ، الشيخ عيسى الإخنائي الشافعي رضي الله عنه[٣]

كان عالماً صالحاً ، ورعاً زاهداً في الدنيا ، قليلَ اللعب والغفلة وتناولِ الشهوات ، لا يبدأ أحداً بكلام إلا إن سأله عن مسألة .

وما سمعتُهُ قطُّ يغتابُ أحداً من أقرانه الذين كانوا يُؤذونه ، بل يسكتُ إذا بلغه عنهم كلامٌ ويقول : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وعرضوا عليه الدنيا فردَّها ، ورضي بأكلِ الكسر اليابسة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في (ب ، ج ، د) : (اليومين) بدل (اليوم) .

(٢) **النخُّ** : فارسي معرب ؛ وهو بساط طويل ، طوله أكثر من عرضه . تقدم (٤/ ١٢٢) .

(٣) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٦) .

ومنهم :

(٥٣٢) الشيخُ الإمام المحقق ، الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح « البخاري » رضي الله عنه[١]

كان عالماً صالحاً محدِّثاً مُقرئاً ، وكان من أهل الإنصاف ، كلُّ من ردَّ عليه سهواً أو غلطاً يزيدُ في محبته وتعظيمه .

ولما طالعت « شرحه للبخاري » سألني بالله أَنْ أُنبِّهَه علىٰ كل موضع وقفت فيه .

ولما وضع شيخُ الإسلام زكريا رحمه الله شرحاً على « البخاري » أخبرتُهُ بذلك ، فسألني أن أحضرَ معي « بشرحه » ، فكلُّ شيء عدلَ عنه الشيخ زكريا من عبارته أكتبُهُ له في ورقة ، فكنتُ أجمعُ له في كل جمعة عدَّةَ أوراق ؛ تارةً يأتي فيأخذها ، وتارةً يُرسل عبدَهُ فأُعطيها له .

وجاءني مرةً إلىٰ باب خلوتي ، فقال : بلغني أن في يدك علامةً ، فأريتُها له ، وكان لإصبعي اليمين الخنصر أربعُ عقد ، فظننتُ أنه يريد رؤيتَهُ ، فأخذ بيدي وقبَّلها سبعَ مرات ، وقال : لا تَغفُلْ عن كتابة ما يُخالفني فيه الشيخ ؛ فإنه يا ولدي لا يحرِّرُ الكتابَ إلا الطلبةُ ، وليس لي طلبة .

وكان رضي الله عنه من أزهد الناس في الدنيا ، وأحسنِهم وجهاً ، طويلَ القامة ، حسنَ الشيب ، يقرأ [بالأربع عشرة] رواية[٢] .

وكان صوتُهُ بالقرآن يُبكي القلبَ القاسي ؛ إذا قرأ في المحراب يتساقطُ الناسُ من الخشوع والبكاء .

وأقام عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم سنين ، فحصل له جذبٌ ، فصنَّف « المواهب

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (٢/١٠٣) ، و« الكواكب السائرة » (١/١٢٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/١٦٩) ، و« خطط مبارك » (٦/١١) ، وسترد ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٦٨) (٢٢) .

(٢) في النسخ : (بالأربعة عشر) .

اللدنية » لمَّا صحا ، وأوقف خصيّاً كان معه على خدمة الحجرة النبوية ، رضي الله عنه .

مات رضي الله عنه في شهر ربيع الأول قريباً من العشرين وتسع مئة[1] ، ودفن في مدفن المدرسة العينية قريباً من الجامع الأزهر ، رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

(٥٣٣) شيخُنا الإمام العالم المحدث ، خطيبُ الجامع الأزهر الشيخُ شمس الدين السمنودي الشافعي رضي الله عنه[2]

كان عالماً ، ورعاً زاهداً ، لم يأكل من معلوم وظائفه الدينية شيئاً ، إنما كان يُنفقه على العيال .

ومرض مرةً ، فلم يستنبْ في الحضور ، فردَّ معلومَ ذلك الشهر حين أتوه به .

وكان يقول : (جهدتُ أني آكل من معلوم فلم يتيسَّرْ لي ، إنما آكل من حيث لا أحتسب) .

وانتهتْ إليه الرئاسة في الفتيا بمصر مدَّةً طويلة ، ثم انتقل إلى المحلة الكبرىٰ ، فأقام بجامع سندفا[3] ، فلم يزل يُفتي ويدرس العلم به إلىٰ أن مات سنة إحدىٰ وعشرين وتسع مئة[4] ، ودفن بمقبرة الشيخ الطريني .

وكان لا يُفتي أبداً في الطلاق ، ويقول : إنهم ينهون في مسائل الطلاق خلاف الواقع[5] ، فيعملوا بفتياي بالباطل ، رضي الله عنه .

---

(١) ذكره ابن العماد في وفيات سنة (٩٢٣هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٨٦) ، وسيذكر المؤلف رحمه الله ترجمته ثانية في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٩) (٢٣) .

(٣) في « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » : (السر) بدل (سندفا) .

(٤) في (أ ، ز ، ط ، ك) : (وستين) بدل (وعشرين) ، وفي (هـ ، و ، ي) : (وثلاثين) ، والمثبت من « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » .

(٥) في « الكواكب » : (يسألونني) بدل (ينهون) .

ومنهم :

(٥٣٤) شيخُنا الإمام العلامةُ المحقق ، الشيخُ جمال الدين الصاني الشافعي المدرسُ بجامع الأزهر رضي الله عنه[1]

كان عالماً صالحاً مُهاباً .

قرأت عليه نحو خمس سنين ، ثم مات رضي الله عنه .

لم يزلْ يُفتي ويُدرِّس بالجامع الأزهر حتىٰ مات ، وتخرَّج به جماعةٌ كثيرة .

وهو من أجلِّ طلبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضي الله عنه .

وكان قوَّالاً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يُواجه بذلك الملوك فمن دونهم ، حتىٰ أدَّاه ذلك إلى الحبس والضيق ، وهو مصمِّمٌ على الحقِّ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٣٥) شيخُنا الإمام ، العلامة في فنون العلم الشيخ شمسُ الدين الغزِّي رضي الله عنه[2]

كان حسنَ الصوت بالقرآن ، فجعلَه السُّلطان الغُوري إماماً في مدرسته بغير سؤال منه ، وقدَّمه علىٰ سائر علماء البلد الذين سألوا .

وكان مُهاباً لا يكادُ أحدٌ ينظر إليه إلا ارتعدَ من هيبته .

وكانوا يحذِّرون الصبيانَ الذين يعرضون عليه محفوظاتهم منه ، ويقولون لهم : لا تنظروا إلىٰ وجه الشيخ تذهلوا عن حفظكم من هيبته .

وكان صوتُهُ في المحراب غريباً لا يكاد المصلون يملون من سماعه ولو قرأ بنحو حزب .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٥٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٠) (٢٥) ، والصاني : نسبة إلىٰ صانية ؛ قرية داخل الشرقية ، من أعمال مصر .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٨٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٦٩) (٢٤) .

وكان يفتي ويُدرِّس طولَ النهار علىٰ طهارة كاملة ، ولم يضبطوا عليه قطُّ غيبةً في أحدٍ من أقرانه ولا غيرهم .

وسمعتُهُ يقول مرَّةً : جميعُ أعمال العبدِ إذا قبلَها اللهُ يوم القيامة ربما لا يرضىٰ بها إنسانٌ في غيبة واحدة ، فكيف يليقُ بعاقلٍ أن يصنع بنفسه ما يؤدِّيه إلىٰ ذلك ؟! رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٦) الشيخ الإمامُ ، العالم العلامة ، المحدِّثُ الفقيه المقرئ الأُصولي ، النحوي الصوفي ؛ الشيخ أمينُ الدين إمامُ جامع الغَمْري بالقاهرة رضي الله عنه[١]

كان زاهداً ، ورعاً ، كريماً ، واسطةَ خيرٍ للناس في قضاء الحوائج والبرِّ والإكرام .

وكان لا يدخلُ أحدٌ مصرَ من الأولياء والعلماء إلا ويَرِدُ عليه ، ويُكرمه ويُجلُّه ؛ كسيدي محمد بنِ عنان ، وسيدي محمد المنير ، وسيدي محمد بن داود ، وسيدي أبي بكر الحديدي ، وسيدي محمد الشناوي ، وسيدي عبد الحليم ، وسيدي علي بن الجمال ، وأضرابهم .

وهو من أول من أخذتُ عنه الحديثَ ، والفقه ، والتفسير ، والأصول ، والنحو ، والسند بكتب الحديث من أهل مصر .

وكان كثيرَ الكشف والكرامات ، والاعتقاد التامَّ من الخاص والعام .

وكان وقتُهُ محفوظاً من تضييعه فيما لا ينبغي ، لا تكاد تجده قطُّ في ليل أو نهار إلا في طاعة .

وممَّا رأيتُه من كراماته : أني كنتُ أعارضُ[٢] معه في « شرح البخاري » للقسطلاني

---

(١) تقدمت ترجمته مع ذكر مصادرها في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٤١١) (٣٨٥) و« الوسطىٰ » (٤/ ٢١٦) (٤٠٥) وسترد في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧١) (٢٦) .

(٢) في (أ ، ز ، ط) : (أقابل) بدل (أعارض) .

في باب جزاء الصيد ، فمررتُ علىٰ قوله فيه : (وفي التَّيْتَل عنز[1]) فقلتُ له : ما صفة التَّيْتَل ؟ فقال : إن شاء الله تراه في هـٰذا الوقت ، فما مضىٰ نحوُ درجة إلا والتَّيْتَلُ خرج من حائط الجامع ، حتىٰ وضع فمَهُ علىٰ كتفي ، فرأيتُه ، ثم خرج التَّيْتَلُ من باب جامع الغَمْري والناسُ ينتظرون صلاة العصر ، فلما انقضتِ الصلاة قلتُ لجماعةٍ كانوا هناك : أرأيتم التَّيْتَلَ الذي خرجَ من المحراب ؟ فأنكروا ذلك وضحكوا ، فقصصتُ عليهم القصَّةَ مع الشيخ ، فقالوا : هـٰذه كرامة له .

وكان يقرأ بالسبع في المحراب بصوت حسن ما سُمع في مصر مثلُهُ .

ولما وردَ قرقط أخو السلطان سليم إلىٰ مصر طلبوا له إماماً يؤمُّ به في الجمعة ، فاتفق أهلُ مصر على الشيخ أمينِ الدين ، فشاوروا السلطان الغوري عليه ، فأمره بذلك إلىٰ أن رجع إلى الروم .

وسمع قراءتَهُ في صلاة الصُّبح نصرانيٌّ من مباشري السلطان ، فطلع الجامعَ وأسلمَ ، ورقَّ قلبُهُ للإسلام من حُسْنِ صوت الشيخ ، ورأيتُهُ يصلي خلفه إلىٰ أن مات .

وكان الشيخ أبو العباس الغمري يقول : (جامعُنا هـٰذا جثةٌ ، وروحُهُ الشيخ أمين الدين) .

ومكث إماماً فيه سبعاً وخمسين سنة ما ضبطوا عليه أن الوقتَ دخل وهو علىٰ غير طهارة ، وما ضبطوا عليه قطُّ أنه نام عن قيام الليل في صيف ولا شتاء .

ورأيتُ جماعةً يأتون إليه من بيلاق يصلون خلفه الصبحَ ويرجعون ، وكذلك جماعة من الخرَّاطين بالقرب من الجامع الأزهر .

وكان يقرأ بالأنغام المختلفة في الصلاة ، لا يتكلَّفُ لها .

وكان جماعةُ السُّلطان الغوري الذين يَنشدون عنده يأتون إليه ، فيتعلمون منه الأنغام .

وكان إذا مرض يتكلَّفُ الوضوء ولا يتيمَّم .

---

(١) **التَّيتل** : كحيدر ، لغة في الثيتل بالمثلثة : ذكر الأروىٰ « تاج العروس » (ت ت ل) .

ورأيتُهُ ليلةَ توفي زحفَ إلىٰ ميضأة الجامع وتوضأ ، وغلبَ عليه المرض ، فوقعَ في الميضأة بثيابه وعمامته ، فطلع وثيابه تقطرُ ماءً ، فأحرم بالناس في صلاة المغرب ، وصلىٰ بهم كذلك ، ولم يترك صلاة الجماعة ، ثم ماتَ بعد صلاة العشاء تلك الليلة[١] ، رضي الله عنه .

وكان ملبسُه الثيابَ الشمط الزرق[٢] والعمامة القطن بلا قصارة .

وله هيبةٌ تؤثِّرُ في قلوب الأكابر ، ومع ذلك كان في غاية التواضع مع العميان والأرامل والمساكين ، ويقضي حاجته من السوق ، ويخبزُ الخبزَ علىٰ رأسه في الفرن ، ولا يمكِّنُ أحداً يفعلُ معه ذلك .

وكان كلُّ من رآه من الأكابر وهو حاملٌ طبقَ الخبز ينزلُ من علىٰ فرسه ، ويقبِّلُ يده ، ويُسايره ، ولا يقدرُ على الركوب حتىٰ يفارقَهُ الشيخ .

وكان يجمع الزكاة ويفرِّقُها على المحاويج ، حتىٰ يرسل لأهلي صريراتٍ إلىٰ بلاد الريف ، ولم يأكل منها شيئاً .

وكان يقول : (بمجرَّد ما أرى الفقيرَ لبس الثياب الرفيعة ، ويحبك شدَّهُ ، ودخل الحمام للترفه ، وجلس علىٰ باب الجامع ينظر الناس ، لا يبقىٰ بيني وبينه رابطةٌ) .

وكان إذا مقتَ إنساناً لا يفلحُ بعدها أبداً ، مقتَ نحو سبعةَ عشر نفساً ، فرأوا في أنفسهم العبر ، ولم يفلحوا لا في أعمال الدنيا ولا في أعمال الآخرة .

وكان كلَّ يوم يفتُّ الخبزَ اليابس ويسقيه بالشوربة ، ويجمعُ العميانَ والأيتام ويتغذّىٰ معهم ، ولا يأكلُ وحده إلا لضرورة .

---

(١) في (أ ، ج ، د ، هـ) : (صلاته العشاء) بدل (صلاة العشاء) .

(٢) قال الصغاني في « العباب الزاخر » (ش و ط) : (وصار الثوب شماطيط : إذا تشقق) .
وقال ابن السكيت في « كتاب الألفاظ » (ص ١٦٠) : (قد صار شماطيط ؛ أي : قد تخرق) .

وكان إذا قلَّ المرقُ عن تسقية الخبز يصبُّ عليه من الإبريق ويأكله .

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة .

مات رضي الله عنه في ذي القعدة سنة تسعٍ وعشرين وتسع مئة ، ودفن بتربته خارج باب النصر ، رضي الله عنه .

ورأيته بعد موته ، وروىٰ لي حديثاً بالسرياني ، ففهمتُ معناه ، وهو قوله : روىٰ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه ، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ واظبَ على النومِ بعد الصُّبح ابتلاه الله تعالىٰ بوجع الجنب ، وكان بي وجعُ الجنب قبل ذلك ، وما كنتُ أعرفُ سببَهُ ، فتركتُ النوم بعد الصبح ، فزال الوجعُ ، مع أني ما كنتُ أنام بعد صلاة الصبح إلا يوم الجمعة ؛ لكونها ليلةَ سهرٍ من العشاء إلى الفجر .

ورأيتُهُ مرةً أخرىٰ ثاني ليلةٍ من دفنه وجبهتُهُ تقطرُ دماً حتىٰ ظهر لونُهُ من الكفن ، فقلتُ ذلك لولد ابنته الشيخِ أبي اللطف ، فقال : رؤياك صحيحة ؛ فإننا لمَّا أنزلناه القبرَ صدمَ حجرٌ جبهتَهُ ، فخرج منه الدم ، رضي الله عنه .

وإلىٰ وقتي هـٰذا ما كنتُ في شدَّة إلا ورأيته في منامي ، وحصل لي الفرجُ ، فالحمد لله رب العالمين .

ومنهم :

(٥٣٧) الشيخ الإمام ، العالم العامل ، الزاهد الصالح
الشيخ نور الدين السَّنهوري الضرير إمام جامع الأقمر رضي الله عنه[١]

قرأتُ عليه عدة كتب في النحو والفقه وعلم الحديث .

وكان الخلائقُ مقبلين عليه ، ولا تقومُ طائفةٌ إلا ويدخلَ عليه أُخرىٰ ، حتىٰ إن بعضَهم يُكمِّلُ درسَهُ على السِّراج .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٧٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٤) (٢٧) ، واسمه : جعفر نور الدين .

وألَّف عدَّة مؤلفات في القراءات ، وفي النحو ، ونظم « الآجرُّومية » على رَوِيِّ « الشاطبية » وشَرَحَها .

ورأيتُهُ مراتٍ وهو يأكلُ والناسُ يقرؤون عليه ، لا يجدُ وقتاً خالياً للأكل من كثرة اشتغال الناس عليه .

وكان له فروةُ كبش يلبسُها صيفاً وشتاءً ، مغشَّاة بثوب طرح غليظ[1] ، وكانت عمامتُهُ من غليظ المحلاوي يغسلُها مرةً في السنة .

وكنتُ إذا دخلتُ بيته أتذكَّرُ أحوالَ السلف ، ليس فيه طرَّاحةٌ ولا صندوق ، ولا شيءٌ من أمتعة أهل الدنيا .

وكان كثيرَ الصمت والخشية لله تعالىٰ ، لا تزالُ عيناه تهملُ بالدموع .

وكان يقول : (ما بقي للفقيه في هـٰذا الزمان أحسنُ من الوحدة وعدمُ التردُّد إلى الناس ، وما دام الناسُ غافلين عنه فهو بخير ، والفتنةُ كلُّها في الشهرة) .

وكان يُدمن التدفِّي بالنار في الشتاء ، حتىٰ صارت أوراكُه سوداً من ذلك ، فطلبوا أن يشتروا له شيئاً يُدفئه ، فقال : ما لي وللدنيا ، ما بقي إلا القليلُ ونقدمُ على الله وننسىٰ كل بؤس في الدنيا .

مات رضي الله عنه سنة ثلاثٍ وعشرين وتسع مئة .

ومنهم :

(٥٣٨) الشيخُ الإمام ، العالم العلامة ، المحقق ، الفقيه الصوفي المفننُ في العلوم الشيخ ملا علي العجمي[2]

الذي كان مُقيماً بتربة نائب جدِّه خارج باب القَرافة ، رضي الله عنه .

كان إماماً في الفقه والتفسير ، والمعقولات ، والتصوف .

قرأتُ عليه عدَّةَ كتب ، وانتفعتُ بصحبته .

---

(١) **الطرحة** : الطيلسان . « القاموس المحيط » (ط ر ح) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٣/ ١٧٦) (منلا) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٥) (٢٨) .

وكان كثيرَ الأدب والحياء ، كثيرَ الصمت ، لا يكادُ يتكلّم إلا إن كلّمَهُ أحدٌ .

وكنتُ أُشبِّهُهُ بسيدي الشيخ علي المرصفي في الهيبة والوقار .

وكان حَسَنَ الاعتقاد ، تابعاً هديَ أهل السنة والجماعة ، محبّاً لجميع الصحابة ، عابداً ، ناسكاً ، خاشعاً ، خائفاً ، مجلسُهُ كلُّه مجلسُ علم وأدب ، وحياء ووقار ، يُجيب عن الأئمة المخالفين لإمام مذهبه بأحسن جواب .

مات رضي الله عنه ، ودُفن في محلِّ إقامته خارج باب القرافة ، وكانت جنازتُهُ مشهودةً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٣٩) الشيخ العلامة ، المحدث الفقيه الصوفي الشيخ بدرُ الدين المشهدي رضي الله عنه(١)

كان عالماً صالحاً ، كثيرَ العبادة ؛ من صيام ، وقيام ، وكفِّ لسان ، محباً للخمول وعدمِ نشر الصيت ؛ إن رأىٰ أحداً يقرأ عليه فتحَ له ، وإلا أغلقَ باب داره ، فقلتُ له يوماً : ما أصبرَكَ يا سيدي على الوحدة ؟! فقال : من كان مجالساً لله تعالىٰ فما ثَمَّ وحدةٌ ، وقد جاوزتُ الأربعين سنةً ، وما بقي يناسبني إلا الجدُّ والاجتهاد وعدمُ الغفلة عن الله تعالىٰ .

ثم قال لي : (هكذا أدركنا الأشياخَ ، خلافَ ما عليه أهلُ هـٰذا الزمان ، يتعلَّمُ أحدُهم بعضَ مسائل ، فيودُّ أن لو عرفَ به جميعُ أهل الأرض) .

ثم قال : (يا ولدي ؛ والله ؛ إني إلى الآن في غمٍّ شديد ؛ لفقد تلك الأشياخ الذين كانت رؤيتُهم عبادةً) .

وكان يقول : (مدحُ الناس للعبد قبل مروره على الصراط كلُّهُ غرورٌ ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٩) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٦) (٢٩) .

ومنهم :

(٥٤٠) الشيخُ الإمام ، العلامةُ ، محقِّقُ الديار المصرية الشيخ نورُ الدين المحلِّي الشافعي رضي الله عنه(١)

كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة ، علىٰ وجهه الخشيةُ والوقار ، غزيرَ الدمعة إذا ذُكرتْ أحوالُ السلف .

وكان مشهوراً في مصر بحلِّ مشكلات العبارات في الفقه ، والأصول ، والمعاني ، والبيان ، وغير ذلك .

وتفقَّه عليه خلائقُ لا يُحصون ؛ منهم : الشيخ شهاب الدين عميرة ، والشيخ عبد الحميد السمهودي رضي الله عنهما .

ولم يزل علىٰ نعت الاستقامة من الزهد في الدنيا ، والاعتقادِ الحسن في طائفة الصوفية عكس ما كان عليه شيخُهُ الشيخُ برهان الدين البِقاعي .

وأخبرني مرَّةً أن شيخَهُ قال له : (يا ولدي ؛ إنما أُنكرُ علىٰ هٰؤلاء القوم ؛ خوفاً علىٰ عقائد الناس أن تَتلفَ ؛ لعدم سلوكهم الطريق ، وتعذُّر معرفة كلِّ أحد اصطلاحهم في ألفاظهم ، فرأيتُ التنفيرَ عن كلامهم أحسنَ للناس وأصلحَ ، وإلا فأنا بحمد الله معتقدٌ في الشيخ محيي الدين بن عربي ، وفي سيدي عمر بن الفارض ، وبتقدير عدم الاعتقاد فيهما فإنما أنكرتُ على العبارة التي نُسبت إليهما ، وقد لا يكونُ ذلك كلامَهما ، وقد دسَّ الملاحدةُ شيئاً كثيراً في كلام الأئمة بغير علمهم) انتهىٰ .

ولما وقعتِ المحنةُ أيام السُّلطان الغوري في أمر الرجل الذي اعترف بالزنا ، ثم رجعَ ، وعَزَلَ السلطانُ فيها القضاةَ الأربع . . أرسل يسألُهُ أن يتولىٰ قاضي القضاة في مذهب الإمام الشافعي ، تغيَّر وعبسَ في وجه قاصد السلطان وقال له : قل للسلطان : إن كان عليٌّ المحلِّي ضيَّقَ عليك في مصر فهو يرحلُ عنك إلىٰ بلاد التكرور ، ولم يُجبِ السلطانَ إلىٰ ذلك ، رضي الله عنه .

---

(١) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٦) (٣٢) .

ومنهم :

(٥٤١) الشيخُ الإمام ، العالم الزاهد الصالح الشيخ شهابُ الدِّين المسيري الشافعي رضي الله عنه[(١)]

كان جبلاً راسخاً في العلوم الشرعية والعقلية ، وهو مع ذلك لا يغفُلُ عن قضاء حوائج الناس عند الأمراء والأكابر ، وكانوا كلُّهم مُنقادين له ؛ لعفَّته وزهده فيما بأيديهم ، فكم أطعمَ جائعاً ! وكم كسا عارياً ! وكم وزن مهر فقير ! وكم أوفىٰ دَيْناً !

وكان كثيراً ما يأتيه الفقيرُ يسأله في شفاعة وهو يدرسُ ، فيترك الدرسَ ، ويقومُ معه ويقول : هـٰذه ضرورةٌ ناجزةٌ ، وضرورةُ الحاجة إلىٰ هـٰذا العلم مُتراخية ، وقد لا يحتاج أحدٌ إلىٰ تلك المسائل التي نبحث فيها .

وكان رضي الله عنه قوَّاماً بالليل ، صوَّاماً بالنهار ، رثَّ الهيئة في الثياب مع الهيبة والوقار ، صغيرَ العمامة علىٰ عَرَقية جوخ[(٢)] .

لا تكاد تجدُهُ في ليل أو نهار إلا مشغولاً في مصالح نفسه وغيره ، حتىٰ كأنَّ سَداه ولُحمته خيراً[(٣)] ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٤٢) الشيخ الإمام ، الفقيه المحدث الصوفي ، المفننُ في سائر العلوم التي بأيدي الناس اليوم ، الشيخُ أبو النجا الفُوِّي رضي الله تعالىٰ عنه[(٤)]

صحبته سبعةَ أيام ، وكان جبلاً راسخاً في علم القراءات ، وفي الحديث ، والتفسير .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٧) (المنيري) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٨١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٧) (٣١) .

(٢) **العرقية** : محركة : ما يلبس تحت العمامة والقلنسوة .

(٣) **السَّدَىٰ** من الثوب وِزان الحصىٰ : خلاف اللحمة ؛ وهو ما يمد طولاً في النسج .

(٤) انظر « الضوء اللامع » (١١/ ١٤٣) ، و« بدائع الزهور » (٢/ ٣٠٧) ، و« كشف الظنون » (٢/ ١٧٥٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٤٤ ، ٤/ ١٩٦) ، و« جامع كرامات الأولياء » (١/ ٢٨٨) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٧٨) (٣٢) .

كان يعظ الناسَ في جامع الأزهر وغيره ، وحضرتُ مجلسَهُ في جامع الأزهر ، ففسَّرَ من أول سورة (الهمزة) إلىٰ آخر القرآن ، وتكلَّمَ في ذلك المجلس علىٰ أربعة عشر علماً في كلِّ آية حتىٰ بهرَ العقول ، وحضرَهُ جميعُ المدرِّسين بالجامع ، وكان ذلك آخرَ مجالسه بالجامع ، ثم سافر إلىٰ بلاده ، فمات .

وكان له القبولُ التامُّ عند الخاصِّ والعام ، وكان كثيرَ الكرامات .

أخبرني سبطُه أن شخصاً عملَ له كعكَ العيد ، فقال للشيخ : نحتاج لي شيرجاً ، فأرسلَ شخصاً ، فملأ شيرجاً من البحر الذي تحت بيته في مدينة قليوب إلىٰ أن اكتفىٰ ، وقال : إني لما غرفتُ من البحر نظرتُ إلى الإناء ، وهو يسيل من جوانبه شيرجاً .

وكان إذا بلغَ أهلُ مصر أن الشيخَ وصلتْ مركبُهُ إلىٰ ساحل بولاق يذهبون إليه فوجاً فوجاً يتلقَّونه ، ويفرحون به كيوم العيد .

وفي ليلة موته شاع في بلاده أنه قُطِّبَ تلك الليلة ، فمكثَ في القُطبية دون الليلة ؛ فلذلك كان هجِّيرُ أصحابه في طريق جنازته :

هٰـــذه جنـــازة عـــاشـــق ليلـــة وصـــالـــو مـــات

ولم يزالوا علىٰ ذلك حتىٰ دُفن رضي الله عنه .

وكان كثيرَ الكشف ، لا يكادُ يخطرُ علىٰ جليسه خاطرُ سوء إلا قال له : إلزم الأدب ، فكان لا يتجرَّأُ علىٰ مجالسته إلا قليلٌ من الناس .

قلت : وأخذ عنه خلائقُ طريقَ القوم .

وكـان رحمـه الله تعـالـىٰ إذا لقَّـنَ إنسـانـاً يصيـرُ يسمـعُ نُطـقَ المـوجـودات كلِّهـا والجمادات .

وكان لطيف المزاج ، يكادُ إذا سمعَ صوتاً طيباً أن يذوب عشقاً ، وذلك من علامات القطب .

وله نظمٌ كثير ، نظم « الروضة » في الفقه ، ونظم « المنهاج » ، وشرح « المغني » لابن هشام في ست مجلدات ، وأكثرُ مؤلفاته في التصوف .

وكان له موشحات غريبة ؛ منها قوله :

أتَـــاك النـــامـــوس	يطلـــعُ كـــالقـــادوس
مـــــــــــــــلا	وانــــــــــدق روس
دخــــان المشعــــل	ودقـــات الطبـــول
وافعــــل لا تفعــــل	تحيَّـــر فيهـــا العقـــول
مـــا أســـرع مـــا يعـــزل	ومـــن بعـــد الـــوصـــول
تهنـــوا قـــال محبـــوس	فـــي قيـــدو يـــدوس
يـــا جـــانـــم يـــا دوس	أجـــرْ مـــن كـــلِّ بـــوس
اِجـــلِ مـــرآتـــك	تـــرى الحـــق اليقيـــن
واخـــرج عـــن ذاتـــك	لتفـــرح يـــا حـــزيـــن
تنظـــر مـــا فـــاتـــك	علـــىٰ طـــولِ السنيـــن
يـــا عبـــد الحنـــدوس	لفقـــــدو عبـــــوس
تحمـــد للـــدبـــوس	وللمسكيـــن تـــدوس

إلىٰ آخر ما قال .

ومناقبه مشهورة بناحية فُوَّة ، رضي الله تعالىٰ عنه

ومنهم :

(٥٤٣) الشيخ الإمام ، العالم العلامة القاضي شمس الدين بن عبد الكافي[(١)]

كان يقضي في مجلسه داخلَ باب القوس والناس يقرؤون عليه العلم ، وكان لا يأخذُ على القضاء أجراً .

وكان طويلاً سميناً ، ومحاشمُهُ قدرَ بطيختين كبيرتين ، ومع ذلك كان يتوضأ لكل

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٥٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٦٣) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٠) (٣٤) .

صلاةٍ من الخمس ، وكانت دائماً مشدودة بفوطةٍ مربوطة في تِكَّة في وسطه حتىٰ يقدرَ علىٰ الاستنجاء[١] .

وكنتُ أستدلُّ علىٰ شدَّةِ دينه وكثرةِ تقواه بذلك ؛ فإني رأيتُ من كان بحاله ترك الصلاةَ والاستنجاء في أغلب أوقاته ، رضي الله عنه .

وما سمعتُه مدَّةَ قراءتي عليه يذكرُ أحداً من أقرانه الذين يرون نفوسَهم عليه إلا بخير .

وكان كثيرَ الصمت ، وكان كثيرَ الصيام ؛ طلباً للهزال ، فيزيده سمنة .

وكان حلوَ المنطق ، جميلَ المعاشرة ، كريمَ النفس ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٤٤) الشيخ الإمامُ ، العالمُ العلامة ، المقرئ المحدث الفقيه النحوي ، الشيخ نور الدين الجارحي رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان قليلَ الضحك ، مهيبَ المنظر ، كثيرَ الصمت ، قليلَ المخالطة للناس ، ليلُهُ ونهارُهُ في طاعة ربِّه ، وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان قد انفرد في مصر بعلم القراءات هو والشيخ نور الدين السَّنْهُوري[٣] .

وكان يُقرئ الأطفال تجاه جامع الغَمْري ، فكان إذا نظر إلى الطفل يرعدُ من هيبته ، وكان مذهب الإمام الشافعي كله نصبَ عينه .

وما دخل عليه قط وقتٌ وهو علىٰ غير طهارة رضي الله عنه .

---

(١) التِّكَّة بالكسر : رباط السراويل .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٢٨٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٥٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٠) (٣٣) .

(٣) تحرفت في مصادر ترجمته إلى : (السمنهودي) . انظر ترجمته في « الكواكب السائرة » (١/ ١٧٢) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ١٧١) .

ومنهم :

(٥٤٥) الشيخ الإمامُ ، العالمُ الصالح ، خاتمةُ المحقِّقين بمصر والحجاز والشام ، الشيخ شهابُ الدِّين الرَّملي الأنصاري الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه(١)

وبلدُهُ قريةٌ صغيرة على البحر قريباً من مُنية العطار تجاه مسجد الخضر عليه السلام بالمنوفية .

كان رضي الله عنه ورعاً زاهداً ، عالماً صالحاً ، حسنَ الاعتقاد للخلق ، لا سيما طائفة الصوفية ، يُجيبُ عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، ويذكرُ عنهم المستظرفات من الحكايات .

انتهت إليه الرئاسةُ في العلوم الشرعية ، وعاش حتىٰ صارَ علماءُ الشافعية بمصر كلُّهم تلامذتَهُ إلا النادر ، فلا يوجدُ الآن عالمٌ شافعيٌّ إلا وهو من طلبته ، أو طلبة طلبته .

وأُرسلتْ إليه الأسئلةُ من سائر الأقطار ، ووقفَ الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه .

وكان يخدمُ نفسَهُ ، ولا يُمكِّن أحداً يشتري له حاجةً من السوق إلىٰ أن كبر سنُّهُ وعجز ، رضي الله عنه .

وكان جميعُ أولياء مصر حتى المجاذيب يجلُّونه ويعظِّمونه ، لا سيما الشيخ نور الدين المرصفي ، وسيدي علي الخواص رضي الله عنهما .

ورأيت مرَّةً سيدي عليَّ الخواص رضي الله عنه وهو يقول له : شكرَ اللهُ تعالىٰ فضلَكم ، فقلتُ له : ما سببُ ذلك ؟ فقال : إنه سمعَ شخصاً من إخوانه يذكرني بعد

---

(١) انظر « المنهل الصافي » (١/ ٢٨٧) ، و« السلوك » (٤/ ١٢٣٥) ، و« الضوء اللامع » (١/ ٢٨٢) ، و« وجيز الكلام » (٢/ ٥٧٠) ، و« الأنس الجليل » (٢/ ١٧٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٥٤) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ١٦٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨١) (٣٥) .

موتي بسوء ، فعاداه من أجلي ، فقلتُ له : وهل يبلغُكم ما يفعلُه الناسُ معكم بعد موتكم ؟ فقال : نعم ، فقلتُ ذلك للشيخ شهاب الدين ، فقال لي : أمارةٌ صحيحة ، وعيَّنَ لي ذلك الشخص .

ومن خصائصه : أن شيخ الإسلام زكريا أذنَ له أن يصلِّحَ في مؤلفاته حياتَهُ ومماتَهُ ، ولم يأذن لأحد سواه في ذلك ، وأصلحَ عدَّة مواضع في « شرح البهجة » و« شرح الروض » في حياة شيخ الإسلام وأنا حاضرٌ أُطالعُ له ، يقول من رآه : ما رأيتُ مثلَهُ .

وشرح كتاب « الزبد » في الفقه شرحاً عظيماً ، وكتبه الناسُ ، وقرؤوه عليه ، جمعَ فيه غالبَ ترجيحاته وتحريراته .

وجمع شمسُ الدين الخطيب فتاويه ، فصارت مجلداً .

وكان يقول : (الشيخ نور الدين الطندتائي محقِّقُ الدرس ، والشيخ شمس الدين الخطيب جامعُ المسائل النوادر في الدرس) ، سمعت هٰذا القول منه مراراً .

وكان رضي الله عنه يحبُّني أشدَّ المحبة محبَّةَ السيد لعبده .

وحصل لي مرةً مرضٌ أشرفتُ منه على الموت ، وأوصيتُ ، فجاءني عائداً هو وولده سيدي محمد ، فصار الشيخُ يدعو وولده يُؤَمِّن ، وأنا أشهدُ دعاءَ الشيخ صاعداً إلىٰ جهة السماء كالصواعق من شدَّةِ الهمة والعزم ، فما فارقني حتىٰ خلصتُ من ذلك المرض .

مات رضي الله عنه في مستهل جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسع مئة ، وصلوا عليه يوم الجمعة في الجامع الأزهر .

وما رأيتُ قطُّ في عمري جنازةً اجتمعَ فيها خلائقُ مثل جنازته ، وضاقَ الجامعُ عن صلاة الناس فيه الجمعةَ ذلك اليوم ، حتىٰ إن بعضَهم خرج فصلىٰ في غيره ، ثم رجع للجنازة ، ثم دُفنَ رضي الله عنه بتربته قريباً من جامع الميدان خارجَ باب القنطرة ، وأظلمتْ مصرُ وقراها يومَ موته ؛ لكونه كان مرداً للعلماء في تحرير نقول المذهب .

وإنما ختمنا به هٰذا الباب لتأخُّر وفاته عمن ذُكر قبله ، وإلا فهو أعلمُ في اعتقادنا من جميع أقرانه ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

* * *

الباب الثاني

في ذكر جماعة من العلماء والمجاذيب، والصحاة، ممن أدركناهم وفزنا بصحبتهم وانتفعنا بهم، من غير أن نقرأ عليهم شيئاً من العلوم ؛ إما لاستغنائنا عن القراءة عليهم بالقراءة على مشايخهم، وإما لكونهم مخالفين لنا في المذهب، لكننا نراجعهم في وقائع الأحوال، رضي الله عنهم أجمعين .

فمنهم :

(٥٤٦) شيخُ الإسلام ، العاملُ العالم ، الورعُ الزاهد الشيخ جلال الدين بن قاسم المالكي رضي الله تعالىٰ عنه (١)

صحبته سنين ، وتردَّدتُ إليه كثيراً ، وانتفعتُ بلحظه ، وبحسن سمته .

وكان كثيرَ المراقبة لله تعالىٰ في أحواله ، وكانت أوقاتُه كلُّها معمورةً بذكر الله عزَّ وجلَّ .

شرح « المختصر » و« الرسالة » ، وانتفع به خلائقُ لا يُحصون ، وولاه السلطان الغُوري القضاء مكرهاً .

وكان حسنَ الاعتقاد في طائفة القوم .

ولما أنكرَ الشيخُ محمد التكروري المالكي علىٰ سيدي عمرَ بنِ الفارض قال له : يا محمد ؛ ما لك وللسُّمِّ تجرِّبه في نفسك ، فلم يرجع عن إنكاره ، فما مضىٰ ثلاثةُ أيام

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/٥٧) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٣١٧) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٨٦) (٣٦) .

إلا وفرَّ الناس من هـٰذا التكروري ، ولم يصرْ أحدٌ يقرأ عليه علماً .

وكان يحفظُ « مدونةَ الإمام مالك » وشروحَ مذهبه عن ظهر قلب .

وأقبل عليه أهلُ مصر إقبالاً عظيماً قبل إنكاره ، ثم إنه خرج إلىٰ بلاده ، فقُتل في الطريق .

وكان الشيخُ جلالُ الدين أكثر أيامه صائماً ، لا يكادُ يفطرُ من السَّنَةِ إلا العيدين ويومي التشريق .

وكان حافظاً للسانه في أقرانه ، لا يسمعُ أحداً يذكرُهم إلا ويبجلُّهم ويعظِّمُهم ويقول : نفعنا الله ببركاتهم ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٤٧) شيخ الإسلام ، المجمعُ علىٰ صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وقيامه وضبطِ لسانه ، الشيخ نورُ الدين الطرابلسي الحنفي[١]

كان مفنناً في العلوم .

وكتبَ لي علىٰ عدَّةَ مؤلفاتٍ ، وزارني كثيراً في بيتي لمَّا أنقطعُ عنه لعذر ، فكنتُ أكادُ أذوبُ من الحياء منه لمَّا يأتيني .

وكان مُتواضعاً حسنَ الظنِّ بالمسلمين .

وكان يؤذِّنُ في شباك زاويته عند كلِّ وقتٍ من الخمس بصوت حسن بخشوع وتدبُّرٍ أيام ولايته وبعدها إلىٰ أن مات .

وكان لا يأكل قطُّ من معلوم محكمته شيئاً ، مع أنه وُلِّي كرهاً .

وكان كثيرَ الصدقة سرّاً وجهراً ، ولما عُزل بقضاة العساكر لم يزل مُلازماً بيته على النُّسك والعبادة والإفتاء والتدريس إلىٰ أن مات .

وأنكر عليه قضاةُ الأروام بإفتائه بمذهبه الراجح عنده ، وكاتبوا فيه السلطان ،

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢١٣) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٥١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٧) (٣٧) .

وجرحوه بما هو بريء منه ، فأرسل السلطان يأمر بنفيه أو قتله ، فوصلَ المرسومُ يوم موته بعد أن دفناه ، فكانتْ هـٰذه كرامةً له ، رضي الله عنه .

ولمَّا اشتدَّتِ المحنةُ عليه قبل موته بثلاثة أيام رأيتُ في المنام لوحاً نزلَ من السماء في سلسلةٍ تجاه بيت الشيخ محب الدين ابن الدَّهَّانة مكتوب فيه : أيدنا عليَّ الطرابلسيَّ بمحبِّ الدين ابن الدهانة ، فكان الأمرُ كذلك ، وحصل له الفرجُ علىٰ يديه ، رضي الله عنهما .

ومنهم :

(٥٤٨) سيِّدُنا ومولانا ، شيخُ الإسلام ، الشيخ شمس الدين [السَّمديسي] الحنفي رضي الله عنه(١)

صحبته نحو عشرين سنة ، فما أظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه فيها شيئاً .

وكان كثيرَ الصمت ، لا تكادُ تَسمع منه كلمةَ لغوٍ أبداً .

وأخبرني جماعةٌ كانوا يقرؤون عليه : أن من كرامته : أن الله تعالىٰ كان يأخذُ بسمعه إذا كلَّمَهُ أحدٌ بغيبة ، أو كلامٍ فاحش ، حتىٰ كأنه أصمُّ ، وهـٰذا حفظٌ من الله عظيم ، ما سمعناه إلا عن سيدي محمد بن زين بالنحرارية رضي الله عنه .

وكان عالماً بالقراءات السبع .

وولاه السلطان الغوري مشيخةَ الإسلام كرهاً عليه .

وكان عامَّةُ ليله بكاء ومراقبة وتهجُّد إلى الصباح ، فيكحِّل عينيه ، ويدْهن وجهَهُ حتىٰ كأنَّهُ كان نائماً طوالَ الليل .

شرح كتاب « المختار » شرحاً عظيماً(٢) ، وسافر إلىٰ مكة المشرفة فمات بها رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) ترددت النسخ بين (السبريسي) و(الشبريسي) ، وفي « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٨) : « السرسي » ، والمثبت من مصادر ترجمته . انظر « الكواكب السائرة » (١/ ٩٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٦٦) ، و« ديوان الإسلام » (٣/ ٤٨) ، و« هدية العارفين » (٢/ ٢١٧) ، توفي سنة (٩٣٢هـ) ، والسمديسي : نسبة إلى سمدية ؛ قرية من كورة البحيرة بمصر .

(٢) واسم الكتاب : « فيض الغفار » .

ومنهم :

(٥٤٩) الشيخ الإمام العلامة ، الشيخ شمس الدين التتائي المالكي رضي الله عنه[1]

المقيم في المدرسة الشيخونية .

شرح « الرسالة » شرحاً عظيماً ، وشرح عدَّةَ كتب ، ولم يزل على قدم الزهد والورع ومحبَّةِ الخمول ، وعدمِ التردُّدِ للأكابر إلى أن مات .

وكان وقتُهُ كلُّهُ معموراً بالعلم والعمل والأوراد .

ما زرته قطُّ إلا ورأيتُهُ مشغولاً بالله عز وجل .

وأخبرني جماعة الصوفية من جيرانه : أنه لا ينامُ من الليل إلا قليلاً على الدوام .

وكان كثيرَ الصيام ، لا يأكلُ لأحد من الظلمة وأعوانهم طعاماً .

وأجمعَ الناسُ على جلالته وتحريره لنقول مذهبه ، وحفظه لجوارحه الظاهرة والباطنة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٠) الشيخُ الإمام ، العالمُ الصالح ، الخاشعُ الناسك ، المجمعُ على جلالته الشيخ الكبير شهاب الدين بنُ الشلبي الحنفي رضي الله عنه[2]

كان على جانب عظيم من الخشية والخوف من الله عز وجل .

وحلف ألا يأتيَني للزيارة إلا ماشياً ، ووفَّى بذلك إلى أن مات ، هٰذا مع تفتُّح بطونُ رجليه من أثر الحب ، رضي الله عنه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٤) (الشنائي) ، و« الخطط التوفيقية » (١٠/ ٦٧) ، و« معجم المؤلفين » (٣/ ٢٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٩) (٣٩) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٥) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٨٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٨٩) (٤٠) .

وكان كثيرَ الصدقة على الفقراء والمساكين ، لم يكن في أقرانه أكثرُ صدقة منه .

وكان حسنَ الاعتقاد في طائفة الفقراء والمجاذيب وأرباب الأحوال ، كثيرَ الحياء والحلم والعفو والصفح ، لا يواجه أحداً بمكروهٍ ولو فعل معه ما فعل .

ورأىٰ مرةً شخصاً يشتمُ آخرَ ، فوقف وقال : يا أخي ؛ تأدَّب مع الملكين الكاتبَيْنِ ، أيسرُّكَ أن ترىٰ يوم القيامة هـٰذه الألفاظَ في صحيفتك ؟! فاستغفر الشخص وقبَّل يدَ الشيخ .

وزرتُ أنا وإياه رأسَ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وكان عنده شكٌّ في أن الرأسَ هناك ، فلما أخذَ الشيخُ في التوجُّه إلىٰ حضرة الإمام الحسين رآه مقطوعَ الرأس ، فقال : يا إمامُ ؛ أين رأسُك ؟ فسمع الصوتَ من باطنه يقول : إن رأسي في مصر ، وعمَّرَ عليها طلائعُ بنُ رُزِّيك مسجداً عظيماً ، فأفاقَ من التوجُّه وأخبرني بالقصة .

ثم ثَقلتْ رأسُ الشيخ ، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ رأىٰ خادمَ الحسين خرج من الضريح ودخلَ في حائط القبلة ، وصار يمشي وبصر الشيخ يتبعُهُ إلىٰ أن دخل الحجرةَ النبوية ، فقال : يا رسول الله ؛ إن أحمد بنَ الشلبي وعبد الوهاب الشعراني يزوران رأسَ الحسين ، فقال : تقبَّلَ الله منهما ، ثم أفاقَ الشيخُ فتواجدَ ، ووقعتْ عمامتُهُ ، وقال : قد تحقَّقتُ أن رأسَ الإمام هنا ، وما زال يزورُها إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه .

وكتبَ علىٰ عدَّةٍ من مؤلفاتي أحسنَ كتابة .

ورأىٰ في كتاب « العهود » موضعاً لم يفهمْهُ ، فأرادَ أن يُصلحَهُ ، فنام ، فسمع قائلاً يقول له : إن أصلحتَ في هـٰذا الكتاب شيئاً سلبناك الإيمان ، فجاءني بكرةَ النهار وهو يرعدُ ، وحكىٰ لي القصة ، فقلت له : مرادُ القائل سلبُ إيمانك بصدق كلام عبد الوهاب ، وهـٰذا أمرٌ لم يكلفك الله به ، فقال : فرَّجتَ عني فرَّج الله عنك كُرَبَ يوم القيامة ، ثم قلت له : مرادي بهـٰذا الكلام كذا وكذا ، فكشفَ رأسَهُ واستغفرَ ، وقال : أنا جاهلٌ بمصطلح القوم ، رضي الله عنه .

وكان مرضُهُ الذي ماتَ فيه حصرَ البول ، فلم يزل به حتىٰ مات .

وكانت جنازتُهُ حافلةً بالأمراء والعلماء والقضاة والتجار ، حتىٰ ما وجدَ أحدٌ في باب النصر مكاناً خالياً من الناس .

ودُفن خارجَ باب النصر بحارة الحوارنة[١] ، وقبرُهُ ظاهرٌ يُزار رضي الله عنه وأرضاه ، ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة ، آمين .

ومنهم :

(٥٥١) السيدُ الشريف ، الفقيه النحوي الصوفي الشيخ شرفُ الدين المدرِّس بزاوية الحطَّاب رضي الله عنه[٢]

صحبته نحو [خمس عشرة] سنة[٣] ، فما رأيتُ في أقرانه أكثرَ صمتاً ، ولا محبَّةً لعزلته عن الناس منه .

وكان وقتُهُ كلُّهُ مشغولاً بالعلم ، والعبادة ، وتلاوة القرآن .

وأخبرني الشيخ بدرُ الدين الشهاوي الحنفي : أنه أخبرَهُ أن وردَهُ كلَّ ليلة قبل النوم ربعُ القرآن ، وقال له : ما أستحضرُ أني تركتُهُ صيفاً ولا شتاءً .

وأخبرني أيضاً أن خادمَ حمارته كان إذا نسيَها بلا علف أو بلا سقي تأتي إليه في المنام وتقول : يا سيدي ؛ الخادم نسيني بلا علف ، أو بلا شرب ماء .

وكان علىٰ مجلسه الخشيةُ والوقار والأدب .

وكان إذا سمع كلامَ أحد من القوم يصير يتواجدُ كالجمل الهائج .

وكان يحبُّني أشدَّ المحبة ، وربما أبطأتُ عن زيارته ، فيأتيني في جامع الغَمْري ويقول : اشتغلَ سرِّي عليك .

وأوصافه الحسنةُ لا تُحصر .

توفي سنة أربعين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في « ذيل الطبقات » (٥/٩١) : (خارج باب النصر ، تجاه المدرسة الحاجبية) ، وفي « الكواكب السائرة » : (الحوازية) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/١٥١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/٣٣٨) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/٩١) (٤١) .

(٣) في النسخ : (خمسة عشر) .

ومنهم :

(٥٥٢) الشيخ الإمام ، العلامة المحقق
الشيخ شهاب الدين البُرُلُّسي الملقب بعميرة الشافعي رضي لله عنه[(١)]

صحبتُهُ نحو عشرين سنة .

وكان عالماً ، زاهداً ورعاً ، حسنَ الأخلاق والشيم ، ذا سمتٍ حسن .

وانتهت إليه الرئاسةُ في تحقيق المذهب ، ولم يزل يُدرِّس ويفتي الناسَ حتىٰ مرضَ مرض الموت ، وكان مرضُهُ بالفالج ، فأقام به نحو سنة ، ثم مات[(٢)] .

أخذَ العلمَ عن جماعة ؛ منهم : شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطي .

ومنهم : شيخُ الإسلام الشيخ برهان الدين بنُ أبي شريف .

ومنهم : الشيخ نورُ الدين المحلي ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين .

وكتب علىٰ بعض مؤلفاتي أحسنَ كتابة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٥٣) الأخُ الصالح ، العالم الزاهدُ ، المتمسِّك بالسنة المحمدية
الشيخ محمد الشامي نزيلُ التربة البرقوقية رضي الله عنه[(٣)]

كان عالماً صالحاً مُفنِّناً في العلوم ، وألَّف السيرة المشهورة التي جَمعها من ألفِ كتاب[(٤)] ، وأقبلَ الناسُ علىٰ كتابتها ، ومشىٰ فيها علىٰ أُنموذَجٍ لم يُسبق إليه .

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٥٤) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٢) (٤٢) .

(٢) ذكر وفاته ابن العماد في « الشذرات » سنة (٩٥٧هـ) .

(٣) هو شمس الدين محمد بن يوسف الشامي . انظر « شذرات الذهب » (١٠/ ٣٥٣) ، و« فهرس الفهارس » (٢/ ١٠٦٣) ، و« الأعلام » (٧/ ١٥٥) ،وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٢) (٤٣) .

(٤) قال الكتاني في « فهرس الفهارس » : في نحو سبع مجلدات ضَخمة ، واسمه : « سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله في المبدأ والمعاد » تحرَّىٰ فيها=

وكان رضي الله عنه عزباً لم يتزوَّج قطُّ .

وكان إذا قدم عليه الضيفُ يعلِّق القدرَ ويطبخُ له .

وكان حلوَ المنطق ، مهيبَ المنظر ، كثيرَ الصيام والقيام ، بِتُّ عنده الليالي ، فما كنتُ أراه ينامُ من الليل إلا قليلاً .

وكان إذا ماتَ أحدٌ من طلبة العلم وخلَّفَ أولاداً قاصرين وله وظائفُ . . يذهب إلى القاضي ، ويتقرَّرُ فيها ويباشرها ، ويُعطي معلومَها للأيتام حتىٰ يصلحوا للمباشرة .

وكان لا يقبل من مال الولاة وأعوانهم شيئاً ، ولا يأكل من طعامهم .

وذكر لي شخصٌ من الذين يحضرون قراءة « سيرته » في جامع الغَمْري : أنْ أسألَهُ في اختصار السيرة ، وترك ضبطِ ألفاظ غريبها ، وأن يحكي « السيرة » علىٰ وجهها كما فعل ابنُ سيد الناس ، فرأيتُهُ بين القصرين ، وأخبرته الخبر ، فقال : قد شرعتُ في اختصارها من مدة يومين ، فرأيت ذلك هو الوقتُ الذي سألني فيه ذلك الرجل .

وكانت عمامته نحوَ سبعة أذرع علىٰ عَرَقيةٍ .

لم يزل غاضّاً طَرْفَهُ سواء أكان ماشياً أم جالساً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

وأخلاقُه الحسنةُ كثيرة مشهورة بين أصحابه ومعارفه ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٤) الشيخُ العالمُ ، الفقيه النحوي الصوفي الشيخ عبد الرحمـٰن الشامي المدرس بخانقاه سعيد السعداء رضي الله عنه[(١)]

وكان يتعمَّمُ بالصوف ، وله كشفٌ تام ، وتحقيقٌ في العلوم الشرعية والعقلية .

وأقبلتِ الأمراءُ والأكابر عليه ، واعتقدوه اعتقاداً تاماً .

= الصواب ، وختمَ كل باب بإيضاح ما أشكل فيه مع بيان غريب الألفاظ ، وضبط المشكلات ، والكتاب يُعرف بـ« السيرة الشامية » ، قلت : هو مطبوع في القاهرة بثلاثة عشر مجلَّداً .

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٧٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٠٢) وفيات سنة (٩٣٦هـ) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٣) (٤٤) .

ورأيتُ مرةً أمير كبير قُرْقُماس وهو جالسٌ عنده على التراب ، والشيخ مادٌّ رجليه وهو يقول : مرحباً بقرقماس .

صحبته نحو سبع سنين حتىٰ مات ، ودفن قريباً من تربة السُّلطان أينال[1] .

وكانت الوحوش تنزلُ من الجبل فتقف علىٰ باب تربته في الليل ، فيخرجُ إليها ويكلِّمها ، فترجع ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٥٥) الشيخُ الإمام العلامةُ ، فخر الدين السنباطي الشافعي رضي الله عنه[2]

كان عالماً صالحاً ، عابداً ورعاً زاهداً .

ولما ضربوا القانون على القضاة عزلَ نفسَهُ من القضاء ، وكان يقضي في بلاده قياماً بفرض الكفاية لا يأخذ علىٰ ذلك عِوضاً ، فقلت له : يتعيَّنُ عليك ذلك ، فرجع وطلب الولاية .

وكان يفصلُ بين الأخصام ، ويغدِّيهم ويعشِّيهم ، ويعلفُ دوابَّهم .

وبتُّ عنده ليالي ، فما رأيتُهُ ينامُ من الليل إلا قليلاً ، بل طول قيامه يتهجَّدُ ويتلو القرآن ويبكي حتىٰ يكادُ يخرُّ من البكاء .

وكان قليلَ الكلام ، حسنَ السمت .

أخذ العلوم عن جماعة ؛ منهم : الشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ برهان الدين ابن أبي شريف ، والشيخ زكريا .

وصحبَ شيخنا الشيخَ محمدَ الشناوي ، وانتفع به ، رضي الله عنه .

---

(١) **أينال** : هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين العلائي الظاهري (٧٨٤ـ٨٦٥هـ) من ملوك دولة الجراكسة بمصر والشام والحجاز .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٩٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣١٠) وفيات سنة (٩٣٧هـ) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٤) (٤٥) .

ومنهم :

(٥٥٦) الشيخُ الإمام ، العالم الصالح ، المرابطُ الشيخ شمس الدين الرحماني الشافعي رضي الله عنه[(١)]

كان رفيقاً للشيخ فخر الدين السنباطي وللشيخ ناصر الدين الطبلاوي .

وأفتىٰ ببلاده ودرَّس ، وانتفع به خلائقُ .

وكان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، حتىٰ أزالَ منكراتِ بلاده كلَّها .

وكان شجاعاً رامياً لا يكادُ سهمُهُ يخطئ .

وكان إذا جاء إلىٰ مصر يزورني تفضُّلاً منه .

صحبته رضي الله عنه عشر سنين إلىٰ أن مات ، رضي الله عنه وأرضاه .

ومنهم :

(٥٥٧) الشيخُ الإمام ، العالمُ العامل ، الورع الزاهد ، الآمرُ بالمعروف والناهي عن المنكر ، الشيخُ شهابُ الدين بن الشيخ عبد الحقِّ السنباطي الواعظ بجامع الأزهر رضي الله عنه[(٢)]

لم أرَ أحداً من الوعاظ أقبل عليه الخلائقُ مثله .

وكان إذا نزلَ من فوق الكرسي يقتتل الناسُ عليه ، ومن لا يصلُ إليه يرمي رداءه عليه حتىٰ يلمسَ ثيابه ، ثم يأخذُهُ ، فيمسح بها وجهه .

وكان مفنِّناً في العلوم الشرعية ، وله الباعُ الطويل في الخلاف العالي ومعرفة مذاهب المجتهدين .

وكان من رؤوس أهل السنة والجماعة ، ومن نسبَهُ إلىٰ ضدِّ ذلك فقد افترىٰ إثماً عظيماً .

---

(١) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٥) (٤٦) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١١) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٠٢) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٥) (٤٧) .

وطالع كتابي « العهود » من أوَّله إلىٰ آخره ، وأُعجبَ به ، ونقل منه على الكرسي عدَّةَ عهود وأنا أسمع ، ولما رماني بعضُ مَنْ لا يخشى الله تعالىٰ ببعض بهتانٍ انتصر لي فوق الكرسي ثلاثة مجالس حتىٰ رجعَ ذلك المُفتري عني .

ولما مات أظلمتْ مصرُ لموته ، وانهدمَ ركنٌ عظيم من الدين .

وكان الشيخُ قد اشتَهر في أقطار الأرض ؛ كالشام ، والحجاز ، واليمن ، والروم ، وصاروا يضربون به المثلَ ، وأذعنَ له علماء مصر : الخاصُّ منهم والعام .

وعمل الحسدةُ له المكايدَ عند نوَّاب مصر ، ونجَّاه الله تعالىٰ ، وهدمَ كذا كذا كنيسة وبيعة ، رضي الله عنه .

وما رأيتُ في عمري كلِّهِ أكبرَ من جنازته إلا جنازة الشيخ شهابِ الدين الرَّملي ؛ لكونهم صلوا عليه في جامع الأزهر يومَ الجمعة ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٥٨) الشيخُ الإمام ، الفقيهُ الصوفي المحدِّثُ ، نادرةُ الزمان الشيخ أبو الحسن البكري الصديقي الشافعي رضي الله عنه(١)

أخذ العلمَ عن جماعة من مشايخ الإسلام ، والتصوفَ عن الشيخ رضي الدين الغزي .

وتبحَّرَ في علوم الشريعة ؛ من فقهٍ وتفسيرٍ وحديثٍ ، وغير ذلك ، وكان إذا تكلَّمَ في علم منها كأنه بحر زاخر ، لا يكاد السامعُ يتحصَّلُ من كلامه علىٰ شيءٍ ينقله عنه ؛ لوسعه ، إلا إنْ كتبَهُ في قرطاس .

وأخبرني بلفظه ونحن بالمطاف : أنه بلغَ درجة الاجتهاد المطلق ، وقال : إنما

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٩٤) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤١٩) ، و« طبقات المناوي » (٣/ ٣٢٣) ، و« كشف الظنون » (١/ ٣٧٦) ، و« خطط مبارك » (٣/ ١٢٧) ، و« تاريخ بروكلمان » (٨/ ٢٤٨) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٦) (٤٨) .

أُخفي ذلك عن الأقران ؛ خوفاً من الفتنة بسبب ذلك ، كما وقع للجلال السيوطي رحمه الله ، هٰذا لفظه .

وكانت مدةُ اشتغاله على الأشياخ نحو سنتين ، ثم جاءه الفتحُ من الله تعالىٰ ، فاشتغل بالتأليف ، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ أن مات .

وهو أوَّلُ من حجَّ من علماء مصر في عصره في محَفَّةٍ[1] ، ثم تبعه الناسُ .

وقد عاشرته من حينَ كان بلا لحيةٍ ، فما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه ، بل رُبِّي في نزاهةٍ وعفَّة وطاعة ، وعزة نفس علىٰ أهل الدنيا ، لم يذلَّ قطُّ في تحصيل أمر معاشه كغيره ، بل كانتِ الدنيا تأتيه وهي راغمةٌ ، وذلك دليلٌ علىٰ كمال زهده فيها .

وحججتُ معه مرةً فما رأيتُ أوسعَ خُلقاً منه ، ولا أكثرَ صدقةً في السرِّ والعلانية .

وكان لا يُعطي أحداً شيئاً في النهار إلا نادراً ، وأكثرُ صدقته ليلاً .

وكان له الإقبالُ العظيمُ من الخاصِّ والعام في مصر والحجاز ، وشاع ذكره في أقطار الأرض ؛ كالشام ، والروم ، واليمن ، وبلاد التكرور ، والمغرب مع صغر سنه رضي الله عنه .

وكانت له كراماتٌ كثيرةٌ وخوارقُ وكشوفات ، فما قاله أو وعد به لا يخطئ .

وترجمه الناس بالقطبية العظمىٰ ، ويدل علىٰ ذلك ما أخبرني به الشيخُ خليل الكشكاوي قال : رأيتُ الشيخ أبا الحسن البكري وقد تطوَّرَ ، فصار كعبةً مكان الكعبة ، ولبس سترَها كما يلبسُ الإنسان القميص .

وكان له النظمُ الشائع في علوم التوحيد .

وأطلعني مرةً علىٰ تائية عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم ، ثم إنه غسلَها وقال : إن أهلَ زماننا لا يحتملون سماعها ؛ لقلَّة صدقهم في طلب الطريق .

---

(١) المِحَفَّة بكسر الميم : مركب من مراكب النساء كالهودج إلا أنها لا تُقَبَّب كالهودج « مختار الصحاح » (ح ف ف) ويستخدمه كبار السنِّ في طوافهم حول الكعبة .

وأوصافه الحسنة تضيقُ عنها الدفاتر .

مات رضي الله عنه سنة نيّفٍ وخمسين وتسع مئة[١] ، ودُفن بجوار الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكانت جنازتُهُ مشهودة .

وكان يُحبُّني كثيراً ، وأخبرني مرةً بأنه يدعو لي في سجوده ، ولما أشاع بعضُ الحسدة عنه أنه يكرهني أرسل لي ورقةً بخطِّه يحلفُ فيها بالطلاق أنني عنده بمنزلة ولده سيدي محمد ، وهي عندي بخطِّه إلى الآن ، رضي الله عنه وحشرنا في زمرته ، آمين آمين آمين .

ومنهم :

(٥٥٩) شيخُ الإسلام ، العالمُ الصالح ، ذو الأخلاق الحسنة والإنصاف من نفسه ، بقيّةُ السلف الصالح الشيخُ شهاب الدين الفُتوحي الحنبلي رضي الله عنه[٢]

كان من العلماء العاملين ، ولاه السُّلطان الغوري القضاءَ كرهاً عليه بعد أن قال للسلطان مراتٍ : أنا لا أصلح للقضاء ، وتوليةُ مثلي لا يُخلِّص ذمتك عند الله تعالىٰ .

أقبل على العبادة أواخر عمره ، وصار كأنه لم يشتغل قطُّ بعلم ، مع أنه انتهت إليه الرئاسة في تحقيق نقول مذهبه ، وفي علوِّ السند في الحديث ، وفي علم الطب والمعقولات ، رضي الله عنه .

وجاءه مرَّةً شخصٌ يريد أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق ، فقال له : يا ولدي ؛ قد صار الفقه ثقيلاً علىٰ قلبي ، فكيف بعلم أفتىٰ بعضُ العلماء بتحريم الاشتغال به ؟! فقال له الشخص : يا مولانا ؛ إن العلمَ عبادة ، فقال : صحيحٌ ذلك ، ولـٰكن ما وجدنا به

---

(١) ذكر وفاته الغزي كما في « الكواكب السائرة » سنة (٩٥٢هـ) .

(٢) واسمه : أحمد بن عبد العزيز . انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٢) ، و« النعت الأكمل » (ص ١١٣) ، و« الضوء اللامع » (١/ ٣٤٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٩٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ٩٨) (٤٩) .

رقَّةَ قلب ، بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضلَ العلم علىٰ غيره مشروطٌ بحصول الإخلاص فيه ، وما أظن أن عندي إخلاصاً . انتهىٰ .

وكان الشيخ رضي الله عنه أول عمره يُنكر طريق الصوفية ويقول : وهل لله تعالىٰ طريقٌ آخرُ تقرِّبُ إليه غير العلم الذي بأيدينا ؟! فلما جمعتُه علىٰ سيدي علي الخوَّاص اعترفَ لأهل الطريق بالفضل ، وقال : هٰؤلاء قد قطعوا مقامَنا وتعدَّوه إلىٰ ما وراءه ، ويتأسَّف علىٰ عدم اجتماعه بالقوم من أول عمره ، رضي الله عنه .

ولما أرسلت له كتاب « الجواهر والدرر » الذي التقطتُهُ من مجالسة سيدي علي الخواص كتبَ عليه أحسنَ كتابة ، وقال لي بصريح لفظه : والله ؛ إنني طولَ عمري أُطالع في كتب الشريعة فلم يخطر في بالي سؤالٌ منه ولا جوابٌ ، ثم أخبرني بأنه اشتكى الشيخَ عليَّ الخواصِ مرةً للمحتسب حين كان الشيخ زيَّاتاً ، وضربه المُحتسبُ وجرَّسه ، ثم صار يبكي ويقول : مثلي يشتكي أولياءَ الله ، ولم يزل يزور قبرَ سيدي عليٍّ إلىٰ أن مات .

وقال لي مرَّةً : لمَّا طالعتُ في قول الشيخ عليٍّ في كتاب « الجواهر » : (كلُّ علم استفاده صاحبُهُ من كلام غيره فليس ذلك من علمه هو ، إنَّما هو حاملٌ له فقط ، ومن أراد أن يعلمَ رتبته في العلم الذي يُبعث عليه يوم القيامة فليردَّ كلَّ قول عَلِمَهُ إلىٰ قائله ، وينظر بعد ذلك ، فما بقي معه فهو علمُهُ الذي يُبعث عليه) انتهىٰ .

قال الشيخُ شهاب الدين : (ففعلتُ كما قال الشيخ ، فرأيتُ نفسي قد صرتُ جاهلاً ، وتسميتي شيخ الإسلام زورٌ وبهتان) انتهىٰ .

ولم يزل رضي الله عنه من حينَ جمعتُهُ علىٰ سيدي عليٍّ الخوَّاص يتردَّد إليَّ ويقول : لا يُجازيكَ عني إلا الله تعالىٰ ؛ فإني كنتُ تائهاً عن طريق أولياء الله تعالىٰ .

وصار له كشفٌ عظيم قبيل موته ، وكاشفني بما في سري مرات ، فعرفتُ حينئذ قول الإمام الشافعي رضي الله عنه : إذا لم يكن العلماءُ العاملون أولياءَ الله تعالىٰ فليس لله ولي .

مات رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة[1] .

---

(١) ذكره ابن العماد في « شذرات الذهب » ضمن وفيات سنة (٩٤٩هـ) .

وهو آخرُ مشايخ الإسلام من أولاد العرب انقراضاً ، فأسأل الله تعالىٰ أن يجمعنا عليه يومَ القيامة ؛ ليأخذَ بيدنا في تلك الشدائد ، آمين .

ومنهم :

(٥٦٠) الإمامُ العلامة ، الشيخُ سراجُ الدين العبادي رضي الله عنه[١]

المقيمُ بالبرقوقية بالصحراء .

صحبته نحو أربعين سنة ، فرأيتُهُ علىٰ قدم عظيم في العبادة والزهد والورع والعلم والخشية ، وضبطِ اللسانِ ، وسائرِ الجوارح عن المخالفات ، حتىٰ لا يكادُ يتكلمُ إلا نادراً لضرورة شرعية .

وكانت نقولُ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه نصبَ عينه .

وشرح : « قواعد الزركشي »[٢] شرحاً عظيماً في مجلدين ، وأتىٰ فيه بتحقيقات ونكت وفوائد .

أخذ رضي الله عنه العلم عن الشيخ سراج الدين العبادي الكبير ، وعن الشيخ شمس الدين الجوجري ، وعن شيخ الإسلام يحيى المناوي وغيرهم ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس .

وكان صاحبَ توجُّهٍ كامل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مجابَ الدعوة في حقِّ من يُؤذيه أو يؤذي أحداً من المسلمين .

ولما حجَّ وزارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبَ من الخدام أن يفتحوا له بابَ مقصورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبوا ، فلما كان الليلُ توجَّهَ إلى النبيِّ

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ٢٢٩) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٣٨٥) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٠) (٥٠) .

(٢) كتاب « القواعد » في الفروع للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفىٰ سنة (٧٩٤هـ) رتَّبها علىٰ حروف المعجم ، وقد شرحها صاحب ترجمتنا ، واختصره الشيخ عبد الوهاب الشعراني . انظر « كشف الظنون » (٢/ ١٣٥٩) .

صلى الله عليه وسلم وغالبُ الناس نيام ، ففُتحتْ الأقفالُ بنفسها ، ودخل وزار ثم خرج ، وعادت الأقفالُ إلىٰ ما كانت عليه .

توفي رضي الله عنه سنة نيِّفٍ وأربعين وتسع مئة[١] .

ومنهم :

(٥٦١) الشيخُ الإمام ، العالم الصالحُ
الشيخ شهابُ الدين بن الصائغ الحنفي رضي الله عنه[٢]

كان حَسَنَ الأخلاق والشيم ، مهيبَ المنظر ، قليلَ الكلام ، كثيرَ العبادة في الليل والنهار ، حلوَ اللسان ، كثيرَ التواضع ، قليلَ التردُّد لأكابر الدنيا .

وكان عالماً بالعلوم الشرعية والطبية ، فجمع بين طبِّ الأديان وطب الأبدان ، ولم أرَ في عصره من جمعَ بينهما سوى الشيخ شهاب الدين الحنبلي الفتوحي رضي الله عنه .

أخذ رضي الله عنه العلوم عن الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، وعن الشيخ تقي الدين الشُّمُنِّي، وعن الكافيجي ، وعن شيخ الإسلام الأمشاطي ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس.

وحضرتُ مرةً درسَهُ في « تفسير البيضاوي » فأبدىٰ من نكته العجائب .

وكان يصبرُ علىٰ جفاء السائل ، ويوجِّه له السؤال .

وكان يحبُّ الخمول ، ويقول : أحبُّ شيء إليَّ أن ينساني الناس ، فلا يأتوني ولا آتيهم ؛ لعلة قلة نفع الاجتماع الآن .

وما زاحمَ قطُّ علىٰ شيء من وظائف العلماء ، وعرضوا عليه عدَّةَ وظائف فلم يقبلها رضي الله عنه .

مات سنة نيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة[٣] .

---

(١) ذكره ابن العماد في « الشذرات » ضمن وفيات سنة (٩٤٧هـ) .

(٢) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١١٦) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٢٨٠) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠١) (٥١) .

(٣) ذكره ابن العماد ضمن وفيات سنة (٩٣٤هـ) ، قال : (وفيها تقريباً) .

ومنهم :

(٥٦٢) الشيخ الإمامُ العلامة ، الورعُ الزاهد ، المُجمعُ علىٰ جلالته الشيخ شمسُ الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه[١]

كانت له مكاشفاتٌ غريبة ، وكان كريماً ، سخيّاً ، مهيباً ، حافظاً لنقول المذهب كأنها كلَّها نصبُ عينيه .

وكان يواجهُ الأكابر والأصاغر بالأمر بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان لا يبيتُ علىٰ دينار ولا درهم .

وأخبرني من أثقُ به من طلبته أن شخصاً أعطاه سبعةَ عشرَ ديناراً وهو في الدرس ، فقال : الهديةُ لمن حضر ، ففرَّقها على الطلبة ، فأصاب كلُّ واحد ديناراً ، وفضل دينارٌ ، فأرسل إلى السوق ، فاشترىٰ به موزاً وشوىً وحلوىٰ ، وجمعهم عليه فأكلوا وانبسطوا ، وقال مُباسطاً لهم : السلطانُ إذا لم يُنفق علىٰ عسكره خرجوا عن طاعته ، وعصوا أمره ، ولو أن أهل العلم فعلوا كما فعلنا لعكف عليهم الطلبةُ ، وحملوا عنهم العلم ، ونفعوا الناسَ وأنفسَهم وشيخَهم رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه حزينَ القلب ، كثيرَ البكاء والخشية لله عز وجل .

وكان إذا سمع أحداً يذكرُ شيئاً من أهوال يوم القيامة يمكثُ الأيام لا ينتفعُ به أحدٌ في أمر الدنيا .

وقرأ عليه مرةً شخصٌ شيئاً من « تذكرة القرطبي في أحوال الموتىٰ »[٢] فمرض نحو خمسين يوماً .

وكان كثيراً ما يغلبُ عليه التعظيمُ لله عز وجل ، فيذهلُ عن نفسه ، وربما خرج من

---

(١) انظر « شجرة النور الزكية » (ص ٢٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٢) (٥٢) .

(٢) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة : لمحمد بن أحمد الأندلسي القرطبي المتوفىٰ سنة (٦٠١هـ) جمع من كتب الأخبار والآثار ما يتعلق بذكر الموت والموتىٰ ، والحشر ، والجنة والنار ، والفتن والأشراط . انظر « كشف الظنون » (١/ ٣٩٠) .

جامع الأزهر فلا يهتدي أين بيتُهُ ، فيأخذ به الأطفالُ فيوصلونه إلىٰ بيته .

ومناقبه كثيرة بين طلبته وغيرهم .

صحبته رضي الله عنه نحو ثلاثين سنة ، وانتفعتُ بلحظه ، فأسأل الله تعالىٰ أن يحشرنا في زمرته ، آمين .

ومنهم :

(٥٦٣) الشيخُ الإمام ، الورعُ الزاهد ، المجمعُ علىٰ جلالته الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه[١]

انتهت إليه الرئاسةُ بعد أخيه الشيخِ شمس الدين في العلم والعمل ، والتحقيق والوقوف عند قوله .

وجاءته الأسئلة من بلاد الغرب ، والتكرور ، واليمن ، والحجاز ، والشام ، والروم .

وتخرَّج به جماعةُ مذهبه الموجودون الآن ، فلا يوجد مالكيٌّ إلا وهو من طلبته ، أو طلبة طلبته .

وكان من أعظم الناس اعتقاداً في طائفة القوم .

وما دخلتُ قطُّ عليه وهو جالسٌ علىٰ فروته إلا قامَ وأجلسني عليها ، وجلس على الأرض ، وأظن أن تلامذةَ طلبتِهِ لا تفعل ذلك مع مثلي الآن .

ولما دسَّ بعضُ الحسدة في كتابي « العهود » وغيره مسائلَ خارجةً عن ظاهر الشريعة أجاب عني بتقدير صحتها عنِّي بأحسنِ جواب ، ثم إني اجتمعتُ به وأخبرتُه بأن تلك المسائلَ مدسوسةٌ ، وأطلعتُهُ على النسخة التي خطُّهُ عليها ، ففرح بذلك أشدَّ الفرح ، وكان يقول لي : والله ؛ ما نصحبُ مثلَكم لأمر دنيوي ، وإنما نصحبُكم لتأخذوا بيدنا يوم القيامة .

---

(١) انظر « شجرة النور الزكية » (ص ٢٧١) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (١٠٣/٥) (٥٣) .

ولما ردَّ الشيخُ محمد التونسي فتواه في حادثةٍ رأيتُ تلك الليلةَ الشيخَ ياقوت العرشي وهو يقول للشيخ محمد التونسي : ما لَكَ ولشيخِ المذهب تردُّ عليه بغيرِ علمٍ ؟! وزجره أشدَّ الزجر ، فشهد له بأنه شيخُ المذهب .

وزرته مرةً ، فوقفتُ على الباب ساعةً وأنا ساكتٌ لم أدقَّ عليه الباب أدباً معه ، فخرجَ وهو مذعور وقال : قد سمعتُ قعقعةً في سقفِ القاعة وحيطانِها حتىٰ خفتُ من أنها تنطبقُ عليَّ ، ثم صار يحكي ذلك لجماعته ، وواللهِ ؛ إني لم أتوجَّهْ إلى الله فيما وقع ، وإنما ذلك أمرٌ من الله ابتداء .

مات رضي الله عنه سنة ثمانٍ وخمسين وتسع مئة .

ومنهم :

(٥٦٤) الإمام العلامةُ ، مُفتي المسلمين
الشيخ شهاب الدين الفيشي المالكي(١)

صحبتُه رضي الله عنه نحو سنة بعد أن عرضتُ عليه محفوظاتي ، وأجازني ، ودعا لي بدعواتٍ وجدتُ بركتهنَّ .

وكان مذهبُ الإمام مالك نصبَ عينه ، وأكثرُ أيامه صائماً .

وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن ، وأوصاني بوصية ، فانتقشتْ في قلبي إلى الآن ، فانتفعتُ بها .

وقال لي مرَّةً : يا ولدي ؛ لا تعوِّلْ علىٰ حفظ العلم من غير عمل كما عليه الناس اليوم تخسرْ دينك .

وكان مجلسُه مجلسَ هيبة ووقار ، وعلم وأدب .

وكان دائمَ الطهارة ، لا يحدثُ إلا ويتوضَّأ ، هٰكذا قال لي أصحابه ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) في (أ ، ب ، ج ، د ، ط ، ك) : (القيسي) بدل (الفيشي) ، وانظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٥٣) ، وستأتي ترجمته : في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٥) (٥٤) .

ومنهم :

(٥٦٥) أخي المحبُّ الصادق ، الشيخُ العالم العامل الزاهد مفتي المسلمين الشيخُ عبدُ الرحمـٰن الأُجهوري المالكي رضي الله عنه[1]

أخذ العلومَ عن الشيخ شمس الدين اللَّقاني ، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين ، وغيرهما ، وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس ، فدرَّسَ العلم ، وأفتىٰ في حياة أشياخه .

وكان الشيخُ ناصر الدين إذا جاءَتْه الفتيا يُرسلها إليه ، وكفىٰ بها منقبة ، رضي الله عنه .

وما زارني أحدٌ من العلماء قدرَ ما زارني ، كان لا يكادُ يتخلَّفُ عن زيارتي كلَّ يوم أربعاء .

وكان الشيخ يوسف الحُريثي والد الشيخ أبي العباس المدفون بثغر دمياط يقول كثيراً : (أحبُّ من الدنيا ثلاثةً من الفقراء : الشيخ عبد الرحمـٰن الأُجهوري المالكي ، والشيخ يوسف البشلاوي المقيم بالنحارية ، وعبد الوهاب الشعراني) انتهىٰ .

وكان الشيخ عبد الرحمـٰن هـٰذا كريمَ النفس ، حافظاً للسانه وبقيةِ جوارحه ، ما ضُبطتْ عليه وقوعه في غيبة أحد من أقرانه الذين يؤذونه ويحسدونه .

وكان كثيرَ القيام والتهجد في الليالي الباردة ، فضلاً عن غيرها .

انتفع به خلائقُ لا يحصون في جامع الأزهر وغيره .

صحبته رضي الله عنه أربعينَ سنة فما سمعتُهُ ذكر أحداً من أعدائه بغيبةٍ ، ولا يحسده علىٰ ما آتاه الله من فضله .

وما جاءني قطُّ زائراً ورأى البابَ مردوداً إلا قرأ الفاتحةَ ودعا لي ورجع قائلاً لرفيقه : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] .

ودخلتُ عليه في مرض موته ، فوجدتُهُ لا يقدرُ علىٰ بلع الماء من غصَّة الموت ،

---

(١) انظر « الكواكب السائرة » (٢/ ١٦٠) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٤٧٦) ، وستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٠٥) (٥٥) .

فدخل عليه شخصٌ بسؤال يكتب له عليه ، فأشار أقعدوني ، فأقعدوه ، فنظر السؤال ، وكتب عليه ، وقال : نودِّعُ الدنيا ، فتوفي تلك الليلة .

وكانت جنازتُهُ مشهودةً ، ودفن في القرافة تجاه جامع محمود وإخوة يوسف عليه السلام في سنة نيّفٍ وخمسين وتسع مئة ، رضي الله تعالىٰ عنه[1] .

ومنهم :

(٥٦٦) الشيخُ العلامة المحققُ ، الورع الزاهد الشيخ شمسُ الدِّين العبادي الشافعي رضي الله عنه[2]

صحبته نحو عشر سنين ، فما رأيتُ أكثر صمتاً منه .

ثم ضعفَ ، فأكل حامضاً ، فثقلَ لسانُه أكثر .

أفتىٰ ودرَّس في الأزهر ، وانتفع به خلائقُ ، ولم يزل في ازدياد حتىٰ مات ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٦٧) الأخُ الصالح العلامة ، الورعُ الزاهد ، المُجمع علىٰ جلالته الشيخ شهاب الدين البُلقيني رضي الله عنه[3]

كان غريباً في أقرانه ؛ لكثرة زهده وورعه ، وحُسنِ خلقه ، وحلاوةِ لسانه ، وضبطه .

أخذ العلومَ عن عدَّةٍ من العلماء الأعلام ، ومن أجلهم الشيخ شهاب الدين الرملي رضي الله عنه ، لازمَهُ ملازمةً شديدة حتىٰ أجازه بالفتيا والتدريس ، فدرَّس وأفتىٰ في حياته ، وانتفع به خلائقُ ، حتىٰ كانت حلقتُهُ أوسعَ من حلقة شيخه .

---

(١) في « الطبقات الصغرىٰ » ، و« الكواكب السائرة » : (نيف وستين) ، وجعله ابن العماد ضمن وفيات (٩٦١هـ) .

(٢) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/١٠٧) (٥٦) .

(٣) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/١٠٧) (٥٧) .

وأخذ طريقَ القوم عن سيدي علي المرصفي ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشوني شيخ مجلس الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جامع الأزهر ، وأحبَّهُ غايةَ المحبة ، واستخلفَه في مجلسه في حياته وبعد مماته ، وقدَّمَهُ علىٰ جميع أصحابه ، وقال : ما قدَّمته للمجلس إلا بمشاورة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

واعتقد علمه وصلاحَهُ الخاصُّ والعام ، واشتَهر في مصرَ وقراها ، والشام ، والحجاز ، والروم .

صحبته رحمه الله نحو أربعين سنة ، فما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه .

وما ذكره أحدٌ قطُّ بسوء من الحسدة إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثيابٌ خضر وبيض نقيَّةُ الخضرة والبياض ، فأعرفُ بذلك كذبَ الحاسد وصدقَ الشيخ شهاب الدين ، وشدة إخلاصه .

وما رأيتُهُ قطُّ التفتَ إلىٰ شيءٍ من وظائف الفقهاء ؛ بل تربَّىٰ على العفة والورع والزهد في الدنيا حتىٰ أتته وهي راغمة .

ووقع لي مرَّةً معارضةٌ من أصحاب النوبة من العجم ، فما كنتُ إلا هلكت ، فأتاني يزورني هو والشيخ نور الدين الشوني ، والشيخ أبو العباس الحريثي ، والشيخ شهاب الدين الوفائي ، وجماعةٌ فلما أرادوا الانصرافَ قال لهم شهابُ الدين الديسطي : كيف تذهبون وأنتم مشايخُ مصر والرجل بمرضه ما حملتم عنه شيئاً ؟! فصار كلٌّ واحد منهم يقول لصاحبه : احمل أنت عنه ، فيردُّ الآخر عليه ، فقال الشيخ شهاب الدين : مدُّوني وأنا أحمل عنه ، ثم وضع رأسَهُ في طوقه مقدارَ درجةٍ ، فخلصتُ من المرض ، حتىٰ كأن لم يكن بي مرضٌ ، وجلستُ أطلبُ الأكلَ ، وحَمى الخرقة رضي الله عنه ، فقمت ، فشيَّعتُهم إلىٰ خارج الدار ، وكان لي تسعة أيام لا أنامُ ولا آكلُ ولا أشرب .

ورأيتُ مرةً في المنام أن الشيخ نور الدين الشوني جالسٌ في مجلسه بالجامع الأزهر ، والمقصورةُ كلُّها مفروشةٌ بالحرير الأخضر ، والعمد كلُّها مستورةٌ كذلك بالحرير ، ورأيتُ خلف ظهر الشيخ نور الدين بشخانةً خضراء إلى السقف(١) ، فبينما

(١) **البشخانة** : الناموسية .

هو جالسٌ إذ نزل في الأرض ، فابتلعته ، فجاء الشيخ شهاب الدين البلقيني ، فجلس مكانه مدَّةً ، ثم ابتعلته الأرضُ كذلك ، ثم جاؤوا بي ، فأجلسوني مكانهما ، فاستيقظتُ ، فقصصتُ ذلك على الشيخين ، فقالا : إن صدقتْ رؤياك أنت تقبرنا وتعيشَ بعدنا . انتهىٰ ، فكان الأمرُ كما قالا رضي الله عنهما .

وللشيخ شهاب الدين وقائعُ غريبة مع الجانِّ ، وكانوا يخدمونه ويوضئونه .

وكان إذا رأىٰ مَركوباً يقول للراكب[1] : اخرجْ عنه ، فيخرجُ الراكبُ في الحال من غير عزيمةٍ عليه .

وكذلك بلغنا : أنه كان يجتمعُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقظةً كثيراً ، ويُحادثه ويسألُه عن أحوال أمَّتِهِ .

توفي رضي الله عنه سنة ستين وتسع مئة ، ودفن قريباً من تربة السلطان قايتباي ، رحمه الله رحمة واسعة .

ومنهم :

(٥٦٨) الشيخُ العلامة الشيخُ عبدُ الحميد السَّمْهودي رضي الله تعالىٰ عنه[2]

صحبته نحو خمس وأربعين سنة ، ما رأيتُ عليه شيئاً يشينه في دينه .

وكان كريمَ النفس ، متردِّداً إلى الناس ، أمَّاراً بالمعروف ، لا يخافُ في الله لومةَ لائم .

وكان وجهُهُ كأنه قطعةٌ من الشمس ؛ لما هو عليه من الأخلاق الحسنة .

قرأ العلومَ علىٰ مشايخ الإسلام ؛ كالشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ نور الدين المحلِّي ، والشيخ كمال الدين الطويل ، ومُلا علي العجمي ، والشيخ عبد الحقِّ السنباطي .

---

(١) مركوباً : أي : رجلاً قد ركبته الجن .

(٢) ستأتي ترجمته في « ذيل الطبقات » (٥/ ١٣٩) (٧٩) .

وأجازوه بالفتوىٰ والتدريس ، فدرَّس العلمَ وأفتىٰ نحو خمسين سنة .

وتوفي سنة خمسٍ وستين وتسع مئة .

* * *

وليكن ذلك آخرَ ما أرادَ الله تعالىٰ ذكرَه ممن أدركناهم من العلماء والصالحين[١] ، وقد تركنا ذكرَ كثير من العلماء والصالحين خشيةَ الإطالة ، لا استهانة بجنابهم .

والحمد لله الذي هدانا لهـٰذا ، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

فنسأل اللهَ تعالىٰ ببركتهم وبركةِ أنفاسهم أن يميتنا على الإسلام ، وأن يُدخلنا دارَ السلام ، آمين اللهم آمين .

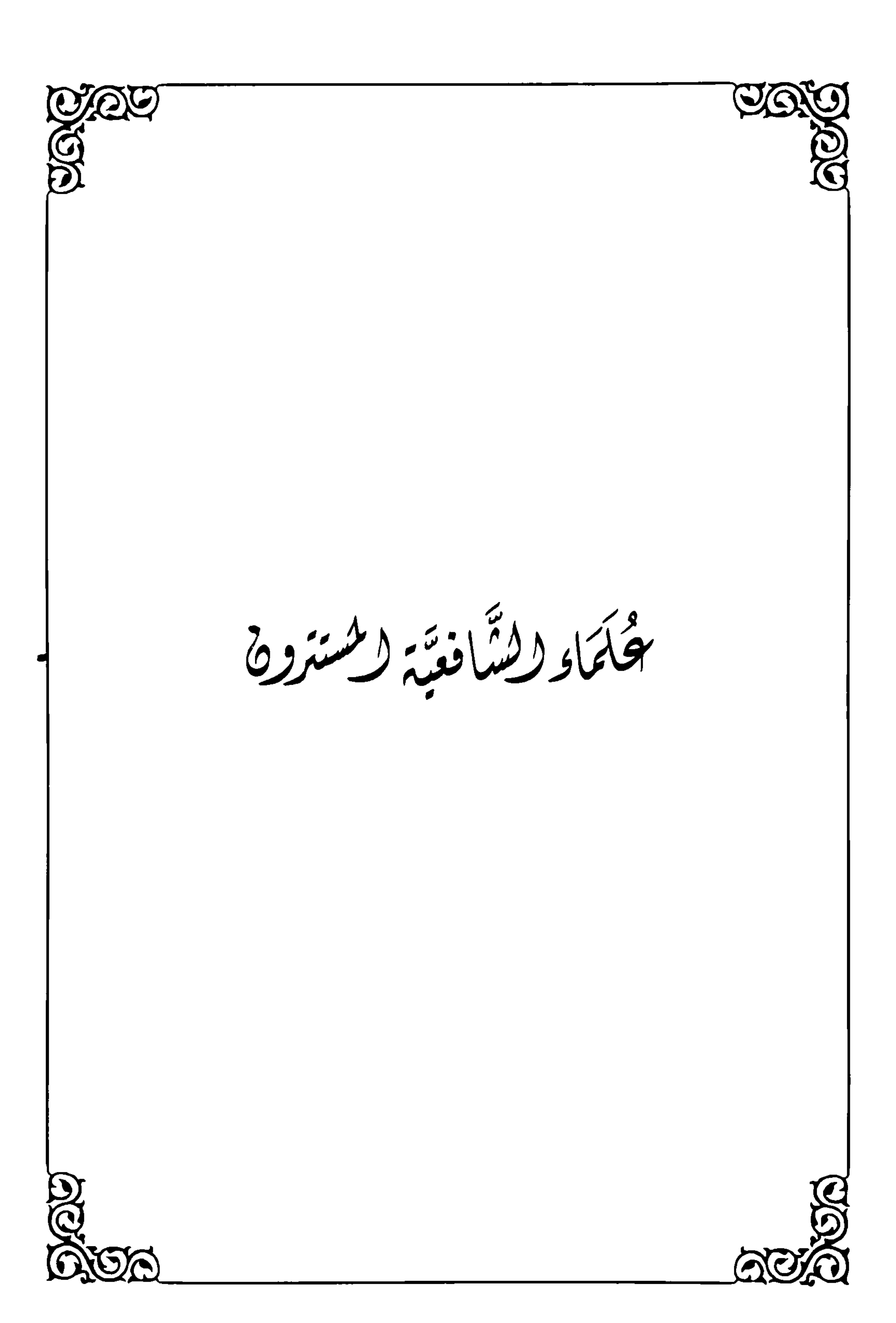
* * *

وقد حُبِّب إليَّ أن أختم هـٰذه الطبقاتِ بذكر جماعة من علماء الشافعية ، الذين لم يشتهروا بزهد ولا ورع ، ولا كثرة عبادة .

ولا يكادُ أحدٌ يعرفُ مقامَهم ؛ لاستتارهم في عملهم بعلمهم رضي الله تعالىٰ عنهم :

---

(١) في بعض النسخ زيادة : (وممن لم ندركهم) بعد قوله : (والصالحين) ولعل ما أثبتناه أليق ؛ لأن المؤلف التزم في هـٰذا الباب ذكرَ مَنْ أدركهم وفاز بصحبتهم .



عُلَمَاء الشَّافِعِيَّة المستورون

فمنهم :

(٥٦٩) الشيخُ الإمام ، الورعُ الزاهد أحمد بنُ سُريج رضي الله عنه[1]

صحب الإمام أبا القاسم الجنيد .

وكان يقول : (ما عرفنا الإسلامَ إلا من حينَ صحبنا الجنيد رضي الله عنه) .

وكان لا يترك قيامَ الليل في سفر ولا حضر ويقول : (كيف ينبغي لمن يدَّعي محبَّةَ الله عز وجل أن ينام عن خدمته أوقاتَ المواكب الإلـٰهية) .

وكان مُفنِّناً في جميع العلوم النقلية والعقلية .

وكان إذا لم يجد شيئاً حلالاً يأكله يمكثُ الليالي والأيام طاوياً ، فإذا خاف علىٰ ذهاب روحه أكلَ بقدر سدِّ الرمق .

وكان حافظاً للسانه ، ملازماً لشأنه ، عارفاً بزمانه ، لم تزل عيناه تذرفان بالدموع ، وإذا لامَهُ أصحابُهُ علىٰ كثرة البكاء يقول : قد بكىٰ من كان قبلنا الدَّمَ علىٰ تفريطه في جانب الله عز وجل ، والله أعلم .

ومنهم :

(٥٧٠) الإمامُ العلامة ، أبو زيد المروزي رحمه الله تعالىٰ[2]

كان عالماً زاهداً ، عابداً متقشِّفاً في ملبسه ومأكله وأمتعة داره ، حتىٰ ربَّما دخلَ اللصُّ داره فلم يجد فيها شيئاً يُسرقُ .

---

(١) هو أحمد بن عمر بن سُرَيْج البغدادي أبو العباس (٢٤٩ـ٣٠٦هـ) فقيه الشافعية في عصره ، له نحو (٤٠٠) مؤلف ، لُقِّب بالباز الأشهب ، نصر المذهب الشافعي ، فنشره في أكثر الآفاق . انظر « تاريخ بغداد » (٤/ ٢٨٧) ، و« وفيات الأعيان » (١/ ٦٦) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٢٠١) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٢١) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٣) .

وكان كثيرَ الصمتِ ، ربما يمكث اليومَ كاملاً ساكتاً إذا لم يكلمه أحد .

وكان لا يضعُ جنبَهُ الأرضَ في ليل ولا نهار إلا غلبةً .

وكانوا يقولون في عصره : إنه على قدم التابعين في العلم والعمل .

وكان أصحابهُ يقولون : عاشرناه إلى أن مات ، فما نظنُّ أن كاتبَ الشمال كتبَ عليه خطيئةً رضي الله تعالى عنه .

ومنهم :

(٥٧١) الشيخُ الإمام محمد بنُ خزيمة رضي الله عنه[١]

كانوا يلقِّبونه بشيخ الشيوخ ، وكانوا يضربون به المثلَ في كثرة الخشية والخوف من الله ، وكثرةِ الأدب مع أقرانه فضلاً عن أشياخه ، حتى إنهم سألوه يوماً عن لحية شيخه : هل كان شعرُها الأبيض أكثرَ أم الأسود ؟ فقال : لم أُحقِّقِ النظرَ في وجهه قطُّ حتى أعرفَ ذلك .

ولم يُفتِ في حياة شيخه أبي علي البوشنجي لا سرّاً ولا جهراً .

وسئل عن مسألة وهو في جنازة شيخه ، فقال : اصبر حتى نُواريَهُ التراب ؛ فإني لا أقدرُ أفتيك وشيخي على وجه الأرض .

وكان صوَّاماً للنهار قوَّاماً لليل ، لا يأكلُ إلا كلَّ ثلاثة أيام لقيماتٍ يُقمن صلبه ، ويقول : أستحي من الله تعالى أن أتردَّدَ كثيراً للخلاء .

وكان يتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان كثيرَ البكاء ، حتى صار له خطَّان أسودان في وجهه من الدموع رضي الله تعالى عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرى » (٥٢٦/٤) (٤٣٦) .

ومنهم :

(٥٧٢) أبو بكر بن الحداد رضي الله عنه(١)

كان إماماً في العلوم ، زاهداً ورعاً ، عابداً كثيرَ العزلة عن الناس .

وكان لا يغسلُ ثوبَهُ ولا عمامته إلا في عيد الفطر .

وكان يختم القرآن كلَّ يوم وليلة من حينَ بلغَ إلىٰ أن مات ، فكان كثيرَ البكاء عند تلاوة القرآن .

وكان يصومُ يوماً ، ويُفطر يوماً .

وإذا كان يوم الجمعة يختمُ القرآنَ قبل الزوال ؛ هـٰذا مع اشتغاله بتدريس العلوم والتأليف .

وكان يأمرُ بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، لا يخاف في الله لومةَ لائم .

وكانت له هيبةٌ عظيمة على الناس ، خصوصاً الذين يقرؤون عليه .

وهجر مرةً شخصاً شهراً ؛ لكونه ضحكَ وهو يقرأ في العلم ، وقال له : العلمُ حجةُ الله تعالىٰ على العبد ، فكيف يليقُ بصاحبه الضحكُ وهو لم يعلم ما إليه مصيره ؟! رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٧٣) الإمام أبو نصر بن الصباغ(٢)

كان حافظاً لمذهب الإمام الشافعي ، حتىٰ قيل : إنه كان يحفظُ وقرَ مئة بعيرٍ من كتب العلم في فنون شتَّىٰ .

وكان صائمَ الدهر ، وإدامُهُ الملحُ تارةً ، والخلُّ تارةً ، والزيتُ تارةً .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٤) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣٠) .

وكان لا يأكلُ إلا الخبزَ اليابس دون الليِّنِ ، فيبلُّه بالماء ، ويغمسُ اللقمة في الملح أو الخلِّ مثلاً ، ولا يزيدُ على تسع لُقم .

وكان قليلُ الكلام اللغو ، وما سمعوه يغتابُ أحداً من المسلمين قط .

وكان يقول : (لا ينبغي لأحد من حملة القرآن أن يقع في غيبة أحد من المسلمين ، فهي في حقِّه أعظمُ إثماً من غيره) .

وكان السُّلطانُ يعرضُ عليه العطايا ، فيردُّها ويقول : (إن أموالَ السلطان لا تخلو من الشبهة) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٧٤) الشيخُ نجم الدين القَمُولي

صاحبُ « الجواهر »[١] رحمه الله تعالىٰ[٢]

كان لسانُه لا يَفتُر ليلاً ولا نهاراً عن قوله : (الله الله الله) ، وكان إذا نام يسمعون قلبَهُ يقول : (الله الله) بصوت وحرف ، وربما طالع العلم وفهم معانيَهُ مع قوله : (الله الله) لا يشغلُه أحدُ الأمرين عن الآخر ، وربما درَّس العلومَ وردَّ على السائل الجوابَ بسرعة ، ثم يقول : (الله الله) ، وكذلك كان لا يَفتُرُ في حال أكله وشربه عن قوله : (الله الله) بعد التسمية والحمدلة .

وكانوا يقولون : إن بعض العارفين نظرَ إليه نظرةً أشعلَ قلبه بنار التوحيد ، رضي الله عنه .

---

(١) للغزالي كتاب الوسيط في الفروع ، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية ، وقد شرحه أحمد بن محمد القمولي في مجلدات سماه : « البحر المحيط » ، ثم لخصه وسمَّاه : « جواهر البحر المحيط » . انظر « كشف الظنون » (٣/ ٢٠٠٨) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣١) **والقَمُولي** : بلدة في البر الغربي من عمل قوص .

ومنهم :

(٥٧٥) الإمام أبو العباس الدَّيْبُلي رضي الله عنه[١]

كان من أكابر العلماء العاملين .

وكان يُدرِّسُ العلمَ حال كونه يتلو القرآنَ ، حال كونه يخيطُ الثياب ، حال كونه يُسمِّعُ القرآن لغيره ، لا يشتغلُ بشيء عن شيء ، وهو مقامٌ غريب ، ولكن الله تعالىٰ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ، هـٰذا دأبُهُ من طلوع الشمس إلىٰ غروبها .

وكان إذا صلَّى المغربَ تهيَّأَ لقيام الليل ، فلا يزال مُصلِّياً إلى الصباح ، وليس له ساعةٌ يضع فيها جنبَهُ الأرضَ في ليل أو نهار ، إنما كان نومُهُ خفقاتٍ يخفقها كما كان الإمام أبو حنيفة يفعل ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٧٦) الإمام أبو جعفر الترمذي رضي الله عنه[٢]

كان رضي الله عنه عالماً ، زاهداً ، ورعاً ، عابداً ، صائمَ الدهر ، وكانت نفقتُهُ أربعةَ دراهم في كل شهر .

وكان كثيراً ما يجوعُ حين لا يجد عنده شيئاً في البيت ، فيصبر على الجوع أياماً ، ولا يسألُ أحداً من أصحابه رغيفاً ولا يُعلِمهم بذلك .

وكان غالبُ أيامه يكتفي بالحبة الواحدة من الزبيب ، وكان مع ذلك شجاعاً ذا قوةٍ شديدة ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٥) (٤٣٢) والديبلي نسبة إلىٰ ديبل بتقديم الياء على الباء كما في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٣/ ٥٥) لابن السبكي ، و« طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ٤٠٣) : وهي كراتشي اليوم ؛ بلدة علىٰ ساحل البحر من بلاد الهند ، قريبة من السند .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٦) (٤٣٥) .

ومنهم :

(٥٧٧) الإمام أبو العباس النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان عالماً عاملاً ، لا يفتُرُ عن العمل بعلمه ، فلا يخلو عن أن يكونَ في واجبٍ ، أو مندوب ، ويقول : (ما فائدة العلم إلا العمل به ، ومن لم يعملْ بعلمه وينتفعْ به الناسُ لا يُكتب عند الله عاملاً ، ومن لم ينفعه علمُهُ لا ينفعُ غيرَهُ) .

وكان يقول : (ختمتُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم [اثنتي عشرة] ألف ختمة[٢] ، وضحيت عنه [اثنتي عشرة] ألف أضحية[٣] ؛ لكونه صلى الله عليه وسلم كان سبباً لهدايتي وعملي بشريعته صلى الله عليه وسلم) .

ومنهم :

(٥٧٨) الإمامُ محمدُ بنُ إسماعيل البخاري رضي الله عنه[٤]

صاحب « الصحيح » ، كان وردُهُ كلَّ يوم ختمةً ، ويتهجَّدُ كلَّ ليلة بثلث القرآن .

وكان قليل الأكل ، وبلغنا أنه انتهىٰ أكلُهُ في اليوم والليلة إلىٰ لوزةٍ أو زبيبة .

وكان يقول : واللهِ ؛ إني قد استحييتُ من الله تعالىٰ من كثرة تردُّدي إلى الخلاء ، وانتهىٰ أمرُهُ بعد ذلك إلىٰ أن صار يدخلُ الخلاء في الشهر مرةً كما كان عليه الإمام عبد الرحمـٰن الأوزاعي .

وكان إذا دخل الخلاءَ في الشهر مرتين يقول لأصحابه : ادعوا لي ؛ فإن بي وجعَ البطن .

وكان حافظاً للسانه ، ويقول : أرجو من الله أني ألقاه ولا يُطالبني بغيبةٍ في أحدٍ من

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٣٧) .

(٢) في النسخ : (اثني عشر) .

(٣) في النسخ : (اثني عشر) .

(٤) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٢٦٩) (١١٥) ، و(٢/ ٥٢٧) (٤٣٨) ، و« الطبقات الوسطىٰ » (٣/ ١٦٠) (١١٢) ، و(٤/ ٤٦٦) (٥٧٤) .

المسلمين ، فقيل له : فكيف ذلك مع تجريحكم لبعض الرواة ؟! فقال : ذلك من الدِّين وحفظ الشريعة .

وكان يُصلي عند كتابة كل حديث من « الصحيح » ركعتين رحمه الله تعالىٰ ، آمين .

ومنهم :

(٥٧٩) الشيخ الإمام تقي الدين بن دقيق العيد[١]

كان مُجتهداً في العبادة مع قراءة الحديث والفقه وغيرهما من العلوم .

وحكم مرةً بالحقيقة لما تولَّى القضاء في الوجه القبلي بمصر ، وذلك أن شخصاً سرقَ ثوراً وأنكره ، فقال له : تُنكر الثورَ وقرناه خارجَيْنِ من عينيك ، فخرج القرنان في عينيه حتىٰ رآه الحاضرون ، فاعترف بالثور ، وأتىٰ به إلىٰ صاحبه ، وفُقدتِ القرون فلم تُوجد .

وكان يقول : (ما تكلَّمتُ قطُّ كلمةً ، ولا فعلتُ فعلاً إلا بعد أن أعددْتُ له جواباً بين يدي الله عز وجل موافقاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم) .

ومنهم :

(٥٨٠) الإمامُ محمدُ النيسابوري الكبيرُ[٢]

كان يصلي طولَ نهاره وطولَ ليله ، ويصوم الدهرَ ، ولا يكادُ أحدٌ يدخلُ عليه في ليلٍ أو نهارٍ إلا ويجده في صلاة ما عدا أوقاتِ الضرورة .

وكان إذا سأله شخصٌ عن مسألة يُسلِّم من صلاته بسرعة ويردُّ عليه الجواب ، ثم يعودُ للصلاة مسرعاً .

ويقال : إنهم وجدوه مُصلِّياً في قبره مثل ما وقع لثابت البُناني رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٣٩) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٤٠) .

ومنهم :

(٥٨١) الإمامُ محمد الملقب بفقيه الحرم(١)

كان إماماً عالماً عاملاً .

وكان من وردِهِ كلَّ يوم ستة آلاف مرة (قل هو الله أحد) .

وهو شيخُ أبي إسحاق الشيرازي رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٨٢) الإمام [الحسن] الأصبهاني رضي الله عنه(٢)

كان إماماً في العلوم والعمل .

لم يزل يبكي علىٰ نفسه حتىٰ ذهبتْ إحدىٰ عينيه من البكاء ، فصار يبكي الدَّمَ من العين الأخرىٰ حتىٰ مات .

وربما كان جالساً يدرِّسُ العلمَ فيغلب عليه البكاءُ ، فيُغمىٰ عليه ، فتتفرَّقُ الطلبةُ عنه ، ويتركونه علىٰ حاله حتىٰ يفيقَ ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٣) الإمام زين الأمناء الدمشقي(٣)

كان إماماً في جميع العلوم .

وكان قد جزَّأَ الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً لتلاوة القرآن والتسبيح ، وثلثاً للنوم ، وثلثاً للتهجد .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٧) (٤٤١) .

(٢) في النسخ : (أبو الحسن) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٨) (٤٤٢) .

(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٨) (٤٤٣) .

وكان يُقال له : السجَّاد ، فإذا أصبح جزَّأ نهارَه كذلك مثلَ الليل ، فلا يزالُ كذلك إلى الغروب .

وكان يقول : (النومُ أخو الموت ، فمن نامَ أكثر من ثلث عمره فهو مفتون) .

ومنهم :

(٥٨٤) الإمام [الحسن] بن سَمعون رضي الله عنه[١]

كان إماماً ، زاهداً ، ورعاً ، كثيرَ التهجد والعبادة والأورادِ والصوم ، وضبطِ الجوارح عن المخالفات والمكروهات ، حتىٰ كان جسمُهُ يضيء كالبلَّور الذي في داخله ضوء .

وكان لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجماعة .

ولما وقعتِ الفتنةُ في بلده لزمَ قعرَ بيته ، واشتغلَ بربِّه وحده ؛ من قراءة كلامه ، أو مراقبته ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٥) الإمام أبو علي بنُ خَيْران رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان إماماً ، زاهداً ، ورعاً ، خاشعاً ، ناسكاً ، كثيرَ الصمت ، حتىٰ أعجبَ الخليفة حالُهُ ، فعزم علىٰ توليته القضاء ، فأبىٰ ، فوكَّل علىٰ بابه حرَّاساً خوفَ الهرب ، وختم علىٰ باب داره بالطين بضعةَ عشر يوماً ، ثم أعفاه وأخرجَهُ ، فلما خرجَ قال [الوزير][٣] لبعض أصحابه : إنما فعلتُ ذلك رحمةً بكم حتىٰ لا تقتدوا بي في تولية القضاء ، وحتىٰ يصير الناس يتحدَّثون من بعدي أن بعضَ السلفِ أُكره على القضاء ، وختموا علىٰ بابه ، ولم يرضَ أن يتولىٰ ، وأنشدوا :

---

(١) في النسخ : (أبو الحسن) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٢٨) (٤٤٤) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/٥٢٨) (٤٤٥) .

(٣) ما بين معقوفين مستدرك من « سير أعلام النبلاء » (١٥/٥٩) .

وطيَّنوا الباب على أبي علي عشرين يوماً ليلي فما ولي

وكان رضي الله عنه يعيبُ على أبي العباس بن سُريج في توليته القضاءَ ويقول : إن هٰذا الأمرَ لم يكنْ في أصحاب الشافعي رحمه الله ، وإنما كان في أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٦) الإمام حسين النيسابوري رضي الله عنه[١]

كان إماماً في العلوم ، محدِّثاً فقيهاً .

وكان أبو عبد الله الحاكم يقول : صحبتُهُ حضراً وسفراً نحوَ ثلاثين ليلة ، فما رأيتُهُ تركَ قيامَ الليل من أول النصف الثاني ليلةً واحدةً .

وكان وردُهُ في كلِّ ركعة سبعة أحزاب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٨٧) الإمامُ العالم الصالحُ ، المفسِّرُ المحدِّث ، اللغوي النحوي الزاهدُ العابد [أبو محمد] البَغوي شيخُ السنة ، رضي الله عنه[٢]

كان من أكابر الزهاد ، وبلغ من زهدِهِ : أنه كان يأكل الخبزَ من غير إدام ، فلامه أصحابُهُ ، وقالوا له : نخافُ على عقلك ، فصار يأكلُهُ بالزيتِ حتى مات ، لم يزد عليه .

وكان صائم الدهر ، قائم الليل ، خائفاً ، خاشعاً حتى كأنَّ النارَ لم تُخلق إلا له ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٦) .

(٢) في النسخ : (أبو القاسم) ، والمثبت من مصادر ترجمته ، وتقدمت في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٧) .

ومنهم :

(٥٨٨) الإمامُ العالمُ الكبير ، القفَّال المروزي[١]

كان الغالبُ عليه الحزنَ والبكاء من خشية الله ليلاً ونهاراً ، حتىٰ صار له خطَّان أسودان في وجهه من الدموع .

وكان كثيراً ما يبكي وهو في الدرس ، حتىٰ يكادَ أن يُغشىٰ عليه ، وكثيراً ما يُحمل إلىٰ بيته مغشيّاً عليه .

وكان يقول : ما أغفلَنا عمَّا إليه مصيرنا ! رضي الله عنه ورحمه .

ومنهم :

(٥٨٩) الإمامُ العالم الصالح ، أبو بكر النيسابوري رضي الله تعالىٰ عنه[٢]

كان يقوم الليل ويصوم النهار دائماً حتىٰ مات .

ومكث نيِّفاً وأربعين سنة يصلي الصبحَ بوضوء العشاء ، كما أخبر عن نفسه من باب التحدُّث بالنعم .

وكان يقول : (والله ؛ ما أظن إلا أن سيِّئاتي في صلاتي أكثر من حسناتي) رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٠) الإمام العالم الصالحُ عبدُ الله الأصبهاني المشهور بابن اللبان[٣]

كان إماماً يصلي بالناس في المسجد .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٨) .
(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٤٩) .
(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٢٩) (٤٥٠) .

وكان إذا صلىٰ بهم التراويح في رمضان وانصرفوا ينتصبُ للصلاة إلىٰ طلوع الفجر .

وما ضَبطَ عليه أصحابُهُ قطُّ غفلةً عن الله تعالىٰ ، بل وقتُهُ كلُّهُ في عبادة .

وكان يُصلي طولَ الليل ، فإذا صلى الصبحَ جلس لتدريس العلم طولَ نهاره .

وكان يقول : (ينبغي للعالِم ألا ينامَ في رمضان ليلاً ولا نهاراً حتىٰ يَنقضي الشهر) رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩١) الإمامُ العالم الصالحُ ، المحدث الزاهد العابد المشهور بابن أبي حاتم[١]

مكثَ نحو ثلاثين سنة لا يرفعُ طرفَهُ إلى السماء ؛ حياءً من الله عز وجل .

ودخل عليه رجلٌ وهو في درسه ، فقال : إن سورَ طَرَسوسَ انهدمَ ، فقال الشيخُ : من يساعد المسلمين في بنائه ؟ فقال رجل : أنا أساعدهم بألف دينار ، بشرط أنَّ الشيخَ يضمن لي دخولَ الجنة ، فكتب له الشيخُ بذلك ورقةً ، فأوصى الرجلُ أنها تُدفن معه ، فلما ماتَ طارتِ الورقةُ حتىٰ نزلت في حِجْر الشيخ ، وإذا في ظاهرها مكتوبٌ : قد وفَّينا بما ضمنتَ ولا تعُدْ ؛ فإننا لا ندخل تحت التحجير ، رضي الله عنه

ومنهم :

(٥٩٢) الإمامُ عبدُ الرحمـٰن بن الأنباري رضي الله عنه[٢]

كان عالماً ، فقيهاً ، محدِّثاً ، نحوياً زاهداً ورعاً ، حتىٰ بلغَ من زهده : أنه كان لا يوقدُ في بيته سراجاً ، لا صيفاً ولا شتاءً حتىٰ مات .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٠) (٤٥١) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٠) (٤٥٢) .

وكان يقول : (لم يصفُ لي ثمنُ الزيت من حلال) .

وكان فرشُهُ حصيراً من قصب .

وكان يلبسُ قميصاً وعمامةً من غليظ القطن .

وكان ملازماً قعرَ بيته لا يخرجُ منه إلا لصلاة الجمعة فقط .

وكانت هيئتُهُ كهيئة الشحاذين على الأبواب ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٩٣) الإمامُ العالم الصالح ، عبدُ الرحمـٰن الداودي البوشنجي[١]

كان زاهداً ورعاً ، لم يأكل اللحمَ منذ أربعين سنة من حين نهبتِ التركُ بهائم بلده .

وكان يأكل لحم السمكِ بدلَ لحم الأنعام ، فنفضَ جندي لُباب سفرته في النهر ، فلم يأكل من سمكه إلىٰ أن مات ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٤) الإمامُ أبو عبد الله الرازي رضي الله عنه[٢]

كان عالماً ورعاً زاهداً .

حجَّ مرةً ، فعطش الحجاجُ ، فقالوا له : استسقِ لنا يا فقيه ، فرفعَ رأسَهُ إلى السماء ، فأرعدتِ السماءُ ، وأمطرتْ في الحال ، حتىٰ شربَ الناسُ ، وسقوا دوابَّهم ، وملؤوا مزاداتِهم ، فلما علمَ بذلك قال : ليس ذلك بدعائي ، وإنما هو من رحمة الله لعباده ، رضي الله تعالىٰ عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣١) (٤٥٣) .

(٢) كذا في جميع النسخ : (أبو عبد الله الرازي) ، والقصة الواردة هنا وردت في حق (عبد الواحد الدسكري) كما في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٢٤) ، وهو من تلامذة أبي إسحاق الشيرازي رحمهم الله تعالىٰ ، وتقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣١) (٤٥٤) (عبد الله الرازي) .

ومنهم :

(٥٩٥) الإمام أبو الحسن المقرئ رضي الله عنه[١]

كان صائمَ النهار ، قائمَ الليل .

وكان قليلَ الثياب ، حتىٰ بلغ من زهده أنه لم تصفُ له دراهمُ يشتري له بها قميصاً ، فكان عنده قميصٌ من حلال يلبسُهُ تارةً ، وتلبسه زوجتُه تارةً ، فإذا لبسَهُ أحدُهما دخل الآخر خزانةً وأغلقَ عليه البابَ .

ودخلوا عليه مرَّةً فوجدوه عُرياناً ، فأنشدوا قولَ أبي الطيب الطبري : [من الكامل]

قومٌ إذا غسلوا الثيابَ رأيتَهُمْ لبسُوا البيوتَ وزرَّروا الأبوابا

فرضي الله عنه وعن أتباعه أجمعين .

ومنهم :

(٥٩٦) الإمامُ أبو الحسن الإسْتراباذي رضي الله عنه[٢]

كان إماماً عالماً عاملاً ، زاهداً ورعاً ، مجتهداً في العبادة ليلاً ونهاراً .

وكان ينسخُ كتبَ الحديث والعلم طولَ نهاره وهو يقرأُ القرآنَ بصوتٍ حزين ، لا تشغلُهُ الكتابةُ عن التلاوة .

وكان إذا دخل عليه أحدٌ ولغا في الكلام زجرَهُ ، وأمرَهُ بالقيام من عنده .

قالوا : وكان يختِمُ كلَّ يوم ختمةً وهو ينسخُ كتب الحديث ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ٣٢٩) ، و(٢/ ٥٣١) ، و(٣/ ٢٢٤) (٤٥٥) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٢) (٤٥٦) .

ومنهم :

(٥٩٧) الإمامُ علي بنُ المرزبان رضي الله تعالىٰ عنه[١]

كان إماماً ، ورعاً ، زاهداً .

وكان يقول : (لا أعلمُ بحمد الله لأحدٍ عليَّ مظلمةً في مالٍ ، أو عرضٍ ، ولا سوء ظن بمسلمٍ ، ولو أني علمتُ أن لأحد عليَّ حقّاً لتحاللته في الدنيا قبل الآخرة ، في يوم يشيبُ فيه الوليد) ، رضي الله عنه .

ومنهم :

(٥٩٨) الإمامُ العظيم الشأن ، الذي أجمعَ الخلائقُ علىٰ جلالته الشيخُ أبو الحسن الأشعري ، إمامُ السنة ، رضي الله عنه[٢]

مكث رضي الله عنه نحو ثلاثين سنة يُصلي الصبحَ بوضوء العشاء .

وكانت نفقتُهُ في كلِّ سنة سبعة عشر درهماً ، رضي الله تعالىٰ عنه .

ومنهم :

(٥٩٩) الإمامُ الفقيه المحدِّثُ ، أبو القاسم ابن عساكر رضي الله تعالىٰ عنه[٣]

كان إماماً في جميع العلوم ، صائماً قائماً .

وكان يختِمُ القرآن في التهجد في كل أسبوع .

وكان أصحابُهُ يُحدِّثون عنه أنهم لم يجدوا في عصره مثلَهُ في الإقبال على الله عز وجل ، لا يكاد يغفُلُ لحظة عن ربِّه في ليل أو نهار ، رضي الله عنه .

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٢) (٤٥٧) .

(٢) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٥٨) .

(٣) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٥٩) .

ومنهم :

(٦٠٠) الإمامُ أبو الحسن بن القزويني رضي الله عنه[1]

كان يُكاشفُ الناسَ ، ويتكلَّمُ علىٰ خواطرهم .

وكان ملازماً للصمت والعزلة والصوم ، لا يخرجُ من بيته إلا لصلاة الجماعة ، ويُفتي ويدرس الناس في بيته ، رضي الله عنه .

وعرضوا عليه الدنيا ومناصبَها فأبىٰ ، وقنعَ بالخبز والملح ، رضي الله تعالىٰ عنه .

* * *

فهٰؤلاء جملة من العلماء العاملين الذين لم يشتهروا بالصلاح كغيرهم ، قصدنا ختامَ « الطبقات » بذكرهم ؛ استجلاباً لتنزُّل الرحمة ، ولم نذكر أحداً ممنِ اشتهروا من علماء مذهبنا بعلم أو صلاح ؛ كالغزالي ، والشيرازي ، والرافعي ، والنووي رضي الله عنهم ؛ اكتفاءً باشتهار صلاحهم وزهدهم عند الخاصِّ والعام ، بخلافِ هٰؤلاء الذين ذكرناهم ، فالحمد لله رب العالمين .

* * *

وليكنْ ذلك آخرَ ما التزمنا ذكرهَ في « طبقاتنا » ؛ من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين إلىٰ عصرنا هٰذا ؛ وهو سنةُ خمس وستين وتسع مئة ، ولم أذكر من علماءِ القرن العاشر إلا من لي به صحبةٌ ، أو قرأتُ عليه شيئاً من العلوم ، أو أخذَ عليَّ عهداً دون أضداد هٰؤلاء .

كما أني لم أذكر ممن لم أذكرهم إلا من كان له كلامٌ في الطريق ، أو حال يُنهضُ المريدَ ، ويُقوِّي همَّتَهُ .

وما سكتُّ عن ذكر سوىٰ هٰؤلاء استهانةً بحقِّهم ، ولا غفلةً عنهم ؛ وإنما ذلك لعدم قدرتي علىٰ حصرهم في كتاب ؛ إذ لا يخلو الزمانُ عن أربعةٍ وعشرين ألف وليٍّ لله عز وجل من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ قيام الساعة .

فأسألُ اللهَ تعالىٰ أن ينفعنا ببركاتِ كلِّ وليٍّ لله تعالىٰ ، وأن يحشرنا في زمرتهم ،

---

(١) تقدمت ترجمته في « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥٣٣) (٤٦٠) .

وتحت ألويتهم ، ولا يخالفَ بنا عن طريقهم ؛ فإن من أشقى الناس منِ اجتمعَ بالعلماء والصالحين ، وطالعَ مناقبهم وأحوالهم ولم ينتفع منهم بشيء .

وقد أنشد سيدي عبد العزيز الديريني آخرَ منظومته التي ذكرَ فيها مشايخَهُ في الفقه والتصوف وغيرِهما من العلوم ، وهو لسانُ حالي أيضاً : [من البسيط]

يا ويحَ قلبي وهىٰ جسمِي وهىٰ شغفِي ... بالقلبِ باقٍ كعانٍ باتَ مسجونا[1]

مضى الصِّبا وزماني والكهولةُ في ... عزمٍ يزيدُ على طولِ المدىٰ لينا

والحالُ ما حالَ والتبريحُ ما برحتْ ... آثارُهُ والهوىٰ قدْ زادني نونا[2]

عبدَ العزيزِ صحبتَ الصالحينَ فهلْ ... وفَّيتَ توفيةَ القومِ المُجدِّينا

هلِ اتَّبعتَ الذي عاهدتَهم أبداً ... عليهِ أمْ خنتَ إسرافاً وتلوينا

والحمد لله الذي هدانا لهٰذا ، وما كنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله .

وكان معظمُ قصدي بذكر طبقات العلماء الأحياء من أهل عصري تعطيرَ الكون بذكرهم ، وفتحَ بابَ الاعتقاد فيهم ؛ فإنهم قالوا : المعاصرةُ حجابٌ إلا علىٰ من عافاه اللهُ من الحسد ، فلا يكادُ معاصرٌ يذكرُ مناقبَ معاصره إلا قليلاً ، فقصدتُ بذكر أقراني إعلامَ الإخوان بخلوِّي من الحسد حتىٰ يقتدوا بي في ذلك ؛ فإن من لم يعتقد في علماء عصره فاتَهُ مددُهم .

فالحمدُ لله ربِّ العالمين .

* * *

وكان الفراغ من تبييض هٰذه « الطبقات » علىٰ يد مؤلفها وكاتبها عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي في ثالث عشر رجب سنة ست وستين وتسع مئة بمصر المحروسة .

وصلى اللهُ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ سائر الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آلهم وصحبهم أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أستغفر الله .

---

(١) في (أ ، هـ ، ي ، ك) : (مشجونا) .

(٢) أي : أصبح الهوىٰ هواناً .

وأُوصي جميعَ الإخوان بكثرة احتمال الأذىٰ من أقرانهم ، وذكرِ جميل صفاتهم ؛ عملاً بحديث الطبراني مرفوعاً : « وإن أحدٌ عيَّرَكَ بما ليسَ فيكَ فلا تعيِّرْهُ بما هوَ فيهِ »[1] .

وقد ذكرت في هـٰذه « الطبقاتِ » جماعةً من الأقران آذوني أشدَّ الأذىٰ ، وعملوا الحيلة علىٰ قتلي ونفيي من مصر مراتٍ ، فلم أقابلهم علىٰ ذلك لا بنفسي ولا بوكيلي من الخلق ، بل ذكرتُ صفاتِهم الحسنةَ ، ورددت عن عرضهم كلَّ الردِّ ، ولا أعلم أحداً من أقراني سلك مثلَ ذلك في حقِّ عدوِّه أبداً ، بل لا يقدر على النطق بشيء من محاسنه .

فاتبعوني أيها الإخوان علىٰ ذلك ، واعملوا بمثل ذلك مع أعدائكم ، وأجركم على الله تعالىٰ ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم .

❊ ❊ ❊

---

(١) المعجم الكبير (٦٣٨٥) عن سيدنا جابر بن سليم رضي الله عنه ، بلفظ : « وإن امرؤٌ شتمك بما فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه ؛ فإنه يكون لك أجرُهُ ، وعليه وزرُهُ » .

خواتيم النسخ الخطية

خاتمة النسخة (أ)

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه الطبقات المباركة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يوم الخميس المبارك أوائل رجب الفرد **سنة تسعة عشر وألف من الهجرة** (١٠١٩) علىٰ يد الفقير أحمد بن سليمان الدَّرازي المالكي البحري ، غفر الله له ، آمين .

خاتمة النسخة (ب)

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة في يوم الاثنين المبارك ، تاسع جمادى الأولىٰ **سنة ست وعشرين وألف** ، علىٰ يد أضعف العباد وأحوجهم إلىٰ ربه ؛ محمد زين العابدين القلقشندي الشعراوي ، غفر الله له ولوالديه ولمن اطلع علىٰ عيب وستره ، أو نقص وكمله ، ولجميع المسلمين ، آمين آمين آمين .

خاتمة النسخة (ج)

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة في يوم الجمعة المبارك تاسع عشر ربيع الأول **سنة خمس وثلاثين وألف** ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

خاتمة النسخة (د)

وكان الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة المباركة يوم السبت المبارك ، تاسع عشرين شهر شوال المبارك **سنة سبعة وثلاثين وألف من الهجرة النبوية** ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

غفر الله لمؤلفها وكاتبها وللمسلمين ، آمين آمين .

خاتمة النسخة (هـ)

وقد وافق الفراغ من كتابة هـٰذه النسخة المباركة في يوم الاثنين المبارك سادس عشر رجب الفرد الحرام الأصم ، **سنة تسع وخمسين وألف** ، علىٰ يد كاتبها العبد الضعيف الذليل أحمد بن المرحوم الشيخ علي الدنوشري الحنبلي ، لطف الله به ، وعامله بخفي لطفه ، ورحم والديه والمسلمين أجمعين ، آمين .

خاتمة النسخة (و)

وكان الفراغ من تعليق هـٰذه النسخة في أواسط جمادى الآخر من شهور **سنة اثنين وسبعين وألف** ، ختمت بخير ، آمين .

خاتمة النسخة (ز)

قال كاتبها العبد الفقير إلىٰ رحمة الله سبحانه وتعالىٰ يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل : **فرغت من كتابتها** صبيحة يوم الاثنين المبارك خامس شهر جمادى الأول من شهور **مئة وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية** ، علىٰ مهاجرها أشرف التحية ، وأسأل الله تعالىٰ أن يرزقني شفاعة النبي الكريم ومَنْ ذُكر في هـٰذا الكتاب من العلماء والصالحين ، آمين .

خاتمة النسخة (ح)

تمت في شهر صفر الخير سنة (١١٢١هـ) .

خاتمة النسخة (ط)

ووافق الفراغ من تعليق هـٰذه النسخة **يوم الاثنين** .

خاتمة النسخة (ي)

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه علىٰ يد أفقر العباد وأحوجهم إلى الله تعالى الفقير الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ؛ علي بن علي الشافعي مذهباً ، الأحمدي خرقة ، غفر الله له ولوالديه ، ولمن طالع في هٰذه الطبقات ، ولجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

وإن تجـدْ عَيبـاً فسُـدَّ الخَلَـلا وقلىٰ جلىٰ من لا فيه عَيبٌ وعلا[١]

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

خاتمة النسخة (ك)

قال : وكان الفراغ من كتابة هذا النسخة من خط المصنف رضي الله عنه في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الثاني ، سنة أحد وعشرين بعد الألف ، على يد الفقير الحقير أحمد بن علي الشبراهارسي بلداً، والشعراوي وطناً وتلميذاً وخرقة، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين، ولمن دعا له بالمغفرة، آمين اللهم آمين آمين .

* * *

خاتمة النسخة (ل)

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الأربعاء المبارك تاسع شهر الله المحرم الحرام ، افتتاح عام أربعة وأربعين بعد الألف .

وكتبها بيده الفانية ، الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عمر بن محمد الفيومي ، غفر الله له ولوالديه ولكل المسلمين ، آمين آمين .

* * *

---

(١) قوله : (وقلىٰ وجلىٰ) هكذا وقع في خاتمة النسخة (ي) ، والمعروف بدون : (وقلىٰ) ، والبيت بكماله :

وإن تجـدْ عيبـاً فسـدَّ الخللا جـلَّ مَـنْ لا عيـبَ فيـه وعـلا

إجازات وسماعات النسخة (أ ، ط)

بلغ الأخ الصالح العالم العلامة ، الشيخ نور الدين النجاري ـ نسبة إلىٰ قرية من قرى الغربية ، اسمها كوم النجار ـ نفع الله بعلومه ؛ قراءة لهـٰذه الطبقات المباركة من أولها إلىٰ آخرها قراءة بحث وتدقيق(١) ، وأجزت له روايتها وإقراءها وجميع مؤلفاتي ومسموعاتي بشرطه المعروف بين العلماء ، وحضر مجلس الختم من أول مشايخ الحنفية الأحياء إلىٰ ختامه جماعةٌ من العلماء والأفاضل :

منهم : الشيخ الإمام العالم مفتي المسلمين الشيخ أبو الفتح المالكي الدميري ، نفع الله به ، ومنهم : الشيخ الصالح العالم سيدي عمر الحنفي الشهير بابن الأمير ، ومنهم : الشيخ الصالح شرف الدين المادح في سيدي قمر الدولة ، ومنهم : سيدي كريم الدين الفوي الشهير بابن خليل ، وسيدي علي ابن القاضي بناحية المنصورة ، وسيدي أبو القاسم ابن العزي .

ومنهم : عبد العال الهلالي المقيم بالعينية ، وسيدي علي ابن الشيخ إبراهيم الشهير بابن الناظم ، وسيدي عمر بن أبي بكر الثابتي ، والشيخ عبد الرحمـٰن بن الشيخ عطية البهوتي(٢) ، وسلامة بن محمد السندبصطي ، وعلي التلباني النقيب ، والشيخ محب الدين البصير بن الشيخ شمس الدين البوصيري ، والشيخ عبد الله بن الشيخ زين الدين بن الجنيد القادري الأبشيهي ، وخلائق لا يحصون في جميع المجالس السابقة .

وأجزت لهم نفع الله بعلومهم برواية جميع هـٰذا الكتاب عني(٣) ، ويزيد القادري ، والشيخ أبو الفتح المالكي ، والشيخ عمر الحنفي علىٰ بقية الحاضرين إجازتهم بإقرائها

---

(١) في (ط) زيادة : (وتحقيق) بعد قوله : (بحث) .

(٢) في (ط) : (القهاوي) بدل (البهوتي) .

(٣) في (ط) : (رواية) بدل (برواية) .

لمن يرونه أهلاً لذلك ، والحمد لله الذي هدانا لهٰذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وذلك قبيل العصر من يوم الثلاثاء رابع شهر صفر الخير سنة إحدىٰ وستين وتسع مئة ، بمنزله بالمدرسة القادرية بخط بين السورين من القاهرة المحروسة .

تمت بحمد الله[1] .

* * *

(١) قوله : (تمت بحمد الله) : ليست في (ط) .

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الوسطى حسب ترتيب المؤلف

ذكر التابعين وتابع التابعين رضي الله عنهم

ذكر جماعة من عبّادِ النساء وزهّادهنّ رضي الله عنهن

ذكر أولياء الرجال

نبذة صالحة في ذكر أصحاب السطح

الباب الثاني

في ذكر جماعة من أرباب الأحوال

ممن لهم النظرة تغني المريد عن المجاهدة

القسم الثالث

في ذكر مناقب العلماء الذين صحبناهم

الباب الأول

في ذكر جملة من مشايخ الإسلام الذين أدركناهم وأخذنا عنهم العلوم من فقهاء ومحدثين ونحاة وأصوليين ونحوه

الباب الثاني

علماء الشافعية العاملين

* * *

فهرس أسماء مترجمي الطبقات الوسطى ألفبائيًا

- ب -

- ح -

- خ -

- د -

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ م ـ

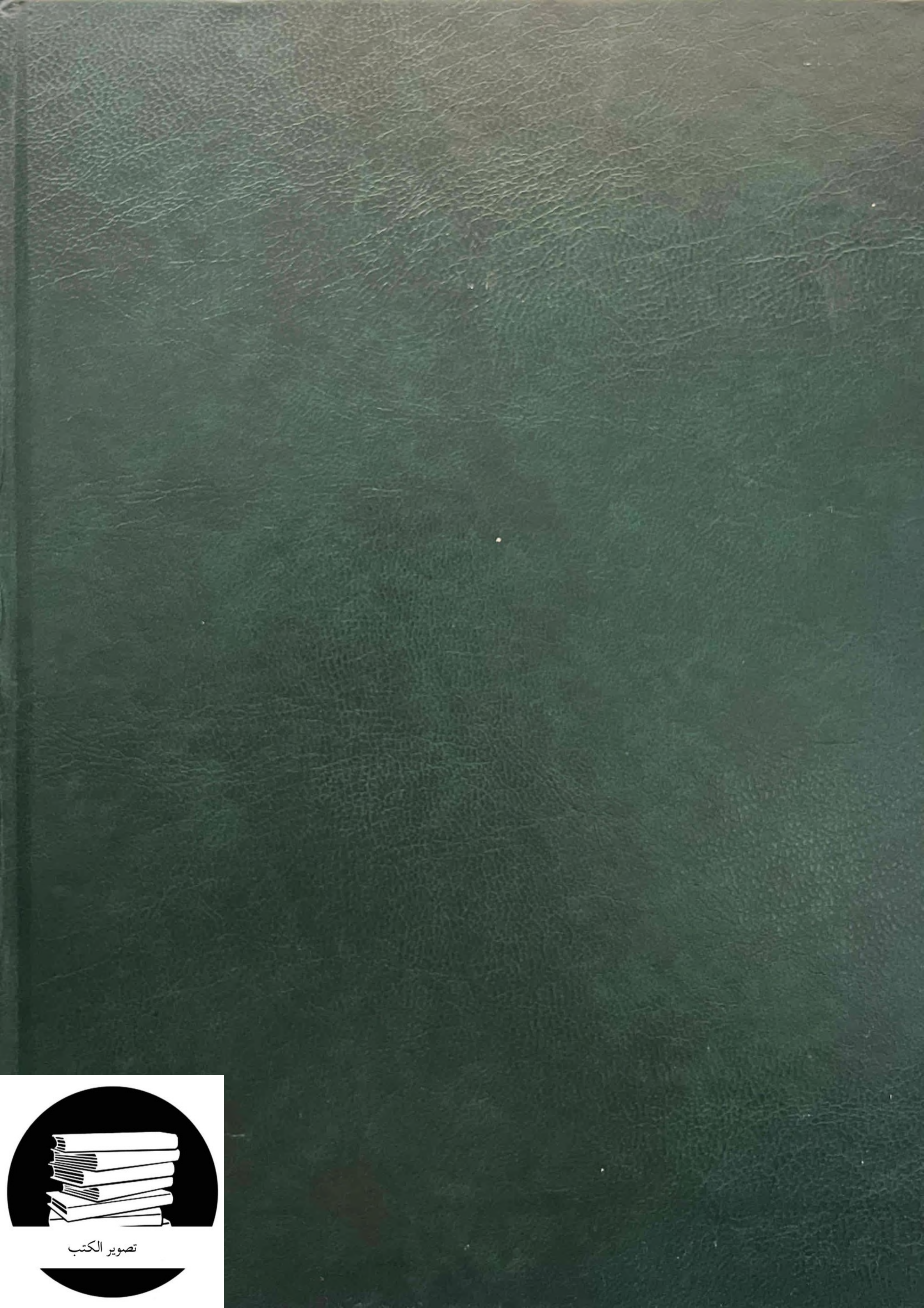
- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *


تصوير الكتب